



شعار أئمة علي أسس جنة عارضا - ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ

محمد حسين زيدان

---

الجزء الرابع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



كتاب الاثنينية

(٢٤)

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ

محمد حسين زيدان

الجزء الرابع

الناشر

عبدالمقصود محمد سعيد خوجه

جدة

ح) عبدالمقصود خوجه، ١٤٢٦هـ

## فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

زيدان ، محمد حسين

الأعمال الكاملة . / محمد حسين زيدان . - جدة ١٤٢٦هـ  
(٧ مج ٤٥٧٦ ص) الجزء الرابع ٧٧٢ ص ؛ ١٧×٢٤ سم (كتاب الاثنينية ٢٤)  
ردمك ٨-٧٣٩-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)  
٦-٧٤٣-٤٧-٩٩٦٠ (ج ٤)

١ - زيدان ، محمد حسين      ٢ - التاريخ الاسلامي  
٣- الأدب العربي-مجموعات      أ- العنوان  
ديوي ٩٥٣      ١٤٢٦/٢٠٣٢

رقم الإيداع : ١٤٢٦/٢٠٣٢

ردمك : ٨-٧٣٩-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)  
٦-٧٤٣-٤٧-٩٩٦٠ (ج ٤)

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

صدرت هذه الأعمال بمناسبة "مكة المكرمة" عاصمة الثقافة الإسلامية

حقوق الطبع محفوظة

الناشر

عبدالمقصود محمد سعيد خوجه

جدة

## فهرس المحتويات

..... النشر
..... ذكريات العهود الثلاثة
..... حياته .. وفكره .. وأدبه ..
..... ذكريات ومذكرات الذكريات
..... طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (١)
..... طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٢)
..... طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٣)
..... طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٤)
..... طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٥)
..... طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٦)
..... طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٧)
..... طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٨)
..... طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٩)
..... طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (١٠)
..... طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (١١)

- طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (١٢) .....
- طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (١٣) .....
- طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (١٤) .....
- طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (١٥) .....
- طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (١٦) .....
- طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (١٧) .....
- طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (١٨) .....
- طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (١٩) .....
- طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٢٠) .....
- طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٢١) .....
- طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٢٢) .....
- طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٢٣) .....
- طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٢٤) .....
- طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٢٥) .....
- طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٢٦) .....
- طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٢٧) .....
- طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٢٨) .....
- طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٢٩) .....
- طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٣٠) .....
- طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٣١) .....

.....	طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٣٢)
.....	طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٣٣)
.....	طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٣٤)
.....	طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٣٥)
.....	طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٣٦)
.....	طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٣٧)
.....	طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٣٨)
.....	طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٣٩)
.....	طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٤٠)
.....	طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٤١)
.....	طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٤٢)
.....	طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٤٣)
.....	طيبة .. رحلة في الزمان والمكان (٤٤)
.....	أيام وليال (٤٥)
.....	طيبة رحلة في الزمان والمكان
.....	ذكريات الزيدان
.....	محمد حسين زيدان
.....	مقدمة
.....	عبقري الكلمة المجنحة وفنانها ..
.....	محكمة الذات

الكاتب الكبير محمد حسين زيدان .....

محكمة الذات .....

صور .....

مقدمة .....

الإسلام والمسلمون .....

سياسة .....

شخصيات سياسية .....

عن العرب .....

اليهود .....

إسرائيل والولايات المتحدة .....

أدب ولغة .....

تاريخ وحضارة وآثار .....

ثقافة .....

تعليم وأخلاقيات .....

النفس البشرية .....

الحب .....

وسائل إعلام .....

صحافة وشخصيات صحافية .....

تلفزيون .....

الاقتصاد .....

..... طب

..... صور اجتماعية

..... الندادة

..... مُروءة

..... الأجيال

..... مرور

..... الجمال

..... حكايات وأحاديث

..... صور

..... خواطر مجنحة

..... المقدمة

..... خَواطر مجنحة

..... صُور!

..... خَلجات حين (تهوَبِر)

..... الهُروب

..... رأي!

..... الياسمين!

..... دُموع الحُب!

..... الواو في اللغة الشاعِرة

..... من ذكريات الصبا

واضمحل الحُب! .....

الأم .....

يا أمي! .....

بكاء الشاعر .....

من الترفيه .....

قسمة ونصيب .....

العايقة أم حجل .....

الحنين .....

تمر وجمر .....

عذرية الحُب .....

عافية الدموع .....

الفاغية والحادر .....

وما زال بها. . . ..

الوفاء للحُب .....

باطن الكف .....

الأرض .....

فهرس المحتويات .....

## النشر

## ذكريات العهود الثلاثة

## حياته . . وفكره . . وأدبه

هو محمد حسين زيدان، الأديب الكاتب، والخطيب والصحفي والمحاضر. وُلد بالمدينة المنورة عام ١٣٢٥هـ، وتخرّج بالمدرسة الراقية الهاشمية في عام ١٣٤٣هـ، وانخرط، منذ صباه، في حلقات العلم التي كان يعقدها كبار الشيوخ بالمسجد النبوي الشريف، فدرّس علوم: النحو، والفقه، والتفسير، والحديث، وغيرها.

وقد شغل «زيدان» العديد من الوظائف الإدارية والصحفية والعلمية والتربوية، فاشتغل بالتدريس في المدينة المنورة، في كل من «المدرسة السعودية»، و «دار الأيتام». وذلك في الفترة من عام ١٣٤٦هـ إلى عام ١٣٥٨هـ. وشغل بعض الوظائف الإدارية المختلفة، مثل: رئيس قسم الأوراق بوزارة المالية، فسكرتير مديرية الحج، إلى أن كان مساعداً للمفتش العام بوزارة المالية.

أما في حقل الصحافة، فقد كان الأستاذ محمد حسين زيدان مدير تحرير جريدة «البلاد» بجدة، فرئيس تحريرها، كما رأس تحرير جريدة «الندوة» بمكة المكرمة أيضاً. وهو الآن عضو بمجلس إدارة «دارة الملك عبد العزيز»، التي تعد بمثابة مركز للأبحاث التاريخية، هذا إلى جانب توليه رئاسة تحرير مجلة «الدارة»، وهي مجلة علمية محكمة، توجه عناية خاصة

للتراث التاريخي والأدبي، وتصدر بصفة فصلية، ولا يزال «زيدان» يرأس تحرير هذه المجلة حتى الآن.

### زيدان مؤلفاً:

وتتعدد مجالات النشاط الأدبي والثقافي لدى «زيدان» بين التأليف، وتحرير المقال الصحفي، والمقال العلمي، والحديث الإذاعي والتلفزيوني، والمحاضرة، سواء في الأندية الأدبية أم في المحافل الثقافية والمؤتمرات. وقد جمع الكثير من أحاديثه ومحاضراته ومقالاته في كتب حَمَلَتْ كُلَّ طريف شائق من العناوين، والمفيد الجادّ من الموضوعات. وأهم هذه المؤلفات الجامعة لإنتاجه:

- تمر وجمر، ويضم مجموعة من المقالات.
- حصاد عمر وثمرات قلم، ويضم بعض المحاضرات والمقالات، فضلاً عن طائفة من تراجم الصحابة وسير الأبطال.
- محاضرات وندوات في التاريخ والثقافة العربية.
- ثمرات قلم.
- صور.
- أشياخ ومقالات.
- كلمة ونصف.
- أحاديث وقضايا حول الشرق الأوسط. ولا يزال لـ «زيدان» عدد من المؤلفات قيد الطبع، منها:
- خواطر مجتّحة.

- الذكريات، مشاهدات ورحلات وذكريات.
- عبد العزيز والكيان الكبير.
- أما محاضراته التي شارك بها في مجالات ثقافية مختلفة، فمنها:
  - رعاية الشباب، وهي محاضرة ألقاها بجمعية الإسعاف بمكة المكرمة عام ١٣٥٨هـ.
  - الإسلام والحضارة، ألقاها بجامعة الملك فيصل عام ١٣٩٧هـ.
  - جمال الدين الأفغاني، ألقاها بنادي جدة الأدبي عام ١٣٩٧هـ.
  - بنو هلال بين الأسطورة والحقيقة، وهو موضوع ندوة علمية تاريخية، شارك فيها «زيدان»، وانعقدت في مدينة (الدوحة) بدولة قطر الشقيقة، ونظمتها الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب عام ١٣٩٧هـ.
  - العرب بين الإرهاب والمعجزة، بحث ألقاه بمركز دراسات الشرق الأوسط في كامبردج عام ١٩٧٦م.
  - رحلات الأوروبيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية، محاضرة ألقاها في قسم التاريخ، بكلية الآداب بجامعة الملك سعود بالرياض عام ١٩٧٧م.
  - ولا يخفى أن الاتجاه إلى البحث التاريخي، هو أبرز الاتجاهات وأغلبها على كتابات «زيدان» ومحاضراته.

### زيدان كاتب السيرة:

عالج «زيدان» فن السيرة في مجموعة من المقالات، جمعها في كتاب واحد، جعل عنوانه (سيرة بطل)، ضمّ تراجم تاريخية لطائفة من الصحابة والصحابيات، رضي الله عنهم، بلغ عددهم ستة وستين صحابياً و صحابية، من بينهم: قدامة بن مظعون، ومصعب بن عمير، وأم المؤمنين خديجة،

وسلمان الفارسي، وهند أم سلمة، وأسماء ذات النطاقين، وعبد الله بن جحش، وأبو دجانة، وعمرو بن عبسة.

ويهدف الكتاب، كما تشير مقدمته، إلى هدفين أساسيين، هما:  
- تلبية حاجة الأجيال إلى هذه السيرة، بما شخّصته من قيم روحية، ينبغي أن يستضيء بها الشباب المسلم، لبناء حاضرهم ومستقبلهم.

- أن يعرف شبابنا رجالَ تاريخه وأمته، بعد أن جهل سيرهم. يقول في المقدمة: «هذه باقة عطرة من سير صحابة رسول الله ﷺ، الذين نضّروا وجه التاريخ الإنساني بخلقهم وبطولاتهم ومثلهم، ننشرها اليوم، وقد أصبحت أجيالنا الجديدة، في كل شبر من عالمنا الإسلامي، في أمس الحاجة إلى هذا النور المبين، تمشي به عبر الظلمات الكثيفة التي تكتنفها، وتكتشف في ضوئه، زيف الحياة المادية والشعارات البراقة، التي تلعلع من حولها، وتستعين به لتخطيط حاضرها ومستقبلها».

إلى أن يقول: «وإنه لمما يحزن القلب أن يعرف شبابنا عن مشاهير الأمم، من شرق وغرب، أكثر مما يعرفون عن أبطال أمتهم وصنّاع تاريخهم الذين أضأوا الدنيا، وغيّروا وجه التاريخ».

أما عن منهج الكاتب في كتابة «السيرة» فإنه، في إيجاز، يقوم على:  
رسم صورة حياة بشكل موجز، مع إبراز أهم ملامح في حياة الشخصية ومواقفها وخصائصها، وذلك بعد أن يلم في البداية بنسب الشخصية ومكانتها.

وكذلك يتحرى الكاتب، في ترجمته، الوقوف عند مواضيع العبرة والتنبية إليها، مع عناية واضحة بربط سيرة الشخصية بالواقع المعاصر، والحاضر الذي نعيشه.

ولغة الكاتب تتوخى البساطة واليسر، مع الأداء البياني الذي يجعل قراءة السَّيرِ أمراً محبباً شائعاً. كما يلحظ قارئ هذه المجموعة من السيرة جودة إلمام الكاتب بعلم الأنساب وتاريخ القبائل العربية، والموازنة الحاسمة بين الأنساب المتشابهة، والتي يُدخِلُ التشابهُ بينها، في بعض الأحيان، اللبسَ على الدارسين، والقارئين على حدّ سواء. هذا إلى وفرة ما طالعه الكاتب ورجع إليه من المصادر، مع سعة المعرفة بالتاريخ الإسلامي: رجالاً ومواقف وأحداثاً وأنساباً.

### زيدان محاضراً:

سلفت الإشارة إلى أن الأديب «محمد حسين زيدان» يشارك بالمحاضرة في المحافل والندوات، وقد جمع بعض ذلك في كتاب عنوانه: «محاضرات وندوات في التاريخ والثقافة العربية».

وعنصر التاريخ، كما يتضح من العنوان، هو الغالب، وهو مزيج من التاريخ العربي والتاريخ الإسلامي. وملتقى في هذه المحاضرات بتلك العناوين:

- رحلات الأوروبيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية.

- بنو هلال بين الأسطورة والحقيقة.

- العربي بين الإرهاص والمعجزة.

- الإسلام والحضارة.

- العرب وجزيرتهم.

ومحاضرتَه عن «رحلات الأوروبيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية» تكشف عن الدور المريب الذي لعبه الرحالة الأوروبيون لدراسة شبه الجزيرة

العربية من النواحي الاجتماعية المتعلقة بحياة البدو بصفة خاصة، والناحية الدينية المتصلة بالحج ومناسكه. ولما كان هؤلاء الرحالة غير مسلمين، ومن ثم لا يُسمح لهم بارتداد مكة والمشاعر، أو زيارة المدينة، فقد اضطروا إلى اعتناق الإسلام كذباً وزوراً، كما أتقنوا اللغة العربية، ودرسوا الإسلام وارتدوا ملابس البدو، كما وثّقوا علاقتهم بالبدو، وكسبوا صداقتهم وثقتهم. وقد تناول هؤلاء الرحالة بالدراسة «الحركة السلفية بقيادة الشيخ محمد بن عبد الوهاب»، وأثرها في شبه الجزيرة العربية، والدور الذي قام به «محمد علي» في التّيل من الحركة السلفية الإصلاحية، والتي كان لها تأثير عميق في حياة الشعوب الإسلامية، وإنشاء أول دولة إسلامية في العصر الحديث، تحتكم إلى شريعة الله. وأهمية هذه المحاضرة تتمثل فيما يلي:

- كشفت عن واحدة من الوسائل الخبيثة التي مارسها الأوروبيون ضد المسلمين المعاصرين، ووقائع حياتهم الاجتماعية والدينية.
- استشعار الأوروبيين الخطر الذي يتهددهم، ويفسد عليهم مخططاتهم، من جراء حركات الإصلاح واليقظة الإسلامية، وتقديرهم لحجم الخطر الكامن في الدعوة السلفية.
- علاقة الرحالة الأوروبيين بقيادة الحركة الاستعمارية، وبخاصة نابوليون والحملة الفرنسية على الشرق العربي، وخضوع هذه الرحلات للتخطيط والتوجيه والتمويل.
- إن معلومات الرحالة الأوروبيين عن العالم العربي بعامة، وشبه الجزيرة العربية بصفة خاصة، كانت مفيدة للغاية في توجيه الحملة الفرنسية، وتحقيق الكثير من أهدافها.

أما محاضرة «زيدان» عن بني هلال والهلاليين، فعنوانها «بنو هلال بين الأسطورة والحقيقة». إن أهم ما يقدمه «زيدان» للمثقف العربي، يتمثل في الدور الذي اضطلع به الهالليون في تعميق حركة التعريب العرقي واللغوي، سواء في مصر أم في دول الشمال الإفريقي، خلال القرن الخامس الهجري وما بعده.

لقد استقرت قبائل «الهلالية» بمصر، بعد أن قَدِمَت إليها موجة إثر موجة، وتحركت بعد هذا إلى بلدان المغرب العربي منذ عهد «المعز الفاطمي»، حين أغرى قبائل الهلالية بغزو «القيروان» للقضاء على دولة «الصنهاجيين»، الذين أعلنوا المذهب السني بديلاً للمذهب الفاطمي الشيعي، وخلعوا طاعة الخليفة الفاطمي في القاهرة.

وتتلخص أهمية هذه المحاضرة فيما يلي:

- أن موجة بني هلال تمثل، بالنسبة لمصر، الموجة العربية الرابعة، منذ موجة الفتح الإسلامي.
- أن الهلاليين عرب من بني قيس، قدمت موجاتهم إلى مصر من (نجد)، التي أدت مع سائر مناطق شبه الجزيرة العربية دوراً تاريخياً بارزاً في سبيل تعميق الوجود العربي: عرقياً، ولغوياً. وبالتالي عمّقت الوجود الإسلامي، المرتبط بالوجود العربي دائماً.
- أن «الهلالية» ليست أسطورة، بل هي حقيقة، ودورها في المنطقة العربية دور أصيل.

ومن الواضح أن بحث «زيدان» عن «الهلالية» قد أفاد كثيراً من النتائج التي توصل إليها مؤرخ تونس الكبير الراحل «حسن حسني عبد الوهاب» في كتابه «ورقات عن الحضارة العربية في إفريقيا». إذ كان من أوائل المؤرخين

المعاصرين الذين نبهوا إلى دور «بني هلال» في حركة التعريب، بعد أن اقترن خراب القيروان بالهلاليين.

ولو شئنا أن نخلص إلى رؤية شاملة لكتابات «زيدان» التاريخية ومحاضراته، لقلنا: إن هذه الكتابات والمحاضرات تحرص دائماً على الارتباط بهدف معين، هو تأصيل الانتماء العربي الإسلامي، ووصل الماضي التالد بالحاضر الواعد، وحث الشباب، بخاصة، على قراءة تاريخه واستطلاع تراثه. لأن الأمة التي تجهل تاريخها، تجهل طريقها.

### زيدان والمقال السياسي:

عالج «زيدان»: «المقال السياسي»، كما عالج ألواناً شتى من المقال، على نحو ما سوف نبين فيما بعد، فأصدر كتاباً كاملاً، جمع فيه ما نشره مفرقاً من مقالاته السياسية، وأهمها:

- إسرائيل والواقع العربي.

- الصراع بين الاتحاد السوفياتي، والولايات المتحدة الأمريكية.

- أساليب الاستعمار المعاصر في الاتجار بالسلاح.

- الخطر الشيوعي.

- كامب ديفيد ومكامن الخطر فيها.

وأول ما نسجله من الملاحظات على «مقال زيدان السياسي» أنه وثيق الارتباط بالحاضر العربي، وبما يجري على الساحة العربية من الأحداث. ومن هنا يأتي مقاله السياسي تعليقاً على هذه الأحداث، وتحليلاً لها، ونقداً للانحرافات، نقداً مغلفاً في أسلوب ساخر لاذع.

و«زيدان» الذي يهتم بالتاريخ، ويخصه بالأبحاث، لا يفوته أن يمزج

«المقال السياسي» بالتاريخ، ويردُّ ذلك عنده على صور شتى: منها، على سبيل المثال، بدؤه مقاله بذكر حادثة سياسية، ثم الانطلاق من هذه الحادثة القديمة إلى موقف حديث يناظرها، فيحلل ذلك الموقف، ويعقد الأواصر بين الماضي والحاضر. وقد لا تكون الإشارة التاريخية، لديه، نقطة البداية، بل ترد في ثنايا المقال، مع الموازنة والمقارنة.

وهكذا يتحول «التاريخ» في «المقال السياسي» عند «زيدان» إلى درس آخر، يؤصل لديه الرؤية السياسية ويعمقها ويجعل «المقال السياسي» لديه أكثر من مجرد محاولة للتعليق على الأحداث والأخبار، عربياً وعالمياً، بل هو درس يبقى بعد زوال الحدث، ليصبح امتداداً حياً في واقع الأمة.

ثمة ملحظ آخر عن «المقال السياسي» لدى «زيدان»، وهو عنايته بالحدث العالمي، وعنايته بالحدث العربي، وتناوله الحدث العالمي، من وجهة نظر المثقف العربي، مع الربط بين الحدث العالمي، والواقع العربي في حلقة واحدة.

ومن خصائص مقال «زيدان» بساطة الأداء اللغوي، مع مزج التحليل والتعليق بروح الدعابة التي لا تخلو، في الكثير من الأحيان، من السخرية اللاذعة.

كذلك يحرص «زيدان» في مقاله السياسي على العنوان الطريف المثير،

مثل:

- استرخاء موسكو وتوتر واشنطن.

- لمسات، ورفعنا لك ذكرك.

- تجارة السلاح بلطجة.

- من المؤامرة إلى المغامرة .
- منحة التوقيت . . نعمة التوفيق .

## زيدان والمقال الاجتماعي

عالج «زيدان»، من خلال «المقال الاجتماعي»، العديد من الموضوعات الاجتماعية، التي تُصوِّرُ وتُنقِّدُ بعضَ التقاليد والعادات، والظواهر الاجتماعية العارضة، مع الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي. ومن بين القضايا الاجتماعية التي تناولها: المغالاة في المهور، الإقبال على الاقتران بالرجل الثري، دون النظر إلى الاعتبارات الأسرية، بعض مظاهر أنانية الآباء في معاملة الأبناء. . الخ.

ويميل الكاتب، في مقاله الاجتماعي، إلى التركيز والإيجاز وتحري الواقع وصدق الوقائع، كما يغرم كثيراً بأسلوب الحوار، يلجأ إليه ويمزج به الصورة الحية النابضة، بما يضيف على المقال ملامح قصصية، ويشد إليه قارئ الصحيفة، ويكشف، في الوقت ذاته، عن حس فني لدى الكاتب، يعينه على تجسيد الفكرة الاجتماعية.

كما يلجأ الكاتب، في بعض الأحيان، إلى استخدام الكلمة العامية والتركيب العامي، حتى يضاعف من الطاقة الجاذبة للقارئ، ويقترب بقلمه من الواقع، هذا إلى نزوعه نحو الفكاهة، التي يستعين بها أحياناً في النقد الساخر المغلف.

في مقال له عن نقد بعض العادات المتبعة في حفلات العرس، يقول: « . . ونسأل الله أن يتم على العرائس والعrsان نعمة الفرحة في ليلة العمر، وفي أيام العسل، وفي الأيام التالية، من عمر مديد وحياء سعيدة. يغلبها بالمال، وتغلبه بالعيال، ويتغلبان على حياة زاخرة بالمتغيرات والمتناقضات،

بالعلم والمعرفة والصبر والشكر. مقدمة لا بد منها، ندخل بها على الأمهات والآباء. فهم يأبون إلا (الزينة والزمبليطة)، تكثر فيها المصاريف ذاهبة هباء، لو صانوها لصانوا الكثير من المريح والمفرح والمعين..!»!

### زيدان كاتب الصّورة:

مارس الكاتب تحرير لون من ألوان «الكتابة الصحفية»، يمكن أن نطلق عليه «الصورة»، أو «اللوحه»، وذلك إلى جانب المقال، الذي أوجزنا الحديث عنه فيما سبق. وهو، عادة يُعنونُ لهذا الشكل: أي الصورة، بعنوان «صور..».

وقد خص بهذا الشكل الثري كتاباً كاملاً، جعل عنوانه «صور».. كما لم تخل منه سائر ما جمعه من الكتب الأخرى، مثل: ثمرات قلم، وكلمة ونصف، وأحاديث وقضايا حول الشرق الأوسط. وفي كتابه «صور»، الذي اختصه بهذا الشكل الثري، يحاول أن يحدد لنا المقصود من لفظ «صور»، فيقول: «إن هذه الصور قالة من مقالة، كليمه من كلمة، قد يكون فيها الكلم لمن تجرح، وقد تكون قالة من مقالة، كليمه من كلمة، وقد تكون لما هو أكثر، أو لما هو أقل، هي بضاعة مزجاة، فعسى أن تلقى القبول».

وإذا كانت تلك السطور لا تعطينا مفهوماً محدداً لفن «الصورة» لدى الكاتب، فبوسعنا أن نتعرف هذا المفهوم من خلال قراءة مستقصية، تستخلص الخصائص، وتحدد هذا المفهوم. فالصور على هذا لمحات قصار تتابع في موضوعات شتى، من الدين إلى المجتمع إلى الأدب إلى السياسة، وغير ذلك.

وقد تكون هذه الصورة تسجيلاً لذكرى من ذكريات الكاتب، أو لخاطرة

عابرة، أو لفكرة مقروءة، ألّم الكاتب بها فيما يلّم به من مطالعته، وقد تكون خبيراً من الأخبار السيارة، أو حقيقة تاريخية أو علمية.

أما من حيث الشكل فهبي، إلى جانب التنوع والاستطراد الموضوعي، تتسم بأنها أقصر، وأكثر تركيزاً من الشكل المقالي، الذي اعتاد الكاتب ممارسته.

كذلك قد تكون الصورة حواراً خالصاً، أو حكاية خالصة. كما قد تكون سرداً مباشراً مجرداً من الحوار أو القص. هذا إلى جانب عناية الكاتب، في الأعم الأغلب من «صوره»، بعنصر التصوير، حيث يكون حظُّ صُورِهِ منه أوفر من حظ المقال.

وإذا كان البحث العلمي عند «زيدان» قد اتسم بالرصانة وعكس لنا تنوع المعرفة، مع عناية خاصة بالتاريخ، فإن «المقال الصحفي» لدى الكاتب، قد اتسم بالخفة والظرف أيضاً، وعكس لنا «الحس الفني» لديه، مع ارتباط واضح بالواقع المعيش، إقليمياً، وعربياً، وعالمياً. اجتماعياً وسياسياً ودينياً. ومن هنا تنوعت منازع القول والتعبير لدى «زيدان» سواء من جانب المعرفة العقلية، والوجدانية الفنية، كما تنوّعت وتباينت، في الوقت نفسه، ثقافته ومعارفه، في مصادرها ومواردها.

## المواضيع:

لعلّي حريص على أن أعطي القارئ صورة عن هذه الذكريات ليعرف ماذا أكتب؟ ولأعرف من القارئ بعض ما نسيت أو ما جهلت ليمدني بما يعلم، بل وأكثر المدد أن يصوب ما أخطأت فيه، لهذا أطبع فهرسة لمواضيع هذه الذكريات أتقيد به ولا أقيد أحداً، وقد ينفك القيد عني إذا ما بصرنني قارئ بما يعرف أكثر مني، وإليكم المواضيع:

- ١ - جغرفة المدينة .
- ٢ - النشأة في المدينة .
- ٣ - المدينة عدة مدن .
- ٤ - المجتمع والعادات .
- ٥ - الأمن حولها والخوف حولها .
- ٦ - انفصام بين الحاكم والحاضرة .
- ٧ - الخصام بين الحاضرة والبادية .
- ٨ - الكتاتيب والمدارس .
- ٩ - المسجد وعلمائه .
- ١٠ - الحكم العثماني .
- ١١ - عهد عبد الحميد، عهد رشاد، طورانية الاتحاديين والتتريك .
- ١٢ - فصل المدينة عن إمارة مكة وعلي رضا الركابي .
- ١٣ - السكة الحديد .
- ١٤ - التلفون، اللاسلكي .
- ١٥ - الثورة العربية .
- ١٦ - ترحيل أهل المدينة إلى الشام، الحمى الراجعة لا التيفوس .
- ١٧ - حماقة أن كان المسجد مستودعاً للذخيرة .
- ١٨ - فخري باشا، بصري باشا ما كان يعرف شيئاً عما يجري حوله في المدينة .

- ١٩ - القلعة أكبر مستودع للسلام الثقيل .
- ٢٠ - تركة محمد علي والمدينة، الوحاق، المخزن، الأروب .
- ٢١ - حصار المدينة .
- ٢٢ - ابن الرشيد حجز عن عون فخري باشا .
- ٢٣ - النعيم .
- ٢٤ - قبائل نجد والثورة وموقف الملك عبد العزيز .
- ٢٥ - حكم الأشراف .
- ٢٦ - في المدينة حكام ثلاثة .
- ٢٧ - جيش الأشراف مجموعة مرتزقة .
- ٢٨ - التكارنة وتجنيدهم، الألفا هاشم في العهود الثلاثة .
- ٢٩ - أشياخ، عبد الجليل برادة، الأسكوبي، أنور فشقي، شعراء العمري، الشلبي، حمزة غوث، بدر الدين النعنهاني، جريدة الحجاز .
- ٣٠ - حصار الجيش السعودي للمدينة، حصانة الملك عبد العزيز، رحمته للمدينة قبوله التحدي، الأمير محمد بن عبد العزيز يدخل المدينة سلماً يؤسس الحكومة بعض الرجال الذين عهد لهم الأمير محمد، إمارة المدينة وكلاء الإمارة .
- ٣١ - فتح المدرسة، أحمد كماخي، الشلبي، فأحمد صقر، فمحمود الحمصي، فتحت مدارس: دار العلوم الشرعية دار الأيتام . مدرسة النجاح .
- ٣٢ - مدارس بعض أهل المدينة بإذني ورجعوا بتكريم .
- ٣٣ - عمر كردي وزين العابدين في حديث لا بد منه عن نهضة الحسين .

- ٣٤ - الملك عبد العزيز والمدينة .
- ٣٥ - الفتن وكيف قضى عليها عبد العزيز ليتم الكيان الكبير .
- ٣٦ - معاهدة الطائف .
- ٣٧ - جميل مردم يتكلم ، شكيب أرسلان يتكلم ، شكري القوتلي ، موقف الملك فؤاد ، علي ماهر ، عبد الرحمن عزام ، محمد الباسل .
- ٣٨ - أحمد زكي شيخ العروبة ، محمد حسين هيكل ، أهل الإيجاب ، الملك فاروق في رضوى .
- ٣٩ - المحمل المصري انتهى الجراية والصدقات واليد العليا يد عبد العزيز .
- ٤٠ - رحلتي للهند .
- ٤١ - قدومي إلى مكة والوظائف فيها وفي الخرج والتقاعد والعمل والصحافة والإذاعة والتلفاز .
- ٤٢ - عبد الله السليمان ، محمد سرور الصبان ، يوسف ياسين .
- ٤٣ - العويني وإبراهيم شاکر وبكر ناظر ، فؤاد حمزة ، حافظ وهبة .
- ٤٤ - رجال وأحوال ومجال ومال تلك الخاتمة .
- ٤٥ - وأخيراً أستاذي الأول سوق الحراج .

## ذكريات ومذكرات

### الذكريات

- الذكريات .. جغرفة لأرض المدينة المنورة
- مدينة داخل السور .. وأخرى خارجها
- فخري باشا أخفى السلاح والذخيرة في المسجد النبوي!

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان ( ١ )

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة، كما أنها مشاهد تاريخية، ليس القصد منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية، العهد الحميدي، والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية. فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام، ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحبباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون. . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

### بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله فاطر السماوات والأرض. أنعم على المدينة المنورة بنعم شتى، فالهجرة إليها والنصر منها والإيمان يأرز إليها، ضمت جسد رسول الله ﷺ، إذ توفي فيها، كما ضمت الصحابة الأجلاء أنصاراً أو مهاجرين.

والحمد لله أن كانت المدينة المنورة الدار والإيمان، لا ينشق عليها إلا ظالم لنفسه، ولا يتجنى عليها إلا من حرم نعمة الحب لتربة الحب،

فالمدينة الحب أحببت من هاجر إليها، وأهلها أحبوا من هاجر إليها. والذين هاجروا كانوا هم الحب لها، وكانت المأوى والنصر.

فمن حق المدينة عليّ أن أكتب ذكرياتي عما شاهدت، وما عرفت، وكيف رأيت من أحوال وأحداث وما عرفت من رجال. ولن أقتصر في ذلك على الشناء والإطراء، بل من حق المدينة أن لا يدفن تاريخ الذين أساءوا إليها، والذين أجحفوا بها، حتى إنهم قد نزعوا من أنفسهم الحرمة لأرض الاحترام. فهل هناك مسلم ليست عليه بصمة المدينة المنورة، هداية ونصراً وعلماً وأدباً؟.. فكيف تسنى لإنسان أن يلطخ هذه البصمة، يحيل الغرة البيضاء إلى لطفة سوداء؟!

كل هذا أرجو أن أوفق لكتابته في فصول متعددة عن المدينة ومن إليها وما إليها، وفاء بحقها، وحياء لبعض التاريخ، وتاريخاً لحياتنا من عاشوا للمدينة، ومن لم يعيشوا إلا على هامشها، فآخرين بأنهم الأبناء وما دروا أنهم لم يفعلوا وفاء الأبناء.

وهذه الذكريات تباطأت أن أكتبها، فحق علي اللوم والعتاب من الصحاب والأصدقاء، إذا ما سمعوا حديثاً تحدثت به إليهم قالوا.. أكتب. لماذا لا تكتب؟ بعضهم خطائي وبعضهم جرميني، ولئن اعتذرت عن الخطأ في وقت ما فإنني شاكر هذا التأخر، لأنني لو كتبت من قبل لذهب الكثير مما أنا قد أحطت به علماً وفقهاً وفهماً.

فالبركة أن تأخرت، وما أحسن أن أرفع الخطأ وأرفع الجريمة، أبدأ أكتب هذه الذكريات.

## جغرفة المدينة

المدينة المنورة روضة، غدِير كبير، مجمع أبقةة. فالروضة والغدير وبقيع الغرقد وبقيع الخيل، كل هذا لأنها قد حصرت من الجنوب بالحرّة المستعرضة، ومن الشرق بذراع الحرّة «حرّة قريظة»، ومن الغرب الذراع اليسرى «حرّة واقم». أما الشمال فالانسيّاح حتى أجد وحتى الغابة.

إن هذا الحصر للروضة، أعني الغدير. أما المدينة المتسعة فهي أعرض وأكبر من ذلك، فبعد الحرّة شرقاً تمتد، وبعد الحرّة غرباً لا تحد، وشمالاً لها المدد. أما الجنوب فهو متسع لها وإن هذه الجغرفة كانت هي الحافظ للمدينة المنورة، فهي لا تغري من الجنوب، لأن الخيل والجمال ليس لها مجال على الحرّة ميداناً يصلح لحرب. وكذلك من الشرق مثل الجنوب. ومن الغرب أيضاً، وبرهان ذلك أن غزوة أحد كانت في الشمال، أي في المتسع حيث لا حاجز. وغزوة الأحزاب حدد النبي ﷺ مكانها، هو وجيشه بين الخندق و«سّلع» في شمال المدينة الأقرب إلى غرب المدينة الأبعد، فاضطر المشركون أن يكونوا في مواجهة الخندق، فإذا هم في ملتقى العقيق ببطحان وقناة. أي كما قال المؤرخون «ونزل المشركون في زغاب مجمع الأسيال برومة»، في مواجهة الجيش المسلم. ونزلت غطفان بقيادة عيينة بن حصن الفزاري في أعلى العيون بين أحد ومجمع الأسيال.

إن المدينة المنورة تحاط بوديان ثلاثة، بطحان «رانواء» يمر وسطها، يسيل من أعلى الحرّة، مسياله الآن بين قبا وقربان. ووادي العقيق غرب المدينة، يعانق الحرّة الجنوبية، يمر بينها وبين جبل «عَيْر» ينساب إلى وجهته بين الجماء وحرّة واقم. ووادي قناة يسيل من شرق المدينة يملأ «العاقول» الغدير البحيرة، يمر بين أحد والحزوم التي تشرف عليه.

فهذه الوديان الثلاثة تجتمع في «زغابة» تسيل وادياً متحداً، عندها يصبح اسمه وادي الحوش، يسيل إلى الغابة، يأخذ روافده من شعاب أحد، ثور ونقمة، حتى يجانب رضوى، يمر بين خيفين من خيوف ينبع النخل «المبارك» و «البركة»، حتى يصب في البحر. فقد ذكروا أنه حول «الوجه».

فهل هذه الجعفرة، بالنسبة للوديان، لها فائدة علمية، أم إنها لا تزال ناقصة؟ لا أعرف مسيلها الأول، ولا الشعاب التي تمدها، لو سئلت عن مسيل قناة الأول لما عرفت، وعن مسيل العقيق لما أجبته، كما هو الوضع في كل الوديان.

ولقد بح صوتي وأنا أطالب الجامعات ووزارة الزراعة والمياه أن تجرف لنا الوديان والجبال والواحات وما إليها في أطالس ننتفع بها. ولعلّ عند وزارة البترول والثروة المعدنية ووزارة المواصلات المادة العلمية من خلال الكشوف التي قاموا بها حين صوروا الأرض بالطائرات.

### مدينة . . أم مدائن؟!!

اسمها مدينة واحدة، ولكن وضعها جعلها عدة مدن. اختلاف السكان، الفصام بين السكان، كل ذلك جعل الساحة وذاروان وحرارة الأغوات ومقعد بني حسين وسويقة، والمسجد داخل السور، كأنها مدينة وحدها.

وكأنما السور حجز الذين عاشوا داخله في هذه الحارات على طراز معيشي ولهجة خاصة ونوازع ملتزمة وعنعنات فاخرة، بل وحتى أنواع الآكال جعلتها مدينة مستقلة.

واتسعت المدينة خارج السور، فقد كان هناك التزام ألا يقام في المناخة بناء، حتى إن سوق الحبابة والتمارة والطباخة والبقالة وبعض المقاهي وعشة

المحتسب (البلدية)، كلها لم تقم على بناء من المدر يفرض له الثبات، بل أقيمت كلها على عشم وصناديق يمكن إزالتها. وجمعت كلها في مناخ واحد خارج السور أمام الباب المصري لا تمتد إلى الشمال، وكل امتدادها إلى الجنوب، بل ولا تمتد إلا قريباً من مسجد المصلى «مسجد الغمامة»، فبقيت المناخة سوخاً، مقراً لجمال الحجيج والشقائف وما إلى ذلك. وكان ذلك احتراماً للمناخة، لأنهم قالوا لنا إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد جعلها وقفاً، منع البناء فيها.

واتسعت المدينة فإذا البناء يتسع لأحوشة، في الجنوب المحمودية، حوش منصور، المراكشية، التاجورية، التاجورية، كلها في الجنوب لا تصل إلى المناخة، وخارج السور في الجنوب على سمت المنظم نشأت البربورية وأحوشة النخالة. وكان لوقاية هذه الأحوشة في الجنوب أن تقام حواجز لسيل بطحان «أبو جيدة»، فهذا السيل أو هذا الوادي كثيراً ما يأتي عرماً، وكان تسيله يظاً هذه الأحوشة التي في الجنوب الغربي ابتداء من حوش منصور إلى التاجور والتاجورية، وأول ما يظاً المحمودية والمراكشية والطبية.

وأقيمت تلال من الجص تصد السيل لثلا يظاً هذه الأحوشة، والذي أقام هذه التلال من الجص كان جيدة جد آل برادة، ولعلّي أضيف معلومة أن بيت برادة أسرة قديمة في المدينة هاجروا إليها من القيروان؛ وكان منهم علماء، ومنهم أصحاب قيم في المدينة المنورة، من أشهرهم عبد الجليل برادة العالم وعباس برادة أحد أشياخ المدينة وكان رأساً على «الوجاق» الرابع وسيأتي فصل خاص عن هذه الوجاقات.

وحين أقيمت هذه التلال تصد السيل انساح في مجراه الجديد بين

المشرفية وهذه التلال وبين صمد العنبرية «النقا» وبين مسجد الغمامة، يسبل حتى يصل إلى المساجد مجراه الطبيعي الأول.

ومعنى ذلك أن الأحوشة في جنوب المدينة المنورة قد حفظت من وطأة السيل، كما حفظت المناخة والأحوشة التي في الشمال الغربي لأن مجراه الأول يطأ بقيق الخيل، كأنما المناخة أولها بقيق الخيل.

وهناك خطأ عن بقيق الخيل، ففي بعض النصوص أن مسجد الغمامة «المصلى» هو بجانب البقيق، فحسب بعضهم أن مسجد الغمامة في شرق المدينة أي بجانب بقيق الغرقد. وهذا خطأ، فهو على الشرق من بقيق الخيل.

وحين تحاشوا البناء وسط المناخة بنى أعيان من المدينة المنورة خارج السور وعلى غرب المناخة بيوتاً لهم، كبيت البري على حافة النقا «العنبرية» وبيت الياس وبيت الكردي الكوراني والداغستاني وإبراهيم المفتي، بنوا بيوتهم على حافة المناخة، وكان هذا أول ما بنى خارج السور لأن هؤلاء الأعيان من سكان المدينة الأقدمين.

واتسع البناء مرة أخرى، فنحو الغرب كانت أحوشة العنبرية، حوش سنان (شنان) وقصر مراد باشا الذي تهدم وحوش مناع وأبو ذراع والسلطانية، سواء ما كان على النقا أو ما بنى غرب سيل أبو جيدة.

وابتنوا بيوتاً أيضاً على حافة السيل فيما يسمى النورية، امتداداً لبيوت السيح، ثم بنى زقاق الطيار، حوش قره باش (الرأس الأسود)، حوش وردة، حوش خير الله، حوش قمر، حوش شلبية، حوش هتيم، حوش السمان، أم الورد، المجزرة.

واتسعت المدينة من الشمال الغربي فكان حوش خميس، القشاشي،

الصدريقي (علي خضر)، حوش السيد.

وكانت هذه الحوشة امتداداً لزقاق جعفر والبيوت التي حولها.

وبعد وصول السكة الحديد وكثرة المهاجرين اضطر بصري باشا إلى فتح الباب المسمى باسمه يهدم السور ويفتح الباب ليتصل سكان باب المجيدي والسحيمي عن طريق يمرون من الساحة أو من زقاق الحبس ليخرجوا من هذا الباب وليدخلوا منه، لأن البناء ابتداءً في باب المجيدي، فبنيت بيوت كثيرة.

وقبل باب بصري، وحين ابتداءً السلطان عبد المجيد العثماني بعمارة المسجد النبوي الذي تمثل عمارته ما هو باعد الآن ابتداءً من باب الرحمة وباب جبريل إلى المحراب والروضة وباب السلام، فالبناء الجديد في العهد السعودي هو من شمال باب الرحمة شيل الحصوة وما بعدها إلى الشمال. ولكي تصل مواد العمارة في العهد الثاني - إلى المسجد فتح باب المجيدي من داخل السور قبل باب بصري.

من هنا بنى عثمان باشا بيوتاً باسمه، قام على بنائها وكيل عنه محمد حكيم واتسع البناء حول بئر «حاء» أول وقف خيرى في الإسلام أوقفها صاحب رسول الله ﷺ أبو طلحة.

هذا الاتساع جاء من كثرة المهاجرين الذين بنوا هذه البيوت، مغاربة وتركستانيين وأناضوليين ومصريين ونجديين. ويعني ذلك أنهم جاءوا بمال، هاجروا من أرضهم بأموالهم فأفتنوا وبنوا. أما الأفارقة السمر ونسميهم في المدينة «التكارنة»، وهذه اللفظة محرفة عن لفظة «دكرو»، فالعرب الأوائل يطلقون على إفريقيا «أرض دكرو»، وانحرفوا عن هذه اللفظة في مصر فكانوا يسمونهم أخذاً من لغة الفرنجة «نيقرو»، فقد هاجر من هؤلاء

الأفارقة إلى المدينة كثيرون جاءوا للحج فسكنوا المدينة وكان لهم صولة تحت زعامة الشيخ الألفا هاشم، لأنه حفظ بقاءهم في المدينة لا يخرجهم فخري باشا منها، فتم للألفا هاشم الفوز حين رضي فخري باشا أن جعل هؤلاء «التكارنة» جنوداً دربوا فكان منهم ضباط كبار. كما أنهم بقوا جنوداً في حكم الأشراف حتى أصبحوا هم الحراس لأمير المدينة الشريف علي بن الحسين.

إن هذا التنوع في سكان المدينة له ما بعده فيما يتم شرحه في الفصول التالية.

## الأحواش

ولعلّ من الجغرفة للمدينة المنورة أن نحيط القارئ بما تم من سعة لها وذلك حينما أضع أمامه اسم الحوش ولماذا بني.. وما أكثر عددها.. حين كانت المخافة مسلطة من البادية على الحاضرة وأحيطت المدينة الأولى بالسور بنوا بيوتهم داخل أحواش، خلف البيوت سور وواجهة البيوت على الحوش، فالمدينة داخل السور لم تخل من الأحوشة حذراً واحتياطاً وصوناً.. فبداخل السور وعلى أول الساحة حوش الباشا، ولعلّ نسبته كما سمعت إلى عبد الرحمن إلياس.. وأكثر سكانه من أهل القصيم.. ثم حوش فواز وسقيفة الأمير وزقاق الطوال وزقاق الحبس وحوش الجمال.. وبعد الخروج من الساحة جنوباً بشهان العينية، وقد كان مغلقاً داخل السور ولكن فتحه فخري باشا ينصب في وسطه قضبان السكة الحديد.. يدخل منها القطار إلى المسجد.. يحمل السلاح والذخيرة، أي إن فخري باشا جعل المسجد النبوي مستودعاً للذخيرة لأنه يخاف من طائرات الإنجليز حلفاء العرب حينذاك أن تلقي قنابلها على القلعة، فكان من حماقة الرأي أن

جعل المسجد النبوي أي في شماله مستودعاً للذخيرة.. وهو لم يحسب حساباً أن قائد الطائفة الإنجليزية إذا ما أراد أن يدمر الذخيرة لا يسأل عن المسجد. وبعد العينية سقيفة الرصاص، زقاق الزرندي، زقاق الخياطين، ثم إلى الجنوب «بروان» أي «زاروان» لأن البيوت بنيت وبقي هذا الاسم لأنه كان يطلق على بئر زاروان جنوب البيوت وعلى طريق باب العوالي.. وكانت خلف البيوت بئر زاروان التي تحدثوا أن الساحرة اليهودية دفنت السحر فيها.. غابت عنها عصمة الله لرسوله ﷺ وتأتي بعد ذلك حارة الأغوات كأنها مدينة وحدها وهي شرق المسجد وفيها بيت أبو أيوب الأنصاري وغازي باشا والشعاب أبو الجود والغالي ثم باب المسجد المجيدي وباب السور المجيدي وعلى زقاق البدور بنيت المدرسة الإعدادية وبيت الشيخ العزيز ابن الوزير وبيت الرفاعي. وفي داخل «جوا» المدينة.. السوق، الشونة مقعد بني حسين، كلها أزقة وأحوشة كفلت الحماية، وفي حلقة ثانية الأحواش خارج السور.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٢)

### جغرفة الإنسان بعد جغرفة المكان

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس القصد منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية، العهد الحميدي، والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحبباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون. . كتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

وجغرفة المدينة عن طبيعة الأرض سبق ذكرها، وبقيت علينا جغرفة السكان والمجتمع، فمن العجيب أن تكون مدينة واحدة يعرف سكانها كل سكانها يتقابلون أو يتزاورون، فتجد الأفندي من الذين هم داخل السور، يختلف عن أكثر الذين هم خارج السور، لا يتفقون على لباس واحد، فالذين هم من داخل السور يتزيون بالجبة والعمامة والحزام الثمين والرقيق، كأنه

جزء من (الشاية)، وأحذيتهم غير أحذية أولئك، جوالد وجزم، ما كانت تستورد لأن في المدينة صناع الجزم (الكندرجية) (عارف جمال سعيد أفندي . . وغيرهما)، أما الذين خارج المدينة فإن لباسهم يختلف أيضاً، فسكان حوش الباشا وأكثر السكان في شمال غرب المدينة أو في شمالها يتزيون بالعقال المقصب صناعة محمد القين والأشمغة والغتر، سواء كانت من الشاش أو من الغباني المطرز بالحرير الخفيف، أما غرب المدينة (زقاق الطيار والسيح والعنبرية) فيحتزمون بالكشميري أو الدسماك، والتياهون يحتزمون بالسليمي ويعتمون بالبر يسمى الأحمر من الحرير، وأحذيتهم من صنع النجديين سواء من يصنعها داخل المدينة أو من يستوردها من بريدة يطلقون عليها (الشرقية)، لأنهم يطلقون على نجد اسم الشرق، وعلى سكان المدينة من هؤلاء اسم «الشروق»، وأما جنوب المدينة فمشالح وعمائم من الشيلان، وهذا في الأكثر، وكما اختلفوا في الأزياء، اختلفوا في الآكال، داخل السور الخضروات والمحاشي والكنائف واللقيمات والمشويات . . ونسبنا سكان باب المجيدي، فأزياؤهم تختلف والآكال مغربية (الكسكوسة وكعب الغزال ولحم بين نارين) وآكال تركية أشبه ما تكون بآكال الأفندية داخل السور، ثم الآكال التركستانية الرز البخاري واليغمش والشوشورة والفرموزة . . الخ، فالتركستانيون من بخارى وطاشكند وانديجان كانوا أهل ثروة بنوا بيوتاً كالمغاربة كبعض الهنود، فلم نعرف في أيامنا الأولى التنور والتميز لأنهم لا يحتاجون إلى هذه المهنة، ولأن كل بيت في المدينة يعجن دقيقه حتى يختمر ثم يصنعونه أقراصاً يخبز في الأفران، والأجرة للفران (حنانه) قرص صغير . .

ويخضعني هذا إلى أن أجدول ساكن المدينة بالألقاب التي يحملها، ترك من الأناضول. تركستان من تركستان. مغاربة. نجديون من القصيم الذين كان منهم عقيل وهو جيش قوة للحكومة، أو تجار يبيعون المشالح

والدخان العمايدي حتى المضير والعطور والعود. وصعايدة، كثروا أغلبهم من أسيوط ومن قنا، وإن كان بعضهم من الفيوم يعدون من جملة الصعايدة، ثم السادة العلوية جمل الليل والصابي وبافقيه والحبشي والجفري والسقاف ومن إليهم، النخالة في حوش السيد أو في الزقاق المعروف باسمهم أو في العوالي وقربان وقباء والعيون فهم النخليون يعملون بالفلاحة، وداخل المدينة يعملون جزارين وخضرية..

لعلّي أنكر العيب عليهم كسلوك وإن كانوا بالاسم شيعة، من الشيعة الإمامية، ولعلّ الكثير لا يعرفون أن المدينة وما حولها كانت بيت التشيع أيام جعفر الصادق وأخيه إسماعيل وابن عمه عبد الله المحض وابنه محمد (زكي الدين) الذي قتله المنصور عباسي قتل العلوي، يعني هاشمياً. فبنو أمية لم يقتلوا إلا اثنين الحسين وحفيده زيد، أما العباسيون أبناء العم القريب فقد أسرفوا في قتل بني عمهم، شهوة السلطان والدفاع عن السلطان..

فالمدينة عدة مدن وعدة أجناس، ومن عجب أن (التكارنة) تأقلموا فيها، وأكثر الآخرين لم يتأقلموا إلا بعد حين، إن الذين اتسع بهم البناء هم المهاجرون إلى المدينة، حتى إن وادي مشعط (باب المجيدي) كان أهل المدينة الأوائل يبتعدون عنه ولكن اتساع الهجرة اتسع به البناء، فالمغاربة والأتراك وغيرهم بنوا في وادي مشعط، ونعود إلى الأحوشة خارج السور بعد، في الشمال الغربي على الحزم دون سلع (حوش خميس، القشاشي، الصديقي، حوش السيد، حوش الرشيد) كما أن بعضهم استغل بعض الأمن فبنوا تحت سفح الجبل أو في شرق الجبل على الهضبة الضرس من سلع، كبيت توفيق عبد المطلب وبيت السيد علوي المنفلوطي وبيوت أخرى كبيت الداغستاني حسن ثم بيوت العطن وفي شرق الطريق من باب الشامي بنوا بيوتاً أشهرها بيت سليم (مصطفى) ثم بيت الجلوني، إن بيت سليم كان

خارج باب الشامي على طريق التمار وشمال سقيفة بني ساعدة وغرب باب المجيدي، سكنه في آخر أيام بصري باشا وأول أيام فخري باشا الشريف علي بن الحسين وأخوه الشريف فيصل، وقد كانا يعدان للثورة مع بعض قبائل المدينة ومع أهل العوالي أشرف بني حسين، وغريب أن أعرف ذلك ولما أبلغ العاشرة من عمري ولم يعرفه فخري باشا. . وللحديث صلة .

ومن الغريب أن الحضرميين كانوا في مكة وجدة ولم يكن منهم أحد في المدينة، أعني من غير السادة العلوية، طوال مدة الأتراك ولكن أيام حكم الأشراف وجدنا ثلاثة من الحضارمة، بادرب. . باظبي. . باعامر الفوال، ذلك أن أهل المدينة ليسوا في حاجة إلى هؤلاء، وهؤلاء يسكنون البلد الذي هو في حاجة إليهم، أو الذي يستطيعون فيه ممارسة البيع والشراء، وما أكثرهم في جدة ومكة، فأصبحوا من خير أهلها، تأقلموا وأقلموا. .

## الأحوشة

وذكرنا الأحوشة داخل السور، ولنذكر عدداً منها خارج السور، في شمال غرب المدينة على الحزم من باب الكومة ودون سلع، حوش خميس حوش القشاشي وسكانهما عرب من قبائل شتا، بيت الجيار، الصرير، ابن مطلق، ابن فضلون، ثم حوش الرشيدي، قالوا إنه ملك البرادعي الجهيني، وقد خلا من السكان، ويقابل هذه الأحوشة، حوش الصديقي، أو هو على خضرة ومن أبرز سكانه محمد القين ورشوان، وبعده إلى الغرب الحوش المستقل بذاته حوش السيد، سكانه ينسبون أنفسهم إلى مزينة، وهم نخليون كان أنظف الأحوشة لأنه لا تدخله الحيوانات فهو نظيف يرش بالماء، وفي الليل يجتمع الرجال في وسط الحوش والنساء أمهات وبنات يجتمعن بعيداً عن الرجال يتغنين بالرجيعي، يضربن الدفوف، طيران لا تستورد فهم

يصنعونها ومن الطرف الظريفة أن شاعر المدينة وهو في مكان الرئاسة ومن سكان زقاق جعفر يخرج إلى هذا الحوش ومعه الأستاذ أحمد عابد الشاعر أيضاً التابع للأفندي أنور والتلميذ له، يخرجان سوياً يدخلان حوش السيد، يجلسان وحدهما بعيداً عن النساء قريباً من الرجال ليسمع الأفندي أنور الغناء إنه ابن العقيق عامل الوراثة فيه قوي، وسمع مرة مطلع هذه الأغنية (يا سيد.. ياللي ساقك يشبه الماء.. ويش أسوي كيف يخرج الماء من الماء) فأطربه هذا المعنى، يقول لأحمد عابد ما أحسن أن ينظم في قصيدة، وقال أحمد عابد يذكرنا هذا بقول الشاعر:

صاح في العاشقين بالكنانة      رشأ في الجفون منه كنانه  
بدوئي بدت لواحظ خدي      ه فكانت فتاكة فتانه  
خطرات النسيم تجرح خدي      ه ولمس الحرير يدمي بنانه

وتأتي الأحوشة الأخرى زقاق جعفر في حوش العبيد ثم أحوشة زقاق الطيار حوش كرباش. خير الله، قمر، وردة، الجربي، الرشايدة، شلبية، السمان، فسيح، العريضة، والقماش، أما العنبرية فحوش سنان، أبو جمر، الراعي، أبو دراع، مناع، ولعلي نسيت بعضها، ثم جنوب المدينة حوش منصور المراكشية، المحمودية، الطيبية، الجديدة التاجور، والتاجورية، والبربورية، إن هذه الأحوشة بناها الحذر والخوف كل حوش كأنه حصن والسكان لديهم البنادق لأن حرمة المدينة كان يهتك الخصام بين البادية والحاضرة، وبناء السور ما كان إلا حرزاً وعن خوف، الأبواب تغلق في الليل وسمع الرجال مرهف..

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٣)

### تركة محمد علي باشا في المدينة

الإنسان ما له وما عليه . .

ولعلّي أترك الذكريات عن الأرض جغرفة، لأكتب عن إنسانها ساكنها  
ومن حولها، كيف كانوا يعيشون الانفصام مع الحاكم والخصام مع البادية  
التي حولهم . . ومن هو صانع ذلك؟!

كم هي حرمة المدينة المنورة عظيمة في نفس المسلم . . عظيمة في  
صفحات التاريخ، سواء كان التاريخ المسلم أو التاريخ الآخر . . هي دارة  
الهجرة . . هي الدار والإيمان (إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية  
إلى جحرها)، فهذه القيمة للمدينة المنورة كيف يتأتى أو يجوز لعربي مسلم  
صاحب سلطان، أو صانع فتنة، أن يهتك حرمتها؟ حتى لا يصح لي أن  
أقول ما من بلد أعطى عطاءها، إيواءً ونصراً . . وعلماً وفقهاً، كأنما هي  
ومكة المكرمة الحرز الحريز والذخر السرمدي لهذه الأرض جزيرة العرب  
كلها، بل وللمسلمين كلهم في أي مكان، أقول ما من بلد هتكت حرمة  
الفتن، كالمدينة المنورة . . ومن عجب أن الهاتك لحرمتها وصانع الفتنة فيها  
وعليها كلهم من بنيتها، لم يصلها برتغالي ولا صليبي ولا تتري ولا

استعماري، إنما الذي قطع وصلها وكاد يمزق أوصالها والذي عتق اتصالها ما كان إلا من بنيتها!! السلطان في أمية فعل ذلك حين انشق عليه بعض أهلها، والسلطان من بني العباس فعل فيها أكثر من أمية، والقبائل حولها انفعلت وتفاعلت فإذا هي تفعل ما ينكره إيمانها وما يجفوه احترامها.

وملوك الطوائف، وحتى بنو عثمان والفاطميون والمماليك كانوا يفخرون بها ويتأخرون عن نجدتها، لا من عدو أجنبي، وإنما هو العدوان من أهلها على أهلها، لقد سرقت الحجرة أكثر من مرة ونهبت أسواق المدينة أكثر من مرة، كل ذلك فعله عجز الحاكم هاشمياً علوياً وجمازياً، كل ذلك فعله القبلي حولها، لم يالفوه ولم يالفهم، يتأخر عن غزوها إذا ربّعت الأرض، حتى إذا جاع جاء نهاباً.

فالقبايل غرب المدينة، قلّ أن تفعل ذلك، أما من كان شمالها فقد فعل بعض ذلك، وأما من كان شرقها فقد فعل كل ذلك، ومن الغرابة بمكان أن السلطان في مكة أو في المدينة كان صاحب فلسفة يزعم أن شراسة القبائل بينها وبين الحاضرة، مانع لطمع الأجنبي، يعني أن السلطان يخيف ملوك الطوائف حتى وصل به الأمر إلى أن يعتقد أن هذا الوضع وضع الفتن، وحرب القبائل هو الذي أخاف الاستعمار أن يصل إليها. . وما درى أن صلاح الدين الكردي الشامي المصري، والعراقي قبل ذلك هو الذي حمى الحرمين من الصليبي، وأن الملك المظفر قطز، الملك مرتين والعبد مرتين هو الذي حماها من التتار، طوعهم لذلك حماية الله للحرمين، شراسة القبائل وحربها لا تخيف الأقوياء من الغزاة، وإنما هي حماية الله قبل، بينما حماة المسلمين خافهم المستعمر فلم يجرؤ على أن يصل إلى الحرمين.

لكن هذه الفلسفة السلطانية، كانت من العجز بمكان.

واستشرت الفتن، كل يوم نهب، كل يوم سالب، فإذا السور يُننى،  
يحيط داخل المدينة والمسجد، يحجز النهايين والساليين، إنهم بنوها هم  
الذين حين جاروا عليها جاروا على أنفسهم فإذا هم مزق تبدل الأسماء حتى  
أصبح النسب الجد يترك ليكون النسب الخلف.  
مقدمة طرحتها لأكتب عن تركة محمد علي.

### تركة محمد علي

ولعلّ بعض أولئك من الناس ينكرون عليّ الرضا والثناء على ما نحن  
فيه الآن مع أنهم لو ذاقوا ما ذقناه، ولو كانوا من جيل الحمد، جيل  
التجربة نحن، لفرحوا بالرضا ولكان عملهم، تحت راية هذا الكيان الكبير  
ثناء لا بالكلام وإنما بالوثام تضيء على وجوههم بصمة الكيان الكبير،  
لتذهب وصمة الفرقة والتنازع بالألقاب والتنافس بالغايات.

لقد ترك محمد علي خديوي مصر، تركة أثقلت كاهل الحجاز كله.

وكان ثقلها على المدينة المنورة أكثر.. كيف كان ذلك؟ كان ذلك على

صورتين:

١ - لقد ورثت المدينة عن حكم محمد علي بعض ما لم تستطع إزالته  
كالمخزن والأردب والوجاق.

٢ - الإتاوات والحضارات التي خلفها وراءه للقبيل الذي نصره.

فالمخزن خمسة عشر ذراعاً في خمسة أذرع بالمقاس البلدي وهو  
بالمقاس المصري ستة أمتار في سبعة أمتار، يعني أن مساحة المخزن اثنان  
وأربعون متراً مربعاً، بينما هو بالمقاس البلدي خمسة وسبعون ذراعاً مربعاً،  
فالمقاس المصري هو أن المخزن يساوي واحداً من مائة من الفدان، يعني

أن مائة مخزن سطحاً واحداً تساوي مساحة الفدان التي هي (ستون متراً في سبعين متراً) وقد بقي هذا المقاس، فإذا الأرض تباع في المخزن.

أما الأردب فاسم مصري أيضاً يختلف في المدينة عنه في مصر، فالأردب المصري ثمانية عشر مداً، أي إن المد ست أوقات، أما الأردب المدني فاربعة وعشرون مداً، وهذا الخلاف بين الأردبين عملية لقسمة الجراية (وهي أرباب من القمح حبسها وقفاً رجال أرادوا الإحسان إلى المدينة). إن الثمانية عشر مداً احتالوا بها بالفور حيث جعلوا الأردب المصري أربعة وعشرين مداً مدنياً، فالسته أمداد في الفرق، كم تكون النتيجة في أكثر من عشرين ألف أردب؟ وفر كسرقة، ومع هذا فأرباب الجراية لا تصل إلى المدينة أو مكة إلا وقد سرق منها الأمناء عليها يقصبون بالقصبة كيس الحنطة يخرجون القمح ويضعون مكان ما سرقوا رملاً، واكتشف الحاكم ذلك فغيروا الأمين إلى أمين، وأصبح كما تقول العامة (مثل أخيك مثل عنبر تحله) يعني كلهم على ذلك.

أما الوجاق فلا أعرف ترجمته إلى العربية، وفاتني أن أستعين بالأستاذ عزيز ضياء ليترجمه لي، ولعله حين يقرأ هذه الذكريات يتلفن إلي بالترجمة أكتبها بعد، إن الوجاق الذي أعرفه هو موقد النار في هجرة العربي الذي يصب فيه القهوة للضيوف، يقول السيد لخدمه أو لابنه (شب النار في الوجاق) وفي نجد يسمون هذا الموقد «الصلل» فهل صلالة العمانية من ذلك؟ لا أدري..

إن محمد علي الخديوي أسس في المدينة من لهم حكم الزعماء، فكانت وجاقات أربعة.. السباهية، يعني الخيالة، لحمزة ظافر أولاً ثم سعود دشيته ثانياً تنضم إليه بيوت من المدينة.. ظافر الدشيته خوج

وغيرهم... ، والقلعجية، انتهت إلى عباس قمقمجي، يعني حماة القلعة، والنوباتشية حماة الأبواب انتهت إلى عباس برادة، والبيرقدارية يعني أصحاب البيرق (العلم أو البنديرة أو الراية) وانتهت إلى محمد سعيد حوالة، فقد كان هؤلاء وبيت البري والكردي الكوراني وبيت عباس والنحاس هم أكثر تقادماً في المدينة المنورة، فكانت لهم هذه الوظائف، كما أحدث وظيفة (باب عرب) انتهت لدياب ناصر، وهو الذي ينتهي إليه أمر القبائل العربية، إذا ما اختلفوا يحكمونه.

كل هذا كان في المدينة من تركة محمد علي، وحين بسط العثمانيون سلطانهم على المدينة، فبسط السيد أحمد أسعد نفوذه عليها بل إن نفوذ أحمد أسعد قد انتشر على الحجاز كله، فالشريف عون كان به وعمر نصيف كان له، فاستأخرت البيوت القديمة فأصبح النفوذ للذين كانوا للسيد أحمد أسعد، بل إن نفوذ أحمد أسعد قد استحوذ على الخديوي إسماعيل، ودعوني أترك ذلك لتفصيل أتوسع فيه، أما فيما يخص الأمن داخل المدينة فإن الباشا سواء كان عثمانياً أو مصرياً فهم لا يتحركون إلا ونفوذ السيد أحمد أسعد أمامهم لأنه كان ذا حظوة عند السلطان عبد الحميد.

من هنا اتسع الخصام بين بيوت المدينة الجديدة بنفوذ السيد أحمد أسعد والقديم الراسخ لما ورث، حتى إن ترحيل بعض أشياخ المدينة من بيت البري والداغستاني ومن إليهم، كان من عمل الباشا مسخراً بهذه الخصومة، أمسك بهم فنفاهم إلى الطائف، ومن المصادفات الغريبة أن يكون نفيهم إلى الطائف مواكباً لنفي مدحت لينقلوا رفاته إلى تركيا وجاء وفد أذن لهم الملك عبد العزيز بذلك، لم يعرف قبر مدحت إلا الصديقان محمد خوجه، وأخوه كمال خوجه دلوا الوفد التركي فنبشوا القبر وحملوا الرفات، تقاليد لا يقرها الإسلام.

أما أهل المدينة فقد وصلوا إلى جدة، ورغم أن نصيف كان نصيراً لأحمد أسعد لم تعبأ جدة بهذا الموقف فأغلقوا الحوانيت وأبدوا الحزن، فإذا آباؤنا في المدينة يحمدون لأهل جدة ذلك حتى ترسخ الحب بينهم، وحين مروا بمكة المكرمة لم يعبأ بهم الشريف عون فمروا لا يرون حزناً على أحد ومكثوا في الطائف حتى إذا سقط السلطان عبد الحميد أطلقوا سراحهم فإذا الأعيان من أهل الطائف بيت كمال والقاضي عرب ومن إليهم يفتحون أبوابهم، الغداء عند هؤلاء والعشاء عند هؤلاء والكرامة عند هؤلاء فإذا آباؤنا في المدينة يحمدون لأهل الطائف صنيعهم الجميل.

وانتهى عصر عبد الحميد فانكمش نفوذ أحمد أسعد، وانتهى عصر عون، ومات عمر نصيف فإذا الاتحاديون الذين ثاروا على السلطان عبد الحميد يتغير بهم الكثير في الحجاز..

## الاتحاديون

ثاروا على السلطان عبد الحميد، شعارهم كان مقتبساً من الثورة الفرنسية، وهو (حريات.. عدالات.. مساوات)، ولم يطبق هذا الشعر لأن القومية الطورانية تنافي هذا الشعار، فالعرب أنكروا على الاتحاديين نزعة التتريك، فقد فتحوا في المدينة ثماني عشرة مدرسة، لم تثمر إلا فك الحرف، صنعوها للتتريك، أما المدرسة التي أثمرت، فهي التي أسسها السلطان عبد الحميد في باب المجيدي، ورثناها وكنت أحد تلامذتها، تخرج منها علماء في الرياضة والتاريخ وما إلى ذلك، كما أسست مدرسة سميت دار المعلمين، وكانت في الساحة في بيت اسمه (دار جونة)، كان ملكاً لبيت مظلوم باشا المصري وكان الوكيل عنهم في تأجيرهم هو أستاذنا السيد أحمد صقر، وهو من أعيان أشرف قنا الجمازيين المخادمة، فهم

وأشراف العوالي بنو حسين يتصلون بالجد جماز، حتى إن الشريف (شحاذ بن علي)، زعيم أشراف بني حسن وقائم مقام المدينة مدة الأشراف، استنجد بالسيد أحمد صقر، يصنع شجرة النسب لأن الشجرة التي لديهم احترقت يوم هتك فخري باشا العوال، نخلاً وإنساناً.

مدرسة دار المعلمين فيها أعجوبة، لأن السيد أحمد صقر وزين بري كانوا رجالاً، تتلمذوا في المدرسة، وكان السيد محمد صقر طفلاً ابن السيد أحمد تلميذاً في المدرسة نفسها، ومن زملائه الدكتور العالم المصري عبد الحميد بدوي باشا، يوم كان أبوه يعيش في المدينة، لم نعرف ذلك من أهلنا وإنما عرفناه من كلمة الدكتور طه حسين، وهو يقدم عبد الحميد باشا إلى مجمع اللغة، فقد قال طه حسين (لقد حفته بركة المدينة حيث أول ما فك الحرف فيها).

إن الاتحاديين لم يحرصوا على بقاء الإمبراطورية مزقوها ببقاء المركزية وبالتريك، إن الثماني عشرة مدرسة ما نالت التتريك، وإنما كان النوال منها أن المدينة المنورة قد انمحت منها الأمية، من هنا اتسع المجال لأبنائها، كانوا للاسلكي ولسكة الحديد بين الرياض والأحساء ومشروع الخرج ولوزارة الدفاع والمالية، فما أكثرهم حين عملوا لكل ذلك.

- الباشا.. الحاضر الغائب في المدينة

- العدوان في المدينة.. من أهلها على أهلها..

- مدارس التتريك.. محت الأمية في المدينة!

ولعلّي لا أهمل التاريخ، فالذي قاد الانقلاب العثماني زعيم للاتحاديين قبل طلعت باشا وقبل أنور هو محمود شوكت باشا الشركسي العراقي لأنه كان هو وأخوه حكمت سليمان الذي أحدث ثورة في العراق كانوا من

موالي داود باشا الذي ثار على السلطان وأسس ملكاً في العراق وصك عملة على أحد وجهيها «يا داود إن جعلناك خليفة في الأرض» وانتصر عليه السلطان حتى إذا أسروه رحلوه إلى المدينة المنورة، فبستان الداودية خارج باب الشامي كان باسمه ولا أدري هل الداودية في مكة مثل الداودية بالمدينة أم هو داود آخر.

محمود شوكت استعرق عراقياً عربياً حتى إذا استترك قاد الانقلاب وكان عالماً رياضياً لأنه من سلاح المدفعية، أول ما تعلمنا الرياضة واحتجنا إلى جداول اللغزيمات لم نجد إلا نسخة واحدة عند الأخ محمد نيازي بالتركية مؤلفها محمود شوكت.

### الحاكم بلا سلطان

والباشا التركي في المدينة، كان أشبه بالرمز لا يمارس سلطانه ليحفظ الأمن، يسمع بأن إبراهيم ملا من أعيان المدينة قد قتل السيد مالك مدني، من البيت الكبير، وأخوه السيد عبد الله مدني. والأخوة الآخرون والصهر لبيت أسعد والبرزنجي وأزبك والرفاعي، مكن لهم نفوذاً قوياً. فلماذا لم يقيم الباشا العقاب على القاتل؟، لقد عفّ السيد عبد الله مدني والد السيد عبيد وأمين، أن يلاحق إبراهيم ملا، لا يطلب من الباشا العقاب، ولا يدعو حليفاً من القبائل يأخذ الثأر، عفّ السيد عبد الله وإخوانه عن ذلك، وأطلق سراح إبراهيم ملا، حتى إن بيت المدني رفضوا قبول الوجاهة وتركوا الأمر لئلا يتسع الشر. وحين مات عبد الله مدني أعلن السيد زين العابدين مدني العفو عن الثأر ليملك إبراهيم ملا الحرية، مع أنه كان محصناً بشجاعته وبحراسة عبيده، ولكن الأمن بالعفو كان فضلاً، قطع دابر الشر، الذي لم يقطعه الباشا، وقتل ولد أبي الجود أحد أبناء الحلواني فأعطوا العاني مدة من الزمن لا يأخذون الثأر، غير أن ولد أبي الجود هرب إلى خيبر حتى إذا

تم العاني ذهب أبوه ليأتي به، وفي ليلة القدوم كان الاحتفال فرحاً في بيت أبي الجود، وكان البكاء في بيت الحلواني، غير أن الحلواني طلب من حليفه صالح الجدي من ولد محمد أن يأخذ الثأر من ولد أبي الجود، فركب الجدي الجبل ضرت من أحد، عرفنا اسمه (شكيم الديق) يعني مشفر الديق، ومر أبو الجود وابنه، هو علي الشداد والابن رديف فإذا صالح الجدي ومن مكمته يطلق رصاصة يقتل أبا الجود، فإذا الفرغ عند أبي الجود حزناً والترح عند الحلواني فرحاً، كل ذلك يجري ولا عمل للباشا، وكان هناك شاب مصري من الفيوم نشأ في المدينة له عضل قوي، وكان شرساً قتل اثنين ومشى بدمهما لم يثأر منه أحد ولم يعاقبه الباشا، وتسלט هذا الفيومي وكان صاحب طاحونة على حسين زيدان والدي، صبر عليه مدة عام وكان الوالد إذا (عزل) الدكان يذهب إلى المسجد لصلاة المغرب، فإذا الشرير يثير الوالد بكلمة (زيدان.. حوش النبوت من كم الزعبوط)، يعيره بلغة الصعيد، صبر والدي عليه سنة، وفي ذلك اليوم صعد الوالد إلى العوالي ليقبض ثمن ما ابتاعه أصدقاؤه من مطير، وكان مروره على البربورية، فإذا هذا الولد يرفع صوته بالمعايرة فقال له أبي: (دحين أرجعلك) وقبض ثمن البضاعة ومر على شجرة إثل، قطع عوداً منها طوله باع ثقيل، لأنه أخضر فوضعه وراء ظهره وأقبل على هذا المعير، ويداه خاليتان، فالعصا وراء ظهره دفع نفسه قليلاً عليه ليتحرش به فنهض المعير يسل خنجراً يريد أن يطعن حسين زيدان، فتأخر الوالد قليلاً وكان ذا عضل وقوة وسحب الأثلة يضربه على يده يكسر ذراعه يسقط الخنجر، وكال له ضربة ثانية ألقته صريعاً وجاء الناس (ليش.. ليش) قال: كاد يطعنني بالخنجر فالتقطت العصا مصادفة أدافع عن نفسي، كل هذا يجري ولا شأن للباشا به وما أكثر ما وقع من ذلك.

وحكاية عن إبراهيم ملا يرحمه الله، فقد كان من المطالبين على الرغم من أنه من أسرة أفندية عشراؤه حمزة لبنان والسحلول وصالح النانية وعبد المعين كعكي وعيد بنا وحسين عامر، كان من المشاكلة وصادف أن سال العقيق وخرج والدي ومعه ابن عم لنا اسمه سيد كرام يذهبان إلى العقيق كأنما أبناء النيل أحبوا أن يروا صورته في سيل العقيق، وفي وسط حرّة واقم. أقبل إبراهيم ملا ويده الشون ومعه صديقه الشهاوي وإذا إبراهيم ملا يكرش العصا في الأرض يتحدى وكان أبي معه عصاة (شون مزقرة) أي معصبة بجلد في آخرها، فقال أبي لسيد كرام (أشغل الشهاوي وأنا لإبراهيم)، وكان أبي رجلاً طوالاً قوي العضل والقلب وأخذا يتقاشعان يلعبان بالعصا، وكان الطول مكن والدي من أن يهزم ملا، أطار العصا من يده فإذا إبراهيم ملا يقول جدع يا حسين.. يتعانقان..

ولكن الباشا وبحزم بيت الكماخي أنزل العقاب بخادم الكماخي وهو من التركستان قتل أسرة من بيت الكماخي، اغتالهم، فإذا الأب والأم والأطفال هلكوا حين اغتالهم هذا الخادم، وعلم الشيخ أحمد كماخي، أحد أفاضل المدينة وقضاتها فأصر علي بصري باشا بالتفتيش عن المغتال.. فتشوا عليه داخل المدينة فلم يجدوه.. لأنه ركب رجله فلم يجدوه إلا في رابع، أمسك به حسين بن مبيريك، وقد كان ابن مبيريك على وئام مع الدولة العثمانية، وجاءوا بالمغتال فإذا جمع من أهل المدينة يتحلقون في حلقة واسعة والقاتل وسطها معصوب العينين، ولا أدري كيف عرف أن الشريف علي بن الحسين وأخاه فيصل كانا واقفين في شرق الحلقة يشاهدان قتل المغتال، فرأيت القاتل وكنت أحد الواقفين يزحف مشرقاً يتدحرج ليصل إلى الشريفين، يطلب منهما الشفاعة فابتعدا عنه وأمسكا به وقطعا رأسه بالسيف، ومعنى ذلك أن الباشا أقام العقاب لا بوازع منه وإنما بإصرار بيت الكماخي..

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٤)

### المسجد أول جامعة في الإسلام

المسجد - السكة الحديدية - ضم المدينة للشام والكلام عن المسجد النبوي يشتمل على كثير مما ينبغي ذكره بل ومما يجب له، فالمسجد كان مدرسة جامعة وللصلاة وهو الصلة لأن صلاة الجماعة تتقوى بها الصلوات بين الذين يصلون فيه، والمسجد في بدء الإسلام كان منار العلم فيه تعقد حلقات الدرس ويتعلم الجاهل ويتخرج العالم ويهتدي بالعلم «الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه».

فالنبوة على حراء «اقرأ» كانت المدرسة الأولى . . والرسالة على الصفا كانت المدرسة الثانية، أما المدرسة الثالثة فقد كانت على الصفا أيضاً، فهي في دار «الأرقم بن أبي الأرقم» المشرف على الصفا حتى قالوا لو أن أحداً مد يده من الطاق في دار الأرقم لانتزع قلنصوة المنصور وهو على الصفا.

أما المدرسة الرابعة كبرت واتسع فيها العلم فهي الجامعة الأولى في الإسلام أعني المسجد النبوي.

إن المسجدين المسجد الحرام والمسجد النبوي، والمربدين مربد البصرة والكوفة قد طبعت بصمة كل جامعة من هذه الأربع على كل خريج من مدرسة أو جامعة.

فعلى الأزهر بصمة المسجدين والمربدين وعلى الجوامع في تونس والجزائر والمغرب وحتى قرطبة في الأندلس، الإمام الأول، المعلم الأول لهؤلاء هو الإمام في المسجدين والإمام في المربدين وحتى كل الجوامع والجامعات شرق السويس وشرق بحر العرب لم تكن إلا والمسجدان والمربدان كانوا لها وتكون علم عالمها حين كانوا بها.

إن المسجد النبوي يعرف الكثير من القراء سير الأئمة الذين كانوا فيه فلا حاجة لي تدعوني أن أذكر قارئاً بهم، غير أن ذكرياتي عن علماء المسجد وأئمة الصلاة فيه أذاكركم بها مذكراً بمرحلتين: مرحلة أن سمعت عن علماء المسجد في العهد العثماني ومرحلة أن رأيت فيما بعد.

فقبل أن أرى أو أن أسمع وبعد العشرينات إلى الثلاثينات من سني الهجرة، عرفنا كيف كثر العلماء في المسجد النبوي ومن هم، فمن المغرب كله حمدان بن الوئيس، العزيز بن الوزير، عبد الحميد بن باديس، البشير الإبراهيمي، وعمر حمدان المحزري، والطيب العقبي والشيخ الحبيب، والخضر بن مايايبي الحكني الشنقيطي، الألفا هاشم والفلاتي، والمالي والشيخ حميدة، محمد الطيب الأنصاري المعروف بالتمبكتي. ومن الهند عبد الباقي الأنصاري، حسين أحمد خليل أحمد صاحب «بذل المجهود في الشرح على أبي داود».

ومن مصر الشيخ العايش، والأخميمي، ومحمود شويل، ومصطفى صقر، ومحمد صقر وحسن الشاعر، ومن «القصيم» صالح الزغيبي، محمد العلي التركي.

ومن الشام عبد القادر الطرابلسي الأول، عبد القادر الطرابلسي الشلبي الثاني وجمال الدين القاسمي في زورة لم تطل أيامها.

ومن أفغانستان حبيب الرحمن الذي أفاد الكثيرين: أما من هم من أهل المدينة فالمفتي الداغستاني وأبو بكر الداغستاني وجعفر البرزنجي وأحمد البرزنجي وابنه زكي البرزنجي وإبراهيم البري وابنه عمر بري ومحمد زاهد وقبلهم مأمون بري وابن أخته عمر الكردي الكوراني حفيد الشيخ إبراهيم الكردي الكوراني الذي انتهى إليه السند العالي والذي أخذ عنه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ثم «حمد كماخي».

كان المسجد النبوي بسط حلاه وتقواه على هؤلاء العلماء كانوا أعلاماً ولا بد أن تأتي بطرف عن بعضهم عرفناها.

حمدان بن الوئيس قرأنا عنه ما كتبه أمير البيان أبو غالب شكيب أرسلان في حواشيه على الكتاب «حاضر العالم الإسلامي» ترجمة عجاج نويهض، أحد الذين أشبعونا بالترجمة عادل زعيتر، فتحي باشا زغلول.

كان الأمير شكيب قد وصل إلى المدينة المنورة ومعه من مصر عبد العزيز جاويش أحد زعماء الحزب الوطني وعبد القادر المغربي أحد الأعلام مغرباً وشامياً، جاءوا إلى المدينة ليؤسسوا الكلية الإسلامية، وبدأ البناء بالفعل، ثم الأساس، وارتفع بعض سورها، ولكن العمل توقف حين بدأت نذر الحرب العالمية الأولى، لم نقرأ لعبد العزيز جاويش ولا لعبد القادر المغربي ما كتبوا عن علماء المسجد.

إن الأمير شكيب أرسلان أعجبه حمدان بن الوئيس حتى أكاد أزعم أن هذا الحديث الذي كتبه في حاضر العالم الإسلامي لم يشتهر لدينا على الأقل إلا من صنع شكيب حين تكلم عن ابن الوئيس، فالحديث هو «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على القصع.. قالوا أمن قلة يا رسول الله، فقال ﷺ لا، ولكن غثاء كغثاء السيل إنما يدرككم الوهن».

قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟

قال عليه الصلاة والسلام: «حب الدنيا وكرهية الآخرة» أو كما قال «حب الحياة وكرهية الموت».

أعجب الأمير شكيب بابن الوئيس وأعجبه الشيخ حسين أحمد شيخ الجامعة الهندية الإسلامية جامعة ديوباند. وحسين أحمد هو ابن المدينة أيضاً حتى أطلقوا عليه حسين أحمد المدني وأخوه السيد أحمد «الفيض آبادي» مؤسس دار العلوم الشرعية وأخوه جميل أحمد أول من ابتعث من المدينة المنورة إلى الآستانة في أواسط العشرينات. وهنا ينبغي أن أستدرك على الذين ظنوا أن عبد الرؤوف صبان هو أول مبتعث من الحجاز لأن قبله جميل أحمد وقبله أيضاً حسين طه وأحمد أبو بكر حمد الله، كما كان قبله محمد المغربي وعبد القادر عبد الجواد.

عبد الرؤوف ابتعث إلى مصر عام ١٣٢٨هـ بعد حج الخديوي عباس، فالخديوي عباس كان يقلد السلطان عبد الحميد يريد أن يجمع حوله رجالاً من هنا وهناك، كما أخذ من المدينة حسن ناصر بن دياب ناصر وكما التف حوله بعض الذين ظن أنهم يصلحون سنداً له أو دعاة للخلافة التي يطمع فيها، ولا أدري كيف كان ذلك كأنه لم يحسب حساباً للمندوب السامي كرومر ومن جاء بعده حسن أحمد وكما ذكر عبد الحميد بن باديس شيخ المسجديين الذين نهضت بهم الجزائر، فعبد الحميد بن باديس الذي نأخذ ما ذكر عن حسين أحمد هاجر إلى المدينة فراراً من الاستعمار الفرنسي حتى إذا اجتمع بالسيد أحمد، قال له: لماذا جئت هنا وماذا تصنع؟ قال: أفكر لعلّ فرصة تسنح لشن الحرب على الفرنسيين. . فقال له حسين أحمد إذا انتصبت للجهاد فكن في أرض الجهاد. . ارجع إلى الجزائر. . وعاد عبد

الحميد بن باديس وكان الشيخ الأول لثورة الجزائر. . فهو لم يكن عربياً عرقاً لأنه صنهاجي بربري، إذا أسقطنا عن البربر نسبهم الحميري من أنسال الحميريين جند ذي القرنين المصعب ابن الحارث اليماني. فهو إن لم يكن عربياً عرقاً فهو المسلم معرقاً والعربي استعراقاً. . الله أكبر. . ألم يعرّبه القرآن؟

عبد الحميد بن باديس هذا الصنهاجي حين شبع من القرآن دافع عن بني هلال فبعض من هم هناك يدم بني هلال وسليم بأنهم خربوا حين عبثوا بقرطاج. . فقال هذا القرآني العربي يدافع عن العرب. . لئن قيل إنهم خربوا فلنقل: إنهم عربوا. لقد صدق، فالفتح الأول لم يعرب الأكثرية، من المغرب وإنما الذي عرب الكثرة فبنو هلال وبنو سليم، ولا ننس من تناسل من إدريس بن إدريس بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط.

أما جمال القاسم العالم السلفي صاحب التفسير فقد اتصل بعالم المدينة حينذاك أحمد البرزنجي صلة توثقت بينهما وقطع صلته بعبد القادر الشلبي حيث اختلفا في المشرب، ذلك السلفي والثاني ماتوردي حتى إنه قسا عليه في مذكراته.

لقد ترك هؤلاء بصماتهم على طلبة العلم في المسجد، وما دامت الذكريات تتسع لبعض الطرف فلا توسع، كنا في بستان العمرانية قبل الظهر جماعة من الأصدقاء نقيّل هناك وكنا نسمع أغنية محمد عبد الوهاب «علموه كيف يجفّو فجفا» فإذا الحارس الذي يخطرنا بمن نخافه أو من نستحي منه ونحن نسمع الأغنية أخبرنا وهو يسرع الشيخ إبراهيم بري.

فأسرع أخوه الشيخ عبد العزيز بري يرحمه الله يسكت الأغنية وقمنا

نحیی الشیخ إبراهیم بری فلما جلس قال: أعیدوا ما كنتم فیہ لقد سمعت شیئاً أعجبنی . . فأعدنا الأغنیة فقال:

إنه أحمد شوقي . . إنه محمد عبد الوهاب . . وخطرت على بالي سابقة لمعاوية بن أبي سفيان كأنما إبراهيم البري ابن العقيق قد ورث عن عبد الله بن جعفر ابن عمه، قال البري كما علمنا أنهم من ولد محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب. ورث حلي العقيقي يوم كان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب حارس الفن، كل مجلسه طرب وزاره معاوية بن أبي سفيان ومعه عمرو بن العاص وفي زعمهما أو عزمهما أن ينكرا على عبد الله بن جعفر هذا الترف، هذا الطرب، وحين علم ابن جعفر بحضور معاوية وعمرو بن العاص أسكت الغناء - كما فعلنا - حتى إذا أخذ معاوية مجلسه قال لعبد الله أعد ما كنت فيه فارتفع صوت لا أدري أهو صوت طويس أو عزة الميلاء من وراء ستر فاهتز معاوية طرباً، فقال له: عمرو هوّن جئت تنكر عليه، فقال معاوية: دعني فإن الكريم طروب.

## السكة الحديد

- ووصل القطار يجري على سكتة الحديدية إلى المدينة المنورة فإذا هو بعد يحدث التطور . . كثرة المهاجرين . . تنوع الآكال كثرة المجلوب من الشام كالبرتقال والبطيخ اليافاوي والدقيق «الفرخة» وحنطة الجولان وأنواع الياميش، كأنما المدينة أصبحت سوقاً لخيرات الشام.

الدقيق «الفرخة» له عرق تصنع منه الفطائر فإذا هو يأخذ من المدينة ميزة وهي صناعة قوس الرق أي الفطائر وأنواع البوريك والمطبق . . كانت المدينة تمتاز بهذا لأن حنطة المعية التي هي من نبات المدينة أو من نبات

عالية نجد لها عرق يصنعون منها الرقاق والفظائر حتى قال أهل مكة إن أهل المدينة يصنعون الفطائر.

كان ذلك حيث لم يصل إلى المدينة الدقيق «الفينو» فالامتياز ليس من صنعة الصانع فحسب وإنما هو من مرونة الدقيق من دقيق المعية. وحين كثر الدقيق الأبيض أصبح كل من هب ودب مطبقانياً يعني «أهله سيبوه والجن استلقوه» فأول التطور حرب على المعية كان الدقيق الأبيض من الشام، ثم الدقيق الأبيض الفينو من الأرض التي صنعته.

واحتفلوا بقدمو القطار. . وعز علينا وقد كنت طفلاً أن نعرف من حضر يشارك في هذا الاحتفال من الأقطار العربية والمسلمة. . غير أن صلة صديقنا الشيخ محمود شويل علمنا منه أن من الذين حضروا الاحتفال كانوا علي كامل صاحب اللواء، شقيق مصطفى كامل زعيم الوطنية في مصر ولطفي السيد صاحب الجريدة لسان حال حزب الأمة، والشيخ علي يوسف صاحب المؤيد الذي كان مصرياً وخديويًا، ومحمود شويل حين عرف ذلك لأنه اتصل به واقتنصه علي يوسف فاختره مراسلاً للمؤيد. . لماذا كان ذلك؟

لطفي السيد «مصر أمة وحدها» لا شأن له بما يجري في المدينة وعلي كامل «مصر الخلافة العثمانية» لا يحتاج إلى مراسل في المدينة أما علي يوسف فلهوى الخديوي أحب أن يقنني مراسلاً كما هي رغبة الخديوي في جمع بعض الرجال حوله.

إن السكة الحديدية لم يقتصر تطويرها على الدقيق وعلى بضائع الشام وإنما جاء معها تطور أكبر نكتبه بعد.

## صلة المدينة بالشام

وكانت المدينة تقليدياً تابعة لشريف مكة لا نفوذاً له وإنما هو شيء من التنفس والحرص على وحدة الحجاز.. فعزم الاتحاديون وبتطور السكة الحديدية أن يفصلوا المدينة عن مكة فما اتدبوا تركيا وإنما كان مندوبهم علي رضا الركابي، ضابطاً من نوابغ السوريين تولى رئاسة الوزارة بعد في الشام وفي الأردن.. كان من الأذكياء لكنه لم يؤخذ بالقومية، فقيمته الشخصية أن يكون عثمانياً.

جاء إلى المدينة وسعى إلى الكبار من أهلها، فالتقاهم من الأسر لم يلبوا طلبه والمحدثون منهم كانوا له.. ولم يشذ عن الأسر القديمة إلا الشيخ أبو الحسن السمان، فهؤلاء وافقوا علي رضا ووقعوا مضبطة فيها طلب فصل المدينة عن مكة وضم المدينة إلى الشام والحجة هي سرعة الاتصال.. القطار والتلغراف.. فالتلغراف وصل إلى المدينة عام ١٣١٨هـ وكان في خفارة علي ناصر.. وتم فصل المدينة والواقع أن ذلك قد يسّر كثيراً من الأعمال بينما شريف مكة الحسين بن علي يرحمه الله قد غضب فعاتب السمان لأنه ابن لصديقه، كان مرّاً في عتابه وقاسياً في شكيمته ولكن لا حول ولا قوة له فمضى الأمر.

ولا بد لي من أن أستطرد في بعض الذكريات عن الطرائف والمواقف لعلماء المسجد النبوي، ليكون التمام على ما سبق.

فالسيد حسين أحمد كان في المدينة ولعله لم يزمع الخروج منها يذهب إلى الجامعة المسلمة (ديوبند)، ولكنه لسبب تصورت أنني علمت فدونت، بينما الواقع أنه لم يكن ذلك هو الحق، كنت أظن وهو في المدينة، وقد اتسعت صلواته بعلماء المسجد ينصح بن باديس ليعود إلى الجزائر، كما

سبق أن ذكرت ويعجب الأمير شكيب أرسلان به، كنت أظن أن (إحسان الله) قد كتب تقريراً عنه إلى المخابرات البريطانية، فإذا هم يتربصون به، يقع في قبضة أيديهم، يُنقى إلى مالطا، وكان هذا الظن خاطئاً، والصحيح أنه جمع أموالاً تبلغ أكثر من مليون روبية، فذهب بها إلى الطائف عوناً للباشا التركي ضد موقف الحسين بن علي، فحكومة الشريف هي التي سلمته للإنجليز. . يُنقى إلى مالطا لأنه وقد كان في المدينة لا تصل إليه يد الإنجليز. . ومن هو إحسان الله؟ . .

إنه رجل من مسلمي الهند بقي مدة ثمانية عشر عاماً في المدينة المنورة بواباً على باب النساء أحد أبواب المسجد النبوي، بينه وبين الصديقين الأخوين عبد الحق النقشبندي وعبد الحميد عنبر قرابة من ناحية النساء، فكانت هذه القرابة الساترة لحاله، لم يعرف أهل المدينة عنه إلا أنه البواب على باب المسجد، ويا للغرابة التي دهشت رجالاً من أهل المدينة، كانوا في دمشق حين رحّلهم فخري باشا من المدينة، منهم زين صافي وزين مدني، وبعض الشباب أسعد طربزونني إبراهيم شاكر وغيرهم حتى إذا احتل فيصل بن الحسين دمشق حين نزع عنها جمال باشا وحين دالت الدولة على حكم الأتراك، وحتى إذا رأوا المرشال الإنجليزي «النبوي» داخلاً دمشق ليوطد الأمر لفيصل رأوا البواب على باب النساء إحسان الله ضابطاً كبيراً يدخل مع «النبوي»، أدهشهم ذلك يقيم في المدينة بواباً لمدة ثمانية عشر عاماً. . بينما هو من رجال المخابرات البريطانية وأحد الضباط الكبار في حاشية المرشال البريطاني، أهو ذكاؤه كتم أمره، أم هي الغفلة، حتى إن الباشا التركي سواء كان بصري أو فخري لم يعرفا عن إحسان الله أنه رجل مخابرات بريطاني؟ وقبض الإنجليز على حسين أحمد ثم أطلق سراحه ليكون أحد شيوخ الهند المسلمة.

وزار مدرستنا في المدينة المنورة فحيثه بخطب، وفي رحلتي إلى الهند بصحبتني للشيخ محمود شويل، زرنه في ديوبند وأعد لنا عشاءً لم أذق مثله أرزاً له نكهة وله طول لم نعرفه في المدينة فسألته من أين هذا الأرز؟ لعله قال لي إنه من (سهر أسبور) وكان من أهل الحديث غير أنه متعصب لأبي حنيفة كأنه من تلامذة الطحاوي أو محمد بن الحسن الشيباني، واختلفنا معه قال: أنتم العرب السبب في استعمار الهند: أسقطتم الخلافة فقوي نفوذ الإنجليز في الهند. وأجبتة: إمبراطورية الهند هي السبب في استعمار العرب، فالذي أسقط الدولة العثمانية هو خط برلين بغداد وبعض سلطانها على قناة السويس، فحين كان العرب في طريق الهند استعمر الإنجليز العراق وفلسطين وقبلهما مصر. ودّعناه شاكرين ولم يأت الخلاف في هذه النقطة إلا ونحن نذكر له الخير.

وما دام الشيء بالشيء يذكر، ففي أواخر أيام الأشراف بقي في المدينة شيخه خليل أحمد ليكمل شرحه لأبي داوود، وسماه (بذل المجهود في شرح أبي داوود) أكمله في المدينة وكان ضيفاً صديقاً في دار العلوم الشرعية التي أسسها صديقه تلميذه أخو حسين أحمد، السيد أحمد الفيض آبادي، وكما أضيف السيد حسين أحمد لأنه نصير العثمانيين فقد أضيف خليل أحمد حين أغلق الشيخ عبد القادر شلبي الطرابلسي دار العلوم الشرعية في أواخر عهد الأشراف بحجة أنها مدرسة وهابية، والسبب أن خليل أحمد وحسين أحمد وكل جامعة ديوبند أهل حديث ينصرون مذهب أبي حنيفة، كما قلنا على طريقة الطحاوي، أما الشيخ عبد القادر شلبي وعبد الباقي الأنصاري وهو من لكانوا، فقد كانا من قسم الأحناف، الذين لهم آراء ليست من الحب لرسول الله كما زعموا.

أما البشير الإبراهيمي، فقد زامله أستاذنا السيد محمد صقر يدرسان على الشيخ العزيز ابن الوزير الجزائري أو التونسي، ورجحت الجزائري لأن بيته الكبير في المدينة في زقاق البدور الذي كان اسمه في عهد النبي (المناصع) والذي علمت عائشة أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله - كما هو نعت الإمام مسروق لها - حين علمت بلغو الإفك من عمته وهي ذاهبة للمناصع تقضي الحاجة، إن بيت العزيز بن الوزير وراء المدرسة الإعدادية ثم الراقية ثم المناصيرية وعلى طريق بيت الرفاعي كان القيم على البيت وحافظ المكتبة الكبيرة هو أستاذنا (العريف محمد بن سالم) الجزائري العقبي.

البشير الإبراهيمي توثقت صلته بالسيد أحمد البرزنجي، ومن مزايا البشير أنه صاحب عيون البصائر التي حجزها أحمد بن بيلا مع أن صاحبها كان من زعماء ثورة الجزائر، ولعلّ الشاذلي بن جديد قد احترم البشير الإبراهيمي، فوزير خارجيته طالب الإبراهيمي هو ابن الشيخ البشير، كان همّ البشير أن يلتفت العلماء إلى دراية الحديث، فليس لهم حاجة في الرواية لأن كتب السنة قد دوت وطبعت، فالرواية شغل يفخر به الرواة، أما الدراية فعنها ينتشر الفقه ويعرف ما ترمي إليه السنة، وكان ينازع في ذلك السيد الشيخ عبد الحي الكتاني، وإبان الثورة وبعدها لجأ البشير الإبراهيمي إلى المملكة فأحاطه الملك فيصل بكل التكريم، فموقف محمد سرور الصبان مكرماً للبشير الإبراهيمي، لم يكن إلا عن طريق تكريم الملك فيصل له، كان حاجاً ضيفاً على محمد سرور الصبان، وكان مفتي مصر السابق محمد حسنين مخلوف ضيفاً كذلك، جمعهما الصيوان في عرفات، وأخذ المستفتون من الحجاج يتوافدون يسألون مفتي الديار المصرية حتى إذا

طرح السائل مسأله يسأله الشيخ مخلوف (إيش مذهبك؟) فإذا كان ينتسب إلى مذهب، أفتاه بقول المذهب، واشتد البشير يطلب من محمد سرور أن يغلق الصيوان لا يدخل أحد وقال لمخلوف: لماذا تسأل عن المذهب فأنت تعرف القاعدة الأصولية العامي لا مذهب له، المذهب للمفتي، إن رأى مخرجاً يسر عليه وإن رأى مسرفاً عسر عليه. كلمة حق ينتصر به الحق ولا يهزم المذهب، وأراد طبع عيون البصائر فأعطاه محمد سرور أجرة الطبع ولكن البشير أنفق المال على من احتاج إلى مال، ثم طبعت عيون البصائر مرة أخرى.. . يرحم الله علماءنا.

أما أحمد البرزنجي فقد كان المفتي ولكنه عزل لأن منافسيه وقد ذهب نفوذ أحمد أسعد بصولة الاتحاديين سعوا إلى عزله، حتى إذا تمت الصلة بينه وبين جمال الدين القاسمي، طلب من جمال الدين أن يسعى له يعود للإفتاء، ذكر ذلك جمال الدين في مذكراته، بقي أن نعرف هذه النسبة (البرزنجي)، فالذين لا يعرفون أصل هذا النسب يحسبونه نسبة إلى (البرزان) أو (الطروبيته) التي ينادي بها الجنود (للكروانة) يعني العشاء أو الغداء، إن أصل هذه النسبة إلى الأكراد البرزانية في شمال العراق، ولعلكم سمعتم اسم زعيمهم مصطفى البرزاني، فهي في العراق برزاني، وفي الشام برازي، ومنهم بيت كبير في الشام كان من بينهم رئيس وزراء، وفي المدينة البرزنجي على الطريقة التركية، هاجروا إلى المدينة من العراق، من القسم الكردي بينما هم من الأشراف، فهم سادة وكانوا بيت علم، آخرهم قاضي المدينة طيب الذكر السيد زكي البرزنجي خال السيد عبيد والسيد أمين مدني، وإلى ما يأتي بعد.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٥)

### أئمة المسجد النبوي . . مواقف وطرائف

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية، العهد الحميدي، والعهد الرشادي ثم عهد الأشرف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية. فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام، ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة، وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون. . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

- والمسجد النبوي يلزمننا أن نذكركم بالإمام والمؤذن كما ذكرناكم بالعلماء، فالأئمة الذين يصلون بالناس كانوا طبقة لها امتيازها. . فالأئمة والخطباء من الأحناف لا غيرهم وهم (الخاندانة) أي إنهم الطبقة العليا، ولم يكن الإمام أو الخطيب بما هو مؤهل به كفقيه وإنما هي - أعني الإمامة - رتب يمتازون بها ومنح يصدر بها فرمان. .

فالإمام الذي يصلي بالناس أول الأمر لا بد أن يكون حنيفاً لأن مذهب السلطان العثماني كمذهب الخديوي في مصر - هو مذهب أبي حنيفة.. فإذا صدر فرمان بأن يكون الأفندي (فلان) إماماً، فأبناؤه يرثون الإمامة، ولا يسألون أن يقوموا بالوظيفة، فالواحد منهم ولو لم يفك الحرف - إمام بالوراثة - حتى إذا وصل إليه الترتيب لأداء الصلاة يتخذ قارئاً ينوب عنه في أداء المهمة.. فهي مراتب افتخار يمتازون بها ويحرصون عليها.. فالصلاة الجامعة يؤديها الإمام الحنفي وبعده يأتي الإمام الشافعي يصلي بالذين لم يدركوا الجماعة الأولى وهو أيضاً صاحب رتبة منح الإمامة بالفرمان..

إن فرمان هو المرسوم السلطاني مكتوباً بالخط الديواني الجليل رأينا كثيراً من صورته في إدارة الأوقاف.. وإن تخلف بعض المصلين يأتي إمام على مذهب مالك يصلي في محراب المواجهة.. فعجيب أن يكون إمام دار الهجرة ليس له حظ من هذه الحظوة التي منحت للأحناف والشافعية.

أعرف من الأئمة المالكية أستاذنا السيد أحمد صقر ولم يكن بذلك قد منح الإمامة بالتشريف وإنما هو بأداء التكليف «إمام بلا فرمان أما الإمام المالكي المشرف بالفرمان فهو من بيت عبد الحفيظ».

ولعلك تسأل عن إمام في عهد الأتراك أو عهد الأشراف تابع لمذهب الإمام أحمد.. ليس هناك أحد.. فالجفوة لمذهب ناصر السنة على هذه الصورة جاءت من تركة السلطان محمود ومحمد علي في حربهم ضد آل سعود وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، مع أنه يوجد من أهل المدينة القدامى بيت النعمان، فهم على مذهب أحمد.

- ويأتي المؤذنون وجلهم فرمانيون، غير أن حسين بخاري وعبد الستار

شرفهم صوتهم فكان فرماناً على فرمان . . وأحسب أنهم كلفوا بأمر محلي لا بفرمان سلطاني .

- وقل مثل ذلك في الكناسين وهم أيضاً أصحاب رتب يشرفهم أنهم يخدمون المسجد وينظفونه .

- وظاهرة لا بد أن نذكركم بها، فخلال إقامتي الطويلة لمدة واحد وعشرين عاماً أعني المدة التي أدركتها من عهد الأتراك والمدة التي عشتها في عهد الأشراف لا أعرف من ارتقى المنبر على الدوام غير هؤلاء الأربعة: حمزة أركوبي، جلال إلياس، أبو الفرج إلياس، زين بري، لعلهم كانوا يؤدون واجبهم وواجب غيرهم بالإنابة . . إن زين بري - كما ذكرنا من قبل - كان يأتي بخطبة الجمعة إلى أستاذنا السيد محمد صقر يقرأها عليه . . يستمع له . . يتعهده بالصواب نحواً وصرفاً لا فكرة. لكن هناك إمامين ذاع لهما الصيت وأحب المصلون أن يصلوا وراءهما لإتقان التجويد ولتجويد الإتقان بالصوت الجميل على النغم الموسيقي هما كامل توفيق (جد غالب توفيق الذي كان مديراً للأمن) وأخوه سعد توفيق (جد صديقنا حاتم توفيق)، فكامل توفيق وأسعد توفيق جمّلهما الله بالوقار والصوت الحسن فلعلهما - قبل زكريا أحمد وعلي محمود - أتقنا سلم الأنغام، فما أسعد الأذن إذ تسمع كامل توفيق وأسعد توفيق!! وهما من أسرة تركية شركسية لهما حظ في وقف السلطانية ولهما الحظ الأكبر أن كانا من أعيان المدينة وأحسن أئمتها.

لقد كان لهما هذا الموقف في آخر عام ١٣٤٢هـ يوم أقامت المدرسة الراقية احتفالاً بأول وآخر الخريجين منها وهم الأربعة المحمدون (محمد سالم الحجيلي المروحي السالمي الحربي الذي نشأ يستروح النسيم من وادي سجسج حول الروحاء ومن شعاب الجبل الأشم ورقان «أو» الأشعر

ومحمد إلياس توفيق ولا قرابة له بالإمامين السابقين وإنما هو لقب بيت آخر من قدامى الأتراك ومحمد نيازي (القازاني) وكان من روسيا البيضاء وفيها كثرة مسلمة حينذاك، وكاتب هذه السطور أبوه من صعيد مصر ومن أسيوط بالذات وأمه من الفضول من قبائل نجد نشأ في بيت شعر بدوياً أبداً تعلم من الرجال فاحتفل بسير الرجال. هؤلاء الأربعة المحمدون هم أول وآخر من تخرج من الراقية وأقيم الحفل في صالون المدرسة الراقية (الناصرية بعد) ولم يكن هناك زخرف مادي وإنما كان هناك الزخرف المعنوي. . كان كامل توفيق وأخوه أسعد يقرآن فاتحة الحفل بل وكل الحفل. وقد حضر هذا الحفل أمير المدينة حينذاك الشريف علي بن الحسين قبل أن يصبح ملكاً، وطبعت الشهادات لكن الأمير سافر، كما لم يرجع الشيخ عبد القادر شلبي عميد المدرسة إلى وكيل الأمير - وكان هو الشريف أحمد بن منصور ليصدق على الشهادات وبالتالي تأخر التصديق وضقنا ذرعاً فلجأنا إلى أستاذنا محمد صقر - وكان جريئاً على الشلبي فتداولوا الأمر وصدق الشهادات عبد المجيد باشا الحاكم العسكري. . صدقها وهو في قلعة سلع والمدينة محاصرة ليكون ضمها خاتمة التكوين لهذا الكيان الكبير.

وعن كامل توفيق وأسعد توفيق وسلم الأنغام نذكر هذه الطرافة: كان البناني - أستاذ من تغنى. . العارف بالأنغام - هو الذي يكبر للصلاة.

إذا كان الإمام هو كامل توفيق أو أسعد توفيق. . فالطريقة هي أن البناني يخرج من نغم إلى نغم وهو يكبر ليتحدى كامل أو أسعد وهما يجهران بالقراءة لا يعجزهما أن يسيرا مع تحدي البناني. . كان ذلك شيئاً مطرباً ولكن أحسبه يخرج بهم عن أدب الصلاة لأن الإمام والمؤذن مشغولان بتحري النغم. . ولكن هكذا كان. .

إن سلم الموسيقى الذي عرفناه منهم يشير إلى ما ذكره الأصفهاني في الأغاني عن عدد الأصوات، صوتان.. ثلاثة أصوات، ولا أريد إلا أن أذكر بذلك.. فهناك نغم رصد (إذا جن ليلك فارصدي) هو أساس السلم الفارسي وتأسس عليه السلم التركي.. إن نغم الرصد - كأساس - ليس بالصاد وإنما هو هكذا الرست (بالسين) يعني الأساس.. ثم يأتي بعده نغم «دوكا» يعني صوتين (فدو تعني اثنين) ثم يأتي سيكا يعني ثلاثة أصوات.. فالتركيب الفارسي هو «سي» يعني ثلاثة «وكا» يعني صوتاً.. ويأتي بعده الجاركا هو بالفارسية «جهاركا» «جهار» يعني أربعة - ويأتي بعده «البنجكا» يعني خمسة أصوات لأن الأرقام الفارسية هكذا: يك.. دو، سي، جهار، بنج..

وتفرعت من هذه الأسس أنغام أخرى لا أعرفها وإن كان أكثر من سبعين بالمائة من شباب المدينة كانوا يعرفون هذا السلم حينذاك.

وكان من العارفين أيضاً: عبد الستار، وعلي براده، وصديق البناني عمر عبد السلام الذي كان يطرق الحديد طول نهاره فهو حداد - وفي مجالسه يتعلم الشباب منه الأنغام.. من هنا قلت إن الغناء في المدينة المنورة قد تأثر بالسلم التركي، فما من بيت من هذه البيوت إلا وفيه آلة الطرب العود، الكمان، أما خارج المدينة وفي الوطن وعند البادية فالربابة وعند أولاد الحارة - الشلاوية والمشاكلية، وأهل الوديان حول المدينة - فيتقنون المزمارة من البوحي وهو صانع الجذب والهستيريا الراقصة حين يقيمون «سيدي علي البدري» و«الزير» و«الزار» و«المزمارة» يعتقدون تصريف الجن بهذه الحفلات بينما هم يمرضون أنفسهم بهذه الأوهام هكذا كان ولكنه زال..

## معلومة . . وطرائف . . وحواشٍ . .

والمعلومة التي لم تفتني فيما سبق هي الإضافة إلى التعريف (بالمستر إحسان الله) عرفنا من هو في المدينة ومن هو في دمشق، بقي أن نعرف كيف هو في جدة، عرفنا بالمشاهدة والتعامل معه، فيما لو أردنا السفر إلى الهند وما إلى ذلك مما هو تحت سلطان بريطانيا العظمى حينذاك، عرفناه وهو في القنصلية البريطانية في جدة، سواء كان وكيلاً أو أكبر من وكيل، كان يعرف كل شيء عن المطوفين والأدلاء، كأنما هو الرقيب عليهم لتكون الرقابة حيث يصلون.

وصل إلى جدة في عهد الأشراف وبقي إلى أوائل هذا العهد، عهد الكيان الكبير. وفي أواخر جمادى الثانية عام ١٣٥٢هـ حصلنا على تأشيرة الدخول إلى إمبراطورية الهند، كاتب هذه السطور والأستاذ محمود شويل، وكانت التأشيرة سهلة لأننا كنا ضيفين على المضيف الشيخ محمد حسين عمر نصيف تغمده الله برحمته، وكان إحسان الله يعرف محمود شويل من المدينة، تلميذاً للشيخ فالح الظاهري، الذي له مكانة في الحجاز وليبيا، كما يعرف عن محمود شويل صلته بالخديوي عباس، وانكشف لي ذلك حين رست الباخرة (علوي) في عدن، وإذا بمناد يدعونا، وقفنا على ضابط الجوازات، جلس على مكتب أعدّ له . . نظر في جوازات المسافرين إلى الهند وهم بقية الحاجين ولم يكن ذلك كثيراً، وقفنا أمامه ضابط بوليس . . رُبعه أقرب إلى القصر وإلى السمنة، لم أر شعراً شديداً الحمرة كشعره، لعلّه صبغه بالحناء أو أنه مؤلّد (خلاسي) الأب عدنياً والأم إنجليزية أو غير ذلك، اكفهرّ يستغلظ قال: محمود شويل؟ «من ساعة ما ركبنا الباخرة عندنا خبر». والشيخ محمود سريع البادرة غضوب، أمسكت بيده ألا يجيب

وأجبتة أنا، قلت له: يسرنا ذلك، لأن رقابتكم نوع من الحراسة لنا أو الحماية علينا، فحيثما نكون نجد هذه الرقابة، ليست هي التهديد وإنما هي حرصكم، وكاد يبتسم ولكنه قال: سنسمع.. سنسمع، وسمع ثم سمعنا حين امتد بنا العمر، زوال الإمبراطورية واستقلال الهند بقسميها باكستان والهندستان.

وهكذا كان إحسان الله رجلاً حقق وطره وانتشر خطره، ولا يفوتني كمعلومة أن إحسان الله يحيط الذين يحملون الجنسية البريطانية بشيء من الرعاية، ولو كانوا يحملون جنسيات أخرى، ولعلّي أذكركم بأن أول قنصل لفرنسا في جدة في العهد العثماني الأخير كان ذلك الضابط الشاب (كاترو) الذي أصبح الجنرال (كاترو) من عناصر المقاومة لاحتلال النازيين من شيعة الجنرال ديغول، ولقد كان قد احتل الشام في الحرب العالمية الثانية حين هزم النازيون، ولكن الجنرال (سبرز) البريطاني والمستر تشرشل، قد كتبوا عليه الجلاء من سوريا حتى إن ديغول أخذ يشتم سبرز، ورد عليه تشرشل: «أحب أن يذكر الجنرال ديغول أن سبرز هو الذي حمله من فرنسا إلى حيث نجا من النازية وتزعم المقاومة».

## الطرائف

هي عن بعض أشياخنا الكبار، مع الألفهاشم ومحمد العلي التركي ومحمد الطيب الأنصاري، كانت عن مشافهة معهم، شرفوني بها، وعن فالح الظاهري وحمدان الونيس، كنت تلميذاً وفي السنة الرابعة راقية وفي الامتحان الخصوصي في شهر شعبان سنة ١٣٤٢هـ، وكان الشيخ عبد القادر شلبي عميد المدرسة يباهي بالتلاميذ أيام الامتحانات فيدعو بعض كبار العلماء أو الأعيان، كميميزين وليمنحوا العلامات لكل تلميذ ولعلّه كان

يمسكهم يجودون على التلاميذ بعلامة إضافية فرحاً بالتلميذ ومجاملة للشيخ يعني «حج وبيع مسابح» ولم يكن ذلك اليوم يوم امتحان لنا نحن تلامذة السنة الرابعة الراقية بل كان لتلامذة السنة الثالثة. وكان رئيس الفصل صديقنا إبراهيم عبد الرحمن فقي الصديقي من أسرة المفتي في مكة، سكن أبوه المدينة وكانت أمه من بيت الطيار الكبار. . ومن زملائه السيد يوسف مدني والسيد ماجد مدني وحسن إسماعيل والسيد عبد الهادي برزنجي، وكان الامتحان في مصطلح الحديث وأستاذه السيد محمد صقر والمميزون، تصوروا من هم؟!!

الخضر بن مايا بن الجكني، المحدث ومن أعيان شنقيط وهو والد صديقنا محمد الأمين سفير الأردن سابقاً، والشيخ إبراهيم البري والشيخ الحبيب المغربي والشيخ الألفا هاشم المالي الفلاتي، ولعل إبراهيم مفتي لم يجب صواباً فنطق الخضر ينتقد، فهو حاد المزاج فإذا الشيخ عبد القادر شلبي يرفع صوته يرد الانتقاد بالجدل فهو ليس على درجة من معرفة المصطلح كما الشيخ الخضر، اتسع الجدل ولم يتدخل الآخرون، فإذا أستاذنا محمد صقر يخرج من الحلبة (فين الزيدان.. فين الزيدان..!؟) (لييك) قال (ادخل فك العجة).

قلت: ليس هو لنا هو امتحان سنة ثالثة قال: (ادخل يا واد.. هو إنت اللي راح تفك العجة) وهمس في أذني على الجواب الصحيح، ودخلت والشيخان يتجادلان، سلمت بصوت جهير فرد السلام الأشياخ وجلست على الكرسي أرفع صوتي أقول: أنا تلميذ في الامتحان لا ترعبوني، الخوف يسقطني، وكأنما أعجب كلامي شيخنا الخضر، وطفق يسألني عن الجواب فأجبت، وهدأت العاصفة بين الشيخين، ولم أدر ماذا جرى عني بعد، ولا



الزيدان فحقق الألفا هاشم إعرابه إعراب المفرد لا إعراب المشى .

والخاتمة في هذه الحلقة عن الألفا هاشم أيضاً وهو يلقي درسه في الضحى في شهر رمضان، وقفت أسمع وأنا ذاهب إلى المدرسة وإذا هو يفسر قوله تعالى ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (الضحى : ٤)، ألقى التفسير المجمع عليه الآخرة يوم القيامة.. والأولى الحياة الدنيا، ثم أردف ذلك وبلهجته المالية الإفريقية قال (وقال بعضهم الآخرة «المدينة» خير لك من الأولى «مكة») وانصرفت ألقيا بلهجته الضاد ظاء حتى قلت: إفريقي مغربي يحافظ على مذهب مالك وهو بعد مديني يحب مدينته.. يرحمه الله .  
وللطرائف ملحق ..

### ملحوظة :

في حلقة سابقة تقدم اسم لطفي السيد لقب دكتور.. علماً بأنه ليس بدكتور.. وإنما هو أبو الدكاترة.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٦)

### العهد العثماني . . ومن إليه من الرجال

- لم ير العرب في العثمانيين استعماراً . .

- السلطان عبد الحميد بنى المسجد النبوي على الطراز البيزنطي . .

- أعمدة المسجد الأرجوانية جاءوا بها من جبل بالمدينة . .

وكانت المدينة المنورة أيام حكم الطوائف، أميرها التقليدي من أشرف ذوي حسين، أي من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب، بينما الأمراء التقليديون في مكة من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب، لهم سلطان في المكتبين، فأحياناً يصفو الجو بينهم ليكون الأمير في المدينة على علاقة طيبة مع الأمير في مكة، ليس لديهم قوة رادعة وإنما هو التقييم من الملك الطائفي لهاتين الأسرتين . . لم يخضعوا للسلجوقيين وآل بويه . . ولم يكن لهم هذا التقيد أيام العباسيين، وإنما كانوا ذلك أيام العباسيين، وإنما كانوا ذلك أيام الفاطميين في مصر والأيوبيين والمماليك، ولم يكن لحاكم الشام هذا السلطان إلا لمحمود نور الدين زنكي، ولعله عن طريق صلاح الدين، حتى إن الظاهر بيبرس أحد المماليك، يوم وصل إلى المدينة كان الحاكم التقليدي هو (الشريف فليته) فهو ومن بعده ومن قبله يعرفون بأل جماز، ثم

عرفوا بالشقادمة، وظاهرة لا بد أن نذكرها هي أن العلويين سادوا في قبائل العرب على صورة من الإمارة على القبيلة أو هي الصورة على أن الشريف شيخ القبيلة، لم يكن في الحجاز وحتى في نجد يوم كان بنو الأخيضر هناك إلا الأكثرية من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب، فليس هناك ولد الحسين كان له سلطان إلا الجمازيين في المدينة المنورة، أما القبائل الأخرى كجهينة وعتيبة وهذيل وبالبحارث، فالذين سادوا لديهم هم من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب..

وكانت قرية (السوراجية) شرق المدينة وقرية (الحفنة) كذلك تابعة للمدينة لقربهما ومن فيها من الأشراف حسينيون، فأشراف قنا المحافظة المصرية جمازيون حسينيون، وانضم إليهم حسينيون من أشراف وادي فاطمة، وحتى أسرة الحفناوي في مصر تنسب إلى آبائهم في قرية الحفنة، ولا أنسى أن قرية في غرب المدينة تقع بجبل الرس من جبال المدينة قرب ذي الحليفة ولعله من تضاريس الجماء أو العير وقد تأكد لي ذلك من خلال بحث الابنة أميرة المداح في بحثها الموسوم بعنوان «العثمانيون والإمام القاسم بن محمد بن علي في اليمن» وهذه القرية خرج منها أئمة اليمن الذين تم لهم سلطان الإمامة في اليمن وهم الأشراف الرسيون.

أما الذين سادوا في جهينة، فلأنهم مكثوا فيما ورثوا من أملاك جدهم الإمام علي كريم الوجه رضي الله عنه ويعرفون بهذا (ذوي هجار) ومنهم الأسرة المالكة في المغرب..

وهكذا كان الأمر بين الحاكم التقليدي تشريفاً له بينما السلطان للأيوبيين أو الفاطميين أو المماليك. وحينما تم للسلطان سليم العثماني النصر على الطوائف دخل كل العرب تحت سلطان العثمانيين ولم ير المسلمون والعرب

أن في ذلك استعماراً، وإنما كان سلطان مسلم لعلّه يمتاز بالوحدة التي ضمت الجميع أكثر من ملوك الطوائف الذين كانوا عاجزين عن صد التتار ومقاومة الصليبيين، والعثمانيون لهم فضل لا ينكر، صمدوا أمام تيمورلنك وحجزوا الصليبيين أن لا يعودوا، كما أنهم أضعفوا انتشار التشيع في قبائل العرب، وإن بقي في اليمن وإن بقي في الحجاز، فقبائل العرب شرق المدينة بقي فيها التشيع كما بقي داخل المدينة وفي العوالي وما إليها كذلك..

إن إطلاق اللسان باسم القومية على العثمانيين بأنهم استعماريون غرض من الجامعة الإسلامية، بل أصبح الآن كأنه الرفض للجامعة الإسلامية، صفقت للقومية العربية، ولكنني الآن وبالحال الذي نحن فيه شلت يدي إن صفقت لهذه الإقليمية..

مقدمة لا بد منها، ليس هي كل التاريخ وإنما هي ملامح من استقراء التاريخ، لأجد نفسي أسجل ذكريات عن أربعة عهود عثمانية، عهد عبد المجيد وعهد عبد الحميد وعهد محمد رشاد وعهد الاتحاديين، وإن كان يحسب من عهد رشاد، لا أذكر أثراً في المدينة قبل هذه العهود، لأنني أجهله، فمثلاً ليس للسلطان محمود فيما عرفت أثر إلا المكتبة المحمودية، ويمكن التجاوز عن تركة محمد علي لنعدها من آثار السلطان محمود، كالباب المصري مثلاً، وباب الكومة ومدراج العنبرية، كبرزخ يصل داخل المدينة بخارجها، أعني العنبرية..

أما السلطان عبد المجيد، فله الأثر المحمود والأثر الآخر غير المحمود، فأثره المحمود هو بناء المسجد النبوي، بناء أصبح تحفة، زينة قام على تنظيمه وتنسيقه مهندس عظيم لا أدري أهو سنان باشا ومعه

مهندسون وبنائون امتلكوا الذوق فبنوا المسجد على طراز (أيا صوفيا) فأيا صوفيا هي الكنيسة الكبرى في اسطنبول حولها إلى مسجد مما يعطي محمد الفاتح أنه في عداد الفاتحين، لأن أمية وسيف الدولة والسلاجقة وآل بويه والأيوبيين والمماليك لم يستطيعوا إسقاط روما الشرقية، فالذي أسقطها وجعل بيزنطة اسطنبول عاصمة مسلمة تعمر بالمساجد، وما كان إلا محمد الفاتح، فعيب أن نعد الملك الخامس في ملوك الإسلام مستعمراً تركيا، فهل أنا الذي وطأني الاستعمار إنجليزياً وفرنسياً وإيطالياً ويهودياً وروسياً حين أصبحت المستقطب له أفتح أشدافي أتشوق على الذي أنهى حكم الرومان من أرض الإسلام؟

السلطان عبد المجيد الذي بنى المسجد النبوي لم يبخل على المهندسين بشيء، لا أدري بماذا أصف المهندس الذي حرص وقد نصب الأسطوانة الجديدة تقوم عليها القباب، كيف لم يبعدها عن الأسطوانة القديمة، فكل الأسطوانات القديمة أزيح شكلها بناؤها وبقي وضعها وموضوعها، فمثلاً أبقوا أسطوانة أبي لبابة رضي الله عنه وغيرها، لم يأخذهم العجز أن يسأموا وإنما أخذهم الفن والذوق والتاريخ أن يستاموا. المسجد النبوي قلنا إنه على طراز بيزنطي، كآيا صوفيا، لا أدعي أنني أطرح هذه المعرفة من علمي أو فهمي أو ذوقي، وإنما علمنيها أستاذ ومهندس، فالأستاذ هو شيخنا محمد عبد القادر الكيلاني التونسي المصري التركي اليوناني المدني، أخبرني أن المسجد النبوي على طراز رومي بيزنطي، كما أيا صوفيا، فقلت له لئن أضفت لي معلومة فقد أضفت لي مفهومة وهو أن المهندس حين رسم الطراز تجنب أي شبهة تجعل هذا البناء كأنه آيا صوفيا، يعني أنه رسم الفن وصب فيه على الفن..

أما المهندس الذي أكد هذا الخبر فهو المهندس المصري البارع راشد رستم، عرفته فأكد هذا الخبر، ولكن أريد أن أسأل المدينة شيئا وشباباً هل عرفوا أن الأسطوانات ذات اللون الأرجواني جلبت من بعيد؟ أم هي حجر المدينة؟ اليقين عندي أن أكثرهم لا يعرف، هذه الأسطوانات الأرجوانية من الحجر الرملي ليست صواناً ولا مرمراً، قاسية نوعاً ما، لينة بكل عطاء الماء، أتدرون من أين قطعوها؟ إنها في داخل (الجماء) لو سرتم إلى آبار علي وملتم إلى اليمين تدخلون في دحال أو شعاب الجبل الجماء فستجدون مقاطع هذا الحجر رأيتها وكبرت، أحترم القوة التي تفعل وأصفق للذوق الذي انفعلي، الجماء هي الجبل على حافة العقيق من الغرب طولها من آبار علي إلى الطرف الأول من باحة الأعياص أي سلطنة أي مجمع الأسيال أي مكان الجامعة الإسلامية، هذه الجماء هي التي عنها سعيد بن العاص صاحب القصر الذي ترملي لا يفقد زوجة وإنما هو الأرملة نفسها، كأنه اليتيم لم يبق غيره حوله، رأيتها جداراً أو جدارين أكل منه الزمن، كبناء ولكن الزمن لم يأكله كتاريخ، قال الأمويون له وهم في دمشق: تعال إلينا، فقال:

القصر فالنخل فالجماء بينهما أشهى إلى القلب من أبواب جيرون  
فجيرون من أسماء دمشق.

أما الأثر الثاني للسلطان عبد المجيد فليس هو عطاؤه للسيد صافي الجفري بين البيوت الكبيرة في الساحة، وإنما كان حين صك الريال المجيدي، أنهى به التعامل بالريال الفرنسي، لأن هذا الريال الفرنسي قد جلبته الحملة الفرنسية على مصر والشام، أعني حملة نابليون، فجزيرة العرب هي التي بقي التعامل لديها بالريال الفرنسي لم تتعامل به مصر ولا

الشام، بل كان التعامل به في نجد والحجاز واليمن، وهو ليس ريالاً فرنسياً وإنما هو ريال نمساوي فالصورة التي عليه هي صورة الإمبراطورة (ماري تريزه) إمبراطورة النمسا، أم الإمبراطورة (ماري أنطوانيت) فهي التي قصلتها الثورة الأفرنسية على المقصلة..

### وهكذا تفعل الغوغاء:

تم طبع الريال الحميدي والريال الرشادي، كما شاعت العملة التركية الهللة واسمها يوناني (هالة لوه) كانت أولاً من النحاس ثم صارت من النيكل، والجنيه الذهب العثماني فقد عرفنا أشكالاً من الجنيهات الإنجليزي والعثماني والمسكوفي نسبة إلى موسكو والإفرنسي واسمه (البنتو) إن العملة تطلق عليها أسماء المصدر أو الجالب فالجنيه في المغرب أطلقوا عليه اسم (لويزا) يعني لويس وبعض العامة يحسبون أنه تصغير (لوزة) إن الشام لم تتعامل بالريال الفرنسي ولكنها ورثت من حملة إبراهيم باشا على الدولة العثمانية يصل إلى سوريا ولبنان، فإذا هم يطلقون على النقد أو العملة في سوريا يطلقون (مصريات) في لبنان (مصري) نسبة إلى مصر، وحتى إنني كتبت مقالاً افتتاحياً في جريدة البلاد رداً على شيخ مسلم في لبنان بعنوان (لبنان المصري أم لبنان المصير) أعجب الكبير فينا..

إذا رضيت عني كرام عشيرتي فلا زال غضباناً عليّ لئامها

نأتي للسلطان عبد الحميد تولى الأمر يرث تركة مثقلة بالديون، كما هو تعبیر سعد زغلول، ثورة في البلقان الجيش الروسي على أبواب الآستانة، استقلال داود باشا في العراق، الاستعمار البريطاني والفرنسي والإيطالي الحرب في اليمن، مدحت باشا والدستور، مكث عبد الحميد ثلاثة وثلاثين

عاماً، والأيام تلد كل يوم مشكلة. فاضطر إلى أن يكون صديقاً وحليفاً لألمانيا الإمبراطورية القوية فاستطاع بعون (بسمارك) ومطاوعة «دزرائيلي» رئيس الحكومة البريطانية أن يجتمع في برلين يطلبون من جيش الإمبراطورة كاترين الروسي الانسحاب عن حدود الدولة العثمانية، وكان عبد الحميد قد أحاط نفسه برجال أربعة ظناً منه أنهم يسكتون أوطانهم عن الثورة عليه. وهم أبو الهدى الصيادي شيخ الطرق الذي إذا أراد أحدكم أن يعرفه فليقرأ ولي الدين يكن في كتابه المعلوم والمجهول، وعزت العابد رئيس البابين يعني الديوان الملكي وهما شاميان أما الاثنان الآخران فهما السيد أحمد أسعد المدني ومحمد ظافر المدني اللببي، اتخذ منهما عوناً لتهدئة الحجاز وليبيا، ولعلّي أضع ترجمة لأسرة أحمد أسعد أخذتها من (قرمية الأنصاري) واسمها تحفة المحبين، ترجم الأنصاري لأسر في المدينة المنورة أضع هذه الترجمة الآن لأعقب عليها بعد بما فعل أحمد أسعد في الحجاز ومصر وبما فعل محمد ظافر في ليبيا وارثاً لما فعل أبوه حمزة ظافر. . وإليكم الترجمة للأسرة لنعرف أن أحمد أسعد لم يصل إلى هذا المركز من فراغ. .

## بيت السيد أسعد أفندي

«بيت السيد أسعد أفندي» مفتي المدينة المنورة. .

أصلهم أبو بكر أفندي بن أحمد بن عبد الله الأسكداري المجاور بالمدينة المنورة في حدود سنة ١٠٤٠هـ قدمها على قدم التجريد والعبادة فنال بذلك الحسن والزيادة. سكن في رباط «قره باش» حتى صار شيخاً على الرباط المذكور. وأجرى شرط واقفه المسطور في جميعه الأمور. ثم خرج منه وتزوج الشريفة أم الهدى، أخت السيد إبراهيم المدرس المجاور الرومي. وأولدها السيد أسعد وأخاه السيد إبراهيم مات ولم يعقب في سنة ١١١٥هـ.

وأما السيد أسعد المذكور فمولده كان في حدود سنة ١٠٥٠هـ فنشأ وطلب العلوم من المنطوق والمفهوم، وبرع حتى فاق الأقران. وصار من الأعيان. وتزوج مريم بنت القاضي محمد مكي أفندي، ورزق منها عدة أولاد أمجاد، أكبرهم السيد محمد، والسيد عبد الله، والسيد إبراهيم، والشريفة فاطمة..

ولما رأى صهره محمد مكي أفندي [فيه] كمال الأهلية نزل له بمنصب الإفتاء وعرض له إلى الدولة العلية، وذلك في سنة ١٠٩٢هـ ثم رفع في سنة ١١٠٢هـ بالخطيب البري. ثم أعيد إليه ثم رفع في سنة ١١١٦هـ بالشيخ حسن المنوفي المصري فتوفي معزولاً في ٢٨ رمضان سنة ١١١٦هـ فأما السيد محمد المزبور فمولده في سنة ١٠٨٨هـ وجد واجتهد في طلب المعالي، فتولى منصب الإفتاء بالمدينة المنورة في سنة ١١١٨هـ إلى أن رفع في سنة ١١٢٥هـ بالخطيب عبد الكريم الخليلي ثم سافر إلى الدولة العلية إلى أن استشهد ليلة المعراج ٢٧ رجب سنة ١١٤٣هـ طعنه أحمد كحيلان بسكين عند رأس زقاق الزرندي فتوفي في ٢٨ رجب.. وقبض على قاتله وشنق بباب المصري - قاتله الله تعالى..

وكان - رحمه الله [تعالى] - ذا أخلاق رضية وكمالات مرضية، يميل إلى الصالحين ويحب الفقراء والمساكين، وأعقب ولداً سماه عبد المحسن، وبتناً سماها «صالحه» توفيت سنة ١١٨٧هـ..

فأما عبد المحسن فمولده في حدود سنة ١١٢٨هـ نشأ في حجر والده، وتزوج الشريفة نفيسة ابنة عمه السيد عبد الله.. وولدت له ولداً سماه السيد سعد الدين، مولده في سنة ١١٥٢هـ وقد تزوج الشريفة آمنة بنت السيد عثمان الصعيدي، ولم يولد له فلعله عقيم. وتوفي في ربيع الآخر سنة ١١٩٤هـ..

وللسيد عبد المحسن المذكور بنت أيضاً تسمى «سعدية» تزوجها عباس ابن الأخ علي الأنصاري، وهي موجودة الآن..

وله ولد أيضاً يسمى محمد من الشريفة فاطمة بنت مولاي المغربي الفيلاي. مولده سنة ١١٦٦هـ وتوفي في محرم الحرام سنة ١١٩٦هـ عن بنت قاصرة تسمى «صالحة»..

ثم بعد وفاة السيد عبد الله تولى منصب الإفتاء السيد عبد المحسن.. وجاءته الرؤوس من شيخ الإسلام وبقي مفتياً إلى أن امتحن في سنة ١١٨٢هـ بأن قبض عليه شاهين أحمد باشا وأرسله إلى مكة للشريف مساعد. ومثله السيد [سيف] كتخداي القلعة السلطانية سابقاً، وأحمد خضر، وعذيب وذلك في ليلة هلال رمضان بسبب غضب الشريف مساعد عليهم. فلما وصلوا إلى مكة وبخه الشريف بعد حبسه عنده أياماً إلى أن وصل الحاج الشامي فتشفع له عثمان باشا فسمح عنه الشريف ورده إلى المدينة بمنصبه، فوصل إليها في أول المحرم صحبة الحاج الشامي. وبقي بها إلى أن توفي في ٢٨ محرم المذكور رحمه الله تعالى رحمة واسعة..

وأما أصحابه الثلاثة فأرسلوهم في الحديد إلى جزيرة القنفذة وحبسوا فيها إلى أن سمح عنهم الشريف فرجعوا إلى مكة في رجب الحرام. ما عدا السيد «سيف» فإنه توفي في البحر، ودفن بطرف الساحل..

وأما السيد عبد الله أسعد فمولده في حدود سنة ١٠٩٠هـ ونشأ نشأة صالحة وجد واجتهد في طلب العلوم حتى بلغ منها ما يروم. وسافر إلى الروم في سنة ١١٣٥هـ وكان يدرّس بالمسجد النبوي.. وله نظم ونثر حسن وتولى الإفتاء بعد وفاة أخيه السيد محمد، وامتحن كثيراً من الأشرار ونفي في ٤ محرم ١١٥٤هـ وتزوج الشريفة فاطمة المكية بنت السيد يحيى

الأزهري، وولدت له محمداً في سنة ١١٤٤هـ وعبد الله في سنة ١١٥٥هـ ونفيسة، وأم الهدى، وعائشة..

فأما محمد فنشأ نشأةً سالحة. وتولى الإفتاء بعد وفاة ابن عمه السيد عبد المحسن من طرف الشريف، ولم يعرض له إلى الدولة، ولم يأت منه تقرير فيها، فتوجه الخطيب تاج الدين الياس بنفسه إلى الدولة العلية وطلبها منهم، فوجهت له في محلول السيد عبد المحسن وذلك في سنة ١١٨٦هـ ثم رفعت عنه، ووجهت للخطيب عبد الله الخلفي بموجب أنه وكيل فراشة السلطان عبد الحميد في سنة ١١٨٨هـ وتزوج السيد محمد جفصة بنت الحاج عبد الله المغربي، وولدت له عدة أولاد وبنات هم اليوم موجودون على قيد الحياة..

وأما أخوه عبد الله فنشأ نشأةً سالحة. وتزوج زبيدة بنت الشيخ أحمد ابن عثمان الحجار - ومات عنها في سنة ١١٧٥هـ..

وأما السيد إبراهيم أسعد فمولده في حدود سنة ١١٠٠هـ ونشأ نشأةً سالحة. وكان يحب الصالحين والفقراء والمساكين، ويواسيهم بماله وحاله. وتزوج على الشريفة زينب بنت السيد يحيى الأزهري.. وولدت له بنتاً سماها سعاد. وتزوجت على الخطيب عبد الرحمن الخياري، وهي والدة ولده الخطيب علي الخياري. وبعد وفاتها تزوج الشريفة فاطمة بنت السيد أحمد ميرزا. وكانت عاقراً، ثم تسرى على جارية حبشية اسمها حبيبة، ولدت له ولدين ماتا مراهقين في عام واحد. وتوفي سنة ١١٨٠هـ.

وأما الشريفة فاطمة الأسعدية فتزوجت على السيد عبد الله السقاف باعلوي وتوفيت..

## ملحوظة:

أستاذنا السيد محمد صقر كان واحداً من الأئمة المالكية وليس السيد أحمد صقر الذي كان من الأحناف كما ورد في حلقة سابقة.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٧)

### في عهد الملك عبد العزيز عرفت المدينة نعمة الأمن

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

كان لـ . . القوزيته سلطان على السلطان

المركزية آفة الإمبراطوريات . .

يتأتى منها الهمس ليكون بعد ذلك الانحلال

عهد العثمانيين

## عبد المجيد وعبد الحميد ورجالهما

والمدينة المنورة لقيت عنتاً شديداً صبرت وصابرت فكلما اشتدت اللأواء فيها بقيت أسر صبرت على اللأواء، ومن اللحظة الأولى التي اغتال الجناة الخليفة الراشد، ثالث الخلفاء ذا النورين عثمان بن عفان، ومن اللحظة الثانية التي خرج من المدينة ساعتها الخليفة الراشد رابع الخلفاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن عثمان، من هاتين اللحظتين فرغت المدينة من حماتها، فإذا هي لا تخرج من فتنة إلا إلى فتنة، أهلها في داخلها ثائرون، وأهلها في خارجها يثأرون، والأقرب من حولها، إذا شبعوا أشبعوها، وإن جاعوا عبثوا بها، مئات السنين كان حال المدينة قد أبكى التاريخ فإذا الناس من الأمة المسلمة يتمذهبون، من هو أموي ومن هو عباسي ومن هو طائفي، فلا تجد إلا الذين ارتضوا هؤلاء ولا تجد إلا الذين أبغضوا هؤلاء، كأنما المدينة التي انبعث منها نور النصر وهداية الفتح قد انبعث منها ذلك الشقاق، وعجيب أن يكون فيها المسجد الثاني في الإسلام بعد المسجد الحرام، والأول للمسلمين قبل المسجد الحرام، فالعجب ألا يخشى العابثون من حرمة المسجد، ولا يحترمون ثراها وروضتها وبقيعها والحجرة وما إليها، لكن المسجد النبوي هو العجيب أيضاً فحين خرج علي بن أبي طالب بقي فيها عبد الله بن عمر وأبي يزيد بن ثابت، كانت حياتهم ولو ماتوا حياة العلم في المسجد، وحين هتكت المدينة في وقعة الحرة، كان المسجد عامراً بسعيد ابن المسيب ومن بعده عروة بن أذينة وربيعة الرأي وابن حزم، لا أدري هو أبو بكر أم عمر، وسالم بن عبد الله بن عمر، وعلي زين العابدين، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، كان المسجد عامراً بهؤلاء، حزانى، لكنهم أضحكوا الفقه وابتسم لهم التاريخ، حين قتل المنصور محمد بن عبد الله «النفس الزكية» داخل

المدينة كان المسجد عامراً بمالك بن أنس يصل إليه سفیان بن عیینة وعطاء بن رباح وحتى سفیان الثوري وحتى أبو حنیفة، كأنما المسجد بطهره ينادي الطاهرين وينأى عن الآخرين، مالك بن أنس إمام دار الهجرة من شيوخه جعفر الصادق، ولماذا أنسى أول أشياخه وألصق أشياخه نافع مولى ابن عمر؟ ومالي أنسى الذي عانق قبره قبر ابن أنس، القبر بجانب القبر في بقیع الفرقد ألا وهو نافع مولى ابن أبي نعیم حافظ القرآن، الأول في الحفظ السبعة. ويخلط بعض الأدلاء يقولون لمن يزور القبور هذا قبر نافع مولى ابن عمر. . لا. . ولا، إنه قبر نافع ابن أبي نعیم، كأنما المسجد حظيرة، أو كأنما الروضة الجنة كان بهما المسجد صوناً ونعیماً على علمائه، من هنا قلت إن الإمام في المسجدين والمربدين قد انفصل عن السلطان ليتم على يديهم ما تم من هذه النعمة ملأت كتب التراث فقه الأئمة موطأ مالك كتاب سيبويه صمود الثوري والحسن البصري.

وي. . لا تعجبوا من الإسلام ومساجده فكلهم بهذا الإسلام قد صانهم الإسلام فصانوه وازدانوا به. . وحتى في آخر الأيام وفي أيامنا نحن تتخطف الفتنة الرجال ويرحل الناس إلى الشام ولكن المسجد بقي عامراً يسأل عمن فيه ولا يكثر بمن حوله فما زال عامراً بالبري والبرزنجي والکماخي وألفا هاشم وحميده والعايش والإخميمي ومحمد صقر، علماء. . المسجد بيتهم بل إن بيوتهم طوقها المسجد.

هذه المقدمة لها ما بعدها. . أوله عن الرخاء والاستقرار نوعاً ما وبلا أمن ما أيام السلطان عبد المجيد وأيام السلطان عبد الحميد ودعوني أرفع رأسي بالكلمة الصريحة لا أجدف فيها لعبد العزيز بن عبد الرحمن ولا أتملق بنيه وإنما هو صدق التاريخ بصريح القول أرفض الذين يقلدون تميماً

بسبب خالد بن الوليد من أجل مالك بن النويرة، أو حنفيًا يكره خالد ابن الوليد من أجل مسيلمة إن المدينة المنورة بما ذكرت من قبل لم تستقر أحوالها ولم يتسع مجالها ولم يأمن رجالها إلا حين رد لها الاعتبار عبد العزيز بن عبد الرحمن أمر واضح لو أنكره هاشمي لقلت منشداً:

ولو أنني بليت بهاشمي خؤلته بنو عبد الممدان  
لهان علي ما ألقى، ولكن تعالوا فانظروا بمن ابتلاني

لقد بلينا بالذين ليسوا في العير ولا في النفير، وإنما هم لو تنافروا مع قبلي يلبس شملة لا تغطي أرساغه لنفرهم ولقال لهم: من أنتم؟ فلن يقولوا إلا «نحن الأهالي» «انين أهالي واحد شرقي» إن عبد العزيز بن عبد الرحمن لا أستعجل بذكره الآن فذلك سيأتي وقته، ولكني وشرحاً للمقدمة وحسرة على ما كان بها أقول: إنه من الساعة في ضحى نهار السبت التاسع عشر من جمادى الآخرة أو من هو الأولى، إن خانتني الذاكرة، من ذلك اليوم يوم السبت التاسع من جمادى سنة ١٣٤٤ هجرية، أصبحت المدينة تعيش الأمن والاستقرار وآلاف الحجاج يصلون للمسجد بلا إتاوة ولا خفارة ولا يقتل في الساحة المناخة قتيل، لا يعني به عسكري ولا يقاد قاتله إلى حاكم، ففي يوم واحد رأيت ثلاثة قتلوا وكأنهم لا شيء...! ابن سمرة شيخ بني رشيد قتل في المناخة أمام الكباس، وظل ساعات لا يحمله المسلمون إلى قبر، وفي حوش درج بعد ساعة قتل محمدي وبعد العصر قتل رحيلي، فلا عسكري ولا أمين ولا قائم مقام. أما اليوم فلا قتل وإن وقع فالفقاص.

## السلطان عبد المجيد

ونعمت المدينة برخاء منذ تولي السلطان عبد المجيد يبني المسجد

النبوي تكثر الخيرات يهدأ الناس إلا في بعض الحالات لعوامل الشحنات التي بقيت، فعصر عبد المجيد يحمد للعثمانيين غير أن الأمن لم يستتب لسلطان القوة وإنما هو بشيء من الرخاء، فالشحناء بهذا التناؤذ بين سكان المدينة «أهالي مجاورين وتكارنة وبدو»، مع أن الأهالي والمجاورين والتكارنة لم يكونوا إلا أبناء المجاورين، هذا التشاحن مات الآن فعهد السلطان عبد المجيد كان خير العهود العثمانية، لم يتفوق عليه إلا عهد عبد الحميد، وقد كان من رجال عبد المجيد جمل الليل وستحدث عنه بعد، والسيد الصافي الجفري وإن بدأ دور أحمد أسعد يتحرك ليصل إلى الذروة في عصر عبد الحميد.

### السلطان عبد الحميد

وانتشر الرخاء في المدينة في عهد عبد الحميد، أوصل إليها السكة الحديدية والتلغراف والمدرسة والعطاية، ولم تكن هذه العطاية من ميزانية أي دولة بل هي من أوقاف المسلمين، منعها حكام الأقاليم عن الحجاز يوم اشتعلت القومية بل وامتنع عنها عبد العزيز لا يطالب بها.

إن السلطان عبد الحميد كان هو عنوان الرجل المريض، اللقب الذي أطلقه الأوروبيون على الدولة العثمانية ولئن جفونا الاستعمار وحملناه الكثير من الأوزار، فإن السلطان عبد الحميد عليه مسؤولية ذلك، لأن المركزية العارمة أثارت عليه البلقان لو أدرك ما تحيكه بريطانيا وفرنسا وما فعلته إيطاليا باحتلال ليبيا بعد أن احتلت بريطانيا وفرنسا الشمال الإفريقي، لو التفت إلى ذلك لأعطى دول البلقان استقلالها فبدل أن تكون مستعمرة تصبح صديقة ولما جرت مذبحة الأرمن، ولما ذر قرن القومية العربية ولما

اضطر أن يجامل الخديوي في مصر. إن المركزية آفة الإمبراطوريات، يتأتى منها الهمس ليكون بعد ذلك الانحلال.

إن السلطان عبد الحميد ظن أنه في منعة لصداقة ألمانيا وبموقف بسمارك بالذات، حالف ألمانيا، حتى أخذت امتياز خط برلين بغداد فإذا بريطانيا تنمر لأن وصول الألمان إلى الخليج عن طريق بغداد معناه الوصول إلى الهند وما إليه، قطعت الطريق على ألمانيا وفتحت الطرق لهولندا، في أندونيسيا، فكان الشرق أتت منه الحرب العالمية الأولى تهزم ألمانيا وتتمزق الدولة العثمانية، لأن الاتحاديين وكانوا عسكرياً تخرجوا من أكاديمية ألمانيا اتكلوا عليها حتى إذا هزمت كانوا منهزمين.

أما الرجال عند عبد الحميد فهم كما قلنا من قبل أبو الهدى الصيادي، وعزت العابد وأحمد أسعد، ومحمد ظافر وسترجم لكل واحد منهم له وما عليه.

وما زلت مع عبد الحميد، فالرجال الذين حوالية بعضهم كان معه ولم يكونوا له وإنما كانوا عليه، وبعض الرجال كانوا له ولم يكونوا معه، وما كانوا عليه.

وهكذا يمضي الأباطرة يحسنون الظن بالذين لا يستأهلون ذلك ويسيوون الظن بالذين يستأهلون حسن الظن، فالذين كانوا معه وكانوا عليه هم الطرقيون، أبو الهدى الصيادي ومن إليه والبكتاشية الذين هم أنصار مصطفى صبري شيخ العلماء الأتراك. إن أبا الهدى الصيادي جر على السلطان عبد الحميد أن يصبح الرجال الذين كانوا له وما كانوا عليه بعيدين عنه هو أبعدهم من حيث إنه لم يتقبل نصحتهم، أبعد مدحت باشا إلى الطائف وعبد القادر كردي إلى المدينة، فإذا الأكراد والشباب من الترك

غاضبون. حتى الأغوات كانوا يفرضون سلطانهم على كل من يقترب من السلطان. لأنهم يستمدون سلطانهم من «الحرمليك» وكان عبد الحميد يسمع للحرمليك، خصوصاً إذا كان الكلام من السيدة الأولى في «يلدز» القصر الإمبراطوري، إن هذه السيدة واسمها «القوزيته» أي الوردة الحمراء، كانت ذات سلطان على السلطان لها حظوة، والحرمليك كلهن حولها.

لقد كان الصدر الأعظم من أذكى الرجال في عصر عبد الحميد وهو «دلي فؤاد» اسمه فؤاد لقبوه بالمجنون لفرط ذكائه ولدقة أحكامه فكلمة «دلي» بالتركية تعني المجنون، إن هذا الصدر أي رئيس الوزراء كان يعالج الغزو الروسي للدولة العثمانية فالإمبراطورة كاترين التي خلفت زوجها بطرس الأكبر على عرش الروس حشدت جيوشها على الأناضول، ضربت حصاراً على القسطنطينية، لقد جلس دلي فؤاد يفكر ينتظر ما ينجم عن مؤتمر برلين بين بسمارك موحد ألمانيا وذررائلي رئيس وزراء بريطانيا وهو يهودي تظاهر بالتمسح، وكان رئيساً لحزب المحافظين، كان دلي فؤاد يفكر ينتظر أن تسحب كاترين جيوشها أو أن أمراً آخر سيحدث وبينما هو كذلك مر كبير الأغوات الحارس الأول للحرمليك، فقال لدلي فؤاد «إيش فيه يا باشا؟» فقال الصدر الأعظم: «خليك في حالك.. ما في شيء» وانتفخت أوداج الآغا كيف يجيبه دلي فؤاد هكذا، وما كاد يلتفت ليذهب إلى الحرمليك حتى فطن دلي فؤاد إلى خطأ كبير كيف ينهر كبير الأغوات، سيذهب إلى الحرمليك يثير عليه نائرة القوزيته، يغضب السلطان لربما يقيله أو لربما يستقيل.. كيف هذا؟ كيف فعل ذلك وهو ينتظر انسحاب الجيش الروسي فأسرع ينادي كبير الأغوات: تقول إيش فيه؟ مع إنك أنت شايف الجيش الروسي على أبواب الآستانة، فأنا أفكر في ذلك، فقال الآغا الكبير «يوه.. يوه يا باشا دحين مولانا بندر الصنجدك.. علماء كبراء فضلاء

يقرأون مثنوي بعدين روس.. هوف.. هوف.. هوف.. الصنجدك يعني  
البيرق والمثنوي لجلال الدين رومي الذي كان في «قونيا» عاصمة السلاجقة  
والأم الأولى لبني عثمان.

وسمع دلي فؤاد كلام الآغا فقال الكلمة المشهورة يرويها الأتراك الآباء  
للأبناء رفع رأسه للسما يدعو يقول: «يا رب يا تديني عقله أستريح أو  
يأخذ عقلي يجنن» هكذا كان الإمبراطور، ومع كل ذلك أحبته الشعوب  
المسلمة، وثار عليه من رأوا انحلال الإمبراطورية إذا ظل الحال على هذا  
الحال، فولي الدين يكن الشاعر الناثر المصري استعراقاً التركي إعرافاً له  
كتاب اسمه (المعلوم والمجهول) فمن أراد أن يعرف الكثير عن السلطان  
عبد الحميد وعن أبي الهدى الصيادي فليقرأ المعلوم والمجهول، وما كنت  
أعرف هذا الكتاب ولكن أهدانيه الصديق كامل الخلق عبد الوهاب آشي  
يرحمه الله.

هناك فقرة أحفظها من هذا الكتاب تعني ما يلي: ويصدر أمر السلطان  
إلى محمد الجركسي ليقود فلان كما الآخرين يمسك به الجركسي يضعه في  
شوال مثل بالحديد يرميه في البسفور طعام الحوت. ولا تمضي أيام حتى  
يصل رسول السلطان إلى بيت هذا الزعيم الهالك يقول لأهله «إذا غاب  
حاميكم فأمير المؤمنين حاميكم» هنا يقول ولي الدين «يا رب» إنهم  
يخدعون عبادك يسرقون منهم الدعاء للسلطان، إنهم يخدعون المساكين  
ولكن أنت القاهر فوق عبادك.. المنتقم من الظالمين من هنا قال حافظ  
إبراهيم الحكاية الهلكى في البسفور طعام حوت، قال هذا البيت من قصيدة  
طويلة:

مشبع الحوت من لحوم البرايا وفجيع الجنود تحت البنود

صدق حافظ لأنه لم يكن لعبد الحميد جيش، أما الذين كان لهم جيش بعد فالاتحاديون، لأنهم كانوا ضباطاً فكونوا جيشاً عظيماً برز منهم قواد كبار، وضباط عرب لم يكملوا التعليم، فالضباط الكبار من العرب ياسين الهاشمي وأخوه طه الهاشمي وسليم الجزائري وعزيز علي المصري أما الذين لم يكملوا كلية أركان الحرب فنوري السعيد وجعفر العسكري ولا تستغربوا حين أقول لكم إن أمين الحسيني الزعيم الفلسطيني كان من هؤلاء الضباط «نم زاد» أعني الذي لم يتم الدراسة عرفت هذا من صديقه حسني العلي المقدسي المدني كان صديقاً لأمين الحسيني رأيت هذه الصداقة حين زار أمين الحسيني المدينة لم يفارق حسني العلي إلا ساعات قليلة.

### رجال عبد الحميد

أكتب عن أولهم لأن الكتابة عنه تعيني، هو محمد ظافر والد صديقنا نجم الدين ظافر. فهو مدني من بيت كبير في المدينة لهم زعامة أو قيادة «السبئية» يعني الخيالة لأنهم الوجاق الأول من الأربعة الوجاقات، وكان سعود دشيثة هو رأس الوجاق السباهي بعد ظافر، إن محمد ظافر ليست له ترجمة عندي وأول ما عرفت عنه هو ما علمته عن أبيه حمزة ظافر فلقد وقع في يدي خبر في جريدة ليبية فيه أن أول من أنهض الليبيين وبصرهم بما ينبغي هو حمزة ظافر المدني قدرت أنه والد محمد ظافر الرجل الثاني عند السلطان عبد الحميد، الأول أحمد أسعد، وأردت أن أعرف أكثر عن حمزة ظافر فتلفت للسيد عبيد مدني بقية الناس أسأله فقال هذا صحيح مذكور في كتابه عن تاريخ طرابلس الليبية، ولم يسكت السيد عبيد مكتفياً بالإجابة المتلفنة وإنما أعطاني هذا الكتاب، فعرفت قيمة حمزة ظافر كيف أنهض الليبيين على صورة غير صورة ما أحدثه محمد السنوسي، ومع هذا

فلئن كان محمد ظافر مدنياً فإن محمد السنوسي مكي مستعرق وإن كان مغربياً إعرافاً، وخلف محمد ظافر أباه في ليبيا حتى إن ليبيا أصبحت عثمانية وكأنها قطعة من الأناضول، ابنها بشير السعداوي ينصب قائم مقام ينبع، الصلة متينة مكينة بين الليبيين والعثمانيين حتى إن أنور باشا وعمه خليل باشا ومعهما شكيب أرسلان كانوا سنداً لأحمد السنوسي في مقاومة الغزو الإيطالي، وكلهم كانوا رجالاً بلا جيش فانسحبوا.

وللذكرى أيضاً فإن ما أعرفه عن ثلاثة من المصريين كانوا مشتركين في الدفاع عن ليبيا، أولهم عبد الرحمن عزام الذي كان ليبيا أكثر من أي ليبي ومغربياً أكثر من أي مغربي، وحافظ عفيفي، وسيد كامل، حافظ وسيد انسحبا أما عبد الرحمن عزام، فقد كان في القاهرة رداءً وعوناً لكل المغاربة ليس أولهم أبو رقية وليس آخرهم بشير السعداوي.

وانتهى عصر عبد الحميد وبقي لمحمد ظافر ابنه نجم الدين في المدينة وأحفاد في ليبيا عرفت منهم واحداً كان يعمل في جدة وفي السفارة الإيطالية. والليالي من الزمان حبالى وإلى تكملة أخرى.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٨)

في العهد العثماني : لا يسعل الموظف إلا بإذن السلطان .

- أستاذ الرياضيات يدرس التاريخ . . والمعمم يفك اللوغاريتيمات .

- مذهب إمام دار الهجرة . . عاش الغربية في دار الهجرة .

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض ، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية ، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية ، فلن أفحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية ، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن» .

ومن المآخذ التي حسبت على أواخر العثمانيين أنهم ، قادوا الشعوب العربية برجال لهم زعامة نصبوا كل واحد منهم حاكماً على إقليم فإذا

السلطان يقر هذا بل ويحميه من غضب الشعب، في سوريا (اليوسف) صاحب سلطان في دمشق، وفي لبنان (بشير الشهابي) وفي عكاظ نصب على أغلب فلسطين (الجزار) وفي مصر (الخدوي) وفي تونس (الباي) وفي الحجاز (شريف مكة)، ولم يكن ذلك إلا امتيازاً تقليدياً لهذا الزعيم، ولا يعني الحكم الذاتي للإقليم ولا حتى قبول الشكوى من الشعب، يكفي أن هذه الأقاليم عثمانية في المظهر..

وعجيب أن نتهم الاستعمار الإنجليزي والفرنسي بأنه هو الذي قسم أرض الشام «سوريا.. فلسطين.. لبنان» إن هذا التقسيم تم في عهد الدولة العثمانية، وظاهرة أشد غرابة أن حاكم الإقليم لا يستطيع أن يعين موظفاً أو يفعل شيئاً من ذلك إلا بعد أن يستأذن السلطان في مركزية صارمة ولا مركزية ظالمة يتمتع بها الحكام، ويفعل بها ما يريد من مطالبه.. ومن قوة هذه المركزية ما حدث بالنسبة لتعيين أستاذ الرياضة في مدرسة المدينة التي أسسها السلطان عبد الحميد، وكان يضيف عليها، كل سنة فصلاً أعلى فاحتاجت المدرسة إلى أستاذ رياضة عالية.. فكتبوا الطلب إلى الديوان السلطاني (المابين) فوصلهم الأستاذ الذي طلبوه معلماً للرياضة العالية، فإذا هو شيخ معمم بكاتاشي، لا يعرف من الحساب إلا عدد المجيدات يقبضها راتباً له، وفي الوقت نفسه طلبوا أستاذاً للتاريخ والأدب فوعدت القرعة أو المصادفة على الأستاذ الرياضي بشير فؤاد، المعمم يقبض راتب الرياضي، والرياضي يقبض راتب المعمم، ووضعوا الحل أعطوا المعمم دروس التاريخ ونهض بشير فؤاد العالم الرياضي بحق يعلم الجبر والمقابلة واللوغاريتمات وكان من أنبغ تلاميذه صديقنا (كامل هاشم) وهو ليس من بيت هاشم الموسويين أهل البيت الكبير في الساحة، وإنما هو اسم أبيه هاشم.. أدى

الامتحان صواباً بكل معنى الكلمة، وكان بشير فؤاد يعجب بكامل لأنه رياضي أيضاً، وظهرت النتيجة، كل التلامذة خمس من عشر. . ست من عشر، ولا أكثر، إلا إجابة كامل عليها شرح (برافو. . برافو. . برافو. . أفرين. . أفرين) ووضع العلامة على الجواب الصحيح تسعة من عشرة، فراجعته تلميذه كامل، يراطنه بالتركية. . كيف يا أستاذ تعطيني تسعاً من عشر، لازم أنا عشر من عشر. . فضحك بشير فؤاد، وأجاب تلميذه. . لا. . لا عشر من عشر بشير فؤاد، أنا لما أعطيت تسعاً من عشر يعني أنت بشير فؤاد رقم اثنين). .

هذه القصة حدثني بها كامل نفسه، وكلمة (أفرين) حرفتها العامية العربية حيث نقول (عفارم عليك) ومادام الشيء بالشيء يذكر فقد كنا نحن الأربعة المحمدين، ندرس الرياضة العالية على أستاذنا حسين طه في سطح المدرسة، نستعين على الفانوس بنور القمر، نصلي المغرب في المسجد. . خطوات قليلة إلى المدرسة. . نركض على الدرج نجد الأستاذ قد جلس، كنا نحيا ذلك والمدينة محاصرة، الدويش في قباء والفرم في العوالي والنشمي في العيون والمدينة محكومة بحكام أربعة كل على حاله. .

وفي إحدى الليالي ونحن نقرأ، مرت على سماء المدرسة قنابل ثلاث، واحدة بعد الأخرى أطلقتها قلعة (سلع) على جنوب المدينة فقلنا، ليس ببعيد أن تسقط وشهدنا أيضاً - والله الحمد - الخلاص من التتريك ومن بعثرة الحكام إلى ما نحن فيه الآن. .

وعن حكام الأقاليم يذكر ساطع الحصري - أبو خلدون يرحمه الله - أنه، ويعني «اليوسف» حاكم دمشق والشهابي حاكم لبنان أو هو الأمير والجزار حاكم عكا، قد اجتمعوا في عكا يخططون لثورة ضد السلطان

يفصلون فيها الشام عن الأناضول ثم يفصلون الشام قطعة . . قطعة يلبسها الواحد منهم . يقول ساطع الحصري: لقد اجتمع هؤلاء ولكنهم تفرقوا سريعاً لأن قبائل عربية زحفت من نجد على الشام عن طريق بادية الشام، فإذا بهؤلاء الزعماء يرجعون إلى عواصمهم وهم يقولون (الوهابية . . الوهابية)، إن ساطع الحصري يورد هذا الأمر بأن آل سعود وبعقيدة السلف هم كانوا قوميين عرباً، وأنقذوا الدولة العثمانية من الثورة الشامية وعاش ساطع الحصري حتى كانت الشام المعول الأول الذي هدم الدولة العثمانية، كان ساطع الحصري فرحاً بذلك لأنه قومي ولو عاش إلى الآن لترح من ذلك لأنه ليس إقليمياً . .

## الرجال

والرجال الذين نتحدث عنهم في الذكريات، ينبغي أن يكون الحديث شاملاً عن المكان الذي هم فيه والمكان الذي لهم والإمكان الذي تسلطوا به، فلهم إحسانهم وعليهم أخطاؤهم . .

إن المدينة المنورة ظل قضاؤها - أي محاكمها الشرعية وعن طريق الوراثة القديمة للإمارة ذوي حسين الجمازيين التي عاشت دهوراً طويلاً - ظلت هذه المحاكم وقضاؤها على فقه الإمامية، يعني فقه جعفر بن محمد الملقب (بالصادق) مؤسس المذهب الإمامي، وعندما اضمحل سلطان الأشراف ذوي حسين، بسبب النزاع فيما بينهم حتى هاجر بعضهم إلى مصر فأقطعهم السلطان - وأحسبه «الصالح أيوب» - أرضاً في أقصى الصعيد هي قنا فانتشروا فيها إلى الآن، وبعضهم نزحوا إلى الوارقية والحفنة وبعضهم مكث في العوالي، فحانت الفرصة بهذا العجز وبسلطان القوة التي ملكها (ابن فرحون) فألغى القضاء الشيعي وأصبحت المحاكم على فقه المذاهب

الأربعة، حنيفاً في الأكثر تبعاً للسلطان وأحياناً شافعيّاً أكثر ومالكياً أقل وحنبليّاً نادراً..

وعجيب أن يكون مذهب إمام دار الهجرة قد عاش الغربية في دار الهجرة، قلتها وكنت جالساً في بعض الكليات وفي مكة زائراً وجاء أستاذ طويل عريض قد أرخى لحيته وما صغرت عمامته يقول لمأمور المكتبة الباكستاني: خط مسند أبي حنيفة ومسند أحمد، فقلت بحرقة وأين موطأ مالك؟! فقال الشيخ (بعدين.. بعدين) قلت: لقد أنصفت مالك حين سجلت لنا أنه يعيش الغربية في وطنه.. أحسبك ما ذكرت أحمد بن حنبل إلا تزجية ولا تزكية من هيبة مشايخنا، فازور واكفهر وقال للمضيف.. من هذا.. من هذا؟! «يعنيني»، قلت له: طالب علم من دار الهجرة وعلى مذهب مالك، فانصرف غاضباً، ولكنني أدعو له يرحمه الله..

إن ابن فرحون أرخ عن هذه الحقبة وكتابه موجود ومخطوط، فأرجو الجامعة الإسلامية أن حال ما في أواخره عن طبعه فلينهض رجال يخلصونه تحت عنوان (خلاصة تاريخ ابن فرحون أو ما إليه) خروجاً من الحرج وخروجاً من أن يطبع جزء من الكتاب ولا يطبع الباقي، فالتلخيص جائر، فمن أعظم الكتب ما لخص..

وصنيع ابن فرحون واللفيف الذي التف حوله في داخل المدينة، أشاع نوعاً من الضغط على بعض أهل المدينة القدامى سواء كانوا من الأشراف أو من غيرهم..

وسمعنا عن السيد جمال الليل لعلّه من بقايا عصر عبد المجيد وأكثر عصر عبد الحميد أو الجد الأعلى قبل ذلك. جمال الليل نطقها في المدينة (جمال الليل) هو من أعيان السادة (آل باعلوي) عظم نسلهم في حضرموت كثرة ومكانة وإمكانة..

فالسيد في حضرموت له المقام الأول، وانتشر أعيان منهم في ماليزيا وأندونيسيا (كالكاف والسقاف وجمل الليل) وانتشر في المدينة وفي مكة، ولهم احترام كبير، فالحبشي والعطاس والسقاف والبيتي والمحضار والبار وباروم وباجنيد والجفري، كل هؤلاء يحفظون نسبهم وهم أشد الأشراف صوناً لشجرة النسب، وهم من ذرية الحسين بن علي، فالحسينيون أشراف المدينة الأولون وآل باعلوي والبطاطخة والمخادمة في قنا وآل بدر الدين في بخارى والكتانيون في المغرب كل هؤلاء حسينيون. وكان لآل باعلوي امتياز، فشيخ السادة في مكة وفي المدينة هو منهم، وعرفت في المدينة أول شيخ لهم السيد علوي سقاف جد السيد عمر السقاف الوزير ثم السيد عبد الله جمل الليل ثم السيد بافقيه، ولا أدري بعد أن خرجت من المدينة من هو الشيخ..

وما ذكرت جمل الليل إلا لأنه حمل عصاه كأنما هو ورث ابن فرحون اشتد ضغطه على الشيعة، لماذا كان ذلك، لو كان الأمر متعلقاً بغيره لما سألت، إن هذا السيد له البيت الكبير قصراً فخماً في مقعد بني حسين على حافة السور الغربي للمدينة بمحاذاة باب المصري، هو من القصور التي تعد، ولا يكاد يشبهه في المدينة إلا بيت البري على حافة العنبرية وأمام مسجد الغمام وبيت الرفاعي في شرق المدينة على حافة السور كأنما بيت جمل الليل وبيت الرفاعي قلعتان، إني أسأل كيف استطاع جمل الليل الجد الأعلى لهذا البيت أن يملك هذا في مقعد بني حسين، وقد كان هذا المقعد سكناً للذين سمي باسمهم، هل اشتراه من مالكة الأول الحسيني؟ ولعله كان قصر الأمير، هل ملكه بالوراثة؟ لأنه نمي إلى علمي أن جدته (من بيت سبتي) الذين هم كبيت النحاس والمشيوخ من أقدم بيوت الشيعة.. إن هذا البيت يغري كل من رآه أن يقول (يا ليت لي بيت زيه) هو أشبه ما

يكون بيت موسى بغدادي في جدة الذي أصبح مكاتب جفالي ومن إليه، وليس هو شبيهه بقصر شبرا أو القصر المشنشن في مكة يعني القصر المحروق (أيضاً «جفالي أخوان»).

## السيد الصافي

ومن رجال عبد المجيد ولم يلحقه أذى في عصر عبد الحميد هو السيد الصافي الجفري، عاش كثيراً في اسطنبول وارتبط بصداقة قوية مع جمال الدين الأفغاني وفي عصر عبد الحميد صار شيخاً في المدينة، أنا شهدته عام ٣٤ هجرية ولما أكمل العاشرة كان يركب عربة يدفعها خادمه لأنه لا يستطيع المشي، بنى بيوته في الساحة، واقتنى أغلى المجوهرات يقولون (ثلاث عرايس في المدينة يمكن أن يتحلوا بمصاغ جارية من بيت الصافي) أدوات المائدة ما أحسب أنها موجودة عند أحد الآن، لأن الترف ضاع بشيء من السرف لبسه الاستعجال لا الذوق، ابنه زين صافي الأكبر وابنه أحمد كان أحد الطلائع في المدينة..

جعفر حبشي ابن السيد علي، أحمد الصافي، عمر كردي قبلهما، عبد الله مدني، يحيى محروس، حمزة غوث، دياب ناصر، علي ناصر أحمد كماخي، حسن داغستاني، كانوا فبانوا يرحمهم الله.

وللسيد الصافي طرفة فيها كبرياء، كانت مع السيد أحمد أسعد وللسيد الصافي شهادة عن علاقته بجمال الدين الأفغاني، وجمال الدين الأفغاني يرحمه الله أدى فريضة الحج مسلماً ناصر عقيدة السلف ناضل عن الإسلام ولكن الطريقين والمتحذلقين والصبية المغفلين يتسافهون عليه، حتى أصبح الموت لا حرمة له..

الطرفة مع السيد أحمد أسعد أنه عندما تولى رشاد واستغول الاتحاديون

رجع السيد أحمد أسعد إلى المدينة فزاره السيد الصافي وإذا هو يرى على السيد أحمد (صاقو) أي الجاكت الذي يرتديه من السليمي أغلى الصوف وأغلى الحرير فلما انتهى السيد الصافي من كرامة التزاور دعا السيد أحمد إلى الغداء في بيته الكبير في الساحة واسمعوا ماذا صنع أو اقرأوا. (أهي التلفزة والإذاعة حملتني أن أقول اسمعوا بدلاً من اقرأوا؟!).

أعد المائدة في المجلس الأعلى ليكثر عدد الدرج، لماذا؟ لأنه فرش الجر السليمي من باب البيت عتبة عتبة إلى المجلس الفوقي بهذا القماش الحرير السليمي الذي كان الحزام فيه - في ذلك الزمان بأكثر من مائة جنيه ذهب أفكم قيمة هذا الجر السليمي الذي فرشاه السيد الصافي حليته على الدرج تحية للسيد أحمد أسعد أو هو يقول له هكذا صنع لي عبد المجيد فماذا صنع لك عبد الحميد.

### شغل أكابر:

أما عن جمال الدين فقد كنا عصر يوم عند الشيخ عبد القادر طرابلسي وكان المجتمعون ماجد عشقي حسين طه أحمد صقر محمد زيدان عثمان حافظ، وجرى الحديث فإذا الشيخ يسب جمال الدين لأنه كان صديقاً ليوسف النبهاني، فالشلي والنبهاني لهما رأيهما في جمال الدين، فقال الشيخ عبد القادر: وهابي جمال الدين ما يحب النبي، فنهض السيد أحمد صقر يقول: لا يا مولانا رأيت بعيني كتاباً من جمال الدين إلى السيد الصافي جاء فيه (لقد أدت فريضة الحج وحسني حابس الفيل عن المسجد النبوي فأرجوك أن تقف أمام قبر رسول الله تقرئه سلامي تقول «تابعك خادمك جمال الدين يقرئك السلام» وأشرق وجوه واكفهرت وجوه.

اللهم امنعني عن سب الأموات وارحمني بالكف عن أذى الأبناء بسبب

الآباء..

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٩)

### الملك عبد العزيز لم يصادر ملك أحد من الأشراف

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قريهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن» .

### السيد أحمد أسعد:

وليس أحمد أسعد أول الرجال عند السلطان عبد الحميد إذا نظرنا النظرة العامة بالنسبة لشؤون الدولة العثمانية وإنما هو أول الرجال بالنسبة لما فعل في الحجاز وفي مصر . . كان طوال حياته التي عاشها - أيام السلطان

عبد الحميد - مكلفاً بما ينبغي للحجاز أو بما يريده السلطان عبد الحميد وفي مكة كان الشريف عون الرفيق عبدلياً من أبي نمي استطاع أحمد أسعد أن يسحب صلته بمصر لأن أسرة أبي نمي العبدلي كانت ذات علاقة قوية بأسرة محمد علي وبكثير من المصريين لأن محمد علي هو الذي نصب محمد بن عون بدلاً عن الشريف غالب. . ولكي يحافظ الشريف عون الرفيق على إمارته لم يجف مصر كل الجفوة وإنما هو تعلق بأحمد أسعد فإذا هو يخطب ابنة السيد أحمد أسعد وأحسب أن اسمها فاطمة زوجاً للشريف عبد العزيز بن عون الرفيق. . كانت هذه المصاهرة التي أعطت للشريف عون الثبات على إمارته فلم يعزل رغم كثرة الشكوى منه إلى السلطان فأیما شكوى وصلت إلى السلطان عبد الحميد يراها أحمد أسعد برغبة السلطان وآخر شكوى وصلت (إلى المايين) كانت مضبطة وقعتها أعيان مكة عرفت منهم عن طريق الرواية عميد آل الشيبلي لا أدري أهو عبد القادر أم غيره والشيخ عابد مالكي ومن إليهم أخذ المضبطة أحمد أسعد وأرسلها للشريف عون فإذا الشريف يدير الأمر بحكمة فلم يدع أحداً من هؤلاء الذين وقعوا المضبطة بل أمر محمد عبد الواحد الكاتب والد درويش كاتب أن يخبر هؤلاء بأن الشريف علم عنهم فخافوا بطشه وخرجوا إلى الطائف. . وهنا العجب. . كيف أمنوا في الطائف هل لأنه تركهم أم لأن نفوذه ليس قوياً على الطائف. . على ثقيف. . على بني سفيان. . على النمر سفيان ولكن عون أقسم أن يرفعوا الأقلية عن الأكثرية أو المقلين عن الكثيرين. .

تجنب ذكر الكلمة نصاً سمعتها من الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن تغمد الله برحمته وهو يدفع عن نفسه أن يكون مثل من سبق وجدير بي أن

أؤيد ذلك فعبد العزيز بن عبد الرحمن لم يصادر ملك أحد من الأشراف ولم يرزأ أحداً منهم بسوء حتى أبناء عون حينما كشف أمرهم خرجوا بسلام ومعهم ما يملكون وآل غالب لم يصادر لهم شبراً من الأرض بل فعل العظيم من فعله دعاهم أن يرجعوا إلى مكة من الأناضول. . أبناء عمهم لم يرجعوههم وأرجعهم عبد العزيز وأعطاهم ما يملكون فإذا هم في العزة يعيشون وفي الوطن لا يغتربون.

أحمد أسعد ثبت عوناً في إمارته طول حياته ومات عون في أواخر عصر عبد الحميد وفي جدة كان مع الأفندي عمر نصيف يساعده ينصره على موسى بغدادي حليف العبادلة فمكث عمر نصيف السيد في جدة يصاهره أحمد هزازي والحاج زنيل وبيت طبيله والمغربي لقد صنع أحمد أسعد لعمر نصيف الشيء الكثير وقد رأيت الأفندي محمد حسين نصيف وكان له في جدة وفي العالم الإسلامي وعند آل سعود ومشايخنا مقام كريم رأيته الوفي لأسرة أحمد أسعد.

أما في مصر فهي العجيبة والعهدة على الرواة سمعنا أن الخديوي إسماعيل لجأ إلى أحمد أسعد ليصدر فرماناً من السلطان بحصر وراثته الخديوية في إسماعيل وبنيه فلم يتول الأمر في مصر بعد إسماعيل إلا بنوه توفيق وابنه عباس وحين خلع عباس - على يد الإنجليز - تولى السلطان حسين كامل لأن الإنجليز ألغوا الخديوية وأحدثوا السلطنة ثم تولاهما الملك فؤاد بن إسماعيل ثم ابنه فاروق «وتلك الأيام نداولها بين الناس» إن ذلك يدل دلالة أكيدة على خطورة ما صنع أحمد أسعد ولا أريد أن أنسى أن الملكة دينا ابنة الشريف عبد الحميد بن عبد العزيز بن عون كانت جدتها بنت أحمد أسعد.

وفي المدينة المنورة ارتفع قدر بعض الأسر الذين كانوا لأحمد أسعد أصهاراً أو أصدقاءً وللاإنصاف لم يضغط أحمد أسعد على الأسر القديمة وإنما هي الأسر الجديدة التي ترسخت لها أقدام في المدينة هي التي ارتفعت بنفوذ أحمد أسعد ولا حاجة لذكر الأسماء حديثها وقديمها.

ودالت الأيام وفي عهد الأشراف فرغت - يد السيد أبو السعود بن أحمد أسعد - فإذا بابنه هاشم مفتش في البلدية وإذا بالسيد عبد المحسن أسعد وحسن أسعد يعيشون في مصر فتناسلوا هناك لأن القصر في مصر حفظ لأحمد أسعد صنيعه .

ولا أنسى مرة أخرى أن الخديوي إسماعيل عندما تلقى فرمان وهب السيد أحمد أسعد خمسة عشر ألف فدان من الأرض الجيدة فرفض قبولها أحمد أسعد وقال: لا آخذ أجراً أو رشوة على عمل كنت الوسيط فيه لدى السلطان .

وفي هذا العهد - عهد المملكة العربية السعودية أقص خبرين عن أبي السعود أحمد - أو هما أخبار ثلاثة .

فالخبر الأول كان في حفل زواج ابنة السيد أحمد أسعد على محمد رضا والد السيد أحمد رضا وأرسل الشريف عون من يمثله وموسيقاه على رأسها يوسف قطان ويذهب عمر نصيف يستقبل الضيوف كأنه من أهل البيت فقال أبو السعود لعمر نصيف (خلي الشيخ يوسف قطان يدخل مع الضيوف) فقال عمر نصيف لا . . خليه يحافظ على مقامه فيما هو موكل (إليه) .

والخبر الثاني وفي هذا العهد الميمون في أوائل الخمسينات الهجرية وصل إلى المدينة يوسف قطان وابنه عباس ورغب أن يشتري أرضاً في

المدينة ولعلكم لم تعرفوا أن عبد الله باشا باناجه ويوسف قطان وبعض العبادلة كانوا أصحاب ملك في مصر وبواسطة السادة آل المدني زين العابدين وإخوانه توسطوا عند أسعد إبراهيم أسعد فاشترى حصته من أرض السبيل أمام باب الشامي أمام شيخ النمل أمام سقيفة بني ساعدة وعند كتابة الصك يبيع أبو السعود أسعد حصته من السبيل كان القاضي السيد أحمد البرزنجي فعز عليه ألا يعلم أبو السعود أسعد عن هذا الذي يقسم أرض السبيل قسمين فبصورة وبأخرى أجل كتابة الصك لليوم الثاني وأخبر أبا السعود أسعد عن الصفقة وما كاد القاضي ينص الإفراغ يبع النصف ليوسف قطان حتى أوقف أبو السعود أسعد نصف السبيل مشاعاً فأوقف ما يملك ليعطل القسمة تباع لما يملك ابن أخيه كبرياء وأي كبرياء مع أنه كان في حاجة ماسة إلى قيمة هذا النصف لو باعه وبلغ التعصب المدني يحيى أبو السعود أسعد ولكن الملك عبد العزيز عوض عباس قطان بأرض المرادية على عدوة بطحان «أبو جیده» وعلى الشرق من حزم العنبرية.

أما الخبر الثالث ففي ضحى يوم كنت أجلس عند الصديق صلاح الدين عبد الجواد في دكان أبيه في سوقة فإذا أبو السعود أسعد وصل إلى حيث نجلس قادماً من جهة المسجد وإذا أبو أحمد سعود دشيشة قادم من جهة باب المصري إلى المسجد فأمامنا والشارع ضيق تحاذى كتفا الرجلين فلم يقرئ سعود دشيشة السلام على أبي السعود ولم يقف ليحييه حتى إذا مر خطوة التفت أبو السعود أسعد ينظر إلى سعود دشيشة نظرة محترقة حارقة.. إنها خصومة محمد ظافر وأحمد أسعد بعد أن زال كل شيء لهما بوفاة السلطان عبد الحميد فسعود دشيشة كان لمحمد ظافر والأيام دول..

## المدرسة وخريجوها

وقلت أكثر من مرة إن الأمية قد انمحت من المدينة قبل أكثر من مائة عام.. مدرسة إعدادية.. وثمانية عشرة مدرسة تحضيرية.. وأكثر من خمسة عشر كتاباً، ومدرسة دار المعلمين كل هذا الكم مضافاً إلى المسجد محا الأمية فإذا أبناء المدينة يحملون عبء الوظائف في اللاسلكي ومشروع الخرج والسكة الحديد ووزارة الدفاع وفي مصالح أخرى.. الأمية حين انمحت أصلتهم والقسوة حين اشتدت أرسلتهم..

إن الذين تخرجوا من المدرسة الإعدادية كانوا طليعة الرجال في المدينة. لم تحتج وظائف الدولة إلى مجلوب أو متقاعد ولعلّي أسرد أسماء الذين تخرجوا من هذه المدرسة من الفوج الأول جميل أحمد، ماجد عشقي، محمود أحمد، صالح كردي، أكلوراني، إسماعيل حفطي، حامد حمد الله.. وبعدهم طالب توفيق، عباس توفيق، عبد الله توفيق وبعدهم حسين طه، أحمد أبو بكر حمد الله، محمد علي طه، محمد مغيربي، عبد القادر عبد الجواد وبعدهم مصطفى عطار، صالح طوله، محمد خاشقجي، علي حمد الله، أحمد زارع سنده، كامل هاشم.. كل هؤلاء عملوا وكانوا الطليعة.

وأحب أن أضع تعريفاً ليس هو الترجمة لواحد من الذين ذكرتهم والذين خرجتهم المدرسة فأصبحوا الرجال أدوا الواجب نحو أنفسهم وما تأخروا عن تحمل ما ينبغي لمدينتهم، أحب التعريف لهم بالقدر الذي عرفت به كلهم رأيتهم وعرفت أكثرهم معايشة أو مصادقة أو سماعاً.

## ماجد عشقي

السيد ماجد عشقي ما كان يصلح صاحباً وإنما هو الصالح بكل الصدق

صديقاً، ابتعد عن الكثير واقتربت منه قلة تصادقه عقله أقوى من عاطفته، لأن عاطفته حصرها في الحب العظيم فاقتصرت على هذا الحب، تزوج هذه الحبيبة وهي ابنة زين العابدين توفيق أبو السيد ماجد خاله، فهي من نسل عمته، أحبها، سعد بها، لكنها ماتت نفساء في أيام قاهرة يوم احترقت القلعة في باب الشام.. يومين متتالين قذفت قنابلها على البيوت التي هي قريبة منها (زقاق جعفر، حوش العبيد) كان الحريق لم يتجه إلى سمت الجنوبي، ولم يغزب ولم يتشامل، ماتت الزوجة فبقي السيد ماجد ثمانية عشر عاماً لم يتزوج ثم تزوج ابنة أستاذنا الشيخ قاسم أنديجاني فهي أم بنيه الآن، وحين تخرج السيد ماجد عين مديراً للمدرسة الرشدية في جدة، ومصادفة غريبة - أو هي حبيبة - أن يتولى إدارة مدرسة جدة اثنان.. صديقان ومن زقاق جعفر الأول ماجد عشقي في عهد الأتراك والثاني السيد أحمد صقر في عهد الأشراف، وأصبح الاثنان بعد زميلين كأستاذين لنا..

وحدثت للسيد ماجد طرفة، حانت الإجازة وعزم على الرجوع إلى المدينة، أحب الرجوع سريعاً.. لم يركب الجمل من جدة إلى المدينة فالمراحل طويلة لعلها تبلغ أكثر من ثمانية أيام، فعرف أن السفينة الشراعية مسافرة إلى ينبع، فأراد أن يختصر الزمان.. هي ليلة من جدة إلى ينبع في السفينة وأربع ليالٍ من ينبع إلى المدينة، ذهب إلى السفينة وقد طلع الهلال، رأى الهلال على وجه أحد مودعيه فتفاءل برؤية الوجه الجميل ولكن لم يصل إلى ينبع إلا بعد ثمانية عشر يوماً! لأن (الحاية) أي الرياح عاكست السفينة الشراعية.

وجاء يوم وإذا هذا الشاب أصبح رجلاً كبيراً قيمة ومقاماً يحييه السيد ماجد عشقي، يكتب الضحكة في صدره ثم يقصّ عليّ هذه القصة، قلت له

لقد شاب، وحين رأيته الآن لم يكن الهلال، مرضت بذات الرئة كان يزورني وفي آخر زورة قام لترك المكان إلى الزائرة (المحترقة) التي أحرقت المرض عني.

لقد كان السيد ماجد ذواقاً، فحين خرجت أزور المدرسة وأنا في دور النقاهة قال: كانت تلك الزائرة هي العافية للعافية، وحين احترقت لم أخبره لأنني لم أرد نكء جراحه الأولى التي ما نساها إنما هو يتناساها.

### حامد حمد الله

لعله من الفوج الأول من الذين تخرجوا من المدرسة الحميدية. هو من أهل ينبع من بيت حمد الله وزارع أخاه علي حمد الله وأبناء عمه آل زارع، رأيته في ينبع أيام فخري باشا حينما سافرنا إليها، ابن عمه أبو بكر حمد الله كان مدير المدرسة. رأيت حامداً أبيض طوالاً كان في ينبع مديراً للسوقيات وحسين باسلامة رئيساً للبلدية بعد عبد القادر عبده والسيد مصطفى الخطيب القائم مقام، السوقيات هي تموين الجيش الشريفى، سواء ما يسمونه عرض الشريف علي في «الفريش» أو عرض الشريف عبد الله في «وادي العيص» أو عرض الشريف فيصل يوم تشامل حتى العقبة وبعد العقبة كان التموين له عن طريق آخر، ولكن كيف أصبح مديراً للسوقيات؟

يتسلم كل ما يصل إلى ينبع عن طريق العون الإنجليزي من المال والدقيق والسكر والشاي وما إلى ذلك. كان المدير الأول للسوقيات صادق باشا يحيى المصري الذي أصبح فيما بعد وزيراً للحربية المصرية، وضاق الحسين بن علي به كما ضاق بعزيز علي مصري وكما ضاق بكامل القصاب فقال الحسين يرحمه الله من لي بحجازي، يدير السوقيات فكان حامد حمد الله هو الذي أمسك بها.

والغريب أنه ما ترك ثروة وراءه ولقد تولى بعد ذلك رئاسة ديوان أمارة المدينة قبل عبد الله عمير أو قبل رشيد أفندي، أما أخوه علي حمد الله فكان في الديوان مسؤولاً عن البرقيات والشفرة، حامد حمد الله مدير بنك القاهرة وعلي حمد الله والد حامد حمد الله الذي كان سكرتيراً لوزير المالية للمملكة العربية السعودية حتى عهد معالي الوزير محمد أبا الخيل . .

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان ( ١٠ )

### عهد الاتحاديين . . هل كان صحوة الموت؟!

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أفحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحبباً يتقاربون وبالعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

- في عهد السلطان محمد رشاد . . عرفت المدينة الترف

- امتياز خط برلين - بغداد سبب في موت الرجل المريض

### السلطان محمد رشاد والاتحاديون

وفي عهد السلطان محمد رشاد، في أواخر العشرينات إلى أوائل

الثلاثينات.. عاشت المدينة المنورة في رخاء بلغ حد الترف سواء في الحاضرة أو من حولها من القبائل.. توسع فيها البناء، فقد كان أهل المدينة الأوائل يتعدون عن البناء في شمال المسجد المقارب له أو البعيد عنه، أعني ما يسمى بباب المجيدي، غلب هذا الاسم على هذه الناحية، لأن أهل المدينة تجنبوا البناء هناك، عن عقدة تروى لهم. وهو أن وادي مشعط موبوء، كما تجنبوا البناء شرق المدينة لا يقتربون من البقيع ولا يحبون أن يقطعوا النخيل في أرض الصدقة فأول ما اتسع البناء خارج السور كان في غرب السور، الأحوشة في سفح سلع وزقاق الطيار والسيح والعنبرية وأحوشتها، وفي الجنوب التاجوري والتاجورية والجديدة والبربورية، وأزقة النخيلين حتى باب العوالي، لكن الكثرة المهاجرة من التركستانيين والأتراك والمغاربة توسعوا في البناء فكانت الأرض التي اتسعت لهم هي أرض باب المجيدي، لأن هؤلاء المهاجرين جاءوا بأموال ونمت إليهم بأموال من عملهم في المدينة، فأول بناء قام هو بيوت باشا من طابقين أرضي (حجرات) وفوقي (غرفات) حول بئر (حاء) ثم بنى البشناق وأبو عزة بيوتهم وبنى كذلك عبد الجليل مدني بناء على شارعين في باب المجيدي أمام بيت الدكتور أمين أفندي الطيب التركي، وقد انفرد بيت الطيب باللون الأبيض، وقد آلت ملكيته بالشراء إلى الشيخ عبد الرحمن القصيبي والد الدكتور غازي القصيبي فكلما وصل إلى المدينة يسكن هذا البيت وفي آخر الأيام من إقامتي في المدينة سكنت باب المجيدي وتركت بيتنا في السيح وبيتنا في زقاق الطيار لمستأجرين، وكان ذلك لأكون قريباً من بيت والد الزوجة محمد أبو داعوس ومن القرب لدار الأيتام التي تأخذ مني النهار كله وبعض الليل. حماسة أحمد الله عليها. وكلما وصل المدينة عبد الرحمن القصيبي كنت قريب الصلة به فأول ما عرفته أنا والشيخ محمود شويل يوم كنا في

بومباي، فما استطاع مكتب الحاج علي زينل أن يهيئ لنا سرعة الرحيل إلى المدينة على الباخرة لأن العودة كانت في وسط شوال عام ١٣٥٢هـ، فلجأنا إلى القصيبي واستطاع أن يعجل لنا السفر، من هنا عرفناه.

أما البناء بعد أن فتح بصري باشا الباب في السور فكانت هذه البيوت، بيت السيد محيي الدين والد السيد أسعد وجد السيد ماجد ثم بيت السيد علي الذهبي، وقد كان هذا البيت ينزل فيه الأمير شكيب أرسلان يوم جاء إلى المدينة هو مع عبد القادر المغربي الدمشقي لأن صلة شكيب أرسلان بالسيد علي الذهبي أتت من صلته في ليبيا، أيام كان الأمير شكيب هو وأنور باشا وخليل باشا مع السيد أحمد شريف السنوسي لمقاومة الغزو الإيطالي، لأن الذهبي لبني من أعيان ليبيا، وكان هذا البيت أيضاً على مدخل الفيروزية التي هي من أملاك بيت حماد، وعلى المدخل الغربي بني السيد زين العابدين مدني بيتاً كبيراً لم ينتفع به، كما أن السيد عبد الجليل مدني لم ينتفع ببيت باب المجيدي، كما أن السيد عبد الله مدني قد بني البيت الكبير في باب المجيدي حول (صيّادة) البستان القديم من عهد الرسول ﷺ لم ينتفع أيضاً به، كان بناؤه كفندق ولكن كان النفع لأبني السيد عبد الله مدني، حيث كان السيد عبيد عضو مجلس الشورى وله مقامه وله مكانة من الصداقة لمحمد سرور الصبان فاستطاع السيد عبيد أن يبيع هذا الفندق بواسطة محمد سرور إلى الملك سعود يرحمه الله، وكان في ذلك له قيمة من الشكر لمن بني الفندق ولمن باعه ولمن اشتراه، والله يضع البركة حيث يشاء.

وكان باب المجيدي قد اتصل بالتمار حيث بني السيد علي حبشي بيوته هناك، وكذلك آخرون، أما خراج باب الشامي فهناك بيتان شهيران، كما

ذكرنا من قبل بيت الجلوني من أغنياء مصر وقد كان لهم ملك في المدينة، الجلونية في قربان وخيف السيد على حافة وادي قناه، على مدخل العيون، وقد اشترى إبراهيم فراج والد عيد فراج وعلي فراج، هذا الملك من الجلوني وبيت فراج لعله على صورة ثانية من محمد محروس بالنسبة لما ملك من النخيل، ومصادفة أن إبراهيم فراج ومحمد محروس من صعيد مصر ومن مديرية قنا، أعرف أن محمد محروس صاحب الملك الكبير في العيون من (أبنود) وقالوا لي إن إبراهيم فراج ومصطفى عبد العال التاجر الذي حمل كتاب الشريف شحاذ بن علي إلى الملك عبد العزيز يرحمه الله، يطلب منه أن يرسل أحد بنيه ليدخل المدينة سلماً، مصطفى عبد العالم أيضاً هو من صعيد مصر كمحمد محروس، ككاتب هذه السطور، غير أن أولئك من قنا ومن أبنود، أما كاتب هذه السطور فمن أسبوط ومن قرية المطيعة بالذات. وهناك معيرة لأهل أبنود لأنهم يحترفون التجارة وجمع المال أذكره وأرجو ألا يغضب الابن نذير محروس ومن إليه من أولاد العم حين أذكر هذه المعايير.

(عاشر يهودي ولا تعاشر أبنودي!!) يعني أنهم أكثر عملاً في جمع المال، وقد صح هذا المثل في جمع المال من الذين ذكرناهم، أما كاتب هذه السطور فقد ورث من البداوة بعثرة المال.

إن هذا العهد الرخي جعل الناس في المدينة يستبشرون بعهد السلطان رشاد كما كانوا مستبشرين بعهد السلطان عبد الحميد.

لقد تولى السلطان رشاد ملك آل عثمان بثورة حزب الاتحاد والترقي تحت شعار ما تلقوه من الثورة الفرنسية (حريات.. عدالات.. مساوات.. أخوات) إن هذا الشعار لم يكن إلا عن عنعنات وسبباً إلى السلطان فقط،

فلا حرية للبلقان ولا عدالة للأرمن ولا مساواة مع العرب ولا أخوة مع مصر بصور خاصة..

إن الاتحاديين أعلنوا التعاون مع ألمانيا بصورة جهيرة فأكثرهم ضباط تعلموا في مدارس ألمانيا، كان رئيس الوزراء الصدر الأعظم طلعت باشا فانتشر اسم طلعت في العالم العربي، وكان من الوزراء ومن كبار الاتحاديين أنور باشا وانتشر اسم أنور، كما كان نيازي من كبار الاتحاديين وانتشر اسمه كذلك، كما انتشر اسم جمال وفخري وكلهم من الاتحاديين، ويعني ذلك من انتشار هذه الأسماء أنهم مكان إعجاب فالعواطف أعجبت ولكن النتيجة لو عرفها أهل العواطف لما كان هناك هذا الانتشار لأسماء الاتحاديين، كل أقطار الدولة العثمانية كانت تطالب باللامركزية، ببعض الحكم الذاتي ولو عقل الاتحاديون ما ينذر به المستقبل من وراء صداقتهم لألمانيا ومخافتهم من روسيا وعداوة الإنجليز والفرنسيين لهم لما أسرفوا بهذه القومية التركية فأعلنوا الطورانية، إن لم يذكروها بلسان فقد نصبوا التتريك في المدارس، التعليم في المدرسة التحضيرية إلى غيرها كلها بالتركية، فلم يعد هذا الأمر يطاق فاحتضنت فرنسا مؤتمر باريس المشكل من الشباب السوريين ومن إليهم خليل عبد الكريم والزهراني وغيرهما ومن تأسيس حزب العهد.

ياسين الهاشمي فيصل وعبد الله بن الحسين وغيرهما من العرب ولما اتهموا عزيز علي المصري حتى كادوا يشنقونه مع ياسين الهاشمي وعزيز المصري من كبار قواد الدولة العثمانية، لقد بقي عزيز المصري قائد الجيش الثامن، وهو القومي العربي مع الدولة إلى أن سقط جمال باشا في دمشق وإلى أن دخل فيصل بن الحسين دمشق، وفاء عربي وانضباط عسكري

يرحمه الله ياسين الهاشمي ولا بد أن أذكر موقفاً كحادثة بسيطة بالنسبة لمكانة ياسين الهاشمي يوم كنت قومياً أحمر قبل أكثر من خمسين عاماً، كنت ألقى درساً في التاريخ في المدرسة الأميرية، يوم كنت أستاذاً فيها، وجاء قاصد يقصدني الأستاذ حسام الدين مصطفى مأمور اللاسلكي والمنتدب لتدريس اللغة الإنجليزية في المدرسة جاء قال لي: ثورة في العراق قتل ياسين الهاشمي، فما استطعت أن أتماسك جلست على الأرض على ركبتي حسرة وأخيراً خرجت من الفصل أستأذن أذهب إلى البيت، حسام الدين مصطفى عرف الخبر سمعه من اللاسلكي، لأن المدينة حينذاك لم يكن فيها راديو وفي العصر بعد أن استرحت ذهبت إليه فعرفت التفصيل لم يقتل ياسين باشا يعني أنهم لم يسيلوا دمه في العراق وإنما هم قتلوه وحين رحل من بغداد يموت في بيروت.

ما أكثر خسارة العرب لهؤلاء الرجال وما أكثر خسارة العرب بالسبيء من الرجال.

والاتحاديون ورثوا عن علاقتهم بألمانيا السبب الذي كان من الأسباب التي أشعلت الحرب العالمية الأولى أو هو السيف الذي أجهز على الرجل المريض كأنما عهد الاتحاديين صحوة الموت لأنه والحق يقال عسكر الدولة العثمانية كونوا جيشاً واقتنوا سلاحاً جديداً ومتطوراً في ذلك الوقت مدداً من ألمانيا، فازداد كيد الإنجليز وازداد نفوذ الفرنسيين.

بين أهل الشام (فرنسا الأم الحنون) صداقة ألمانيا وتكوين الجيش والسلاح وخط برلين بغداد هي التي عجلت بالموت للرجل المريض.

إن خط برلين - بغداد امتياز أعطى لألمانيا سبب غضب الإنجليز لأن وصول ألمانيا إلى بغداد والخليج يعني وصولهم الهند. وحين سقط العرش

العثماني ونهض مصطفى كمال لا يسأل عن أقاليم غير الأناضول، كل عقله وعواطفه مع الأناضول، لم يكن كأنور باشا عاطفياً، فبعد هزيمة الدولة ذهب أنور التركستاني طفرانياً فإذا هو يجيز الروس على السيطرة على تركستان ولا يمكن أن يحتمل أنور هذا السبب وإنما هي القشة قصمت ظهر البعير.

فالاتحاد السوفيتي روسيا الجديدة لا بد أن يحتل تركستان غير أن عمل أنور عجل بذلك.

مصطفى كمال كتب في مذكراته عن خط برلين - بغداد ما يعيب الاتحاديين وهو منهم غير أنه لم يكن من الجنرالات الكبار أول العهد، قال إن امتياز خط برلين - بغداد كان خطأ كبيراً فقد جاء في نص الامتياز أن هذا الخط لا تنحصر مساحته في ممر القضببان أو إقامة المحطات بل جاء في النص أن لصاحب الامتياز إمبراطورية ألمانيا حينذاك الحق في امتلاك ثلاثة كيلو مترات شرق الخط يعني عرض الأرض لمرور هذا الخط ليست بضعة أمتار إنما هي ستة كيلو مترات من شمال الأناضول إلى شط العرب، يقول مصطفى كمال إن هذه الستة كيلومترات ستصبح سكوناً وملكاً لستة ملايين ألماني فماذا نصنع مع هؤلاء الألمان حين يصبحون ستة ملايين ألماني سوف لا يكون أتراك، إنه يعيب هذا الامتياز من الناحية الوطنية سلب الأرض بينما عابه غيره بأنه السبب في موت الرجل المريض.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان ( ١١ )

الثناء على الماضي عظة . . وذكر سوءاته عبرة  
بسبب التتريك . . ثار العرب على العثمانيين

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

وقبل أن نبدأ بسرد الذكريات عن عهد السلطان محمد رشاد والاتحاديين، ينبغي أن نذكر للسلطان عبد الحميد، الحسن من فعله، فيهود (الدونما) الذين لجأوا من الأندلس تحت ضغط محاكم التفتيش كانوا

أصحاب صولة في أزمير وفي الآستانة، إن الأسباب فعلوا بالمسلمين العرب وباليهود ما هو أشد شناعة مما فعله النازيون مع اليهود، فألجأ المغرب كله المسلمين - كما ألجأ السلطان سليمان ملك المغرب اليهود - لكنه أجبرهم على الإسلام فتظاهروا به تحت القهر ولم يكونوا بالمسلمين، وتاريخ المغرب مدون به ما يبرهن على ذلك، كما أن السلطان سليمان القانوني، وقد بلغ من القوة مكاناً لا يجد من ينازعه حتى إن البحر الأبيض المتوسط كان بحيرة عثمانية وحتى توسع في غزو البلقان ويوغسلافيا بل وحاصر فيينا، وقد أوقع إمبراطور فرنسا في الأسر ثم أطلقه فيما بعد، فعل ذلك بشفاعة سيدة الحرملك ذات الحظوة لديه وكانت فرنسية، هذا السلطان سليمان القانوني على عظمته كإمبراطور مسلم - أعتلت في عهده الدولة العثمانية وقد لجأ اليهود إليها من الأندلس ولم يلجأ إلى الأناضول عربي أندلسي، من هنا كان أبو البقاء الرندي صاحب القصيدة الباكية على الأندلس كان يعني السلطان سليمان بكل ما جاء في هذه القصيدة، ومطلعها:

لكل شيء إذا ماتم نقصان      فلا يغرب طيب العيش إنسان  
هي الأمور كما شاهدتها دول      من سرّه زمن ساءته أزمان

ثم يقول - ويعني السلطان سليمان:

يا راتعين وراء البحر في دعة      لهم بأوطانهم عز وسلطان  
أعندكم نبأ من أهل أندلس؟      فقد سرى بحديث القوم ركبان

ثم أنثر معاني ما جاء بعد يقول واصفاً الطفلة التي هي في حسن الشمس إذا طلعت يقودها العالج مكرهة والعين باكية والقلب حزين، لقد

أفرغ أبو البقاء المأساة المحزنة فلا يجد من يعاتب إلا السلطان سليمان يحاصر فيينا عاصمة النمسا ليطلق أسيراً ولا يتحرك لينقذ إسلامه ومساجده من جور محاكم التفتيش ولكن مع ذلك فالسلطان سليمان القانوني من أعظم الملوك المسلمة..

إن يهود الدونما دونوا تاريخ العثمانيين وسجلوا منهم أسماء لمعت وكانت ذات سلطان في الأناضول فليعد إلى تاريخ العثمانيين من يريد المعرفة ولا أستحسن ذكر بعض الأسماء التي لا أتأكد من أنهم من يهود الدونما، فهؤلاء اليهود أفسحوا المجال لليهودي رأس الصهيونية صانع البروتوكولات وصانع مؤتمر بال والمبشر لليهود بالوطن القومي وقد وصل إلى السلطان عبد الحميد يفاوضه ويطلب سكناً لليهود في قطعة أرض في فلسطين، فرفض عبد الحميد كل ذلك وخسر هرتزل الجولة الأولى في تحقيق الوطن القومي لليهود، وتعتبر هذه حسنة للسلطان عبد الحميد والحسنة الثانية بناء الخط الحديدي يصل دمشق بالمدينة والحسنة الثالثة أنه كان وهو الرجل المريض - كان مسلماً يرفض المساس بالأرض المسلمة فأكثر من المدارس في المدينة المنورة. وحُفظت مكتبة عارف حكمت ومكتبة السلطان محمود.

وخلع السلطان عبد الحميد، ولعلّ إمبراطور ألمانيا كان وراء ذلك - ولعلّ غزو كاترينا الروسية أيضاً من أسباب ذلك ولعلّ استغوال الإنجليز على طريق الهند كان من أسبابها أنا لا أذكر تاريخاً مفصلاً وإنما أذكر به لعلّ الثناء على الماضي عظة، والذكر لسوء الماضي عبرة، ومن عجب أن الذي تولى خلع السلطان عبد الحميد هو الضابط الكبير الشركسي المولى العراقي التركي محمود شوكت، لم يرأس الحكومة الاتحادية وإنما رأسها

طلعت باشا، ومن رؤوسها أنور باشا وعمه خليل وجاويد وجمال وفخري، لقد كانت حكومة طورانية، فقبل الاتحاديين كانت الطورانية ناعمة هادئة ولكن الاتحاديين جهروا بها ونشروا مدارسهم في الأقاليم العربية تمارس التتريك كأنهم حسبوا العرب يطيقون ترك لغة القرآن للتتريك، فإذا هو - أعني التتريك - السبب في تحرك الأقاليم العربية، تطلب في أول الأمر اللامركزية حتى إذا بزغ الضوء الأخضر أرسله الحلفاء - بريطانيا وفرنسا - وجد العرب أنفسهم للخلاص من التتريك ثائرين حلفاء للحلفاء ولكنهم ركنوا إلى من لم يتبع دينهم صليبي بأسلوب آخر، فإذا العرب فرق بمعاهدة (سايكس بيكو) وقسمت الإمبراطورية العثمانية بين فرنسا وبريطانيا ولم يعرفها العرب إلا حين أعلنها الشيوعيون بعد أن أسقطوا القيصرية، فأصبح القيصر لينين ومن إليه، ثم وجد العرب أنفسهم أمام وعد (بلفور) اليهود والوطن القومي. ولا يفوتني أن أعرج على موقف حزب الأحرار في بريطانيا الآن يعلن رئيسه إنصاف العرب مع أن وعد بلفور لم يكن إلا من صنع حزب الأحرار يوم كان رئيسه لويد جورج الرئيس لوزارة بريطانيا في الحرب العالمية الأولى، فلويد جورج هو الذي منح اليهود وإن سمي بوعد بلفور «وزير الخارجية» ولم يكتف حزب الأحرار بهذا الوعد بل إنه رسخه حينما عين أحد كبار أعضائه - الذي خلف فلويد جورج في رئاسة حزب الأحرار اليهودي - عينوه المندوب السامي الأول في فلسطين، فهو الذي مكّن لليهود أن يشنقوا الضباط الإنجليز يعلقونهم في الأشجار ويضربهم بالسياط منحيم بيجن، فلم تغضب بريطانيا من هبرت سومائيل وإنما غضبت من منحيم بيجن فأصدر القضاء البريطاني حكمه بالإعدام.

ولم يكن بعيداً أن يمسكوا به وقد كانوا دولة الانتداب في فلسطين لكن

هذا الحكم كان استهلاكاً محلياً لإرضاء الشعب البريطاني، ومع هذا فإن مناحيم بيغن وهو يرأس حكومة إسرائيل يزور بريطانيا ويقابل باحترام لأنهم مسحوا القضاء، لقد كان ذلك إذلالاً لبريطانيا إذ لم يصدر عفو رسمي وإنما هي السخرية بالقضاء. «هي الأمور كما شاهدتها دول».

وانتهت الدولة العثمانية وثار مصطفى كمال ولم يسأل عن الطورانية خارج الأناضول وكان كل همه أن تبقى تركيا دولة في الأناضول، انتصر على اليونان وهزم حملة الدردنيل، ولكنه لم ينتصر بطورانية الأناضول أن يهدم منارة في مسجد.

فما زال شعب الأناضول مسلماً، خضع لبعض التغيير ولم يخضع ليهدم منارة عليها المؤذن أمام قبر أبي أيوب الأنصاري.

### مجلس المبعوثان

وأخذنا الاستطراد لأتذكر ما صنعه الاتحاديون من تأسيس البرلمان، كان تحت اسم (مجلس المبعوثان) تسمية تركية لو عربوه لقالوا (مجلس المبعوثين) أو المبتعثين. ولكن لغة التتريك أصرت على ذلك، لقد كان هذا المجلس بالاختيار لا بالانتخاب، ويهمني أن أذكر المبعوثين من الحجاز لأنني لم أعرف المبعوثين من الأقاليم الأخرى، إن المبعوثين من الحجاز والذين يمثلونه في هذا المجلس كانوا خمسة الشريف عبد الله بن الحسين وأخوه الشريف فيصل بن الحسين عن مكة وحدها أو عن الطائف معها، هو اختيار كما اختير من جدة قاسم زينل أخو الحاج محمد علي زينل مؤسس الفلاح وأخو الحاج يوسف زينل، أما عن المدينة المنورة فقد صادف الاختيار محله فكان المختاران لهذا المجلس يمثلان المدينة المنورة مأمون بري والسيد عبد القادر هاشم، رجلان من بيتين لهما قدم سابقة في

المدينة المنورة وقيمة لم تسبق داخل المدينة بأحمد أسعد ومحمد ظافر،  
بيت البري وبيت هاشم لهما عراقة في المدينة وعراقة النسب من هنا قلت  
كان الاختيار في محله ولا أدري من الذي اختار أهو الانصراف بعد سقوط  
السلطان عبد الحميد عن رجال أحمد أسعد ومحمد ظافر أم هو العرفان  
بقيمة هذين الشيخين؟

ولهذين الشيخين فضيلة فقد استصدرا قراراً من المجلس وأعانهما عليه  
المبعوثون الآخرون فكان الأمر بأن أهل المدينة سواسية لا تمتد يد على  
أحد ولا يتلسن لسان على أحد، فإذا المستضعفون من أهل العوالي وقباء  
وقربان والعيون ومن في شرق المدينة ومن في شمالها وغربها، قد أنصفوا  
ورفع الضيم عنهم، ولكن هذا القرار كان في الإمكان الخروج عنه غير أن  
الرخاء وكثرة المال واتساع المدينة ونشاط العاملين هو الذي ثبت هذا القرار  
لأن الرخاء هو الذي كفل ألا يجور أحد على أحد، فحين اتسعت المدينة  
ونمت المزارع وكثر زرع النخل شغل الناس بما ينفع وانكف بعض الناس  
عما يضر.

والباشا الذي كان حاكم المدينة حينذاك اسمه بصري باشا كان من خيرة  
حكام المدينة يمشي في الأسواق لم يحبس نفسه في قصر.. يعرف كل  
شيء.. وكان من حراس هذا القرار، فلم تكن له حاشية تغريه بأي أمر أو  
تثنيه عن بعض الأمر، وقد حدثني أستاذنا السيد محمد صقر أن مخبولة  
اسمها «أم الكشيكش» ومخبولاً آخر تعاركا في المناخة، أراد المخبول بها  
سوءاً وطاب لكثير من الواقفين أن يشاهدوا هذا العراك وكانوا بذلك  
خاطئين، فمر بصري باشا ورأى الجمع وسمع الصراخ فوقف ولم يجد  
رجلاً بعيداً عن الجماعة إلا أستاذنا السيد محمد صقر، فسأله بصري باشا

بلكنة تركية - ما هذا؟ وكان السيد لا يعرف التركية فبدلاً من أن يقول هؤلاء مجانين، قال له بالتركية ما يعني «إنك مجنون» أو بلفظ أقبح وفهم الباشا ما أراده السيد فلم يغضب بل أبعد الواقفين وهرب المجنون حين رأى الباشا، لأن بعض المجانين عقلاء ولأن بعض العقلاء مجانين.

وانتهى بصري باشا عندما بدأت الحرب الكبرى الأولى، فولوا بدلاً عنه فخري باشا.. وسنأتي بحديث موسع عن فخري باشا وزيارة أنور باشا ووجود الشريفين علي بن الحسين وفيصل بن الحسين في المدينة حينذاك فالكلام عن ذلك يتسع ويتسع نأتي على أبوابه في حلقات تالية.

## الزرع والضرع

وما كاد يستهل القرن الثالث عشر في سنواته الأولى وبعد سيل سنة سبع بعد الألف والثلاثمائة، ما كاد ذلك يستهل إلا وقد بدأ الرخاء ينتشر وبدأ الفصام يضمحل بين الحاضرة داخل السور أو خارجه، كما انتهى الخصام بين الحاضرة والبادية، لا بدافع قوة الدولة ولا بوازع المصافاة وإنما هو بتأثير الرخاء والتعامل بالحلف، فما من حضري له نخل خارج المدينة في العيون أو في العوالي وقربان وقباء إلا وله حليف من القبيلة ذات الشأن في ذلك الموقع، فبدأ الكثيرون من الحاضرة يعنون بصيانة ما يملكون من النخيل أو بزيادة الزرع من النخيل أو بالتوسع في زراعة الحنطة بأنواعها الثلاثة (اللقيمي، والحنطة والمعية) وحتى الشعير، بل وأكثر من ذلك صيانة النواة علفاً للضرع والحيوان وتجارة رائجة. بل صيانة الجريد للأسقف والجذوع كذلك صيانة السعف يصنعون خصف وأسرة يصنعون الخصف والزناجيل أي المكاتل، فالزنبيل كلمة طارئة. وأهل المدينة القدامى من النخيلين والبادية والحاضرة خارج السور يقولون المكاتل بدل الزنبيل أو بدل

القفة. ومن الجريد كان القفاصة يصنعون السرر، وهذا يعني أن المدينة - بكل ذلك - كانت تتمتع باكتفاء ذاتي من الأسرة والمكاتل وعلف الحيوان.

إننا اليوم إذا ذبحنا شاة أو شاتين نرمي الجلد، بينما كانوا يملحونه ويدبغونه يعملون منه الجواعد والقرب وما إلى ذلك، ونحن اليوم نرمي الكوارع أي المقادم بينما كانوا يصمطونها.. ينظفونها.. يطبخونها.. يصنعون الثريد من مرققتها ويأكلون لحمها.. حتى الدجاج لا يرمون إلا ريشه، رأس الديك أو الدجاجة نأكل مخها نمتص عظمه.. وأرجلها تنظف وتشوى نأكل لحمها ونمتص عظمها، لا عن بخل ولا عن قلة من المال وإنما هم يقولون صونوا النعمة، ولعلّي نسيت أن مصارين الدجاج تنظف ونأكلها ولا تلقى في الزبالة، كما نفعل هذه الأيام..

هذا الصون أعطى الرخاء رخاء، فإذا كل أهل المدينة يلتفتون إلى اقتناء الضرع، فما من بيت إلا وفيه العنز والعنزان يحلبونها غذاء للأطفال أو يحمضونه حلية على مائدة الطعام، سواء كان لبن الزبادي أو اللبن الرائب، فالمدينة المنورة لديها اكتفاء ذاتي بالجبن والسمن والمضير (اليقط) واللحم واللبن بل وبالكثير من الحنطة فقد يستوردون الحنطة من البصرة أو من الهند ومن مصر حنطة الجراية أو من الشام وما كان ذلك بالكثرة التي كنا عليها قبل التوسع الآن في زراعة الحنطة التي منحتنا الاكتفاء الذاتي فلم نعد نستورد الحنطة من كندا أو أستراليا أو أمريكا، لقد رأيت الكبير يخرج على باب سدته وبين يديه العنز والعنزان لتأكل علفها من يديه سواء من البرسيم أو الشعير أو النوى المدشوش المخمر، حتى إن التنافس في ذلك بين المالكين لهذا الضرع يتفاخرون يقولون: السيد فلان يده (تمري) أي مريئة تشبع من يده العنز أي من لمستها إضافة من شبعها من العلف، والسيد

فلان يده لا (تمري) مع أن العلف واحد، ولا أنسى أن أنواع الماعز ثلاثة المصرية أكثر حليياً وأكثر ولادة يمدحون ضرعها بأنه دورقي، وبعدها العارضية من غنم العارض لا تقل شأناً عن المصرية ثم عنز البادية السوداء أصغر ضرعاً، وأقل حليياً، وقليل منهم من يقتني النعاج وما أكثر حرصهم على أنهم لا يذبحون ذات اللبن كأنهم أخذوا ذلك من حديث رسول الله سيدنا محمد ﷺ يوم رأى صاحبه (ابن التيهان) يحترف ليذبح لهم شاة للغداء فقد كان رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ضيوفاً على ابن التيهان فقال له الرسول (إياك وذات اللبن) لأن ذبح ذات اللبن تقل به الثروة الحيوانية، أما البقر فعلى شقين الثيران للساقية مع الجمال والحمير والبقرة الأنثى عند أهل دكرور، أي التكارنة يحلبون لبنها ويصنعون زبدها ويبيعونه للذين لم يقتنوا الماعز. . كل يعمل حتى الدجاج يقتنيه فريق من النخيلين يبيعون البيض لمن يشتريه يعني أن البيض كان منه الاكتفاء الذاتي كما هو الآن والله الحمد. . وكثرة زراعة النخيل، ليس هناك كبير يشمخ بنفسه عن فلاحه ما يملك من أرض، ذياب ناصر في العقيلية وسعود ديششة في الدوار، الخواجه في الغرس، الشريف شحات في سواده، والشريف ناصر في البدرية، صالح القاضي في الحسنية، عبد الله بن مسلم في بستانه جانب من مسجد قباء. الخاشقجي في الربيعي والجذع للرفاعي، والعباسية للعباسيين، وحتى الشريف عون كان له بستان في قبا ثم - بالشراء أصبح ملكاً للسيد طه محمد حسين عثمان وهناك بساتين في ابيار علي وفي الجرف يملكها السراني سواء أهل ابيار علي أو أهل الجرف والأنصاري في الناعمة، وزين العابدين مدني في المصرع شمال المدينة، يوسف خشيرم في الخشيرية جانب المصرع، ابن جوعان وعبد الله بن دخيل وأخوه محماس في الجوعانية، والمفتي الداغستاني في المفتية، والوسيدي في أم البيض،

ومعتوق خاشقجي جد بهاء الدين في الشنيلية، أما محمد محروس فله شأن آخر. أولئك وجدوا آباراً معدة فاستثمروها وعيوناً معدة فآثمروها، أما محمد محروس فقد كان له شأن، احتفر عين الزهرة من وسط العقيق في سلطانه يصنع خرزاً ودبلاً يسير فيه ماء العين، فالدبل طويل قد يبلغ أكثر من عشرة كيلومترات يزرع نخل الزهرة ورماتها كما زاد عملية التنظيف في عين المدافعية وعين باني وهما ينبعان من شمال شرق المدينة في أرض مسروح الحربية أما الزهرة ففي أرض بني سالم الحربية، هذا ليصون ما يملك حالف من الأحامدة سعد بن جزا وبعده عساف ومن ولد محمد حالف الحويفي شيخ ولد محمد علي الراس واسمه سعد، ومن مسروح حالف ابن ربيق شيخ بني عمر علي الراسي، وحالف ابن موقد من كبار الأشياخ في عوف، يعني أنه حالف السالمي لثلا يعتدي أحد على الزهرة ونخيل المدافعية وعين باني، فما أحد ملك من عيون الماء ما يسمى وجبات أكثر من محمد محروس لقد كلفه ذلك كثيراً وحين قل المال في يده وتلسن نامون عليه يغرون وكيله في السويس ألا يرسل بضاعة إليه لأنه لا يملك شيئاً فتق له ذكاؤه أن يرسل ابنه يحيى إلى حائل يشتري جمالاً يضمن سداد القيمة رجل من آل الرشيد وحين وصلت الجمال إلى المدينة قادها يحرسه عبده وبعض حلفائه يصل إلى مصر يبيع الجمال يكسب كثيراً يذهب إلى عميله في السويس لا يدخل عليه إلا بعد لأي لأنه يلبس شملة برقاء وثوباً من الدوت وفي يده جراب من الذهب، وحين دخل على وكيله لم يقابله لأنه أخفى اسمه حين أعلن أنه مندوب من محمد محروس، ثم أعلن اسمه فحياه وطلب محروس من الوكيل قيد الدفتر ليؤدي المال فسدد ما عليه ورجع بكثير ليسدد قيمة الجمال لأهل حائل وبقي الكثير ل يتم ما بناه حتى إنه أهدي كماً من رمان الزهرة - وكان فاخراً أشبه برمان أسيوط، لأن

رمان المدينة ليس كرمان الطائف - ولمن أهدي الرمان؟ ومن حمل الهدية؟ أهدها لمحمود سليمان باشا. زعيم الصعيد على الإطلاق والد محمد باشا محمود زار المدينة بعد أن حج وأكرم من الحاكم نزل في بيت جمل الليل في قصر بني حسين والذي حمل الهدية حسين زيدان والذي لأنه إذا أعلن نفسه يعرفه محمود سليمان، ولد السليني تلك عزوته وكان والذي ينتمي إلى هذه العزوة لأن قرية المطيعة تابعة لساحل سليم وتقبل ولد السليني الهدية يزور محمد محروس صعيدي يزور الصعيدي. ولكن محمد محروس استعرق في المدينة ومحمود سليمان أعرق في مصر حتى عرض عليه العرش بعد سقوط الخديوي عباس فأبى وذهب لحسين كامل عم عباس وأخي الملك فؤاد ليتولى الأمر بلقب السلطان، وكان صديقاً لمحمود سليمان يوم كان حسين كامل مديراً لأسبوت حثه على ذلك لأن الإنجليز كادوا إذا لم يقبل حسين كامل السلطان أن يتوجوا إسماعيل آغا خان وكان في مصر وفي فندق الكونتنتال وإسماعيل آغا خان كان يتلمظ على العرش في مصر ليعيد مجد دولة الفاطميين آباءه، أي دولة الباطنية. ومن هنا وفي عهد جمال عبد الناصر استطاع الإسماعيلية أتباع آغا خان أن يدفن في أسوان مركز الباطنية بعد القاهرة لعلهم يعودون إلى مصر..

ونسيت أن أذكر الشيخ طاهر سنبل، كان يملك عين الغرابية فعدا محمد الوسيدي حليفنا حلف المال لها حلف الدم عدا علي عبد طاهر سنبل يصوب إليه رصاصة فاغتاظ طاهر سنبل وباع الغرابية العزيزة عليه واشتراها منه أحد شيوخ الحوازم عبد الله بن هويمل دفع قيمتها سبعة آلاف جنيه ذهباً، ولكن طول الزمن أحوج ابن هويمل المضياف والمعطاء الذي أعطى صديقه مصطفى قباني ألف جنيه أحوجه الزمن أن يبيع الغرابية بألف

وثلاثمائة جنيه وثلاثة عشر ألف ريال، اشتراها منه محمد يوسف عبيد أو الخريجي عبد العزيز.. ومحمد..

وهكذا دالت الأيام وما زال التاريخ سجلاً على قرطاس أو في الذاكرة يروي الذكريات..

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (١٢)

استعد أبي للجهاد  
في السويس  
فأبقتة الثورة بالمدينة  
في العاشرة . .  
لم أبح بسر الثورة

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحبباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

## بقية العثمانيين وفخري باشا

.. وذهب عصر عبد الحميد، ويعني ذلك اضمحلال الولاء للخلافة فلم يكن عهد رشاد يعطي الخلافة الولاء، لأن الاتحاديين كان بيدهم سلطان ولاية، فلئن انشقت عليهم الأقاليم عربية فإنما هم الذين أخذت عنهم الشعوب قيام الثورات ضد الدولة العثمانية، فمصر الخديوية التابعة شكلاً للدولة العثمانية كما هو الولاء من الخديوي عباس، أو كما هو الارتباط بها معنوياً لمحاربة الاستعمار الإنجليزي كما هو مبدأ مصطفى كامل، مصر بعد خلع عباس الثاني أصبحت سلطنة لا خديوية ثم وبتصريح ثمانية وعشرين فبراير أصبح السلطان ملكاً، وأصبحت مصر دولة لها وزارة خارجية وسفراء، مع أن الإنجليز كانوا هم الشيء لكل الأشياء، ولكن الشعب المصري وأكثرية من الزعماء أشعلوا الثورة على الإنجليز، فإذا مصر بعد سنوات أصبحت دولة ليست محتلة بقسوة الاحتلال ولكنها كانت تستوعب على قناة السويس جنود الاحتلال، أما الشام التي لا أخضع إلى تقسيمها فلسطين لبنان سوريا شرق الأردن، ليست إلا إقليماً واحداً هو الشام من معان جنوباً إلى أضنة والإسكندرونة شمالاً ومن رفح غرباً إلى الجزيرة على الفرات شرقاً، لم يقسمها الاستعمار، فقبل ذلك كانت مقسمة تحت حكام استتركوا فأدرکوا، فقد كانت الشام المصدر الأول للقومية العربية، فبعد مؤتمر باريس الذي جمع الثائرين كانت الشام على استعداد لأن تقبل أي تأثير عربي، فأقبلت على ثورة الحسين بن علي ولم تدبر بأي علاقة عن سلطان نجد، فصاحب السلطان حينذاك كان الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن، حتى إن فيصل ابن الحسين الملك في دمشق والذي خسر العرش في دمشق، كان وفي زعمه وعزيمته أن يكون مع الملك عبد العزيز، ولا يلجأ إلى أبيه في مكة، هو قال ذلك في حيفا لجميل مردم

وعوني عبد الهادي ونوري السعيد وحيدر رستم، وقد ذكرت ذلك أكثر من مرة وفي أكثر من موضوع، وأول ما ذكرته يوم احتفلنا في مكة بالكشافة العراقية في أول زورة لها، وما يوم حليلة بسر، فلقد سمعت ذلك من جميل مردم في المدينة المنورة.

والحجاز لا أدري، ما الأمر في مكة ما الإعداد في الطائف ما الوضع في جدة، كل ما أدريه عما وقع في المدينة المنورة وعن الموقف في رابع تحت إمرة أميرها القبلي حسين بن مبيريك، فالشيخ حسين بن مبيريك بقي على ولائه للدولة العثمانية، حتى إنني أذكر ملححة قالها سعيد أبو عوف أحد المتصلين اتصالاً وثيقاً بشيخ «الهبة» من عوف المسروحية الحربية، قال: الأتراك حاربها العرب غلط كانوا يرسلون كل شيء من أسطنبول حتى «الكنادر» فبخيت بن بنيان أبو ناصر بن بنيان يرحمهم الله كانوا عيبة، أي مستودع الولاء لحسين بن مبيريك.

من هنا وفي جردول في مكة تم اغتيال حسين بن مبيريك وقد حضر لا يشذ عن الطاعة بعد زوال الأتراك، فإذا أخوه إسماعيل بن مبيريك له دور إيجابي مع الملك عبد العزيز نأتي عليه بعد، إن هذا الدور لرابغ حجز نوري السعيد وجعفر العسكري ومن معهما من ضباط العراق الذين أطلق سراحهم الإنجليز من الأسر وأرسلهم مدداً لفيصل بن الحسين، لم يستطيعوا أن يركبوا الساحل بقربهم من الوصول فحاصروا في آبار ابن حصاني، ويخطئ أمين سعيد مؤلف كتاب الثورة العربية، فيقول آبار ابن حسان يجعل الصاد سيناً، كما أخطأ في اسم «الخنق» المضيق بين الحرة وأحد فيسميه أخذاً عن الإنجليز «بالخائق».

## «علمت بالثورة»

وأما المدينة المنورة فذكرياتي عنها سماعاً ومشاهدة حين بدأت الثورة فقد علمت بوقت قيامها وأنا طفل في العاشرة من عمري، فكيف كان ذلك؟! لم يكن ذلك «فشرة» أفشر بها أو أفترشها تطلعاً لقيمة أو هدار القيم، عزل بصري باشا وتولى فخري وكانت المدينة المنورة تموج بكثرة السكان، ناعمة هادئة عمل بالنهار وسهرات بالليل وأفراح ما بعدها أفراح، كانت كذلك حتى إنها استبشرت بفخري وكانت أكثر بشراً بمجيء أنور باشا، كل يتحدث يرتب مع فخري ما لا أدريه وإن ظهر بعد ما يدريه التاريخ، وكان وفي وجود أنور في المدينة وهو الرجل الثاني من الاتحاديين كان الأمير الشريف علي بن الحسين وأخوه الأمير فيصل في المدينة لا يفارقان أنور ولا يفارقان فخري كأنما هما وبصورة غير معلنة رهينتان ليطمئن أنور وفخري بوجودهما عن أي تحرك ضد الأتراك، مع أن أخاهما الشريف عبد الله بن الحسين كان في مصر وفي ذلك الوقت بالذات يفاوض «السير هنري مكماهون» يتبادلان الخطابات والوعود لترتيب الثورة ضد الأتراك ومن شاء أن يعرف هذه المذكرات فليقتن الكتاب «مقدرات العراق السياسية» تأليف الفاروقي، كان عندي وضاع ولكني قد جلبته من العراق قبل عام مصوراً، ولقد أخطأ الشريفان فلم يسكنا داخل السور يخافان الحجز إذا ما تحركا للسفر فسكنا خارج باب الشامي في بيت مصطفى سليم كأنما هو بني جديداً لأجلهما لم يسكنه أحد قبلهما، واجهته غاربة وظهره إلى أول حدود التمار لا يبعد عن سقيفة بني ساعدة كثيراً ولا يبتعد عن العطن سكن البادية كثيراً وحيث تم لهما أن يطمئنا الباشا وأن يجندا من أطاعهما من القبائل من أهل العالية يتزعمهم الشريف شحاذ بن علي وأخوه ناصر، كما أطاعهما بعض بني عمرو أهل وادي الريان وأبو ضباع والفرع

وعلى رأسهم حليفنا أحمد بن جميعان، أن المطامع طوعته وإلا فبنو عمرو وابن ربيق بالذات وهو أكبر شيوخ بني عمرو صاحب ثأر فقد قتله الشريف عبد الله كبيرهم «بزيع بن ربيق» استطاع الشريفان الخروج من طريق الشرق بين الحرة والخنق طريق عشيرة معهم حراس من القبائل التي أطاعت لأن طريق الشرق فيه الأمن لهما أما الطريق السلطاني الفريش وادي سجع، دير الروحاء، المسيجيد ووادي الصفراء، آبار ابن حصان أو مستورة، فالجحفة «رابغ» فغير آمن لأمرين لأن قبائل غرب المدينة ما تم بينهم التفاوض ولأنهم خافوا ابن بنيان وحسين بن مبيريك، كما أنهما لم يسلكا طريق الجصة الغاير.. هرشة.. عسفان، لأنهما لا يأمنان ابن بنيان أيضاً.

لقد علمت بكل ذلك وبقيام الثورة بسبب واحد ذلك وقد كنت يومها في الدكان في سوق الحبابة ثاني وكان على يمين الخارج من باب المصري بعد ذلك البناء المسمى «سبيل ستنا فاطمة»، كنت في الدكان وإذا عند باب المصري العلم أو الصنجدك أو البيرق يمسك به السيدان «بافقيه ومحمد هاشم» يناديان بصوت جهير يا مسلمين، إلى السويس الجهاد أخرجوا الإنجليز من السويس من مصر، وسمع أهل المدينة ذلك النداء فذهب الكثير إلى بيوتهم يستعدون للجهاد، فلم تكن لحظة إلا وقد عزّل أي أغلق والدي الدكان وكان حباباً وجرني من يدي إلى البيت بعد العصر، ولم أكن في بيته الكبير عند زوجه الكبرى، بينما كنت عند جدتي لأمي في بيت الشعر وفي حوش خميس، ما تركني أذهب حتى إذا دخل البيت طلب ثياباً وعباءة وأمسك بسيف كان عنده وبنقد أم أصعب، فقد كان يهوى السلاح، قالت زوجته: ما تصنع «أشبك مربوش» قال خذي هذا الذهب بيعوا البضاعة التي في الدكان أنا ذاهب إلى الجهاد، بهتنا، بكت أخواتي لأبي

ولكن الزوجة لم تعلن تأثرها تركته يفعل ما يريد غير أنها غفلته وهو مشغول لبست ملاءتها في ليل وخرجت من زقاق الطير إلى حوش خميس إلى بيت أحمد بن جميعان وأخيه ذي العقل الكبير بادي بن جميعان، طرقت الباب فتح لها. . عرفها ابن جميعان «مالك يا بخيته إيش أصاب حسين» قالت «جمع سلاحه وترك ماله يريد الذهاب إلى الجهاد» فقال أحمد بن جميعان «اذهبي أنا الآن وراءك. وصلت البيت، ووصل أحمد وراءها، قابله أبي، قال»:

«يا مهبول وين أنت رايح ما بقى إلا أيام ثلاثة نشبها على الأتراك يشبها الحسين في مكة وأشبها أنا في آبار علي ويشبها شحات في العوالي، إنك لن تعود اجلس مع عيالك، هذا لعب عيال يخرجونكم من المدينة لتهلكوا في سيناء. . حرب الإنجليز موهينه» ورضي والدي.

علمنا هذا الخبر ولو كنا خونة ولا خبر والدي غالب باشا الشعلان لأنه عربي يستطيع أن يكلمه بالعربية ليعلم ذلك فخري بعد ويمسك الشريفين علي وفيصل لا يبقى على حياتهما إذا ما انطلق الرصاص. . صنا هذا السر فلا تستغربوا فما كنت الطفل أخون والدي ولا كان والدي الخوان لحليفه.

وهكذا احترقت العوالي وقتل الرجال في آبار علي وانتصب فخري باشا لا يأمن أي قبلي. من هنا أراد أن يفرغ المدينة من ساكنها.

وفطن والدي ما سوف يجري من ترحيل المدينة فأسرع يرحل زوجته وبنتيه وحفيديه إلى الجرف يستأجر ثلاثة جمال من عبد الله الجحودي وهو من أهل الفيوم استعرق في المدينة ركبوا الجمال ومن شمال الجماء وإلى الفرنسية واد ما أحلاه بين رحقان والجماء وإلى الفريش وإلى ينبع البحر،

فينبع النخل يقضون فصل الصيف والخريف وقبلهما الربيع يشترون نخل  
عواد فران يقتاتون تمره وأمسك بي أجلس معه ولم تمض أيام حتى لحقنا  
بالأهل، كيف كان ذلك؟!!

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (١٣)

جاعت المدينة ومستودعها متخمة!

كانت القصيم أسرع إلى الإغاثة . .

الأمير محمد بن عبد العزيز يدخل المدينة دون أن تسفك

قطرة دم

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحبباً يتقاربون وبالنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن» .

## فخري باشا وما إليه

وفخري باشا كأنما هو وجمال باشا قد حمل كل منهما مسؤولية حماية الأرض العربية والتي لم تخضع لاستعمار، يعني شرق السويس، فجمال باشا في الشام كان مطلق الإرادة من حيث إنه مقيد الإرادة، هو مطلق الإرادة يفعل ما يشاء وبمن يشاء، وفخري باشا مثله، بل كان فخري باشا أشد ضيقاً بكل عربي داخل المدينة من جمال باشا كما هو في الشام، لأن جمال باشا قد علق المشانق وفتح السجون للذين علم أنهم ضد الدولة العثمانية التي أنكروا أنها دولتهم لأنها تنكرت لعروبيتهم. وتغالت في اللامركزية، لئن قالوا إنها ظروف الحرب أو حالة الطوارئ، فإن هذا القول لو لم تسبقه عملية التتريك، لكان حجة، جمال باشا في الشام لا أدري لأي أمر قبل من فخري باشا أن يرحل أهل المدينة منها إلى الشام، كأكثر المرحلين، لأن بعض أهل المدينة رحلوا إلى شرقها أي إلى نجدتها حيث كانت لهم الأصل وحيث كانت لهم المجال الواسع للأمن أولاً، وللتجارة ثانية، وبعض أهل المدينة لم يهجر إلى الشام بل تفتن ورحل إلى مكة، كما رحل غيرهم إلى ينبع البحر، وما أحسب غيرنا رحل إلى ينبع النخل.

إن فخري باشا لم يكن الحصار عليه من (في الفريش) الذي كانوا يسمونه (عرضى الشريف علي بن الحسين)، ولا كان الحصار مضيقاً عليه ضيق الأرض على الأرض من وادي العيص (عرضى الشريف عبد الله بن الحسين)، لقد عجز فخري باشا العجزة الكبرى، حيث أغلق المدينة عليه حيث أفرغها من الكثرة الكاثرة من سكانها، فلا بيع ولا شراء ولا زرع ولا ضرع كأنما كان نخلها هو الذي يقوم بنفسه يطلع الطلع وتكبر العراجين ويجد التمر ببعض من يرسلهم فخري، فما كانت العيون حرباً

عليه، وما كانت العوالي وقربان وقباء إلا في حوزته، ولكن أين الرجال؟

بكل هذا حصر نفسه ولو تفتن قليلاً وفتح سوقاً في الوطن تحت سلع محروساً بالقلعتين قلعة باب الشامي وقلعة سلع، لأغرى بني رشيد وعنزة في خيبر ومن هم في شرق المدينة مطير ومن إليها لجلبوا الأرزاق ولما عز السمن والجبن والغنم وحتى الحنطة، أغلق الأبواب وجعل الناس في الحاضرة والبادية كأنهم الأعداء، كل همه أن يملأ المستودعات بالتمر الذي لم يكن شحيحاً وأن يملأ المستودعات بالذخيرة بندقاً ومدفعاً وقنابل وطلقات من الرصاص، لقد جعل نفسه في قبضة الأسر قبل أن تعلن الهزيمة، فلو أنه نظم حرب عصابات بين الحين والآخر على الفريش لفك الحصار بينه وبين غرب المدينة حتى رابع وينبع، فما كانت هناك قوى لدى الأشراف لا يستطيع التغلب عليها وإنما هو تغلب على نفسه.

في أول الأمر ولم يكن الشريف علي في الفريش، وما وصل الشريف عبد الله إلى وادي العيص قام بحملة كبرى يطارد الشريف فيصل بن الحسين الذي لازم الساحل حتى وصل ينبع النخل، وهاجمه فخري باشا بجيش جرار وسلاح فتاك، فانحصر فيصل بين خيف المبارك في ينبع النخل التي احتلها فخري باشا وبين ينبع البحر التي ما زالت في يد الدولة، حاكمها (بشير السعداوي الليبي) الذي كان مع الترك والذي أصبح فيما بعد رئيس لجنة السكة الحديد في الشام أيام حكم الفرنسيين، والذي كان في بلاط الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بعد والذي مرة أخرى هو الذي فاوض بريطانيا وفي مصر على استقلال ليبيا. ولنا علاقة به أيام كان في الشام وفي أول أيامه هنا يأتي شرحها في هذا العهد الميمون، عهد وحدة الجزيرة تحت كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة وتحت سلطان الملك عبد العزيز.

حصر فيصل لا يستطيع مواجهة فخري ولا يقدر أن يقتحم ينبع البحر رغم وجود قطع من الأسطول البريطاني تنتظر وصوله إلى ينبع البحر، ولكن كيف رجع فخري بجيشه وكيف نجا فيصل وكيف احتل فيصل ينبع البحر؟ لقد كان ذلك بعزيمة الشريف عبد الكريم بن بديوي، أحد أعيان الأشراف (ذوي هجار) العياشية لهم إمرة في جهينة، فالشريف عبد الكريم بن بديوي جاء بخيل جهينة من وراء فخري فجعل الجيش التركي محصوراً بين قيادة عبد الكريم بن بديوي وقيادة ابن عمه فيصل بن الحسين، كلاهما من ولد إبراهيم بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى ابن الحسن بن علي بن أبي طالب حصر فخري باشا في هذه الحملة فالتفت إلى الورا يطارده جهينة حتى رجع إلى المدينة وانحصر فيها، وسار فيصل إلى ينبع البحر تفتح أبوابها بعد أن أطلقت عليهما مدفعية الأسطول الإنجليزي.

## الترحيل

واشدت عزيمة فخري باشا على ترحيل أهل المدينة لم يعلنوا ذلك وإنما هو الإمساك بصورة عمياء وبعسف ما بعده عسف، رحلوا امرأة وبناتها وتركوا أباهم في المدينة يهرب إلى ينبع، ما سألوا كيف تعيش الأم وبناتها في الشام من يتولى الرعاية، ماتت الأم وضاعت البنت ورجعت إلى المدينة بنت وحدها، سألوها عن أبيها في ينبع وقد وصلت بالباخرة مع أهل المدينة عرفوا أباهم سلموها إليه.. أتدرون من هي بالنسبة لي؟! إنها (الناغية المحترقة).

كان لدى فخري باشا فرصة وقد كان معه ضد الشريف (طلق السكراني) فلو مكنه لجلب بعض قبيلته من ولد محمد يحاربون معه وكان معه حسين بن فليح من بني عمرو لو استعان به لألب بني عمرو ولها ثار، ولكن فخري تعامى

عن كل ذلك على طريقه (العرب خيانات) مع أن لديه ضباطاً كباراً من العرب ليس أولهم غالب باشا شعلان وليس آخرهم سالم أفندي الليبي وحسني علي المقدسي، وفهمي الذي كان من الجندرمة قبل أن يكون في الصيدلية.

وجاعت المدينة، المستودعات ملاءة بالتمر وبالعيش (القنيطة) عيش مجفف وجدناه بعد سنوات وكأنه جفف أمس أكلت البادية في الوطن القطط، وللذكرى فقد أعد مصطفى الصيرفي العقبى والد الشاعر الصيرفي، أعد غداء لثلاثة ضباط منهم حسني العلي مدير شرطة المدينة في هذا العهد ومدير شرطة جدة بعد ومدير دار الأيتام آخر الأمر، وهو والد الأستاذ عزت العلي وصهر السفير سابقاً منصور عارف، أعد مصطفى صيرفي الغداء جفراً، أي تيساً لا يبلغ وزنه أربعة كيلوات وحفنات من الأرز، فسألوا كم كلفته؟ كلفته خمسين جنيهاً عثمانياً. . هكذا كان الغلاء وكان الشح وكان ظلم الحاكم.

## حيدر باشا

وأعلن الاتحاديون خلع الحسين بن علي من إمارة مكة وجاءوا بالبديل عنه إلى المدينة المنورة واسمه حيدر باشا من آل غالب، يعني أنهم رفضوا العبادلة واستعانوا بآل غالب الذين كانوا في الأناضول، والذين يأتي لهم ذكر حين نكتب عن حصافة الملك عبد العزيز (قرب البعيد وما أبعد القريب)، وبنوا لحيدر باشا سبيلاً في المناخة أمام مقر فخري باشا إعلاناً لأمره الشريف حيدر باشا، واستمر الحصار وفرغت المدينة من أهلها غير بعض الذين تقربوا لغالب شعلان أو لعبد الرحمن باشا أو بأسلوب آخر، غير أن فخري باشا نصحه الشيخ الفهاشم زعيم التكارنة وكانوا في المدينة كثيراً، فأبقاهم فخري باشا لم يرحل أحداً منهم وجندهم في الجيش فإذا منهم ضباط كبار، حتى إنهم أصبحوا بعد جلاء فخري باشا إلى الأسر،

أصبحوا كما هم عليه ضباطاً وجنوداً هم الحرس للشريف علي، لأنه يثق بهم ولا يثق بجيشه الذي لم يكن إلا من المرتزقة خليط ليس فيهم حجازي أو نجدي.. شاميون فلسطينيون من عبيد القرارة وعراقيون ومن شماريخ السراة وبعض الجروليين والمعابدة من الذين كانوا يسمون (البياشه) ينسبون إلى بيته.

وأول حاكم عسكري يحكم المدينة ويقود الجيش هو الزعيم الدمشقي شكري باشا الأيوبي فلم يعجبه الحال فرجع إلى دمشق وتولى جميل باشا الراوي الذي لم يمكث طويلاً فرحل هو وابن عمه إبراهيم باشا الراوي إلى بلدهم العراق.. وانتهى أمر جميل باشا الراوي إلى أن عين سفيراً للعراق في جدة. وبعد جميل باشا الراوي أمسك بقيادة الجيش عبد المجيد باشا الذي يسميه بدونا (الهوند) لا لأنه قصير القامة بل لأنه كان مدفعياً والمدفع يعرف بالهاون فأبدلوا بالهاون الهوند، وهو الذي قاوم حصار المدينة حتى دخلها الأمير محمد بن عبد العزيز مسلماً وسلاماً لم تسفك قطرة دم وكان ذلك يوم السبت التاسع عشر من جمادى الأولى أو جمادى الثانية فقد نسيت عام ١٣٤٤ هجرية، وتقاطر الناس يرجعون إلى المدينة.. فمن أين الأرزاق.. إنها لكثيرة من ثلاث جهات.. أخرجوا التمر المخزون في المستودعات كومه أمام سوق التمارة بين مسجد الغمامة والبلدية وسوق الحبابة وكأنه الجبل ومن الدقيق والأرز والسكر والشاي من ينبع البحر، ولكن القصيم عالية نجد كانت أسرع إلى الإغاثة فتقاطرت الجمال السود تحمل الحنطة واللقيمي والمعبة والحنطة والسمن والجبن والتمر من السكرية فإذا أفة السمن التي كانت بالجنيهات أصبحت بسبعة ريالات وقطعة الدقيق التي كانت بالجنيهات أصبحت ستة ريالات وأفة اللحم بأربعة قروش.. إن القصيم أغاث المدينة لم يمنعه عبد العزيز ابن عبد الرحمن بل إنا أردنا

زراعة البرسيم فلم نجد أوقية من البزر ولكننا جلبناها من القصيم فكل برسيم المدينة إلى الآن أمه من بزرة القصيم سقيت من وادي الرمة، كأنما وادي الرمة ضحك للعقيق وبطحان وقناة، فإذا الخير ينتشر وعاد أهل المدينة بعد أن هلك الكثير منهم في الشام وفي الأناضول من مرض (التيفوس) أما المرض الذي شاع في المدينة فلم يكن حمى التيفوس وإنما كانت الحمى الراجعة يسمونها في المدينة (أبو الركب) تتألم الركب منه ويعجز الإنسان عن المشي ولكن لم يمت منها أحد.

### رحلتنا من المدينة

وعدت ألا أكون (الأنبا) في هذه الذكريات ولكن طغيان الحال أتخذته معذرة أمام ما أذكر الآن، أهلنا سافروا إلى ينبع وبقيت مع أبي في المدينة هو فعل ذلك لأنه قبل ترحيل العائلة، اشتد الإمساك بالناس رجالاً أو نساء يرحلون خاف الإمساك فأعد له خالي علمي بن رميضان الرميح وكان في جيش عقيل، ناقة مع دليل وراء حوش القشاشي، فانسرب أبي في الليل ومن بيت الخال يتسلق الجدار ينسلت إلى خارج الحوش يركب الذلول ومعه الدليل وإلى (فدك) (الحائط والحويط) ثم إلى خيبر. ضاع رشده لم يدر كيف ترك أهله وهرب إلى خيبر.. وفي غيبته وكنا نسكن في زقاق الطيار هاجم بيتنا ابن عمنا أحمد عزوز وكان من رجال السيد أحمد صافي رئيس البلدية حينذاك، فدخل البيت وتستر البنات من ابن عمهم، وأخذ يفتش عن الأرزاق وما يدري أننا احتطنا لإخفاء الأرزاق.. الحنطة ثلاثة أكياس وضعت في صندوق (سيسم) كبير وغطيت (بالبقش) فيها ثياب الأم ولباس البنات من الأنواع الشتى بعضها نظيف وبعضها وسخ، أما التمر ففرشناه في الصالون في مجلس النوم وغطيناه بالجلاليل والسباح، لو ضغط

برجله قليلاً لأحس به لكنه ذهب إلى صندوق السيسم يفتحه فقالت له زوجة أبي الكبرى (بخيته بنت ضرار) من أقرب الناس إليه، هي أحمدية وهو أحمدى حين فتح الصندوق قالت له ابنة عمه: (يخص عليك إيش في الصندوق خروق بنت عمك.. لو كان حسين هنا كان دبحك تحت الصندوق.. أخص عليك تفو.. عليك) فتقهقر الرجل وقال أنا مأمور وذهب يقول للفريق الذي معه (ما لقيت شيء).

ورجع والدي إلى المدينة من خيبر عن طريق هدية محطة السكة الحديد القريبة من خيبر والذي اقترح الأمير شكيب أرسلان على أنور باشا أن يصل خيبر بهدية بالسكة الحديدية.. إن ذلك يحمي ظهر فخري باشا بسيط على الكثير من نجد فلم يصنعوا ذلك.. وقف القطار في هدية.. يحمل عربات القمح من الشام مدداً لفخري باشا. فانسل والدي وإلى آخر عربة يفتح الباب يكمن في أكياس القمح حتى إذا وصل القطار إلى قرب المحطة في العنبرية فتح والدي الباب وفي يده اليمنى عكة سمن وفي الأخرى عكة أخرى فقفز من القطار وهو يمشي الهوينا ليدخل المحطة.. قفز والدي وفي يديه العكتان يصل سالماً إلى الأرض يدخل إلى بلادنا في القاضية يكمن قليلاً ثم ينسرب عبر أرض فحبت، يدخل من أم الورد على حافة بطحان يصل إلى البيت، لا يدق الباب لأنه مازال في الليل تستر وراء الفتحة بين الباب والحوش وفي الصباح فتحت زوجة الباب ولا تدري عنه شيئاً فقالت له لماذا لم تدق الباب نفتح لك قال سمعت الشيخ بالمسجد وهو يقول يكره للرجل إذا جاء من السفر أن يدخل بيته ليلاً.. ورحل العائلة واشترينا بستان الشريف حسين بن فارس في العوالي نخترف التمر فزان لأبي نبات الليمون فاقتلع ست نبات يزرعها في بلادنا.. ولم نمكث

طويلاً فقد مرأبى من السوق فإذا حسين بن فليح من شيوخ بني عمرو حلفائنا يرفع صوته يقول (يا زيدان.. يا زيدان حليفك يحارب فخر وتجلس آمناً هنا.. انفذ بجلدك) ومشى والدي قليلاً ثم رجع إليه يقول له: إياك أن تعود إلى هذه الكلمة وإلا سأفعل بك ما تعرف.. أنت حليفي ولكني لن أكون أليفك من الآن فقال حسين بن فليح لا تخف لن أقول لأحد ورجع والدي لتوه وإلى الجرف نستأجر جملاً من عبد الله الجحودي وإلى الضرسية الوادي الجميل بين الجماء ورحقان وإلى الفريش وإلى الأمان حتى ينبع النخل.

وفي سنة ١٣٤١هـ أو ١٣٤٢هـ جاء البواردي أي خوى الشريف شحات يقول: قم يا حسين كلم الشريف حتى إذا وصل قال له الشريف شحات يرحمه الله: قلعت نبات الليمون سلم قيمتها لحسين بن فارس فقال: أبي: كل الليمون مات في بلاده وفي بلادى ما أسلم ولا قرش: قال الشريف أحبسوه، ولا أدري من أخبر غلاب بن ناحل شيخ النواحل الأحامدة من حرب نجد الذي كان يوصل حجاج العراق تحت خفارته إلى المدينة المنورة، ويترك خفارتهم إلى أبناء عمه الأحامدة أهل الفقرة بل أهل رحقان، فقد جاء غلاب ولم يبلغ الكهولة بعد على فرس بلا سرج (كميت) قال لي: وين أبوك يا محمد. قلت حابسه شحات. فقال غلاب ولد صلف بن ناحل عمه خلف بن ناحل ابن عمه سعد بن جزى أمير الفقرة: قال (أنا ولد صلف) وامطى فرسه وجاء بأبي عزيز أطلقه فعل غلاب وهو يهدد الشريف بقوله: حنا الذي جلينا الأتراك بسيوفنا والله لا شبها عليك، أحبس الذين قتلوكم في العوالي.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان ( ١٤ )

### ذكريات التلميح لا التجريح

حين قال الشريف عبد الله : حتى أنت يا حذيفة . .

كان شوقي نائحة العرب أما شكيب أرسلان فهو نائحة شوقي !  
والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض ، أرض المدينة كما أنها مشاهد  
تاريخية ، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية ، فلن أقحم نفسي متحدثاً  
عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية  
العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان  
الكبير المملكة العربية السعودية ، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال  
والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض  
أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة  
جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحبباً يتقاربون  
وبالعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها  
الـ «نحن» .

والذكريات التي كتب فيها التلميح لا التجريح ، وقد يكون فيها  
التفريح ، للذين كربوا ، أما التجريح فلن يفيد شيئاً عن الذين أكربوا ، لكنها

تبيان لما وقع، وتبيان لما نحن فيه، فالوحدة التي نعيشها والأمن لا يمكن إلا أن نتباين بها ولا نبين عنها لله إنما البين هو هذا التلميح عن الماضي .

أمة واحدة.. دين واحد.. ولغة إن توحد بها لسان الأكثرية عرباً، فقد توحد تحت راية قرآنها كل من أسلم، فكيف لا نحن إلى ماضي الوحدة فتحاً مبيناً، وفتحاً أعظم وإمبراطورية واحدة.

لا بد أن نَحْنُ إلى هذا الماضي من خلال هذا الوجد وهذه الفجيرة التي لا نغالي إذا ما قلنا إن عهد الطوائف بعد سقوط العباسيين خير من عهد الأمة العربية الآن، بل ومن عهد الأمة الإسلامية الآن.. نصبوا ذواتهم فانصبوا لأمرهم.. ولكنه لم يخضع واحد منهم ليكون المنصب لقوة طاغية عليه.. أو لقوة يحسبها الناصرة له.

إن وحدة الجزيرة الآن المملكة العربية السعودية، ومجلس التعاون، نبراس يرتفع به الرأس ويترد الوسواس، اجتمعوا ليجمعوا وأجمعوا ألا يتفرقوا، وتلك حلية أتخفف بها ولا أخاف عليها لأن الرجال إذا ما أخلصوا يستطيعون التخلص من عقابيل «الأنا» إلى العقبى المنتصرة بحول الله وقوته، وكما قلت الإسلام ينتصر دائماً بالحرب عليه.. لأن قوة النصر له هي من قوة الله حافظ الذكر.

والعرب نزعوا السلاح منهم وهم أبناء العم وما كان فخرهم إلا لأنهم أبناء العم، لكنها الصحراء لكنه بيت الشعر.. كلاهما الصحراء وبيت الشعر، أم ولود وسعي ودود فما زالت عروبة الصحراء وحرارة الشمس تحت بيت الشعر هما القوة التي تعيد للعربي تاريخه.

لقد ذهب الكثير من كل شيء.. في السياسة والرئاسة ولكن بقيت لأمة العرب إمبراطوريات ثلاث.. اللغة الشاعرة والأرض الحنون من الخليج إلى

المحيط والحضارة الوسيط التي رضعت من كل ضرع حضاري وزرعت في كل أرض حضارته.

إن هذه المقدمة هي «الأنا» لا أعتذر عما كتبت وإنما أقول للذين ما زالوا انفراديين أو الذين يتبرأون من ماضيهم هكذا كنتم الوارثين لعظمة الفتح المبين والفتح العظيم والوارثين للخذلان الذي لم يكن إلا عظمة جردها الطغيان من اللحم الذي يكسوها.

### فخري باشا

ونعود إلى فخري باشا، لماذا حصر نفسه في المدينة والحجاز ليس في يده ونجد إن لم يعلن الحرب البطل عبد العزيز بن عبد الرحمن، فقد كانت نجد بكل قبائلها وبكل خيرات قصيمها ويمامتها وأحسائها لا تصل إليهم، فالرجال كانوا ليسوا معه والخيرات ليست ترد إليه على الجمال السود.

يمرون بالدهنا خفافاً عيابهم ويرجعن من دارين بجرّ الحقائق

لو أنه لم يحصر نفسه في المدينة وكان عوناً رديفاً لجميل باشا يمسك بالأردن وفلسطين لاستطاع أحمد فؤاد وأركان حربه الألماني أن يعجز الشريف فيصل وهو في العقبة ولورانس عن تخريب السكة ولحجز الحويطات وبني عطية وبني صخر والرولا وبلي عن أن يكونوا حرباً على جمال، فخري حصر نفسه في المدينة وجمال حصر نفسه في دمشق، ولست رجلاً عسكرياً أتكلم عن التكتيك والاستراتيجية وإنما التاريخ هو الأب للتكتيك والاستراتيجية، لو أن فخري نزع بجيشه الجرار واحتل معان وعمان، لأخر المرشال «النبني» أن يحتل القدس حتى قال الكلمة المثيرة

تثيرنا حتى الآن «اليوم انتهت الحروب الصليبية» لأن جمال كان كالسلطان إسماعيل ولأن جمال وفخري وأحمد فؤاد وحتى ياسين الهاشمي لم يكونوا كصلاح الدين.

ولو جلس في معان لحمى القدس ولربما حاز مجد حطين بصورة أقوى بالسلاح الذي معه، من يوم حطين، ولكنه انحصر في المدينة يفرغها من أهلها.

## الأمانة

وطلب جمال باشا وهو محصور في دمشق مبلغاً من المال يرسله فخري إليه، وسأل فخري مع من يرسل المبلغ، فالسكة الحديد مقطوعة وأي ضابط تركي مهما تنكر لا يستطيع أن يصل بالمال إلى جمال، فلم يجد أمامه إلا السيد طه حسين عثمان والد أستاذنا السيد حسين وأخينا السيد ياسين طه، ناداه فخري: خذ هذه أربعة آلاف جنيه ذهباً عثمانياً أوصلها إلى جمال باشا، فتمكن السيد طه بهذا التكليف أن يرسل أهله إلى مكة لا يرحلون إلى الشام، ينقذهم من الجوع، وأخذ السيد طه المبلغ أربعة آلاف جنيه تشغله عن النوم يلبس القنطرة كما لبس الأمانة يصل إلى نجد، ففي عنيزة صديقه عبد الكريم الخريجي وتلميذ عبد العزيز الخريجي وابن عبد الكريم محمد الخريجي، يشتري بضاعة بمعونة الخراجة ويركب الفلاة محروساً بالدليل ويصل إلى دمشق، باع البضاعة وكان فيها الغوث للجياع فبضاعة القصيم. . تمر. . وحنطة، فالقصيم سميتها من قبل وهي تصدق هذه التسمية الآن «أوكرانيا جزيرة العرب» أي أم الحنطة بأنواعها أم التمر بأنواعه أم السمّن بأنواعه أم اللحم بأنواعه وكان جمال باشا يحزم حقائبه يريد أن يذهب عن دمشق يحتلها فيصل بن الحسين كرمز عربي ومعه

لورانس كانوا يسمونه «ملك العرب غير المتوج» كان جمال يربط حقائقه وإذا السيد طه يستأذن عليه فعنده برقية من فخري أنه أرسل له المبلغ . . واستقبل السيد طه وتسلم المبلغ وهو راحل عن دمشق فعجب جمال كيف يصبح العربي أميناً، فقال كلمته المشهورة «أبيت يا سيد طه إلا أن تثبت أن في العرب أمناء» كأنما هو نسي ثبات ياسين الهاشمي معه وثبات شكيب أرسلان له، لكن هذه الأمانة لم تجعله يسأل عن غيره من العرب، فأسعد شقير كان هو الذي يضع رقاب العرب بين يديه، وياسين الهاشمي أسير القسم العسكري وشكيب أرسلان تلميذ جمال الدين من رجال الجامعة الإسلامية كانت أمانة السيد طه نصراً للخلق وثناء على العربي . .

## نادرة

وأحب فخري تفرغ المدينة أكثر وكان الاتحاديون قد نفوا ما كنا نسمع اسمه «أشرف بيك» وتعرفه العامة بلقب «ولد الكشي» أحب فخري أن يتخلص منه وأن يفرغ المدينة من شبابها فكلفه أن يجمع جيشاً ليس فيه تركي واحد فجمع أشرف بيك الشلاوية والعربية، قالوا لي إن منهم الدلوقة وأبو حلمة والحمزاوي وحذيفة النحاس صاحب هذه النادرة، كان في جيش الكشي أشرف، وحذيفة النحاس هو من البيت القديم من بيوت المدينة التي كانوا فيها قبل عهد الأتراك وأيام حكم الجمازيين ذوي حسين، هم أهل حوش خير الله ويوجد اسم النحاس على عائلة حديثة العهد يحترفون هذه الصناعة يسكنون زقاق الطيار ولكن في حوش الرشايدة وهناك نحاس آخر اسمه أحمد والد تلميذنا وصديقنا خالد نحاس الذي كان من ضباط الجيش السعودي، أوضحت ذلك لئلا يلتبس على أحد ما أذكره عن حذيفة النحاس .

وسار أشرف بما جمع من الذين هم رجال العصا والمشكلة، أي الفتوة لا من رجال البندق والمدفع. . سار أشرف إلى العيون شمال المدينة يريد أن يهاجم الشريف عبد الله بن الحسين المخيم في وادي العيص الحاجز للسكة الحديد. . فلم يكذ أشرف بيك يصل ومن معه إلى أدنى وادي الحمض حتى لقيه «رجاء بن خليوي» بمن معه من ولد التميمي الذين هم من رؤوس بني سالم وفرعها ميمون. . فاجأهم رجاء وأنا أعرفه كان رجلاً طوالاً محترماً فأسر أشرف وكثيراً من الذين معه ورجع الآخرون إلى وطنهم وكان من الأسرى عمنا حذيفة النحاس، لأننا كنا نقول له يا عم، كان رجلاً يرتزق فعنده عربة يقودها حماران أسودان «فلفل وكمون» هو سماهما لأنه كان رجلاً ظريفاً، يحمل على العربة ما يشتريه بعض الناس لبيوتهم من الأرز والحنطة، وهو يعرف كل بيت وأمين على ما يحمل، ومثل الأسرى أمام الشريف عبد الله بن حسين فإذا هو يرى حذيفة النحاس لأنه يعرفه من العلاقة القديمة فقال الشريف عبد الله «حتى أنت يا حذيفة تحاربنا» وكان حذيفة رجلاً بسيطاً فأجابه جواباً ذا حدين «يا سيدي أنت تعرف المثل. . كل عيش النثراني وأضرب بثيفه» لأنه ألثغ يلثغ بالسين يجعل السين ثاء، هذه الإجابة لا يدري أنها شتيمة، فالشريف عبد الله كان حليف الإنجليز هو وصاحب الرسائل بينه وبين السير هنري مكماهون التي احتفظ بها في كتاب «مقدورات العراق السياسية»، وعود كانت لعبة لم تنفذ بل الذي نفذ هو وعد بلفور ومعاهدة «سايكس بيكو» سايكس إنجليزي وبيكو فرنسي، وضحك الشريف عبد الله من إجابة حذيفة وأكرمه وأطلق سراحه .

## الغفلة

وما كانت لدى فخري معلومات كافية عما يجري في المدينة، مع أن عنده غالب باشا شعلان وله صلة قوية بمحمد عبد العال وبغيره الذين تقربوا إليه وأعانوه، ما كانت لدى فخري باشا أجهزة استخبارات، فقد وصل إلى المدينة الشيخ كامل القصاب والسيد محب الدين الخطيب بلباس البدو، دخلوا إلى المدينة وكان الشريف علي والشريف فيصل فيها فانسرقوا بليل إلى العوالي ومنها وصلوا إلى مكة فتولى القصاب مديرية المعارف وتولى محب الدين الخطيب إخراج جريدة القبلة. . ولكنهما ما استطاعا البقاء كما لم يستطع عزيز علي المصري ويوسف ياسين وخير الدين الزركلي البقاء فرجع كل منهم إلى بلده إلا محب الدين الخطيب خال أستاذنا علي الطنطاوي فسكن مصر وأخرج لثقافتنا مجلة الفتح والزهراء وسلسلة الحديقة وعلي الطنطاوي يعرف الأكثر، يعرف كيف أسس محب الدين المطبعة السلفية وكيف أصبح الصديق الصدوق للملك عبد العزيز والصديق الذي كان للأمير شكيب أرسلان يوم عاد أبو غالب ابن ماء السماء إلى القومية العربية، فكل أصدقاء شكيب كانوا أصدقاء محب الدين الخطيب، أمين الحسيني والتاجي الفاروقي وإن تباين نوعاً ما مع محمد علي الطاهر ركيذة النشر في جريدة الشورى لشكيب أرسلان ولي رجاء أوجهه لعلي الطنطاوي أن يصور لي قصيدة الأمير شكيب أرسلان في رثاء شوقي والقصيدة الأخرى في رثاء ابن عبد الحداد عبد القادر الشيبلي، أرجو الطنطاوي أن يرسلها إلي، فإنهما يستأهلان النشر في هذه الأيام، فلئن كان شوقي نائحة العرب فقد كان شكيب النائحة على شوقي.

## الجريدة

وأسس فخري باشا جريدة الحجاز، فقد وجد مطبعة الكلية الإسلامية التي جلبها صناع هذه الكلية التي لم يتم بناؤها شكيب أرسلان وعبد العزيز جاويش وعبد القادر مغربي وبعون ومدد من كامل الخضر، وكانت الجريدة الحجاز يرأس تحريرها السيد حمزة غوث ولكن الفعال فيها بدر الدين النعسان من أهل الشام ولعلّه لبناني، وكان العمري وعبد القادر الشلبي الطرابلسي ينشران فيها الهجو والحملة على الشريف، أبقّت هذه الجريدة على حياة الطرابلسي والعمري يعيشان في المدينة وأعطت لحمزة غوث المكانة والشهرة وكان أهلاً لها، لم يطبقوا بقاءه في الشام حين سافر إليها هو وولده عبد القادر وترك ابنه الصغير أخانا ناصر غوث عند خاله أحمد حواله، وسارت به الأيام وسار به ذكاؤه إلى أن كان من خدام الملك عبد العزيز معاوناً لإمارة المدينة ومفاوضاً في العقير وسفيراً في العراق وإيران، كان رجلاً يعرف موطنه قدمه لم يبق عند مصطفى كمال ولم تدم علاقته بالشريف أحمد السنوسي ولا بابن الرشيد وإنما هي دامت بما ألزم نفسه من الأدب والإخلاص للملك عبد العزيز يرحم الله الجميع .

ومما يذكر أن عبد القادر الشلبي والشيخ العمري لم ينلهم سوء ولم يعاقبوا من الأشراف لموقفهم من جريدة الحجاز .

لا أدري أهو احترام لأنهم علماء أم لأن الضباط من الشاميين كانوا حماة للطرابلسي وأصدقاء العمري من بني عمرو مقبول ومقبل السراني كانوا حماة له .

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (١٥)

### لولا صرة من الذهب!

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أفحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن» .

المدينة المنورة . . دار الهجرة مسيرة النصر . .

### المسجد الثاني في الإسلام

فلئن كانت دار الأرقم ابن أبي الأرقم في المسجد الحرام على الصفا، المدرسة المعلمة الأولى، للسابقين الأولين من الصحاب الذين استبقوا

ينالون الخير يتلقون العلم من المعلم الأول، علمه شديد القوى، محمد نبوته (اقراً) على الجبل حراء، في الغار.. لا في أبهى القصور. ورسالته (يا أيها المدثر قم فأنذر) كانت على الصفا، كما دار الأرقم كانت على الصفا، كأنما الصفا المشعر، هي المدرسة الأولى، تلامذتها.. أبو بكر.. علي.. زيد.. حمزة.. عمر.. سعد.. خالد بن سعيد.. عثمان بن عفان، ولماذا ننسى بلالاً وعمار بن ياسر، وغيرهم وكان عددهم الأربعين.. مؤمناً عرف الحق فخرج ينصر الحق، لتكون المدرسة الثالثة بالإعلان عنها والإعلان فيها والإعلام بها، يبث العلم لأنه بيت الحج، لأنها القبلة ولأنها أيضاً القبلة.. قبلة يتجه الساجد إليها.. يولي وجهه شطر المسجد الحرام، وهي القبلة إسلاماً وسلاماً تطبعها مكة على جبين كل ساجد يطمئن بها قلب الركع السجود.

وتم النصر للهجرة، وأكمل الله النصر للهجرة، فإذا مسجد المدينة الذي كان مريداً، أصبح هو المراد تشد إليه الرحال، أصبح (غرفة العمليات) ينظم فيه الجيش المسلم يفرض فيه الجهاد، جهاد النصر في بدر على المشركين، وجهاد النصر على النفس المؤمنة، كأنما الجهاد هو الأصغر في حرب العدو، وهو الأكبر في الانتصار على النفس، فما السيف وما الرمح وما السهم وما الحصان وما جراب التمر، فاعلة ومنفعله إلا حين تكون النفس المؤمنة سيفاً.. سلاحاً تحارب شيطانها تنصر إيمانها.

المدينة المنورة.. يثرب.. واحة.. أبقعة.. ذات نخل أحل الله فيها رجالاً يحبون من هاجر إليهم، والحب ليس إلا أنه التفسير لقيمة المدينة مأرزاً للإسلام يأرز إليها، يعني يأوي إليها، ليخرج منها مرة أخرى بالرايات السود كما خرج أول مرة، فالرجعة إلى المسجد الأقصى ليست إلا مسلمة

والمسجد الأقصى من أول أمره لم يكن بيعة لليهود ولا كنيسة للنصارى وإن حاولوا ذلك، فما كان وما زال إلا أنه المسجد، سنعود إليه مرة ثانية كما كنا فيه كما أعدناه مرة أولى، فالتسمية للقدس لا تعني إلا أنه المسجد، فقد كان القبلة الأولى وسيكون بعد الاستقبال الثاني، للذين يصدقون الجهاد، فالحرب عليه جالبة النصر إليه، لو كان المسجد الأقصى في سكيئة لسكنت النفوس ولكنه في الحريق لتحترق النفوس نصاراً له وجهاداً.

فالرجال إيمان، والإيمان رجال، هم آتون ولن يكونوا البعيدين.. . المدينة المنورة كأنما قد حصر فيها تاريخ الإسلام لأن النصر انتشر منها، فالحيرة فتحها واليرموك نصرها والقادسية انتصارها والفتح العظيم كان بسلاح بنيتها.. . بنوة الإسلام بنوة القبيلة بنوة القيادة، فإن لم يكن الكل منها، فإن الكل كان بها.. . كان لها.. . وكانت هي له، رغم ما مسها من بنيتها حتى قلنا في فترة ما «هدمها بنوها وخربها بانوها» أكثر من ألف سنة وهي تعيش من فتنة إلى فتنة، لكن علماء الصحابة والتابعين وتابعيهم، كانوا هم المعلمين في المسجد الحرام ومسجد دار الهجرة.

فحرمة المسجد والأذان والصلاة والمنبر والمحراب ما منعت الفساق، ولكنها امتنعت ألا أن تكون باقية لقد أهدر اعتبارها ولكن حين سنأتي لتاريخ عبد العزيز بن عبد الرحمن.. . سابع الملوك في الإسلام وخامس الملوك في العرب، سنأتي لأجهر بها.. . إنه عبد العزيز إنهم بنوه.. . هو الذي رد الاعتبار.

### حكم الشريف:

وخرج فخري باشا والأكثر من جنده وضباطه وبقي من هؤلاء

الضباط، بقية من العرب وبعض الترك حسني العلي المقدسي، خليل هجانه عبد المجيد اليافي الصيدلي، ضياء الدين بيك التركي الصيدلي والطبيب محمد علي الطرابلسي الليبي والضابط سالم أفندي الليبي ومهدي بيك المعروف، وفهمي الذي كان جندرمة ثم أصبح صيدلياً يتعلم من الكبار فهو ذكي، وحسين أصبح صيدلياً نسي الناس أنه كان من الجندرمة، والذي ضرب عزيزاً بالجزمة، لأن البيئة العسكرية غير البيئة الصيدلية، ولأن عبد المجيد اليافي وضياء الدين ومحمد علي الطرابلسي كانوا بيئة أخلاقية.

قبل خروج فخري باشا، ولا أريد أن أنسى، أن بيتاً من ثلاث طبقات في زقاق الطيار أمام حوش السمان وأمام حوش بني رشيد، كان ملكاً لمحمد يوسف عبيد، ابن عم الدكتور رضا عبيد.. أتدرون بكم باعه؟ لقد باعه بكيس أرز!! ومثله بيت علي الجديدة والتاجوري، كما سمعنا اشتراه عمنا محمود مصطفى شيخ الفلتية أيضاً بكيس أرز، وأنا نفسي، بعد ذلك بكثير، بعت ثمانية مخازن بثمانية مائة ريال كانت في شرق المدينة، يعني ٣١٦ متراً، فلو بقيت لكانت ثروة، ولكن وسيأتي السبب بعد حين - نؤتمن فلا نخون، ذهب فخري باشا، ودخلت المدينة في حكم الشريف حسين يرحمه الله، وأكثر الذين رحلوا إلى الشام أرجعهم بالبواخر إلى ينبع، وكان ذلك من عمل الإنجليز وبتخطيط لورانس وقبل كل ذلك بجهد ملك الشام حينذاك فيصل بن الحسين، وصل هؤلاء إلى المدينة وقد نجا أكثرهم من حمى التيفوس التي انتشرت في ينبع، فمات من أهلي ثلاثة زوجة أبي الكبرى وأختي الكبرى وعمي الأصغر، ومات الكثيرون، وبعض الأعمام من أهل المدينة من أصحاب الجاه، فرغ كل ما كان معهم في الشام فأغبثوا من أهل الشام ومن العرب الذين أصبح لهم ملك في الشام، حتى إن ناصر بن علي الشريف أعطى السيد زين العابدين مدني ألف جنيه مكنته من العودة

بكرامة، ولم يلتفت الشريف ناصر إلى من كان نصيراً للترك أو من كان قاسياً مع الترك على أهل العوالي، كما أن عبد الله بن هويمل من شيوخ الحوازم في وادي الصفراء أعطى صديقه مصطفى قباني ألف جنيه، ولكن لكل منهما سبب، فالإكبار للمدينة كان من عمل ناصر والإكبار للصدقة كان من عمل ابن هويمل.

وتشكلت في المدينة حكومة، ولكن ليست واحدة وليست متحدة فأول حاكم عسكري كان شكري بيك الأيوبي من أعيان دمشق ومن أبرز الثائرين فيها، ولكن لم يعجبه الحال فرجع إلى دمشق، ويتوهم بعض الناس أن الجيش كان من القبائل، هو من القبائل أيام حصار المدينة، وحين تم الأمر لحكومة في المدينة كان الجيش من المرتزقة من كل الأقاليم، لأن الأمر أولاً كانت الرواتب فيه كثيرة فانفض كثيرون ولم يبق من الضباط إلا من كان مع الشريف جميل باشا الراوي الذي تولى رئاسة الحكم العسكري بعد شكري الأيوبي وابن عمه إبراهيم باشا الراوي، وكان معهم عزت بيك شامي وعبد القادر الديري وقاسم الديري، وسيأتي لهما ذكر يوم خرج إلى العيون يصحبهم الأمير محمد بن عبد العزيز أطل الله بقاءه، ليدخل المدينة في ضحى يوم السبت التاسع عشر من شهر جمادى الأولى أو الآخرة، ضاع من ذاكرتي ذلك، وحين وصل الناس إلى بيوتهم لم يجدوا شيئاً مما تركوا وكان كثيراً فلا رياش ولا فراش ولا حنفيات ولا أدوات مطبخ، وكل ذلك ضاع لم يسرقه العسكر وإنما السراق من غير العسكر، كأنما كل من قدم لم يجد شيئاً فتكلف الكثير بينما العمل قليل.

ولكن في أول الأمر كان الذهب يجري في أيدي الناس حتى قالوا إن شخصاً بقي في المدينة ولم يخرج منها فإذا عنده صفيحتان مليتان بالذهب،

وكان كريماً ما بخل على أحد بعون من هو؟ إنه عبد المعين كاتب يرحمه الله، لم يمت إلا وهو في كل صلاة في المسجد النبوي يرحمه الله.

## نوع الحكم:

لم يكن يمسك بالقوة ليردع الجناة وليأمن الناس فقد ورثوا من فخري باشا جبلاً من التمر أخرجوه من المخازن ووضعوه في آخر سوق التمرة والحبابة أمام مسجد الغمام وأمام البلدية، فأهل المدينة ليسوا في حاجة جاءهم الخبز من القصيم والخير من ينبع، أما التمر فكان يشتريه أناس يصنعون منه الخمر والعرق، كان مادة المسكرات، في المدينة أربعة حكام. الديوان يرأسه أول الأمر حامد حمد الله ورشيد أفندي ثم انتهى إلى عبد الله عمير، فلم يحكم وإنما هو يراقب والرقابة لا تفيد، والحاكم الثاني العسكري بعد جميل الراوي كان عبد المجيد وقد كان خيراً من كل أولئك، والحاكم الثالث وكيل الإمارة والشريف أحمد بن منصور كان رجلاً طوالاً حليماً عاقلاً ما مد يده بضر إلى أحد وكان رئيس ديوانه أخونا محمد حسين شويل، فالطيبة فيه كانت عوناً لطيبة أحمد بن منصور، وكان صديقاً لصديقنا صاحب الفضل علينا صالح الإبراهيم القاضي من كبار شيوخ عنيزة، فقد كانت هذه الصداقة أيام حصار المدينة فيها الحماية والرعاية لأهل القصيم وأكثرهم من عنيزة، فكان صالح القاضي عوناً للحصار بأدب وكرمان، له صلة لا يعرفها أحد إلا هو، بإبراهيم النشمي وعبد المحسن الغر ودغيمان الذي كان صديقاً ومعيناً لمحمد بن بليهد يرحمه الله.

ففي أول الأمر كان صالح بن عقل وهو الكبير قد طوع شرق المدينة وما انقطعت صلته بمن كان معه من أمثال دغيمان وغيره، ولدغيمان ذكر في صحيح الآثار تأليف ابن بليهد محمد لا عبد الله، فصداقة صالح

القاضي لأحمد بن منصور كصدّاقة عبد العزيز الخريجي وابن أخته محمد بن خريجي للشريف شحات كان فيهما الحماية لأهل نجد، وقد كاد يفسدها عبد العزيز الحجام يرحمه الله، لا أذمه لأن الوفاء له كزوج لابنة خالي من الرضاعة سليمان الأطرم يمنع الدم، ولكن التاريخ فيه المذمة لكاتب لا يذكره.

كان عبد العزيز الحجام أطلق أكثر من رصاصة من بيته على من يمر أمام البلدية فيقتل، ولكننا لم نعرف ذلك إلا بعد لأن الحجام وأباه كانا من التابعين لضاري بن رشيد الذي ابتعد عن نجد ولجأ إلى المدينة ثم رحل إلى العراق هو وابن أخيه يرحمه الله، واعتز الحجام يكلؤه هو وابناءه الأمير محمد بن عبد العزيز لأنه أصبح من تابعيه أيام إمرة سموه في المدينة.

لقد كان القتل لا يخلو منه يوم والحاكم لا يتصرف، في ضحى يوم وأمام مكباس المناخة قتل ابن سمرة من شيوخ بني رشيد ولم يمك أحد بالقاتل وبعد ساعتين أو أقل قتل واحد من ولد محمد في حوش درج وذهب القاتل، وبعد العصر من ذلك اليوم قتل أحد الرحالة يجري وراءه ثلاثة يأوي إلى قهوة محمود تحت بيت البري يهرب من قاتليه يندس في أحد الكراسي يلحق به الثلاثة يقطعونه والناس جالسون ولا يتحركون.

لقد ابنتى والدي بيتاً في بلادنا في القاضية على المجار والبركة وكنا ننام في السطوح لم يبن للسطوح درجاً بل صنع سلماً نرقى عليه ثم يسحب السلم معه ليرقد معنا حتى لا يرقى علينا أحد، والبندق بجانبه إذا سمع خشخشة يطلق رصاصة حول هذا المخشخش ليهرب، وحكاية عيسى العقيد الأحمدي التي تتبرأ قبيلته منه لأن حذيفة شيخ الأحامدة أقسم يميناً ألا يوجه إلى الطير في جهة المدينة رصاصة يصيده، عيسى العقيد هذا كان

حول أحد يسلب الناس فلم يرسل الحاكم إليه جنوداً يمسكونه وقد حدثت حكايتان، فالحكاية الأولى أن عبد الحفيظ محروس يركب فرساً ينزل إلى المدينة من الزهرة بستانه الكبير فسلبه عيسى العقيد، المشلح والساعة والعقال والثوب والفرس وتركه ينزل إلى المدينة لا يستره إلا القميص والسروال ولكن كان في المدينة (فضي الحويفي) ابن عم سعد الحويفي شيخ ولد محمد علي للراس، فعلم فضي بذلك وذهب إلى عيسى العقيد لا يحمل إلا سيفاً ورد لعبد الحفيظ محروس كل ما سلب منه وإذا الناس في المناخة ينادون (بيض الله وجه فضي الحويفي).

أما الحكاية الثانية فهي حكاية الرئيس علي يماني، وكان رجلاً ضعيفاً قصيراً لا سلاح معه، قابله العقيد ليسلبه فإذا هو يمسك به يعاونه من معه يذهب العقيد بلا رجعة، وقبل ذلك ولا أريد أن أنسى كان السيد هاشم مدني ابن زين العابدين مدني هو وصديقه محمود ديولي يطلعون إلى المصرع يحمل كل منهما بندقة. . أم خمساً. . أم ركبة يتحدثون عيسى العقيد فلا يقترب منهما.

## نادرة:

خلت المدينة من أثائها ورياشها وكان والد زوجتي أم ابنائي سافر هو وزوجته وطفله إلى الشام، فلم يكن يطيب لهم عيش فرحل إلى حلب ثم إلى الأناضول وفي مدينة (الديتول) استأجر طاحونة يطحن القمح، وكما يقولون (يا يدي فكي حلقي) ورجعوا إلى المدينة بالجوع والعري وسكنوا بيتاً في باب المجيدي لم يجدوا إلا الخسف وليس مع محمد أبو داعوس صهري قرشاً يأتي بشيء لزوجته التي كانت حاملاً، خرج إلى السوق يريد أن يكون صبيلاً عند فران فهو من المعلمين، لم يجد شيئاً ولكن كانت جدة

أبنائي المريضة الآن في بيتي وقد نيفت على التسعين قد أصابها طلق النفاس ولا شيء في البيت لا فحم ولا بصل، بل ولا ماء فرأت وهي في عذاب الطلق في أعلى الجدار أمامها شيئاً يتراقص حسبته دابة فنهضت تتثاقل وأمسكت به فإذا هو حبل جرته وإذا هي تمسك بصرة فيها ذهب عدته فوجدته خمسة وثلاثين جنيهاً ذهباً، نادى زوجها أعطته المال فتح فرناً، كان في هذه الصرة الخوث. من وضعها؟ لماذا لم يسكنوا إلا في هذا البيت؟ لماذا تحرك الحبل؟ لا أقول إلا أنه الله يعين المساكين.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (١٦)

العربي سيف وجمل وحصان وجراب من التمر والحنطة

الاستعمار وحدنا لنحاربه . . والاستقطاب فرقنا ليحارب بنا  
إلى وزارة الزراعة: النواة لو زرعت بلبها . . كانت لأمها

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

## حب الرسول وصحبه تقوى . . وبغضاؤهم شقوة

والذكريات من المدينة المنورة كثيرة كبيرة فيها العبرة والعظة . . وعنها القدوة والأسوة . . تضحك لكل تاريخها ولو كان فيه بعض العذاب . . وتبكي من بعض تاريخها لا من العذاب لها وإنما من جرأة الذين فسقوا عن أمر ربهم فأشعلوا الفتن واغتالوا الخلفاء . . إن الذي اغتال عمر لا أضع له شأنًا . . هو مجوسي فلا قيمة تؤخذ عليه لأنه لا قيمة له ولكنه اغتال عبقرى هذه الأمة ولست في حل من ذكر الأسباب التي اغتالت نفس أبي لؤلؤة بالحقد فتأمر بقتال عمر وسواء كان الهرمزان المجوسي وراءه وجفنة النصراني خلفه فإن ذلك لا يزيد من الأمر في شيء فكل الزيادة وكل الفتنة وكل العصيان إن كسر الباب ذلكم قتل عمر . . فجرأة المجوسي لا تحسب لأنه العدو ولكن جرأة الذين اغتالوا عثمان بن عفان . . ذا النورين هي التي تحسب . . هي التي تقول لهم كيف هتكتم حرمة المدينة كيف هتكتم حرمة الخليفة؟! كيف لم تستحوا من المصحف بين يديه أنتم مسلمون نعم من هنا تؤخذون من هنا يسود التاريخ . ورواة تاريخنا يصفون هؤلاء القاتلين الذين هتكوا حرمة المدينة قبل أن يغتالوا عثمان يصفونهم بأنهم كوفيون ومصريون وهنا أصرخ فأقول: لم يكونوا الكوفيين ولم يكونوا المصريين أعني لم يكونوا عراقيين من أبناء العراق، ولا مصريين من أبناء مصر وإنما هم عرب من هنا الذين فتحوا العراق ومصر إن المؤرخين حين قالوا ذلك أشعلوا نار الحفيظة على المصريين والعراقيين الذين فعلوا ذلك حتى ألصقت التهمة بمصر وبالعراق فذو الخويصر والأشتر ومحمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة وابن الأشعث لم يكونوا إلا من هنا لا من هناك . .

إن اغتيال عثمان كان جريمة وتكبر الجريمة أن تكون في المدينة أمام

مسجد رسول الله . . أمام البيوت التي عمرت بالمهاجرين والأنصار ولا أريد أن أسأل كيف يغتال عثمان وفي المدينة ناس هم الناس قبل كل الناس وفوق كل الناس ولكنني أعوذ بالله من الفتنة ومن البغضاء فالحب لصحابة رسول الله فيه الخير كل الخير، إن الحب لهم تقوى والبغضاء شقوة .

وتتابعت الفتن، لا لتصبح المدينة عاصمة الدنيا المسلمة وإنما أصبحت تحت سيف الذين وضعوها إنما هي أدنى أرض مسلمة أهلها ثائرون والسلطان يقتل الثائرين .

وقال المؤرخون إن وقعة الحرة قادها جيش الشام بإمرة يزيد بن معاوية وهذه لا أقبلها فلم يكن من الذين هتكوا المدينة في وقعة الحرة واحد من أهل الشام وإنما هم بقيادة عقبة بن مسلم المرعي من أهل هذا البلد أستحي أن أسمي القبيلة ولكن قائدها يسميها تعرفونه إن هؤلاء قد ذهبوا لم تبق منهم باقية بأسمائهم الأولى وإنما البقية الصالحة منهم لها أسماء أخرى .

أريد أن لا نحمل قومنا في الشام ما فعلناه بأنفسنا فالتبرئة للعراق ولمصر وللشام لا أتبرع بها وإنما أتورع من ذكرى ذلك لأمحو البغضاء ولنضع الأمور في نصابها . .

## ذكرى

وتولى معاوية بن أبي سفيان الملك بعد الخلافة الثلاثية فجمع الأمة وما تأخر عن الفتح العظيم غير أن الذكرى التي أكتبها هي أن معاوية رضي الله عنه كان قومياً يحب قومه العرب لم ينتصر بقريش وإنما انتصر في الشام بقبائل الشام وفي الحجاز انتصر بقبيل من الحجاز كثير العدد قوي العدة ليس فيهم تميم فتميم سكنت العراق وبقي كثير منها في نجد لم تثر فتنة ولم تخف فتنة ولم تكن عوناً على فتنة هذا في عهد معاوية وفي عهد أمية

أما قبل ذلك فشيء غير ذلك وأقبلت القبائل تؤم قصر معاوية وكان بجانبه صديقه حليفه أبو عبد الله عمرو بن العاص صاحب الأيام البيض في اليرموك واليوم الأغر في مصر، أقبلت القبائل فأشار عمرو إلى معاوية أن ينادي على القبائل بأسمائها وأنسابها، وكان من هؤلاء الأنصار وفيهم قيس بن سعد والبراء بن مالك، ورفع المنادي صوته يا آل الأوس يا أهل الخزرج فلم يستجيبوا.. ما لبوا النداء وما أقبلوا يسلمون، وقفوا حتى إذا سئلوا لماذا لم تدخلوا قالوا اليوم نحن لسنا الأوس ولا الخزرج اليوم نحن الأنصار.. هكذا سمانا رسول الله.. محمد ابن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

وجزع معاوية أن سمع من عمر ذلك فنودوا يا آل النصار فدخلوا وإذا قيس بن سعد بن عبادة من أهل الحظوة عند هذا القومي الملك الإمبراطور معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم أجمعين، إن ثبات الأنصار على هذا اللقب بعثرتهم القومية كقومية بني أمية كانت العروبة لم يكن في عهدهم التسعين عاماً حول ولا سلطان إلا للعرب فإن المسلمين من غير العرب تأكلهم الشعوية فلم يستطيعوا أن ينتصروا بها ولكنهم لجأوا إلى التشيع فإذا هم خصوم بني أمية وإذا هم الهدامون لا لعرش بني أمية وإنما لكل عرش عربي فعرش بني العباس أنعم به وأكرم كان عرشاً شعوبياً خراسانياً إلى عهد المعتصم وتركيا بعدهم.. كان ذلك السبب في أن فقد العربي السلاح وكان ذلك السبب في زوال العباسيين وحتى الفاطميين فاستحال ملك الإسلام إلى ملوك الطوائف وانتهى سلطان العرب عباسياً وفاطمياً ولكن ملوك الطوائف وحتى الأيوبيين والمماليك نصبوا أنفسهم ولم يكونوا منصفين من تتر أو صليب وهذا خير ما فيه انتصبوا لحرب التتار وحرب الصليبيين فكان ذلك

خير ما فعلوا حتى إذا اتسع ملك العثمانيين انحسر موج الصليبيين فلم يعد المرشال اللنبي يقول كلمته وهو داخل بيت المقدس «اليوم انتهت الحروب الصليبية» ولم يقل الجنرال «غورو» وهو في دمشق يقف أمام قبر صلاح الدين قائلاً «اليوم عدنا يا صلاح الدين» لم يقولوا ذلك أيام ملك الطوائف وإنما قالوا ذلك يوم أن تأتي الدولة العثمانية ولم تبق الجامعة الإسلامية ولم تستطع القلة من العرب أن تواجه هؤلاء بالحرب عليهم وإنما هم خدعوا بالاتجاه إلى أنهم حلفاء الأرض فخانوا العهود وأخلفوا الوعود وما زلنا في تطلع إلى اليوم الموعود، يوم الإسلام الذي ينتصر بسيف العرب حين يتحدون تحت ظلال كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة.

لينتصروا على الاستقطاب كما انتصروا على الاستعمار ولا أستحي أن أقول كلمة قلتها من قبل إن الاستعمار كان خيراً من الاستقطاب فالاستعمار وحدنا لنحاربه والاستقطاب فرقنا ليحارب بنا..

## الزرع والضرع

ومرة ثانية نكتب عن الزرع والضرع لأقول: إن كل نبتة خضراء تنبت على أرضنا هي النعمة واليوم أرضنا تخضر بسنابل القمح وأعواد العنب وصنوان النخل.

كان بلدنا فيه اكتفاء ذاتي لا يبلغ الكمال في الحنطة ولكنه يبلغ الكمال في ما أنبتت الأرض من الخضروات والفواكه التي تصلح فيها، لا نستورد العنب والرمان والتين أما التمر فإن لم نصدره تجارة فهو يصدر على صورة أخرى حاج يشتري كماً من التمر يرجع به إلى بلده إن العربي إذا رأى النخلة أو الجمل أو الحصان فستعرف أنه هو الذي زرع النخلة وهو الذي صدر الجمال وجعل أهله في الأقاليم الأخرى يقتنون الخيل، فالعربي سيف

وجمل وحصان وجراب من التمر ودشيش من الحنطة .

فهل كان الفتح العظيم إلا بما ذكرنا سيفاً وجماً وحصاناً وجراب تمر .  
رضي الله عن عمر يوم لم يقسم سواد العراق لم يعط سعد بن أبي وقاص  
أرضاً ولم يقطع القعقاع بن عمرو اقطاعاً لقد ترك الأرض لأهلها يزرعون  
ويفلحون مدداً للجيش المجاهد فلو قسم الأرض قسمة خبير لقعد  
المجاهدون عن الجهاد . . ترك الأرض لأصحابها يدفعون الخراج مدداً  
لخزينة الدولة بيت مال المسلمين مدداً بما يزرعون ليأكل المجاهدون إنها  
عبقرية عمر .

والنخل يكفيه شرفاً أن النبي ﷺ قال: أكرموا عماتكم النخل . . بل  
وزاد النخل فضلاً حينما غرس بيده الصنوان ليفي الصحابة بما يعتقد سلمان  
الفارسي، بستان سلمان ورثه الإسلام لا أدري أهو باقٍ إلى الآن أم قطع  
الأرض لتباع الأرض . . نبي البيوت كنا نعرف أن اسمه «الفقير» . .

النخلة هذه كانت في المدينة لأنها أرض ذات نخل كما نجران - كما  
هجر كما اليمامة فقد كان رسول الله ﷺ وقد أمر بالهجرة إلى أرض ذات  
نخل ظناً أنها غير يثرب ولكن الله أمره أن تكون «يثرب» لتسمى طيبة دار  
الإيمان دار الهجرة المدينة المنورة . ما تسلط عليها ظالم إلا أذابه الله كما  
يذيب الملح في الماء .

النخل صنوان وغير صنوان الصنو لأمه صنو الحلوة حلوة والصنو  
البدني بدني فالصنو لأمه .

أما النوى حين ينبت فكثيراً ما يكون خملاً أو لوناً ولا تعجبوا إذا قلنا  
أن العنبرة المرغوبة للحجاج لم تكن إلا نبتة «نوى» كأنما هي تأصلت  
بنفسها .

وأعرف أن الشيخ في أم البيض بلاد الوسيدي كانت نبتة فإذا هي شيخة عريضة ثقيلة اللحم والنخل مرة أخرى أعرفكم عددها كنوع:

الحلوة. البرني. البيض. الشلبي المشوك، الصفراوي، الحلبة. السويدية. الهرموزي. المكتومي. الأفندية. البرحية كلها أصائل ولعلي نسيت بعضها أما البقية فلون غير أن ظاهرة ينبغي أن نعرفها في أول السرطان نذوق الرطب الحلية ثم يأتي بعد ذلك نوع من الرطب الآخر.

الحلوة تؤكل خضراء «سربان» وزهواً أحمر ورطباً وتمرّاً والحلبة بعدها تؤكل زهواً ورطباً وتمرّاً.

أما السويدية والروثانة فتؤكلان رطباً لا زهواً ولا تمرّاً والبرحية تؤكل زهواً ورطباً لا تمرّاً.

أما البيض والبرني والمشوك والشلبي فكلها تؤكل تمرّاً فقط كأنها الذخر لا تستهلك بل تخزن.

ونسيت الهرموزي والمكتومية والأفندية أحسن ما تؤكل رطباً وللذكرى فقد بيع صيف الزهرة في أوائل الأربعينات بألف وخمسمائة جنيه ذهباً والشنبيلية بلاد بهاء الدين خاشقجي بيع صيفها سنتها بسبعمائة جنيه ذهباً.

وللذكرى مرة أخرى طلع الجراد والدبا وقد خرص التمر وقد أزهى بخمسين ألف أردب فأكله الدّبا حتى لم يبق من الخمسين ألف أردب إلا ما هو أقل من النصف.

## إلى وزارة الزراعة

غفلت أن أتبع النصيحة أو هي الخبر عن النواة كنبته أكتبها فلم أصنع شيئاً عن الخبر فمن أكثر من عشرين عاماً أخبرني أستاذي صالح بن عثيمين

من أهل بريدة أن النواة لو زرعت بلبها يعني لو زرعت ثمرة لن تكون إلا  
لأمها أرجو من المزارعين أو من وزارة الزراعة أن تجرب زرع الثمرة من  
أنواع كثر لعلّ الخبر صادق.

فالصنوان قليلة أما زرعنا ذلك فلعلّ الصنوان تكثر لتأتي العجيبة.

وكيف زرعت كاليفورنيا النخل حتى البرحية كان ذلك يوم طاف البلاد  
العربية مستر «قرين» الأمريكي. فأخذ الصنوان من الجزائر والبصرة والقصيم  
واليمامة والمدينة بواسطة أصدقائه من العرب فزرع الصنوان في كاليفورنيا  
فإذا هي تصدر التمر وإني لأعجب من البرحية هي نخلة البصرة حجزوها  
ولكنها زرعت في القصيم فلم تتأقلم، وزرعت في المدينة فقد جلب  
صنوين من البرحية شويمي بن حجاز يرحمه الله هدية لصهره عبد الله بن  
مسلم المحمادي الشيخ والد صديقنا حليت، أثمرت فلم تتأقلم وزرعت في  
الشرايع فلم تتأقلم وأغرب من ذلك أنها زرعت في جدة عند قائم مقام جدة  
وعند بعض أهل القصيم فلم تتأقلم.

بينما زرعنا «دقلة نور» نخلة الجزائر فتأقلمت فأصبحت كأنها المشوك  
والتمر يخزن في الأزيار المغربية لا أدري هل يوجد شيء منها الآن أم  
تكسرت؟ ويخزن أيضاً في الشنان حشايا وفي الصفائح كما يصنع مجاليد  
كأنما المجلاد من الخسف «من السعف» أشبه ما يكون بقلال هجر.

إن الاكتفاء الذاتي من الحنطة ما أحسن أن تواخي بين سنبله الحنطة  
وعرجون النخلة ليكون الاكتفاء بالحنطة والتمر ولا بد من مثل أذكره.

قال أحد أمراء مكة إن المدينة لا تجوع وفيها الأسودان التمر والماء.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (١٧)

### ودخلت طيبة في الكيان الكبير

عبد العزيز خامس ملوك العرب  
وسابع ملوك المسلمين

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أفحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحبباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

مقدمة الخاتمة

وأحسبني أخطأت حين نشرت الذكريات في صحيفة لأن أرضنا المقدسة

حرماً وسياباً، أعطت لإنسانها الخوف على الماضي لا يمس أكثر مخافة على الحاضر، لأن الماضي عمل الأجداد وطبع شعبنا على تكريم الأجداد، أما الحاضر فمن صنع إنسان اليوم، يفرح بما أوتي وقد أعطى الكثير فهو يخشى من عجوز مثلي أن ينال من ماضيه، وأن أختال بحاضره، فبعض الأفراد لا يعجبهم ما هم فيه، ويجزعهم أن أقول إنهم به آمنوا واطمأنوا وتعلموا وعلموا، لهذا قررت أن أختم الذكريات أتجاوز عن الماضي إحساناً وإساءة ولعلهم في هذا كله يتطاعنون ألسنة تتلسن علي. وألسنة تدافع عني أما البقية من الذكريات فلن أتركها، أنشرها وأنا أجهزها للطبع، فالكتاب في يد القارئ يبصرني بالخطأ أكثر من أن يجردني من كل الصواب.

ومع هذا فإني أنتظر التصويب لما نشر إذا ما وجد خطأ.

إن المدينة المنورة لن أكذب عليها ولن أكذب بها ولا أسمح لكاذب أن يتهمني بالعقوق، فالمدينة المنورة الأرض الغزلة علمتني الحب.. علمتني أن أكون الضعيف أمام الضعيف وأن لا أعرض لسخط الأقوياء، المدينة التي تعلمني الحب، كيف لا أحبها؟ كيف لا أثلم بالحب ثراها، كل الثراء في وجداني من ثروة المعاني كان مددها حتى إني في أحلام اليقظة وآمال الحسن للختام لا أتمثل إلا المدينة المنورة، ولئن أعطتني مكة المكرمة عطاء كثيراً فإنها أيضاً المثال الحلو في أحلام اليقظة فالعجوز الطفل ثروته الأحلام وثورته أن ينسى حلماً جميلاً، عشته في قباء أو في العاقول أو في المهاريس أو في العقيق أو في الشربيات حول (ماسكة) تلك البئر يشرب منها أهلها ماء يطرد العطش ونشرب نحن الشباب معنى الجمال يحوطه الجلال لا ينقصه الكمال، كل شبر في المدينة المنورة يتغزل لك لتغزل به، فليالي العقيق أيام عبد الله بن جعفر اجتمعت فيها كل الأشبار

وكل الأخبار من ذلك الغزل بذلك الحب، فالكم موجود وما أكثره ولكن كيف تغير، فلو أن أبناء السيد عبيد مدني والسيد علي حافظ نشطوا ينشرون الشعر الذي في خزائهم لرأيتهم غزل العقيق على كيف جديد قلد العتيق وأجاد الحديث.

والخاتمة التي أردت الختم بها، فكتبت ما سبق هي عن المدينة المنورة وكيف انضمت إلى الكيان الكبير وتم بها التكوين لهذه المملكة العربية السعودية، تكوين الأمن والعلم والاستقرار والعمران، وترك التنازب بالألقاب وإسقاط التنافر بالتلقيب.

### عبد العزيز وحصار المدينة

سأكتب عن ذلك خاتمة للذكريات تنشر في الجريدة، أما ما سأكتبه بعد ذلك فسيكون في الكتاب..

عبد العزيز بن عبد الرحمن خامس الملوك في العرب.. معاوية.. عبد الملك.. المنصور.. عبد الرحمن الداخل.. عبد العزيز بن عبد الرحمن، وسابع الملوك في المسلمين، إذا زدنا على الخمسة التي ذكرت محمد الفاتح العثماني التركي الذي أزاح دولة روما الشرقية التي لم تستطع أمية أن تزيلها ولا استطاع العباسيون أن يخلصوا منها وعجز عنها ملوك الطوائف وأعطت سيف الدولة أن يكون آخر العرب حرباً على الروم، محمد الفاتح يستأهل أن يكون خامس ملوك المسلمين، وجاء سليم فكان السادس من ملوك المسلمين وأنعم الله على عبد العزيز أن يكون السابع في ملوك المسلمين، الخامس في العرب والسابع في ملوك المسلمين فلا تأخير ولا تقديم وإنما هو ترتيب الزمن.

عبد العزيز قلتها كلمة جهيرة.. أجهر بها الآن إنه لم يكن الثقفي الذي

أهدر البيت ولا أبخس الحسين بن علي حقه، فهو القرشي الذي لم يعرض البيت إلى الإهدار، رحمهما الله وحرص عبد العزيز فكان محنكاً وحصيماً ونظيفاً لم يعرض المدينة إلى الإهدار.. أسألوني كيف كان ذلك؟

فيصل الدويش حاصر المدينة في قباء بعيداً لا يصل رصاصه إلى أي جزء من المدينة، كأنما هو حجز عنها وكأنما قباء حددت له، لأنه لم يصل إلى العوالي، فقد وصلها ابنها شيخ قبيلتها أخو حسنة عبد المحسن الغرم شيخ بني علي، أهل العوالي والذين في القصيم، هو من شماريخ حرب، وهو رأس في مصروح، عبد المحسن الغرم منع الدويش أن يصل إلى العوالي حجزه في قباء، بعيداً عن سور المدينة، أما الغرم عبد المحسن فكان في العوالي وما أشد قربها لسور المدينة، لماذا أذكر ذلك؟ لأنه عمل المحنك عبد العزيز، فعجز الدويش أن يدخلها وما انتوى الغرم أن يدخلها إنه ابنها، هذا العمل هو الذي أعطى لعبد العزيز قبول التحدي لشاه إيران أحمد، أبرق بعض أهل المدينة وهم خائفون أن القبة الخضراء ترمى بالرصاص، فاحتج شاه إيران وتحدى الاحتجاج عبد العزيز لأنه يعلم كل العلم أن أي طلقة من الدويش لا تصل إلى المسجد وأن الغرم لم يطلق طلقة واحدة على المسجد الذي يتناوله وهو على جدار البقيع الذي هو أول العالية وأذن للسفير الإيراني يرافقه صديقنا أحمد لاري محروساً يصل إلى المدينة يستقبله إبراهيم النشمي الذي يحاصر المدينة من شمالها بعيداً عنها حول الزهرة فهو أيضاً لم يطلق رصاصة، لقد قرأت الكتاب الذي أرسله عبد العزيز إلى إبراهيم النشمي يوصيه بحماية السفير الإيراني وإكرامه ودخل السفير الإيراني المدينة بإذن من البلدية والمالية، وأذن الأمير محمد لمن يريد السفر ولا يطيق البقاء أن يسافر، فسافر أحمد بن منصور إلى وادي فاطمة وعبد الله عمير وأكير ديوانه سافر ولكن كيف سافر عمر كردي حفيد

إبراهيم الكردي الكوراني وشاعر الحسين بن علي وشاعر المدينة وقاضيها سافر لأن اجتماعاً عقده الأمير محمد في البلدية حضره أعيان المدينة وجرى حديث من أحدهم عن خبر (لقد كان ذلك أيام نهضة الحسين) فإذا أحد الأعيان من بقايا السيد أحمد أسعد يقول قولوا (نهضة الحسين لا نهضة الحسين) فاعتم عمر كردي وقام يستأذن الأمير محمد بالرحيل وما كان ينويه، فرحل هو وأخوه عبد الحفيظ وأخوه صالح وابنه محمد وابنه سامي، عمر كردي خال صديقنا ضياء الدين رجب وصل إلى العراق ومات هناك كما مات أخوه صالح لكن عبد العزيز بن عبد الرحمن قد أعاد الشيخ عبد الحفيظ يتولى القضاء في المدينة ويرد للبيت اعتباره.

ولكي تتم الخاتمة فإني أشكر السيد الإدريسي كتب مقالاً صوب فيه أخطائي لعلي أنشره مع الأيام، وأرسل إليّ الابن الصديق وابن الصديق عبد الهادي محروس رسالة يعترض علي بما تحدثت عن أبيه عبد الحفيظ محروس وعن عيسى العقيد أنشرها نصاً ولكني وأنا الصديق لآل محروس لم أرد سوءاً بعبد الحفيظ.

### سامحك الله يا أستاذ

حول قصة عيسى العقيد وما كان له من أمر والدي عبد الحفيظ محروس يرحمه الله مع المذكور.

فالقصة وما فيها أن عيسى العقيد كان يترصد والدي عند جبل أحد لأنه المالك الوحيد في تلك الأيام لبلاد الزهرة.

لأن بعض الوشاة أخبروا العقيد أن والدي أعطى إخبارية عنه للحكام في المدينة عن الإجراءات التعسفية التي كان يقوم به المذكور آنذاك ومن أجل ذلك عمل له تلك المكيدة التي جانبك التوفيق إعطاءها بالصورة التي

تمت . حيث أشرت أن العقيد ترك والدي ينزل للمدينة لا يستره إلا القميص والسروال هنا أحب أن أقول للأستاذ إن عيسى العقيد لم يترك والدي حتى إنه ينزل للمدينة بالحالة التي أشرت عنها بل جعله رهينة إلى أن أسمع جدي صادق محروس بالأمر واتصل بالحويفي حليفهم من المحاميد وأخبره بالأمر وراح إلى هناك وأعاد والدي مرتدياً كل ملابسه . هذه هي القصة أو الحكاية كما ذكرتم يا أستاذ وأنت تعلم أن والدي مع ما يتمتع به من رشاقة وأناقة ورفاهية قليل من الرجال في زمانه حظي مثله أو وصلوا حتى لمكانته في ذلك التاريخ وماله من عزة لدى والده يرحمهم الله جميعاً أحببت التنويه لكم عن ذلك للإعادة إلى الصواب والابتعاد عن الخطأ وحتى لا تنسى أحد أصدقائك يا أستاذ ولا تقبل عليهم التجريح . فأبي لم ينزل للمدينة كما ذكرتم .

### عبد الهادي محروس

إن عبد الحفيظ لم يكن مالكاً للزهرة فهي وقف وإنما كان مالكاً لصيف وأذكرك يا عبد الهادي بواقعة مع جدك صادق محروس ، جاءه الخبر أن عين المدافعية لا يصل منها الماء سدها عبد العزيز بن بادي أحد شيوخ بني علي في العوالي لأن المدافعية العين منابعها في المسروحية ، ولكن محمد محروس حسب حساباً لذلك فحالف من مسروح ابن ربيق شيخ بني عمر وعلى الرأس وهم من مسروح كما حالف ابن موقد أحد شيوخ عوف في نجد حرصاً منه وحماية بهم ولا أدري هل كان محارب بن موقد في المدينة أما أن صادق محروس يستنجده وبعد ظهر يوم أعد الغداء صادق محروس فإذا عبد العزيز بن بادي الذي أغلق العين ومحارب بن موقد وأحمد بن جميعان حليفنا ولا شأن له كما يبدو وجرى الجدل فلم يستطع

محارب أن يهدد أو يتوعد أو يشرح ولكن أحمد بن جميعان شرح وقال «ما جرت المدافعية إلا بإذن وإلا بعطاء فكيف تغلق الآن» فقال ابن بادي «ويش خصك يا أحمد خلي بن موقد يتكلم» فقال أحمد بن جميعان: «يا صادق أنت حليف بن ربيق وإلا لا؟» فقال صادق نعم، قال اسمع يا عبد العزيز أنا ماني فضولي ينوشني ما ناش ابن ربيق هو عمري وأنا عمري وأنا ومحارب الآن نفتح العين وتعال سدها بعد ذلك وانتهى الوضع وتصافح الرجال وفتحت العين. . أنت يا عبد الهادي قد لا تعرف هذه القصة وقد لا يعرفها نذير ولكنني عرفتتها من أحمد بن جميعان وبعد ذلك عم أبيك أبي محمد عبد السلام محروس والبقية من الذكريات لعلها تستأنف ولعلها تأنف أو لعلها تلحق بالكتاب.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (١٨)

### بدخول عبد العزيز . . لا طبقية ولا امتيازات

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أفحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحبباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

### الملك عبد العزيز في المدينة

وودعت المدينة المنورة أميرها صاحب السمو الملكي محمد بن عبد العزيز وداعاً كريماً بعد أن أقام النظام فيها بتأسيس أجهزة الحكم، فأبقى كل شيء على حاله . . ديوان الإمارة يرأسه إسماعيل حفطي . . والشرطة

يرأسها مهدي بيك الذي انتقل منها مديراً للأمن العام في مكة. والمحكمة الشرعية قاضيها الأول شيخ الشيوخ إبراهيم عبد القادر البري العالم الذي لا يتعالم والذي لم يعرف الشر إليه طريقاً يعاونه القاضي الخلفي. وهو ليس أستاذاً عبد الله الخلفي الإمام في المسجد المكي فلعلهما من نسب واحد أو لعلهما لقب واحد، فلعلي أجد من يوضح ذلك، والخزينة التي كانت تجمع إدارة الأوقاف وإدارة المسجد، تولاهما كما علمت بعد. محمد الإبراهيم القاضي، وبعد هيئة التفتيش والإصلاح برئاسة الشيخ حافظ وهبة وعضوية أستاذه وشيخي والناهض بي محمد العلي التركي وإبراهيم الصنيع ومحمد السلیمان التركي وأحمد سبحي المكي ومحمد صالح نصيف، بعد هذه الهيئة عين أستاذاً السيد حسين طه مديراً للأوقاف حيث فصلت عن إدارة الحرم وعين فيها أولاً السيد عبد الجليل مدني، أما البلدية فعين فيها ذياب ناصر أبو حسن وضمت إليه المالية، وكما قلت من قبل إنه لربما أوصى ابنه الأمير محمد بأن يستعين بذياب ناصر لأن الملك عبد العزيز يعرف ذلك أن السلطان العثماني محمد رشاد أو الصدر الأعظم من الاتحاديين طلعت باشا قد أوفد كاظم باشا أيام بصري باشا في أواخر العشرينات أو أوائل الثلاثينات أوفده ليفاوض السلطان عبد العزيز حينذاك، فاصطحب كاظم باشا معه ذياب ناصر معيناً ومترجماً واستقبلهما السلطان عبد العزيز ولكن لم تنجح المفاوضات مع أن السلطان عبد العزيز لم يحرك ساكناً ضد الدولة العثمانية بعد أن ضم الأحساء.

سافر الأمير محمد وتولى إمرة المدينة بتكليف من الملك عبد العزيز وكيلاً للإمارة بينما هو والأمير فيها وهو (إبراهيم السالم السبهان) والكاتب أو المؤرخ يقف عند هذا التعيين فلا يرى ذلك إلا وهو الحصافة والإدراك

من عبد العزيز بن عبد الرحمن يولي إبراهيم السالم السبهان حاكماً في المدينة المنورة لعدة أمور لعلي لا أخطئ في فهمها وهي أن هذا الأمير من أعيان شمر وحائل بينه وبين آل الرشيد صلة الرحم لا واصله النسب إلا أنه شمري مثلهم من أعيان شمر. فهو بهذه الصفة يعرف كثيراً من أهل المدينة لأن المدينة المنورة قريبة من حائل كقربها من عنيزة سكنها الكثير من هؤلاء ومن هؤلاء حتى إن حمود العبيد قد لجأ إليها بعد قتل عبد العزيز المتعب ونزل في ضيافة السيد عمران حبوبي المشهدي وكان رجلاً له ثراء وله قيمة وكان حمود العبيد صديقاً لذياب ناصر، ذياب ناصر كان مجلسه يضم العلية من أهل القصيم وأهل حائل، عساف الحسين عبد الله بن دخيل سيف العوجان جدي لأمي رجاء ابن فضلون، يعرفون بعضهم، وكان مع حمود العبيد الطفل عبد الله المتعب يحوطه برعاية وكان رضيعاً طلبوا له المرضعات فإذا جد رجاء ابن فضلون يأخذه لترضعه أمي ومعني كأنما نحن في سن واحدة، أرضعته أياماً غير أن والدي طلب من والدتي وجدتي وجدتي ألا يرضع مع ولده ابن رشاد أو ابن رشيد، عرفت ذلك من والدي بعد أن أصبحت رجلاً ومعلماً للصبيان وخطيب محفل.

كانت المدينة المنورة في هذا العهد الحميد ليست على حال السلطان عبد الحميد أو السلطان رشاد، فقد قتل عبد العزيز الفصام والخصام، في هذه الفترة نسيت يومها وشهرها وصل الملك عبد العزيز إلى المدينة فما رضي عن وضع طبقي فإبراهيم السالم السبهان كان مجلسه يمتلئ بأصدقائه الذين كان يعرفهم من قبل من أهل المدينة داخل السور ومن ذياب ناصر والسيد عمران، أما أهل عنيزة القاضي والزغبني والتركي والخريجي والعامر والسلومي والصهيل فلم يكونوا من رواد مجلسه، كان ذلك هو السبب في

انتقال السبهان من المدينة، ولكن كيف تم ذلك؟ سمع أعيان المدينة من داخل السور في طبيعتهم آل المدني وعارف بري أن الملك عبد العزيز يريد تعيين أمير آخر فكتبوا مضبطة يحسبون المضابط أصبح لها سعر، قدمت للملك عبد العزيز فإذا هو يعلن غضبه يجمعهم ثائراً ثورة راحمة ليفهموا أكثر وليعلموا أكثر وأمامهم أرسل إبراهيم بن معمر يخبر إبراهيم السبهان بأنه لم يعد الأمير، كان ذلك درساً لقتل الطبقية والقضاء على الامتيازات والفصام، وعلمت أن الذي أرسل الإشاعة ودفع إلى المضبطة كان الصديق الأب الناصر لي صالح الإبراهيم القاضي، وتولى الإمرة الأمير مشاري بن جلوي آل سعود ولذلك قصة بعد.

وصل إلى المدينة الملك عبد العزيز وذكرنا ما سبق وكان يتنسم الهواء يركب قطار السكة الحديد لأول مرة يصل به إلى البوير بأسلوب التمشية والاستكشاف وأخذ المعلومات وعرضت عليه قضية، قبل وصول الملك عبد العزيز إلى المدينة بأشهر كان في المدينة رجل من أهل مصر ومن صعيدها ومن منفلوط من أسيوط يشتري (تبسي الكنافة) وثمنه ثلاثة ريالات يدفع لبائع الكنافة وهو الشيخ صالح شرف الرجل الكريم الطيب وهو زوج خالة أم ولدي، وهي أم الابن حسن عطا الله الذي كان مديراً للشركة العربية للسيارات وابن عم عبد القادر عطا الله. يشتري التبسي الكنافة ويدفع جنيهاً أو جنيهين صور للناس أنه رجل ثري، ويذهب للحلاق وكان الأخ أبو بكر الذي شغل الحمام في مكة بعد، يخلق له لا يعطيه نصف ريال أو ريالاً بل يعطيه جنيهاً ذهباً حتى إنه أخذ من متسول رجله مكسورة خمسة جنيهاً بجنيه أو جنيهين، كان ذلك المتسول يضع الجنيهاً في الجلبة التي لفت بها رجله المكسورة أما الأخذ الأكثر فمن رجل هندي كان يبيع

الفحم، أغراه أولاً بالعطاء الكثير كما فعل مع الآخرين فقد أخذ من الحلاق سبعين جنيهاً ومن بائع الكنافة ٢٠٠ جنية ومن الهندي بائع الفحم أكثر من ٩٠٠ جنية، أسلوبه غريب ينقطع عن بائع الكنافة أياماً يناديه «فينك يا شيخ» فيشير وكأنه أخرس بأن الأولاد لم يرسلوا له فلوساً، وهكذا يفعل مع الحلاق وبائع الفحم، بهذا الأسلوب والاعتذار يعطونه ما أخذ منهم لأن الأولاد سيرسلون له فلوساً مع أنه لا أولاد ولا فلوس لأنه نصاب كشف أمره فرفعوا الأمر يشكونه للملك عبد العزيز فقال يرحمه الله «هم أعطوه ليأخذوا منه أطعمهم فسلبهم . . رحلوه ولا تعملوا فيه شيء» ورحل الرجل وضاعت الفلوس على أصحابها وأخذ الشباب يقولون هذا المثل «طمعنجي بنى له بيت فلسنجي سكن له فيه» ونسيت أن أذكر المدرسة كان مدير المعارف الأول لها في عهد الأشراف عبد القادر الشلبي الطرابلسي أما في عهد بني سعود الأول فقد عين الشيخ أحمد كماخي والأساتذة أحمد صقر، حسين طه، سعيد مدرس، ماجد عشقي، العريف بن سالم ولم يعين الأستاذ بحق السيد محمد صقر وإنما عين بعد في اليوم الذي عينت فيه أستاذاً، برأي وتصميم محمد علي التركي عضو هيئة التفيتش والإصلاح.

والملك عبد العزيز تغمده الله برحمته وصل إلى المدينة المنورة المرة الثانية بعد انتصاره في السبلة وكان معيته محمد الطويل ومحمد سرور صبان كانا في الرياض فعادا إلى الحجاز، وأريد أن أذكر نادرة كان الملك عبد العزيز يتصدر مجلسه في بيت الخريجي وبجانبه ابنه الأمير الملك فيصل بن عبد العزيز وصل إلى المدينة بعد أبيه يحمل إليه تقريراً عن المفاوضات التي أجراها فإذا صديقنا حسن حسين، بقال حملوا إليه سيارة فيها دخان ألقوا القبض على الدخان من هيئة الأمر بالمعروف فكتب عريضة وقدمها للملك

عبد العزيز يطلب السماح للدخان المجمعرك فنهزه الملك عبد العزيز وقال احبسوه فإذا الفتى يرتعش يقول يخاطب الملك (يا هو أنت جاي ضيف والا جاي تحبسنا) فشمخ عبد العزيز يقول (والله إني ضيف ردوا له حقه) فإذا الناس الجلوس يهتفون داخل صدورهم يعجبون من عبد العزيز، جلس أياماً في المدينة يتفقد الأحوال لأنه يريد أن يعرف كل شيء فهو كما قلت لا ينام ولا ينعيم، أسس ملكه ووجد العرب في جزيرته وصنع من القليل الكثير، إنه في التاريخ أعجوبة وإنه في الواقع لا يزال في سمع التاريخ وقرطيس التاريخ.

أما المرة الثالثة التي وصل فيها إلى المدينة فهي حين استقبال الملك فاروق الذي أصبح صديقاً، ولا أقول أصبحت مصر بذلك صديقة بل هي الصديقة من قبل ومن بعد وإن كان علي ماهر هو الذي فتح الباب وقتل الأسباب، فأبو محمد علي ماهر زينة في تاريخ مصر حفظ له ملوك السعودية هذا الموقف فإذا هم له بكل شيء وفاء وعطاء يرحم الله كل من أحب ويهدي الله كل من عق وانشق، فهذا البلد بلد العطاء بلد الحمد بلد الشكر لا يعرف الكنود والجحود لأن إسلامه هو الحب، لأن قبلته هي القبلة.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان ( ١٩ )

### الحاكم . . الأمن . . الحجيج

لا نمنع الحاج من أداء الفريضة . . ولو توقعنا منه بعض الشر

قصيدة نزعت الغل من قلب الكيلاني

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أفحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحبباً يتقاربون وبالعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

## قصيدة أمير البيان في رثاء أمير الشعراء

قد أعجز الشعراء طول حياته  
هيهات يوجد في البرية منهم  
كان الأمير لجيشهم مستنة  
ما عاب أهل العبقرية أنهم  
هذا أمير الشعر غير مدافع  
لو كان وحي بعد وحي محمد  
رقت لنغمته القلوب، فكيفما  
تغدو المعاني وهي شمس مفازة  
وإذا أراد الصخرة الصماء من  
ما رام شارد حكمة في نظمه  
جلى الإله له الأمور، كأنما  
فكسا الطبيعة من نسيج بيانه  
فترى الطبيعة قبل نظرتة لها  
والحسن يشرق في العيون بذاته  
من كل بيت في رفيع عماده  
كالدرد في لمعاته، والبدر في  
ولقد رويت الشعر عن أحاده  
وقضيت فيه صبوتي وصبابتي  
وأثرت في البیداء نُزل فحوله  
فرأيت شوقي لم يدع في عصره  
واليوم يعجزهم بنذب مماته  
كفوليرثيه بمثل لغاته  
فرسانهم في الظل من راياته  
قد قصرُوا في الخب عن غاياته  
في الشرق أجمع منذ فتق لهاته  
لانشق ذاك الوحي عن آياته  
غنى بها رقصت على نبراته  
فيقودها قود الغلام لشاته  
أغراضه رقت نظير سحاته  
إلا أصاب صميمها بحصاته  
يلقي عليها الشمس من نظراته  
حلالاً خلت من غير طرز دواته  
غير الطبيعة وهي في مرآته  
وهناً يضيء بذاته وصفاته  
تتقاصر الأقدام عن عتباته  
قسماته، والصبح في نسّماته  
وضربت بالسباق في حلباته  
وقطفت منه خير نواراته  
وأطرت في الآفاق شهب بزاته  
قرناً يهز قناته لقناته

والفد في أمثاله وعظاته  
لغة الغرام نظير شوقياته  
أو في النسيب كظبيه ومهاته  
أنسك بالتحبير وشى نباته  
قولاً يزيل أجاجها بفراته  
غراً تشق الفجر عن ليالاته  
سرى عن الإسلام ثقل سباته  
هي صور إسرافيل في زعقاته  
قد حط هذا الشرق عن صهواته  
فلذا ترى الأخلاق رأس وصاته  
من يوم نشأته ليوم وفاته  
شأن الأبى يزود عن تركاته  
منه، ويحفزه لأخذ تراته  
وأجاد وصف الغرب في آفاته  
يمشي النجاء بها لأجل نجاته  
بالواد مغتصبين حق رعاته  
والجائشين بنجده ووطاته  
والآكلين لتمره بنواته  
تجد الحياة الحق في كلماته  
من قبل أن نزل القضا بسكاته  
ترعى جياذ الفكر في تلعاته  
أبدأ ويرثي الشرق رب حماته

الفرد في أمداحه ونواحه  
وإذا تعرض للغرام فهل درت  
ما في الهيام كوجده وحنينه  
وإذا تحدث بالربيع وروضه  
يلقي على غمرات كل ملمة  
ويظل يرسلها قصائد شرداً  
كانت قصائده هي الصوت الذي  
بعثت به روح الحياة كأنها  
قد كان أدري الناس بالداء الذي  
داء هو الأخلاق في اضمحلالها  
وفي عن الشرق القديم نضاله  
قد زاد عنه بقلبه وبلبه  
ماضٍ يحذره استلاب تراثه  
أعلى منار الشرق في أوصافه  
أوحى إلى الشرقي بالطرق التي  
أملى مكافحة الذئاب عوادياً  
الجالسين ببره وببحره  
والسالبين لزرعه ولضرعه  
أشعاره تحيي، وتحيا أمة  
يا راحلاً ملاً الزمان بدائعا  
أتركت بعدك شاعراً ترضى بأن  
يبكي بك الإسلام خير جنوده

وكأن وادي النيل من أحزانه  
ونوادر العربية الفصحى لها  
انظر إلى الأخوان كيف تركتهم  
انظر لحال أخ فداك بروحه  
قد كنت طول العمر قرة عينه  
مضت السنون الأربعون ونحن في  
أرعاك عن بعد وترعاني على  
قد كنت أطمع أن ترى لي راثياً  
كنا نخاف رداك قبل وقوعه  
تبا لعيش قد يكون مساؤه  
يلقي على الشطين من زفراته  
ندب عليك يذيب في رناته  
من كل مضطجع على جمراته  
لو كان يحيي الميت عزم فداته  
والآن تجري السخن من عبراته  
هذا الإخاء نمز من قهواته  
عهد نهز الرطب من عذباته  
يا من غدوت اليوم بين رثاته  
فلنا الأمان اليوم من دهشاته  
نوحاً وكان سروره بغداته

وكتابة التاريخ قد تكون استقراء يسجل الحدث ولا يستنبط من الحدث  
أي شيء عن أسبابه أو عن الدوافع التي حملت صانع الحدث على صنعه،  
وما دمنا في شهر الحج وما دمنا نشعر بالامتنان لما نحن فيه حيث تبذل  
الدولة كل وسعها فلن يكون التعمير والتعبيد وصيانة الأمن هو أول أولوياتي  
فالיום أول القيم التي نتحدث عنها هو قيمة الأمن الذي أقرته الدولة التي  
تحتمل ما لا يحتمل ذلك أنها تعرف ما يحدث من شغب وما يلي ذلك  
ومع هذا فإنها لم تلجأ إلى منع من تتوقع مشاغبتة من الحج . .

فالأمن الذي صنعت بما أنعم الله عليها به يزدان بعدم المنع لأي حاج  
ولو توقعنا منه بعض الشر هذا الواقع يساعد المؤرخ حين يكتب عن  
ذكريات الماضي أن يضع الأمور في نصابها فقبل أكثر من ستين عاماً لم  
يكن هناك أمن . .

نغمض عيوننا عن الذي خرب الأمن وهو الحاكم ونضع التبعة على قبائلنا غرب المدينة بينما الحاكم من أيام ملوك الطوائف والمماليك بالذات ومحمد علي باشا ومن هو قد تولى الحكم في الحجاز في ظل المماليك وإلى عهد الدولة العثمانية كل هؤلاء فرضوا على قبائلنا بما يمنحون أن يكونوا على مسؤوليات شتى..

كل قبيلة في غرب المدينة حربية - سالمية وفي الأكثر من ميمون أما الحوازم فهم حرب من حرب ومن بني سالم ولكنهم من المراوحة، فبعض هذه القبائل حجاله - حملة حاج وبعضها المقوم والمخرج وصاحب الخفارة وصاحب الامتياز.. توزيع أقره الحاكم وقضت به حاجته إلا أن يذكروا خارج القطر بأنهم حماة الحرمين أو أن يعتقدوا ذلك في أنفسهم إذا كانوا داخل الحرمين.. الحاكم هو السبب.. كيف كان ذلك أضرب مثلين:

فالأول عن المحمل المصري.. والثاني عن الحج الإيراني.. فالعجيب أن يحجز المحمل المصري حتى يسلم لسعد بن جزاء شيخ الأحامدة الرسم المقرر على المحمل بينما الحجيج من المغرب العربي أو من كل إفريقيا ومن صعيد مصر يمرون دون أن يحجزوا أو أن يدفعوا امتيازاً فالأمر في هذا الوضع هو من صنع الحاكم في مصر إذ فرض للأحمدي هذه المقررات فالباشا قائد المحمل هو الذي يقف ليؤدي الرسم المقرر دفعه، وفي «مرآة الحرمين» تأليف إبراهيم باشا رفعت وثيقة لعلي أنشر صورتها إذا وجدتها في هذا اليوم.

وخلاصته «من سعد بن جزاء إلى إبراهيم باشا رفعت قد سمحنا لكم بالمرور» فهذا السماح لأنه سلم ما ينبغي دفعه مما هو مقرر بفرمان سلطاني أو بأمر خديوي.

وحين تغير سلطان الحكم في مصر من خديوي إلى آخر ولكي لا يسلموا هذه المقررات عدلوا عن نزول المحمل والمدفعية التي معه والحراس فلا تنزل في «ينع البحر» كما كان سابقاً وأصبح نزول المحمل في ميناء «الوجه» وأعطى بعض الامتياز وثمان الخفارة إلى «سليمان بن رفاة» ومنحوه لقب باشا. . ينزل في الوجه ويمر في «بلي» القبيلة وفي «جهينة» القبيلة عن طريق «بواط» يصل إلى مواطن «لحرب» لولد محمد بالذات تقرب للأحمدي إلى الجبل الأشم الحبيب «رحقان» أو هو «الفقرة» يشرف على الجهينية ولكنهم ما فعلوا ولا أغروا ابن عمهم الميموني السالمي الحربي الحويفي ومن إليه بأن ينال من المحمل بعض الحظوة فالأمر إذن هو من صنع الحاكم .

وإلا فالمحمل معه مدفعية وجيش يمكن أن يمر بالقوة ولكن الحاكم في مصر وفي غيرها «أستنابول» و «الآستانة» وما إليها ومكة ومن بها ما أرادوا إلا ذلك، لأن الأحامدة شوكة وجمرة عوناً للحاكم وأمناً له أما الحجيج الإيرانيون فإليكم قصتهم:

يجتمعون على حدود جزيرة العرب من الشمال وغالباً في النجف ويمرون على قبائل نجد كلها وفي خفارة «ابن ناحيل» صلف أو أخوه «خلفا» فورث غلاب من صلف بن ناحيل هذا الامتياز، ولم يكن من القوة بحيث يصد. . أي قبيلة في نجد، ليس أولها من كان من «يام» أو من كان من «مضر» أو من كان من ربيعة الفرس. . لا يعترض عليهم قبيل ولا يدفعون مقررراً لأن الحاكم لم يقرر ذلك. .

لكنه هو الذي قرر الخفارة لابن نحيل ومن العجيب بمكان أن يكون ابن ناحيل هو من حرب نجد أحمد ميمونياً سالمياً. . فكيف اقترنت

امتيازات المسيحية مع امتيازات ابن ناحيل . . ذلك جاء من الامتياز أعطاه الحاكم للأحامدة .

وفي عام ١٣٤١ أو ١٣٤٢ هجرية حمل غلاب بن ناحيل تحت ظل خفارته ثلاثة عشر ألف حاج إيراني خفرهم من النجف إلى المدينة ثم يتركهم لابن عمه «الصميدي» بعد أن سلموا أجر الدليل فالحجيج الإيرانيون من الشيعة يقدمون بفرمان سلطاني - للدليل السيد مصطفى عطار الأجر ثلاثة عشر ألف جنيه فما حال عليها الحول لأن السيد مصطفى أعرفه لأنه صديقي وأعرف عنه أنه متلاف كتب على صك يلزم مديناً له بأكثر من سبعة عشر ألف جنيه . . كلمة «وصلني الدين» إنه يتسامح فلا يرهق وصيه بدين لا يستطيع سداده وأراد الحجيج الإيرانيون أن يسيروا إلى مكة ولكن لا بد من أن يدفع للصميدي الامتياز المقرر عن خفارة أو إتاوة .

وكان الأمير علي بن الحسين في أيامها يقيم في المدينة فتوسل إليه كبار الحجاج الإيرانيون أن يتوسط لدى فيصل الأحمدى من شيوخ الأحامدة أن يقبل بما لديهم ومما هو أقل من المقرر وأرسل الشريف علي إلى فيصل الأحمدى - وكان شاباً طوالاً له قيمة وفواضه الشريف علي أن يأخذ ما تيسر ليمر الحجاج دون معارضة فأبى فيصل وقال كلاماً لا أصدقه فالرواة للخبر يزايدون كل ما أستطيع نشره هو أنه قال للشريف لا بد أن يسلموا المقرر كاملاً وإلا دونهم خشم «المسيجيد» . . ولم يتنازل عن شيء ودفع الحجاج الإيرانيون ما تقرر حتى اضطر بعضهم إلى الاقتراض من الدليل أو من غيره .

وهنا أسأل لماذا لم يعدل الشريف علي عن هذا الطريق كما عدل المحمل كان يمكن أن يدعو أبو ربيعة أو «بني بنيان» ليمر الحجج

الإيرانيون عن طريق «الجسه» عن طريق «حرشه» و «الفاير» في خفارة «عوف» ثم في خفارة «بشر» و «معبد» و «البلادية» لماذا لم يفعل ذلك . . لأنه لا يريد أن يغير ما قرره الحكام ولأنه لا يريد أن تكون «عوف» ومن إليها وهم في غيبة «من مبيريك» فهو لا يريد أن يجعل هذا الامتياز لغير الأحامدة .

أنا أكتب تاريخاً لا تجريحاً وإذا جزع جيل اليوم فإنه يتعصب لباطل بينما ينبغي له الآن أن يعتز بأنه جيل الجامعات والأمن والعمران، فليفخر الأحمدي بالطريق المعبد إلى «الفقرة - رحقان» عسله هو عسل الشفا - رحقان سيكون مصيفاً للمدينة . . حبيب إليّ هذا الجبل الأشم كحبي «لوردان الأشعر» الجبل الأشم على وادي «سج سج» على وادي «الصفراء» كأخيه «رحقان» .

انظروا إلى اللغة الشاعرة سمت الجبل رحقان لكثرة الرحيق وسمت الجبل ورقان لكثرة الشجر. قالوا لنا وهم من بعض أهله إذا اعتليت ذروة «الأشعر ورقان» ترى البحر إن غربت وترى المدينة إن شرقت .

## ذكرى خاصة:

أستاذنا المفكر محمد عبد القادر الكيلاني التونسي المصري التركي اليوناني المدني نسميه «ابن خلدون» لأننا قرأنا عليه مقدمة ابن خلدون وقرأنا عليه الكتابين للأستاذ محمد عبد الله عنان «ديوان التحقيق ديوان التفتيش» عما جرى للعرب في أسبانيا، والآخر «الجمعيات السرية والحركات الهدامة» كنت أشد تلامذته التصاقاً به وكنت أعرف أنه قومي عربي بصورة شديدة، وكنت أعرف أنه من أجل ذلك يحب حافظ إبراهيم وعبد الرحمن هزاع ومحمد محمود باشا ومن أجل ذلك أيضاً يكره أمير

البيان أبا غالب بن ماء السماء شكيب أرسلان ومات شوقي فنشرت مجلة الفتح التي يصدرها محب الدين الخطيب قصيدة لشكيب أرسلان رثاء لشوقي أخذت المجلة وذهبت إلى «رباط مظهر» في أول الساحة لكي أصل إلى الشيخ «الكيلاي» وقابلني بترحاب قال:

ما جاء بك؟

لم يكن ذلك عادة لك!.. قلت: قصيدة لمن تكره فيمن تكره - لشكيب في شوقي.. أريدك أن تسمعها قال.. لا.. قلت: الشعر في اللغة الشاعرة يكون نعم.. وحين سمع لفظة لغة الشعر اهتز وقال «هاتها» وقرأت القصيدة فإذا عيناه تدمعان ويقول.. أحسنت إليّ نزعت من صدري غلاً.. يرحم الله شوقي وحفظ الله لنا شكيب أرسلان.. لهذا أنشر القصيدة تأكيداً للذكرى لأنها ما زالت تعجبني.

وقبل أن أنشر القصيدة لي معه ذكرى ما حمدتها له يومها وما زلت لا أحملها.. خرجنا من صلاة الجمعة فوجدته واقفاً أمام كومة حشيفة وأمام دكان «حسن حشيفي» وقفت معه أسلم عليه وإذا العلامة شيخ الأزهر عضو مجمع اللغة ورئيس تحرير مجلة الأزهر «الخضر حسين» خرج من المسجد ورأى أستاذنا ابن خلدون فوقف قليلاً وليس ببعيد يريد السلام على الكيلاي.. فقلت - ألفت نظره - انظر.. الخضر حسين وقف لعلّه يريدك قال:

دعني إنه «دجال من الدجاجلة» استعار كلمة مالك عن أنس بن محمد ابن إسحاق وكنت أعرف أن بينه وبين الخضر حسين - أكثر من الوطن «تونس» - علاقة قرابة لعلّي لم أنس، إنه ابن خالته ولكن هكذا كان ومضى الخضر حسين يرحمه الله وما صافحه ابن خلدون وبعد دقائق مر الشيخ

«صالح بن الفضيل التونسي» يسرع كأنه يريد اللحاق بالخضر حسين وقد كان ضيفاً عليه لأن أم أبناء الشيخ صالح لها قرابة بالخضر حسين لعلّي إن لم أنس إنها ابنة أخيه - فليصحح لي الأستاذ عبد الرحمن التونسي ابن الشيخ صالح هذا إن كان خطأ. . ووقف الشيخ صالح التونسي لحظة كان يريد أن يكلم ابن خلدون فقلت لأستاذنا هذا ابن الفضيل قد وقف. . قال دعه. . يلحق بالأول إياك والفقه وإياك أن تكون من هؤلاء. . قلت. . ذلك: تقدير العزيز العليم وإليكم القصيدة. . طلبتها من أستاذنا علي الطنطاوي لأن مجلة الفتح مجلته وإن كانت لخاله محب الدين الخطيب فلم يصلني شيء ولكنني كنت أعرف أنها في مكتبة الأفندي محمد نصيف فطلبت من صديقنا الدكتور رضا عبيد مدير جامعة الملك عبد العزيز هذه القصيدة وقلت إنه يمكن أن يجدها في مجلة الفتح وفي مكتبة الأفندي محمد نصيف وما أسرع ما وصلتني منه تناولتها منه ونحن نسلم على صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز.

وقبل أن أنشر القصيدة لا أريد أن أنسى نادرة فقد قرأ أحد الصحافيين اللبنانيين طلبي للقصيدة فأرسل إليّ قصيدة شكيب التي كتبها في مدح شوقي وهو حي ولم تكن الثانية هي التي أريد وإنما كانت غيرها، وفي حلقة ثانية أذكر التفصيل واسم المرسل والنص الذي وصلني منه.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٢٠)

### المدينة المنورة العادات . . التقاليد الختان والسرارة

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أفحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن» .

ومن حق الذكريات، أو هي ما تدعو إليه أن أكتب عن العادات والتقاليد عن الطفل، فإذا ولد الطفل يحتفلون به وبنجاة الأم وفرحة الأب

وزغاريد الأهل، حتى إذا بلغ اليوم السابع احتفلوا بتسميته، وإذا بلغ الأربعين يوماً احتفلوا به كتقليد، تأتي (الداية) أي المولدة، وكان أشهر الدايات (خالتي رحمة) أصلها من صعيد مصر، تأتي الداية وتحمل الأم طفلها ومعها بعض أخواتها أو الجدة يذهبن إلى المسجد النبوي. يتسلمه (الآغا) يدخله إلى الحجرة النبوية، تقليد مضت عليه سنون، وما أحسبه قد بقي الآن، وتقليد آخر عن الختان، فلقد كان جيلنا ومن قبله لا يختن وهو طفل يرضع كما الآن لأنهم يخشون على الطفل وهو رضيع من ألم مضاعف لا تطيقه الأم وتتعثر في علاجه، لأن الطبيب الجراح غير موجود والمستشفى مظهر لا مخبر، فالختان يُدعى إليه الحلاق (العم غوث) أو صاحبنا (الخسته) أو صديقنا إبراهيم الجراح، فالحلاق يرفض أن يختن طفلاً يرضع، لأنه لا يستطيع إذا ما حصلت مضاعفات أن يتردد على البيت، فلهذا يختن الطفل إذا ما بلغ أكثر من أربع سنوات، فإذا ما دعا الأمر لعلاج المضاعفات يمشي على رجله يذهب إلى الحلاق، والحلاق في بعض تهائمنا ونجودنا يأخذ لقب (دختور) يعني دكتور، وما دام الشيء بالشيء يذكر فقد خرج صديقنا المفضل إبراهيم الجراح إلى قباء ليعالج جروح الإخوان من جيش الدويش، أرسله إلى هناك رجال كانوا النصير للملك عبد العزيز يوم حصار المدينة لأن إبراهيم الجراح لديه كفاءة يعالج الجراح من شظية قنبلة وما إليها.

وحين يختن الطفل لا يكون الأمر سراً بين الأهل والحلاق، وإنما هو الاحتفال يدعى إليه الأقارب والأصدقاء على الغداء. الطعام (رز بحمص) يطبخه الطباخ المشهور بإتقان الرز بالحمص الملقب (بشرشورة) هو لا يغضب من شرشورة. المكان الذي يوجد فيه حفارة القبور وغاسل الموتى

للرجال والقفص للنساء والنعش، لا يغضب من ذلك وإنما يجن جنونه إذا سمع من يقول (بتنجانه حمراء) دعاه أبي لطبخ وكانت المشكلة التي ينبغي حلها اختيار المكان لهذا الطباخ حتى لا يراه أحد من «العفاريت» يعني الشباب، يناديه (بتنجانه حمرا) فيترك الطبخ يجري ويهرب، لهذا لم يطبخ الرز بالحمص حين احتفلوا بختاني في حوش وإنما اختار له والدي الديوان داخل البيت فغضبت الزوجة على الحجر النظيفة.. والديوان النظيف.. . يكون الطبخ (إن شاء الله عمرو محمد ما انختن.. . يعني لازم تسوي الطهارة في بيتي.. . ما كان سويته في حوش خميس في بيت جدته من الشعر) أقنعها الوالد فصعد النساء إلى المجالس فوق، وكان الزمن صيفاً والمجالس تهجر في الصيف.. . النهار في الأسفل والليل على السطوح، ولكنه يوم مضى، وسأل أحد العفاريت مين الطباخ يا حسين؟ فقال: أبو حمرة، فأجاب العفريت ليه: ما جبت شرشورة هو يطبخ أحسن، فأجابه والدي أرجوك تسكت أحسن أبو حمرة طباخ طيب، وعندما جلسوا إلى الطعام في بيت حمدان ضرار خال أخواتي وبيت عسر جارنا حين ذاك وصهرنا بعد ذلك، أعطى والدي الأجر لشرشورة وصرفه فإذا شاب مندرس وراء باب سلطه أحد العفاريت حين رأى شرشورة قال (بتنجانه حمرة) فصعق يصرخ وكاد يرمي العدة وأخذ يجري فما كان من أبي إلا أن أمسك بالشاب (يمصع) أذنيه فقال (يواد احنا في فرح تبغي تنكد علينا).. .

ما أحلى هذا القليل ما أجمله حين أصبح ذكرى.. .

والسرارة «الضرورة» هي الحج الأول في عمر الطفل فحين لم يبلغ الحلم ولا يجب عليه الحج يحرصون على أن يحج مع الركب، فإذا قدم قابلوه بحصان مسرح مزركش يركب الطفل وأمامه تدق الطاسة طبول

وزمور.. مقرررة لبيت الطاسجي، يزف برجال من الأصدقاء يمشون وراء الحصان والطاسة يصل إلى باب السلام يدخل من باب المصري لا من باب بصري ومن المجيدي لأن الاحتفال يحلو إذا مر بالسوق العامر، لأن شارع العينية لم يفتح حينذاك، بل فتح أيام فخري باشا.. انتهى بستان العينية وأصبح طريقاً إلى المسجد ليدخل إليه الصرورة بعد أن فتح..

ولفظة الطاسجي نسبة إلى الطاسة.. آلة مع الطبل، فركبت النسبة على الطريقة التركية (طاسجي) حتى إن لقب (البرزنجي) الذي لقب به البيت الكبير في المدينة من أهل العلم والقضاء، فنسبة البرزنجي يظن من لا يعرف هذه النسبة كيف ركبت، بأنها نسبة إلى (البرزان) بوق الجيش والجنדרمة، مع أنها غير ذلك، فالنسبة باللغة الفصحى هي إلى البرزاني، زعماء الأكراد في العراق، هي في الشام (البرازي) وهو لقب أو نسبة لبيت كبير في الشام منهم محسن البرازي رئيس الوزراء، وفي المدينة بقي على النسبة بالتركيب التركي (برزنجي) ولعلّي نسيت أن الصرورة وهو راكب الحصان يرش بالملح (عين الحسود فيها عود) حتى إذا وصل إلى البيت يرش بالحلاوة الحمصية ويكون الغداء احتفالاً أرزاً بحمص..

إن شرشورة مشهور يجيد الرز بالحمص، كما اشتهر في مكة عبد الكريم الأجر ب له علاقة ببيت الفطاني، ولا أفخر بأني ذواق أحفل بالمطبخ ولكن هكذا كنت وما زلت، لأن المطبخ معلم حضاري ولا أظن أن بلدنا كبلدنا هذا اتسع لكل الأنواع، فلئن قالوا مطبخ الصين أوسع فلنقل إن مطبخ بلدنا قد اتسع، لأنه قد حوى المطبخ الهندي والصيني والتركي والمغربي والإفريقي والمصري والشامي والجاوي والبخاري والكابلي..

ومن التقاليد التي لم تعد (الرجبية) ففي يوم ١٢ رجب ولا أدري لماذا

كان ذلك اليوم تمتلئ فيه المدينة بالزائرين من القبائل ومن مدن الحجاز والظاهرة العجيبة أنه في عام ١٣٤٢ من الهجرة وصل إلى المدينة أهل مكة بثلاثة عشر ركباً كل هؤلاء يصعدون إلى المصرع حيث معركة أحد حيث قبر سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب تصبح الباحة من غرب الحرة إلى شرق المفتية غاصة بالناس يسهرون الليلة فإذا تلك الساحة كأنها عرفات لأن الأتاريك قد وصلت تضاء لترسل النور إلى كل ركب ينشد المنشد معهم قصائده، لقد ذهب ذلك لأنه تقليد محدث، وهناك تقليد آخر هو الاحتفال بليلة المعراج ليلة المشبك (الحلوى) حتى إذا هلّ شعبان ففي ليلة النصف منه يخرج أبناء الحارة شباباً ورجالاً يدورون على البيوت يغنون (سيدي شاهين يا شاربيت خرقة مرقة يا أهل البيت.. لولا خواجه ما جينا ولا انطاحت كوافينا يحل الكيس ويعطينا.. إما مشبك وإلا فشار وإلا عروسة من الروشان) فمن النافذة أو من وراء الباب يعطى إليهم الفشار وتمر الحلية وحتى المشبك وإذا لم يعطهم أهل بيت يشتمون (كبريته يا كبريته ست البيت عفريته) والألفاظ أخرى لا أستطيع كتابتها أما إن أعطوه فيقولون (ليمونة يا ليمونة ست البيت مزيونه)..

وتدور الهوشة وتسيل دماء لأن كل بشكة تعارك بشكة أخرى ولد الساحة لا يدخل المناخة ولد العنبرية لا يدخل زقاق الطيَّار، أمر ما كان حسناً، ولا أدري من أتى بهذه الألفاظ ومن ابتدع هذه البدعة، فالألفاظ تدل على أنها من وضع هندي فلفظة خواجه تدل على ذلك.

أما الركب فقد عاصرت ركبين، ركب حمزة لبان وركب محمد سعيد حوالة.. ورجال وشبان يعتمون الحج تحت اسم بيرق الحوالة أو اللبان.. نوق وبغال وحصن وحمير، جمع كبير يقف الجميع وهم راكبون أمام

مسجد الغمامة وينشد المنشد حسين بخاري أو البناني أو غيرهما نشيداً حتى إذا أكمله ساروا في طريقهم إلى مكة يتجنبون الطريق الطويل طريق السلطاني يسировون عن طريق الجصة وحرشة والغاير، يستحسنون قصر الطريق، لأن طريق الجصة أقرب من طريق السلطاني.

وطلبت في الذكريات قصيدة شكيب أرسلان في رثاء شوقي وهي التائية التي نشرت في ذكريات سابقة، طلبتها من الأستاذ علي الطنطاوي، حتى إذا نشرتها وذكرت أن قصيدة أخرى أرسلت إلي من لبنان تلفن إلي أستاذنا علي الطنطاوي أمد الله بعمره ونفعنا بعلمه، عاتباً يحسبني أنني اتهمته بعدم الاستجابة مع أنني ذكرت لبعض الإخوان أن أستاذنا الطنطاوي لو أنها لديه لأرسلها لأن مكتبته الواسعة ما جاء بها إلى هنا واعتذرت إليه أنفي سوء الظن، فالأستاذ الطنطاوي صديق قد انتفعت به يوم كانت مجلة الفتح والزهاء ومسلسلات الحديقة.. ولقد وصلني هذا الخطاب أنشر نصه كما أنشر القصيدة التي أرسلها وهي مدح لا رثاء، وقد ذكر المرسل الأستاذ زهير الشاويش أن شيخ الشيوخ من الآباء المسيحيين عبد الله البستاني حيث أثنى على شكيب أرسلان بأنه خير تلامذته، وهكذا كان الآباء اليسوعيون واليازجيون والمعلوفون عرباً لا طائفيين لم يكن هواهم إلا خدمة العروبة وخدمة اللغة، كانوا طلائع النهضة فلماذا نعيش اليوم في فضيحة النكبة..

شبلي ملاط يقول وهو مسيحي يوم شوقي.

من للزمان بمثل فضل محمد وعادلة كعدالة الخطاب  
رفع الرسول عماد أمة يعرب وأعزها بالآل والأصحاب

فهل نجد مثله اليوم، والشاعر القروي رشيد سليم الخوري يرسل  
قصيدة من البرازيل منها:

«تخر مانعات الجبال مهابة      لبيت على رمل الحجاز تشيد  
كي أصله قبل النبي محمد      فكيف وقد أركى النبي محمد  
شيب الثريا قبل إنذار شيبه      ويوشك خد الشمس أن يتجدد»

فهل هنا مثله الآن؟

وإليكم الخطاب والقصيدة، أنشرهما شاكراً لا ناكراً فما أشد ما ابتلي  
العرب بالإنكار «كل حزب بما لديهم فرحون».

الأديب الكبير الأستاذ محمد حسين زيدان حفظه الله:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فإن من نافلة القول أن أقول بأننا ممن استفاد مما كتبت وكان لنا من  
تجاربكم النفع، فوق المتعة والسعادة، زادك الله قدرة وعطاءً..

أطلعت على طلبكم من مقال أستاذنا ووالدنا الشيخ علي الطنطاوي  
للقصيدة التي رثى فيها الأمير شكيب أمير البيان، أمير الشعراء أحمد  
شوقي.. فأحبيت أن أبعث لكم بها مباشرة رغبة بالسرعة، وهي مصورة من  
ديوان الأمير شكيب المطبوع في المنار بمصر ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

أخوكم زهير الشاويش

ناد القريحة ما استطعت نداءها      إن الحقوق لتقتضيك أداءها  
مهما ينل منها الجمود فإن من      إعجاز أحمد ما يفجر ماءها

فالיום عندك ما يعيد جلاءها  
سدت عليها نهجها وسواءها  
هوج العواصف درها وسخاءها  
تربى الصوارم بالصقال مضاءها  
والخيل يظهر عدوها خيلاءها  
مادام شوقي كافلاً أنواءها  
ضمن النبوغ على الزمان بقاءها  
وغدت هوازن مع ثقيف فداءها  
توتي جميع الكائنات بهاءها  
فأصاب منها كل بكر شاءها  
هيهات ينتظر الزمان فناءها  
ذكرى تطبق أرضها وسماءها  
بلغت بمقتلها الصدور شفاءها  
ويبيت «غوته» حاسداً عليها  
أدركن شوقي خفت غلواءها  
تجلو المشارق عندها غماءها  
وتر يثير سرورها وبكاءها  
إلا ورجع شعره أصداءها  
وصفاً ويذكر داءها ودواءها  
صوراً أراد من البلى إحياءها<sup>(١)</sup>

مهما تراكمت الغيوم بأفقتها  
لا تعتذر عنها بكر نوائب  
فأهم ما همت السحاب إذا مرت  
والحك يستوري الزناد وإنما  
والرمح يكسب بالثقاف متانة  
حاشا القرائح أن تظن بودقتها  
الشاعر الفذ الذي كلماته  
أنست فصاحته أوائل وأئل  
في كل كائنة يزف قصيدة  
غدت المعاني كلها ملكاً له  
وكسا اللسان اليعربي مطارفاً  
ستخلد الأوطان من تكريمه  
من كل موضوع أصاب شواكلا  
يبكي «شكسبير» على أمثالها  
ولو أن آلات الفصاحة عندهم  
صناعة الشرق الذي نبراته  
في كل حرف من حروف يراعه  
ما حل بالإسلام بأس ملامة  
يبدي فظاعتها ويوسع هولها  
كانت قصائده لبعث بلاده

(١) كررت هذا المعنى في رثائه رحمه الله :

بعث به روح الحياة كأنها

هي صور إسرافيل في زعقاته

إن لم يكن سواسها شعراءها  
أمماً غداً إنشادها إنشائها  
لم تصطحب أفعالها أسماءها  
إلا سمعت نشيدها وحداءها  
في روح أحمد<sup>(١)</sup> حاملاً سيماءها  
فرحاً يزيل همومها وعناءها  
دون الأنام ثناءها وسناءها  
وفي عهد<sup>(٢)</sup> عهودها إنماءها  
وتمز من ماء السماء صفاءها<sup>(٣)</sup>  
كلا ولا توهي الهنات بناءها  
وأراه يعجز أن يجيء كفاءها  
دمن تقاضتها الرياح عفاءها  
والشعر أن تجد النفوس رضاءها  
منه الكنائن نافجاً أحناءها  
فتكاد تلمس بالأكف هباءها  
ما الشعر حيث يقال من ذاقها  
تملي عليّ من العلا أهواءها  
نكرت عليّ ثلاثها وثناءها  
برياسة بات السباق وراءها

وأرى الليالي لا تعزز أمة  
كم أثبت التاريخ في صفحاته  
ضلت لعمري في الحياة قبيلة  
والعرب لا تبدأ بجمع جموعها  
أكرم بأحمد شاعراً وافي لنا  
أتلو قصائده فتملاً مهجتي  
وأظل مفتخراً بها فكأن لي  
نخلت له نفسي مودة وامق  
نعزو إلى لحم متانة أصلها  
لا ترتجي منها النمام ثلمة  
ناشدت شعري أن يفي بمودتي  
قد صار عهدي بالقريض كأنه  
أدعو فلا يأتي الذي أرضى به  
والشعر ما رسم الضمائر نائلاً  
والشعر ما ترك المعاني مثلاً  
والشعر حيث يقال من ذاقها  
وهناك نفس مرة ما تأتلي  
إن لم تجدني في العجاجة أولاً  
وفرت يا شوقي السباق على الوري

(١) أحمد بن الحسين المتنبّي .

(٢) العهد أول مطر الوسمي .

(٣) إشارة إلى القبيلة التي تنتمي إليها وهي لحم وآل ماء السماء ومن الماء رشفة .

تتقطع الأعناق عن غاياتها  
تالّهُ أعطيت الرياسة حقها  
حتى الأماني لا تحوم حذاءها  
وعقدت حبوتها<sup>(١)</sup> ونلت حباؤها

وبذذت أهل العبقرية كلهم  
لما رأيتك قد نزحت قلبها  
فأسعد بعرش إماراة الشعر التي  
وتهن وابق لأمة عربية  
وبزرت<sup>(٢)</sup> جنة عبقر أشياءها  
ألقيت عني دلوها ورشاءها  
ألقت إليك لواءها وولاءها  
لا زلت قرة عينها وضياءها<sup>(٣)</sup>

---

(١) ما يحتبى به المرء من عمامةٍ أو ثوب .

(٢) بذه بالذال غلبه وبزه بالزاي سلبه .

(٣) كانت وفاة الأستاذ عبد الله البستاني شيخنا منذ بضع سنوات وقبل وفاته بيومين سأله الأديب الشيخ خليل تقي الدين بعض الأسئلة منها قوله له: أي تلاميذك أحب إليك؟ فأجاب: أحب تلاميذي إلي الأمير شكيب أرسلان ثم ذكر أشياء لا حاجة إلى نقلها هنا وإنما نقل قوله: وهو لم ينسني مع طول الغربة وأرسل تلك القصيدة التي أرسلها بمناسبة عيد الخمسين سنة لخدمتي اللغة العربية . .

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان ( ٢١ )

### التطبيب . . والتصويب

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحبباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن» .

التطبيب للمرضى من أبناء المدينة، يحترفه رجال تلقوا هذا التطبيب من آبائهم أو من معلمهم، فلم تكن في المدينة صيدلية إلا في المستشفى الوحيد، وقليل ما يوجد فيها من الدواء فهي رسم أو اسم لا شيء ينفع إلا (الكينة) شراباً، لأن الملاريا لكثرة البعوض الذي يحمل ميكروبها، لم يفلت منها أحد، وحتى التطعيم ضد الجدري لا يكاد يوجد، أما الحصبة فعلاج

تمارسه الأم أو الجدة.. الثوب مصبوغ أحمر.. ولاغسل بالماء البارد، لا تحسبوا أن هناك ثلجاً، وإنما هو من الزير أو الشراب يبرد ماؤها حين يلفحها السموم، لأن فيها مساماً ينضح بعض ما فيها من الماء حتى إذا لفحها السموم يصبح ماؤها بارداً كأنه الثلج على خفيف. والرمد بأنواعه يصاب به الأطفال يعالجه المطيب القبلي أو الجدات بما يوجد عند العطار، فالعطار يطيب بعض المرضى وفي دكانه علاج الرمد (توتيا زرقاء.. توتيا بيضاء.. جزاره.. حجر جهنم) فهل يعرف أبنائنا كيف يعالجون من الرمد بوصفة طيب العيون بهذه الأسماء!؟

إن العلم الذي يملأ الصيدليات اليوم، قد أخذ هذه العطاره يهدبها، يخفف الألم حين استعمالها، فالتوتيا البيضاء أو الزرقاء، هي قطرة الزنك، فقبل تقطيرها كانت الجدة أو الأم تمسك التوتيا بين أصبعيها، فتفتح عين الطفل تذر أو تكبس التوتيا في عين الطفل، فإذا التقطير الآن بنسب مقررّة جعل هذه المادة أخف من كونها لم تقطر، والجزارة أصبحت الآن سلفات النحاس مقطرة ومخففة بعد أن كانت (كبوس) يحرق عين الطفل، وحجر جهنم لعلاج التراخومة كانوا يمسكون به كأنه مرود ويحكون العين حكاً فتدمى ولا يكف الطفل عن الصراخ، أصبح الآن مقطراً بنسبة مئوية تقلل من الألم بهذا الحك، واسمه الآن (نترات الفضة)، وهذا يعني أن هذه الثلاثة من المعادن الزنك والنحاس والفضة، كانت علاجاً كمادة جافة وأصبحت الآن بالتقطير، ولعلّ أن في الطب ما هو جديد غير ذلك لم أعرفه..

فالجدرى إذ ينتشر في المدينة أو في جسم الطفل يحجز الطفل وتحرض الأمهات على العين باستعمال هذا الكبوس ولكي لا يتعرض الطفل

إلى تقلب الجو في الغرفة يمنعون الهواء فكيف يثبتون حرارة الغرفة على نسق ثابت.. لا تعجبوا إذا ما قلت إنهم يتجنبون الحطب لأنه أشد حرارة ويتجنبون الفحم لأنه متقلب الحرارة جماً تشدد به الحرارة وفحماً ينتشر منه غاز خانق، إذا بما يثبتون جو الغرفة على حال ثابت، إنهم وجدوا ذلك في (جلة البقر) يضعونها في الكانون يشعلونها فهي بذلك تجعل جو الغرفة ثابت الحرارة، يجنبون الطفل المضاعفات من تقلب الجو..

واليوم والحمد لله انتهى الجدري، أما أمس فكم شوّه الجدري الوجه يصيب العين بالعمى وحتى العمى، ولعلّ طه حسين كان ضحية الجدري كما غيره، والحصبة في عام واحد وفي السبع والعنبرية وفي أسبوع واحد أهلكت الحصبة أربعين طفلاً وطفلة، حتى إن ابنتي البكر ماتت بالحصبة من بين هؤلاء الأربعين ودار لنا مات طفلاه وصديق لنا مات طفلته لأن المطب القبلي والطار لا يعرفان علاجاً للحصبة والعنقر (جديري الماء)، أما الحميات فلا يعرفون إلا أنها حمى واحدة لا نعرف الفرق بين أي حمى وأخرى، ورزقنا العلم الآن الوفرة من الأطباء ومعامل التحليل فعرفنا أن الحميات كثيرة.. الملاريا، التيفوئيد، التيفوس، الراجعة. وغيرها، والزكام علاجه البخور بالسكر يستنشقه المريض، والسعال الديكي يعالج بلبن الحمار، أما اليوم فقد جاءت مركبات الكبريت سيبيازول داجنان وكل أنواع اليزول ومستحضرات المايسين فإذا التيفوئيد والسعال الديكي إلى نهاية..

لقد عشنا في ظلال الجهل ونحيا اليوم في نور العلم..

وذات الرئة علاجها الكي بالنار لو كشفتم جسدي لوجدتم فيه أكثر من ثلاثين كية فقد أصبت بها مرتين كان المطب الأول هو الشيخ (جز الظاهري) بستة كيات نجوت من المرض لأن الحمية وحرص الجدة وبيت

الشعر كل ذلك كان عوناً لحذق هذا المطيب، فجز الظاهري رجل مبارك. وهناك ملححة نظري بها الآن، كان صديقنا علي حمد الله أصابه مرض في معدته فإذا جز الظاهري يكويه خمس كيات شكلت دائرة أربع كيات محيط الدائرة والكية الخامسة مركز الدائرة والعجيب أن بين الكية من محيط الدائرة والكية المركز مقاساً واحداً، وذهب صديقنا إلى مصر وهو رجل يعرض نفسه على الدكتور إسماعيل وحين كشف على بطنه انبهر وقال: ما هذا لم أعجب بالكي ولكن العجيب أن تشكل هذه الكيات دائرة منتظمة ومقاس كل كية إلى المركز هو مقاس كل الكيات، وقال للصديق: هل كان معه مقياس حدد المسافة، ضبط الدائرة فقال الصديق: لا أمسك بالمسمار ووضع الكية هذا الوضع مع الكيات الأخرى، وحادثة أخرى كان صديقنا السيد ياسين طه يصاب بالآلام مبرحة من المغص قال له الأطباء في مكة إنه من الكليتين وقال له الدكتور صادق طيب التكية المصرية في مكة: اشرب زمزم تذوب الحصوة في الكلية أو تخرج، وأصبح السيد لا يشرب إلا زمزم ورغم خروج بعض الحصى بالبول وما زال المغص ينتابه وزار مصر وذهب إلى الدكتور أنور المفتي الطبيب البارع ونظر الدكتور المفتي إلى الأشعة فقال: هل أجريت عملية في الكبد إن في الكبد خراج قد تكلس هل استعملت دواء بنصح الطبيب..

عرف الداء فوصف الدواء فقال السيد: لا ما قالوا لي عن الكبد شيئاً، فقال الدكتور بماذا تكلس الخراج، فقال السيد: لم أستعمل دواء وإنما هي زمزم كنت أشربها نصحني بها الدكتور صادق، وكنت أعرف الدكتور صادق يوم كان طالباً يحج ويصل إلى المدينة مع بعثة الجامعة تحت رئاسة الدكتور أحمد أمين حتى إذا تخرج أصبح طبيب التكية وها هو السيد ياسين أمانا

لم يصب بمغص لأنها زمزم طعام طعم وشفاء سقم .

فالله جل جلاله حين أنعم على جدة العدنانيين هاجر وابنها جد العدنانيين عليه السلام بزمزم وضع سبحانه البركة في زمزم (ماء زمزم لما شرب له) ماء زمزم عاش عليه سيدي أبو ذر أربعين يوماً حتى برزت عكن بطنه كان ذلك من بركة الإيمان بالله يأتي أبو ذر ليسلم يعيش أربعين يوماً طعامه زمزم .

دعونا نعش الإيمان بالله وليّ النعم متعوناً بالعلم ولا تمنعوننا من بركة زمزم أنعم الله بها . وفي أثر: تراب أرضنا بريق بعضنا شفاء . والعسل فيه شفاء للناس ، وقد عرفتم الآن أن السيد الأول قاتل الميكروبات والسعال الديكي والتيفوئيد وحتى السل هو من التراب أعني ما اشتق من مركبات المايسين . . والشيء بالشيء يذكر لم نكن نعرف الكلورمايسين ولكن خادم الملك عبد العزيز عبد الله بن سليمان قد جلب الكلورمايسين فأخذ محمد سرور صبان كما منه أودعه عند يحيى باناجة بن سفيان باناجة يصف الطبيب فيأخذون الدواء من يحيى ، وأخذ السيد حسن شربتلي كما من الكلورمايسين بعضه في جدة يوزع مجاناً وبعضه في مكة عند صهره عبد الوهاب مؤمنة ، وكان من الصعب أن يعطي عبد الوهاب الدواء إلا إذا أبرز طالبه وصفة الطبيب ، وأصاب ابنة صديقنا فتحي خوجه السعال الديكي فاستعصى عليه أخذ الكلورمايسين من مؤمنة فشكى لي ذلك وكلمت الشيخ عبد الوهاب ليعطيه ، وأنا ضامن أنه لا يبيعه ثم امتلأت الصيدليات بكل دواء . .

وهكذا كانت بعض المواقف صعبة فالأمر فيها كما يقول صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل «إن حكينا بكينا وإن سكتنا قهر» .

وكنت أنزل البركة أعموم فيها أكثر من ساعات فإذا عيني اليسرى أو على

السواد شحمة بيضاء، قال العطار وهو الشيخ الوقور محمد الأضلي زميلنا في دار الأيتام، قال إنها لفحة هواء خذ هذه وأعطى والذي كماً من صمغة الريح لا أعرف اسمها الآن في الصيدليات يتبخر ببعضها وهو قد غطى رأسه بساتر يستنشق صمغة الريح وضع قدر الحمصة على مرزاب العين خارج العين، ولا تعجبوا إذا ما ذكرت لكم أن الشحمة قد ذابت وأن العين لم تمس بسوء، أدعو الباحثين في جامعاتنا ومستشفياتنا أن يعرفوا صمغة الريح، ومرض صديقنا محمد سالم الحجيلي تكتلنا لزيارته كانت حرارته مرتفعة وجاء الدكتور سعيد مصطفى وهو طبيب بارع ومعه زميلنا الدكتور محمد خاشقجي يعودان محمد سالم كشفا عليه فرأيت جزعهما فلم يصفنا علاجاً وخرجنا ودمعت عيني أخاف على صديقي الموت فقد كان أول الأصدقاء وأوفى الأصدقاء، وخرجنا وخرجت من البيت صباحاً أمر على صديقي هل هو حي أم مات فإذا هو يستقبلني ضاحكاً حين صافحته وقبلته لم أجد جسده حاراً، قلت لمحمد سالم كيف؟ قال بلهجة البداوة بدوي قبلي حربي سالمى مروحي حجيلي، قال: بعد أن خرجت ليلاً هبط علينا جمالة من قبيلتنا فنظروا إليّ وأمسكوا بيدي، وقال: إنها الملعونة الحمى هاتوا النار المحوار، وأمسكوا بي هم وعمي أحمد الحجيلي فكويت كويتين وسط الرأس فما شعرت بحرارة النار حتى شعرت ببرودة الجسم..

- عرفت الكي مريضاً.. ومعالجاً بالكواء

- بغير جراحة. ماء زمزم عالجت داء الكبد

- كنا نشترى الأسمت من عند العطار؟

إنها لعجيبة وإنها لغريبة، وهنا تذكرت أن في وسط رأسي كيتين لهذه الحمى كويت بهما وأنا جدع كواني أبي فقد كان يطبب، كم من الناس

كواهم عن الفتاق وكم من الناس كواهم أبي عن اليرقان فإذا هم ١٠٠% يتعافون، وأنا نفسي قد كويت ستة عشر إنساناً مصاباً باليرقان، أجسادهم صفراء فحين كويتهم تم الشفاء فيهم شباب ومنهم شيخ قد جاوز السبعين، الكية في النقرة على الرسغ في نهاية الإبهام، ولكن الآن كلما زارني مصاب أقول له لن أكوي فالمستشفيات كثيرة والأطباء حذاق..

وعجيبه تضحكون إذ تعرفونها وهي أن الإسمنت التي بنيت بها كل البيوت الآن من مصانعنا كان لا يوجد إلا عند العطار يباع بالوقية نشترى أكثر من وقية لتلحم الأزيار أو البرك من أي شق فيها. كنا نعيش العدم ولكنها حياة ما أحلاها فلئن كان فيها كرب الألم فلم يكن فيها كرب القلق، لم يكن فيها خسارة المشاعر ومرض الشعور، ولعلّي لا أنسى أن زوجة لصديق أصابها ورم في ثديها جاء لعلاجها الدكتور سعيد مصطفى المصري أخوه يوسف بيك مصطفى قائد الجيش المرابط في مصر صديق عبد الرحمن عزام باشا، كشف وجس ولكنه استنبط لا بد من تخفيف الحرارة فأين الثلج.. لا ثلج فطلب منشفة وماءً ساخناً فغمسها في الماء الساخن وعرضها للسموم لحظة وعرض الثدي للسموم ولفه بالمنشفة فإذا المنشفة باردة خفت الحرارة وخف الورم، وحين مرض رجل من المدينة بإسهال لا يكاد ينكف وكشف عليه الدكتور سعيد مصطفى ولعلّه قرأ تذكرة داود أو ابن البيطار أو ابن سينا فإذا هو يطلب الحناء ناعمة ينقعها في الماء حتى إذا أحمر الماء من الحناء قال للمريض اذهب إلى الحمام واستعمل حقنة شرجية بمنقوع الحناء فلم يمض يوم شفي الرجل من الإسهال كأنما منقوع الحناء قد دبغ الشرج أو تدابغ مع الأمعاء وشفي الرجل..

## التصويب

وأكثر من مرة، وقبل إملاء الذكريات كنت أتطلع إلى تصويب، فلست أبرئ نفسي من الخطأ ولا أرزأها بالنسيان، وإن بدا يمشي إلي رويداً، رويداً، افرح بالتصويب فما أحلى الخطأ يتحفني بالصواب، وكنت في جريدة المدينة فإذا الابن الصديق علي حسون، يسألني ألم تقرأ ما كتبه الأستاذ فهد العريفي في جريدة الرياض معقّباً عليك فيما كتبه بما كتبه في الذكريات؟ قلت: لم أقرأ ولم أستقرأ، العجز عن القراءة أشر منه التعجيز عن الاستقراء، فما أكثر ما كتب وما نشر وما أقل من يقرأ، وطلبت منه أن يعطيني صورة من جريدة الرياض لأنشر التصويب تكملة للذكريات وتوضيحاً لها.

فما أكتبه إما أن يكون عن رؤية، بل وأكثره عن سماع كل ما أفعل هو تسجيل الرؤية والسماع أحيطه بالرأي إذا ما وجدت أن الرأي يوضح ويشرح فلا أكثر ولا أقل، كم أنا مدين لقارئ يحفل بما كتبت مقتنعاً به أو ناقداً له.. أو حتى رافضاً، لهذا كنت قد طالبت الأستاذ محمد الحافظ أن يرسل إلي ما لديه من تصويب أو نقد لأنشره، ولهذ مرة أخرى أنشر ما كتبه الأخ فهد العريفي تصويماً عن معرفة فهو (أدرى بشعابها) إذا ما كان الموضوع عن تلك الشعاب التي هو منها، وإليكم هذا النص كتبه فهد العريفي، (فالأهل أهلي والديار ديار) كما هو لخير الدين الزركلي..

## على هامش ذكريات الزيدان

### فهد العريفي

يكتب الأستاذ الفاضل محمد حسين زيدان في (عكاظ) بين وقت وآخر ذكرياته عن مدينة الرسول الأعظم قبل وبعد توحيد شبه الجزيرة على يد

البطل عبد العزيز. وهي ذكريات يجد القارئ في ثناياها الفائدة والطفرة مع الكثير من المواقف البطولية والإنسانية. والكثير من عبر التاريخ. والتاريخ أمانة يجب ألا يدونه إلا الأمناء الأخيار أصحاب العقول الواعية والضمائر النقية. . والذين يدركون خطورة: (تصليحه) أو (تمليحه)!! بل التجني عليه من أجل (رضا) ذاك (وجبر خاطر) أولئك. .!!

وقد عشت وما أزال أعيش معها وقتاً ممتعاً وأشعر بالفائدة في كل حين من قراءتها. .

وقد وجدت في إحدى الحلقات ما يحتاج إلى التصويب ومن ذلك:

أولاً: عندما جاء ذكر (الحجّام) وهو من أهل المدينة وله صلة بآل الرشيد في ذلك الزمن. . قال الأستاذ الزيدان: (إن ضاري الرشيد وابن أخيه قد هربا إلى العراق. . الخ). .

وللحقيقة والتاريخ أقول بأن ضاري الفهيد الرشيد وهو من أحفاد عبيد العلي الرشيد لم يهرب إلى العراق. بل ذهب من المدينة ومعه حوالي (١٢) ذلولاً عليها بعض أصحابه إلى مكة. . واستقبلهم الشريف علي. . ثم ذهب إلى العراق ابن أخيه واسمه (محمد العبد المحسن الرشيد) ثم أخذ يتردد على الرياض. .

أما هو فقد ظل تحت رعاية وتقدير الملك عبد العزيز حتى توفي إلى رحمة الله. . وعندما اشتد عليه المرض بعثه الملك عبد العزيز إلى الهند للعلاج قد التقى في الهند بالأستاذ (وديع البستاني) وقام ضاري بإملاء (نبذة تاريخية) عن إمارة حائل بطلب من الأستاذ وديع أثناء ذلك سنة (١٣٣١) هجرية وقد أطلعت على مخطوطها عند أستاذنا الشيخ حمد الجاسر قبل أن يقوم الشيخ بطبعها ونشرها من دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر وهي دار

أستاذنا وحيينا الشيخ حمد سنة ١٣٨٦هـ..

وقد طبع الكتاب باسم (نبذة تاريخية عن نجد).. ويقال بأن ضاري قد توفي في الهند سنة ١٣٣١هـ (١٩١٣م) في نفس سفرتة التي أملى بها (النبذة) على البستاني..

وكان ضاري (ولا يوجد في الأسرة الرشيدية من يتسمى بهذا الاسم سواه.. والاسم غير شائع في منطقة الجبلين إلا لشخص واحد وهو الشيخ ضاري بن طوالة زعيم قبيلة (الأسلم) من شمر من المحبين والمعجبين بشخصية موحد الجزيرة..

ثانياً: ثم أشار الأستاذ الزيدان إلى قضاة المدينة وقال إن معاون قاضي المدينة بعد دخول الملك عبد العزيز هو (الخليفي) وقال بأنه غير الشيخ عبد الله الخليفي أستاذه وطلب توضيح ذلك ممن يعرفه..

وأقول للأستاذ: إن الخليفي هو أيضاً اسمه عبد الله بن سليمان الخليفي من أبناء حائل وقد تولى القضاء في آخر عهد الرشيد.. وكذلك تولى القضاء بعد أن طلب الشيخ حمود بن حسين الإعفاء عن رئاسة القضاء بحائل وعادته الشيخ عبد الله بن زاحم نائب رئيس محاكم المدينة حالياً..

والشيخ الخليفي يرحمه الله كان زيادة على حصيلته الشرعية وثقافته الدينية ذا ثقافة عالية، له بعض مؤلفات، ومنظومات في الفرائض وغيرها. وله خبرة جيدة في علم الفلك. وكان لديه في مدينة حائل مرصد بدائي بحركة الشمس أقامه بنفسه.. وهو عبارة عن ثقب محددة دقيقة يرصد من خلالها حركة الشمس وطلوعها يومياً.

ويروى أنه في ذات ليلة في منتصف الشهر كان يسير مع جماعته في حفل زفاف فرفع رأسه إلى السماء وقال على مسمع من الناس:

الليلة القمر يلبس كامل زينته!

ثم همس في أذن الشيخ إبراهيم السبهان قائلاً:

- الليلة سيخسف القمر وسيقول الناس بأن الشيخ (نظر) القمر وحسده!! وبالفعل فقد خسف فأشاعوها!!

**ثالثاً:** أما قول الأستاذ الزيدان بأن إقامة حمود العبيد الرشيد بالمدينة بعد مقتل عبد العزيز المتعب الرشيد.. فالواقع غير ذلك. والصحيح أن إقامته في المدينة كانت بعد قتل أبنائه (سلطان وسعود وفيصل) لأبناء عمهم وأبناء أختهم موسى الحمود الرشيد وهم متعب العبد العزيز الرشيد الذي كان أميراً لمنطقة حائل وأخواه مشعل ومحمد ومعهم طلال الناييف الرشيد.. وعرف عنه الوفاء وكره الشر وهو شاعر شعبي وحكيم.. يروى عنه عندما كان بالمدينة أنه سمع طبلًا وزمرًا وموسيقى وضوضاء عسكري.. فسأل: فقالوا فخري باشا يستعد للذهاب إلى المسجد لصلاة الجمعة وهذه أصوات الجنود وموسيقاهم..

فضحك!

فقالوا: ما الذي يضحكك؟؟

فقال: (تجيه خونة)!!

فقالوا: ومن هي خونة؟

قال لهم: الدنيا!!

وبعد ساعات قليلة جاء خبر مقتل فخري باشا..

والتصويب يحتاج إلى تصويب، فالباشا فخري لم يقتل وإنما لحقته الهزيمة حيث لم ينتفع بما لديه من الجيش والعتاد وحيث حقت الهزيمة

على الدولة العثمانية، ولعلّه أراد (بالخونة) الهزيمة التي لحقت بفخري باشا وباللولة العثمانية، ولست متأكداً من بقاء حمود العبيد في المدينة المنورة إلى عهد فخري باشا.

وتصويب آخر كتبه الأستاذ الجليل من أهل الثبوت والأثبات عبد القادر الإدريسي عن آل الكتاني نسبتهم كما سمعت إلى أنهم من ذرية الحسين ابن علي كرم الله وجهه، بينما هو الأدرى بشعبه، كتب في جريدة عكاظ أنهم من ذرية الحسن بن علي جدهم إدريس بن إدريس بن عبد الله المحض ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط، كتبت ذلك لا عن نص قرأته وإنما عن خبر سمعته. ذكروا أن الشيخ عبد الحي الكتاني صاحب الرواية سيد من ولد الحسين، فالخطأ في السماع وما أحسن تصويب عبد القادر الإدريسي، أما بيت برادة فهو أيضاً من السماع وقد انشطر في المدينة إلى أسرتين برادة والمسعودي، نسبهم إلى تونس فكتبت ذلك وجاء التصويب موضحاً لخطأ السماع، ومع هذا فنحن في المدينة نرى الليبيين والتونسيين والجزائريين والمراكشيين كلهم مغاربة ولعلّ انتشار بيت برادة في كل المغرب وفي مصر وفي غيرها قد ضلل السماع، فشكراً للصدیق الإدريسي . .

إن الخطأ في الذكريات أحسبه الاجترار، أجتز من القارئ التصويب تكميلاً وكمالاً . .

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٢٢)

### المدينة لا تجوع . . وبها الأسودان

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أفحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحبباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

إذا قلت حنطة يثرب جاء الرديف من القصيم  
دمعت عيني حين رأيت الهرمية دامرة وسوالة مثلها  
إلى وزارة الزراعة: خصى النواة . . يجعل النخلة أنثى

## السواني :

وحين ذكرت المكائن، وما صنعت فلا بد أن أذكر «السواني»، ولست صاحب الكلمة عنها، وإنما صاحبها هو الفلاح من صميم الفلاحين موسى أبو عيفة، من نخالة العوالي وأشياخ قبيلة، فقد كنا كما تعودنا نذهب إلى أي بستان، أو كما نسميه «البلاد» في أيام الصحابة كانوا يسمون البستان حائطاً وفي أيامنا نسمي البستان «بلاد» فلقد تعودنا أن نخرج ونحن (بشكه) أي جماعة نقبل على بستان ما، نتجنب العيون نكثر المقييل في العوالي، الدوار العقيلية الفقير، الفقير هو الحائط الذي غرس فيه رسول الله ﷺ هو وأصحابه الصنوان التي فرضت على سيدي سلمان الفارسي ليعتق من مالكة الذي اشترط هذا العدد من الصنوان، وفي قربان.. . سواة والبدرية والجلونية والناعمة والرعي، وفي قباء البقع الحنية العباسية.. . الصفيا ولا أنسى الجزع.

موسى أبو عيفة، زارنا ونحن بشكة نقييل في النشير بستان أو بلاد فيما أذكر ملك بيت حموده، اشتراه منهم صالح العبد العزيز الميمان بمبلغ خمسة وأربعين جنيهاً فقط، وهذا ثمن قليل، ولكنها قسوة الأيام كما اشترى صهرنا خضر عسر والد الدكتور حمزه عسر، الصفيا بسبعين جنيهاً، ثمن بخس لكنها الضرورة لها أحكام.

كنا نقييل في النشير.. . مصطفى عطار عبد العزيز بدي، أسعد طربزوني منتظر طربزوني عثمان حافظ، وما كاد يجلس موسى أبو عيفة حتى وصل إلى مجلسنا مدعواً من أصدقائه نحن.. . من هو؟ إنه محمد المغربي فتيح، كان من طلائع الشباب في المدينة، ومن كبائر الشيوخ في مكة، وسأل محمد المغربي موسى أبو عيفة، قال له: أناس يشكرونك لأنك أعدت

للعب مجده فلقد مات كما ماتت العوالي أيام فخري باشا وأنت أحييت العنب، أسألك: لماذا لم تترك ماكينة على البئر وبقيت على السواني؟ فقال موسى: يا أخ محمد الماكينة تنزح البئر، وحين تكسر أو يخرب فيها شيء متى تصلح.. متى يطلع شريف أفندي يصلحها، ثم بناتي وأبنائي يصبحون عاطلين، ولد واحد يشغل الماكينة أما السواني إذا طاح جمل أو حمار أنزل السوق وبعد ساعة أشد عليها القرب لا يموت شجري ولا تفرغ بئري ويشتغل الأولاد يفتلون الزمام والرشا يدبغون، القروب ينفون النجيل علفاً للسانية، حتى إن بعض أولادي باسم الفزعة للجيران ينظفون أحواض الجار من النجيل، أكسبه علفاً باسم هذا الجميل، أسقي الزرع بماء السانية، على قدر معلوم، واستطاب المغيربي كلمته وقال: الآن عرفت، وقلت هامساً في نفسي: ليت المكائن لم تصل، موسى أبو عيفة رجل عامي، لكنه فلاح قديم. وارث.

أما الأرض التي بخس ثمنها، فقد ذكرت من قبل أنني بعت ثمانية مخازن، أعني ثلاثمائة وستاً وثلاثين متراً بثمانمئة ريال، أحسبوها تجدون أن المتر الذي يباع في أيام سبقت قبل عام بالألف من الريالات بعتة ولما يبلغ ثمنه ريالين ونصف، وهكذا بيعت الصفيا والنشير بثمن قليل. إنها الأيام دول.. من سره زمن ساءته أزمان.

والمدينة المنورة أصبحت دار الهجرة، لأن أول الأمر كونها أرض ذات نخل، فحين أمر رسول الله، خاتم الرسل، محمد ﷺ بالهجرة، اتضحت له الصورة للأرض التي يهاجر إليها، أرض ذات نخل، وكان في التصور، أهي نجران، أم هجر أم اليمامة، أم يثرب؟ فإذا أمر الله بما هياه الله حين أسلم الأنصار، أن تكون الهجرة إلى المدينة المنورة، ذهب عنها التثريب

وبقي لها التقريب، دار هجرة هي الدار والإيمان، هي مآرز الإيمان: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تآرز الحية إلى جحرها» ولئن كانت الحية أفعى، فإن الحية في يد النبوة عصا موسى تلقف ما صنع السحرة، فالحية هنا ليست معابة، وإنما جاءت بها دقة الوصف.

والمدينة المنورة انتصرت فيها الهجرة لأن بها الأسودين، التمر والماء، والسوددين، الأوس والخزرج، والسواد الكثير: حولها قبائل العرب، كل العرب، كما أن فيها السيئين، اليهود والنفاق، لأن السيء يهودي أو منافق، بكل السلبيات التي مارسها، شد عصب الأنصار، وأشعل الحماسة وثبت الأخوة، فإذا السيء يهلك، وإذا السؤدد ينتصر، وإذا سواد القبائل يدخلون في دين الله أفواجاً.

الأسودان، التمر والماء، القوت الأبقى في المدينة المنورة، حتى قالوا ولعلّه قول بعض الظالمين لها: إنها المدينة لا تجوع وفيها الأسودان.

كلها حيطان، أي بساتين تزرع، يعيش إنسانها فيما يشبه الاكتفاء الذاتي، فهي لم تستورد التمر والفاكهة، رماناً وعنباً وتيناً، من خارجها، إلى الوقت الذي كنا فيه قبل وصول سكة الحديد من الشام إليها، الحنطة كافية بأنواعها الثلاثة «اللقيم» للشوربة والجريش، و «الحنطة» للخمير، و«المعيا» للفطير، ولعلّ الحنطة تصاب بأفة أو تصاب بالطير، هذا العصفور «الحرصي» كما يسميه أهل المدينة، هذا الطير لو غفل الحارس لأكل الحنطة أكلاً ذريعاً. فإذا ما قلت الحنطة جاء الرديف المغيث من عالية نجد «القصيم» من وادي القرى «العلا وتيماء» من خيبر، من فدك «الحائط والحويط» وحتى من الحناكية وما إليها.

أما الخضروات فموسمية، لهذا يتعامل أهل المدينة مع البامياء

والملوخية والطماطم والباذنجان الأسود بالتجفيف، يشترون كميات من كل الخضر حتى النعناع، يجدونه جاهزاً ليعيشوا فاكهين به، كما أنهم يخزنون الثوم والبصل والجبن والسمن، اكتفاء ذاتياً يوم لم تكن فيها مواصلات، يوم لم يكن هذا السعار في الاستيراد.

حين كنا كذلك، كان الرجال يحرثون الأرض، يسقون الزرع، أما اليوم، فيأخذني السكوت، لأن الواقع مشاهد ولا يحتاج إلى تشهيد. بماذا يسقون الزرع؟ إن السقيا من الآبار، سواء كانت القديمة التي عرفنا منها: «البُعة، عُرس، سُواله، بيرحاء، بُضاعه، رُوما، أريس، عُروة» وغيرها، ثم حفرت آبار بما يقتضيه التوسع، هذه الآبار في العوالي وقربان وقباء والصدقة والعقيق. أما شمال المدينة، تهامتها، العيون: فعين جارية (عين باني، الغرابية، المدافعية، أم البيض، الشنيلية، الزهرة، المفتية) فالمرابي للعيون التي في سفح أحد على حافة وادي قناة، شرق العقيق، فمنابعها من شرق المدينة، أما التي غرب العقيق فمنابعها من مجمع الأسيال، وما تيامن منه، حفرها الرجال، بنوا خرزها ودبلها، فما أقوى ما صنعوا!

قوة العضل تزينت بقوة الروح، بالعزيمة، بالصبر، بما أنعم الله عليهم.

ونأتي إلى النخلة، ما أكثرها في العيون، وما أكثرها حلوة جميلة في العوالي وقباء وقربان، دمعت عيني حين رأيت الهرمية دامرة وسوالة مثلها، أتعرفون سوالة، من كان صاحبها من الصحابة؟ إنه سيدي عبد الرحمن بن عوف، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وآلت ملكيتها إلى الشريف علي من أشرف العوالي، وارث الإمارة ولو تقليدياً عن أجداده الجمازيين، وآلت إلى ابنه شحات، كما آلت البدرية إلى ابنه ناصر.

في إحدى سنوات الأربعينات الهجرية كان «خرص التمر» لجباية الزكاة

خمسين ألف أردب، الأردب أربعة وعشرون مداً، المد ست أوقيات، فإذا حولنا هذا الكم من الأوقيات إلى الكيلو يبلغ مليوناً ونصف مليون كيلو تمر، أي ما يعادل ألفاً وخمسمائة طن، يشبع أهل المدينة إذا ما أكلوا، إذا ما خزنوا، إذا ما باعوا، فالحجاج يشترون التمر تبركاً، وعجيب أمر النخلة، فالحيلة تؤكل زهواً ورطباً وتمراً، أما الحلوة فتؤكل بلحاً «سربان» وزهواً ورطباً وتمراً، و «الروثانة» أحسن ما تؤكل رطباً، تخزن تمراً، ومثلها «السويدا» و «الهرمزي» وما أشبهه. ولكن الخزين طول العام يكون من الحلوة والبرنى البيض والشلبي والمشوك والصفاري البكاية والشيخة، أما الكعبيك فأكثره من الجبل الأشم رحقان، أو من وادي صفراء، كما القلاد.

ولا يفوتني أن أذكر مكالمة تليفونية من المدينة، فقد تلفن لي أحد أبناء وادي الصفراء، ذكرني بما نسيت، فقد قرأ ما كتبت عن زرع «النواة» بلبها، أعني تزرع تمرة، فإنها تكون كأماها على العكس من النواة المجردة من لحمتها، قال هذا الفتى: «نحن في وادي الصفراء نزرع النواة مجردة فإذا نمت وثبتت في الأرض، نحفر، نخصيها، أي نقطع النواة ما دامت العروق قد ثبتت في الأرض، فقطع النواة حين أنبتت نسميه: خصوها، فإنها حين ذاك تكون نخلة أنثى لا ذكراً» وكنت أعرف ذلك، ولكنني نسيته، فهل تجرب حقول وزارة الزراعة ذلك، على كلتا الصورتين.

وأندرون بعد ماذا وقع للخمسين ألف أردب؟ فحين تعرجنت النخيل بتمرها، ولما يجد بعد، جاءت الآفة، الجراد والدبا (وهو الجراد الذي لما يطربعد) كان آفة عجزنا عن مقاومتها، فإذا الحصيلة أقل من عشرين ألف أردب، يعني أن الجراد والدبا أكل أكثر الثروة، ولكن المدد جاء من شمال المدينة وشرقها، تعويضاً عما نقص.

والضرع، الأبقار عند التكارنة أو بعض من في المدينة، وهي قليلة، ضرعها للبيع، لبناً وزبدة، شيء موجود ولكنه ليس بالكثير، لكن الضرع الكثير هو في الماعز، ثلاثة أنواع: (العنز المصرية) وأختها التي تشبهها (العنز العارضية) ووجه الشبه كما قال أبأونا إن ثدي المصرية والعارضية أسطواني فيه طول، يطلقون عليه «ثديها دورقي» كالدورق، أما «العنز البدوية» فضرعه يكاد يلتصق بطنها، وثديها دقيق صغير، ولا يخلو بيت، وخصوصاً من هم خارج السور، من وجود ماعز، يعلقها سيد البيت، وتحلبها ست البيت، ومن الضرع ما يأتينا من شمال المدينة الشرقي من حرة فذك، أي من بني رشيد، فلديهم الضرع الكثير، يأتون بالجبن والسمن والمضير، فما كان الجبن في المدينة إلا من بني رشيد، كل بيت، كل تاجر يخزن الجبن، يمر عليه الحول في أزيار مغربية ضخمة، في نصف السنة يأخذون «القطفة» من زير الجبن، كأنها السمن، يغيرون الماء، يملحونه، ونظلم نأكل الجبن طول العام من الوارد الجديد أو الخزين، ما أحلى تلك الأيام على مرارتها، وما أشد مرارتها اليوم على حلاوتها.

شرق المدينة وشمالها هو المدد في كل شيء، أما غربها فالمدد منه بالوقود حطباً وفحمًا، يعني اكتفاء ذاتياً حتى في الوقود، لا وابور ولا بوتوجاز ولا فرن كهربائي، وإنما هو الوجاق والكانون والتنور والفرن.

واللحم لا يأكلون في المدينة إلا الضأن في الأكثر والجوزر كذلك، أما ذات اللبن الأنثى، فيمتنعون عنها، العلة في ذلك أن يكثر الضأن، ولكن في المدين علة أخرى سلطها عليهم الواعظ، فهم يقولون لحم النعجة والعنز والبقرة مضر، لأنها ربما تكون في بطنها حمل، وهم يكرهون لذلك أكل ذات اللبن. قليل منهم يأكلون البقر لأن العجول لا تذبح، وإنما هي

الثيران يكبر سنها، أو يصيبها مرض فيتداركونها بالذبح، فلا يأكلها إلا الأقلون، ويتعللون بأن لحم البقر بارد يضر، وقد لحقني ذلك الآن، فالأم والجدة ضد لحم العجول، والأبناء والبنات يحبون لحم العجول.

ومرة أخرى نأتي إلى الماء، كان السقي بالسانية «السواني» جمال، ثيران، حمير، نسني عليها، يمتلئ الغروب من البئر، يصب في البركة، يطلق في القنطرة، يضيع الماء أكثر وأكثر، وجاءت المكائن، جلبها السيد محمود أحمد، فإذا أهل الزرع يركبون المكائن على الآبار، غير أن هناك عقدة أو حائلاً، فالمكائن يعمل محركها بالكاز، وهو كثيراً ما يشح لأنه مستورد من ماركة «سوكوني فاكوم، شل» أو أنه غالي الثمن، فماذا يصنع الفلاح في الماكينة وهذا حالها، فتقت الحيلة للسيد محمود أحمد أن يستعين بشريف أفندي مدير كهرباء الحرم، فإذا هو يستبدل المحركات بالكاز يصنع أفراناً يشتعل فيها الفحم، فغاز الفحم عوضاً عن الكاز، عمل بارع يسر أن تعمل المكائن، ولكن المكائن كان فيها شيء من الخسران لأنها أرهقت الآبار، فهم يسحبون الماء، فاتهم الرشد وليس هناك ترشيد، يتدفق الماء، ينساب في القناطر، تمتلئ الأحواض حتى إن بعض الزرع يصيبه ضعف، يقولون: «البرسيم خمج، البقدونس مات» لأن الماء الكثير يتلف الزرع، وحين ينزح الماء من البئر يقل فيها فيعمل الفلاح أو المالك على تعميق الحفر للبئر، لأنه يزيد الماء، وما يدري أن عمق البئر المنخفض يسرق الماء من بئر الجار، فبئر الجار ما زالت عالية، وبئر صاحبنا أصبحت السفلى، وينحدر الماء إلى أسفل، ويعمد الجار الذي شح ماء بئرته إلى تعميق الحفر، وما دروا أن الماء وقد أصبح عمق البئر كبيراً، في صحن البئر قد سحب الماء إلى سافلة المدينة (العيون)، فالمكائن جنت على الآبار، ثم الغيبة لسيل وادي العقيق فهو الذي يشبع الآبار بالماء أما

وادي قناة وبطحان فلا يزودان الآبار بالماء، لأنهما يسيلان على أرض صلبة صخرية أو جصّة، بينما العقيق يسيل ابتداء من العنابس إلى نهاية الأعياص (سلطانة)، وإلى روما وأم شجرة والجرف على أرض رملية تمتص تربتها الماء، تزود الآبار، نعرف هذا من آبارنا في البيوت، لأن كل بيت في المدينة فيه بئر. ماء العين الزرقاء للشرب وتارة لبعض الغسيل، وإذا ما كانت البئر فيها ملوحة، يستعصى ماؤها على الصابون، فالبيوت فيها ترشيد الصرف للماء، فالآبار للغسل، سواء غسيل الحجر جالب البرودة من ألفح السموم، أو لأي شيء يغسل، لأن ماء العين الزرقاء هو للشرب فقط، وعظيم كيف وزع ماء العين الزرقاء، ينساب الماء من بئر أريس (بئر الخاتم) خاتم رسول الله ﷺ سقط من يد ذي النورين فابتلعتة البئر، وكان رسول الله ﷺ حبب إليه أن يجلس إلى أريس، إذا ما وصل قباء، وفي إحدى جلساته وقد دخل ذو النورين عثمان بن عفان إلى مجلس النبي وفيه أبو بكر وعمر مع رسول الله، فاحترم رسول الله صاحبه وصهره عثمان، يجيب عن سؤال غير ناطق لأنه احتشم عندما أقبل عثمان فقال وهو نبي الرحمة ﷺ «ألا أستحي من رجل تستحي منه ملائكة الرحمن» ولكن قومي العرب حين يتنافرون لا يبالون بقيمة أمثال عثمان، أمثال علي، أمثال القتلي من رجال ضمخت صحف التاريخ بسيرهم العطرة، وي كأن الاغتيال لهؤلاء هو الذي أبقى سيرهم على صفحات التاريخ، فالإساءة في القتل والاغتيال كان من خلفياتها الإحسان بهذا التخليد في صفحات القرايطس.

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الأسباب والموت واحد

إن العين الزرقاء، غوث المدينة بالماء العذب، لم يبق ماؤها في بئر أريس كما بقي ماء بئر روما، فالجبارون من الرجال صنعوا وبنوا المجرى على صورتين: دبل وعليه خرزات ينساح فيه الماء الحلو، يبني على دبل

تحتة يحفظ الماء ليضم إليه بعض الماء من كل الآبار في البيوت، كأن الدبل التحتي عين أخرى يسيل في دبلها الماء يستقي خيف الأغوات، يطل عليه سلع كأنه الطريق إلى روما وأم شجرة والأعياص والجرف.

انظروا كيف يسان الماء، وتصنع الدبول، يصل الماء إلى عين باب الشامي، وإلى عين باب السلام، وإلى عين حارة الأغوات، انظروا كيف صنع الرجال الجبارون!

وعلى حافة بقيق الخيل، على الأواني من حزم الصمد، نقا العنبرية، عين الرجال وبجانبها عين النساء، الرجال سقاة بالقرب والنساء سقاة بالصفائح، السقاة من الرجال أكثرهم من الموالى، والسقاة من النساء كلهن من التكارنة، الرجال زملاء إذا مرض السقاء قام زميله بسقي البيوت التي كان زميله يسقيها، كالحمال زملاء فإذا مرض سقاء أو حَمال تكفل زميله بكل شيء، كأنهم شكلوا نقابة تعاونية تحكمها الأخلاق والعاطفة والعون، ذلك يوم كان الناس ناساً، وأريد أن تضحكوا بعد الكرب الذي كرتكم به، ذهبت إلى عين الرجال أغسل ثيابي، يتيم الأم هكذا يصنع، ورأيت جمعية السقاة في دكة على درجة العين، جلس شيخ السقاة في الصدر، وكان من موالى القرارة ولعلّه من موالى بيت البتاوي، البيت الكبير في مكة، جلس الشيخ والسقاة النقباء حوله وجرت المحاكمة، ومن هو الذي يحاكم؟ هو «سعيد أبو عشرين» من عبيد الأغوات ومن المطالقي، يحسب له حساب في أي عراق، لكنه أطاع قانون السقاة وجلس وسط هيئة المحاكمة فسمعت شيخهم يقول: «يا سيّد، كتر الشد يقطئ الهبال، كتر الغريلة يقطئ المناخل، يا جماءة، أحكم عليه بأشر إصى» وانبطح سعيد أبو عشرين وجاء الجلاذ يضربه عصا طرّقاً خفيفاً على عجيزته ويقفز إلى الجانب الثاني ليضربه كذلك أربعة عصوات، وإذا أحد المشاهدين يرمي حزمة برسيم،

ينتهي الجلد، لأن حزمة البرسيم شافعة، انظروا كيف كانت الخضرة تشفع للمجلود، وقام سعيد يضحك، خضع للجزء لأن قانون السقاة محترم لدى اناس ولو كانوا عبيداً، لأنهم كانوا ناساً.

والتربة في المدينة ثلاثة أنواع، فالأرض التي يطؤها السيل أو الأرض التي على سفح الحرة كالعوالي وقباء وقربان أرض حلوة، تربة غسلها الماء من السبخ، وتربة رملية كما سلطنة والجرف، والعيون كذلك تربة حلوة لأن السيول الثلاثة غسلت الملح، أما ما قارب المدينة في شمالها الشرقي فجصة، وأما أرض محبت والقاضية، فتربة سبخة، لهذا حين اتسع البناء في المدينة، بنى الصعايدة بيوتهم في أرض محبت وفي القاضية، ولنا بستان فيها، على حافتها، لأن القاضية وأرض محبت حصرت من وادي العقيق فلا يصلها ومن وادي بطحان فلا يصلها، فما غسلت تربتها، وإنما هي اغتسلت بالناس فيها، وأول بناء فيها كان البيت (حمام سكر) بناه أتباع شيخ الطريق محمد الدندراوي.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٢٣)

### النشأة . . من الكتاب إلى المكتبة

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحبباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن» .

### النشأة . . الكتاب . . المدرسة . .

#### المعلم . . التلامذة

ونشأت في المدينة المنورة، ولدت في حوش خميس في أحضان سلع وفي بيت من الشعر، نشأت بدوياً أبداً أستوحش من الناس، وأحظى بعطف

الأناس، وكان رد الفعل أسقط هذه العقدة، فإذا بي المؤمنس والمؤانس أعيش مع الناس بالناس ولكل الناس، فالطفل أبو الرجل، لكن العقد حين يفضحها الشاب يرفضها هوناً.. بعد هون، حتى إذا اكتمل رجلاً بقي الخير منها وضاع الشر بها، مكثت في بيت الشعر حتى بلغت الثامنة من عمري، كنت أعيش في حضن الجدة، فالأم ماتت.. لم أشعر بفقدائها وأنا طفل وإنما كان الشعور بفقدائها حنيناً إلى الحنان أحياناً من الوحشة ذلك شأن الشاب يدرج إلى الرجولة يتلفت ليجد الأنيسة.. حبيبة إن وجد وزوجاً وقد وجد! ومالي ولهذا الوجد يتغشاني كأنما الشيخوخة قد أعادتني إلى طفل، حتى أصبحت أرى كل أنثى أمماً أختاً بنتاً، أكره أن أرى دمعة على عين أنثى، ولقد مسحت الدموع عن كثير بعاطفة الأبوة وإشفاق العفة.. ورحمة الأخلاق.

وهذه الجدة واسمها (ميثاء) هي من عالية نجد ومن مدينة (الرس)، لم تسكن بيت مدر، فابنها علي بن رميضان الرميح من زوجها الأول في سعة من العيش يسكن في الحوش بيت مدر وابنها محمد بن رجاء بن فضلون له بيت من المدر في الحوش، وأمي كان لها بيت من المدر.. فلماذا أبت إلا أن تسكن بيت شعر؟

حين كانت في الرس لم تكن كذلك، ولكن بيت الشعر كان صالوناً لا يخلو من زائريه، حتى إن قائد فرقة عقيل سيف العوجان يسأل عنها يقرؤها السلام كلما مرّ على البيت، بل وسهرة الليل عندها، يمتلئ مجلسها بأختي سيف العوجان (منيرة وشماء) وبزوجتي حليفنا بادي بن جميعان العمري وهما (وردة وموضى) وغيرهن. كلهن من القصيم، ويأتي محمد بن مطر الموزني يجلس بعيداً يقرأ على بنات العمومة، كانت جدتي إحدى عماته،

يقرأ في كتاب لم يبق في ذهني مما سمعت وأنا ابن الرابعة من عمري إلا هذا النص، وقد قرأ ما خلاصته (قدم وفد من مزينة على رسول الله ﷺ يبشرونه بنصر، فقال عليه السلام (كما نحيت بينكم) يعني كما هذا الزعيم فيكم واسمه نحيت، كان معكم) فعلق بذهني هذا الاسم وما زال يطلق على ابن نحيت من ولد حجاب في عالية نجد، لم أجد ذلك في كتاب، بدافع المصادفة لا بوازع البحث، فالذين أعرفهم من مزينة من أعيان الصحابة ومن أبطال الجهاد والفتح هم عتبة بن غزوان أحد أعيان القادسية حليف سعد بن أبي وقاص أحد السابقين في الإسلام بل أحد الذين حصروا في الشعب وهو الذي يقول (حتى أكلنا النوى وورق السدر)، وهو مرة ثانية الذي بصّر البصرة، مربدها الجامعة الثالثة في الإسلام، رغم أنف الناكرين وسحقاً لمعتدين، فهل أجد كاتب حرف إلا وهو المدين للمسجدين جامعتين المسجد الحرام ومسجد النبي إلا وهو المدين للمربدين مربد البصرة ومربد الكوفة، وهل هناك قاعدة فتح فتحت الشرق كله إلا وهي الكوفة، عتبة بن غزوان بصّر البصرة بأمر ابن الخطاب عبقرى هذه الأمة أبي حفص الأثير عمر، قال له بصّر البصرة على الأدنى من حدود العرب، فهي على شط العرب، تحتضن كاظمة، والآخر من مزينة صاحب فتح الفتوح سيدي النعمان بن مقرن.

كان هو أحد الإخوة التسعة، شرف بهم العرب كلهم ألا تشرف بهم مزينة، فاتح نهاوند، قتل شهيداً حولها، يرقى المنبر عمر ينعاها. كان ذلك يوم كان العرب ناساً. يوم كان الإسلام أنساً يوم كان الزاد تمرأ. والعدة جملاً وحصاناً وسيفاً ورمحاً وسهماً فما بالنا اليوم والعدة يسمونها (التكنولوجيا)، هؤلاء من مزينة، أما نحيت وابن نحيت فما عرفته إلى

الآن، فكل ما أعرفه أنه حامل راية حرب القبيلة كلها إذا غاب ابن عسب كان هو حاملها، وهناك حكاية عن ابن نحيت، كنت عند مدير العلاقات في المطار وهو قبلي من جهينة انتظر النداء لركوب الطائرة في رحلة للرياض حجر اليمامة المشمخرة، فدخل رجل هامة بصير ومعه رفيقه من مصر فقال الرجل الهامة لمدير العلاقات (سنعني أنا غريب) واستكثت اللهجة، فأنا أعرب لهجات قومي، خلته حريباً أو عتيبياً، قلت له (من الرجل)، قال: حربي، قلت: سالمى أم مروحي، قال: أنا ابن نحيت، أقسم إنى بكيت، كيف يظن ابن نحيت أنه غريب على أرضه، إنها وراثته الماضي قطع دابرها الحاضر، وقلت له: لا لست الغريب هذه أرضك من اللحظة الأولى التي رفع فيها إبراهيم قواعد البيت، وقلت للمدير: هذا ابن عمك سنّعه، فاستجاب المدير باحترام أملاه الموقف، هكذا تأثير النشأة البدوية.

وأدخلوني الكتاب، كان أمام باب الكومة الذي ينحدر الناس منه إذا ما جاءوا من الحزم يمتد من ضرس سلع، الكتاب وقف السيد علوي السقاف كان شيخ السادة يومها وهو جد الشيخ عمر سقاف الوزير، وكان شيخ الكتاب (محمد الموشي) ينسب إلى موشي قرية في صعيد مصر ولعلها في أسيوط، الكتاب وكتان والشيخ لا يحوط بالتلاميذ وإنما العريف هو الحريف، ورحلنا إلى ينبع النخل مع الذين رحلهم فخري باشا وفي ينبع البحر دخلت كتاب الشيخ بصيل وهو أيضاً من صعيد مصر ولعلّه من قنا، وما أسرع من ضم هذا الكتاب بشيخه والطلبة إلى المدرسة التي فتحت في ينبع مديرها الأستاذ أحمد أبو بكر حمد الله زميل أستاذنا السيد حسين طه كانا في بعثة إلى المدرسة السلطانية في دمشق حين تخرجنا من المدرسة الإعدادية في المدينة كل منهما كان رياضياً ممتازاً، ومن أساتذتي في هذه

المدرسة الشيخ القاضي والفقير عبد الغني شرف من أهل المدينة الأخيار.

كنت أضيّق بالكتاب وانفجرت الضيق عني بالمدرسة زملائي فيها إبراهيم زارع، حمزة فرهود، زكي عمر وغيرهم وكل منهم تحمل من عطائه ما تجمل به يرحمهم الله.

وعدنا إلى المدينة.. ودخلت الكتاب اسمه كتاب القشاشي، الشيخ فيه السيد حسن صقر ابن عم أستاذنا محمد صقر وأستاذ أحمد صقر، وهم من أشرف قنا حسينيون جمازيون، رحل جدهم من المدينة يوم كان الجمازيون أمراءهم واستوطنوا مديرية قنا وينتمون إلى هذا اللقب (المخادمة)، كما كان القسم الثاني منهم ينتمي إلى هذا اللقب (البطاطخة) ومنهم زعيم هؤلاء جميعاً ياسين باشا أحمد ومنهم السيد طه محمد حسين عثمان والد صديقنا السيد ياسين طه.

وضقت بالكتاب، فدخلت إلى المدرسة العبدلية وكان مديرها أستاذي المتسرمد عليه السيد أحمد صقر كان طليعة وخطيباً وشاعراً فيه دعابة، ولكن عجز المال على بقاء المدرسة العبدلية، لأنه في أول الأمر أسست في المدينة مدارس أربع.. العلوية مديرها الأستاذ ياسين كردي أخوه الشيخ عمر كردي الشاعر والقاضي وهما وأخوهما صالح كردي رئيس ديوان الإمارة أخوال تلميذي وأستاذي ضياء الدين رجب، علمته ألف باء وعلمني ألف لام ميم، جد هذا البيت المتقدم في المدينة المنورة هو إبراهيم الكردي الكوراني، الذي انتهت إليه الرحلة كصاحب السند العالي، جاء بعده بهذه الصفة فالح الظاهري، الذي عرفته الأمصار المسلمة حتى شيخ الأزهر الأحمد الظواهري حين حج وشد الرحال إلى المسجد النبوي أخذ يسألنا عن أبناء فالح الظاهري، قلنا له هما أبو بكر وعلي سكننا مكة، ولا

أدري هل كان سؤاله عن عالم أم عن قرب النسب؟ فالشيخ فالح الظاهري تتلمذ عليه الشيخ محمود شويل ولا أعرف غيره من الذين تتلمذوا عليه وقد توفاه الله في المدينة المنورة سنة ١٣٢٨هـ كما ورد ذلك في كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي.

المدارس الأربع جمعت في مدرسة واحدة لشح الإنفاق عليها وكان جمعها تحت اسم المدرسة الراقية والمدرسة التحضيرية كِلهما في المدرسة الإعدادية التي سميت الناصرية وهي في باب المجيدي بين المسجد وباب المجيدي على أول ما كان يسمى بالمناصع وراءها بيت الشيخ العزيز بن الوزير وبيت السيد حمزة رفاعي، وقد عيّن مديراً لها مدير الفيصلية أستاذنا السيد حسين طه وقد حالف هذا التعيين التوفيق لأن السيد حسين ليس له علاقات جانبية مع أحد قطع رجل الزائرين الذين لا ينفعون، المدرسة العلوية مديرها ياسين كردي، العبدلية مديرها أحمد صقر والفيصلية السيد حسين طه والزيدية مديرها الشيخ عبد الحي خضير، وقد أصبح السيد أحمد صقر أستاذاً في المدرسة مع ابن عمه السيد حسين طه ومن بقية الأساتذة محمد صقر أستاذاً الحقيقي في المدرسة والمسجد وبسط رعايته عليّ وأيضاً السيد ماجد عشقي محمد سعيد مدرسي الذي كان أستاذاً لأحمد صقر ولعبد الحميد بدوي باشا في دار المعلمين أيام العثمانيين، ثم الشيخ محمد الكتامي والعريف بن سالم والمراقب هاشم كماخي، وكان الشيخ عبد القادر شلبي الطرابلسي هو المعتمد على هذه المدرسة رأساً على هؤلاء، وحين بدأ الأمير محمد بن عبد العزيز تشكيل الجهاز الإداري في المدينة المنورة، لم يعين عبد القادر الشلبي في مكانه بل الذي تولى الأمر لفترة قصيرة هو القاضي الفاضل الشيخ أحمد كماخي، لكن كامل القصاب

وقد كان مديراً للمعارف أول الأمر في هذا العهد الزاهر عيّن عبد القادر شلبي معتمداً للمعارف في المدينة وتعلمت في هذه المدرسة وتخرجت منها في نهاية عام ١٣٤٢ ولم نجد من يختم الشهادة، لا أدري لماذا لم نذهب لعبد الله عمير رئيس الديوان الخاص أو أحمد بن منصور وكيل الإمارة، فذهبنا إلى عبد المجيد باشا والي قلعة سلح يختم لنا الشهادة وكان الذين تخرجوا من هذه المدرسة الراقية الأربعة المحمدون محمد سالم الحجيلي، محمد إياس توفيق، محمد نيازي، محمد حسين زيدان، لم يتخرج قبلهم أحد ولا بعدهم أحد..!

ومكثت (خالي شغل) لكن والدي يرحمه الله أبى إلا أن أتزود من العلم فكانت دراستي في المسجد النبوي على يد أستاذنا محمد صقر، أفته في النحو قطر الندى شذور الذهب ألفية ابن مالك شرح ابن عقيل مغني اللبيب، فقد كان الشيخ يعشق ابن هشام الذي قالوا إنه أنحى من سيبويه وفي الفقه على مذهب ابن مالك، الرسالة لأبي زيد القيروان ومختصر خليل والحواشي.

ولتضحكوا قليلاً.. قرأنا قربة الفساء هل يجوز للمصلي إذا حمل قربة الفساء أن يؤدي صلاته؟ كيف تمتلئ القربة بالفساء لماذا لم تمتلئ بغيره بالبول مثلاً، وجاء ذكر الفحم فأهل المدينة يخزنونه في الحناية فإذا فيه قول في الحواشي يعلمنا أن نرش على الفحم ملحاً ليمنع الجن من أكل الفحم، لأنه طعامه كالروث، فقال أحدنا من الظرفاء (أي والله صحيح غصبنهم الجاوى يأكلوا الرز سماط ما يحطوا الملح عشان أمهم جنية).

أبى والدي إلا أن أتعلم قال لي: (اسمع يا واد أنا أحب الفلوس أشغلك تجيبلي ريال مجيدي لكن لا أريد ذلك، تعلم) وتكلم بلهجته

الصعيدية (اسمع يا واد بقی ابن السقی الولد اللي ملوش طین أصبح مفتي الديار المصرية) يعني الشيخ محمد بخيت وهو من بلدياته، وأنت يا أبو طین متعلمش).

ودعاني الشيخ عبد القادر شلبي لخدمته ولأمارس التعليم مساعداً له في مدرسة خاصة فتحها، كنت أنام في المكتبة وفي المدرسة الجوهريّة فكان هو ناظرها وكانت المكتبة عامرة بكتب التراث فقرأت لا أنام حتى أقرأ، ثم استعرت من رشيد أفندي الغزي أحد مهندسي السكة الحديد والد الأستاذ هاشم رشيد رئيس النادي الأدبي في المدينة، أعارني ثمانين جزءاً مجلداً من مجلة المقتطف، كان يصدرها يعقوب صروف ويكتب فيها شلبي شميل وكتاب كبار من أهل التراث، قرأتها كلها فإذا هي وما إليه .. أنا اليوم ..

والبقية تأتي ..

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان ( ٢٤ )

### العلم . . فهم وكتاب ومكتبة

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن» .

عينت أستاذاً . . بأمر هيئة التفتيش والإصلاح  
هجاني «سمان» . . بقصيدة . . فرد عليه أصدقائي باثنتين  
براعتي في المناقشة . . جلبت لي الزوجة الثانية

وفتحت المدرسة فإذا هي في مكانها الأول وإذا هي بأساتذتها الأولين،  
وحين عيّن كامل القصاب الشيخ عبد القادر شلبي معتمداً للمعارف، حيث

عاد إلى مكانه من قبل، وتبع ذلك ما جعلنا ننتقل بالمدرسة الخاصة وفيها تلامذة طليعة، إلى المدرسة الأميرية السعودية، ما كان ينبغي أن تكون داخل المدرسة الحكومية مدرسة خاصة، ولكن الشيخ عبد القادر أراد ذلك فإذا مدرستنا الخاصة في القاعة التي في صدر المدرسة، وكنت أنا المشغول بها، وبينما أنا ألقى الجغرافيا على التلامذة، جاء الحاج جميل بواب المدرسة، بل كان أبو المدرسة يناديني «كلم فوق، فيه هيئة جات.. طلبوك» وكنت مكشوف الرأس مبتدلاً «تلميذ مع أصحابي» فكل تلامذتي حينذاك أصدقائي، وصعدت إلى الصالون، فلولا استقامتي لطرودوني.. عاري الرأس لابس الثوب «زفير» قماش رخيص الثمن.. سلمت.. وقتت، كانت هيئة التفتيش والإصلاح، أمر بتشكيلها الملك عبد العزيز، الزمن ١٣٤٦هـ. «نسيت اليوم والشهر» لكن قرار تعييني أستاذاً فيه التوضيح للوقت. هيئة التفتيش والإصلاح تألفت من هؤلاء الرجال الشيخ حافظ وهبة وكان يتمتع بثقة الملك عبد العزيز.. الشيخ محمد العلي التركي، إبراهيم الصنيع، محمد السلیمان التركي ومحمد صالح نصيف، أحمد سبحي، كانت المملكة قد مثلت في هؤلاء جميعاً، غير أن الأكثرية كانت من جدة، فالصنيع والتركي النجديان ومحمد صالح نصيف كلهم من جدة ومن أعيانها، فالنظرة باسم التفريق جنحت إلى أن محمد السلیمان التركي لم يكن من أعيان جدة ولا أدري كيف يكون ابن هذا البيت في عنيزة، إذا ما استعرق في جدة ألا يكون من أعيانها.

دعونا من العنينة التي تمارس الفصام.

وقفت وتكلم الشيخ محمد العلي التركي وكان حفيماً بي «هذا الزيدان من تلامذة الشيخ عبد القادر لماذا لم يتعين أستاذاً إلى الآن.. عينوه أستاذاً..»

ضموا المدرسة الخاصة إلى المدرسة الأميرية» فكل أعضاء الهيئة سامعون ورحب والتفت الشيخ حافظ وهبة. . يقول لي: قف على الخريطة وكانت صماء أين خليج كذا أين مضيق كذا؟ فأدبت الإجابة لأنني حفيظ بالجغرافيا، حتى إذا استدرت أواجه الهيئة قال الشيخ حافظ، لقد أصبحت أستاذاً في هذه المدرسة، وثقوا أن حكومتكم لا تعين في أي عمل أجنبياً ما دام فيكم الكفاءة، وقال محمد علي التركي: أين محمد سالم، يعني صديقي الوفي محمد سالم الحجيلي، وجاء محمد سالم فقال الشيخ حافظ اجمعوا التلامذة، وتكلم حافظ: إن هذين المحمدين كانوا التلامذة، أصبحوا الأساتذة لكم، من يومها أصبحت أستاذاً، ولكن الشيخ عبد القادر شلبي وبالعهنية التي تلبسه نسي أني خادمه الأمين على بيته وأهله وعلى المكتبة، فقال «شو هلولده التي أنت فيها» بلهجته الطرابلسية اللبنانية. . «غير ثيابك إلبس كويس» فلم أجفل ولم أخجل فقلت: يا مولانا كل شيء يلبس حتى الغالي والثمين ولكن الأصغرين لا يلبسان فقال محمد علي التركي: هما منحة من الله، رفعت يدي إلى السماء أدعو الله أن يمن بهما علي. .

وأصبحت أستاذاً أعلم الجغرافيا والتاريخ والمحفوظات، معداً على صورة أخرى وحسب ترتيب الجدول أن أنوب عن الأستاذ الغائب في إلقاء الدروس التي يدرسها، وكانت ملححة ظريفة، أصيب أستاذنا معلم القرآن والتجويد الشيخ محمد الكتامي، فدخلت درسه وكان التلامذة من الأذكياء وأصبح لهم شأن، حمد وكيع نابغة الرياضة، ياسين طه، كاظم برادة، محمد مدني، وسألوني عن حاشية في كتاب التجويد، جاء فيها: أ.هـ. عيني على البخاري، نسب النص في المتن إلى مصدره فقال التلامذة «أيش معنى ذلك؟» قلت: أ.هـ. اختصار لكلمة انتهى، عيني لقب الإمام العيني أخته زوجة ابن حجر صاحب فتح الباري البخاري يعني الإمام، فالإمام

العيني شرح البخاري وكان معاصراً لصهره ابن حجر، فقالوا: الأستاذ قال لنا معناه «آه يا عيني على البخاري». قلت أستاذنا حافظ القرآن بكل القراءات ولم يعن بغير القرآن وتجويده، فقال «إيش عرفك» قلت: من الكتاب. . . من القراءة. . . أسألوني عن أي شيء تجدوا الجواب، قالوا: عجيب كل سؤال تجيب عنه قلت نعم إذا حضرني الجواب أجبت وإن جهلت الجواب أراجع المكتبة أجد الجواب، فالعلم فهم والعلم كتاب والعلم مكتبة لا تسالوا شخصاً وإنما أسألوا المكتبة، وضمت المدرسة الخاصة إلى المدرسة العامة.

وحكاية أخرى ظريفة، صدر أمر مديرية المعارف في مكة بإضافة أستاذ وكان صديقي محمد سالم الأستاذ في المدرسة والسكرتير الخاص للشيخ عبد القادر شلبي البدوي الحجيلي المروحي السالمي الحربي كان خطاطاً، جميل الخط كما كان الأستاذ عبد القادر شلبي يملك قوة هي أنه ذو خط جميل وقال محمد سالم للشيخ عبد القادر «ليه مانعين الزيدان في هذه الوظيفة». . . فقال الشيخ عبد القادر يرحمه الله: عيّن زيدان رسول يعني مراسلة يعني أخذ دفتر الغائبين أسأل ولي الأمر عن غياب تلميذه، هكذا وضعني الشيخ وغضب محمد سالم وقال زيدان «لا يقبل ذلك» فقال الشيخ: شو هو أحسن من ابن الكماخي فقال محمد سالم زيدان أستاذ متعلم أما غيره فما زال أمياً.

من هنا كان محمد العلي التركي إحساناً قتل الإساءة، ولعلّي وقد كربت وقبل وصول هيئة التفيتش والإصلاح رأيت رؤيا صدقت، رأيت أنني أدخل المسجد من باب جبريل أجد الحجرة تغسل كما العادة حينذاك، مسنى عطش قوي وكان هناك سبيلان، يعني دوارق في حوض المكلف بالسبيل رجل أبيض طلبت أن أشرب فمنعني ومشيت خطوات إلى سبيل

آخر - القيّم عليه رجل أسمر ناولني الدورق - شربت وشربت حتى ارتويت ، ثم جدت رؤيا ثانية رديفة إلى هذه الرؤيا ، فماذا هناك وتحت البلدية من جهة الشرق حول دكان محمد سعيد عبيد والد الدكتور رضا عبيد وقهوة خليل قصاص المكي ، مجلس فيه السيد أحمد صقر والأفندي زين بري ، وجاء أستاذنا السيد حسين طه فجلس على كرسي وثير وقال «أهو هذا الكرسي اللي كان يجلس عليه بعض الأوام» وإذا الأفندي زين بري وهو الصديق لأستاذنا السيد أحمد صقر صداقة العلية للعلية العلوي للعلوي - يقول رداً على السيد حسين طه : تعني السيد أحمد صقر؟ فقلت : لا يا أفندي . . لا تداخل بين ابن العم وابن عمه ، فالسيدان أحمد صقر وحسين طه أبناء عم . وصحوت ولم يمض يوم حتى شربت الوظيفة من الرجل الأسمر محمد العلي التركي التي لم أشربها من الرجل الأبيض عبد القادر شلبي ، وعيّنت الهيئة السيد حسين طه مديراً للأوقاف ، وكانت الهيئة قد عيّنت السيد عبد الجليل مدني وهو من أعيان المدينة مديراً للحرم بدل اسمها الأول مدير الخزينة ، فالسيد عبد الجليل كان يعرف مديرية الخزينة ، تشمل الأوقاف كما كان ذلك في عهد غالب بيك التركي فجلس في كرسي مدير الأوقاف وفي الخزينة التي على الطرف من المسجد النبوي في شماله الشرقي بين كومة حشيفة والطريق إلى باب الرحمة ، وجاءت الهيئة فقالت للسيد عبد الجليل أنت مدير الحرم ومدير الأوقاف حسين طه فهم قد فصلوا إدارة الحرم عن إدارة الأوقاف ، وأصبح السيد أحمد صقر مدير المدرسة حين خلت من حسين طه ، أو نسيت أن الشيخ محمد العلي التركي سأل عن أستاذنا السيد محمد صقر ، قال أين محمد صقر أستاذ الجيل نحواً وفقهاً وعقيدة؟

قالوا له لم يعين فقال محمد علي التركي عيتوه أستاذاً أعيده إلى بيته .  
وهكذا كان تعيين السيد محمد صقر نعمة على المدرسة وعوناً له .

وتبدأ قصتي مع الشيخ محمد العلي التركي وكيف وقعت، كان ذلك  
عندما كنت تلميذاً في المرحلة النهائية عام ١٣٤٢هـ في عهد الأشراف،  
وكان الوقت بعد العصر قبيل المغرب، وكنت جالساً أستند إلى أسطوانة في  
رواق باب الرحمة أنتظر الصديق الوفي «درويش سلامة» أذاكره في الجغرافية  
لأنه منح أن يرقى إلى السنة الرابعة بعد الامتحان الخصوصي، هو - يرحمه  
الله - طلب من مدير المعارف عبد القادر شلبي أن أذاكره وكان في يدي  
كتاب جغرافيا تأليف «شيمزد» الفرنسي ترجمة توفيق البردعي، وممر الشيخ  
محمد العلي وكأنه قد سمع عني من خلال القصيدة التي هجاني بها الصديق  
هاشم سمان - لم ينظمها وإنما نظمها له غيره من الذين كانت بيننا وبينهم  
معارك نحوية، كان مطلع القصيدة..

أيازيدان عيناك أزعجتني من الأقدار والنظر الشايمي

أشهرتني هذه القصيدة حتى إن الشيخ محمد سعيد أبو ناصف - مدير  
البريد - أيام الأشراف في المدينة ومدير البريد في هذا العهد في مدينة  
الطائف فرض ثمناً لهذه القصيدة مجيدي لمن يأتيه بها، وبينما أنا في دار  
الضيافة قرب كهرباء المسجد النبوي وكانت القصيدة في جيبي قلت:

«خذ هذه القصيدة وبلاش ريال» فضحك وأخذها، وهب أصدقائي  
دكتور حمزة شلبي والأستاذ الشيخ الأمين بن الخضر بن مايأبي الجكني  
محمد الأمين الشنقيطي الذي أصبح سفيراً لحكومة الأردن في جدة والذي  
أضحى يعود إلى مدينته يعيش فيها، فكل منهما رد الهجاء بهجاء مقذع لا  
يجمل لي أن أروي بيتاً منها، وكان السيد عثمان حافظ ثالث هؤلاء فاكتفى

بما فعله الشلبي والشنقيطي فلم ينظم شيئاً مع أنه كان يمارس النظم ويعرف أوزان الخليل.

كانت هذه الشهرة هي التي لفتت نظر الشيخ محمد العلي إلي، وقف يسألني فقلت أجيبه قال ما هذا الكتاب الذي في يدك، قلت كتاب جغرافيا قال وفيه عن الكرة الأرضية، قلت نعم، قال ليست الأرض كرة قلت هي كوكب من الكواكب وكلها كروية والأرض مثلها، واتسع الجدل، وكان من الواقفين رجل اسمه ياسين هو ابن عم الشيخ العائش الأستاذ الوحيد لعبد الله القين، وكان جدلاً بسيطاً فيه من تواضع الشيخ ومن طاعة التلميذ وانصرف الشيخ فقد حان أذان المغرب، وكان محمد علي التركي، في تلك الأيام يلبس الغالي - مشلح أبو شهر مقصب وثوب بفته وشال كشميري، وذهب ياسين يبشر أبي بما جرى.. من هنا عرفني الشيخ محمد العلي حتى إن الأمر امتد بيني وبينه أستشيريه هل أذهب إلى البعثة مع السيد أحمد العربي والسيد محمد شطا والسيد ولي الدين أسعد، كتبت إليه أستشيريه فقال: عندك ما يكفي أنهض بعملك وتزوج سريعاً. ورضيت نصحه.. تزوجت من بنات العزوة «مريم بنت أحسن أبو الذهب، وكان فراق بيني وبينها، ولدت لي بنتاً حضنتها زوجي أم البنين فاطمة محمد داعوس» ولكنها ماتت من وباء الحصبة التي هلك منها أطفال كثيرون، ومن المصادفة العجيبة أن هذا الرجل ياسين الحامل جاء إلى أبي يقول له: «جارنا أبو داعوس عنده بنت تصلح زوجة لمحمد ولدك زوج محمد قوام» غريبة هذه المصادفة، لكن إعجابه بي يوم كان الجدل بيني وبين محمد العلي جلب لي الزوجة الثانية وهي أم أولادي الآن، وحين ذكرها لي أبي ذكرت السيد ماجد عشقي مدير المدرسة فقد قال لي «شوف بنت أبو داعوس كل يوم، تأتي إلى المدرسة تصحب أخاه عبد الرحمن طفلاً، تدخله إلى المدرسة ثم

تذهب إلى مدرسة خوجه هان. إنها تصلح لك زوجة. فكان ترشيح ماجد عشقي وترشيح ياسين هو موضع الرضا مني أو هو موضع ما قدره الله».

ومضت أيام عزل الشيخ عبد الله بن حسن، والد وزير التعليم العالي، الشيخ عبد القادر شلبي من مديرية المعارف، بدقة التوقيت فلولا الهوبنا من أمر الملك عبد العزيز لعزله الشيخ عبد الله بن بليهد لأنه تعالى بالإجابة أو الاستجابة لما كلف به عبد الله بن بليهد، فما أحببت الحصافة أن تعزله لذلك، حتى حان الوقت وباسم الخلاف على العقيدة السلفية والحشوية تم للشيخ عبد الله بن حسن أن يعزل الشلبي، أمر الشيخ عبد الله أن تدرس عقيدة السلف الواسطية والثلاثة الأصول، بدلاً عن السنوسية والجوهرية للباقلاني والرسالة لمحمد عبده، وكلف الشيخ عبد الله أستاذنا محمد الأنصاري بأن يدرس عقيدة السلف.

وحضر الشيخ محمد الأنصاري ليعرف الجدول واجتمع المدير والأساتذة وكنت بينهم فإذا هم يخرجون الشيخ الأنصاري، يتركون له كل الفصول، وهي أكثر من ثمانية وأكثر من عشرين ساعة ليقوم بالتدريس مع أن ذلك يكلفه الكثير، ولم يعط مكافأة لذلك فهل يترك دروسه في المدرسة «دار العلوم الشرعية» والمسجد وله مرتب فيها، وما خطر له أن يكلف أحد تلميذه الخاصين الشيخ محمد الحركان والأستاذ ضياء الدين رجب لعله لو عرضهما لقال الأساتذة هؤلاء تلامذة لا نقبل.

وتخرج الشيخ، فنهضت: «أقول شيلوا عني الجغرافيا والمحفوظات وأبقوا التاريخ ساعتين الشيخ هو يدرس الواسطية وأنا أدرس الثلاثة الأصول. جزع بعض الأساتذة ولكني لا أبالي، وتم ذلك فإذا الشيخ الطيب الأنصاري يستخلصني بعد أن كان يجفوني والأسباب بعد».

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٢٥)

### كل الصناعة أصبحت «مضاعة» بهذا الاستيراد!

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أفحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحبباً يتقاربون وبالنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

أهل المدينة اكتفوا ذاتياً بحرفهم اليدوية

في أول أيام الكيان الكبير

أعيد فتح دار العلوم الشرعية

- وأرجو أن لا يضيق القارئ إذا أطيل عليه الكلام عن المدارس ولعلي

أشرح الذكرى عن المدرستين دار العلوم الشرعية التي ما كنت فيها ولا بها ولكني لها رغم انتسابي إلى الذين أعاقوها حين أغلقوها أما دار الأيتام فقد كنت فيها بها ولها.

دار العلوم الشرعية فتحها القيم على أمرها والناهض بها السيد أحمد الفيظباوي الدوباندي. أول ما فتحت في آخر أيام الأشراف في أوائل الأربعينيات الهجرية. ما انتسب لها حين ذاك إلا قلة فإنها لم تعد إلا ناشئة ما أعرفها بعد الذين عرفوها حين أعيد فتحها لم تكد تفتح أبوابها حتى أغلقت والذي أغلقها معتمد المعارف حين ذاك الشيخ عبد القادر الشلبي الطرابلسي لأنها في نظره وبحكم الخلاف المذهبي أمر بإغلاقها لأنها «وهابية» فالشلبي حنفي المذهب وعلماء «ريوبند» المدرسة الكبرى في الهند أحناف كذلك وإن كانوا أهل حديث غير أنهم ابتعدوا عن الحشوية كأنهم الوسط بين أهل الحديث السلفيين وبين الأحناف الآخرين الذين أفرطوا في كثير من الأمر فخليل أحمد وحسين أحمد «وكفاية الله» وحتى «أبي الكلام أزد» لم يكونوا من أهل الإفراط ولا من أهل التفريط هم أقرب ما يكونون إلى السلفية وحين أغلقت دار العلوم الشرعية كرت وما زلت تلميذاً لأنني استكبرت ألا يحترم شيخ الشيوخ خليل أحمد صاحب بذل المجهود الشرح على أبي داود. جاء إلى المدينة يتبرك بالمسجد النبوي ليكمل بذل المجهود نزل إلى عراق المحدثين ينمون مؤلفاتهم في المسجد النبوي فمحمد بن إسماعيل البخاري كتب كثيراً من أحاديث الصحيح في المسجد النبوي وإمام دار الهجرة مالك بن أنس وهو ابن المدينة كتب موطأه في المسجد النبوي لا أدري كيف لم نستح من صاحب بذل المجهود ولكنه الصبر على إغلاق المدرسة فقد أكمل خليل أحمد مؤلفه، ومن أول يوم من أيام هذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية أعيد فتح دار العلوم الشرعية فلئن كنت

أتلمذ على يد من أغلقها فإني أصبحت أستاذاً لا أجدوها فقد أقامت حفلاً في عام ٤٨ هـ دعي إليه الأستاذ عبد الوهاب آشي وكان في المدينة في بيته بيت الصداقة له بيت الأستاذ ضياء الدين رجب لأن الآشي كما قلت بيت في مكة وبيت عمر الكردي القاضي والشاعر والعريق من أهل المدينة كما أن بيت الكردي وبيت ابن أخته ضياء الدين رجب هو بيت الآشي فهناك ظاهرة محمودة فبيت الحلواني في المدينة هو وبيت شطا من مكة وبيت شطا هو بيت الحلواني كما أن بيت السيد علي حبشي هو بيت حامد عبد المنان وعبد الحميد قدس ومن إليهما علاقة الأسرة بالأسرة ورباط العلية بالعلية ولقد كنت عند عبد الوهاب آشي فقد التزمت به لا أكاد أفارقه فإذا هو يتلقى الدعوة من دار العلوم الشرعية لحضور الاحتفال قلت له «ما وصلتني دعوة» وهذا مبعث مسرة لي لأنني سأذهب طفيلياً أثبت لدار العلوم الشرعية أنني لها ولم أكن عليها وزهبت وتلكم الخطباء وقمت طفيلياً أرتجل الكلمة تحية للمدرسة. وتأخرت عن وظيفتي في المدرسة الأميرية، حيث كنت أستاذاً فإذا بأستاذي السيد أحمد صقر يجبهني كمدير للمدرسة لماذا تأخرت قلت في حفل دار العلوم الشرعية. قال لماذا لم تستأذن؟ وقسا يلومني فقلت له اسمع مع احترامي لك فإن مدرسة فيها مائة تلميذ وتلميذة أحفل بها أكثر من مدرسة فيها مائة تلميذ يكفي أن جعلنا كثيراً أنت تأتي متأخراً كل يوم لهذا جدولت دروسك بعد الظهر وتأخر وأتي قبلك فإذا هو يهدأ ويقول عجيب «يا واد.. هو إنت كده» قلت نعم. «وما أزال كده» وامتلاأت دار العلوم الشرعية بطلابها وتخرج منها وأحسننت إلى رجال من العلماء محمد الطيب الأنصاري والشيخ الأمين أستاذ محمد عمر توفيق ومحمد عبد القادر الكيلاني صديقي وأستاذي الأيام قاسية فلو لم يجد الطرابلسي والكيلاني هذه الرعاية لآتعتهم وسيلة العيش.

## دار الأيتام

وسافرت إلى الهند وطالت الرحلة فانتهى شهر الإجازة فحلّ محلي من وكلت الأستاذ عبد الكريم شريف يرحمه الله غبت في الهند ستة أشهر وستأتي ذكرياتها بعد. . . وحين رجعت لم أجد وظيفتي غير أنني لم أبق يوماً أو يومين حتى أصبحت أستاذاً في دار الأيتام فكانت انطلاقة شهرت بها من خلال الدفاع عن دار الأيتام والخصام من أجلها والتثبيت لوجودها ساهمت في ذلك فكانت مبعث خير حافزاً للطموح فالرجال تصهرهم الخصومة حين ينتصرون في معركة ولم تكن تلك إلا معركة الخير مع الشر، معركة المدرسة مع الذين يحاربون المدارس كنت الشيء في دار الأيتام بل كنت بعض مشيئتها أسسها الحاج عبد الغني دادا من مسلمي الهند من الميمن وكم للميمن ومن مسلمي الهند إخوانهم من يد للحرمين فتح وعون لمدرسة الفلاح في مكة، والصولتية في مكة وعين زبيدة فتبرعات مسلمي الهند هؤلاء أنقذت وأعانت وفي المدينة دار العلوم الشرعية ودار الأيتام والعين الزرقاء والإحسان على الفقراء كل ذلك من عطاء مسلمي الهند.

كان هناك رجال من أهل المدينة حرباً على دار الأيتام وكنت الحرب عليهم كانوا يقولون «إيش دار الأيتام ما فيها إلا بدو وتكارنة» وأثور على كلمة «بدو» وأتصف لكلمة تكارنة ينطلق لساني في كل مجلس وأخطب في كل حفل وقد زار دار الأيتام الوزير خادم الملك عبد العزيز عبد الله ابن سليمان ومعه طلعت حرب مؤسس بنك مصر الصديق للملك عبد العزيز برغم جفوة القصر في مصر وحين جلس الوزير وضيفه ارتجلت الكلمة أقول، يقولون دار الأيتام ليس فيها إلا البدو والتكارنة، إن البدوي هو ابنها هو الجندي هو الفلاح، هو المساهم في كثير من الاكتفاء الذاتي سمناً

وجنباً وتمراً وبطيخاً ولا خير فينا إذا لم ننهض بهذا البدوي وتكلم طلعت حرب يقول لابن سليمان «يا معالي الوزير أهو البدوي اللي تجيبه من الجبل تعلمه في المدرسة يرتفع فيه بناء أمتك» وأمد ابن سليمان دار الأيتام بشراء بيت أبي عزة الذي تسكنه الدار ليكون ملكاً للدار وأقمنا الحفل السنوي وقد شرف بهؤلاء الثلاثة الحاضرين الشيخ عبد الله بن بليهد ووكيل إمارة المدينة الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم والدكتور محمد حسين هيكال الكاتب المصري الكبير والوزير وألقيت الخطاب أحارب كلمة البدو فإذا عبد الله بن بليهد لا يصفق وإنما قال أحسنت وحين فرغت من إلقاء الخطاب أقبل علي الشيخ أبو الحسن سلمان يقول «هو كده يا واد خليك جدع» لأنه كان يعرف معنى البدو أبناء عمه من أهل العوالي حضراً مع البدو وبدواً مع الحضرة جيد سلمان ومن إليه وسافر مدير الأيتام حسني العلي الضابط المقدسي صديق أمين الحسيني فقد رأيت الحسيني لا يغيب يوماً حين جاء إلى المدينة عن زميله في الدراسة حسني علي كان ضابطاً في جيش فخري، ومديراً لشرطة المدينة ومديراً لشرطة جدة معزولاً عنها لموقف لم يرض عنه ولي الأمر لم يكن خوفاً ولا جريمة وإنما كان تصرفاً مع سفير أجنبي سافر حسني بك إلى مكة فكنت نائبه وقد أودع عند المراقب عثمان قاري خمسة مجلدات لجمع التبرعات ختمها بتوقيعه على كل ورقة وكانت دار الأيتام مدينة باثني عشر ألف ريال لمؤسسها عبد الغني دادا وحين أقيمت حفلاً لبعثة الجامعة والأزهر وكان يرأس بعثة الجامعة الدكتور أحمد أمين ويرأس بعثة الأزهر الشيخ علي محفوظ كان هذا الحفل أشبه بالدعاية لدار الأيتام فانهاالت التبرعات وانتهت المجلدات الخمسة فتعاملت مع مجلدات أخرى بتوكيله فجمعت لدار الأيتام مبلغ ثمانية وعشرين ألف ريال أقسم بفالق الحب والنوى شديد العقاب أنني لم أسرق ريالاً واحداً مع أنني كنت في حاجة فقد

كان راتبي خمسة وثلاثين ريالاً وأقسم مرة ثانية إن بيتي لم يدخله رغيف من دار الأيتام أدفع قيمة الحذاء والحقيبة وكل ما يشتري من مصنوعات الدار لقد بعث بعض ما أملك لسد الحاجة وما كان لي أن أسد حاجتي بمال اليتيم وجاء حسني بك فإذا هو لا يصدق ما جمعت وسأل الرقيب فإذا هو يصدقه القول الأستاذ زيدان جمع هذا المال لم يأخذ منه شيئاً ولكن خادم عبد الغني دادا فهمي الحلاق الهندي ابن المدينة قال لحسني بك خذ مفتاح الصندوق من زيدان فقال حسني أسكت في الصندوق ٢٨ ألف ريال مفتاح الصندوق سيبقى مع زيدان ودخلت وقد سمعت ذكره لاسمي . أقول خذ مفتاح الصندوق ما يعرف الحرامي إلا الحرامي قال فهمي «أنا حرامي» قلت لا أدري وإنما أنا لست حرامي .

وكان احتفالي ببعثة الجامعة والأزهر قد جر عليّ بعض الظنون فإذا سؤال من جلالة الملك عبد العزيز يستوضح الأمر فأجبت بكل الوضوح عن معنى الاحتفال بهؤلاء فإذا أمر جلالتهم تغمده الله برحمته ليضم دار الأيتام في المدينة إلى دار الأيتام في مكة تحت سلطان مهدي بك ورشحني حسن موسى صديق الوالد سكرتيراً لبيت مشايخ الجاوة في مكة فقبلت وسكنت مكة ولم أدر بعدها عن دار الأيتام شيئاً من أمرها أديت واجبي وما ظلمت من أحد وما ظلمت أحداً .

## الحِرَف

والحِرَف في المدينة المنورة أعطت الاكتفاء الذاتي النجار والقطان والخياط والحلاق والخراز والكندرجي والطباخ وما إلى ذلك فالنجار في المدينة المنورة قام بالعبء الكبير وهو حمل عبء الاتساع في التعمير النوافذ الرواشين السقوف القباقيب الصناديق كل ذلك يصنعه النجار لا

نستورد من خارج البلد فما أحلى الرواشين وما أبهى النوافذ وما أقوى الأبواب عرفنا من شيوخ التجارة السحلول والثانية . . حتى صناديق العيد على زينتها وقوتها يصنعها التجار صالح الثانية لو تصورنا عدد البيوت التي بنيت في المدينة خارج السور وداخل السور وفي باب المجيدي والصدقة والتمار وخيف الأغوات وأرض محبة وأرض القاضية كم أعطاهما النجار من كل حاجتها من بناء وهنا مفارقة فقد كنت على علاقة عرفت بها الكثيرين من أهل عنيزة سواء التجار في سوق الشروق أو عقيل ومن إليها.

وما كنا نعرف أن صالح الثانية إلا من المطاليق صلته بالمطاليق السحلول عبد المعين كعكي، حمزة لبان، أبو دربالة، وغيرهم ما نعرف أنه من عنيزة أو أنه أخو سليمان الثانية مدير خفر السواحل في أول عهد هذا الكيان الكبير، كنا نظنه مصرياً لأنه كان طويل القامة أبيض اللون ولكنني عرفت ذلك في سيارة وأنا مسافر إلى الخرج وقد رافقني في السيارة بأمر رئيسي وصديقي سليمان الحمد خاله سليمان الثانية فإذا هذا الشاب يذكر اسمه ولقبه الثانية قلت من أبوك أنت ولد سليمان قال أنا ولد صالح شيخ النجارة في المدينة من هنا عرفت أن هذا النجار من المطاليق كان بعيداً عن أهل القصيم قريباً من المطاليق.

والخياط يخيط الأثواب والجيب والشايات والأكوات وما إليها لا تخاط في الخارج، أما الطباخ «فوال» ما أحسن ما يصنع مطبقتي ما أطيب ما صنع والأنواع الأخرى. لم أذق طعم الكبدة المقلية خارج المدينة لأنها لم تكن من صاج العم رمضان، كبدة ضاني وكبدة جملي نحن في المدينة لا نأكل لحم البقر ولكننا نأكل لحم الجزور لأن البقر لا يذبح إلا إذا تفانى يأكله الكثير من بادية الوطن إذا لم يجدوا الجزور، لحم الجزور الكلكل ما

أطيبه مع اللفت وما أطيبه مفروماً يطبخ كباباً وفي جدة وجدت عند الجزار مقوداً كأنه الحدار استطيت لحمه فأخذت كما ولكي أستره عن البيت لأنهم لا يأكلون كما نأكله نحن عملته مفروماً ولأكثر من يوم أكلوه كباباً حتى انتهى صارحتهم بأنه لحم جمل فقالت الأمهات يوه يا محمد قد كده أنت غشاش، قلت ولكنه كان لذيذاً شبعتم منه فضحك.

المطبخ يصنعه الطباخ المطبقاني «زردم» و «الصنافيري» وحين يصل أهل مكة يصبح المطبقاني صاحب الموسم لأنه لذيذ أما اليوم فنصنع المطبق كثيرًا والصاج على الغاز يسلق الفطيرة بينما كان بالأمس على رقة الفحم وهكذا كما قالوا «أهله سيويه والجن استلقوه» كل الصناعة أصبحت مضاعة بهذا الاستيراد زناويل السعف أصبحت أكياس ورق كانت مكاءات الحلوة والسرر من الجريد مستوردة ضاع الجريد وضاع النوى وضاعت الحذاقة فما أحلى الفاقة إذا كانت من صنع يديك والحلوة الأناقة إذا كانت من كيس جيبك ومن الحرف المستملحة صناعة الفخار.. أزيار كبار وأزيار صغار ودوارق، وشراب وبرابيح للمراحيض.

كما أن الحجر وهو مادة البناء ينحت وينقش وقد عاصرنا نقاش الحجر ابن العم إبراهيم حسون.

كل هذه الصناعات انتهت حتى دبغ الجلود وغزل الشعر.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٢٦)

في عام الرمادة الثاني . . كان عبد العزيز «عمريا» . .

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحبباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن» .

عام رمادة ثانٍ، في تحديد الوقت . . وفي المدينة المنورة . . وفي حدود ما عرفت، فالأول كان في عهد . . أصلب الرجال وأقساهم في الجاهلية عمر بن الخطاب وأحن الرجال من الذين طهرهم الإسلام من جبروت السلطان وصهرهم الإيمان ليكونوا رحمةً لرعاياهم ليكونوا صناع المعروف، احتراماً للمسؤولية . . لا يريدون بذلك إلا أن يكونوا على

الطريق، ليمروا على الصراط لقاء ما أحسنوا من أعمال.. وأحبيت أن أسمى العام في وسط الخمسينات عام رمادة، وليس ذلك حصراً لأعوام الرمادة، فإنها كثيرة ولكن بيت الشعر وأهل النجوع كانوا القهر للقهر، فما أكثر العذاب صب على بيت الشعر بأمراض وجوع وتشتيت.

ولكن بيت الشعر بقي على الدهر الودود الولود، والمدد فهو بأنساله الفاتحين وهو بأنساله من موجات المهاجرين، قد ملأ الأرض العربية بالآباء والأمهات والبنين.

فاللغة الشاعرة نشرت فأصبحت لغة الملايين، كأنما هي قد أعطتها إسلامها أن تكون له راسخة القدم، وأن يكون بها راسخ الوجود، الإسلام قرآن.. والقرآن بلسان عربي مبين.

في عام الرمادة الثاني أدهرت قبائل العرب في شمال المدينة وشرقها فكلهم أصحاب رعي لديهم النعم والغنم يعيشون لها وبها، فالغيث حياتهم، أما من هم غرب المدينة فلا يضارون الضرر البالغ إذا أنحبس الغيث، لأنهم أهل أعمال.. جمالة حطابة فحامة أهل فلاحه، فرحقان «الفقرة» لا تجوع لأن الجبل غني بشجره ونخله ونحله.. كما وادي الصفراء كان غنياً بعيونه وأعيانه.

وامتلأت المدينة بالنازحين إليها من ولد محمد ومن بني رشيد ومن مطير ومن إليهم.. وصلوا إليها كما وصل أجدادهم يوم عام الرمادة الأول.. وانتشر الجدري فانقطعت اليد العاطفة من الحاضرة نحو البادية، لكنه الملك عبد العزيز كان عمرياً حين أسس مبرة، في البستان الدامر الداودية خارج الباب الشامي وبجانب العطن مأوى الكثير من البادية، كانت المبرة براً، وكانت العهدة لإدارتها في يد مدير مالية المدينة حينذاك الصديق

ابن المدينة كما هو ابن عنيزة ناصر العبد الله العقيل، أغاثت المبرة الجيع لأن التكية المصرية لا يجد بدوي الطريق إليها فأرغفة العيش مقررات لأناس من الحاضرة، وشربة الرز توزع على بعض فقراء الحاضرة.

دخلت في ضحى يوم على مكتب أستاذنا مدير المدرسة الأميرية زائراً لأنني لم أكن فيها بل كنت في دار الأيتام فإذا هو لا يجلس على مكتبه بل كان جالساً يطل على النافذة على الشرشورة بجانب بيت القيم عليها الشيخ حمزة رجب والد تلميذنا وأستاذنا ضياء الدين رجب، سلمت على الأستاذ رأيت الدموع في عينه، قلت «إيش بك؟ لماذا تبكي» قال قربت الساعة لقد رأيت جنازة يحملها ثلاث من النسوة ورجل واحد، لم يجد الميت من يحمل نعشه من الرجال فجادت النساء يحملن النعش، قبل دقائق مرت إلى البقيع، إنها جنازة بدوي والنسوة بدويات والرجل أيضاً بدوي، قلت ولماذا لم تصنع شيئاً، عطل الدروس كلف الأساتذة أن ينزلوا ليحملوا نعش ميت عربي مسلم، بل ابن هذه الأرض، قال ليتني فعلت، ثم إني رأيت جنازة بدوي يحمل نعشها رجال ثلاثة، وكان لدار الأيتام دور فكم من يتيم وجدته أنا والأستاذ حسن إسماعيل تحت جدار لا أم ولا أب ولا أحد حملناه إلى دار الأيتام.. ممزق الثوب جلده عليه أوضار من الوسخ، كان مجدوراً شفي أخذناه وإلى الحمام حسن يصب الماء وأنا أغسل الطفل، كان من ولد محمد حسين عرفناه، طلب الأكل كان جائعاً، وكان الأكل فته عدس قدمنا له صحناً وقفت عليه أنا والأستاذ حسن وهو يأكل حتى إذا أكل لقيمات رفعنا الصحن عنه خفنا عليه من التخمة لأن معدته خاوية، كاد يبكي حين رفعنا الصحن، قلنا له بعد ساعة نعطيك إياه لتأكل.

وهكذا عشنا عام الرمادة الثاني، وليت الألسنة تركتنا نعمل بل كان

بعض الظالمين لأنفسهم حرباً على دار الأيتام وأنزل الله الغيث ورجع المعافون إلى مضاربهم وبقي اليتيم في رعاية دار الأيتام. وما أشد سعادتنا أن رأينا رجالاً منهم في مكان مشرف لهم ولنا ولوطنهم.. منهم من أصبح مدير لاسلكي.. منهم من أصبح موظفاً في إدارة الزراعة.

ودعوني أرفه قليلاً عنكم ببعض الطرف.. جادت بها قريحة الأيتام من هؤلاء البدو، لقد كان الزائرون للأيتام من علية القادمين إلى المدينة فقد زارت الدار سيدتان كل منهما من أسرة كريمة وفي مكانة مرموقة، أقبلت الأولى لا تستر وجهها سرت خلفها حتى إذا وصلت إلى الفصل سرت أمامها فلا أعرف كيف أصف سعادة الأيتام برؤية الأم الحنون، سألت عن بعض ما يعرف الأطفال.. تسابقوا للإجابة.. أدارت وجهها لكي لا أرى دمعة في عينيها وكانت راحمة ما لي لا أذكر اسمها من حقها أن يعرف أهلنا تلك السيدة إنها السيدة مظفرة خالة أبناء فيصل بن عبد العزيز والثانية كانت مثلها حذت حذوها.. رأيت الدمع في عينيها مالي لا أذكر اسمها إنها - ولعلّي لم أنس اسمها - السيدة فاطمة بنت عبد الله علي رضا زينل أخت محمد وعلي عبد الله علي رضا زينل، كانت زيارة السيدتين وتبرعهما أمراً جديداً اعتزت به دار الأيتام. وبينما كنت في المكتب ولم يكن عليّ درس دخل علينا رجل من مصر قال أنا صلاح الشواربي أحببت أن أزور أبناء عمي البدو، رحبت به ولم ألتفت إلى هذه العمومة.. مسلم وعربي ابن عم لكل مسلم وعربي وأستاذته أعد الفصول لزيارته فقد عرفت منه أنه من بيت الشواربي شيوخ القليوبية في شمال مصر وعضو في مجلس الشيوخ، دخلت الفصل الأول أخبر الأيتام باسم الزائر، فإذا رئيس الفصل محمد أحمد الأحمدي يقول ولد عمي الشواربي منا يا أستاذ، وجاء الضيف فأخبرته

بمعرفة الطفل له فانشرح صدره، فقال: لعلي أستأذن الأمير أزور الفقرة. وأردت التثبت تناولت الجبرتي تاريخ مصر فإذا الشواربي في الفصول الأولى ذكره الجبرتي باسم أبو الشوارب شيخ قليوب، وفي الفصول التالية يطلق عليه الشواربي، ولعله سكن مصر في عهد محمد علي.

وزار المدينة الشيخ عباس قطان وأقبل يزور دار الأيتام وكان معه أحد أعيان المدينة الذين شعبنا من تعيرهم فهو أحد القائلين. إيش دار الأيتام ما فيها إلا بدو، وكنا نجيب، احمدوا الله ألا يكون من بينكم أيتام، ودخلت مع الشيخ عباس ورفيقه إلى أحد الفصول لم أكن قد بيت في نفسي غرضاً أكيد به بل كان سؤالي عفويًا، أنهضت عبد الله سهلي الرحلي قلت: سمعنا ما تحفظ عن نسب خاتم الرسل سيدنا محمد لأنني أعرف عباس قطان وكل المكيين كيف يحترمون وجودهم في المدينة، وأجاب الطفل يحفظ نسب رسول الله، وهنا احترفت الغرض قلت له: من عدنان؟ قال هو جد رسول الله هو جدي فمسح رأسه عباس قطان فقلت عدنان جدك يا ولد. يعني أنت ابن هذه الأرض. قال الحمد لله، ورأيت الهزيمة في نفس المنكر، لم أضحك ويعلم الله أني أستحييت من نفسي كيف أفعل مع الرجل العين طرفة العين.

وأقامت بعثة الجامعة برئاسة الدكتور أحمد أمين حفل عشاء في مسكنهم بالمدرسة الأميرية، كان الأيتام ١٣٦ يتيمًا. الدكتور عبد الوهاب عزام يباشر تقديم الطعام للأيتام الدكتور عبد الحميد العبادي يفعل ذلك الدكتور عبد السلام العبادي مثلهما، وأعظم من ذلك ما فعلته بنتان من بعثة الجامعة هما كريمتا أمين لطفي لبسنا السواد على طريقة المصريين حزنًا على أبيهما لأنه مات بالاكئاب حين لم ينصفه بل سلط القهر عليه أحمد نجيب

الهلالى الذى حاربته من أجل ذلك صديق أمين لطفى محمود فهمى النقراشى، كانت هاتان الكرىمتان تقدمان الأكل للأىتام، أما أحمد أمين فقد وقف لأقف معه قلت له وأنا أرى الأىتام كىف حال الأستاذ الزىات بعد وفاة ابنه رجاء فقال أحمد أمين: لقد أصبح الزىات يتىماً بدون ابنه ودمعت عىنه فتعلمت لحظته. لأحفظ الآيات من القرآن الكرىم تلاه وهو ينظر للأىتام ﴿وَلْيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (النساء: ٩) حفظت وامثلت، لا أجفو ابناً أساء إلى أبوه فكل الأبناء من آباء أساءوا إلى أصبحوا الأحباب والأصدقاء.

أكرمنى الله بالقرآن الكرىم وكان ذلك مما تعلمته من الدكتور أحمد

أمين.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٢٧)

### وألقيت أنا . . «كلمة الشعب»

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أفحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

### الإساءة إحسان . . عانقه الحال . . وسار بها المآل

وما كنت أحب أن أكتب الأنا، ولكن الذكريات وقد اقتربت من النهاية فمن الإحسان بها ينبغي أن يكون إحساناً عليها أو فيها. كنت شاباً أحمل لقب الأستاذ تجاوزاً عن معنى اللقب الأكاديمي فما كنت إلا معلم صبيان،

فالتلامذة أطلقوا عليّ هذا اللقب، أما أشياخنا فهم يتحبيون إليّ ينادون: تعال يا واد، فما زلت الصغير بينهم وإن كنت الكبير معهم، والكبير في زمالة المعلم مع المعلم، كتب عليّ أن أكون مؤدياً أحسن الداء حين كنت قارئاً في درس المسجد يؤدبني أستاذي السيد محمد صقر إذا ما لحت صرماً أو نحواً فاستقام الأداء جهيراً ولا بأس بالصوت فهو غير حسير وغير محصور، كأنما المران على الإلقاء خطيباً في الحفلات المدرسية أو في تكريم رجال زاروا المدينة المنورة، وألقيت الكلمة أرتجلها أمام بعثة الجامعة والأزهر، وألقيت الكلمة في تكريم الدكتور محمد حسين هيكل في حفل أقمناه في بستان العمرانية، كما ألقيت خطاباً في حفل تكريم طلعت باشا حرب، أقمناه في العمرانية أيضاً، وكذلك في تكريم الدكتور محمد خاشقجي، مرة حين احتفلنا به وأخرى حين احتفلنا به بقية الناس السيد عبيد مدني، فما زلت فرحاً باختياره لي، ففي ليلة الحفل كان سفره إلى مكة عضواً في وفد المدينة في استقبال جلالة الملك عبد العزيز يصل إلى مكة من الرياض كما جرت العادة، كلفني السيد أن أنوب عنه في إلقاء كلمة تكريماً للدكتور وفي إدارة الحفل، فالسيد عبيد يرحمه الله كان محوطاً بصحاب بيني وبينهم جفوة اصطنعوها، أما هو فكان أكبر من أن ينقاد إلى ما هم عليه.

فالخطابة وضعتني في موضع التقدير من رجال شيباً وشباناً، أعجبهم أخوهم.. أعجبهم شاب منهم، فلئن كنت عند بعض الكهول المجاور فإني عند كل النابهين والكثرة من المدنيين ابن المدينة حال انتهى إلى زوال عشناه كربنا به أول الأمر، وإذا هو اليوم ما كان إلا المعز، لأن الاغتراب عن المدينة متعني بحب الذين مارسوا الجفاء ليكونوا بعد أهل الصفاء، ومن الجفاء تريد يبخل عليك بأن يرتفع لك شأن، وشيخ عجز أن يكون وحن

ألا يكون له ابن (كماك) يعني مثلك، والقصة هي، فقد قدم إلى المدينة رئيس بلدية العاصمة المقدسة مكة المكرمة الشيخ عباس قطان، ونزل في بيت السيد أحمد أسعد المستعرض جنوباً إلى العينية وشمالاً إلى سقيفة الأمير مدخل الساحة من المناخة، كما زقاق الطول، ولم أكن أدري عنه وتأخرت في البيت عن الخروج بعد المغرب فإذا الأصدقاء وهم أهل صدق لا أهل تسليية.. عبد العزيز بري وحلمي دقاق يصلاني إلى البيت في النورية على العدو اليمنى من سيل (أبو جيدة) سيل بطحان وعلى مدخل البرايخ، نادوا عليّ (تعال قوام عباس قطان يبغاك) ونزلت أتقمش ألبس مشلح أبو شهر قيمته ستة جنيهاً ذهباً، وذهبت بعد العشاء إلى الشيخ عباس قطان، قال: طالب توفيق وحسن موسى وعبد العزيز بري قالوا لي أحسن من يلقي خطاب الملك عبد العزيز (الزيدان) وأرسلت البرنامج إلى مطبعة عثمان حافظ، ولا أدري من أخبر بعض أعيان المدينة الكبار بما جاء في البرنامج، وصلوا إليه اعتراضوا عليك، وطلبوا أن يلقي خطاب الملك الشيخ حسين جباد، وافقتهم، لكن أشار عبد العزيز بري وهو من أعيان المدينة العريقين فيها وطالب توفيق وحسن موسى أن يلقي الخطاب عميد المعارف السيد أحمد صقر فهو موظف كبير وأستاذ الإلقاء والأداء في المدارس، أما الزيدان فلازم يلقي كلمة شاكرًا الملك عبد العزيز باسم أهل المدينة، هيه قوم واكتب الخطاب، قلت: صباحاً آتيك بالخطاب، فقال الشيخ عباس: اصبر يا أخ طيب أنت ما قرئت الخطاب هو لا يفتح إلا في الحفلة، قلت ما عليك سأكتب الخطاب وأرجو أن يعجبك، وكان اختيار السيد أحمد صقر زاد الطين بلة واختياري أتكلم باسم الشعب زاد الطين بلة أكثر، وذهبت إلى الدورية في بيت السيد مصطفى عطار على مدخل الحمام من أملاك الترجمان يرحم الله الجميع.

وفي الصباح اشترت نصف شريكة (سحيرة) بهللتين وبهللتين طعمية (مقلية)، وأفطرت في دار الأيتام وشربت الشاي وكتبت الخطاب وذهبت للشيخ عباس قطان، قرأت الخطاب ولعلّه قد نشر في جريدة المدينة، قرأته عليه فأعجبه، قال: طيب إنت ما شفت الكتاب كيف كتبت هذا فقلت له: - الملك عبد العزيز - تخمده الله برحمته - ألقى الكلمة في جدة والكلمة في عشيرة أمام المودعين ونشرت الكلمتان في جريدة أم القرى فتأكد لدي أن خطاب جلالتة هو مثل كلمته في جدة وكلمته في عشيرة، فقال الشيخ عباس.. براوه.. براوه.. ليش اعترضوا عليك؟ قلت له: لأنني مجاور ماني أهالي، كما السيد حسين صقر كما حسين جباد، لكنه حال أرجو أن يزول، وطويت الخطاب أضعه في جيبي فإذا الذين اعترضوا على قراءة خطاب الملك يصلون سلمت عليهم فردوا السلام لأنهم من الأختيار يردون التحية بأحسن منها.

وعلمت بعد أنهم قالوا: ما رضينا يقرى خطاب الملك فاخترته يقرأ خطاب الشعب، فقال الشيخ عباس أنا الآن أمثل إمارة المدينة، أستقبل وكيل أميرها الجديد الأمير عبد الله السعد السديري، وقد تسلمت هذه العهدة من وكيل الإمارة السابق الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم، فلا تعارضوا ما أمرت به، وأعد الحفل في محطة السكة الحديد لسمع أهل المدينة خطاب الملك وخطاب الشعب وانهالت عليّ أوراق فيها سباب وتهديد من شباب أكلت معهم (عيش وملح) ولكني لم أسأل وتم الحفل، قارئ القرآن صادق مرشد، مجاور، الذي ألقى خطاب الملك الأستاذ السيد أحمد صقر.. مجاور وكتبتها كذكريات تقرأونها الآن مجاور.

وسلطوا عليّ أغيلمة صغاراً، كلما مشيت في طريق يرفعون أصواتهم

كانهم لا يعنونني يقولون (إذا غاب حمارك اركب صعيدي) (الله يا دنيا رديتي الصعيدي بعد الكباية لبس العباية) وأضحك فالكلاب تنبح والقافلة تسير، وكان زعيم هؤلاء الأطفال تلميذي في المدرسة اسمه أحمد بخاري قست عليه الدنيا بعد رخائها فإذا هو شرس لو جلد مائة جلدة لما سالت منه دمعة، عطفت عليه ترصدته في فسحة الغداء، ناديته يا أحمد ليش ما تغديت، قال: ما عندي شيء، أخذته من يده استعصى قليلاً لكن ضربة القسوة أشد عليه من ضربة العصا فدمعت عيناه.. . سار معي قلت للحاج سعيد القهوجي في قاعة الطعام.. . (يا سعيد كل يوم يتغدى أحمد براد شاهي وشريكة وجبنة على حسابي) ورضي أحمد، وانتهى السباب فقد أصبح أحمد زعيم عصابة تدافع عني.

والسؤال لماذا أحمد بخاري هكذا فقيراً شرساً يضيق بالحياة، إنه من أهل مكة كان أبوه ملك ثلاثة أرباع مليون جنيه مسكوفي - نسبة إلى موسكو - فأمسى وأصبح وإذا مبلغ سبعمائة وخمسين ألف جنيه لا تساوي ريالاً واحداً، لأن القيصر قد سقط، فالأب مات قهراً بأزمة قلبية وبقي الطفل والأم حتى الماء كان أحمد يأخذ السطل ينزل إلى أسفل المصافي يأتي بالماء لأمه. وكبر أحمد وإذا هو صديق ساعدته فتعين مدير مال في وزارة المالية ثم اختلف مع إبراهيم إسلام وعينه إبراهيم شاكر يرحمه الله موظفاً في الشركة وذهبت الأيام وذهب أحمد بخاري ولا أدري عنه.. . قلت له إبراهيم إسلام له فضل عليك هو عينك موظفاً، فقال كلمة: لا أرضاها من أجل هذا الفضل أنا أشتمه له هو اليد العليا وأنا اليد السفلى أشعر بالإهانة إن شكرته وأشعر بالعزة إن كفرته.

بقي أن نسأل من علم الأعيان ببرنامج الحفل الذي كان أمانة في

المطبعة كان المتهم قد عرفته ولكنني نسيت الإساءة التي فضت بهذا الإحسان الذي ورد فما من إساءة وجهت إليّ إلا وجلبت إليّ إحساناً لهذا أشكر الذين أساءوا لأنهم أحسنوا وأشكر الذين أحسنوا لأنهم لم يسيئوا.

ولا أنسى شيخين كل منهما ناداني بعد إلقاء الخطاب حين أعجبتهما كلمتي وأنا أصعد المنبر.

(أيها الناس سمعتم كلمة الملك فاسمعوا كلمة الشعب ولا يتحرك منكم أحد) ولم يتحرك منهم أحد، الشيخان هم أبو بكر داغستاني القاضي العالم ابن البيت المعرق والشيخ أبو الحسن سمان من أهل العراق أيضاً. أبو بكر داغستاني أمسكني من أذني يقول: أحسنت يا واد والشيخ السمان: براوه عليك يواد، وفرحت لكلمة يا واد لقباً أعتز به إذا انطلق به لسان أمثال هؤلاء والمعايرة للصعيدي هي كالمعايرة للكردي في العراق وكما يسمى الحمار في عمان يسمونه المصري وأشكال من هذه المعايرة انتهت الآن حين قتل الخصام ومات الفصام.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٢٨)

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن» .

أربعة «امتياز» في أسبوع واحد

المدرسة . . المعلمون بلا رواتب . . النجاح . .

وهذا العنوان الذي وضعته، يعني ما أكتبه ولا أعني بالترتيب، وإنما هو ما أشرحه بعد. مدرسة واحدة ذات قسمين، الراقية والتحضيرية وبينهما فصل اسمه التأهيل، يعني المؤهل يصل به الطالب إلى الراقية، فالتحضيرية ثلاث سنوات، والراقية أربع سنوات، والمنهج يعني اسم الدرس لا تعين

المادة، فالحساب من معرفة الأرقام إلى الأصول حتى النسبة والتناسب والربح البسيط والربح المركب، ودرس ليلي يتبرع به مدير المدرسة، الرياضي البارع والتقي الورع السيد حسين طه، نكمل الحساب رياضة عليه الجبر وما إليه اللوغاريتمات وما إليها والنحو كذلك والجغرافيا والتاريخ أيضاً، والمنهج ليس مكتوباً ملزماً للمعلم وإنما هو التزام المعلم به وبما يفيد.

المدرسة أسسها السلطان عبد الحميد فأخرجت أجيالاً وتخرجت أجيال على أيديهم، وكما قلنا من قبل فالمدارس التي أسسها الاتحاديون رديفاً لإعدادية السلطان وترادفها الكتاتيب، قد محت الأمية، من أجيال قبلنا وأجيال بعدنا، فإذا أبناء المدينة هم الركيزة لما تتطلبه الوظائف.

والمعلمون هم عبد القادر الشلبي العميد، كان في المدينة يكتب في جريدة الحجاز حرباً على ثورة العرب ولكن المنتصرين لم يعاقبوه. بل عينوه عميداً للمعارف، ولعلّ كامل الخوجة، وكان صاحب جاه.. تاجر كبير، أصله شامي من دمشق ابن عم صادق الخوجة وعادل الخوجة صاحب الشركة الخماسية، فقد كان بيت الخوجة في المدينة وجدة والشام وبيروت ودمشق من أكبر التجار حتى قالوا أيام الحرب العالمية الأولى «اللبنانيون يأكلون الكرسيّة ولا يجدون الذرة والشعير وخيل صادق الخوجة علفها شعير» لعلّ كامل الخوجة كان الوسيط أو الشفيح ليكون عبد القادر شلبي سالماً من العقاب كما سلم الألفا هاشم والشيخ العمري أو لعلّ احترام العلماء جنبهم الشقاء، ومدير المدرسة الراقية والتحضيرية هو السيد حسين طه يعاونه ابن عمه السيد أحمد صقر أما بقية المعلمين فالسيد محمد صقر والسيد ماجد عشقي والعريف محمد بن سالم والأستاذ سعيد المدرس

والشيخ محمد الكتامي والمراقب أبو بكر جاد، لنا صلة الكتامي (لنا صلة رحم به) ثم هاشم كماخي.

هؤلاء المعلمون كانوا الآباء والتلامذة كانوا الأبناء، مضت عليهم اشهر بلغت ثمانية وعشرين شهراً لا يقبضون رواتب ولكنهم لم ينقطعوا عن تعليمنا، مع أن الشريف شحات، ابن المدينة وأميرها التقليدي والقائمقام فيها موظف أثبت عليه حين صرف خمسة عشر ألف جنيه ذهباً ليحقق رغبة الملك عبد العزيز في تطويل الحصار ليدخل ابنه الأمير الكريم محمد بن عبد العزيز يوم السبت التاسع عشر من جمادى الأولى سنة ١٣٤٤هـ في سلام لم تسفك دماء ولم يضم أحد، هذا الشريف شحات هو يملك المال لم يلتفت لحظة ليصرف راتب شهر قد يبلغ خمسين جنيهاً لمعلمي أبناء المدينة ومثله عبد الله عمير ولديه مال صرف أكثره في إعاشة الجيش، لم يفكر يصدر أمراً بصرف راتب المعلم أو يتبرع هو به، والمحاسبجي مدير المالية عراقي اسمه زكي بيك، أصبح ذا مكانة لأن كبار الضباط باشوات عراقيون يحمونه وكأنه الأب لهم، هذا المحاسبجي كان يستطيع وهو يصرف رواتب الموظفين لديه أو رواتب الضباط، أن يصرف للمعلمين بعض رواتبهم، ورئيس كتابه الذي أحترمه طالب توفيق كان يستطيع أن يكلم المحاسبجي ليصرف رواتب، ولكن كلهم انصرفوا عن الصرف، كأن الأمر لا يهمهم وصبر المعلمون ثمانية وعشرين شهراً لا يقبضون راتباً.

العميد له عون من كبار الخوجة ومن العامة الذين يعشقون حديثه عن الحب للرسول ﷺ. وحسين طه في غنى لأن أباه السيد طه ثري من كبار التجار، فلا حاجة يضام بها، والسيد أحمد صقر له مقررات في التكية المصرية، دقيق... وخبز... وغير ذلك، تقرر له ذلك حين ورثه من أبيه

السيد مصطفى صقر أحد كبار العلماء في الأزهر هاجر إلى المدينة فقد كان نديداً لسليم البشري وحسون النواوي ومن إليه، والسيد محمد صقر يعان من التكية المصرية وقد سخر الله له الفران محمد عباد يبعث الخبز أرغفة كافية من الحنطة الصافية حتى قالوا بيت السيد طه يخلطون الحنطة بالشعير والذرة ومحمد صقر يأكل الرغيف صافياً لا يخلط بشيء.

والعريف بن سالم له دخل من الكُتَّاب، وعنده دخيلة من بعض ما ترك أستاذه العلامة العزيز بن الوزير، لقد نسيت أهو تونسي أم جزائري أم مغربي، فالعريف بن سالم جزائري عقبي حتى مصطفى الصيرفي والد الشاعر حسن الصيرفي ابن عمه له عقبي يسكن في البيت الكبير في زقاق البدور خلف المدرسة بجانب بيت الرفاعي هو بيت العزيز بن الوزير أستاذ شيخنا السيد محمد صقر. ومن أساتذته البشير الإبراهيمي والطيب العقبي من الذين نهضوا بثورة الجزائر ثورة المليون شهيد، لم يصرفهم عن الجهاد مصال الحاج الذي يزعم أن الجزائر أرض كفر لا تجوز فيها الصلاة، كما هم لم يخضعوا لعبد الحي الكتاني الذي زعم أن ثوار الجزائر ما هم إلا المحاربون من أجل الأرض كما قرمان.

وسعيد مدرس لديه ما يكفي من احترام الناس له ومن بقية باقية، عطاء الرخاء يوم كان أحد الذين علموا عبد الحميد بدوي باش في دار المعلمين في الساحة كان اسمها «دار جونة» مالکها مظلوم باشا المصري الوكيل عليها تلميذها السيد أحمد صقر، ومن المفارقة أن يكون أحمد صقر تلميذ هذه المدرسة وابنه محمد تلميذاً فيها. والشيخ محمد الكتامي حافظ القرآن عالم القراءات يأتيه رزقه من حيث لا يدري إنما هو احترام القرآن من الذين يحترمون القرآن. أما السيد ماجد عشقي فأبوه شاعر المدينة ورئيس بلديتها وأحد أعيانها النديد لعبد الجليل براده وإبراهيم مسكوبي، هذا السيد ماجد

لم يقبض راتباً ثمانية وعشرين شهراً، رأيت ثوبه من الدود وعليه رقعة على المرفق، كان معلماً بحق ومربياً بحق كيف عاش؟ لقد عاش حين اقتنى الكتاب «تذكرة داوود الأنطاكي» تعلم تقطير الناتحة والحبة السوداء والورد وما إلى ذلك من الأعشاب والزهور وما إليها التي يقطرها يبيع ذلك للعطارين، ولم يكن قد تزوج زوجته الثانية أم بنيه الأفاضل الآن، لأنه مكث ثمانية عشر عاماً لا يريد الزواج حزناً على زوجته الحبيبة إليه عمه زين العابدين توفيق المعروف لديكم الآن المقيم في جدة وجدّه زين العابدين توفيق عمه زميلنا خون محمد أياسي توفيق، صهره ابننا الدكتور أمين كردي زوج الحفيدة الغالية أمها ابنتي الكبرى، ماتت هذه الزوجة نفساء من كرب الحريق الذي شب في القلعة، ماتت هذه الزوجة حرم السيد ماجد.

وحريق القلعة شب في ظهر قائظ، وقد كنت مع أبي نصطاف في التمار، مع حليفنا أحمد بن جميعان العمري المسروحي الحربي، وعجيب أن الحريق ما شب في البنادق ولا في طلقات الرصاص وإنما سعيه كان في حريق القنابل والديناميت وما أكثر ذلك في القلعة من مخلفات فخري باشا، ويقذف الحريق القنابل تمنعها الريح أن تشرق فلم تصل شظية إلى الحماطة أو الساحة حماية المسجد من الله، ولم تصل شظاياها إلى الجنوب فلا يمس سوق الحبابة ولا مسجد الغمامة، فقد اتجهت الشظايا إلى الجنوب الغربي فلا تصل إلا قبل حوش كرباش، سلم كتاب القبة وبيت جمل الليل والداغستاني والياس والكردي ومسجد الإمام علي لم تصل شظية إلى كل هذا، وإنما اتصل الحريق والتدمير ينال بيت السيد علوي السقاف وحوش سرقان وبيت ذياب ناصر حوش كرباش وحوش العبيد كان بيت المفتي الداغستاني البارز على حافة المناخة وأمام السبيل قد حجز

الشظايا، وما كاد يؤذن العصر حتى خمد الحريق ولكنه في اليوم التالي اشتعل الحريق على الصورة نفسها، فالسييل أمام القلعة فيه مقر الحاكم العسكري والشرطة لم تصله شظية .

ومن أشعل الحريق؟.. قالوا: إنه عدم الوقاية.. ولكن التهمة قد رزى بها الضباط عبد المحسن الطيب وأخوه عبد العزيز وهما تونسيان، يتحدث عبد المحسن حين نلقاه فاحراً بأنه كان ضابط بحرية كما يفخر بأن عبد العزيز الثعالبي من أحواله، وعبد العزيز الثعالبي هو زعيم تونس طريد الاستعمار إذا ذكره أستاذنا محمد عبد القادر الكيلاني قال «بيه.. بيه.. عزيز تونس» لجأ إلى مصر فاحتضنته مصر لأن مصر تحافظ على القيم ولا تسأل عمّن أهدر القيم، فقد كان الثعالبي في مصر ملء السمع والبصر، لأن عبد الرحمن عزام كان المحتضن والنصر لكل عربي مغربي.. فهل يكتب التاريخ للذين نسيهم المؤرخون؟

وسجن عبد المحسن الطيب هو وأخوه ولم يثبت عليهما شيء.. إن القلعة كانت مصدر التموين للسلاح فالحاكم يوزع البنادق والطلقات حيث لم يكن الذهب فاشترت القبائل هذا السلاح وأكثر الذين اشتروه قبائل نجد، كأنما هو عدة ينتصر بها جيش عبد العزيز بن عبد الرحمن .

كما أن بعض الضباط الحراس يقتاتون من بيع البنادق والطلقات .

## التلميذ والنجاح

ودخلت المدرسة أفرح بها، لأنها أخرجتني من الكتاب وفي أول يوم دخل الفصل أستاذنا مدير المدرسة السيد حسين طه، سألني ما اسمك؟ قلت محمد حسين زيدان قال أنت ولد العم حسين قلت نعم، من ساعتها تعهدني يرعاني كأنما رعاية صهره وابن عمه السيد محمد صقر قد وصلت

إليه فقد سبق السيد محمد صقر بالرعاية والحفاظ قبل السيد حسين، أهى رعاية النجابة لي أم رعاية القرية للعزوة فكلنا من صعيد مصر؟ فالسيد محمد صقر من أشرف قنا فرع المخادمة والسيد حسين طه من أشرف قنا فرع البطاطخة كلهم حسينيون جمازيون جدهم الأعلى الذي هاجر إلى مصر وأقطعهم السلطان مديرية قنا فهم الأكثرون فيها الآن لا تشاركهم إلا قبيلة الحميات وهم من جهينة كان أحد الجمازين الحسينيين أمراء المدينة في زمن طال، فهم وأشرف العوالي الشريف شحات ومن إليه أبناء عم . . كلهم من جماز وأما كاتب هذه السطور فمن قرية أهلها عرب صليبية كان اسمها القطيعة سماها الشيخ، محمد بخيت مفتي الديار المصرية الأحمدى نسبة إلى الأحمدة، لا نسبة للسيد أحمد البدوي، سماها المطيعة كانت قطيعة من الإقطاع فأصبحت المطيعة حين طوعها رفع الظلم عنها بعد الاحتلال الإنجليزي.

ولذلك قصة بعد . .

لقد كنت تلميذاً ناجحاً رغم حمى يثرب التي هي حمى «الغب» أو الملاريا كانت ترهقني أغيب عن مدرستي أياماً ولكني أي درس لم يفتني لأن أصدقائي المحمدين محمد سالم الحجيلي ومحمد إياس توفيق ومحمد نيازي أجد عندهم الدرس والمذاكرة فإذا أنا إلى نجاح. ولكن هذه الحمى أخرتني عن امتحان راسباً لا أرقى إلى الفصل الثاني من السنة الأولى غير أن أستاذ السيد محمد صقر أبى أن أكون راسباً فكلم المدير صهره السيد حسين طه أن أرقى إلى الفصل الثاني بصفة المستجد، فأدخلني الفصل كأنها المقابلة الشخصية فإذا أنا أرقى ولا أرسب، ومرت أيام غاب أستاذ الفصل وناب عنه أستاذنا أحمد صقر وقرأ تلميذ تعريف النهر . . «ماء عذب يجري

ليصب في بحر أو بحيرة أو يفيض في الرمال» وألقى الأستاذ السؤال على ابن عمنا حسن عبد الحافظ يرحمه الله: ما هو الماء العذب؟ فقال حسن: «هو الموية اللي تجري كده.. كده» وأمال يديه يعرف الاعوجاج، وسكت التلامذة وعددهم عشرون، أما أنا فرفعت يدي أقول العذب يعني الحلو، فأمسك الأستاذ الدفتر المعد للجائزة تليطيفاً تحسناً امتيازاً، فكتب أمام اسمي امتياز أعلى جائزة. وفي اليوم الثاني جاء أستاذ السيد محمد صقر وسأل التلامذة وقد انضم إلى فصلنا السيد أحمد العربي والسيد عثمان حافظ وهما في أعلى درجات وأكبر سنأ مني، سأل الأستاذ عن الكرسي أهو عربي أم أعجمي؟ فأجابوا إنه أعجمي، ورفعت إصبعي أعترض أقول إنه عربي قرآني ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (البقرة: ٢٥٥) وكتب الأستاذ الامتياز، وفي يوم آخر من الأسبوع نفسه وفي درس السيد أحمد صقر قرأ من وفاء الوفاء للسهمودي وإذا فيه «لقد كسفت الشمس في يوم السادس عشر من الشهر». فاعترضت أقول للأستاذ هذا غلط خطأ فقال دون تدبر منه وهو العالم: السهمودي يغلط؟ قلت الناسخ أو المطبعة هما المخططان الشمس لا تكسف بقدر الله إلا والقمر في المحاق في آخر الشهر وضحك الأستاذ وكتب الامتياز.. وفي يوم الأربعاء سأل الأستاذ محمد صقر عن الكلمة «تفاوت» أهي اسم أم فعل كلهم قالوا فعل غرتهم التاء من حروف «أنيت» فرفعت إصبعي أقول هي اسم والعلامة حرف الجر والتنوين «من تفاوت» وكتب الأستاذ الامتياز. ويوم الخميس اصطف التلامذة توزع عليهم الجوائز فإذا الزيدان أربعة امتيازات وصفقوا وخرجت شاكرأ أبتعد عن زفة الأصدقاء.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٢٩)

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أفحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن» .

وما كانت الذكريات تلزمني، بأن أكتبها مقيداً بالترتيب الزمني، بل يحسن أن تواكب الذكرى التذكير بها والإعلان لها، لأن مواكبة الخبر تدعو إلى الشرح توضيحاً وإجلالاً ليعرف القارئ المعنى لهذا اللقب «خادم الحرمين الشريفين» فهو لقب لبس الملك فهد به تواضع الكبرياء «ومن تواضع لله رفعه فخدمة الحرمين تعني الأمن بهما ولهما، ولم يكن ذلك إلا عن الإيمان، فقد جعل الله الإيمان به سبحانه وتعالى رباً خالقاً وإلهاً معبوداً لا شريك له هو الأول ثم عمارة المسجد وسقاية الحاج، فالمشركون كانوا

يفخرون بعمارة المسجد وسقاة الحاج، فبصرهم الله ليؤمنوا به، إن الإيمان هو الأول، لأن المسجد بيت الإيمان لا بيت الأوثان».

«خادم الحرمين الشريفين» لقب يزهو به التشريف بعظمة التكليف، فكأن هذا اللقب يحمل الإجلال للملك والتبجيل له، ولم يكن ذلك إلا من عمله، فعمل الرجال لصالح الأعمال هو الثناء عليهم، فمن عرف قيمة الأمن للمسجدين وسياجهما، لا بد من أن يعترف بكل التبجيل للملك فهد.

إن آل سعود من أول أمرهم.. كانوا دعاة لتوحيد الكلمة في ظل كلمة التوحيد، خاصموا عنها واختصموا من أجلها، فتبدلت أحوالهم حتى أتم الله النعمة على الإمام السلطان الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن، قال لي مرة الأمير فيصل بن سعد بن عبد الرحمن «اسمع واعرف أن كلمة التوحيد وعقيدة السلف لا نتركها نحن فما منا بقية إلا وهي التي تنصر كلمة التوحيد» كلهم كذلك وخادم الحرمين الشريفين ابن عبد العزيز ما هو إلا ذلك.

وتداول أقيال وعواهل وأمراء وباشوات وسلطين فإذا كلهم يرفعون رؤوسهم بلقب «حامي الحرمين» بعضهم لا ننكر عليهم الحماية وبعضهم لم يتمكن من حماية الحرمين حتى من سلوكهم.. وحين تمت الوحدة لهذا الكيان المملكة العربية السعودية، كان معنى الخدمة للحرمين الشريفين الحماية لهما والحماية بهما.

إن مكة.. بكة.. صلاح، بلد آمن.. هو أول بيت وضع للناس ببكة مباركاً.. آمن قوم بملة إبراهيم ورجع قوم منهم إلى عبادة الكواكب، التي حاربها أبو الأنبياء إبراهيم ومن بعده ابنه إسماعيل عليهما السلام.

ومن التذكير أن نذكر أن حماية الله لهذا البيت في العهد السحيق والعهد اللحيق.. قبل الإسلام وبعد الإسلام وبالإسلام.. تبجح الوثنيون فباءوا بالفشل.. وجاء «تبع» واحد من أكابر العواهل والأقيال والأزواء في اليمن، قحطانياً سولت له نفسه أن ينال من البيت فإذا الله رب البيت يحميه يرجع تُبَع إلى رشده يكسو الكعبة، فما استطاع أحد من البشر أن يرده ولكن رب البيت هو الذي نصر البيت.

وسار «نبوخذ» الكلداني العابري السامي، يصل إلى فلسطين يسبي اليهود ويمشي منحدرًا إلى وادي القرى لا يتخطى (تيماء) من حبسه في تيماء؟ لماذا لم يصل إلى مكة؟ بل لماذا لم يصل إلى يثرب؟ حبسه حابس الفيل، حتى أن قرأنا خبراً عن النبي (دانيال) من أنبياء بني إسرائيل نجا من السبي ووصل إلى مكة لأن الله أوحى إليه أن يحمل معداً بن عدنان رقى به أعلى جبل لثلا يصل إليه نبوخذ «بختنصر» لأن معداً جد رسول الله محمد بن عبد الله، فحمله دانيال خشي عليه، لكن الله هو الذي يحفظه حمى البيت ودانيال ومعداً وبنيه إلى أن أتم الله النعمة على العرب على بني الإنسان كلهم بهذا الإسلام دين الحق.

والعجيبه ألا يصل الكلداني البابلي إلى يثرب كأنه حماية المستقبل ليثرب، لتصبح مأزر الإيمان.. الدار والإيمان.. دار الهجرة يتم النعمة عليها بهجرة النبي إليها وهجرة أصحابه وإيمان أنصاره، فإذا هي مشرق النور.. اقتبسته من حراء والصفاء، ليكون إشعاعه مكياً مديناً.. المسجد النبوي كان مربداً، مستودع تمر فإذا هو وديعة المؤمنين.. المؤمنون فيه ثمراته «من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله كما يذيب الملح في الماء».

هذا من أراد السوء فكيف يكون الجزاء لمن صنع الإحسان؟ فالبشرى

للملك فهد صانع الإحسان أن يكون من المحسنين الذين عملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

ويعجز القلم عن معنى الخدمة للحرمين الشريفين ولكن عمل فهد بن عبد العزيز تمتع بالكمال فإذا هو قاهر التعجيز، فأسأل الله أن يديم علينا نعمة الأمن في ظل كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة.

### جريدة المدينة

«بسبب مقال كتبه كدت أنفى من المدينة»

ولم أكن أعلم عن طلب الأخوين علي حافظ وعثمان حافظ السماح لهما بإصدار جريدة المدينة مع أنني لا أكاد افترق عن السيد عثمان، وقد تم لهما قضاء الحاجة بالكتمان، وصدر الأمر الكريم من الإمام السلطان الملك عبد العزيز، وأعان السيدين أنهما يملكان المطبعة جلبها السيد عثمان، ويكاد يكذ ويجد ليتعلم عن المطبعة والطبع ما تيسر له من المعرفة وقد أعانهما في ذلك الشيخ محمود شويل الصديق الصدوق للسيد عثمان حافظ، أقرضهما بعض المال مما ملك أو هو كل ما ملك، وقدره تسعون جنيهاً ذهباً وضعها أمانة عند صديقه الأفندي محمد نصيف حتى إذا أراد العون للسيد عثمان سحب المبلغ من الأمين.

وتأسست المطبعة وتم لها أن تكون في العينية، وعدت من مكة بعد أداء حجتي الثانية، أيامها كنت معلم الصبيان في دار الأيتام، ووصلت عصر يوم إلى المدينة أدخل إلى بيتنا في النورية وكان ملكاً لنا، ولم أكد أخذ شيئاً من الراحة حتى طرق الباب هؤلاء الثلاثة بقية الناس السيد عبيد بدر والاثنان من الناس علي حافظ وأخوه عثمان، رحبت بهم وعجبت كيف عرفوا خبري، ولعلهم ترصدوا قدومي من باب العنبرية إما من أحمد جاد

أو حسن دقاق، كأنهم أرادوا ألا يفتلني أحد في ذروة أو غارب فأعتذر عن العمل معهم، وتكلموا ولعلّ السيد عبيد هو الذي بدأ، أخبرني عن أمر الإصدار وفي نصه الموافقة على أن يكون السيد أمين مدني والد السيد إياد وأخو السيد عبيد الذي كدّ وجدّ حتى امتد له أثر في التاريخ، على أن يكون رئيس التحرير، كأنما السيد عثمان قد تنازل عن ذلك ليكون محوطاً بتأييد السيد عبيد وأخيه وليتأتى التعصب لجريدة المدينة نصراً لها من أصدقاء السيد عبيد كما هو التعصب من جماعتنا التي هي لا تقل حماسة ولا قيمة عن جماعة السيد عبيد، فالسيد علي حافظ له صداقة السيد عبيد والسيد عثمان حافظ له صداقة مصطفى عطار وعبد العزيز بري وأسعد طربزوني وعبد القادر غوث وصلاح الدين عبد الجواد وكاتب هذه السطور. وفي الأمر أيضاً الموافقة على أن يكون الأستاذ عبد الحميد عنبر والأستاذ ضياء الدين رجب ومعلم الصبيان محمد زيدان هيئة التحرير، وطلبوا مني الموافقة فلم أرفض، لأن طموحي لا يرفضني وكنت إذا ما فرغت من المدرسة الملازم للسيد عثمان والملتزم بالعهد التي شرفت بها من خلال التكليف بأداء ما يجب له، وكنت الأكثر كتابة فيها، وجاءت القشة قصمت ظهر البعير، فقد نشر السيد عثمان خبراً يندد بتصرف الطبيب فؤاد محروس السوري الذي خلف عادل محيش الطبيب السوري حين انتقل إلى جدة، فالخبر فيه أن أستاذنا القاضي الكبير وابن البيت الكبير أبو بكر الداغستاني الخطيب المفوه، دخل المستشفى يراجع الدكتور وكان الدكتور يكشف على مريضة فتأخر الإذن للشيخ فجزع وأخبر السيد عثمان فنشر الخبر، فكتبت مقالاً تحت هذا العنوان «النظام عند الطبيب وأجر الطبيب فيهما حصانة وصيانة» وجاءت فقرة في المقال وكنت أعني فيها الدكتور سعيد مصطفى المصري أخا الضابط يوسف بيك مصطفى قائد الجيش المرابط والصديق

لعبد الرحمن باشا عزام، فقد كان الدكتور سعيد يعالج الفقراء ويحفل بالأغنياء، عمل لا غبار عليه لكن بعض الفقراء قد لا يجدونه إذا ما احتاجوا إليه لأنه في زيارة من يعنى بهم. هذه الفقرة قلت: إن الطبيب الذي لا يأخذ أجراً يأخذ ما هو أعلى منه وفي الهدايا، والمآدب أكبر دليل، وجاء السيد مصطفى عطار يقرأ المقال وهو معد للطبع بنصه وفصه فحذف هذه الفقرة وفي الهدايا والمآدب أكبر دليل وبقيت الكلمة (يأخذ ما هو أعلى منه) فثار أصدقاء الدكتور عادل محيش يحسبون أنني عنيته واتهموني بأني أنال من كرامة الأعراض إلى ما هو أفضع، وكتبوا لعادل محيش بجدة فأرسل لهم ستة آلاف ريال ولا أريد أن أسمى المتحمس لهذه الإثارة وكلفوا الرجل الطيب الأفندي محمد داغستاني محامياً يرفع ضدي شكوى يتهمني بأني أسب أهل المدينة، لأنفى منها كما جرى للشيخ محمود شويل في عهد وكيل أمير المدينة عبد العزيز بن إبراهيم يرحمه الله أما ما جرى علي ففي عهد وكيل إمارة المدينة الذي أشكر حمايته الأمير عبد الله السعد السديري خال أمير المدينة الآن، يرحم الله عبد الله السعد السديري، سمع الأمير ذلك وكان آخر طلبه أن أذهب أقبّل رأس الشيخ أبو الحسن سمان والسيد حمزة غوث ليكون العفو منهما عفواً من الجميع، وما استجبت على إجلالي للشيخ السمان واحترامي للسيد حمزة، لأن ذلك اعتراف لما شغبوا علي به، وكتبوا مضبطة هددوا برفعها إلى الملك عبد العزيز، ولم أرتجف، وخرجت بعد عصر إلى قهوة عبيد الله خارج باب العنبرية على السمط حزم حرة واقن ورجعت مسرعاً لأدرك صلاة المغرب ولأحضر الدرس فإذا الناس خارجون من صلاة المغرب ومن باب الرحمة يتقدمهم رجل صاحب هامة وقامة اسمه صالح الإبراهيم، أحد الرجال الأفاذا الذين إذا نهضوا لأمر أتموه، وما يوم حليمة بسر، هو من شيوخ عنيزة وأصبح من شيوخ

المدينة، وكان من ورائه ثلاثة اثنان منهم تناولوا العشاء عندي (لبنة وجبنة ورطب) وقد شاركوا في المضبطة حتى قال لهم الشيخ محمد الفاضل ابن ما يابا الجكني، أنتما تتآمران عليه وبالأمس تناولنا العشاء سوياً في بيته، لا أسميهما فعلى كل فهما أصدقاء، سلمت على صالح القاضي فقال (أهلاً زيدان باشا، قلت: ماني باشا، قال: هؤلاء من أهل المدينة كتبوا عنك مضبطة كما كانوا يكتبون عن الباشوات فأنت باشا الآن، ثم أردف هل يعفون عن كرامة الأعراس بقبلة رأس، والله إن ما مزقوها لأركب للرياض ليعرف عبد العزيز عبث المضابط) وجاءني أستاذنا السيد أحمد صقر يقول: يا لله يا واد أكتب اعتذار فالأمير عبد الله كلفني أن أخبرك بذلك، فكتبت اعتذاراً بأني لم أرد ذلك فالمدينة طاهرة وأهلها طاهرون، وانتهت الزوبعة ولم أجد من السيد علي أو السيد عثمان موقفاً يحمي محرراً في الجريدة ولو بإيضاح الموضوع وانقطعت عن الجريدة أو هي انقطعت عني ولكن ما زلنا أصدقاء حتى إن بعض من كتب المضبطة يزورني في مكة فاحراً بي يطريني في كلامه صديقاً حبيباً إلا واحداً ما زال الجحود الكنود واسألوا عنه نذير محروس رأى صورتي عنده فقال: ليش مبقى هذه عندك، فقال صديقي أستاذي فأنا أحتفظ به. وعلى كل فأهل السماح ماتوا ملاح والحمد لله لا تلبسني كراهية ولا حقد، وهم أهلي كل مؤهل لمن هو لهم وبهم.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٣٠)

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحبباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

رحلتي إلى الهند

جذور إسلامية أصيلة في الهند

أعرضت عن محمد أسد لهذه الأسباب

ولم تملكني شهوة السفر، ولم أكن قد فكرت في الرحلة إلى الهند، التي كانت آنذاك من مصادر العون لهذا البلد، فالهند المسلمة كانت عوناً مادياً للمدارس وعين زبيدة والعين الزرقاء كما كانت هي المستودع تصدر

أرزاقها رزقاً لهذا البلد، فالمسلم الهندي والمسلم الأندونيسي لا ننسى عطاءهما لهذا البلد في عهود مضت يوم قل عطاء العرب للعرب، بل يوم ضمن العرب لا يؤدون أوقاف هذا البلد لأهل هذا البلد، ولكنني عزمت على الرحلة أستجيب لإصرار الأستاذ محمود شويل، تأخذني الثقة به بل والاعتزاز لأن بيننا وبينه صلة رحم زادت قوتها بصلة العزوة فكلانا من صعيد مصر، أنا من المطيعة تابعة لمركز أبو تيج وطن آبائه قبل أن يهاجر أبوه إلى المدينة.

### رحلة بحرية شاقة

وركبنا السيارة ونحن ثلاثة، الشيخ أحمد الدهلوي مؤسس دار الحديث بالمدينة المنورة ومحمود شويل ومعلم الصبيان محمد حسين زيدان وتوسطت السيارة العقيق نظرت إلى الجماء إلى غير إلى بئر عروة فدمعت عين ذلك تأثير التربة الغزلة، وصلنا جدة ونزلنا ضيوفاً على البيت المضيف بيت الأفندي الشيخ محمد نصيف، فأكرمنا عشرة أيام ننتظر الباخرة علوى، وركبناها تسير بنا رخاء في البحر الأحمر حتى خليج عدن، وما كدنا نخرج من هذا الخليج الحبيب حتى وقعنا في دوار المحيط، فقد كان الزمن صيفاً في شهر أغسطس وهذا المحيط أمواجه كالجبال في الصيف تتأرجح بها الباخرة فإذا كل من ركبها يبلغون الألف قد ناموا وهم إيقاظ من دوار البحر، إلا الشيخ محمود شويل لا أدري كيف لم يصب بالدوار، كان يوم اثنين وهو صائم أشعل «الدافور» ونحن على السطح لا في الغرف، يسلق دجاجة يفطر عليها وضع القدر وكان الدوار لم يتأثر به «الدافور»!، وأقبل هندوكي من عمال الباخرة يكلم الشيخ يشير إلى السماء ليرى الشمس وقد كسفت في آخر الشهر جمادى الأولى أو هو جمادى الثانية سنة ١٣٥٢هـ.

ونظر الشيخ إلى السماء فانتصب واقفاً يصلي صلاة الكسوف بالبقرة وآل عمران، ولم يؤثر فيه الدوار يتمايل حيناً ورجلاه ثابتتان، ومن الغرابة أن هذا الهندوكي وقف معه كأنما هو يصلي، فالهندوكي يعبد الظواهر الطبيعية ليس أولها البقرة وليس آخرها القرد والنهر، فالحياة بكل ما فيها يؤلها الهناديك حتى إننا رأينا في لكنو آلاف القروء يعبثون داخل البيوت حتى إن الإنسان يخاف على طفله لا تخطفه قرده وحتى إن شيخنا تقي الدين الهلالي وقد مر في الشارع «حضرة قنج» فرأى أوراقه تتطاير في الهواء بعثرها قرد داخل البيت، فهذه القروء تشارك الإنسان في طعامه وتعبث في أيامه.

### الفرار من المجذوم متى؟

ووصلنا إلى كراتشي ومنها إلى قصور في السند نزلنا ضيوفاً على أحد كبراء الهند المسلمة عبد القادر القصور، ومنها إلى مولتان بنيت في دهناء مجدبة، وفي الفجر نزل من السطح ننام فيه كأننا نتذكر النوم على السطح في المدينة المنورة وكان أقرب مسجد لنا نمر به ولا ندخله لأن من بناه حنفي بريلي وحوله أهل الحديث لا يصلون فيه، فالمؤذن والإمام والمأموم شخص واحد، ذلك نكبة الخلاف المذهبي نجتازه نصلي في مسجد أهل الحديث، فلو صلينا في ذلك المسجد لطرنا من مولتان.

وإلى مدينة صغيرة لعل اسمها «لكوكي» نزل ضيفاً على العالم السلفي من أهل الحديث اسمه محمد علي عرفناه في المدينة المنورة وقد تزوج من أهلها الكبار ورجع إلى قريته، وجرى حديث عن العدوى «لا عدوى ولا طيرة ولا صفر» «فر من المجذوم فرارك من الأسد» فقال الشيخ محمود شويل: لا عدوى فلن أفر من المجذوم، التبعة عليه في هذه الرواية،

فقلت: فر من المجذوم أمر هو المطاع أما الأكل مع المجذوم فعمل وأمر النبي مقدم على العلم فالاتباع لأمره والقدوة لمن أراد بعمله إلا الأكل مع المجذوم فقال الشيخ محمود غاضباً «إيش عرفك» وتكلم الشيخ غاضباً «إيش عرفك» وتكلم الشيخ الوقور يقول لمحمود شويل: إنه في هذه أعرف منك، ففي الأصول أمر النبي أولى بالاتباع من عمله، فعمله خاص وأمره عام، وهدأ الشيخ محمود يقول: لا لوم علي ولا عليك، لهذا حرصت على رفقتك.

### أنا . . ومحمد أسد الله

ومن هذه القرية وإلى لاهور العاصمة التي كانت، والتي عصمها إسلامها، ونزلنا في بيت المسلم ضيوفاً على المسجد، حينذاك ملكت حريتي في بيت العبودية لله، وفي ضحى نهار أقبل رجل أعرفه وانصرفت عن تعارفه كان هو محمد أسد الله المستعرب النمساوي، الذي أسلم احتفى به الشيخ محمود شويل وكان في يدي كتاب شغلت نفسي بالقراءة لئلا أشغلها أحتفل بها، فقد انصرفت عنه وكأني لست مع الاثنين، ولذلك سبب، يومها لم أخرج من المدينة وكنت جالساً بعد عصر في دكان الخياط عبد الكريم الجاوي وأقبل أسد الله فاحتفيت به وبقي واقفاً يتكلم ليقول: كيف رضي رشيد رضا والبقية من السلفيين أن يصلوا وراء الشيعي محمد حسين كاشف الغطا، قلت: كما صلى الأباضي إبراهيم اطيفش وسليمان باشا الباروني، كما صلى الحشوي وما أكثرهم كلهم كانوا المسلمين أسقطوا الخلاف فالتفوا وراء أمام واحد فقد أحبوا أن يكونوا لوحدة الإسلام وحدة المسلمين، نذيراً إلى قومك الأوروبيين الذين ما صنعوا وعد بلفور وما مزقوا تركة العثمانيين بمعاهدة سايكس بيكو وما أكثر ما ظلموا، هذا النذير

من أول كلمة قالها كاشف الغطاء في ليلة المعراج في المسجد الأقصى قال الكلمة التي عشقتها وما زلت أرددتها يسمعونها المؤتمرون من مذاهب شتى، قال «إن كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة هما دعامتا الإسلام» صلى بهم، فهذا الإمام الشيعي قارب حين كان الحوار يجري بينه وبين الشيخ أحمد شاكر، ابن الشيخ محمد شاكر أخي الشيخ محمود شاكر، كان حوار التقارب والتقريب، وليس فيه حرارة الابتعاد أو شعوية الاعتقاد، قلت له أعني أسد الله. إنهم في المؤتمر الإسلامي يحاربون عن الكلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» قد أسقطوا الخلاف عما يعتقدون في الرجال، فلم يكن في المؤتمر، الذي رأسه أمين الحسيني، حينذاك شيعي أباضي سلفي حشوي، كلهم «لا إله إلا الله محمد رسول الله». فانفتل كاسفأً، وأخذت على نفسي ألا أكون معه، وهنا أترحم بكل التقدير على الشيخ المفتي محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف جده إمام السلفيين شيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب لأنه قد أبعد بعد أن عرف ما يستأهل الإبعاد.

### الحلوى حلوى حتى في الهند

في لاهور، انشرح صدري بعد غم من الغربية، ومن لاهور إلى دلهي نزلنا عند مضيفنا السلفي من أهل الحديث الشيخ محمد صاحب المجلة «أخبار محمد» ودعى الشيخ محمود شويل ليصلي الجمعة بأهل الحديث، فأكبروه، وفي دلهي ضاق صدري من الفرقة التي رأيتها بين مسجد ومسجد والتي أسمعها.. أهل حديث.. حنفي دوبندي.. حنفي بريلي.. شيعي.. قادياني.. هندوكي.. مسلم.. مهراجا.. نواب، حاكم الإقليم الهندوكي مهراجا وحاكم الإقليم المسلم نواب.

ومن دلهي إلى سهرنبور، وفي المحطة حيث نركب القطار وقف الشيخ

محمود يشتري الحلوى، فالشيخ كان يحب الحلوى، فبعد عودتنا جرى بينه وبين الشيخ صالح بن الفضيل التونسي حوار مكتوب عن الحلوى، تؤكل قبل الغداء أم بعد الغداء، حتى أصبحت الحلوى مادة من مواد الفقه!

### قصة محمود شويل مع الشيخ:

وتقدمت أركب العربة وقد وقف على الباب أحد الشيخ، طردني عن العربة فأوجعني ورأى ذلك الشيخ محمود وكان رجلاً طويلاً يحمل غدارة في عكاز فسلمها تلمع في يده وصرخ «باتان» يعني أنا خرساني أفغاني فإذا كل من في العربة من الشيخ الذين احتكروها ينسلون منها واحداً بعد واحد خوفاً من هذا الباتان، وأصبحت العربة فارغة ليس فيها إلا محمود شويل ورفيقه.

والي لكنو الإسلام فيها قوي على الأخص في لكنو القديمة ونزلنا ضيفين على شيخنا تقي الدين الهلالي المغربي لأنه كان صهراً لمحمود شويل فزوجه خالها محمود شويل، أما أبوها فإسماعيل الخطيب أحمددي من عزوتنا سالف أهل المطيعة، وكان تقي الدين أستاذنا معلماً في ندوة العلماء.

### من لكنو إلى كلكتا

ولعلّ له مشيخة على الشيخ أبي الحسن الندوي، ولم تمض أيام ثلاثة، حتى أعدت ندوة العلماء حفلاً تستقبل فيه رئيس المؤتمر الإسلامي الرئيس أمين الحسيني ووكيله محمد علي باشا علوبة، من أعيان الأحرار الدستوريين بل ومن أعيان أسيوط، كان يمثل مصر لا يسأل عن موقف القصر كما عبد الرحمن باشا عزام، فقد كان القصر ضد المؤتمر وكان رئيس الوزراء حينذاك أحد عظماء مصر إسماعيل باشا صدقي، وتكلم الحسيني وتكلم علوبة وأقبلت أسلم عليهما.

ومن لکنو إلى کلکتا وفي کلکتا ذقت أطيب الآکال، وکنا نعرف السوق التجارية صبرنا على طعام واحد، شباتي ودال ثلاثة أشهر لا أکل إلا سد الرmq، لقد تمنى بنو إسرائيل العدس وما إليه وعلى خلاف ما تمنوا، تمنيت المن والسلوى، والدليل على السوق التجارية كان ابن الشيخ محمود شویل عبد الأحd، ضاق به العیش مع أبيه في المدينة فرحل إلى الهند وقد أصبحت الهند لديه وكأنه قاموس معالمها، أخذني إلى السوق التجارية «سوبر مارکت» فوجدت الأجبان والزبد والعیش الخمير من كل نوع والفواكه والزيتون والبصل وكل ما اشتهيت واشتریت ونعمت بغداء وعشاء حافل، لا من حيث الكثرة ولكن من حيث الرغبة..

### قصة إسلام الهندوك

وفي کلکتا، ذهبنا إلى المسجد الكبير زائرین لذلك المدنيي أبي بكر أبي النور، أحد المؤذنين في المسجد النبوي له صوت رخيم هامة وقامة جلسنا ولم نكد حتى أقبل المنبوذون من الهنادك واحداً بعد الآخر يعلنون إسلامهم على يد أبي النور، فهو لم يكن فقيهاً ولا محدثاً وإنما هو مؤذن وأصبح إماماً، وكان يلقنهم الشهادتين وأركان الإسلام وأركان الإيمان حتى إنه لم يفرق بين القدر، أحد أركان الإيمان وبين القدر بسكون الدال، أي «المقدار» يقول وإن تؤمن بالقدر خيره وشره، لا يفتح الدال وإنما يسكنها، أسلم أكثر من عشرة ورأيت الشيخ وقد دمعت عيناه ترك حدة المزاج والغضب وتلطف بأبي النور يعلمه الفرق بين القدر والقدر.

وفي اليوم الثاني زرنا أبا الكلام أزد الرجل الثاني بعد غاندي في رئاسة المؤتمر «الكونجرس» وكأنه النديد والزميل لجواهر لآل نهرو، وأخذ يتكلم بالفصحى بلغة مكية وجرس مديني، ولعلّه رأى تعجبنا من لهجته فقال: لقد

ولدت في الحجاز ونشأت بين المدينة ومكة في الزقاق وراء مطبعة الحكومة، من أقاربي بيت صادق، وشرح ما لم أحفظ حينذاك، لهذا أنشر ترجمة له تلقيتها من أهله ههنا، إنهن الأمهات والخالات والعمات والبنات، نساء يقربن الأبعاد، أنشر ترجمته مختصرة أزيد عليها أن أقرباه هنا بيت صادق والفراسي والفاصي والمكي ومحمد قدس واللواء يوسف فاضل، وقبل أن أنشر الترجمة أذكر أن الدكتورة نجمة زارتنى في بيتي بصحبة الصديق حسين عبد الله سراج طلبت مساعدتي حين أقدمها إلى صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز، فكتبت تقريراً علمت أنه نفع يعينها، كما علمت أن سمو الأمير سلمان قد استجاب لعون الإخوة المسلمين في الهند، لقاء ما أحسنوا وقد شرحت ذلك في التقرير، وقبل الترجمة أذكر ملحّة، في طريقنا إلى كلكتا نزلنا على أحد النواب ضيوفاً واسمه مزمل الله خان، احتفل بنا وقبل أن ندخل عليه رأينا الفجل في البستان فطلبناه نأكله وكأننا من ذوات الضرع، ودخلنا عليه استقبلنا وقال بلهجة أهل المدينة الأوائل الذين يسكنون داخل السور قال: بكرة إيش تبغوا تفتطروا؟ فول مدمس.. مطبق.. معصوب.. شكشوكة، والغداء مختوم بامية والأندي والأمشور؟ وعجبت كل العجب كيف أتقن اللهجة وكيف عنده هذا المطبخ وسألته هل عشت في المدينة المنورة قال: لقد عشت المدينة هنا كان عندي «سيدي سعد الدين براده» علمني الكلام وكل الآكال، يرحم الله سعد الدين براده هو ابن عبد الجليل برادة عين من أعيان المدينة قدماً وسبقاً وعلماً وجاهاً، فقد كان هؤلاء الثلاثة عبد الجليل برادة وإبراهيم أسكوبي وأنور عشقي، أعياناً أصحاب بيان لم يعتسفوا ولم يُعتسفوا يرحمهم الله.

وإليكم ترجمة أبي الكلام آزاد..

بسم الله الرحمن الرحيم

والده هو الحاج المولوي خير الدين، الأفغاني الأصل، وكان يقيم في بلدة كشمير من بلاد الهند. حج هذا الشيخ عام ١٢٨٠هـ وزار المدينة المنورة والقدس ثم رجع لبلاده. وفي العام التالي ١٢٨١هـ قدم للحج مرة أخرى بنية الزواج والإقامة عند بيت الله الحرام.

- تزوج فتاة من المدينة تدعى «زينب» كانت مع أخيها «محمد هاشم» من المجاورين لقبر رسول الله ﷺ وكانت حالتهم المادية بسيطة وتعيش مع أخيها وزوجته وولديه. محمد سعيد ومحمد شعيع.

ثم أقنعهم بالذهاب معه إلى مكة ليعيشوا معاً قرب المسجد الحرام، حيث نزلوا في محلة الشامية في قاعة الشفا.

- استمرت بهم الحال لفترة من الوقت: المولوي يسافر للهند لتخليص أعماله ويأتي ببعض البضائع في الموسم ليعرضها محمد هاشم الذي كان ملازماً لبيت الله الحرام. وأول ما بدأ بهم الأمر بمجامر السبح «الكتل في أعلى السبح» ثم فتح الله عليهم وأصبح لهم دكان لتجارة البنز والحريز.

- في عام ١٢٩٥هـ توافرت لهم نقدية وفكروا في شراء مسكن فاشتروا أرضاً في محلة جياذ خلف مطبعة الحكومة العثمانية في الشارع الموصل إلى مسيل سيل المصافي والموصل إلى قلعة جياذ.

- في شهر ربيع الأول ١٣٠٢هـ طلب المولوي من الحكومة العثمانية التجنس فتم له ذلك وأصبح من التابعين للحكومة والدولة العثمانية.

- رزق المولوي في هذه الفترة بثلاث بنات في حين أنجب محمد

هاشم ابنه الثالث محمد مكّي . وكان الاتفاق أن يتزوج كل واحد من أولاد محمد هاشم إحدى بنات عمّتهم الثالث .

- في سنة ١٣٠٤ رزق المولوي بمولود ذكر سماه «أبا الكلام أّزاد» - له اسم آخر غير لقب أبي الكلام - وهو الذي ترأس المعارف في الحكومة الهندية . وتوفي سنة ١٣٧٤هـ في بومباي وقد غادر مكة وعمره حوالي سنة ونصف إلى الهند ثم تلقى تعليمه في الأزهر .

- في سنة ١٣٠٥هـ غادر المولوي الحجاز بعد خلاف مع صهره وأخذ معه عائلته وبناته ولذلك لحق به «محمد سعيد بن محمد هاشم» ليتزوج أخت أبي الكلام . وهذا هو جد الدكتور نجمة أكبر هبة الله المسؤولة الآن في إحدى الوزارات الهندية . أي إن أبا الكلام - يرحمه الله - هو خال والدها .

وللرحلة بقية عن رانقون وبومباي وعن الرحلة الثانية وعن الدكتور ذاكر حسين وجامعة علي قر .

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان ( ٣١ )

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أفحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن» .

فقدت وظيفة " معلم صبيان " . . ولكن!

في الصين يأكلون الحشرات . . وفي الهند يؤلّهونها!

الهند . . بقية الأولى

وطالت الرحلة، وقد كنت مأخوذاً مسيراً بالعواطف أكثر من مسيرة العقل، كأني حلقة في فلاة، أو ليست الهند قارة فيها عجائب بعضها يرتفع

بك إلى فوق، وبعضها لا تلام إذا ما نظرت إليها، وكأنها التحت، فالفوق تاريخ البشر من عهد آدم إلى عهد إنسان اليوم، في عربة القطار تجد الإنسان ممثلاً فيما يلبس.. فيما يأكل.. فيما يشرب.. فيما يعتقد.

وطلع الفجر، ونحن في عربة من «بنارس» إلى كلكتا، فإذا بنا ونحن نصلي، رأيت إنساناً عرياناً لا يغطي سواته إلا طين النهر، كأنما هو يمثل الإنسان الأبدي، التحف بطين الغابة قبل أن يستأنس الفيل، وحين يستوحش من الأسد..، وآخر شدّ القيثارة ليغني وفتح حقيبة يخرج منها زجاجة يصب منها قطرات يمتصها طفله، أما هو فأترع الكأس من ذلك الشراب المحرم، والثالث فتح النافذة يلقي التحية للنهر، نهر الجانج.. وهكذا في الهند.. غاندي.. وأبو الكلام، أزداد.. وجواهر لال نهرو.. وزاكر حسين.. ومحمد علي جناح، وأمثالهم من كبار الرجال كما فيها الأبدي والمنبوذ.. كما فيها الأغنياء، وما أكثر الفقراء وتذكرت وأنا ألمي، ما كتب في عكاظ عن (الملوخية الصيني) إن الكاتب لم يعلم أن الصين لا تعرف الملوخية ولو عرفتها لطبختها على مرقة الصراصير، لأن الصين ومذهبها إلى (كنفشيوس) تأكل مادب ودرج، لا تؤله الحيوان، بل تأكل كل الحيوانات وحتى الحشرات، بل يكرمون الضيف بمخ القرد، يقدمونه حياً يمسخ به الضيف يفسخ رأسه بالمطرقة يلحق المخ بالملعقة، فلا نستبعد أن يطبخ الملوخية على مرقة الصراصير، بينما الهند البوذية تؤله الحيوان ليس أول الحيوان البقرة، وليس آخر الحيوان الخنفساء، فلو رأوك تقتل عقرباً لقاتلوك، بل لربما قتلوك.. هنا خطورة المعتقدات، يقتلني من أجل عقرب أولست إنساناً حياً.. فأين احترام الحياة في هذه المذابح بين الإنسان والإنسان وفي هذه العبادة لسائر الحيوان.

وفي «بنارس» قبل أن نرحل، كنا ضيوفاً على الأستاذ الهندي

المستعرب، فقد كان ينطق بالعربية كأفصح ما يكون، لديه مناسج.. لقبه الحريري، لأنه ينسج الحرير يطرز به بأسلاك الفضة والذهب، تلبسه الغواني باسم الساري، فما لبسته غانية إلا وتغنى بها شاعر.

وحدثنا عن (عزيز تونس) عبد العزيز الثعالبي الذي حضنته مصر وعذبه الاستعمار، قال: زارنا الثعالبي هنا وكان بصحبة الشيخ محمد، صاحب أخبار محمدي من أهل الحديث، وذهبنا نحن الثلاثة حتى إذا وقف الثعالبي ينظر إلى أثر قديم نحتت عليه، وهو من الخشب، صور تمثل علاقة الذكر بالأنثى على صور شتى فقال الثعالبي لضيفه، وأنا أسمع: ما هذا قال الشيخ محمد: (إنهم يعلمون المرأة كيف تزني بزوجها).

عزت عليه اللغة العربية فلم يعبر عن ذلك بما هو من شعائر البوذية، ولم يقل إنهم يصورون علاقة الذكر بالأنثى...، ووصلنا إلى كلكتا ومنها إلى "رانجون".

## رانجون

وفي اليوم السابع عشر من شهر شعبان سنة ١٣٥٢هـ ركبنا الباخرة وإلى رانجون، ولماذا حفظت هذا التاريخ ولم أحفظ غيره؟! ذلك لأنني أردت أن نعود من كلكتا أي من الهند كلها، نصوم رمضان في بلدنا، فلقد كنت شديد الرغبة، غير أن رفيقي محمود شويل أصر على عزمه نذهب إلى رانجون، نصوم رمضان هناك. ووصلنا ترسو الباخرة وإذا مضيفنا الحاج داود آتياً يستقبلنا لأن الشيخ قد كتب إليه من قبل، ففي تلك الأيام الخالية، أي قبل ٥٦ عاماً كان البريد سريعاً في إمبراطورية الهند، هل هو التنظيم من الحاكم؟ أم هو الانتظام من المحكومين؟

ونزلنا ضيفين في "بنقلة" أي فيلا أو هي شاليه، نسكنها لوحدنا،

وطباخنا فيها، كل شيء كامل، وأكمل ما في ذلك بشاشة المضيف، فنحن من شعب "لاقيني ولا تغديني". وانتهى "الدال" و "الشباتي" ولكننا غرقنا في القرنبيط "الزهرة" فلأول مرة رأيت القرنبيط، فما كنا نعرفه في المدينة، كأنما الكرنب أغنانا عنه، غير أن الكرنب في المدينة أوراق، ليس هو اللغاف أو الملفوف كما هو الآن. وقلت لرفيقي: "نحن على نهر الإيروادي وعلى ساحل المحيط، فلنطلب السمك.. كل يوم دجاج، فصعب أن نصبر على طعام واحد". وجاء السمك ليرجع العدس، فقد اشتهينا الرز بالعدس، وجالب الشهوة هو السمك، ودخلت المطبخ لأصلح الرز والعدس، فطباخنا لا يعرف طبخه، ومن حسن المصادفة أن كانت السماء غائمة فأمطرت هتونا، وبينما نحن نأكل الرز والعدس والسمك تذكرنا المهاريس، فأكثر من مهراس تقع في وسط جبل أحد، نخرج إليها، نأكل الرز والعدس نطبخه بماء المطر وقد امتلأت به المهاريس، يحيطنا أحد بظل ظليل والماء في المهراس نظيف نظيف. شبح لأنه ذوب البرد. ولا يفوتني أن أضع معلومة عن المهاريس فالكثيرون من أهل الأمصار العرب لا يعرفون المهراس والقتيل الذي قتل بجانبه، فإذا ما قرأوا هذين البيتين لمولى بني العباس سديف شاعر ثورتهم القاتل لبني أمية بسيف الكلمة قبل سيف الزند، فقد أنشد أمام السفاح، وما أكثر ما أنشد يحرض على بني أمية قال:

اذكروا مصرع الحسين وزيداً وقتيلاً بجانب المهراس  
والإمام الذي بحران أمسى رهن قبر في غربة وتناسي

فالحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وزيد هو ابن علي زين العابدين إمام الزيدية صلبه هشام بن عبد الملك، والقتيل بجانب المهراس هو عم بني العباس شهيد أحد، حمزة بن عبد المطلب، وكثير لا

يعرفون المهراس وهذا القليل . أما الإمام بحران فهو الإمام إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس صاحب البيعة، فلو عاش لكان قبل السفاح، فهو أخوه وأخو المنصور.

وهلّ رمضان فجزعت أن أصوم في غير بلدي، وها أنا قد تجاوزت الثمانين لم أصم شهر رمضان في غير مدينتي إلا مرات ثلاثاً. في رانجون، في الخرج، في مصر:

وأخذ الشيخ محمود يصلي التراويح، يختم القرآن في ست ليالٍ، فلو هذا الرجل حبس لسانه لصان إنسانه!

وهلّ العيد، وفي اليوم الثالث من شهر شوال، وقد أدينا صلاة الفجر في المسجد حتى إذا سلم يتوسد الأرض عملاً بستّة يرتاح لها ابن حزم رحمه الله، ولما جلس أقبل هندي يقول: "أنا كنت وراءكم من دلهي، أصل بلداً أجدكم خرجتم، والآن وصلت فوجدتكم" فقال الشيخ: "أهلاً وسهلاً". وتكلم هذا الهندي من أهل الحديث طالب علم يقول: حين صليت بنا في دلهي قرأت - ولا الضالين - فأخطأت هي - ولا الظالين - خفف الضاد وما ثقلت الظاء فكأنها حرف جديد، فإذا الشيخ محمود يغضب، يرفع رجله يضربه في صدره، يقول "ترتكب هذه حماقة من أجل هذه حماقة، تريد أن تعلمني لغتي؟" وحزنت لإهانة طالب علم، أسرع استرضيه ولكن محمود شويل هو هكذا.

وفي اليوم السادس من شوال رحلنا إلى كلكتا وإلى بومباي وإلى جدة، ومن الذكريات في رانجون أنا أكلنا برتقالاً أسترالياً وعلى المائدة نفسها عنب إسبانيا، فاكهة الشتاء في جنوب خط الاستواء وفاكهة الصيف في شمال خط الاستواء.

وأغرب من ذلك أننا نقرأ جريدة البلاد السعودية ونحن في رانجون في اليوم الذي يقرؤها أهل المدينة، لأنها تطبع بعد أن يسافر البريد، فلا ترسل إلا بعد أسبوع، بينما هي تصل إلى الشرق الأقصى في اليوم نفسه.

## ملحة

وفي رانجون، وليست من الهند إنما هي من بورما استعمرها الإنجليز فاتسعت الهجرة لتجار الهند مسلمين وغير مسلمين ويظهر أن الطائرات كوسيلة للسفر ما زالت حديثة في بورما، فأرادوا الإعلان عنها والترغيب في ركوبها يدعون سكان رانجون إلى المطار يركبون الطائرة بأجرة قد لا تبلغ عشر روبيات تدور الطائرة بهم حول المدينة في بضع دقائق يشاهدون معالمها وتفضل مضيفنا نركب السيارة وهو يسوقها حتى وصلنا المطار وجموع من البورمانيين الشباب هم الكثرة والتفتنا لنرى شاباً في ميعة الصبا يلبس بنطلوناً أبيض وقميصاً أخضر من الحرير نقشت عليه نقط سوداء زادت القميص جمالاً فهكذا التنافر. . البياض والخضرة والسواد تكاملت لتكون الجمال. . فقد اختلطت هذه الألوان تبرز بلون واحد كان يحمل آلة التصوير ونزل الركاب من الطائرة فإذا فتاة تلبس ثوباً أخضر كأنه من قماش. . فستان الفتاة وقميص الفتى بل اللون واحد والجمال واحد. . أخذ صورتها لعلّه أخوها وكأنه توأمها أغلب الظن، إنها مسلمة وإنها هندية فليس عليها سحنة المغول البورمانيين ولا على جبهتها النقطة الحمراء شعار الهندوكية.

ورجعنا إلى بيتنا نصلي المغرب نتناول العشاء نصلي العشاء يصلي الشيخ محمود راتبه حتى إذا أوتر اضجع على سريره يتحدث وأسمع نضحك ليسمع وكان كل الكلام عن الجميلة والجمال، وغرقنا في الضحك، نضحك على أنفسنا من بؤس الحرمان أصبح في لحظة وجوداً

فلما انقضت اللحظة أصبح الوجود عدماً ولقد خفت من كثرة الضحك أن نصاب بالهستيريا قلت للشيخ كفى أخشى أن نجن دعنا في جنة الذكرى لئلا نصاب بجنون الحرمان .

البورمانيون بوذيون تمثال بوذا من الذهب والقبعة من الذهب ولكن الإنسان قد ذهب به ضلالة الوثنية .

### - بومباي :

ورجعنا عبر كلكتا نركب القطار ليلة ونهاراً ونحن في سجن العربية وصلنا إلى بومباي ونزلنا في بيت شرف الدين أخوال الدكتور عبد الله نصيف هم من أهل الحديث وفي اليوم الثاني ذهبوا بنا نشاهد " السيرك " اسمه " سيرك هوفمان " جرمانياً ازدحم المكان . . الأسود والنمور . . والثعابين . . وحوش استؤنست لعبة الإنسان بالحيوان لم يستهولني لعبة الإنسان بالأسد وإنما الذي استهول ثلاثة من كلاب البحر كل واحد وقف في مكان قذفوا بينهم الكرة يلتقطها كلب . . يقذفها إلى فوق يلتقطها ثالث لم تسقط إلى الأرض عجبت من هذا المنظر ولكن ما أسرع أن تركته لأنني رأيت بنتاً فارسية من الفارسيين الذين لجأوا إلى الهند يوم مزق الإسلام ملك كسرى وما زالوا على مذهبهم المانوي لم يبهرني جمالها ولا الساري المذهب تلبسه وإنما الشبه وكأنها المحترقة المؤتلفة بنت العقيق جسدت هذه البنت صورة تلك البنت فما لي ومال كلاب البحر فأخذت أنظر إلى تلك الريم .

ريم رمتني بسهمي لحظها وفرت درع اصطباري فأشواقي لها وفرت وكتمت أنفاسي حين عدت إلى البيت أختم الصدر على نفسي فلا أبوح خشية أن أنوح .

وأردنا السفر ولم نجد مكاناً في الباخرة، لأن شوال شهر حج وإن لم يكن من الأشهر الحرم ولم نجد الحاج محمد علي زينل مؤسس الفلاح فلجأنا إلى الشيخ عبد الرحمن القصيبي والد الدكتور غازي القصيبي فاستقبلنا هاشماً باشاً يتلفن إلى الشركة يبعث رسولاً يأتينا بتذكرة الركوب. . . واتصلت به فكلما وصل المدينة أزوره يتفضل بزيارتي أتحدث إليه يحدثني وكان ينزل في باب المجيدي حيث كنت أسكن أخيراً فقد اشترى البيت الأبيض أمام البيت الكبير للسيد عبد الجليل مدني فهذا البيت الأبيض كان ملكاً للطبيب التركي أمين أفندي باعه الورثة لعبد الرحمن القصيبي.

## جدة

وصلت جدة ونزلت من الباخرة أفرح باثنين بهذا الإفريقي الأسود لم أره في الهند كأنه علامة من علامات بلدي كما فرحت بحمار النهق لأنه من العلامات أما رائحة السمك فقد شبعنا منه في رانجون ولا تتكروا للحمار فقد كان ياما كان مركب الكثيرين من حيث لا سيارات ولا بسكليتات ولئن وجد البوسكليت آلة ركوب فآبأؤنا في المدينة يمنعونا منه لأنه "حصان إبليس". . . وما دروا أنا سنركب صنع الأبالسة. . . أبالسة العلم والصناعة وكان يا ما كان.

## المدينة

وصلت المدينة فرحاً لم أجد وظيفة معلم الصبيان في المدرسة لأن الإجازة طالت كانت تلك نعمة لأنني وجدتني معلم صبيان في دار الأيتام. . . ويجب ألا أنسى أنني رجعت أحمل ثروة - ٣٥٠٠ روبية - كما كان يحملها محمود شويل. وكان يحمل قطعة قماش كشميري من النوع الممتاز لم يلبسه وإنما أهدها لصديقنا السيد عثمان حافظ، أما أنا فرجعت بسارٍ وردي أهديته لمن تستأهله.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٣٢)

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أفحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

### كذبة إسرائيل الكبرى

#### الحرب الحضارية ضد العرب!

والرحلة الثانية تمت في السبعينات، لم تكن برغبة مني وإنما كانت استجابة لدعوة وجهتها إليّ وزارة الخارجية في حكومة الهند إبان رئاسة الدكتور ذاكر حسين لجمهورية الهند.

وركبت الطائرة، عن طريق البحرين ثم ركبتها إلى بومباي، وكان الناس في بومباي غير الناس في الخمسينات، فما أسرع عوادي التغيير كأنما الإنسان لا يصانع بيئته ولا جيله لأنه مسخر لهذا التغيير المتلاحق حدثاً بعد حدث.. كماليات لا تكاد تدخل البيت حتى تصبح ضروريات، ضاعت القناعة وضاعت السكينة، فأصبح الإنسان في دوامة تدور به ليدور فيها.

واستقبلني المضيف مندوب وزارة الخارجية.. والي دهلي، أنزلوني في الفندق الفخم الذي استجد حسب مقتضيات الدولة الحديثة التي كانت إمبراطورية جوهرة التاج البريطاني فأصبحت وليست هي الإمبراطورية.. انشطر الشعب شطرين.. الهند والباكستان، كأنما الأرض نكبتها بنوها فبكت بنيتها، لا ليضحكوا وإنما ليكثر البكاء لعله يكون حافظاً إلى وحدة الأرض وإن اختلفت الطوائف. لكنها الهند بكل ما فيها وبكل من فيها ما زالت الأمة لشعب حمدنا له مواقفهُ إحساناً يوم كنا في حاجة للإحسان، وتأييداً لسياسة العرب بجواهر لآل نهرو وكرشنامنون، أيام الغزو الثلاثي، حتى إن الهند عابت حفيد السهروردي يوم كان نقيضاً لموقف كرشنامنون، إنه وارث الصوفية عن جده السهروردي الذي قتله صلاح الدين، فهل كان الحفيد يثار من مصر يأخذ بثأر جده.

وفي اليوم الثاني صحبني مندوب الخارجية لمقابلة الدكتور ذاكر حسين رئيس الجمهورية، في تلك "السراية" القصر الكبير المكان للمندوب السامي الإمبراطور داخل الهند وممثل الإمبراطورية التي كان عرشها في لندن، وقابلني الدكتور ذاكر حسين ولم أكن حديث معرفة به، بل عرفته في زيارتي الأولى للهند حين التقيت به في (الجامعة المليية) تأسست في أرض المسلمون فيها قلة وإن تكاثروا والهندوك فيها كثرة وإن تنافروا، كان

الدكتور ذاكر حسين الزعيم يسأله الدكتور عبد العليم يستند إلى رجال كبار من المسلمين، فإذا الجامعة الملية في يومها الأول الخصمان جواهر لآل نهرو ومحمد علي جناح، أعني زعيم الهنادك وزعيم الباكستان، وكانت لحظة أكبرت الهند كلها ذاكر حسين، حمدنا له ذلك، لأن غربة الإسلام تظاهرت لتكون هي الحقيقة على أرض الهند، ولكن هذه الحقيقة أعلنت نفسها للجامعات (علي قر) (ندوة العلماء) (بالجامعة العثمانية في حيدر آباد) ولا تنسوا المسجد ولا تنسوا تاج محل فلئن كان قبراً لا يقر الإسلام هذا البناء على قبر، وإنما جاء بتقرير الحضارة أصبح من عجائب الدنيا لا تحصر في سبع، وإنما هي وبالإسلام قد كانت أكثر من سبع وبالعرب الأولين كانت الأساس لكل خامسة لكل سابعة.

وجلست لدى الدكتور ذاكر حسين أستعد لتلقي الحديث ولإدارة الحوار مع الحديث، وبعد التحية ولقاء البشاشة، قال المفكر العظيم ذاكر حسين (نحن في الهند نحاول ألا يكون بيننا على هذه الأرض حاكم أو محكوم) قلت إن ذلك لن يتحقق بالأفلاطونيات ولا بالطوبى ولا بما هو أكمل، فالإنسان لن يكون متقدماً راکضاً إلى الإمام إلا بالمتناقضات إلا بسلطان حاكم وطاعة محكوم، واسمح لي إن الهند بهذه الطوائف وبكل هذه اللغات بعيد أن تكون كما تريد، وقد كان يرحمه الله يصدر حكمه وكأنه يشير إلى واقع العرب وإلى واقع المسلمين، وابتسم يقول (سأسعى جهدي أستمد من الله النجاح)، وانتهت الزيارة وكأني لم أكن في هذا القصر الذي حين مررت عليه في الرحلة الأولى كنت وقد تقمصتني الرهبة أو امتلكني الرعب، أما وقد دخلته اليوم فلا رهبة ولا رعب لأن ساكنه هو الدكتور ذاكر حسين، لا اللورد وما أكثر اللوردات.. حين كانوا، ولعلهم اليوم لم يبلغوا الكثرة تلك.

وزرت أكرأ لأرى تاج محل، لن أكتب عنه الآن فلقد كتبت في جريدة الشرق الأوسط عنه أضمةا للذكریات غیر أنى أقول هل المجد للإمبراطور العاشق وللحبیبة ممتاز محل، أم هو مجد الفنان المهندس والمتفنون العمال. . عجیب أن یذكر الإمبراطور ولا یذكر المهندس مع أن قيمة الحضارة صنعها المهندس، وهكذا لا نعرف المهندسين الذين شادوا آثار مصر. . حدائق بابل أو الذين نحتوا الجبل في الحجر في البتراء، كأنما هؤلاء المهندسون قد سبق بهم العقوق وكان سنمار. . جزى أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما جوزي سنمار. وحتى مسجد السلطان أحمد، بقي اسم السلطان وذاب اسم المهندس.

وإلى عليكه الجامع المسلم ومن حسن المصادفة أن يكون مديرها حينذاك الدكتور عبد العليم زميل ذاكر حسين في الجامعة الملية، هو القران بين الاثنين ذاكر رئيس الجمهورية وعبد العليم رئيس الجامعة علي قره، وأثاروني يروون فكرة عن الدكتور عبد العليم فقد قال (ليس بين الهند والعرب علاقة قبل الإسلام، وقلت لهم: إن أراد اعتناق الدين فذلك صحيح، أما إن نفى العلاقة بين الإنسان والإنسان تاجراً ومستوراً ومصداً ومكبراً فذلك غير صحيح جزيرة العرب والهند جارتان إن فصلهما المحيط فإنهما يتواصلان ويتصلان عن طريق المضيق عن طريق البلوجستان وفارس وخرسان. بل وعن طريق السفن الشراعية، إن العرب عرفوا الهند وعرفتهم قارة الهند. . تجارة التوابل عن طريق العرب ثم إن العرب سمو أعظم بناتهن "هند" فكم هن اللاتي كانت أسماؤهن هنداً، والسيف المهندس. . الهندواني. . الهندية القضب، من شعر عنترة، والصليب المعقوف كان من تراث الهند والأحقاف وما إليها. . وصل إلى الجرمانيين عن طريق العرب،

فليس هو شعار هتلر وإنما وجدناه دفيناً في جزيرة العرب، أي إنه قبل الصليب الذي يؤلهه نصارى اليوم.

ومن عليكره إلى مدراس وميسور وحيدر آباد وقد تجولت رأيت معالم شتى وناساً هادئين، وعلى الغداء أتوا بالعنب قالوا: إنه من أعواد عنب الطائف جلبناه زرعناه وهذا ثمرها وذقت العنب ولكنه تأقلم وما أشد تأقلم النبات بل ما أسرعه، العنب في الهند أحلاه عنب بشاور بناتي بلا بذر كأنه العنب الشريوفي في الطائف وفي المدينة المنورة فعندنا عنبان الحجازي حبته كبيرة والشريوفي أشد بياضاً حبته صغيرة، وعدت إلى بلدي.

## - حوار -

وكان الأمر بين الهند وباكستان صعباً على حافة الحرب وجرى الحديث عن ذلك فقلت وقد كتبت بهذا تقريراً إلى من هو أولى به ليعرف ما جرى في هذه الرحلة الذي استأذنته لكي أسافر إليها، قلت للموظفين الكبار في وزارة الخارجية: أنا صديق الهند من فجر التاريخ إلى عصرنا الحاضر فلن ننسى للهند أنها لم تعترف بدولة إسرائيل، أنا صديق الهند نعم لا أحب لأخي الباكستاني أن يشن حرباً على الصديق ولكن حين أرى الصديق يرفع يده على أخي فلن أكون إلا مع أخي أرد عنه يد الصديق.

ولئن شكرنا للهند موقفها لم تعترف بإسرائيل حينذاك يقودها جواهر لآل نهرو، فإني قد كتبت موضوعاً لينشر في جريدة البلاد السعودية وقد نشر بعد لأي والتواء، لأنه مقال أعجب رئيس التحرير، يريده له، كما هي السالفات من ذلك، حزمت أمري أصر على نشره، خلاصته أن الأكثرية التي صدرت عنها قرارات هيئة الأمم المتحدة بالاعتراف بدولة اسمها فلسطين الأرض المباركة كانوا من الدول الحديثة التي تدور في فلك جورج

مارشال، أما الهند واليونان وأسبانيا والصين فدول شعوبها حضارية قديمة العهد والصلة بحضارة العرب فأبت إلا أن تحترم حضارة العرب من حيث احترامها لحضارتها فرفضت التصويت مع القرار تعترف باليهود يشكلون دولة في فلسطين لأنهم يعرفون لم يصنعوا حضارة، فكذبة كبرى أن يقال إن إسرائيل تشن حرباً حضارية على حضارة العرب، هذه الدول الحضارية رفضت إهانة العرب، ونشر المقال فإذا محمد التابعي أحد رؤساء التحرير في صحافة مصر يقول لمحمد سرور الصبان وأمام رشدي ملا نياز، لقد قرأت هذا المقال وعجبت كيف يسبقنا كاتبكم السعودي بهذه الفكرة قسمت هيئة الأمم إلى أمم حديثة وأمم قديمة حضارية، وبخل علي بها محمد سرور الصبان، لقد فرحت بهذا الشئ من التابعي، وشكرت رشدي ملا ولما أكفر بعد بمحمد سرور الصبان، فقد بخل علي بعد بسؤال جمال عبد الناصر عني يوم ألقيت الخطاب أمام الملك سعود وأمامه أقامه السعوديون المقيمون في القاهرة بأمر من الملك سعود عن طريق محمد سرور الصبان، وسأفصل ذلك في ذكريات بعد عن مكة عن الصحافة عن الخرج عن مصر عمًا هو بعد.

## ذاكر حسين مرة أخرى

وقدم الدكتور ذاكر حسين زائراً ترحب به الدولة ترحيباً يليق به من اللياقة نحو الهند، ووصل الدكتور ذاكر إلى جدة فأقام له مسلمو الهند السعوديون في طليعتهم الشيخ عبد الرحمن مبهر ومن إليه حفلاً تكريمياً دعيت إليه لألقي كلمة الترحيب، أقاموا الحفل في فندق قصر الكندرة، وألقيت الخطاب أذكر قيم الدكتور وقيمه وما صنع للهند، حتى إذا انتهى الحفل أقبل علي يأخذ بيدي يقول لي (كيف استطعت أن تقول هذا الهراء؟

قلت: هو الهراء لو كان عني أو لغيرك ولكنه الثمين والحق حين كان بك  
ولك)، وابتسم قال ذلك بأسلوب التواضع زينة الكبار والكبرياء.

### السيد حسين أحمد والاستعمار

وحزمت أمري بإصرار، يستجيب لي رفيق الرحلة الشيخ محمود  
شويل، لنزور الجامعة المسلمة (ديوبند) لأنني حرصت على توطيد الصلة  
بعالمها الشيخ فيها كما هو أحد الأسيخ في المسجد النبوي. . ألا وهو  
السيد حسين أحمد المدني، فلم يلقب بالديوبندي وإنما التشريف باللقب إن  
كان المدينة، عرفته في المجينة ساعة أن زارنا في المدرسة قبل سفري إلى  
الهند، كانت معرفة المواجهة والمشافهة ولكنني عرفت الكثير عنه من أستاذنا  
السيد أحمد صقر، وليس ذلك عن حسن العلاقة بينهما، وإنما كان ذلك  
بما يحدثني به عن علاقة الأمير شكيب أرسلان بعلماء المسجد النبوي، فقد  
كان أبو غالب أمير البيان يسمع الأسيخ في حلقات الدرس فأعجبه اثنان  
السيد حسين أحمد وشيخ الشيوخ حمدان بن الوئيس، ولعله لم يدرك عبد  
الحميد بن باديس، كان الأمير يثني على السيد حسين أحمد ويثني قامته  
الطويلة أمام حمدان بن الوئيس، ذكره في حواشيه على حاضر العالم  
الإسلامي الكتاب ترجمه من اللغة الإنجليزية الكاتب الكبير عجاج نوهيط،  
ولئن كان درزي النسب والسبب فقد كان هو والأمير شكيب يمسكان  
بالحسب الملم، والسبب العربي، ومن العجيب أن يكون النسب سبباً أو  
أن يكون النسب حسباً. فقد ذكر الأمير شكيب سماعه لهذا الحديث كجمرة  
احترق بها أو كشعاع من نور يهديه الطريق، سجل هذا الحديث (يوشك أن  
تداعى عليكم الأمم، كما تداعى الأكلة على القصعة، فقالوا - يعني  
الصحابة - أمن قلة يا رسول الله، فقال - وهو صاحب جوامع الكلم - لا

ولكن غثاء كغثاء السيل، إنما يدرككم الوهن، قالوا: وما الوهن، قال: حب الدنيا وكرهية الآخرة، أو هو قال: حب الحياة وكرهية الموت ومن عجب ألا أسمع عن رفيقي الأمير شكيب أرسلان، أي خبر أو أي كلمة وهما من أحلاس المسجد، عبد العزيز جاويش وعبد القادر المغربي، فهل كان الأمير يحب الاطلاع أكثر منهما؟ أم هناك رواية عنهما لم أحظ بالسماع منهم؟

ووصلنا إلى ديوبند، فاستقبلنا السيد الشيخ المحدث حسين أحمد، وبرغم أنه من أهل الحديث فقد كان حنفي المذهب ولعلّه وإن تحنّف كان يميل إلى الطحاوي ومحمد بن الحسن الشيباني، أكثر من ميله لأبي يوسف، وإن لم يتعد عن أبي يوسف، رحم الله الجميع.

وأعد لنا عشاء وكان أرزاً وما أكثر ما أكلت من الأرز من يد الطهارة البارعين، ولكن صدقوني أني لم أذق مثل أرز ديوبند، البياض ناصع أشد بياضاً من الأرز المزّة، حبته طول الشعيرة حباته متناسقة له طعم لم يكن لأرز غيره، وسألته: من أين هذا الأرز؟ قال: من نبات سهرينور، لم أر قبله ولم أر بعده، مع أن المدينة المنورة أو مدن الحجاز كلها لا تعرف من الأرز إلا الهندي.. المزّة.. الهورة.. البنوري، وإن ورد إليها في بعض الحالات الرز "الثمن" من العراق أو بعض الأرز المهدي من الإيرانيين، وهو "العنبربو" أما المصري فما رأيتُهُ إلا بعد، وبعد الحرب العالمية الثانية طغى الأرز الأمريكي على الهندي والسيامي.. أبو سيوف كأنه المزّة وإن لم يبلغ شأوها، و "أبو بنت" كأنه "البنوري" وإن كان أحسن، و "أنكل بن" وكأنه الهورة وما كان الأحسن، وبعد العشاء، قال لنا قبل أن يودعنا أنتم العرب السبب في ترسيخ استعمار الإنجليز للهند حين كنتم القوميين حاربتهم

الدولة العثمانية التي كنا نرجوها لمحاربة الاستعمار، وسكت الشيخ محمود وإن غضب وتكلمت أقول للسيد: إن إمبراطورية الهند هي السبب في تمزيق الدولة العثمانية من أجل خط برلين بغداد، وهي السبب في احتلال مصر واستعمار العراق وساحل الخليج. فلولا حرص بريطانيا على بقائها في الهند لما كان استعمارها لمصر والعراق والخليج وعدن وما إليها، لكم شكواكم من العرب ولنا شكواكنا من الهند مع أن الشكوى ينبغي أن نجتمع عليها من الإنجليز، لقد حاول الإنجليز ألا تحفر قناة السويس لتمنع دول أوروبا الأخرى عن الوصول إلى الهند، وحفرت القناة، فاتتها فرص الاشتراك ولم يفتها أن يشتري دزرائيلي أسهم مصر في قناة السويس لتكون رقيقة على فرنسا بل قد كانت لها السيادة على قناة السويس، وكثيرة هي الأسباب التي تسلط بها الاستعمار الإنجليزي، وما أحسن قول شوقي يرحمه الله .

وحررت الشعوب على قناها فكيف على قناها تسترق  
حررت بالرماح، فكل رمح قنا واستعمرت واسترقت من أجل القناة،  
يعني قناة السويس، وما جزع السيد من حوارى وودعناه شاكرين .

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٣٣)

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

ترافعت في قضية بمكة فطارت الجنيهاات

الأربعة إلى المدينة

اتهمني أحدهم بأني أشعلت الحرب العظمى

والتعلق في وطن الولادة والنشأة والصبا والحب، شديد القوة، بل وقوي الشدة، يشدني إلى البقاء فيه. لأن في ذلك الإبقاء على الغوالي،

وهي القليلة مادياً والكثيرة معنوياً، فالمادة لم تركبني لأكون لبنة في جدار، وإنما هي المعاني هي التي رُكبت على النفس، تحكمني بلجام يقول لي، بل يفعل بي "إياك أن تبرح السيح والعقيق وحوش خميس" ولكنها أحوال استجدت فاستبدت، دعنتني إلى أن أكون في مكة المكرمة، أسكنها وما أحلى السكن فيها وما أطيب السكنية بها، فلئن كنت مديناً مالكي المذهب، فإني أعترف بأن مكة بيت الله، لها الفضل كما للمدينة ذلك الفضل، هما المكتان أبعد عن نفسي أن أفاضل بينهما، حرم الله ومسجد رسول الله ﷺ، فالجلال لله عز علاه والصلاة والسلام على رسول الله.

ووصلت مكة، أحج مرة ثانية، كانت النية للحج، وكان بعض النية لدنيا أصيبتها، ذلك أن صديق الوالد ثم الصديق لي، ذلك المكي الذي تمدين، حسن موسى، قال لي: الشيخ عباس قطان يذكرك بخير ولديه رغبة أن تعمل لديه سكرتيراً، وأديت الحج ولم أتصل بالشيخ عباس قطان والسبب هو أنني ذهبت لزيارة الصديق حينذاك الشيخ محمد سرور الصبان أيام كان في زهو المنصب.. وبراعة الذكاء، وفي مكتب شركة الصادرات في أول القشاشية وفي اتجاه المدارس، وكأنه جزء من بيت باناجة الذي كان على المسعى، زرت محمد سرور الصبان بعد عصر يوم لا أذكره، ولم يكن هناك إلا بعض من راجعه ليرجع بنعم، محمد سرور قل أن يقول "لا" مع أنني أعرف وهو يعرف أن كلمة نعم لا يطيقها إلا الرجال، أما كلمة "لا" فإنها التخلص من تبعة الكلمة "نعم"، ولا أدري هل هو الذي طلب إبراهيم السلیمان العقيل رئيس الديوان أم هو الذي طلبه، فكل ما أدريه أن الحديث بينهما عبر التلفنة كان عن عباس قطان، فاتضح لي أنهما على خلاف معه، يشتد إبراهيم السلیمان وذلك أسلوبه ويسترخي عنه محمد

سرور وتلك أساليبه، فلم أذهب إلى عباس قطان، فمالي أدخل معركة بين هؤلاء، فالتابع قد يناله ما تناثر من رشاش الخلاف أكثر ما ينال المتبوع.

ورجعت إلى المدينة وكان ذلك في حجة ١٣٥٥ هجرية، رجعت إلى المدينة، وإلى دار الأيتام فصحوت على مجلة الرسالة والمجلات الأخرى، ولأنني أحب القراءة بالأذن أذوق جرس الكلمة الشاعرة وجدت زميلي وصديقي الأستاذ حسن إسماعيل أدعوه أن يقرأ مقالات الرافعي والزيات ودريني خشبة، وعجبت كيف أن طه حسين وصديقه الأول الزيات، كيف لا يكون كاتباً في الرسالة، وحين قرأت المساكين والسحاب الأحمر وأوراق الورد فأعجزني الرافعي أن أستشف أن أفهم لأن القراءة كانت بالبصر وحين قرأت الرافعي بالأذن كانت قراءة البصيرة، فإذا بي أرتفع بالرافعي وإن كان مصطفى لطفني المنفلوطي قد رفعني بعدوبة الجرس إلى مكان حبب إلي أسلوب الرافعي والزيات، وعقل أحمد أمين والعقاد، وترف طه حسين فيما كتب بعد أن تراجع عن أسلوب التشكيك.

كانت تلك السنون قد نمت بها حرقة الموهبة، وهبة الاحتراف ومات الرافعي برحمة الله، فكتبت مقالاً في جريدة المدينة يوم كنت لها حين كنت فيها وحين حرمت أن أكون بها، كتبت المقال رثاء للرافعي فإذا أنا أجد هذا المقال قد نشره أحمد الزيات في مجلة الرسالة، فرحت فرحاً أطربني وكأني قد نلت وسام الشرف، مقال أكتبه في جريدة المدينة ينشر في مجلة الرسالة نقلاً عنها تلك والله فرحة وإكبار، لا أبخل على نفسي إذا ما قلت إنني قد استأهلته.

وفي جمادى الأولى سنة ١٣٥٨ دعاني للإفطار حسن موسى، فول وسمن ولبن زبادي وتميس، كأنه أراد أن يدهن فمي لأنداهن مع مطلبه،

قال " الشيخ حامد عبد المنان وقد عرفك في المدينة يوم زار دار الأيتام كما عرف عنك الكثير من ثنائي عليك يريدك أن تكون سكرتيراً لمشايخ الجاوة " وأبت الظروف التي لم أعد أطيعها، لا من قلة المادة وإنما من ربكة المعاني، كان الراتب ٣٥ ريالاً، لا أضيق به ولكن الترتيب الذي جرى كان فيه بعض التعذيب، فالأمر كما قال الحارث بن عباد:

لم أكن من جناتها علم الله وإنني بحرها اليوم صال

هذا البيت من قصيدة مطلعها: كل شيء مصيره للزوال: - غير ربي  
وصالح الأعمال.

ولكنها لم تكن حرب البسوس وإنما كانت حرب "البُسوس" بضم الباء يعني القبط بلغة أهل نجد، يجمعون كلمة "البس" على "بُسوس" لا على "بَساس" أول ما سمعت هذا الجمع من أستاذي وشيخي صالح بن عثيمين يوم دخلنا الإذاعة، وبالمصادفة تلاقينا مع الأخ باشميل الذي كان الرقيب على ما نذيع أنا والشيخ صالح، قال له الشيخ صالح وهو يعرفه "يا وليدي إن كان بسوسكم في حضرموت يأكلون الحشائش، فبسوسنا يأكلون الخشاش" لأن باشميل قد أذاع حديثاً فقال "دخلت امرأة النار في هرة، لا هي تركتها تأكل من حشائش الأرض ولا هي أطعمتها" غلط لا يقول كلمة الخشاش فقال كلمة الحشائش، وتحت ضغط تلك الظروف أهدرت فيها المعاني، ركبت ناقتي السيارة وإلى مكة.. أصبحت سكرتيراً لمشايخ الجاوة، وركنت إلى الراحة، وكنت في حماية الشيخ حامد عبد المنان والكثير من مشايخ الجاوة، انتصر على بعض الذين تلسنوا "يعني الشيخ حامد ما التقى مكاوي يصير سكرتير له جايب لنا هذا من المدينة؟! " أسمع ذلك وأقول، في المدينة أصبح عبد الرحمن مفتي الصديقي من أعيانها

وزوجاً لعين أعيانها وأسعد مفتي من أعيانها وحسن موسى كذلك وغيرهم  
كثيرون ما قلنا لهم "إيش جابكم؟"

وانتهى ذلك بالصبر، كان المعاش خمسة جنيهات ذهباً لم أتسلمه على  
هذه الصورة إلا بأشهر قليلة لأن الحرب العامة قد ثارت بعد قدومي إلى  
مكة بشهر ولم تأت إلا باخرة واحدة تحمل الحجاج الجاويين، فليس في  
وسع الشيخ حامد أن يبقي هذا المعاش فأصبح جنيهين، ٥٢ ريالاً.. وهي  
لا تكفي ثم وجدت بعض الضيق أو هي المضايقة من الصديق ابن الشيخ  
حامد صدقة عبد المنان، فقد جاءني وهو يضحك "تعال يا أستاذ صديقك  
عبد الله عريف وقد شكوتك له ولأحمد قنديل فقالوا خليه يرجع المدينة  
وعين الأخ أحمد قنديل بداله فقال: ثالث لا أسميه أو عين عبد الله  
عريف"، قال لي صدقة ذلك فقلت "نصحوك لأنك طلبت ذلك، أبشرك  
سيصدر القرار بعد أيام أنتقل فيه إلى وزارة المالية، صنعه لي محمد سرور  
صبان وأنت حر أن تعين أحدهما". . فقال "مفاجأة تعرف يا أستاذ لا  
يصلح واحد منهم لنا، بعدك ما راح نعين أحد، إذا وصل الحجاج حين  
تنتهي الحرب يفرجها الله ولا حاجة إلى سكرتير أنا سأكون ذلك".

وصدر قرار تعييني مساعداً لرئيس قسم الأوراق خلفاً للسيد حسن كتيبي  
ومع السيد محمد حسن فقي، ولكي تتم الذكريات فإني حين وصلت مكة  
في جمادى الثانية سنة ١٣٥٨هـ، سعدنا إلى الطائف وقد استأجر لي الشيخ  
حامد بيتاً قاعتين بمنافعهما بمائة ريال من عبد العزيز بن نافع، أصبح ابنه  
عبد الله نافع ولدي من الرضاعة وهو الآن في جدة، نزلت مع صدقة عبد  
المنان وتركني أجلس في دكان مصطفى رهبيني وذهب يتسوق فإذا الشيخ  
محمد كاشف عرفته في المدينة لأن أخاه علي كاشف كان ضابطاً كبيراً في

جيش الأشراف، رجل له وقار واحترام علاقته وثيقة بعمر فيروز والد ماجد فيروز جد هاني فيروز، وتكلم الكاشف يتلسن على طريقته المحببة وقال أهو إيش نسوي لمحمد علي زينل أسس مدرسة الفلاح وخلي الأولاد يتركوا صنعة الوالد، أصبحوا أفندية وطرودونا من الساحة ونحن الأفندية، كان يا حبة عيني ولد النجار نجار وولد الحجار حجار وولد الطباخ طباخ. . والآن كل هؤلاء الأولاد أفندية فقال الرهبييني "يرحم الله محمد علي زينل خلانا نشوف الأدبائية" وأكلت هذه "الرزعة" من محمد كاشف يرحمه الله وقد كان ذا لسان ما ترك أحداً ولكنه كان يُطاق ولا يطيق، فمرة سمعت منه بعد أن أصبحنا أصحاب، فقال (شايف العجيبة هذه "الباقر" يعني جد محمد باقر كان شيعياً يجمع كعك السطوح ناشف، وهو يعني الغائط، يسحقه يحطه في علبة مفضضة ويزور أحمد هزازي ومحمد علي لاري حين يجتمعان يطلب الشاهي، هاتوا الشاهي تذوقوا العنبر ويخرج العلبة الفضية بقدر حُق الكبريت ويأتون بالشامي ويذر كعك السطوح باعتباره عنبر ويشرب محمد لاري ويشرب أحمد هزازي هذا الشاي المعنبر بكعك السطوح، ونضحك ونترحم على كل هؤلاء حتى محمد كاشف.

## أحوال ومآل

وقد وجدت رعاية من الشيخ حامد عبد المنان، لأنني أجدت عملاً واستجاد المشايخ معاملتي، طردت كثيراً من المشاكل، ولعل الظروف القاسية ساعدتني على ذلك، فانقطع الحجيج من الجاويين، واشتعلت الحرب العامة الثانية واضحكوا لهذا الشرف بهذه التهمة، فقد توسط الشيخ حامد عبد المنان لدى وزير المالية آنذاك عبد الله بن سليمان حيث طلب قرضاً لمشايخ الجاوة، يوزع عليهم بنسب مختلفة، وقمت بتوزيع القرض

تحت إشراف الشيخ، وجاء أحد المشايخ من بيت كبير فقلت له «هذا القرض ليس لك خاصاً، فابن عمك طلب أن يقسم بينك وبينه» فغضب وقال «أهو أنت اللي جبت المصيبة هذه سببت في إشعال الحرب»، وضحكت فلو كنت قد جنتت لفرحت بهذه التهمة، وقلت له «يعني أنا أوحيت لهتلر وموسيليني وتشمبرلين ولافال وستالين، أن يشعلوا هذه الحرب، إذاً أنا طاغية الزمان أعظم من جنكيزخان». سخرت من هذا وناديت الشيخ حامد ليصرفه بلطف وليصدر أمره إليه، فقد كان هذا المتهم لي من جماعة الزايرجي وأبي معشر الفلكي وشموس الأنوار، فهو من الذين قالوا: إن هتلر بحساب الجُمَّل، يعني حساب أبو معشر هو خالد بن الوليد.. وضحكوا من ذلك كله.. وأنشد قول المعري.

ولما رأيت الجهل في الناس فاشياً      تجاهلت حتى ظن أنني جاهل  
فيا موت زر إن الحياة ذميمة      ويا نفس جدي إن دهرك هازل

والتبعة على المعري لوصفه للدهر، فالزمن لا شأن له، فالله هو الفعال لما يريد.

وموضوع آخر في الباخرة الأولى والأخيرة وصلت تلفن نقيب الوكلاء لمشايخ جاوة، الشيخ محمد نور جخدار، وكان ذا مكانة وذا إمكان، تلفن للشيخ حامد عبد المنان يقول: أربعة حجاج، قضى السؤال عن الشيخ «شيخ منا» يعني من شيخك؟

فنطقوا «أحمد مقلان» ثم أبرزوا كرتاً باسم محمد مقلان فلن يسلموا للشيخة ميمونة مقلان، لأن أحمد ولدها حسب النطق، أم لمحمد مقلان أخوها حسب الكرت؟ وبالمصادفة كانت هيئة الأمناء مجتمعة فأخبرهم

الشيخ حامد بذلك فأجمعوا على تطبيق النظام، سؤال الابن لأمه، سؤال الصبي لعمه، فأشار الشيخ حامد للجخدار أرسلهم نضعهم أمانة عندنا حتى نصدر القرار وفي الوقت نفسه صدر قرار الأمانة وحسب النظام بأنهم حجاج يسلمون للشيخة ميمونة مقلان، لا للشيخ محمد مقلان، ووصل الحجاج ليقبوا أمانة حتى يصدر أمر النيابة لتنفيذ القرار حسب النظام، إذ لا عبرة بالكرت قبل النطق أو بعد النطق، فالعبرة بالنطق.

وأحالت النيابة القرار إلى هيئة التمييز، يرأسها الشيخ محمد لبني يرحمه الله، فصادقت هيئة التمييز القرار لأنه حسب النظام، ورفع للنيابة فأحالت له لمجلس الشورى وصدر القرار من مجلس الشورى خلافاً للقرار، والحجة أن الحجاج الجاويين لا يفرقون بين اسم أحمد ومحمد، فهم أرادوا بالنطق والكرت أيّد ذلك.

لقد كان هذا افتراضاً وإلا فخبرة محمد نور جخدار وأمانة فطنة إلى اسم أحمد لا اسم محمد، وجاء قرار مجلس الشورى من النيابة للعلم به ولأنه في نطاق التنفيذ.

وكرب الشيخ حامد وقال: فين السواق خليني أوصل لعبد الحميد خطيب وعلي كتبي، ليكتبا الرد على القرار، فقلت له: تمهل، هما عضوان في مجلس الشورى وافقا على هذا القرار أنا أكتب لك قراراً يرجع به مجلس الشورى للنظام، بس يدك على الكيس تعطيني أربعة جنيهاً أجره هذا القرار أسددها دين، قيمة مشلح أبو شهر، فقد أكرمني صاحب الدين الشيخ عبد الله بن عمرو، رئيس هيئة الأمر بالمعروف بالمدينة، فليس يمنعني من السفر وأمهلني ثقة منه أن أرد المبلغ ولو أقساطاً يرحمه الله، ولك علي شرط إذا أخفق القرار وأصر مجلس الشورى على الأول أحسم

الأربعة جنيهاً من راتبي كل شهر اخضم جني، وأسرع الشيخ يرحمه الله يناولني الأربعة جنيهاً، وقلت له اجمع الهيئة وذهبت إلى المكتب القرار يعرض على الهيئة فقد اشتد عزمي بالأربعة جنيهاً للخلاص من الدين.

واجتمعت الهيئة وقرأت القرار فوافقوا عليه، لقد بنيت القرار على نقطة واحدة هي أن الحجاج الجاويين لا يقبل منهم الإسلام إلا باسم محمد إنه اتهام للملايين المسلمة من الجاويين بأنهم لا يعرفون اسم محمد، فالأذان والإقامة، والدخول في الإسلام بالشهادتين كلها يعرفها الجاويون لأنهم المحمديون، فلا يقبل إسلامهم إذا لم ينطقوا باسم محمد في الشهادتين. إن هذا الافتراض فيه تجريح للملايين المسلمة.

ورفع القرار إلى النيابة وأحيل لمجلس الشورى وصدر قرار المجلس وفيه شيء من العدول عن القرار الأول والقناعة بقرار مشايخ الجاوة، وسلم الحجاج للشيخة ميمونة مقلان، وطارت الأربعة جنيهاً للمدينة وقال الشيخ: شكراً يا واد أهو كده وإلا فلا، وأكبرت مجلس الشورى لم يأخذهم العنت ولا العناد، فكانوا رجالاً نترحم عليهم.

وحكاية أخرى، فقد استوحشت لقب الجرارين يطلق على صبيان المطوفين حول الكعبة، فاقترحت أن نعمل مشروع نظام تحت اسم نظام الصبيان، وكان العون للرجل العارف بأحوال المطوفين والصبيان نقيب مشايخ الجاوة «محمد معاجيني»، المعرفة منه والصياغة مني، ورفعنا النظام للنيابة وأحيل للجنة التمييز فصدقت عليه ووافقت ورفع إلى النيابة وأحيل لمجلس الشورى، وتلفن مجلس الشورى للشيخ حامد ليحضر هو ورئيس المطوفين الشيخ محمد هرساني، ورئيس مطوفي الهنود الشيخ عبد الرحمن مظهر يرحمهما الله، ليحضروا حيث شكلت لجنة من عبد الحميد خطيب

محمد مغيربي عبد الرؤوف الصبان لتدارس النظام معهم. . . يرحم الله الجميع وأطال الله عمر أخينا محمد المغيربي فتيح.

وكان الشيخ حامد معتل الصحة كف بصره يجب أن يتستر حذراً من الشامتين فكلف نائبه الشيخ عبد الرحمن عبد الشكور وهو من بيت كبير من مشايخ الجاوة، وأرسلني معه، وانعقدت اللجنة فإذا الشيخ محمد الهرساني يسأل عن الشيخ حامد لماذا لم يحضر؟ قلت: إنه مريض وأنا ب عنه نائبه وكلفني أن أكون عوناً له، فغضب الهرساني وقال:

«هو الشيخ حامد ما يعرف إن المطوفين أكبر من مشايخ الجاوة»، قلت: إنه يعرف مشايخ الجاوة أكثر ويقدر المطوفين، إن بيوتاً في مكة من مشايخ الجاوة لها مقام كبير، فليس في المطوفين الآن كوشك والقونق وأحمد بخاري لأن حجاجهم قليل عرب ولا غير، من مشايخ الجاوة والبتاوي والعراقي وعباس قطان والفظاني والآشي وعبد الشكور وحمزة شيت، كلهم من أكابر مكة، وأنت تعرف الفرق بينك وبينهم، فغضب وخرج من اللجنة، ولم يتحرك أعضاء مجلس الشورى بكلمة فأخذت عليهم ذلك.

ورجعنا وعرف الشيخ حامد الحكاية فقال:

- سامحه الله كيف لا يحترم عبد الرحمن عبد الشكور، وأخوه حسن، هو أول من رشح الهرساني للرئاسة لأنه كان صديقه، لكن علي أن أرضي الهرساني، وبعد أيام دعا الشيخ الهرساني إلى حفل غداء فاخر في بيته في جرول وتصافيا، وانزاح من الهرساني غضبه مني، فإذا أنا وفي إدارة الحج أجد منه الود والاحترام.

وتلك أيام خلت وقد كانوا يرحمهم الله رجلاً.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٣٤)

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أفحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن» .

خادم الحرمين . . فتح الثغور وسقى المدن

جادت الأرض بخيرها فجادت عزائم أبناء عبد العزيز

الماء في المدينة والثغر آبار . . صهاريج . . كنداسة فالعين والتحلية . .

والذكريات أكتبها تارة ببصر المشاهد خضع لواقعة وتارة ببصيرة الشهيد

على مسيرة التاريخ، أفليس سقيا الناس مادة حياة ورغيد عيش؟ لهذا أسجل أسئلة عن واقع الذين حكموا هذا البلد، فكيف لم يغيثوا إنسانه بالماء؟ الأنهم كانوا عاجزين، عجز الفقر؟ أم أنهم كانوا المحجوزين بحواجز الفصام والخصام بين سلطان الطوائف والعثمانيين ومن إليهم وبين سلطان الأمير في المدينة، أي مدينة، والأمير في القرية، والأمير في القبيلة، أي قبيلة.

في المدينة المنورة ومكة المكرمة.. آبار يشرب منها الناس وفي عرفات يحمل الناس الماء في قرب، لأنه لم تكن هناك العين، فالآبار في المدينة بقيت السقيا منها إلى عهد أمية، فقالوا إن مروان بن الحكم أوصل الماء بالعين يمتد ماؤها من بئر أريس في قباء، أعني بئر الخاتم، كما قالوا إن مروان أخذ يحفر يستنبط عيناً في وادي قناة من حرة قريظة إلى مجمع الأسيار بروما، حتى إن الحفار نبش قبر حمزة بن عبد المطلب وعبد الله بن حرام حيث دفنا في مصرعهما، فنقل جسد كل منهما لم تأكله الأرض إلى الحزم.. هكذا السماع، ولعلّي أذكر بخطأ الأدلاء حين يسلمون على حمزة، يذكرون اسم عبد الله معه ويقولون إنه عبد الله بن جحش دفن مع خاله حمزة، فالصواب كما أعتقد أن الشهيد الدفين معه هو الذي وجد معه في المصرع ألا وهو عبد الله بن حرام والد الصحابي الراوية جابر بن عبد الله بن حرام، ويعني ذلك أن أصبحت في المدينة عين الزرقاء تعهدوها بالتعمير جيلاً بعد جيل، وقالوا لنا إنها سميت الزرقاء نسبة إلى عين مروان بن الحكم وقد كانت زرقاء، وراثه من الجدات.

أما الآبار، فهي بئر حاء مالکها الصحابي الخير أبو طلحة الأنصاري وهي في باب المجيدي كما بعدها وعلى نفس الوادي (مشعط) قريباً منه

ببياضة وصيادة، وفي العلية العوالي البصة وغرس والفقير، الحائط الذي زرع رسول الله والصحابة صنوان النخل وفاء بما كاتب عليه سلمان الفارسي ليعتق من الرق فارسي ما استرقه إنسان إلا حين استرق نفسه يبحث عن الهدى، يصل إلى المدينة وهو يجوب الأقطار بحثاً عن الإيمان، فإذا هو (سلمان منا آل البيت)، أصبح يأخذ الفيء وكأنه ند من بني هاشم كما العباس وعلي.

وسوالة وقد كانت ملكاً لعبد الرحمن بن عوف تداول عليها مالكون بعد، حتى شاهدنا أنها أصبحت ملكاً للشريف علي الجمازي والد الشريف شحاز.

وفي الشمال وفي مجمع الأسيال كانت بئر روما ملكاً لليهودي، عذب ماؤها يشرب منها الناس بقيمة حددها صاحبها، فاشترى عثمان بن عفان ذو النورين نصف البئر، لا تقسم نصفين وإنما القسمة يوم لليهودي يشرب الناس بقيمة ويوم لعثمان يشرب الناس بلا قيمة، اشتراها عثمان فسبلها حين ضاق اليهودي لا يأتي إليه شارب ماء في يومه المحدد؛ فاضطر أن يبيع قسمه إلى عثمان وما أكثر ما تصدق عثمان.. جهز جيش العسرة يقول رسول الله عن هذا (ماضر عثمان ما فعل بعد اليوم) ولكنهم اغتالوه، فلولا قوة هذا الدين بسلطان القرآن والإيمان لما تم فتح ولما نبغت حضارة.

وفي مكة المكرمة كانت الآبار، ولم تكن في عرفات ركية فيها ماء، فإذا حفيدة العباس بن عبد المطلب أم المؤمنين زبيدة زوج الرشيد تأبى إلا أن تكون لها السقيا في عرفات، انتزعت بذلك عرق، فجدها العباس كانت له السقيا من زمزم، أوصلت زبيدة العين إلى عرفات ولم تمتد يد حاكم على مدى الزمن بعد ذلك توصل الماء من زبيدة إلى مكة إلا على يد

رجال أخيار في طليعتهم المسلم الهندي (وحيذانة).

ونسأل ملوك الطوائف والعثمانيين والمماليك والأيوبيين والأمراء في هذا البلد، كيف لم ينشطوا إلى إغاثة ثغرنا جدة وثغرنا ينبع والثغور الأخرى بمد الماء من العيون التي تبعد كثيراً، فقد كانت جدة طوال عهدها تشرب من ماء الصهاريج والبرك والقرب يحملها على الجمال يبيعونها لشارب الماء، وينبع كذلك.

إن جدة.. الثغر لا تبعد عن عيون وادي فاطمة إلا أربعين كيلومتراً أو أكثر قليلاً، فلم تمتد يد حاكم أن يجلب الماء لها من وادي فاطمة، كأنما الله قد ادخر ذلك لينعم به على عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود الإمام السلطان الملك، يمد الماء وما كان المال كثيراً وإنما كان العزم كبيراً والنية الصالحة أكبر، فوصل ماء العين من وادي فاطمة إلى جدة، تذهب الكنداسة التي ما كانت تكفي وينتهي عهد الصهاريج والبرك.. كم كان ذلك أثراً مؤثراً في حياة الناس لحياة الناس من الله به على عبد العزيز.

والثغر ينبع، ليس بينها وبين عيون ينبع النخل إلا مسيرة ليلة على الجمل أقل من أربعين كيلومتراً لم تمتد يد حاكم أو سلطان تحت اسم خادم الحرمين إلى أن يجلب الماء من خيف المبارك أو خيف البركة أو من ماء وراءهما الجابرية وعين النوى وخيف حسين، لو صلحت النيات ولم يكن الخصام والفصام لاستطاع الحاكم أن يغيث ينبع بماء العيون، مع أن الرجال كأفراد تعاونوا على مد العيون في الخيوف، فالرجال مدوا عيون وادي فاطمة والرجال مدوا عيون ينبع النخل والرجال مدوا عيون المدينة، إن عين الزهرة حفر منابعتها وسير مجراها رجل واحد اسمه محمد محروس، وكانت المسافة لا تقل عن عشرين كيلومتراً من الأعياص (سلطانة) إلى الزهرة امتدت العين، وكذلك العيون الأخرى لم يصنعها حاكم وإنما صنعتها عزائم الرجال.

وحين جادت الأرض بخيرها نعمة من الله جادت عزائم الملوك من ولد عبد العزيز بالحفاظ على العيون وجلب الماء من العيون ونبغت عزيمة الملك فهد خادم الحرمين الشريفين فإذا هو يصمم على إنجاز التحلية يسقي الثغور ويسقي المدن بالماء المقطر العذب. إن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد حين نذكر عزائمه لا تقتصر على المدارس أكثرها ونشرها، ولا على الجامعات ثبتها ونصرها، فله عزمتان قل ذكرهما له، إصلاح المواني جهداً انتظمت به فلم تعد باخرة تتأخر في الميناء إلا ساعات أن تفرغ حملها، وماء التحلية يصل إلى الأعالي، التحلية على سطح البحر والأعالي على السراة بخ. . بخ فالله ولي النعمة وهو يجزي المحسنين لما أحسنوا.

السلطين والحكام والأمراء استأخروا ليتقدم عبد العزيز وبنوه. . لا أكتب هذا استجداءً ولا نفاقاً ولا تملقاً وإنما هي الحقيقة ينطق بها قلبي وحرفي من استنطاق وجداني، فلعلّ لساناً غير شاكر يصمت، تخرسه الحقيقة. وما ذلك إلا عن حب لهذا التراب توحد في مملكة واحدة بعد أن كان مزقاً بين الخصام والفصام، فنحن جيل الحمد نواكب جيل الشكر وحسبي أنهم الأكثرون الذين إذا نظروا حولهم قالوا (الحمد لله والشكر لله).

## الكنداسة

وما دام الشيء بالشيء يذكر فإن لدي حكاية عن الكنداسة سواء كانت في جدة أو في ينبع، لماذا لم تكن أكبر مما كانت؟ ولماذا الاستكانة والصمت عن العمل للحيلولة دون العراك والصراخ والامتيازات بأناس دون أناس حول ماء الكنداسة وتوزيع ماء الكنداسة؟

والذكريات تجرني إلى حكاية حيث كنت موظفاً محرراً في قسم الوراق

تحت رئاسة الصديق شاعرنا الكبير السيد محمد حسن فقي أمد الله في عمره، ومنّ عليه بالعافية، يناولني الأوراق مشروحة بالتوجيه من المدير العام المساعد لوزارة المالية الشيخ عباس صيرفي الذي لم يكن يرتاح إلي والذي حين كنت له كان الحفي بي الصديق، ولذلك قصة بعد يرحمه الله . . وبدأت أكتب المذكرات طبق الشرح فإذا بخطاب من مدير مالية ينبع محمد الناجم الذي خلف حمد الميمان وله منزلة عند وكيل وزارة المالية حينذاك حمد ابن سليمان يرحمه الله، فكلاهما من عنيزة، قرأت الخطاب يطلب صدور الأمر بإعداد سيارتين كبار تحملان خبرتين من خوياه يحطبون الحطب يجلبونه إلى ينبع البحر من شعاب رضوي (الجهينة) أو من شمال ينبع جهيناً بلوياً أو من غرب ينبع حربياً حدد الطلب بسيارتين والخبرتين لجلب الحطب لأن متعهد الحطب للكنداسة لم يف بالتزامه، قرأت الخطاب والشرح للموافقة على هذا الطلب والشارح عباس صيرفي يرحمه الله، توقفت أستعرض الحال وماذا ينجم عنه ولم أسأل عن ضخامة التكاليف، فحمل الحطب كانت قيمته في المدينة المنورة لا يزيد على نصف ريال أو ريال، فلماذا تجلبه المالية على هذه الصورة باهظة التكاليف، صرفت النظر عن التكاليف لم أجعلها حجة أطلب تعديل الشرح فحجتي هو ما ينجم من فتنة فلربما رجال المالية يقطعون شجراً من شعاب رضوي فيقاومهم بعض الجهنيين أو من شمال ينبع فيقاومهم بعض البلويين أم من غربها فيقاومهم بعض الحرييين كانت فتنة أمام نظري وما استطعت أن أقنع السيد حسن فقي بأن يطلب تعديل الشرح، فقد قلت الاحتطاب على هذه الصورة لن يكون بشرح الموظف بل لا بد من إذن يصدر عن الأمير فيصل يرحمه الله أو عن جلالة الملك عبد العزيز تغمده الله برحمته، فلو ثارت رصاصة من خوي على جهني أو من جهني على خوي لغضب الملك عبد العزيز ولربما أرسل

جيشاً يؤدب من أطلق الرصاص وخفت أن يكتبها غيري فتمضي . . كتبت هاك الشرح بالموافقة وأرسلت إلى كاتب الآلة سراج الدين ابن ياسين وتلبثت قليلاً ثم ذهبت إلى كاتب الآلة أطلب منه حيث شرحت له الوضع أن لا يكتب الموافقة عاجلة، وتأخرت في الخروج ليرسل الملف إلى التوقيع وليست فيه هذه الموافقة، وفي صباح اليوم التالي بكرت في الحضور آخذ الخطاب والمذكرة أدخل على عباس صيرفي أقول له: إذا لم تسأل كيف توافق، إذ لم تسأل عن التكاليف لم يخطر ببالك ما ينجم عن الفتنة أرجو أن يكون الشرح اشتروا الحطب من السوق واطرحوا توريده للكنداسة على ملتزم تثقون به، وكأن عباس صيرفي قد تنبه حين عرف العواقب وعدل الشرح اشتروا الحطب من السوق، وليكن ملتزماً آخر.

وهنا أسأل كم تستهلك الكنداسة من الحطب في اليوم؟ عشرين حملاً بعشرين ريالاً أو حتى بخمسين ريالاً أفمن أجل ذلك نستجيب لهذا الطلب، وكتبت المذكرة ورآها السيد محمد فقي فلم يرتح لصنيعي غير أنني قلت له إن الدم إذا سال من سعودي بيد سعودي أمر لا يحتمل، فاعذرني إذ فعلت ذلك، وما كان هذا مني إلا لأنني بدوي أعرف أشبار أرضي، وصحراءها وأشجارها، فقد نشأت في بيت شعر وأنشأتني ينبع النخل كما نشأني الخرج وشماريخ السراة وعمق تهامة.

## وحكاية أخرى

ونقلت سكرتيراً للمجلس المالي يرأسه الشيخ الوقور أحد المحاربين القدماء في وزارة المالية محمود شلهوب، والمجلس مكوّن من رؤساء الدواوين عبد الرازق هنداوي المحاسبة عبد الوهاب أشي الواردات علي عامر الموظفين عبد العزيز جميل التفتيش محمد حسن فقي الأوراق،

وحولت إلى المجلس معاملة كان الطلب مقدماً من أهل المدينة المنورة لتأسيس قسم ثانوي بعد الإعدادية في المدينة المنورة، فأقر مجلس الإدارة في إمارة المدينة ذلك، وحين عرض على مدير المعارف وقد كان السيد طاهر الدباغ أقر المبدأ كما أقر التأجيل لأن الظرف لا يسمح بذلك لأنه كان في أيام الحرب العالمية الثانية في أول الستينات وأحيل لمجلس الشورى فأقر وجهة نظر المعارف، وقبل أن يجتمع المجلس بعرض الموضوع عليه خطرت لي فكرة نهضت أعرضها على عبد الرازق هنداوي وعبد الوهاب أشي وعلي عامر لأنني أثق بهم وهم يثقون بي، كانت الفكرة الموافقة على رأي المعارف غير أن لا تغلق ميزانية تحضير البعثات بشكل سنوي بل ينبغي أن يظل الصرف على عدد الطلاب شهرياً، كان الطالب يكلف ١٩ ريالاً وكانت الفكرة أن يظل هذا المصرف لكل طالب سواء المنتسبين فيها حين التقرير أو الذين يلتحقون بها من المدينة وجدة والمدن الأخرى، وافق الذين استشرتهم وكتبت القرار ليعرض على المجلس وقد استعرضت الوضع كله طلب أهل المدينة قرار مجلس الإدارة قرار مجلس الشورى ثم وضعت النتيجة بقرار المجلس على أساس أن يبقى المصرف شهرياً يسع واقع المدرسة كل من يستأهل الانتظام فيها من أبناء العرب السعوديين، ووافق المجلس على هذا حين استحسنوا الرأي، فكان عباس صيرفي مدير المالية العام المساعد عضواً في المجلس والانشغال بما لديه قل أن يحضر الجلسة فذهبت بالقرار الموقع بالأكثرية حتى إذا بدأ يقرأ كانت هناك فقرة بهذا النص «والمدينة دار الهجرة تستحق أن يؤسس فيها قسم ثانوي غير أن ظروف الحرب قد أجلت ذلك».. . وسقت بعدها الاقتراح وقرأ عباس يرحمه الله «والمدينة دار الهجرة فإذا هو يضع القرار ويقول بلفظ ساخر يعوج به لسانه والمدينة دار الهجرة والمدينة دار الهجرة، فانتزعت القرار منه أقول

هي الهجرة فلا أنت الوليد بن المغيرة ولا أنا سعد بن معاذ ولكني الآن سأتلفن لصديقك السيد حمزة مرزوقي لا يصحبك إلى المدينة كل عام ما دمت تقول ذلك، وأفاق عباس فإذا هو يرتجف يقول: لا.. لا.. لا كأنه قد أخذ بزلة بينما هو يرحمه الله من الذين نعرف أنه يحب المدينة.

فالمكيون كلهم يحبون المدينة، فلو كان واحد منهم قد أسرف على نفسه قبل أن يصل إليها فإنه لا يفعل ما يؤخذ عليه لأنه يعتقد أن الزلة في المدينة يعجل الله بها العقاب.

تلك ميزة للمكيين وما كان عباس إلا هكذا، وأحيل القرار إلى مجلس الشورى بشرح من محمد سرور ليكون هو مندوب وزارة المالية وقد استحسنه وأقره مجلس الشورى وما أكثر من انتظم في تحضير البعثات من المدينة وجدة وغيرها.

ويأتي الصفاء مع عباس صيرفي حين أوقف عن العمل لخصومة بينه وبين عبد العزيز جميل، يأخذ عبد الله بن سليمان معه إلى الرياض والخرج وقد انتقلت حين ذلك من المجلس المالي إلى رئيس القسم الحسابي السيار أكون في الخرج وسيطاً بين أوامر عبد الله السلیمان ودواوين وزارة المالية.

وسافر عبد الله السلیمان ومكتبه الخاص من مكة إلى الرياض في آخر الليل ومعه عباس صيرفي ومكتبه الخاص برئاسة محمد علي خزندار، ولم نخبر بهذا السفر لأننا كنا ذاهبين، وأخذ المكتب الخاص سيارات «بوكس» جديدة يمتطونها ومعهم عباس صيرفي، وصحونا نركب سيارة فورد صغيرة موديل أكل الدهر عليها وشرب، كان الوقت ضحى وكنا ثلاثة أبو بكر زمخشري ومحمد مغربي وصاحب الذكريات وكحت السيارة لم تستطع العبور إلى الحدود. فرجعنا وأسعفنا وكيل وزارة المالية حينذاك الأخ

الصديق سليمان بن حمد بن سليمان وارتفعت الشمس وأصلحت السيارة، فوصلنا عشيرة وقد وجدنا عبد الله بن سليمان ومن معه معطلين لأن البوكسات تتكسر فيها «الأكسات» حتى إذا جاءهم المدد لم يصلوا إلى الملوية إلا بعدنا نحن ركاب السيارة القديمة، وأشفتت على عباس صيرفي وقد تقدم عبد الله بن سليمان مسرعاً إلى الملوية وسيارتنا وراءه فأكرمني عباس إذ أكرمه أحمله في سيارتنا، وكان سائق السيارة سائقاً مجيداً اسمه حبيب من جماعتنا التكارنة فوصلنا الملوية مع عبد الله بن سليمان، وتأخر الرفاق وبعد العشاء أعد العشاء فإذا بعض كتاب المكتب يؤذن عباس صيرفي بتصرفات غير لائقة فخرجت أطلب سعود بن ثويني أستأجر القاعة التي هو فيها بمائة ريال أدفعها أنقل عباس معنا فيها، أكرمه عن صحبة أولئك أقوم بخدمته ووصلنا الخرج سيارة ابن سليمان أمامنا فورد جديدة بكفراة بالون ونحن بالسيارة الفوردي القديمة فإذا الوزير من ساعتها يأخذ حبيب هذا السائق سائقاً لسيارته مع الآخرين.

وأثمر هذا الفعل مع عباس صيرفي وأخذه ابن سليمان يسلم على جلاله الملك عبد العزيز ليعفو عنه يرد إلى مكانه معزراً مكرماً، وحين رجع من المقابلة الكريمة قال:

«سأطلب محاكمة عبد العزيز جميل، قلت: العفو عنك سيضيع بهذه المحاكمة لا تستأنف القضية فأبى وذهبت مسرعاً أكلم عبد الله ابن عدوان وعبد الله سعد وعبد الوهاب آشي وكانوا هيئة في موضوع يمس عبد الله قاضي يرحمه الله وهو من أهل الطائف وإليه ينسب المهندس عمر قاضي الأمين ببلدية المدينة المنورة، أخبرتهم بخطأ عباس فوعدوا أن ينصحوه ورجعت إلى مكاننا ووجدت زميل الطفولة في ينبع النخل وينبع البحر جاراً

في مبارك ليس بين باب بيتي الفران وبيت الشريف بادي زوج أمه إلا زقاق ضيق لا يبلغ ثلاثة أذرع وزمالة المدرسة بينبع البحر ألا وهو مدير مالية الأحساء حينذاك زكي عمر، له حظوة عند الملك عبد العزيز «ابن سليمان عندنا زكي تعال» يبرق بها الملك عبد العزيز، دخلت أقرأ السلام فما نهض الصديق زكي يستقبلني صديق زمالة وجلست فإذا هو يلتفت إلي نصف التفاتة يقول «سيك بالخير» بلهجة نجدية وقلت له: لا يا زكي تحيتك «صباه الخير اقشام شريف» بلهجة تركية لأنه يرحمه الله تركي العرق ولم يغضب فقد عرف حق الزمالة فإذا أنا الكريم لديه نتزاور في جدة يوم أصبح أميناً على الجمارك يرحمه الله. ومن حق زكي أن يذكر بخير لوفائه على كل من عرف من أهل ينبع وبعدها وحين رجع عباس صيرفي إلى عمله، وفي الصيف أنا في الخرج وعائلي في الطائف كان عباس صيرفي ومن عادته أن يتنفس الهواء مع صديقه السيد حمزة مرزوقي في قروه قرب عجلان فلا يمر إلا ويقف أمام بيتي ليسأل عائلي عن حاجتهم وفي مرة سألهم فقالوا له: اشترينا كيس حب كيس حنطة من التمويل وجدناه وقد أكله السوس فالتفت إلى السيد حمزة يقول له «لا تمشي انتظرنني آخذ كيس الحب المسوس وأحمل لهم عوضاً عنه كيساً من الحنطة النظيفة»، وأخرجوا له الكيس حملة في السيارة ينزل به إلى داخل الطائف يأتيهم بكيس حنطة جيدة.

ما أجمل الوفاء في الرجال وما أجمل الصبر على الخصومة يقتلها صاحبها بالسماحة.

وسألني محمد سرور «إيش سويت لعباس صيرفي» قلت: خاصمني قبل أن يعرفني وصافاني حين عرفني واصطفيته حين عرفته.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٣٥)

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحبباً يتقاربون وبالنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

في الخرج . . أقيمت وليمة ملوخية من البرسيم!

حين هبت «السموم» صنعت لنفسي مكيفاً من الحصر

صحراؤنا ونفودنا، تكفهر إذا ما اكفهرت السماء . . وتبتسم تهتر وتربو

تنت من كل زوج بهيج إذا أغاثها الله بماء السماء يرسل السحاب الثقال .

وكنا في المدينة نفرح بالمطر ونجري وراء البرد نجمعه نشربه نطبخ

الرز والعدس، وسرنا من الملوية فإذا الطريق ينعم بريح باردة وينسيم  
عطر.. وأشرفت الشمس وأقبلنا على نفود السر.. طعوس من الرمل كثنان  
نتوقى المرور عليها نخشى (تغريز) السيارات، فلا نمر بها إلا في هدأة  
ليل، كأنما الرمل ينام هامداً نتخطاه لا يعوقنا شيء، نتجنب المرور في  
النهار لأن الرمل استيقظ كأنما هو يمنعنا من الوطأة عليه، حتى رملنا  
شاعر.. كتبت هذه الكلمة ودمعت عيني من نار الحب لهذه الأرض ونور  
الحب لإنسان هذه الأرض، صدقوني لأشكر، وإن كذبتُموني فأمر أفته فلن  
يكرهني..

وما كدنا نخطو الشبر الأول من نفود السر حتى وجدتنى في جنة  
مزهرة، عجيب هذه الأرض هكذا تمرع إذا أغيثت، تلبد الرمل تحت  
الأزاهير، فالزهر من كل لون.. أحمر وأصفر وأبيض كأنما كل زهرة  
تعاشقت مع الأخرى، فالنفود التي كنا نخشاها أصبحنا نخشى عليها من  
وطأة السيارات.. نخشى أن يطاء سائق السيارة زهرة أو يقتل شجيرة،  
وأمرت السماء رذاذاً هتاناً، فيا لها من فتنة الغيث.. فتنة الجمال، ويا لها  
من رحمة الغيث أفاض على الأرض رحمة فإذا النفود تراحت يثبت فيها  
الزهر، وقلت للسائق. قف، قال: الوزير سبقنا نخشى أن يفوتنا، قلت:  
سنلقاه في المكان الذي يصل إليه، هو إلى القصر ونحن في المربع في  
الرياض، فدعنا نقف لحظة نهناً بحياة الزهور لنجد زهرة في حياة النفوس  
التي عشقت الجمال تؤدي التحية للكمال، وقلت لصاحبي: رأيتم هذه  
الزهور فلتعرفوا أن العربي بلغته الشاعرة وبأرضه هذه الشاعرة وبروحه  
الشاعرة حين وصف الزهور لم يصف زهراً مستورداً أو زهرة رأها على  
شاطئ الفرات أو وصفوها له حول بردى أو على ترع النيل، إنه لم يصف

إلا الزهر الذي عرفه، فالأقحوان والورد والياسمين والفل والشيخ والقيصوم كلها رآها.. عشقها حين عرفها ذخراً على ترابه كان مدخراً تحت ترابه، نبشه الغيث.. سقاها.. فأمرع، لحظات كنت فيها وبها ولها ومعها..

ووصلنا إلى الرياض وإلى الخرج وقد كثرت فيه المزارع، فالخرج كما الأفلاج لم تحبس الماء تفجر فيها في عين الضلع ومخيسة وسمحة، حين امتلأ جوف الأرض من عطاء طويق عطاء الحجر، حجر اليمامة، أبت أرض الخرج والأفلاج أن تخترن الماء فتفجرت عيونها، ولا أنسى الخفس خفس دغرة، عين انحنى عليها الجبل، كأنها انحناء ضلع على عين الضلع وما انحبس الماء على الخليج، فماء الخليج ارتوازي أو في نوافير من عطاء الأعلى من وادي الرمة من وادي حنيفة من وادي الدواسر، وحتى من هضبة الدوادمي وحتى من شرائع السراة، المزارع يسيل إليها الماء من العين سمحة رُكبت عليها مكائن تمتح الماء من عدٍ لا ينضب، يسيل في قنطرة ثم يتجدول جداول إلى كل فلج إلى كل بستان، المزارعون وزعت عليهم قطع الأرض، الكثرة من أهل القصيم إلا واحد هو من أهل المدينة بل من عين أعيانها علي أبو الجود ومعه أخوه الكبير حمزة أبو الجود الذي كان يوم أن كانت الدنيا ناعمة، من أنهد الفتيان في المدينة تياهاً، فإذا هو ينسى التيه الذي كان من وفرة الرخاء ويخضع إلى تيه من قسوة الشظف.

وأمسكت بمكتبي فعرفني أهل الخرج حين كنت أعرفهم بالبسمات والبسمات، إنهم من قومي العرب إنهم من أمتي المسلمة، فقد قلناها من قبل نحن في هذا الكيان الكبير مسلمون على الذروة عريون على السنام تزاوج لا ازدواجية، فقد طرد الإسلام كل نكرة تفرق وما أنكر أن ينتسب مسلم إلى قومه (أنا النبي لا كذب أنا عبد المطلب، أنا من ولد النضر) فلا

قومية تباح وهي تتنكر للإسلام كما ينكر الإسلام على غير العرب أن يتنكروا على العرب ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾ (الأنبياء: ٩٢).

ورجع الوزير عبد الله بن سليمان إلى جدة وأبقاني في الخرج وفي يوم أبيض شرف الخرج بوصول المجمع الإمام السلطان الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن، فإذا أنا أتعرض لمشكلة لا شأن لي بها فلا ناقة لي ولا جمل، فما أنا إلا كاتب في مكتب الوزير رأس قسمًا حسابياً، وكانت المكائن المركبة على سمحة ثلاث عطلت واحدة لأن (تزييتها) بزيت الخروع وبعيد أن يصل في أيام الحرب، وكانت المكينتان كافتين غير أن تشغيلهما يطول، فلو كانت الثالثة تعمل لما طال شغلها، وكسرت مكينة من المكينتين فإذا المكينة التي تعمل لن تكفي، فأسرع المزارعون إلى مدير الخرج، يخبرونه عن شح الماء، المكينة الواحدة لا تكفي، وقالوا للمدير: توجد مكينة في مخزن بنى عليها ابن سليمان باباً من اللبن، وكان في إمكانه أن يتصرف غير أنه تبرأ، وغرى المزارعين يكتب لهم برقية إلى جلالة الملك عبد العزيز الموجود في الخرج يشرحون الوضع وقد كتب فيها «الزيدان حاجز مكينة في المخزن» وكما تقول العامة «يا غافل لك الله» فمن يطيق غضب عبد العزيز، هل أطيعه أنا المسكين، وأدركتني رحمة الله بالمصادفة فقد كان أحمد سعيد العربي المصري السوداني الذي كان ينقل أخبار الراديو إلى جلالة الملك عبد العزيز، والمصادفة قادت أحمد سعيد إلى الديوان فرأى الشكوى سأله نائب رئيس الديوان فقد كان عبد الله ابن عثمان غائباً يومها فقال أحمد سعيد زيدان لا علاقة له بذلك، أرجوك أخر الشكوى لا تقدمها إلا بعد العصر سأذهب الآن، ليكون الحل، وأخبرني

أحمد سعيد مسرعاً وما كدت أسمع الخبر أخاف الغضب أُرهب التأديب حتى ناديت المهندس واسمه حبيب كان مهندساً بارعاً ذا خلق فأسرعت معه نهدم الباب نخرج الماكينة نحملها على اللوري يذهب إلى مسحة وما أسرع ما ركبها وما أسرع ما تدفق الماء ولم نكد نصلي الظهر حتى تدفقت مياه مسحة كأن ماكينة لم تكسر ولم أقنع بذلك فإتقان الغضب لجريرة لم أفعلها جعلني أبرق لعبد الله بن سليمان أخبره بأني هدمت الباب وركبت الماكينة ولعلّي أعطيت صورة إلى الديوان من برقيتي وجاءني الجواب من الوزير: أحسنت بارك الله فيكم ومضت الشكوى كأن لم تكن وإن كان من عقابيلها. . وفي صبيحة اليوم الثاني وصل إلى مكتبي نوري السعداوي وعبد الله السعد وما أدري أكان الثالث عبد الله بن عدوان أو غيره فقد نسيت. . سألوني عن حجز الماكينة كأني أنا الذي حجزتها لأن الشكوى قالت ذلك فأخرجت البرقية وفيها الجواب ابن سليمان هو حاجزها لا يمنعها وإنما كان ذلك حيلة منه حتى وجدناها المغيثة لمزارع الخرج وقنعوا بما رأوا ولا شيء من المزعجات قد وصلت إليه نعمة الله أولاً ووفاء الصديق أحمد سعيد ثانياً وفضل فهد العثمان ثالثاً وقبل كل شيء فالفضل لله وبعد كل شيء السماح لمدير الخرج حينذاك لم يجئ عليّ عقاب وإنما كان العقاب لهزيمة الشكوى.

وحكاية أخرى: عن الذرة والحنطة وفي خفس «دغرة» وقد كانت هناك موزعة كبيرة لمشروع الخرج المكلف بها «إبراهيم الحبودل» من كبار الخويا عند عبد الله بن سليمان وكان رجلاً يحمل المسؤولية ويؤدي الواجب كاملاً. . زرع الحنطة. . زرعة شتوية وحصدها في إبانها ثم حرث الأرض يزرع الذرة زراعة صيفية وهاجت الذرة أثمرت حتى استوت كيزانها على

أعواد حشها حشاً. . حبات الذرة يجمعها والقصب علف حيوان ولكن العجيب حين حش الذرة وجد الحنطة في سنبلها يجمع أكياساً منها نبتت تحت الذرة حين بقي من نثارها في الأرض فإذا هي نبتت مليئة السنابل يجمعها كعجيبة كيف نبتت الحنطة في الصيف ولكنها الذرة التي هاجت صنعت بيئة مناخاً لنبات الحنطة كأنها ظل العيدان من القصب قد أحدثت برداً أمرعت بسبب الحنطة. . فالظل الظليل من القصب والبرودة أعطت الأرض أن تكون وكأنها المشتية ينبت فيها القمح. . أكتب ذلك لا لأنها العجيبة ولكن لعلنا نستفيد من هذه الظاهرة أي قد نصنع بيئة لنبات في وقت لم يكن صاحب البيئة.

وفي الخرج قد نحتاج إلى الخضروات نأكلها ولكن لا نستطيع ذلك لأن الحصىلة لغير الخضروات ولأن الموجود منها وهو قليل لا يكفي ساكني الخرج. . وسمعت أن حسن عشي الطباخ الماهر قد طبخ للشريف عون البرسيم على أنه ملوخية وأردت أن أجرب سلقت اللحم الدسم من الفص والأضالع وقطع من اللية وكثرت الثوم نيئاً في المسلوق وقطفت ورق البرسيم وفرمته كأنه الملوخية وطبخت في السلوقة وأجدت كشنة الثوم وأعددت الغذاء للزملاء. . أقول لهم اليوم غداؤنا ملوخية. . وأكلوا فقد أضع الدسم واللحم والثوم رائحة البرسيم. . فأكلوا حتى شبعوا لم أخبرهم إلا في اليوم الثاني لئلا تتعكر معدة أحدهم وما قالوا شيئاً وما أنكروا حين أكلوا لكن الملوخية هذه لم تكن إلا البرسيم.

واشتد الصيف فكيف أتوقى السموم وتفتقت لي الحيلة أقص لي حصيرة على مقاس النافذة وكانت طويلة عريضة وضمفرت البرسيم ضمفراً أنسجه على الحصيرة وعلقته على النافذة أرشها بالماء والبرسيم يمسك الماء

لا يجف إلا بعد وقت أرش الماء مرتين أو ثلاث فإذا هو مكيف صحراوي.. حلوة تلك الأيام القاسية لأنها قوة في النفس وقوة في العضل فالشظف يحيا به الرجال والترف قد لا يحيا به الشباب.

وكان هناك شباب من المدينة أعدهم ابن سليمان عوناً منه يمارسون العمل كان راتبهم قليلاً فأصدرت أمراً عن أمر الوزير بزيادة الراتب وتقدم الابن عبد الله درندري إلى مدير الخرج يطلب بعض الخضرة ولعلّ المدير كان مشغولاً ولم يعرف الشاب حق المعرفة فقال «ما فيش خضرة، يعني أنتم في بيتكم تأكلون خضرة» فجاءني الفتى جاء يشكو فقلت له الآن سيعرفك وذهبت إلى المدير أقول له: هذا عبد الله درندري أبوه أمين درندري من أعيان المدينة كان له امتياز وجده لأمه لعلك تعرفه إنه الصدر الأعظم، الرجل الأول عند السلطان عبد الحميد صهره الشريف عون له يد على عمر نصيف وله يد على إسماعيل خديوي فشاب هذا جده ومن أبناء المدينة المليئة بالخضار لا يأكل الخضار في بيته؟ فكرب المدير حين عرف وعطف على الشاب وكما قالوا: الدم ما يصير مويه، والعرق يحن للعرق.. كلاهما يمت إلى الأتراك.. وكما يقول أبناء الكتاتيب تمت السورة وضاعت العصايا المكسورة وانتهت رحلتي إلى الخرج.. أعود إلى مكة وإلى أكثر من عمل يأتي ذكره بعد..

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٣٦)

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحبباً يتقاربون وبالنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

الملك عبد العزيز . . الحج والأمن

بعد اجتماع رضوى . . تدفق الحجاج من مصر

دعاة القومية العربية من أولهم إلى آخرهم كانوا لعبد العزيز وبه ومنه . . وقاربت الذكريات على النهاية، وما أحسبني أن كتبت عن (الأنا) لأنني حريص على أن أكتب ما شاهدت . . ما علمت، ولئن جاء بعض (الأنا)،

فليس ذلك من التحدث عن النفس وإن تنفس بعضهم عاتباً أو غاضباً، سيان، فالأنا صرخت وأنا أملي لأشكر هؤلاء الذين شغلوا أنفسهم بواحد.. أسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا.

والمقدمة هذه أتفلسف بها ولا أنافس، ولأدخل في شرح العنوان، وما كنت أستعجل تاريخ البطل لأكتبه، ولكن شاباً من المثقفين قال لي يوم أن أملي هذه الذكريات في ظهر يوم الخميس الرابع والعشرين من هذا الشهر، وقد جاء ذكر المهرجان في المنطقة الشرقية حتى إذا امتد الحديث قال أعجبنى الكاتب الصحفي محمد حسنين هيكل حين كتب مقالاته عن الملك عبد العزيز، فقلت له بسرعة البديهة وبالأسراع إلى العودة إلى ما أعرف، قلت محمد حسنين هيكل صوت سيده جمال عبد الناصر، كما أن جمال عبد الناصر وقد أعلن القومية وأعلن عروبة مصر لم يكن إلا صوت عزيز علي المصري وعبد الرحمن عزام وحمد الباسل وأحمد زكي شيخ العروبة، الذين تواكبت أصواتهم مع الكثرة من أهل الشام، كلهم قوميون بل كلهم الصدى لساطع الحصري، إلا عزيز علي المصري فقد كان صوت نفسه، فالملك عبد العزيز وأبائه آل سعود، كلهم كانوا في نظر القوميين نهضة قومية عربية، حتى إن ساطع الحصري كتب عن اجتماع حاكم عكا الجزائر وأمير لبنان بشير الشهابي، وحاكم دمشق (اليوسف) قال: إن هؤلاء الثلاثة اجتمعوا في عكا يأترون ويتأمرون للقيام بحركة قومية ينتزعون استقلال الشام كلها فلسطينها ولبنانها وسوريها من الدولة العثمانية، وبينما هم مجتمعون سمعوا أن موجة عربية وقبائل عربية قد اتسع وصولهم إلى الشام، فقالوا هذه نجد وصلت قبائلها تحمل حركة آل سعود ودعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، فانفض اجتماع الجزائر واليوسف والشهابي ليدافع كل واحد عن إقليمه وكان تعليق ساطع الحصري أن آل سعود قد أنقذوا

الدولة العثمانية من ثورة الشام ثم هو يقول إن حركة آل سعود ما هي إلا حركة قومية، هكذا القوميون نظروا إلى آل سعود هذه النظرة، ولعلّي لم أعثر على موقف الدولة العثمانية مع اليمن، كتبه ساطع الحصري مع أنه حلبي نشأ طفلاً في صنعاء وتنشأ تركيا في الأناضول، كأنما حلب وصنعاء جعلتاه قومياً، مع أن لليمن حقاً عليه، غير أنه إن لم يتنكر لموقف اليمن من الدولة العثمانية فلربما أن حركة اليمن وحرب الدولة العثمانية عليه، لا يراه ساطع الحصري قومية، لأن الزيدية مذهب حجزه عن ذكره اليمن قوميين، ولم ينظر إلى الدعوة السلفية نهض بنصرها آل سعود، لأن تأثر ساطع الحصري بقبائل العرب في نجد والصحراء ومعرفته لما نصرها وبما انتصروا، عاد إلى كامن المعرفة فأظهره، لأن ظاهر معرفته باليمن لم يتخذ له كميناً في وجدانه، كما أن وتلك عجيبة أن فيصل بن الحسين ملك العراق، كما أخبرنا جميل مردم لم ير زعيماً في العرب يقود نهضة العرب إلا عبد العزيز بن عبد الرحمن فالحصيلة أن دعاة القومية العربية من أولهم إلى آخرهم كانوا لعبد العزيز وبه ومنه .

أما الإسلاميون على اختلاف مذاهبهم ورغم سلطان الاستعمار عليهم كانوا المؤيدين لعبد العزيز، فأهل الحديث في الهند إسلاميون سلفيون انتصروا بعبد العزيز فناصروه، والمذاهب الأخرى فرحت بعبد العزيز ورحبت به رغم اختلاف المذهب، لأنه جمع الشمل وأمن الحجيج رفع الإتاوة وأزاح الخفارة حتى إن المؤتمر الإسلامي المنعقد في مكة وقد مثلت فيه الكثرة من المسلمين . . مسلمو الأناضول . . مسلمو التركستان بزعامة موسى جار الله . . مسلمو الهند أهل الحديث . . جمعية الخلافة . . وغيرهم قد بايع ممثلوهم الملك عبد العزيز سلطان نجد ملكاً على الحجاز .

فإذا بيعة المؤتمر الإسلامي، وصداقة القوميين العرب في كل الأقطار

العربية، قد أعطت للملك عبد العزيز إلغاء كل ما كان قبل المؤتمر لأن بيعة الإجماع المسلم في المؤتمر وفي طليعتهم الذين مثلوا الحجاز، قد محت كل ما كان قبل المؤتمر، فأصبح اللقب ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها، وكان اليوم الأغر يوم ١٧ الجدي سنة ١٣٤٤هـ.

ولم يكن ذلك عن علاقة شخصية بعبد العزيز فعلاقة الإسلاميين صون الحرمين والحجيج والأمن وعلاقة القوميين أن وجدوا البطل فتحركوا به القومية العربية بزعامة من كان لها.

وتنفس الشاب يقول: لكن الكاتب البعيد أو المتمرد يحمد الله أن يقترب وألا يطغى على الحقيقة بالتمرد، وأبى إلا أن يثيرني، يسألني عن كاتب المقال السياسي فقلت له نحن من جيل عرفنا كتاباً أربعة هم أبرع من كتب المقال السياسي الطويل، شاميان ومصريان سامي السراج وأيمل الغوري شاميان.. والدكتور محمد حسين هيكل ومحمد حسنين هيكل مصريان، أما المقال السياسي القصير فلبناني واحد ميشال أبو جودة وشامي تمصر داوود بركات ومصري من الصميم عبد القادر حمزة، وليس في ذلك ما انتقص قدر العقاد وإحسان عبد القدوس في المقال الطويل كما لم ينتقص قدر علي ومصطفى أمين في المقال القصير، غير أن صلابة الرأي بتطرية الأسلوب هي غير الفكرة الطريفة عن الواقع التي لم ترجع إلى التليد.

إن مقالاً للدكتور محمد حسين هيكل عن الزعامة المقدسة، ما زلت أطلبه أجري وراءه لينشر اليوم، كتبه هيكل رداً على مكرم عبيد يوم لقب النحاس باشا بالزعيم المقدس، قالها يوم كان يصطفيه النحاس، ولكنه لم يحترم كلمته فإذا هو الذي دنس بشهادته في إحدى محاكم الثورة، مكرم

تلحقه المعابة ونسأل الله المثابة للنحاس .

وعن الأمن والحج . . . مازال ماثلاً إلى الآن ولكن دهشة كل من اتجه إلى القبلة عظيمة يسألون أنفسهم كيف استطاع عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود أن يصنع هذا الأمن، حتى إذا عجبوا قالوا (تلك نعمة الله).

وكان الحج على الجمال يعيش الحجاج آمنين لا يدفعون إتاوة ولا تحرسهم خفارة وحين كثرت السيارات وتأسست الشركات وتوحدت الشركات، استراح الحجيج يمتطي السيارة ولم يعد الجمل مطية، وألغيت القوامه والخراجه وأنعم الملك عبد العزيز على المقوم والمخرج بعون كلفت أن أقوم بصرفه كسكرتير لإدارة الحج وكعارف بهؤلاء المقومين والمخرجين، كلهم من حرب، وابن المدينة الحربية من الغابة للآبة والذي نشأ بدوياً يعرف هؤلاء .

ولعلّ من جزع أول الأمر حمد ذلك آخر الأمر، فإذا هم يعملون حضراً ويتخرجون من الجامعات دكاترة وفي الجيش والحرس ضباطاً وجنوداً، كان الانصراف عن كل ما مضى هو النعمة لكل من هم فيه أو ما هم فيه .

وكلفت كسكرتير لإدارة الحج التي كانت مرتبطة بوزارة المالية والتي كلف محمد سرور الصبان بأن يديرها، وإذا نحن في جدة، وقد حلت البطاقات بقيمة ما يدفعه الحاج من رسوم وأجور فلزم الأمر بإلغاء ما كان سابقاً باسم الكوشان، وإذا المنه بعد ينهض بها عبد العزيز يلغي رسوم الحجاج فلا يدفع الحاج إلا رسوم الخدمات والسكن للمطوف والوكيل وما إلى ذلك .

وكلفت بأن أدير الحج لترحيل الحجاج في جدة وكان الحجيج من

العرب يصلون بالبواخر من مصر ومن الشام ومن الشمال الإفريقي، وكان اجتماع رضوى بين الملكين، الملك عبد العزيز والملك فاروق يرحمهما الله قد تكاثر به الحجاج من مصر، بل وما فعله طلعت حرب لتيسير الوصول بالبواخر التي أعدها تابعة لبنك مصر، كان مساهمة في كثرة الحجيج.. ولماذا أذكر ذلك؟! لأن فيها ذكريات لا بد أن تذكر:

١ - دخل إلى مكتبي في جدة صديقنا ونحن في المدينة باشكاتب التكية المصرية محمد المرسي، الذي كان عشرينياً لا يختلف عن (بشكتنا) تعجبه طبخة (الشكشوكة) يصنعها منشي كرامه، دخل على غير محرم وصل من مصر وهو لا يحمل البطاقة، فأمسك صالح نور مدير الجوازات جوازه، لأنه لم يدفع كحاج، وبعد أن سلم قال: يا أخ (نحن الآن بقينا إخواناً بعد ما اجتمع الملكان في رضوى قلت له: غفر الله لك، لقد كنا أخواناً بالشهادتين وباللغة وبالمسجد وبالأزهر، قبل اجتماع الملكين، وإن كنا نحمد للملكين ما فعلا، فالوئام بين كل العرب هو خير لكل العرب، وتلفنت لصالح نور، محمد المرسي باشكاتب التكية لا يعامل معاملة الحجاج سيذهب إلى المدينة وسيحج منها.

٢ - وتلفن إليّ أحمد جبر القائم بأعمال السفارة المصرية: عندي أحمد باشا عبد الغفار ومحمود سليمان غنام وجلال حسين، تعال شرفنا ندبر أمرهم إلى مكة، وذهبت فأحمد عبد الغفار عضو الأحرار الدستوريين وأحد أعيان المنوفية من البيت الذي نما فيه أنور السادات ومحمود سليمان غنام أحد وزراء الوفد، دبرت أمرهما بالطلوع إلى مكة وإذا جلال حسين يقول لي: شوف الولد صالح نور سحب جوازي هو ما يعرف أنا صديق عبد الله سليمان وصديق محمد سرور فقلت له: والحاضرون يسمعون، صالح نور

ما هوش ولد أدى واجب الوظيفة، أنت وضعت نفسك في هذا الموقف لم تمل البطاقة فسحب الجواز، فإما أن تتلفن الآن لعبد الله سليمان أو محمد سرور يسمحون لك بالجواز وإلا أن تدفع المطلوب، وتكلم أحمد عبد الغفار بكل الصلف الذي يحمله: أنت جيت هذا لنفسك، فقال أحمد جبر:

أرجوك أن تتلفن أنت، وتلفنت لمحمد سرور وسحبنا الجواز حيث أعفي من الرسوم.

٣ - وكلفنا أنا وعبد السلام غالي أن نستقبل بعثة الطب المصرية، وتم استقبالهم برئاسة الدكتور عبد الرحمن عمار، ورجعت إلى مكنتي فوجدت مدير الشؤون المالية في إدارة الحج عابد قزاز يرحمه الله، وقد ركبته أزمة لأن الشيخ يوسف ياسين قال له: لديكم أمر استقبال البعثة الطبية المصرية، لماذا لم تنفذوه، وما صبر حتى يتلقى الإجابة من عابد، كلمني عابد بذلك فطلبت السيد يوسف ياسين في الخارجية ومكتبها كان داخل البلدة، فإذا الصديق الابن فريد بصراوي وكان سكرتيراً للشيخ يوسف على التليفون، قلت له: أخبر الشيخ يوسف أننا استقبلنا البعثة في الباخرة وكاذب من قال له غير ذلك مهما كانت قيمته، وبعدها بوقت قصير، كلمني فريد قال: لقد اتصل الشيخ يوسف بالسفارة المصرية وعرف الحقيقة وهي التي بلغت الخبر الأول وعلم أحمد جبر بذلك، وبالمصادفة كان محمد سرور بالمكتب فجاء أحمد جبر يعتذر عن هذا الخطأ، الذي أخرجنا مع الشيخ يوسف.

٤ - وجاء اليوم الثامن والسيارات قليلة وفي جدة ثلاثة عشر ألف حاج سوريون مصريون مغاربة أترك، واليوم يوم التروية، والحج غداً، وتلفن إليّ محمد سرور من الحوية في خدمة الملك عبد العزيز: ماذا لديك؟ قلت: ١٣ ألف حاج ونحن بعد الظهر ولا سيارات، قال: تفضل الملك عبد

العزير فأمر وزارة الدفاع أرسل لكم الآن الأمير منصور بن عبد العزيز ٥٠ سيارة أف دبليو تحمل الحجاج الذين عندك وألق القبض على كل سيارة فاضية، قلت له: تلفن لخليل هجانه مدير الشرطة يكون معي، قال: افعل ما شئت على مسؤوليتي، فكلمت منتظر طرابزوني عن نهاية التفتيش في الباب وكلمت رئيس المطوفين: لا بطاقات، البطاقات بعد الحج، وكلمت محمد صالح أبو زنادة مدير الشركة، سيارات الدفاع ستحمل الحجاج، حساب الشركة بعد الحج على حساب الجوازات التي حجزتها عند صالح نور، ووصلت السيارات لم أتركها تذهب إلى بيت الوكلاء، كلمت النقيب عبد الله بنقش: أن الحجاج يحضرون إلى الكراج يركبون بدون عفش فلا مجال للتأخير وإلى عرفات مكثت في الكراج ومعني خليل هجانه، ولم يكذ يتتصف الليل حتى رحل الجميع.

٥ - وتلفن إلي الشيخ يوسف ياسين في ذلك اليوم العصيب يقول لي قدم السوريين، قلت (لو قالها غيرك يا أبا عبيده) فضحك وفهم لأنه لا يمكن تقديم حاج علي حاج يرحمه الله.

٦ - وفي صبيحة ذلك اليوم جاء الحجاج المصريون بكثرة كثرة إلى مكثي وهم يهتفون يحيا أبو السعود.. يحيا فاروق، فقال عابد قزاز يرحمه الله هيا فك العجة، ووقفت على الشرفة أقول: لا رفت ولا فسوق في الحج لبيك اللهم لبيك، لا هتاف لأحد أنتم في الحج اذهبوا وارسلوا الوكيل مفيش هتافات، وانصرفوا.

وذكريات أخرى ما نسيتهما ولكنها ثقيلة تمس بعض الأفراد من ناحية البطاقات.. وقد قال جل جلاله ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

وانتهت ذكريات الوظائف.. . خسرت فيها راحة النفس فما أسعدني يوم  
كنت معلم صبيان وما أسعدني حين أحلت إلى التقاعد، لأنها أعطتني أن  
أكون المتنفس ما أريد صواباً أو خطأ وأعمل بنصيحة شيخنا محمد عبد  
القادر الكيلاني التونسي فقد قال: أكتب رأيك صواباً أو خطأ وإياك أن  
تكون الكاتب النذل.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٣٧)

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أفحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن» .

### خمسة ملايين ريال . . تطاردني!

وفارقت المدينة الجديدة، لم أفترق عن المدينة وطيناً، وإني أجد نفسي في مكة المكرمة مكياً من أهل المدينة، مديناً من أهل مكة، ولا يقتصر ذلك على المكتنين لأنني أعيش الحب لكل شبر من أي أرض عربية أو من كل أرض ارتفعت المآذن فيها وكثرت المحارب والمنابر وعمرت المساجد، فالأذان على المنارة إنارة، والقرآن في المحراب هداية ونور، والكلمة على

المنبر إعلان وإعلام، إعلان الشهادتين وإعلام الإمام للمصلين يدعوهم إلى التمسك بالجماعة «إن يد الله مع الجماعة» و «إن يد الله على الجماعة».

وأكرمتني مكة، وأكرمت نفسي فيها، أمسك الطريق المستقيم لا هم لي إلا أن أقوم بالواجب على قدر الاستطاعة وألا أحرم الحق من واهب أو من سيد العمل، وما استطعت أن أعود إلى الصحافة كاتب مقال، لأن رؤساء التحرير ما كنت خليطاً بهم، فقد كانوا أول الأمر من أهل الفوق.. عظاميين فلم يتسعوا إلا لأنفسهم.

وكان حمزة شحاته يتعد عن النشر، لأنه كان يرحمه الله عظامياً بثقافته يتعاضم على المتعاضمين، شعيباً تعاضم به الذين لم يكونوا من المتعاضمين، عرفته في جدة يوم رحلتي إلى الهند، وكنت معجباً به، ولكن من هو الذي يستطيع إعجاب حمزة شحاته؟

وفي ليلة من ليالي الإقامة في بيت الأفندي نصيف، وصل حمزة شحاته يزور صديقه الأستاذ حسين محمد حسين نصيف وسأل من هذا، عرفته باسمي ولعلّه قد سمع به من احترافي الخطابة ومن صلتني بجريدة المدينة، فأراد أن يمحض الزبد بأسلوبه الساخر فقال: إيش رأيك صادق عرنوس ما هو أشعر من شوقي؟ فقلت له ضاحكاً: هذا يعني أن شاعر المسفلة البنغالي الذي يقيس ميزان الشعر بالمسواك هو أشعر من حمزة شحاته، وأعجبته الإجابة لأن صادق عرنوس يرحمه الله كان يتعرنس في مجلة الفتح أما شوقي فقد افترس المثقف العربي من الخليج إلى المحيط، وقلت له: لقد تحدث إلى أحد علماء شنقيط حتى إذا امتد الحوار قلت للشيخ: أنتم أهل شنقيط حفاظ اللغة ما زلتم أعراباً أقحاحاً في الصحراء الإفريقية، لهذا حصرتم أنفسكم في شعر الجاهلية وأكبرت شعر هذيل،

فقال العالم الشنقيطي: إذا قال المحدثون مثل هذا البيت حفظاً لهم وأنشد:  
لكن أخوخيل حمي سهواتها وأدار من أعرافها الهيجاء  
قلت له: هذا البيت لمحدث هو شوقي من قصيدته في رثاء عمر  
المختار، فقال: أولاً ترانا لا نحفظ شعر شوقي!

ومرة أخرى كان حمزة شحاته يرفع خليطه ولا شأن له بالذين لم  
يختلطوا له. من هنا دفع الصديق عبد الله عريف إلى أن يكون بجدارة  
عرفها الناس له، كاتب مقال رئيساً لتحرير البلاد السعودية، وتوطدت الصلة  
بيني وبين العريف، فأخذت أكتب من حين لآخر في جريدة البلاد  
السعودية، وحمزة شحاته أعطى لعبد الله عريف سمعتين شهيرتين، فقد كان  
حمزة ليرفع من عريف يكتب بحثاً مستفيضاً عن الجمال بتوقيعه، ثم يكتب  
الرد على هذا البحث يعتمد المفارقة في الأسلوب ينشره عبد الله عريف  
موقعاً بإمضائه، والسمعة الثانية التي لم يكن حمزة الوحيد فيها، بل كانت  
هناك مشاركة من أحمد قنديل ومحمد عمر توفيق وكاتب الذكريات، ذلك  
طرح أفكار وتحليل شخصية يستوعب ذلك عبد الله عريف فأخرج كتابه  
تحت عنوان «رجل وعمل» عن محمد سرور صبان، أكثر الأفكار من حمزة  
ومن قنديل، أما الأسلوب فأسلوب عريف وإن كان بعض الحلية لواحد من  
هؤلاء حتى تسمية الكتاب كنت صاحبها، فتوطدت العلاقة بيني وبين عبد  
الله عريف، وكانت أكثر توطيداً مع محمد عمر وأحمد قنديل، فقد كانا  
العون له في التخطيط للجريدة وإخراج الماكيت أول الأمر، أما علاقتي به  
فلم تشبها شائبة، يسهر عندي وأسهر له، حتى إن تسعة مقالات كانت  
حملة على زعيم عربي نقداً لموقفه من المملكة العربية السعودية مليتها على  
عبد الله عريف وما تحاشيت أن أوقعها بإمضائي، ولكن عبد الله عريف

نصح بأن تكون للجريدة لتصبح أشد وقعاً، فرضيت أمليتها يكتبها ينشرها موقعة باسمه. ومن الغرابة بمكان أن رجلاً من الكبار قال لكبير مسؤول إنه هو صاحب المقالات.

ويكفي كاتب الذكريات كما تقول العامة «نعيرها» حيث لم يركب بعيرها، بل عز عليه أن يركب عَيْرَهَا. وافترقنا ولذلك أسباب حتى إذا كان نظام المؤسسات واختاروني رئيساً لتحرير جريدة الندوة، لم أجد نفسي أن أكون لعبة لأحد فاستقلت وأكثر الناس علماً بذلك هو عبد الله عريف هو محمد عمر توفيق، هو العظيم الكبير الذي سأل حتى إذا عرف أنصف وكان السائل منتدباً منه محمد عمر توفيق فإذا أنا بعد ذلك أعيش في أمن ودعة وإن تكدر ذلك بعض الوقت، لأنني كُلفت وأنا في مصر أن ألقى خطاباً في حفل تكريم لجمال عبد الناصر يقيمه السعوديون المقيمون في القاهرة، يشرف الحفل الملك سعود حين يصل إلى القاهرة من سويسرا، وكان التكليف بإصرار من محمد سرور وإبراهيم السليمان وعبد الله محمد الفضل فلم يقبلوا اعتذاري وكان من السعوديين من يستطيع ذلك.. فؤاد شاكر حمزة شحاته أحمد قنديل ضياء رجب، غير أنهم أرادوني لذلك.

ورأيت بطاقة الدعوة، لأن الأخ الأستاذ محمد خليل عناني، سكرتير محمد سرور، ورشدي ملانياز لديهما التنفيذ والاتصال بوزارة الخارجية المصرية، رأيت البطاقة وإذا فيها «الجالية السعودية» تدعوكم.. إلخ، فرفضت ذلك أقول لهما: العربي في أي أرض عربية ليس جالية وإنما هو مقيم في أرضه وإن اختلفت الزعامات وعدلت البطاقة، فأخذها رشدي ملا يستشير وزارة الخارجية المصرية، فأقروا ذلك، وقد دعي للحفل كل أعضاء مجلس الثورة والكثير من المؤرخين والأدباء والإذاعيين، واستقبل الضيوف

خيارنا من السعوديين ليس أولهم السيد عبيد مدني وليس آخرهم عبد الله محمد الفضل .

وألقيت الخطاب، وتصنعت أن أكون قوياً فطلبت من عبد المجيد شبكشي ومحمد سعيد باعشن أن يكونا سنداً أتكى عليهما لأحفظ نفسي من الارتعاش وكان الشيخ يوسف يس حاضراً في معية الملك سعود يرحمهما الله، وخلاصة الخطاب هكذا .

يا صاحب الجلالة .. يا صاحب الفخامة .. أيها الحاضرون ..

إقبال سعود واستقبال جمال يعني أننا الأمة الواحدة، ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢) يا صاحب الجلالة .. من بلدك دار الهجرة المدينة المنورة تفرعت لمسيرة الفتح قاعدتان، بعد عهد الخلفاء قاعدة في دمشق شرق منها الفتح ولا سباب لم يعرب، وقاعدة الفسطاط «القاهرة» غرب منها الفتح فعرب .

يا صاحب الجلالة ويا صاحب الفخامة .. لئن قدس الدين إسلامنا مكة والمدينة وبيت المقدس فقد قدس العرف والدم والتاريخ والمصير دمشق وبغداد والقاهرة والرياض وكل شبر من أية أرض عربية، لم تكن الكلمة الأخيرة أقولها لأول مرة فقد قلتها في المدينة المنورة وفي صالون المدرسة في حفل تكريم أقمناه نحن جماعة المحاضرات، تكريماً لأمين الحسيني ورياض الصلح وعزت دروزه وبشير السعداوي، زائرین للملك عبد العزيز وصلوا إلى المدينة مسجدين ومسلمين، كما قلتها وفي جماعة المحاضرات في حفل تكريم أقمناه نحن جماعة المحاضرات في تكريم شكري القوتلي يوم كان زائراً وحين كان صديقاً للملك عبد العزيز تغمدهما الله برحمته .

وانتهى الحفل، وكان ولدي الدكتور فيصل زيدان مازال طفلاً يجري

وراء زكريا محيي الدين ينادي: زكريا.. زكريا، هذا أبويا.. وابتسم زكريا، وكان صديقنا أحمد لاري في الصدارة من الحفل وبجانبه أحد الرجال الكبار من الرديف لمجلس الثورة يقول لأحمد لاري: ليس هذا خطاباً إنما هو ميثاق، نسيت اسمه ولكنه كان في آخر أمره وقيل مراد غالب، سفيراً في الاتحاد السوفياتي.

ورجع إبراهيم السليمان العقيل السفير، بعد أن ودع الملك سعود وجمال عبد الناصر يخلع ساعة «فيشرون» من معصمه، يهديها إلي، وناداني عبد الله عبد الرحمن لنجاوي مدير مالية الرياض يناولني ثلاثمائة جنيه مصري عن أمر الملك سعود ولم يكن غير ذلك وكذبة كبرى إن كان غير ذلك.

وبخل علي العارفون بهذا السؤال طرحه جمال عبد الناصر على السفير: من هذا؟ يسأل عني، فسماني إليه فقال جمال: ما كنا نحسب أن عندكم مثل هذا، لم يقلها لي محمد سرور ولا إبراهيم السليمان، ولكن الذي قالها لي بعد ثلاث سنوات الصديق الوفي عبد الله السعد سمعها من إبراهيم السليمان في بيروت حين أقصي عن السفارة، لقد بخلوا بالمال فما لهم يبخلون بالثناء؟

تلك أيام مضت أتطرى بذكرها حين أستريح إليها، راحة العجوز الذي عاد طفلاً.

وتأتي أضحوكة، لقد طبعت نسخاً من الخطاب تناولها الصحفيون، وجاء مندوب الأخبار يطلب نسخة قلت: هيا إلى البيت وركب معي الصديق أحمد لاري والمراسل، وصعدت إلى الشقة أحمل النسخة أسلمها لمندوب الأخبار، فقال «هو أنت اللي كتبت هذا الخطاب؟ فقلت ساخراً:

لا، رحت لدرويش من دراويش السيدة بريالين كتب لي هذا الخطاب، فعرف السخرية، قال: آسف، قلت: هكذا كثير منكم لا يعترف بأن في العرب من يكتب أو من يخطب.

وكنت صديقاً لكمال الملاخ فسلبني وطنية السعودية، يكتب أن أصلي من أسيوط صعيدي ويعني ذلك أنني البدوي لكمال الملاخ كما هو. «سالف أهل الصعيد» وقال لي بعدها محمد سرور وأمام سليمان الحمد: استكثروك علينا، قلت: كلام جرايد، وإلا فأنا سعودي، لقد رفضت الإقامة في القاهرة يوم عرضوا علي ذلك بجعل وكان جوابي: هل كان أجر مبادئ أم عمالة، إن المبادئ لا تستأجر والعمالة لا أرضاها لنفسي، ماذا أصنع لكم هنا إلا أن أكون من مشرب إلى مشرب من كفتريا إلى أخرى، كما فائق السامرائي كما عبد الله التل كما فؤاد الركابي، سأذهب إلى أرض كل شبر فيها ملكي ولن أقيم في أرض أجدد الإقامة كل حين لا أريد أن أكون الأخير في بلد تعدادة ثلاثون مليوناً، أريد أن أكون في بلدي قد أكون واحداً من هذا الرقم مليوناً أو خمسة ملايين، فالواحد من هذا المليون يشرفني وفي أرضي من أن أكون الأخير في نهاية الثلاثين مليون، ورجعت إلى بلدي أحمل ديناً بعثت من أجل سداده بيتي في الطائف ٣٢ ألف ريال نصفه كمرفق للطريق ونصفه بعته عن طريق السيد علي عامر للصديق الأخ محمد باحارث ولم أستطع تسديد الدين كله، فزرت الملك سعود يوم كنت رئيساً لتحرير البلاد فطلبت تسديد الدين فمنحت ٢٣ ألف ريال وليس غيرها منحة من الملك سعود.

وجاءني الأخ عبد الله عريف يقول لي: لا بد عندك الكثير، أكتب ما عندك وأرسله لعيد بن سالم، قلت: ما عندي شيء ولو كان عندي لما أكتب لأمثال عيد بن سالم، ولم أكتب حرفاً وعرفت بعد ذلك أنها كانت

توريطه يغضب مني من لا يرضيه ذلك، وكان ردي فيه السلامة. وحسبي الله ونعم الوكيل.

وصلت مكة وكان راتب التقاعد ١٧٠٠ ريال أو على رأي العامة «بايدي فك حلقي» فزارني الصديق الوفي بعد ذلك والي كل ذلك، السيد عبد الله جفري أخذ مني حديثاً وكان مع محمد عمر توفيق الذي كان يدير مكتب جريدة البلاد في مكة يثق به رئيس تحريرها الصديق حسن عبد الحي قزاز، ولم ألبث إلا وقد جاء العون من الصديق محمد عمر توفيق يختارني فيرشحني مديراً لتحرير البلاد، فاستقبلني حسن قزاز بالترحيب والراتب ١٨٠٠ ريال فأصبح دخلي ٣٥٠٠ ريال، يكفي وزيادة يبجح به كاتب الذكريات المتلاف.

وأضحوكة أخرى فقد قال الأستاذ فؤاد شاعر الشريك في رئاسة التحرير اسماً رديفاً لحسن قزاز قال لمحمد سرور: كيف يرضى الزيدان أن يكون تحت حسن قزاز وعنده خمسة ملايين ريال، فأجابه محمد سرور «أتلهي على عينك، الزيدان ما يعرف يجمع» وركبنتي إشاعة الخمسة ملايين ريال فقد شكاني أحد الدائنين إلى مسؤول فقال له: الزيدان ما ياكل حقك عنده خمسة ملايين ريال ارجع إليه يعطيك، وكربت، راتب التقاعد المجمع لتسعة أشهر ١٥٣٠٠ ريال وقيمة البيت ٣٢ ألف ريال ومنحة الملك سعود ٢٣ ألف ريال.. أجمعوها تجدوها ٧٠ ألف ريال لم تسدد كل الدين بقيت ٩ آلاف ريال عرفها محمد سرور فوهبني التسعة آلاف وتخلصت من الدين، ويعني ذلك أن إقامتي في مصر تكلفت بها الثمانين ألف ريال تقريباً ومع هذا ما زلت عند بعض الناس أملك خمسة ملايين ريال.. هيا ما أحسن هذا المثل «لأن أكون الرجل المحسد خيراً من أن أكون الرجل المشفق عليه»، فبعض الإشفاق شماتة.

وليت الأمر وقف عند الخمسة ملايين ريال، فقد جاءني الصديق صاحب الثبات والإثبات الأستاذ أحمد جمال متعاطفاً معي يوم كنت أقود معركة الجريدة مع الخلاف بين المملكة ومصر، قال لي الأستاذ أحمد جمال «إيش عملت في عمارتك بمصر وكيف حال أولادك في القاهرة؟ قلت له: هذه أخبار «الجودرية» أنا لا أملك شبراً في مصر وأولادي هنا أكبرهم في لندن فاطمئن، فالنتيجة خمسة ملايين ريال وعمارة في مصر، ونسيت أنني كلمت رئيس مجلس بنك الرياض أطلب كشف حساب بخمسين ألف ريال مقابل رهن بيتي في مكة فقال: عندك ٥ ملايين ريال وأكشف لك حساب.

وكنت مديراً لتحرير البلاد ثم رئيساً لتحريرها رضوخاً لأمر لا شهوة ولا اعتداء مني على الأخ حسن قراز فلست الخؤون بل لإني رفضت عرضاً يعطيني ملكية أسهم شركة التوفير والاقتصاد في جريدة البلاد. وعزلوني من رئاسة التحرير، ثم اختاروني رئيساً لتحرير الندوة فاعتزلت كما ذكرت، وبأسلوب آخر أصبحت أذيع «كلمة ونصف» كان أجرها غيثاً.. وجاء التلفاز فتلفزت الأحاديث التي تعرفونها، ثم اختارني الصديق الكريم وزير التعليم العالي الشيخ حسن آل الشيخ عضواً في مجلس إدارة الدارة ورئيساً لتحرير المجلة، أباح لي أن أصدرها في جدة فأبيت إلا أن تصدر في الرياض والراتب كان ٣٠٠٠ ريال، تذاكر السفر منها وأجرة الأوتيل منها وأجرة السيارة منها وما عملت ميزانية خاصة للمجلة كما غيرها، وكربت كثيراً وصبرت أكثر ونلت الشرف عضواً في مؤسسة الملك عبد العزيز، فما أسعدني بهذا التشريف بأسلوب التكليف.

ولم تبق في الذكريات إلا واحدة عن الطفولة والإقامة والوطن وبيت الشعر والأب والخال.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٣٨)

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أفحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

منثورات . . من هنا وهناك

ماتت أمي فأصبح لي أربع أمهات!

باع أبي حماره وغادر الصعيد إلى المدينة المنورة.

وتأبى الذكريات أن تنتهي، مع أنني كنت أريد النهاية لها تحت وازع الحياة، يلزمني ألا أكون جهير الصوت أنطق من سكت الزمان عنه، فمن

المعابة بمكان أن تثير فاضحة ولو كانت واضحة.

وجعلت العنوان منشورات استعرتة وما سرقتة من الكتاب (رياض الصالحين) للإمام النووي يرحمه الله.

### - المنشورة الأولى :

عن هؤلاء الذين كانوا بأسلوب المعارضة، يساريين بينما هم اليوم طليعة اليمين في هذا البلد الميمون، كأنهم قد عادوا لِنُحْبَهُمْ أكثر، وإن كانوا ومازالوا على حرف، لأن جفوتهم لما تقضي عليها صفوتنا، ترحيب حين اللقاء وجفاء إذا ما خلوا يذكرون ماضيهم، فقد كنت في عداد الذين ليسوا وطنيين، حتى إن بعضهم وكان عضواً في مؤسسة البلاد، يلح على رئيس التحرير أبي فوزي عبد المجيد شبكشي، ألا ينشر لنا ما نكتب، لأننا.. ولأننا.. ولأننا، وكأنما نسي أن عبد المجيد شبكشي كان واحداً منا، إيجابياً لا سلبياً.

ولا أدري عن الفائدة من السلبيات، ألا يعرف أنه في المركز المرموق لم يصل إليه إلا بالإيجابية، قال لي واحد منهم وفي القاهرة: أنت من أصحاب الملايين.. قصور وعمارات، أما فلان فقد أدى، وأعوذ بالله من قوله، لقد أدى (مهمة نبي) وهو الآن لا يملك ما ملكتم، أنت وأعمامك وأمثالك، قلت له: هيا إلى الشهر العقاري أكتب تنازلاً عن كل ما أملك مقابل أن يكتب صاحبك التنازل عن نصف ما يملك، وبهت وأخذ يكابر (إيش.. إيش) وشرحت له بأسلوب المقارنة، فقال: ما كنت أدري، قلت ها أنت الآن تدري، فقال: يعني هو منكم؟!!

قلت: يشرفنا أن يكون منا، ويكلفه الشطط أن يكون منكم.

## — المنشورة الثانية :

وتلسن بعضهم، وقد أصبح من أصحاب الثقة والحظوة على الخادم المخلص للملك عبد العزيز عبد الله بن سليمان، قال: أهو بساتين في الخرج وحذاء والشرائع، حتى أخذ بستان فرج يسر بجدة، وسمعت ذلك فقلت لمن أسمعني: لئن انتشرت البساتين في الخرج، فما كان ذلك إلا لأن الخرج ثكنة عسكرية سياج حماية للرياض وللطريق، أصبحت مدينة لها شأنها، وما أكبر شأنها الآن، ولم يكن ذلك إلا بأمر الملك عبد العزيز. أما حذاء فقد كانت بؤرة لقطاع الطرق، فكم من جريمة ارتكبت في زقاق حذاء، فاشتراها ابن سليمان وبأمر الملك عبد العزيز، سياج حراسة للطريق لا يأوي إليها شريد أو طريد أو قاطع طريق لأن الأمن للطريق بين مكة وجدة من دواعيه أن تكون حذاء ملك الدولة، صوناً لها وصيانة بها، وكذلك الشرائع، مركز تفتيش وحراسة أمن بين الطائف ومكة يوم كان الطريق من مكة إلى الشرائع إلى الزيماء إلى العدو اليمانية من الوادي (مر الظهران) الذي عند المضيق على رأس العدو الشامية يسمى وادي الليمون حتى إذا سال بعد وادي الليمونة يسمى وادي فاطمة، يصل إلى حذاء ثم إلى البحر، رأيته وقد سال في عام واحد إحدى عشرة مرة.

فالشرائع نقطة حراسة لا مكان نزهة، وأرض فرج يسر من أهل جدة الذي جلب عين الوزيرية من تخوم الرغامة، إلى هذا البستان كان من الواجب أن يكون ملكاً لابن سليمان، اسماً بينما هو ملك الدولة فعلاً، حتى إذا عز لجامعة الملك عبد العزيز المكان كان هو الإمكان لأن تكون المكان الذي هي فيه الآن، كل ذلك لم يكن إلا بأمر الملك عبد العزيز، فحري أن تكون الجامعة في أرض هي قبل كل شيء وبعد كل شيء ملك

لعبد العزيز ملك لجامعته وأرض الكندرة، كان شراؤها لا لفندق الكندرة وإنما لمطار الكندرة.

واستوعب من سمع، أسجل ذلك الآن لمن لم يسمع من الذين ظنوا في أنفسهم أنهم بالسلبية والتلسن هم الوطنيون، بينما هم الآن بالإيجابية أصبحوا ملء السمع والبصر. والليالي من الزمان حبالى، ولا أريد أن أكون الحبلى ألا ألد هذه الذكريات، أخشى أن يقال (حبلى ولا تكاد تلد).

### — المنشورة الثالثة :

عن هذا الطفل يكتب الذكريات عجوز لا يتطفل على أحد وإنما طفولته شيخوخة بالعدم الذي كنا نعيشه وشيخوخته طفولة بأحلام اليقظة التي يعيشها.

ولدت كأى طفل من أم بدوية قبلية اسمها فاطمة أبوها رجاء بن فضلون، قال لي خالي محمد بن فضلون إنهم من الفضول ومن عالية نجد، جده فضلون كان فارساً شجاعاً، ولم يزد على ذلك غير أن عشرينا في حوش خميس ومن أكابر أهله، يوسف الجيار وهو من الأحامدة أهل الفقرة، قال جدك فضلون هو الذي يقول (خيالها يوم الزنابير فضلون إلي شرى عود القنا بالثنية) قال ذلك حين كسرت قناته فاشرى قناة بثينة من الأبل.

وماتت الأم بالديفتيريا فضاع الحنان. أعيش بالحنين وما عرفت الأنين، هل لأن كان الذين حولي من الأمهات وهم حول جدتي الكسيحة العمياء، وفي بيت الشعر وسط حوش خميس، هل كانت كل واحدة منهن الأم الرؤوم؟ من هن؟ هن أربع. . شيماء ومنيرة الأختان لأمير عقيل حينذاك (سيف العوجان) ووردة وموضى زوجتا حليفنا بادي بن جميعان العمري من

بني عمرو شرق المدينة، من أهل وادي الفرع والريان وأبو ضباع، كلهن أمهاتي .

ولا أدري كيف أصبحت الجدة العجوز موضع الرعاية من هؤلاء..  
أزواجاً وزوجات، سهرة الليل عندها في بيت الشعر.

فهل كانت كبيرة القدر فعرفوا قدرها؟

ويوم كنت مريضاً بذات الجنب وفي ليلة افتتح المجلس محمد ابن مطر، يقرأ في كتاب سمعت منه هذه الكلمة حفظتها وأنا طفل فما نسيتها وتلهيت أن أجدتها في مرجع كما ذكرت من قبل، ولعلّ شيخنا أبا تراب يمدنا بالمرجع، يعلمنا عن مدى الصحة فيها، قال: قدم جمع من مزينة يبشرونه بنصر، فقال ﷺ (كما نحيت بينكم) يعني اسم واحد منهم، اسمه نحيت، وما زال هذا الاسم باقياً، فابن نحيت مازال الشيخ في مزينة وصاحب الراية في قبيلة حرب كلها حين تجتمع إذا لم يكن هناك واحد من أبناء عسم، أفليس في هذا أعرف منه مكانة الجدة، وحتت علي الجدة تمسك بي لا أفارقها حتى ماتت، خافت علي من البرد لئلا أصاب مرة أخرى بذات الجنب، فبنت داخل بيت الشعر حجرة من الطين، تسعني أنا وهي لو وقفت لمس رأسي سقف الحجرة.

#### — المنشورة الرابعة :

وماتت الجدة فإذا أنا في كنف أبي وكان مزواجاً، وقد بلغت السابعة أو الثامنة من عمري ولقد تزوج والدي إحدى عشرة امرأة ولم يكن له ولد إلا من ثلاث من زوجته الأولى التي عاشت معه طويلاً ومن أمي ومن زوجته السادسة. الزوجة الأولى اسمها (بخيته) نسبة إلى النوق لبخت، وهي من قبيلة من صعيد مصر أبوها اسمه ضرار من أكابر الأحامدة وأثريائها،

وعشت أسأم الجفوة من زوجات الأب، لكنني وبعاطفة الأب قد تكون لدي عضل نفسي، اعتزل الزوجات في الدكان، كما يقول البدوي (حنا استجلال وهن استجلال) يعني الاستقلال، فسلمت من أن أحدث كدرًا للوالد أو أجب تكديراً للزوجات.

والدي من صعيد مصر ومن مديرية أسيوط ومن قرية (القطيعة) التي بدل اسمها فجعلها المطيعة ابنها الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية، فقد كان يرحمه الله نصيراً للقصر الذي يحمل بعض الكراهية للقطيعة لأنها لم تكن المطيعة للقصر كأنها بزعامة الباشا في ساحل سليم تقف حرباً على القصر، وكان لها ابن قبل محمد بخيت لم يطوعها كما طوعها محمد بخيت، لأنها لا تتواءم معه. فمن هو؟ هو الخديوي الثاني إسماعيل صديق المفتش الذي حكم مصر بنفوذ أخيه من الرضاة الخديوي إسماعيل، فقد أرضعت أم المفتش إسماعيل الخديوي، فنشأ ابنها ربيب القصر وكأنه وقد أصبح عظامياً يحكم مصر فاستترك إن لم يقل له (أفندينا) فقد أصبح بالنفوذ الأفندي الوحيد بعد الخديوي، ولعل أمه أنحدرت من القطيعة ترتزق في القاهرة وأحسب أنها هربت من الضيم، فإما أنها لا تملك أرضاً أو أن أرضها سلبت منها كما سلبت الأراضي من غيرها، السالب العمدة عبد الرحمن أبو كريشة لحساب أحد الباشوات، وكان إسماعيل المفتش قد انطبق عليه قول شوقي:

فدعي الطير وحظاً قسماً      صير الأيك كدور الأنس  
وإذا الخير لعبد قسم      سنح السعد له في النحس

البيتان من موشح شوقي عن عبد الرحمن الداخل عارض به موشح ابن الخطيب لسان الدين، فهل هناك نحس أشد من النحس الذي أصاب عبد

الرحمن الداخل، وهل هناك سعد أنعم الله به على عبد الرحمن الداخل، وهل هناك نحس أشد من أن تكون أم إسماعيل المفتش مرضعة بأجر، وهل هناك سعد أن يكون هذا النحس نعمة على إسماعيل يحكم مصر؟

### — المنشورة الخامسة :

وما تنكرت لنسبتي لصعيد مصر، بل كنت فاخراً بها لأن قبيلي ترك أرضه حين سامه الضيم فوجد العزة في المدينة المنورة، ففي أيام العصا والسيف والبندق كان قبيلنا (القطيعة) لا ينالهم ضيم أنصفوا فانتصفوا، فكثير هي المواقف التي انتصروا لأنفسهم بها، كانوا تجاراً وحمالاً بنوا الدور وزرعوا البساتين انتسبوا إلى قبائل ثلاث.. الأحامدة.. أبو طقوش وقد كان تاجراً يشار إليه.. وضرار كما ذلك حسين عبد العال البارم، ملك الدور والبلاد جاراً لنا في البيت والبلاد وبيت أبو فرع والعامرية حسونة وعيد فراج وحسن أبو الذهب وعليوه العقاسية.. زيدان ونور الدين شيخ الحمال وعمران وأخوه أبو زيد والعقالي وبخيت مزير، كل هذه القبائل عزوة واحدة ما ارتفعت عصا على واحد منهم إلا وكانت عصيهم تكسر تلك العصا، ولكن كيف وصل أبي إلى المدينة؟

لو تركنا السبب لقلنا وصل كما وصلوا، ولكن لا بد من إيضاح السبب، والسؤال ليس عن السبب وإنما هو عن هذه الكثرة الذين سكنوا المدينة من القطيعة وأبو تيج من أسيوط ومن مديرية قنا وليس من غيرهما.

لقد وصل والدي إلى المدينة قبل الثورة العرابية، يعني قبل احتلال الإنجليز، وقبل أوائل القرن الثالث عشر للهجرة كان عمره سبعة عشر عاماً، ترك أمه وأخاه الأصغر حسن وأخته وردة، هارباً من الضيم فالعمدة عبد الرحمن أبو كريشة ولعلّه من طهطا، فهو من مديرية سوهاج نصبه صاحب

نفوذ لعله محمود سليمان باشا والد محمد باشا محمود، فقد أعلن العمدة ترحيل الشباب باسم الجهادية ليكونوا عمال تراحيل في أي بلد آخر، لتفرغ الأرض وليحتل الباشوات الأفدنة، أعلن أن من كسرت ثناياه لا يؤخذ للجهادية فأمسك والذي الشاب دبارة ربطها في أصبع رجله وشبك الدبارة في ثنيتيه ينفض رجله يقلع الثنيتين ليصبح أدرد بلا ثنيتين، فعل ذلك ليبقى في أرضه يزرع طينه يحمي أمه وأخته، ولم ينفع ذلك فقد أعلنوا أن مكسور الثنيتين لا يعفى من الجهادية فباع حماره (الحصاوي) بستة جنيهات ومركبه رجلاه والثوب جلده ينحدر إلى أقصى الصعيد يصل إلى القصير على الساحل البحر، يركب سفينة شراعية وإلى ينبع البحر مشى على قدميه ولكنه ركب الجمل من ينبع إلى المدينة وترك أخاه الأصغر لا يدري عن أسرته شيئاً، وإذا بالعمدة يعلن أن الأعور لا يؤخذ للجهادية، وشب عمي حسن زيدان وخاف أن يأخذه فوضع رأسه على فخذ أخته وردة فقلعت عينه اليسرى يصبح أعور فلا يؤخذ، ولعلّ غيره فعل ذلك، فأعلنوا أن الأعور يؤخذ فهرب كما هرب أخوه ووصل إلى المدينة.

أي ظلم كهذا، ولماذا حل هذا الظلم على قرية القطيعة؟ إنها تابعة لمركز أبو تيج، وأبو تيج تحت نفوذ ولد السليني، وسيدهم يوم ذلك محمود سليمان باشا، فلم يهاجر من مديرية أسيوط إلا واحد هاجر من البندر وهو أستاذنا حافظ القرآن الذي كانت إليه الرحلة حسن الشاعر، ولم يهاجر من الباقور وهي بجانب القطيعة كما هي بلد الشيخ أحمد حسن الباقوري يرحمه الله، لم يهاجر منها إلا واحد اسمه عبد العال الباقوري، ولكن الهجرة ما أكثرها من أبو تيج ومن القطيعة، ولم يكن لغير هذين الاسمين من هاجر إلى المدينة، لقد كانوا الكثيرين في المدينة، من مديرية

المنيا لم يهاجر أحد، فهل كان الشيخ تمي وشعراوي ولملوم وعمر سلطان يتعاطفون مع لابس اللبدة الفلاح فلم يقسوا ولم يضيفوا فهجرة الصعيدي إلى المدينة من أسبوط كما ذكرنا ومن قنا فليس أحد من سوهاج ولا من المنيا ولا من أسوان، الهجرة من قنا لم تكن من ضيم حاكم، وإنما من قسوة العيش من المعارك بين الحميدات وهم من جهينة بقية الدولة التي أسستها جهينة جنوب مصر وشمال السودان، وبين الأشراف الجمازيين الذين تركوا المدينة لأبناء عمومتهم وسكنوا مديرية قنا، فأربوا على مائة ألف، وكانوا أصحاب الشوكة يستفحل العراك بينهم وبين الحميدات فإذا قبيل ثالث وهم الجبلاويون، كثر المهاجرون منهم إلى المدينة.

فلماذا كان ذلك؟ كان من الضيم واحتل الإنجليز مصر فرجع والدي إلى القطيعة يترك أخته مع زوجها ويحمل أمه وابن أخيه محمد حسن زيدان إلى المدينة آمناً، فلو لم يجد العيش الرخي في المدينة وما ملك فيها لعاد إلى وطنه، فقد انتهى العمدة وسكن الباشا محمود سليمان القاهرة في بيته الكبير في شارع الفلكي، ولعلّ محمد باشا محمود ابنه كان لديه رد الفعل فإذا هو النبيل يرفع الضيم يفتح باب بيته لكل من هو من الصعيد ولا يستقبل عدلي يكن وعبد الخالق ثروت وأمثالهما إلا بتحديد موعد أما أهل الجلابيب واللبد فالبيت مفتوح. كثير من الأبناء يأخذهم رد الفعل لئلا يكونوا كما آباؤهم.

## — المنشورة السادسة :

وكان والدي قوي العضل عصب وعظم وقليل من اللحم طوال يستعمل عقله لتفعل يده، كم هي الحكايات التي حاز النصر فيها، هي أكثر من معركة لكنني أذكر هنا معركة العقل حمل بضاعة من ينبع البحر إلى الفريش،

مركز الجيش العربي بقيادة الشريف علي ابن الحسين يوم حاصر المدينة، كما وادي العيص مركزاً للجيش بقيادة الشريف عبد الله بن الحسين كانت البضاعة ألف جنيه ذهباً، ثلث الألف ملكه والثلث للشيخ حسن موسى وشريك ثالث سليمان الناكور، وهما مكيان من شعب عامر.

وفي آخر الأيام قد باع البضاعة كلها جاء إليه شخص يعرفه اسمه جربوع من عبيد بني علي أهل العوالي كان يقعد الطريق هو وزميله العليبي بين المدينة والعوالي ينهب الضعفاء، وقف جربوع ووالدي كان يعرفه: سلام يا حسين، أهلاً يا جربوع، قال: حسن أبو تيج زعلان منك هو مسجون عند منديل عبد الشريف على قائد الخيل زعلان يقول حسين زيدان ما زارني، وعرف والدي المكيدة إذا وصل إلى المخيم أمسكوا به يسلبون ماله يسجن بتهمة أنه يسابل إلى المدينة معيناً لفخري باشا، فقد سلبوا مصطفى عزوز مرتين وقتلوا حسن أبو عوف أخا محمد سعيد أبو عوف، لصلته بحسين ابن مبيريك أمير رابع عن طريق بخيت ابن بنيان، عرف ذلك والدي فقال أخي يا جربوع تدري عن حسن وما تقوللي، هيا اسبقني أخذ معايا راس نيف وعيش وبصل أتغدى أنا وحسن هناك، وفرح جربوع بالصيد فذهب وما تريث والدي لم تبق عنده إلا ستة صناديق شاهي، أسرع إلى عابدين بغدادي وهليل بصاص، عندي ستة صناديق شاهي تشتروا، وكانت قيمة الأوقة اثنين وثلاثين قرشاً، قالوا نشترى بثمانية وعشرين، فباع وقبض الثمن ذهباً يربطه مع الذهب حول ظهره وبطنه، وذهب إلى الخيمة يلبس عباءته وسيفه ويشق الخيمة من الخلف يترك بابها مفتوحاً والميزان تركه ليطمئن جربوع لو أتى لم يذهب غير بعيد، فوجد جمالاً من الرحلة يقول أنا في وجهك يا ابن أخي تراني دخيل ضربت واحد مكاكوي وأخاف

من مندبل، وأشرع الرحيلي بندقية وقال: أنا ماني ذاهب لينبع سأمر على الديرة أجلس عند المعزبة ثلاثة أيام فقال حسين زيدان: هذا ما كنت أبغي صرت دخيل وضيعف، وركب جملة ولم يبعد حتى انحدر البدوي إلى شعب من شعاب وادي سجسج بعد الصدارة وجلس والدي ثلاثة أيام، الخبز ملة وتمر وعسل ولبن، وركب إلى ينبع وصلها، وقد تيقن أنهم تبعوه إلى ينبع ليمسكوه في الطريق، وقبل أن يدخل إلى البيت ذهب إلى بيت الشريف معلا، من أشراف ينبع النخل ذوي هجر، دخل عليه دخيلاً يحميه، وكان يعرفه فقال: بلغني أن جربوع ومحمد شربة في ينبع اذهب وقل لهما أنا في وجه معلا واسحب سيفك إذا لم يقوموا راحلين قطعهما وأنا وراك ووصل والدي إلى المقهى فدهش محمد شربة وجربوع، محمد شربة خان الجوار هو من عبيد العيون وكنا نلعب مع بناته أطفالاً في القاضية وأرض محبت، وقف والدي يقول: أنا في وجه معلا قوموا ووالله إذا لم تركبوا خيلكم وترجعوا إلى الفريش لقطعتمكم الآن وسحب الجردة، فرجعوا خائبين وقد سمعوا منه أنه لن يعود إلى الفريش سيبيع ويشترى في وادي العيص في جيش عبد الله بن الحسين وقد كان أشد أمناً من الفريش.

عمل العقل وعزيمة الفعل يوم كانت العزة للكامل والهوان للخامل.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٣٩)

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحبباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

### المنسيات العشر

كشفت سر «ذئبة المهمل» فنلت الشكر . . والإنكار أيضاً!

### الذكريات

### ذكريات منسية

ذكريات منسية، ليس ذلك من نسيان الذاكرة، وإنما هو من تناسي

إنسانها يرتاح إلى نسيانها، ولكن الخاتمة لهذه الذكريات بعد هذه تكملت الأربعين فرضت علي، أن أذاكر الذاكرة كأني طالب دخل الامتحان ليخرج بنتيجة تحفظ عنه ولا تجلب الحفيظة عليه.

### — المنسية الأولى :

وأصبح الحجاز وبقداسة الحرمين الشريفين دار هجرة للكثير من المسلمين والقليل من العرب، فبعض الذين هاجروا من قديم وصلوا إلى الحرمين فاختر بعضهم مكة واختار أكثرهم المدينة المنورة، فالقدامى، كبيت البري وبيت براده وبيت هاشم وصلوا إلى المدينة فاتصلوا بالمسجد يعلمون فيه ويتعلمون، جاءوا وفي يدهم عراقية وفي جيوبهم مال، فتأصلوا، مئات الأعوام وأعطتهم الأصالة، فلم يجحفوا لأحد وما طوعتهم الفرامانات وما تعاصوا بالفرامانات.

ولكن كيف اتسعت الهجرة إلى المدينة وما أسبابها؟

### — المنسية الثانية :

وكما قلت، فقد كانت الهجرة أولاً للكبار زروق باشا المغربي.. . السخاوي «الزمخشري» صاحب الكشف.. . مُلا علي قاري الهيتمي.. . ابن حجر.. . ابن فرحون، هجرة طاعة وسكنى تقرب.

### — المنسية الثالثة :

ولكن الاستعمار للأقاليم المسلمة كان ضيماً حمل الأفغانيين والتركستانيين أن يصلوا إلى مكة وما أكثر الأفغانيين فيها حتى بنوا حارة السلمانية في مكة وحارة السلمانية في الطائف، وقليل منهم كان في المدينة، فهجرة التركستانيين من ضيم روسيا ومن استبداد العملاء وهجرة

الأفغانيين من ضيم الحرب التي شنها الإنجليز عبر الهند أيام حبيب الله الملك .

أما ترك الأناضول فلم يتكاثروا، وهجرة الأفارقة كانت من ضيم الاستعمار . . إفريقياً على الشمال الإفريقي، أعني العرب المسلمين، كما هجرت الأفارقة ماليين سنغاليين نيجريين وما إلى ذلك، ولم تكن من السودان العربي هجرة، بل كان طلب العيش وبعض الضيم امتدت به هجرة إلى السودان قبيلاً عربياً ما أكثره أو سيداً عربياً ما أجله، فالتونسي والجزائري والمراكشي وصلوا إلى المدينة أثرياء، بنوا الدور منهم طلاب علم ومنهم العلماء ومنهم أهل زرع وضرع .

#### — المنسية الرابعة :

أما العرب فقليل هاجروا إلى المدينة، ضيق العيش في حضرموت جلب الكثيرين من الحضارم سكنوا مكة وجدة لم يكن في المدينة منهم أحد، إلا السادة العلويون، كثروا في مكة والمدينة، كما تكاثروا في إندونيسيا وماليزيا، فهل الشام قد حماهم من الضيم في عهد السلاطين العثمانيين حكام منهم، فبيت المؤيد العظم وهم في الأصل البانيون (أرنؤوط) كانوا الحاجز للضيم من السلاطين لأن بقاءهم في السلطة جعلهم في حاجة إلى الشعب، كما بشير الشهابي في لبنان كما الجزائر في عكا كانوا الحماية والوقاية وإن لم يسلموا من الاستبداد، فقلت الهجرة من الشام، وبعض الذين وصلوا للمدينة كانوا تجاراً اعتزوا وعزوا، من أشهرهم بيت الخوجا والعطية والطريشي وعبد الحكيم والمفتي .

#### — المنسية الخامسة :

أما الهجرة من مصر، فكانت على العكس، فقبل أن يحتلها الإنجليز

كان الضيم والفقر سبب الهجرة من صعيد مصر .

كما ذكرنا من قبل وحين استعمار الإنجليز مصر أيام الخديوي توفيق وبعد هزيمة الثورة العرابية، لم يهاجر أحد من صعيد مصر، أما من شمال مصر فقد وجدنا في المدينة بيت الجلوني الذين كان لهم بستان الجلونية وخيف السيد والبيت الكبير في باب الشامي، ومحمد بدوي والد عبد الحميد باشا لم يطل بهم زمان فرجعوا.

فلئن كان الاستعمار ضيماً أكثر الهجرة من الذين أضامهم، فإن الأمر قد انعكس في مصر، سلبية الصعيدي ضد الحكام والعمد، فلم يخضعوا لطغيان الأهل، وأزاح عنهم الطغيان المستعمر، وتلك غريبة، ومن الغرابة بمكان أن ما جرى بعد من حرب على الاستعمار الإنجليزي كان انتصاراً لمصر، بل وكان به النصر لثورة عرابي، فلئن هزم أحمد عرابي، فلقد انتصر الذين كانوا به، فإذا هم بالانتصار كانوا له .

### — المنسية السادسة :

أما اليمن فما وصل إلى مكة إلا عليّة من اليمنيين وقليل منهم كانوا الحرفيين .

وهكذا عمر الحجاز بحواضره، غير أن الفصام بين الحاكم والحاضرة، رسخ الخصام بين الحاضرة والبادية فامتن الله على الحجاز، بل وعلى جزيرة العرب كلها بوحدة هذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية .

### — المنسية السابعة :

وسمعنا من الأستاذ مصطفى الصباحي يرحمه الله، هذه الصورة المضحكة «كاريكاتير» لم تكن مصورة على الورق كرسوم تشكيلي وإنما هي

قد صورت بالكلام، قال: كان الفلاح من أسيوط جالساً في ظل شجرة يرتكز على عصاه (الشومة)، فوقف عليه فلاح آخر من جماعته.. (سلاموا عليكم) فقال الجالس (وعليكو سلام.. ومنين جاي) (من المديرية) قال الجالس (وإيه هناك؟) قال الواقف (معلقين) قال الجالس (وليه) قال الواقف (الكبير اللي في مصر جاي) قال الجالس (عاوز إيه) قال الواقف (جاي يطل) قال الجالس (هو بتاعنا وألا اللي ركبهو إلا نقريز) قال الواقف (اللي ركبهو إلا نقريز) فقل الجالس بسخرية (يعني وحشناه قوي) هو يعني بكلمة (بتاعنا) الخديوي عباس أما بتاع الإنجليز الملك فؤاد.

وهكذا تعطيهم هذه الصورة المرارة من الاستعمار الإنجليزي ومن القصر، ولعلمهم لم يحبوا عباس من قبل ولكن عزله من الإنجليز رفع قدره لديهم.

وهكذا الشعوب بعضها خضع لضيم المستعمر حيناً، فإذا هو بالخضوع المؤقت يناضل ليقود حرباً على المستعمر، وبعض الشعوب يخضعهم الذين تزعموا، فإذا هم العاجزون عن محاربة هذا الزعيم لأنه يستطيع وهو ابنهم أن يشطرهم أشطاراً، كأنما الشعب بزعامه ابنه، يقتل نفسه عجزاً عن المقاومة بل وحتى العجز عن الصبر.

إذا عققك الأدنى الذي أنت حزبه فوا عجباً إن سالمتهك الأبعد وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

## — المنسية الثامنة :

وقلنا من قبل إن الاستعمار أثار الشعوب عليه، بل وحد الشعوب التي استعمرت تحاربها، (حمل عصاه ورحل)، أما الاستقطاب فقد فرق

الشعوب، فباسم الصداقة وضع الزعماء الذين تفرقوا في وضع لا تحمد عقباه، وعجيبة أن المستعمرين كبريطانيا وفرنسا تصوروا أن الشباب من الشعوب المستعمرة لهم سيكونون عوناً لهم على شعوبهم، وقد انعكس الأمر، فالشباب الذي تعلم في بريطانيا وأجاد اللغة الإنجليزية أو الذي تعلم منهم أصبحوا، وهم الحرب على الاستعمار.. غاندي ونهرو.. محمد محمود ليولد سنجور، عباس فرحات.. نيكروما.. وأمثال هؤلاء، هم الذين حاربوا الاستعمار فأنالوا شعوبهم الاستقلال، كما أن الاستعمار ترك الأثر الوخيم حين عمد إلى المستضعفين فجعلهم جنوداً، قد كانوا حرباً معه ينصرونه أصبحوا اليوم يحاربون شعوبهم بالثورات حيث تعددت الزعامات..

والمثل أضربه بطائفة الشيخ كانوا الجنود لجيش الإنجليز وهم الآن كما أمثالهم أصبحوا الحرب على شعوبهم وأرضهم، هذا المثل أستطيع ذكره، أما الأمثال الأخرى فما زلت فيها أو عنها أو بها الضفدع في فمه ماء ولكن أضواء التاريخ ما زالت واضحة فاضحة.

## — المنسية التاسعة:

والسؤال هنا كيف قرأت وماذا قرأت؟ كنت ولما أبلغ العشرين مشغولاً بدرس المسجد عزوفاً عن القراءة، مشغولاً بالحب طاهراً عفيفاً ولكن جريدة (ألف باء) الشامية وقعت في يدي صفحة منها، اتسخت بالحلاوة الطحينية يحبها أستاذنا أحمد صقر، رمى الصفحة فأخذتها لا ألحس الحلاوة وإنما لحست المكتوب، وقرأت هذين البيتين لشاعر عراقي:

أنت عندي بمنزل لم ينله غير سلمى وابنها إسحاق  
أنا مخرمبق وغير عجول وقد طال في الهوى خرمباقي

وأخذتني الكلمة (خرمباق) فوجدتها وكأنها الذي أعد نفسه متحفزاً متطلعاً يريد أن يصل إلى سلمى وابنها إسحاق، من يومها تتلمذت على القراءة التي أنا مدين لها بكل ما أعرف، قرأت الكثير من كتب التراث والكثير من كتب الميراث وكل المجالات والكثير من (الجريدات)، لا أنام إلا قارئاً حتى كان الكتاب هو الصديق:

أعز صديق في الدنى سرج سباح وخير جليس في الزمان كتاب

### — المنسية العاشرة:

وفي مدينة لكنو في الهند وفي مكتب أستاذنا تقي الدين الهلالي وقد كان في ندوة العلماء، وجدت دائرة المعارف مجزأة يصدرها الجامعيون مترجمة عن الإنجليزية، فوقفت عند التعريف (بجزر المالديف) وضعوا ترجمة التعريف وكأنما هم قد استعانوا بشيخ العروبة الأستاذ أحمد زكي، فإذا على الهامش هذا الشرح (جزائر المالديف هي جزر «ذيبة المهل» فأصبحت بالإضافة وبلغت الأعاجم «مهل ذيبة» لتصبح (مالديف) حفظت هذا، ورجعت إلى المدينة المنورة فإذا في مجلس الإدارة قضية وهي أن تقرير هذه الجزر كحجاج مدون بالاسم العربي بالفرمان لبيت السيد مكى بافقيه يرثه ابنه السيد عبد الله بافقيه، ورأى أحدهم على الخريطة الجغرافية هذا الاسم (جزر المالديف) فطلب أن يمنح له حجاجها كدليل لأمر ملكي، وصدر الأمر يعطيه أن يكون الدليل لجزر المالديف، فشكا السيد عبد الله بافقيه وأحيلت الشكوى إلى مجلس الإدارة فالسيد يقول إنها جزائر ذيبة وليست على الخريطة بهذا الاسم فاستفتى مجلس الإدارة أستاذنا أحمد صقر مدير المدرسة وأستاذ الجغرافيا، ولم يتسع له البحث لعلّه موجود في كتب الرحلات كما هو موجود في دائرة المعارف ودائرة المعارف موجودة في

مكتبة المدرسة، فأجابهم رحمه الله: ليس على الخريطة هذا الاسم (ذبية)، فلم يكن لكن السيد إبراهيم عطاس تحدث إلي عن ذلك، فكتبت له شرح شيخ العروبة على هامش دائرة المعارف بأن جزر المالديف هي جزر ذئبة المهل، ووثقت الإجابة بالمصدر والصفحة فصدر قرار مجلس الإدارة بعودة الحق لصاحبه، ولم أنل مكافأة إلا شكر السيد عبد الله بافقيه وإلا نكر السيد إبراهيم عطاس الذي أثار علي ثائرة كما أسلفت في هذه الذكريات، وبقيت المنسية الهامة رحلتي إلى الولايات المتحدة فهي الحلقة الأربعون الخاتمة.

ولربما يسألني من يكتب المقدمة؟ فأقول المقدمة كتبها الذي أحاط بي من كل جانب وأحاطني بكل الجوانب كاتب المقال في مجلة قافلة الزيت وأردفها بتقريظ من الأستاذ عايض الراددي فلا حاجة إلى مقدمة غير هذين.

### ملحوظة:

وفي سالف الذكريات جاء اسم الشيخ مأمون بري فأرسل إلى حفيده أنور عبد الغني بري صورة للشيخ مأمون أنشرها تقديراً لجده وشكراً له.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان ( ٤٠ )

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أفحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالنعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن» .

رحلتي في بلاد العم سام

كنيدي قال لا . . فاغتاله اليهود . .

رحلتي إلى الولايات المتحدة:

ورحلت إلى الولايات المتحدة، ولم أكن غادرت بلدي من قبل إلا إلى مصر والهند، إلى مصر أكثر من مرة والهند قبل الولايات المتحدة ثم رحلة

أخرى بعدها، كنت على اتصال بصديقنا عيسى خليل الصباغ الذي كان سفيراً بلا سفارة، يثق به الذين تعاملوا معه كما وثق به حينذاك سفير الولايات المتحدة (باركر هارت)، وهذا السفير فيما عرفته منه وعنه كان من الذين يحبون للولايات المتحدة أن تكون صديقة مصادقة للعرب حتى إنه تعلم العربية بلغة الخطاب، ولعلّه أقصي عن مكانه في وزارة الخارجية بعد من غطرسة اليهود، فقد كانوا حرباً عليه كما كانوا الحرب على عضو الكونجرس السياسي البار (فول برايت) وعلى كثير غيرهما من الذين لن يتصهينوا فلم يصهينوا. يسكتون عن نصح الإدارة الأمريكية، لأنهم يلتزمون بالولاء الواحد والإخلاص للإمبراطوريتهم.

فما زال رجال الولايات المتحدة من أجناس شتى، تأمركوا يخلصون لوطنهم الجديد، ولربما مشرقي تأمرك لم يكن مثل بولندي أو ألماني أو إيرلندي تأمرك فالمال في يد اليهود يصنع الميل لهم، ولكن بعض الأمريكان لم يستأجرهم اليهود.

ورحلت أصل إلى لبنان (لبانة أخنوخ) الجنة وارفة الظلال لا تكاد تظأ أرضها إلا ويفوح عبير الصفصاف والأرز والتفاح، لتلتفت وراءك تذكر الفينيقين الكنعانيين القحطانيين الذين ملكت سفنهم البحر الأبيض والذين بقيادة (هاني بال) (هانئ البال) القرطاجي فينيقياً، عربياً، احتل روما، فإذا النهر يطلقون عليه اسم (طبرية) أي نهر التبير، وهكذا العربي يحمل الاسم العزيز عليه يسمي به نهراً أو مدينة أو جبلاً أو أرضاً كاملة باسم المسمى الحبيب إليه.

ومكثت في بيروت التي تقادم عليها العهد فظلت فتاة بارزة النهدي؟ جنة أصابتها جنة، بجنون أبنائها الذين اختلفوا طوائف وائلت كل طائفة مع من

يستقطبها لتدمر لبنان، فلو ائتلف مرة أخرى لما كان جيش ماروني عميلاً لإسرائيل ولما كانت طائفة تطوف حول وثق حسبته قد صنع بيد الطهر، فإذا هو قد صنع بسلاح القهر.

وتلغنت من بيروت إلى سفارة المملكة العربية السعودية في روما المحطة الأولى التي أنزل فيها أركب منها إلى المحطة الثانية في ألمانيا الغربية، وما أشد قلق بيسمرك، أعني تاريخه، وما أشد دموع هندن بورغ، أعني عسكريته، حين يسمعان أن ألمانيا قد انشطرت شطرين، شرقي وتبلشفوا بالقهر، وغربي يتأمرك ليزول القهر، كما ظنوا، تلغنت إلى سفارتنا في روما أسأل عن الابن الصديق السيد ماجد البرزنجي لأستقبله في المطار حين يستقبلني يشدد به أزري أفرح برؤية واحد من وطني ولم أجده، حل في مكانه ابن صديق هو الذي أجاب وهو الذي استجاب واسمه عبد العزيز بن ناصر بن عبد الله العقيل، هو ابن المدينة ولدها فلم تلده عنيزة، حتى أبوه لم تلده عنيزة بل ولده المدينة، والمدنيون قد يتباعدون داخل مدينتهم ولكن ما أشد ألفتهم ورعايتهم حين يتلاقون خارج المدينة، ولو لم يتعدوا إلا قيد مرحلة، واستقبلني عبد العزيز بن ناصر العقيل، وتعمد أن يكون نزولي في الفندق (جراند أوتيل) لأن فطنته وذوقه جعلني أنزل هناك لأن الأمير فيصل بن عبد العزيز. وقد وصل من أمريكا كان قد نزل في هذا الفندق، وبعد وقت قصير تشرفت بزيارة الأمير فيصل بن عبد العزيز تخمده الله برحمته، سألني: ماذا لديك؟ ماذا هناك؟ قلت: كل ما هناك وكل من هناك ينتظرون وصولك فالأمل معقود عليك، وكان ذلك الوقت والحرب في اليمن شديدة الوطأة، وقد كانت المملكة العربية السعودية فيها ولها لثلا، تكون بها، وسأل أكثر من سؤال، ولعلّه استحسّن الإجابة (وما كل ما يعلم يقال)، شعرت بسكينة آمنة حين وجدتنني في كنف الرعاية منه أميراً وملاكاً.

ووصلت هامبورج أقصدها عمداً لأرى ولدي فريد زيدان الذي هو الآن دكتور فريد محمد حسين زيدان الأستاذ في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، والمكلف بما يشرف به الرجال، وقد كان في مدينة (لنابورج) يتعلم اللغة الألمانية، فقضى دراسته في الكهرباء في مدينة (كارلسرو) فركبت السيارة من هامبورج إلى لنابورج تمتد يدي إلى سائق السيارة بشيء يمتصه فامتنع يشير بأنه لا يتلهى عن القيادة فالطريق زحام، وكان طول الرحلة أكثر من مئة كيل، حتى إذا ابتعدنا خلا الطريق من البشر، أخرج سيجارة يمتصها، أكبرت ذلك منه وتذكرت أن سائق سيارتي في جدة وهو من بلحارث من أشرفها، وكان زوجاً لابنة خالي علي بن رميضان الرميح، يسكن في ناحية من بيتي في الكندرة، تذكرت أن أطفالا ركبوا معه، ومعه ابنته الطفلة يسوق السيارة ويميل بعد لحظة وأخرى يلتفت إلى ابنته يقبلها كان الفرق كبيراً بين السائق الألماني لا يشرب السيجارة في الزحام كل همه قيادة السيارة، وبين السائق العربي يقبل ابنته وهو يقود السيارة، وما دام الشيء بالشيء يذكر، وكما تقضي به الذكريات، فقد رأيت وأنا نازل من الهدى سيارة نازلة مثلي، بعض أسرته في الخلف وزوجه بجانبه، أمسكت (اللي) تناوله زوجها سائق السيارة المنحدرة من الهدى يمتص الجراك، ألم يصبر حتى ينتهي من مهمته؟! ذلك لم يمتص السيجارة وهذا يمتص الجراك.

وفي الشارع العام في جدة، وأمام بيت سالم بن محفوظ رأيت سائق سيارة شاباً أخرج المشط يسوق السيارة وينظر في المرآة يسرح شعر رأسه وهو يسوق في شارع ما أكثر زحامه.

هكذا الفرق بين من يحترم المسؤولية وبين من يحترف الترف ولا

يحترم المسؤولية. . . وعدت إلى هامبورج أصل بائعة التذاكر يدلني الطريق يترجم لي شاب لعلة الدكتور القطان أو أخوه، قلت: أريد السفر إلى برلين لأرى السور شطر برلين إلى شطرين، لأشاهد ما فعلته غطرسة استالين على (ترومن) و (هتلر)، على الولايات المتحدة التي أصبحت إمبراطورية عظمى وعلى بريطانيا التي لم تعد بريطانيا العظمى.

وهكذا هتلر أسقط إمبراطوريتين بريطانيا وفرنسا وأقام إمبراطوريتين إمبراطورية البيت الأبيض وإمبراطورية الكريملين.

قالت الفتاة: سأحجز لك غرفة في فندق يوجد فيه عربي من تونس ليترجم لك، فمن المحزن أن تفرح بهؤلاء يعاملونك لأنك تدفع قسطاً من مرتباتهم كما يحترمونك لأنك ولو نمت ليلة في الفندق تدفع قسطاً ينمو به التوازن بين الوارد والمنصرف، ووصلت برلين وكان عند الفندق الخبر. . . المترجم أمامي والغرفة حاضرة، قلّ أن تجد هذا عند غير الفرنجة، وأشرفت على السور ومعني المترجم وكانت تلك الأيام أيام الخوف عام ١٩٦٢ ميلادية، أيام أزمة الصواريخ في كوبا، فالرئيس جون كنيدي أمسك بعظمة الولايات المتحدة يرفض غطرسة السوفيات، فالصواريخ في كوبا هي غيث الحرب في كوريا. . . هي غيث سور برلين، كانت وقفة كنيدي صارخة كصرخة روزفلت يلزم ستالين أن يسحب جيشه من حدود إيران، فالولايات المتحدة أمس واليوم تستطيع أن تفعل ما تريد إذا لم يكن اليهود وراء أن تفعل ما يريدون. . . جون كنيدي اغتاله أوزوالد، واغتال أوزوالد روبين يهوديان وكل هذا يعني أن كنيدي كان يقول: لا، لليهود فاغتاله اليهود، قال لي أحدهم: ألا تخاف أن تشتعل الحرب من خلال أزمة الصواريخ، قلت: إذا وقعت الحرب فالهلاك لإنسان الأرض هناك أو في هناك آخر،

وقد سبقت بهذه الإجابة الدكتور طه حسين، سألوه: لماذا لم تسافر هذا العام إلى أوروبا؟، فقال: صرفتني صارفة، قالوا: لعلك خفت ألا تعود إذا ثارت الحرب، فقال طه حسين: كان ذلك قبل أسلحة الدمار فإنسان الأرض هالك في أوروبا وفي غيرها، لهذا لا يفكر في حواجز العودة، كان بالأمس يفكر أن يعود أما اليوم فلا يفكر في ذلك.

ووصلت إلى لندن لأرى ابني حسين زيدان وكان يدرس هناك، وركبت التاكسي ومعني العنوان، وقبل منتصف الطريق وقفت السيارة فإذا السائق صاحب التاكسي يعتذر بلطف ينادي سيارة أخرى، وقبل أن أركب مددت يدي إليه أحاسبه عن المسافة التي قطعها فرفض، ومكثت في لندن ثلاثة أيام، ورغم أنني كنت في الحرب العامة الثانية نصيراً بعواطفني نحو لندن، فإنني أصبحت الحسير مما فعلته في العرب.. لندن.

وركبت الطائرة أصل إلى نيويورك التي تبللت بالكثير من الناس ولكنها حصرت في أن تكون تل أبيب الجديدة في أمريكا يعتصرها القليل من الناس فلئن اتسعت للكثير.. فإنها قد باعت سعتها لليهود، وفي المطار وجدت المترجم فلديه الخبر عن الرحلة وعن الزائر وكان فلسطينياً اسمه فؤاد (قري)، لم أمكث في نيويورك إلى ليلة واحدة، وارتحلت إلى واشنطن ليذهب بي المترجم إلى مكتب مستر (هدلي) لعلّه كما عرفت من أسرة (لورد هدلي البريطاني الذي أعلن إسلامه، والذي مازال يذكره الأستاذ عمر أبو ريشة) فاستقبلني مستر هدلي لنضع أو هو يضع لي برنامج الزيارة التي وجهت إلي من سفارة الولايات المتحدة في جدة كتوجيه من وزارة الخارجية الأمريكية لها، وتم وضع البرنامج لأزور فيلادلفيا.. بفلو.. شلالات نياجرا.. دودريد وشيكاغو.. الشاطئ الكندي.. دالاس..

الجامعة في القرية من الريف الأمريكي (بانكا).. تكساس.. هيوستن..  
سدهوفر.. لاس فيجاس.. كلورادو (دانفر).. لوس انجلوس.. سان  
فرنسيسكو.. هونولولو.. لأرجع عن طريق اليابان. وبعد تمام البرنامج  
جرى حوار، قال مستر هدلي: إن سكان إفريقيا انحدروا إليها من الشمال،  
قلت: أي شمال تعني؟ الشمال العربي أم تعني أوروبا، لقد كان الإنسان  
في هذه القارة يوم كان لا إنسان في أوروبا، يوم كانت أوروبا مغمورة  
بالثلج، لم يصل إليها إنسان إلا بعد، وفكر يقتنع إذ قلت له: الإنسان أول  
ما كان آسيوياً ثم أفريقياً وأمريكياً قبل الإنسان في أوروبا، فالهنود كالزنج  
آسيويون من قبل.

وارتحتلت أتطوف حسب البرنامج، فوصلت إلى فيلادلفيا، وقبل ذلك  
ولئلا يفوتني التسلسل زرت البيت الأبيض وبيت واشنطن لأجد سرير  
الجنرال (لافيت) الفرنسي يشارك جورج واشنطن في حرب الاستقلال، فقد  
كانت فرنسا مع الولايات المتحدة حين ذلك فانتزع واشنطن ورفاقه  
الاستقلال من بريطانيا، فهم البريطانيون على الأكثر تخلصوا من الاستغلال  
البريطاني كأنما هم أصبحوا جنساً جديداً تأصلت به الأمركة ليكون أي  
مهاجر من أي جنس أمريكياً إلا اليهود فمازالوا جنساً وحدهم.. تأمركوا  
بالمعايشة والسكنة ولم يتأمركوا بكامل الانتماء، ولا يقاس عليهم اللبناني  
فإنه إذا تأمرك يصبح أمريكياً محضاً وإن حمل الجنسية.

وفي فيلادلفيا لا بد أن أزور بيت (الجرس).. جرس الاستقلال..  
طرقه طرقات يعلن بها الاستقلال (جيفرسون) دخلت ونسيت أن أخلع غطاء  
الرأس (قلب) طربوش خرساني، فإذا الحارس يطلب مني أن أخلع القلب،  
فالتحية لديهم كشف الرأس والتحية لدينا غطاء الرأس، تذكرت جيفرسون

أحد بناء الولايات المتحدة وتذكرت «توماس بين» صاحب الجريدة أو المجلة (الحصافة)، توماس بين يهودي ينادي بشعار الحرية يقول: (حيث لا توجد الحرية ينبغي أن يوجد توماس بين ليحارب عنها) فقد كان شعار جيفرسون ورفاقه طلب الحرية، لكن توماس بين قال لجيفرسون: لا حرية بدون استقلال.. حاربوا من أجل الاستقلال، فحاربوا ليستقلوا، وكان الأمريكان حتى عصر روزفلت حرباً على الاستعمار، توماس بين لم يجد قبراً يدفن فيه فأبعده، واليوم وبالأمس يتمثل صوت أمريكا بكلمات توماس بين عن الطغيان، أخذوا منه الشعار وطردوه عن الأشبار من الأرض الأمريكية، كان ذلك أمس، أما اليوم فكل شبر من الولايات المتحدة يملكه اليهود بسطان الامتلاك لا بصك الامتلاك.

فيلادلفيا اسم يوناني سميت به مدينة عمان (البلقاء) فهل يعني هذا الاسم بلاد الفياء أي الظل، فعمان سميت به قبل تسمية المدينة الأمريكية؟ والرحلة طويلة وإلى حلقة أخرى.

## استدراك

لقد ذكرت اسم الابن عبد العزيز بن ناصر العقيل وما كنت أدري وأنا أملي اسمه أنه قد توفي يرحمه الله فقد كان رضي الخلق طيب السريرة فالعزاء لأهله جميعاً وإنا لله وإنا إليه راجعون.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان ( ٤١ )

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض ، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية ، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية ، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية ، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن» .

خسر ترومان تجارة القماش فقامت إسرائيل . .

والرحلة إلى أمريكا . .

ورحلت من فيلادلفيا أصل إلى «بفلو» مدينة وكأنها قرية ، وقرية اتسعت لتكون مدينة ، فهي تجمع بين عطاء المدينة وحفاوة القرية . . أعجبتني ، فلو تأمركت لكانت إحدى المدن التي أتأمرك لها ، هي في الشمال ولم يكن

شهر أكتوبر قاسي البرد كما هو أكتوبر الأمس، ودعوت المترجم والمضيف: هيا بنا نشاهد شلالات نياجرا تلك العجيبة من عجائب الشلالات، وصلت أتخطى شاطئ النهر الأيمن لم يأخذني مرآه شوهوه بما تراكم حوله حتى لكانهم الآن قد عرفوا مدى تلويث النهر بما تقذفه المصانع، وما أسرع ما دخلت إلى كندا لا تفتيش لا خوف، عرفوا أنني زائر فقالوا: تفضل، لأنهم شعب يعيش الأمن لا يشعر بالخوف فقبل أن تسهر الحكومة على الأمن، كان الشعب هو حارس أمنها، فالشعوب التي يركبها الخوف آسيوية أو أفريقية لا يدخلها الزائر إلا وهو يرى عيوناً ترقبه، وجوازات تفحصه وجمارك تبحث حقايبه كأن كل زائر يحمل التخويف للبلد الذي يزور يحسبونه مهرباً أو هارباً، كما كان ذلك بالأمس أما اليوم فالرقابة تحيط به يحسبونه إرهابياً.

وشاهدت الشاطئ الأيسر، فيا روعة ما صنع الله وبالحفاوة الإنسان يصون ما صنع الله، ولقد كان الشاطئ الكندي بريئاً نظيفاً امتلاً بالشجر ليس على صورة الغابة، إنما هو على صورة بستان، يبيعون عقوداً من حجر ملون، ليست من المرمر الأبيض ولا من المرمر الأسود، وإنما هي من المرمر الذي زخرفته أشعة الشمس بلون التصق به ليس له إشعاع وإنما التلوين يشيع في النفس حلاوة الحجر.. زخرفته طبيعة التكوين من صنع خالق الكون.

ورجعت إلى «بفلو» أركب الطائرة إلى دالاس حيث يسكن ابني «د. فيصل محمد حسين زيدان» يطلب العلم مبتعثاً كما إخوته الطلاب الذين يبتعثون، ومالي نسيت الأستاذ عبد العزيز المنقور الذي كان من خير الموظفين يرعى الطلبة السعوديين وكأنه أخوهم الأكبر. لم يكن مسخراً

لأحد، ولم تركبه طبيعة الإنحياز لفريق من الطلبة دون فريق، كان أستاذاً سعودياً عليه بصمة الكيان الكبير. . وإنه لكبير في تلك الأيام التي رفع فيها الفصام بينه وبين الطلبة، فإذا هو الأب أذكره لأشكره.

وقبل أن أصل إلى دالاس عجلت من «بفلو» إلى ديترويت وشيكاغو، ورأيت مصانع فورد، وما أكثر إنتاجها من السيارات، لكن فورد سيبقى اسماً يلمع في التاريخ الأمريكي، بل وفي تاريخ الإنسان، لأنه صنع السيارة يركبها الإنسان قربت المسافات وتناولت البعيد، فهي أكثر حرية من القطار، بل إنها أضاءت الطرق لسيورها وعبدت الطرق لمسيرتها فلئن كانت ذاتها عملاً مدنياً فإنها ستصبح عملاً حضارياً، فلئن أحيت الموات فإنها أكثر الأموات، فالسيارة هي القاتل الأول. . إنها لا تقتل ولكن القاتل هو سائقها هو الطيش والتهور، كما قال المتنبي:

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا

فورد صنعها. . عملاً أمريكياً فإذا هي الآن وقد صنعتها اليابان فأصبحت صناعتها من أسلحة الحرب الاقتصادية.

إن فورد. . وروكفلر. . وأديسون، رجال صنعهم الاستقلال وأبرزتهم الحرية، ولكنهم ذخيرة صنعها الرجال لتفوق المدينة، يصبح في التاريخ تترياً. . سواء كان قائدها «أته» أو كان قائدها جنكيزخان.

فالجيش الأمريكي قلب الموازين ليس بقوة السلاح وإنما بقوة التسليح النفسي، التموين بالمعلبات والتنفس للجندي بما وراء الخطوط من عوامل الترفيه، بل إنهم يرسلون محاضرات الجامعات لشباب الجيش لا يفوته الدرس، بل وأرسلوا أسئلة الامتحان.

كانت الجيوش أول الأمر حتى جيش ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا وروسيا، وما إليها من جيوش أخرى، إذا احتلوا مدينة يعيشون من مدخرات المدينة يشبع الجنود ويجوع الشعب المحتل .

أما الجيش الأمريكي وبالمعلبات من كل نوع، فإن ذلك كما ما هو تموين للجيش تموين للشعب المحتل .

### نوادير :

وما دام الشيء بالشيء يذكر، فهناك نوادر ثلاث عن الجيش الأمريكي وقادته، كان الجيش الأمريكي وهو يحارب اليابانيين يوم استغولت اليابان في الشرق الأقصى، قد أبرق قادته «للبننتاجون» حين أكل الجنود بعض الأعشاب فلحقهم مضرة، سألوا عما يأكلون من الأعشاب، فأجابهم علماء البننتاجون، كلوا مما تأكله «الحمير»، وتلك شهادة من العلماء أقرت بعلم الحيوان، يعرف النافع من الضار من تلك الأعشاب .

والثانية، سألوا أحد القادة الأمريكيان: من أشجع من الذين يقاتلون في الغابات؟ فقال اليابانيون، فقالوا له: والأمريكان؟ قال: «هؤلاء يزيلون الغابات» .

والثالثة . . قال إيزنهاور قائد جيش الحلفاء في الغرب وهو من مهاجري الألمان لكنه تأمرك فتفبرك بالوطنية فلم يكن مثل كيسنجر تأمرك وما زال يهودياً، قال إيزنهاور لتشرشل: لقد انتفع جنودنا من معاشرة جنودك، تعلموا كثيراً من التهذيب، تعلموا أدب الخطاب للضباط ولم يكذب ينتهي من كلمته حتى وقف جندي أمريكي أمام الجنرال إيزنهاور وتشرشل جالس معه، فقال الجندي الأمريكي يخاطب إيزنهاور: أرجو أن آخذ سيارتك لقضاء غرض فناوله إيزنهاور، وعجب تشرشل يقول: أي تهذيب في هذا، كيف

يجرؤ جندي أن يطلب سيارتك، قال إيزنهاور يا هذا، فإنهم قبل أن يعاشروكم فإنه يأخذها دون أن يستأذن.

ورأيت شيكاغو، ولها سمعة لدى القارئ العربي سيئة عن رجال العصابات، وقد رأيت عمارة تكوّنت من ستة وستين طابقاً، من تلك الطوابق تسعة عشر موقفاً للسيارات، ولا أدري هل هي بلدية دوترويت أما بلدية شيكاغو التي لدى بنائها مواقف للسيارات تسعة عشر ألف سيارة.

وكان المضيف رجلاً أبيض طويلاً تخطى الشباب إلى الكهولة، قال لي: ما أكثر الغابات يوم بدأ الأمريكي يعمر الأرض وما أكثر الأفاعي، ولكنه أزالها يقتني الخنازير يسلمها على الأفاعي، فإذا الأرض ممهدة للعمارات، ويعني ذلك أن عمران الأرض في تلك الأيام، مدينة للإنسان الأمريكي كما هي مدينة للخنازير.

وامتد بنا الطريق وهو يسوق السيارة يقول لي: أنتم العرب تتوعدون اليهود تلقون بهم في جوف البحر، قالها ساخراً وما أحسبه إلا يهودياً، قلت: لو احتلت كندا الشاطئ الأيمن لشلالات نياجرا ألا تغرقون غزاة كندا في النهر أو تلقونهم في البحر، ولو خطر للمكسيك أن تغزو بعض ما حولها من غرب أمريكا ألا تلقونهم في البحر، ها أنتم أحرقتم اليابان بالقنبلة الذرية، وها أنتم بكل القوة لديكم منعمت الصواريخ أن تكون في كوبا، بل وأنتم خضتم حربين عالميتين، فأهلكتم من تحاربون وهلك منكم الكثيرون، فكيف تلوم العرب أن يفعلوا ما تنكر لتخليص أرضهم من الغزاة؟، ولكني أقول لك بعد ذلك سيأتي يوم ستشعرون بطغيان اليهود عليكم فتلقونهم في البحر تفعلون ما فعلت أسبانيا.

ووصلت إلى دالاس وكان الوقت ليلاً أنظر إلى تحت فإذا الأرض كلها

وكانها مصباح كهربائي واحد، فتذكرت قول البحري يصف البركة في دمشق «كأن سماء ركبت فيها» وتذكرت «أديسون» مخترع الألف اختراع إنه الأمريكي الأول دون منازع، ليس بالاختراعات الألف، وإنما بهذا المصباح الكهربائي، اكتشف بإجراء التجارب وعلى أساس من قانون الطبيعة التي خلقها الله، فإذا هو يهدي للإنسان النور، فلئن كان مكتشف النار أهداها، خطت بالإنسان خطوات واسعة للتقدم فإن أديسون بهذا المصباح أعطى الإنسانية خطوات أوسع إلى التقدم.

وإن كان سهر الليل قد يعبث به العابثون، ولأديسون موقفان من صنع الذكاء، بل ومن صنع العواطف النبيلة فيه، لقد أراد أن ينير المصباح كل ظلام الليل في أي مكان، فالأسلاك التي جربها أول الأمر غالية الثمن وهو يريد سلكاً رخيصاً لينتشر المصباح، قالوا إنه جرب مئات الأسلاك من الذهب والفضة والبلاطين والنحاس وغيرها.. وغيرها حتى اهتدى إلى ما هو الآن، فلم يقتصر المصباح على أن يكون في البيت الأبيض إنما هو قد انتشر حتى أصبح ينير الأكواخ في المشرق والمغرب.

لم يكن أديسون كأحد الكهنة في المشرق يخترن الأسرار، فلو وصل أحد كهنة المشرق إلى هذا المصباح لانحصر نوره في بيت الإمبراطور والفرعون ومعبد بوذا. إن طبخة البامية من أسرار الطباخ الكبير لا يعلمها لصبيانها، وهكذا دفنت أسرار المشرق واتضح اختراعات الغرب.

قال أديسون: إن التفكير في الاختراع سهل، وإبراز الاختراع قد يكون من السهل، ولكن تعميم النفع بالاختراع هو الصعب إنه في هذه الكلمة أسقط سلطان الإمبراطورية وأعلن سلطان الإنسانية، لهذا وجد السلك الرخيص، المصباح في البيت الأبيض والمصباح في قرية نائية في الصحراء.

وله فكرة جانبها الصواب قال: «النوم عادة وليس هو طبيعة فإذا هو أول من ينام لأن النوم طبيعة لا عادة».

كنت أتصور كما هي طريقتهم أن يكون له في كل ولاية تمثال، ولكن لم يكن ذلك، لكنه مثال في تاريخ البشرية مدون في قراطيس فلئن أهدى المصباح فقد أهدى لشعب الولايات المتحدة مجدداً في التاريخ إنه أعظم من فورد وروكفلر ولكن تقف عظمته تحيي عظمة جورج واشنطن وإبراهام لنكولن.

وخاطر قالوا إن أمريكياً ركب الأوتوبيس في اليابان، فمر ينظر قصر الإمبراطور فقال للياباني الذي بجانبه: منذ متى بني هذا القصر؟ قال الياباني: قبل أن تكون الولايات المتحدة.

ورأيت في دالاس القرية لا المدينة الجامعة لا العمارات الموتيلات الأوتيلات ريف جميل، يبنون الجامعات في القرى والريف، وكان ولدي د. فيصل محمد حسين زيدان، طالباً في الجامعة مبتعثاً من الدولة، أقمت أياماً وفي اليوم الثاني، زارني فتى من طلاب الجامعة أمريكي يدعوني باسم والده الجنرال القديم المتقاعد إلى العشاء في ليلة «عيد الشكر» كما هو تقليدهم ورثوا ذلك عن الهنود الحمر يشكرون حين تغيثهم السماء، قلت لابني: كيف عرفني ولماذا يدعوني. قال: كدت أفتح باب سيارتي لأصل من البيت إلى الجامعة فوجدت هذا الشاب ومعه فتاة من الطالبات في الجامعة، قد جلسوا في المقعد الخلفي من سيارتي، كدت أرجع لأترك لهم فرصة اللقاء، لعله خطبها، فإذا هو يدعوني. . شكراً فيصل، ولم تكن بلغة العرب وإنما بلغتهم، أرجوك أن تصل بنا إلى بيت الفتاة فسيارتي ليست معي، وليست معها سيارة، فركب فيصل وأوصلهم إلى حيث يريدون فإذا

الفتى صديق ليفصل، وكان فتى فارغ الطول علمه أبوه أن يكون «اسبرطياً» يعرف كل الألعاب حتى المصارعة، نزل مرة يسبح في الأمازون، النهر العظيم في البرازيل، فلم يشعر إلا وقد التفت حول وسطه حنش، فلم يفزع ولم يصرخ لأنه «إسبرطي» كان مستعداً لذلك يتمنطق بحزام فيه خنجر فاستل الخنجر يقطع وسط الحنش يتخلص منه، وهكذا حين تكثر الآفات في أي أرض يتعلم الرجال كيف يتخلصون من الآفات.

وذهبنا إلى قرية الفتى لتناول العشاء يستقبلنا أبوه وترحب بنا أمه وتضحك لنا أخته، فإذا العشاء تريد عليه ديك «رومي» ذلك من تقاليد المسيحية الأولى، أخذها الحواريون الأول، كما أخذوا القلانس والعباءات التي كان يصنعها الفينيقيون من الأدرجوان من قشر السمك.

وجلسنا على المائدة، وجاء ذكر المسيح بن مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، فشرحت عقيدة الإسلام في المسيح أول الأمر إنا نعتقد أنه رسول نبي أمه مريم العذراء وليس له أب، شرحت ذلك بتوسع فقال الجنرال وهو يسمع ذلك يترجم له ابني فيصل: إن القساوسة لم يعلمونا ذلك، إنكم تحترمون عيسى على الوجه الصحيح، وتكلم الجنرال مرة أخرى كأنه يجاملنا من أجل فلسطين قال: إنا نحن الأمريكيين لا ننسى ثلاثة أحداث زلزال سان فرنسيسكو وحريق شيكاغو وخسارة «ترومن» في تجارته «المني فاتورة» أي تجارة القماش، قلت: وما علاقة «ترومن» لا تنسون خسارته، قال لو لم يخسر لما استحوذ عليه اليهود ساعدوه أن يكون نائب الرئيس ليكون الرئيس وليكون عليكم مع اليهود.

وانتهينا فإذا الجنرال يلبس حلته كاملة يتحضر بمسدسين ليصل بنا إلى

البيت لأنه يخاف علينا من الطريق ومن العابثين، كان يسوق السيارة حتى وصلنا إلى بيتنا.

وهكذا يعرف بعض الأمريكان تاريخهم ينكرون الإساءة على بعض الشعوب ويفخرون بما صنعوا لأنفسهم ولبني الإنسان.

وجاء الفتى يودعني فأكبرت الوفاء منه واحترمت علاقته بابني وقلت: أمريكا سخت عليها السماء تمدها الأنهار وما بخلت الأرض تخرج الثمار وما عجز الإنسان أن يصنع هذه الإمبراطورية التي أصبح قمحها واقتصادها سلاحاً قوياً أقوى من أسلحة الدمار.

ومن دالاس إلى تكساس رأيت طلابنا وكانوا كثيراً وعرفت في هيوستن الصديق الكريم الدكتور بكر عبد الله بكر مدير جامعة الملك فهد وكم هو كبير عندي في اليوم الذي عرفته وإلى اليوم بما صنع لي من معروف.

إن تكساس تذكرنا بأي إقليم على خط عرضها، وهناك ملححة، فقد كان الجيش الأمريكي في الجزائر أيام الحرب العالمية الثانية وأكثره من تكساس علم أنهم يفاخرون بتكساس فقال لهم: إن الجزائري يعتز ببلده ويفتخر بها كما أنتم، فلا تغضبوا الجزائريين بالفخر عليهم، إنهم أصحاب ماضٍ سيحاربون من أجل استقلالهم لتكون الجزائر فخراً للعرب فخر الأمريكان بتكساس قال لهم ذلك قائدهم الجنرال الذي كان يحارب فلول رومل والذي انتصر في نهاية الحرب على جيوش المحور.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٤٢)

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحبباً يتقاربون وبالعنعات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

### في هونولولو . . أكلت نبت الربان!

وغادرت دالاس وتكساس ولعلّي كنت شديد الرغبة في أن تطول أيامي في ريف دالاس. فالقرية في الولايات المتحدة حلوة، والريف له جلوة، كأنما هم وإن عاشوا في المدينة وإن كبرت المدينة، أشد احتفالاً بالريف لأن ما ينتج في الريف ما هو إلا الذي أعطى الولايات المتحدة القوة والتفوق.

إن القمح والأرز والذرة من قبل ومن بعد وإلى اليوم هو السلاح جالب الفلاح فاليوم أقوى ما تسلحت به الولايات المتحدة هو نمو اقتصادها وكثرة قمحها ووفرة أرزها تتفوق بكل ذلك على الاتحاد السوفياتي فقنابل النواة والصواريخ لم يعد كل منها جالب التطويق للاتحاد السوفياتي فالتطويق له هو التفوق الاقتصادي بل هو التفوق الزراعي، فالاتحاد السوفياتي يشند إلحاحه لتخفيض الأسلحة المدمرة ليس لأنه غير متفوق به، ولكن لأنها تكلفه الكثير الذي أثقل كاهله وأفقر خزائنه كل ما يريده الاتحاد السوفياتي هو الاتفاق على طريق الوفاق، لعله يستفيق يتوفر لديه مال وإنتاج فالحالة إذاً تعني أن الحرب الباردة بين الإمبراطوريتين لم تكن بالسلاح المدمر، وإنما بالقمح المعمر، والأرز المعمر.

وهكذا لا ندري ما أصاب أرض الأنهار في إفريقيا وفي الهند بالذات من قصور أسقط الزرع وأقل الضرع. إن أستراليا ليست الأرض الممرعة كأرض الهند والسودان ومصر وكأرض أندونيسيا. ولكن الإنسان الأسترالي هو الممرع يشقى يتصبب العرق ليكون العرق على صورة أخرى مرقاً عليه الثريد وليس هو ثريد الأرغفة وإنما هو ثريد المال المكتسب من تصدير القمح، يزرعه الأسترالي. رغم تقلب الأجواء، ورغم بعد المسافة. . يقترب بها الإنسان يطوي مسافة البعد إلى القريبى من النجاح.

ووصلت ألف رحلتي لفاً. . أشاهد «سد هوفر» ونيفادا ولاس فيجاس «مدينة القمار» فرأيت كما هو من قبل الشعب يستقبل الزائر كأنه يرحب به ليكون مهاجراً، يستقبلون المهاجرين لأن شعب الولايات المتحدة لم يكن إلا من المهاجرين الذين هجروا ضيم الأرض إلى رخاء الأرض فهم من بناء الهجرة يرحبون بالمهاجر، وليست الولايات المتحدة قبل جزيرة العرب

استقبلت المهاجرين يستوطنون ليكونوا من شعب الجزيرة فمصر والسودان كما جزيرة العرب.. عمرها المهاجرون، ولعلي أذكر الطرفة المليحة في الخبر عن رسول الله سيدنا محمد ﷺ عن الولاء والحلف والجوار فقد قاد رسول الله جيش العسرة يصل إلى تبوك ليعلم قيصر الروم في الشام أو ملوك الشام من أولاد جفنة أن محمداً لديه جيش يصل إلى مشارف الشام، لأن أولاد جفنة الغسانيين ومعهم برهء وكلب، وعليهم سلطان القيصر قد أنعلوا خيولهم. كأنما هم يريدون حرباً على الإسلام خوفاً على نصرانيتهم ومر وهو في المسيرة المباركة فإذا هو ﷺ يسأل: «ما بال الثط الطوال حلفاء أسلم» أو قال غفار: «وما بال القصار الجعاد حلفاء غفار» أو قال أسلم فالثط الطوال هم «الزط» نطقها أفصح الناس يستبدل الزاي بالثاء، وهم من شرق الجزيرة لعلمهم من البلوجستان أو من السند ومن لف لفهم، أما القصار الجعاد فهم أفارقة من شرق إفريقيا أعني الأحباش ومن لف لفهم، كما أن بعض من كان من هؤلاء الزط يسمى «بالجلابخة» حلفاء تميم، فلم يكن كل هؤلاء أرقاء مع أن في وسع العرب استرقاقهم، وإنما كانوا الحلفاء، والعرب حين استرقوا، «العبيدي» أكرمهم فالرقيق الذي استرق أو استعبد بالشراء أو بالأسر، أطلقوا عليه «المولى» لتكون كلمة المولى من الأضداد فالمولى هو السيد والمولى هو العبد، والشاهد في هذه «مولاك.. يا مولاي صاحب حاجتي».. ويطلقون على النساء من هؤلاء «الفتاة» أو الجارية وإن أطلقوا التعريف بالأمة والشاهد في هذا.. القرآن ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَنِيَّتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنَّ أَرْدَنَ تَحَصُّنًا﴾ (النور: ٣٣) فقد كانوا يبيحون أن ينال البغي جارية ممن أرخصها للبغاء، فأدبهم القرآن الكريم ألا يجبروا الفتاة إن لم تكن راغبة فيه، وقد نسخت هذه الآية بتحريم الزنا قاطبة، وإن كان بعض الناس في إقليم من أقاليم الناس لا يرى نسخها، يستكثرون من

الفتيات ليكثر عبيدهم، ما أعظم الإسلام في ذلك كله احترام الولاء ولم يسقط الحلف «مولى القوم منهم.. حليف القوم منهم» لكنه كره أن يتزوج الحر رقيقة فهي ملك سيدها كما أن ولدها من الحر هو تابع لها يلحقه الرق ليكون ابن الحر عبداً، أراد أن الحرية ينبغي أن تكون كاملة لا تسترقها الشهوات.. عظيم هذا الإسلام.

ولعلي استطردت في ذلك لأثبت أن العرب استقبلوا المهاجرين قبل أن تكتشف أمريكا.. بدافع المقارنة وبوابع التوسع فيما يستطيع الكاتب أن يتوسع فيه بأسلوب المقارنة ليقطع دابر المفارقة.

طويت رحلتي طياً حتى وصلت إلى لوس أنجلوس وأول مصادفة أدهشتني أن أرى المضييفة التي كانت في الطائرة «بان أمريكيان» كنت فيها من لندن إلى نيويورك كانت جميلة الخلق.. جميلة الخلق، تترفع عمن يستجلبها بالحديث وتتواضع أمامي حيث لا أعرف الحديث فما من طلب أريد وبالإشارة أعبر إلا فهمت وإلا أجابت، ولم يأخذني جمالها وإنما أخذني رفقتها وحنانها فقصرت الرحلة لا تكون سبع ساعات وليتها طالت سبعين ساعة.

وفي الطائرة إلى لوس أنجلوس رأيتها وليست المضييفة وإنما هي المرتحلة.. ارتحلت عن وظيفتها لتصل إلى أهلها، ورأيتني ومن عجيب أن عرفتني.. غريب أحرص، فأنطقتني بالتحية، رؤية الطائرة أصبحت من رؤى أحلام اليقظة، نسيتها يوم كنت لا أحلم وما زلت أذكرها وأنا الطفل العجوز، حنت علي «حنو المرضعات على الفطيم» وأبى من أملي عليه إلا أن يعرف من أين جاءت الكلمة «حنو المرضعات.. فأنشدت لأعلمه هذه الأبيات من شعر الأندلس:

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاها مضاعف الغيث العميم  
نزلنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم  
تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

وما أعجبتني لوس أنجلوس مدينة كبيرة كأنها هي كل كاليفورنيا وعلم  
صديقنا د. صالح أمبا وقد كانت بيني وبينه مودة فدعاني للعشاء فإذا إخوة  
من الطلاب أكثرهم من أكابرنا وفيهم الكبير «الكبير من أكابرنا، وإذا محمود  
نصيف يرحمه الله يشارك في صنع الطعام حتى «البريك» وجرى الحوار  
ساخناً أول الأمر فتمهلت ثم أخذت أطرح قالب الثلج على الساخن من  
الحوار أبشر بالأمل القريب تنمية وعمراناً، فإذا الذين كانوا هناك هم الذين  
كلفوا بالتكوين هنا، كل ما كانوا ينشدون أصبح بهم نشيد التفوق اليوم،  
كلفوا فإذا هم يتشرفون بهذا التكليف كأنما حوارهم هناك وفيه شيء من  
الحيرة أصبح اليوم هو الذي أسقط الحيرة إلى ما نحن فيه الآن والله الحمد.  
وصلت سان فرانسيسكو، وخفتها لأنني لا أخاف الزحام وإنما لا أحبه،  
حتى في الحب لم أتزاحم على حبيب لأنني أكره العراك ولا أمارس  
المصارعة.. سلم لمن سالمني بل وسلم لمن حاربني.

ومن سان فرانسيسكو إلى تلك الأرض المليحة «هاواي» «هونولولو»  
تلك المغولية الشرقية التي بقيت لا يمسه جنون التأمرك، وصلت إلى  
هونولولو وكأنما هي «هناة اللؤلؤ» نهارها سمردي صباحها كظهرها وضحاها  
كعصرها، قلت للصديق السيد ياسين طه مرة وقد أزمع الرحيل إلى أمريكا،  
إذا وصلت هونولولو فانظر إلى الماء تره بلون أبيض يتشكل بلون إنائه لو  
رسب في كأس أخضر لرأيته أبيض وحين عاد قال: لقد صدقت لون الماء  
في هونولولو أبيض.

وفي هذه الأرض المغولية والبركانية أكلت من نبت الريان الأستاكوزة فما أكثرها هناك، لأول مرة أذوقها ولأول مرة أحاسب أنفسنا عن هذه الأستاكوزة إنها على ساحلنا الشمالي في البحر الأحمر حول الوجه وضياء حتى العقبة كثيرة، لا يصيدونها ولا يأكلونها حتى قالوا إن يونانياً أرسل باخرته على ساحلنا الشمالي لا يصيد الأستاكوزة وإنما يشتريها تحمل بالأكياس بوضع رياتات وقد أعد في باخرته أحواضاً يخرج الأستاكوزة تعيش في الأحواض حتى إذا اكتفى رحل فباعها لمن يعرفها يشترونها فكسب نصف مليون جنيه يوم كان الجنيه الأسترليني جنيهاً، قيمته تزيد على قيمة الجنيه الذهب بقرشين ونصف، ولكن اليوم أصبحنا يصيد قومنا الأستاكوزة تباع عند سلاح بالريات الكثر.

واسترحت في الهاواي، وكأنما هي أصبحت هواي، ومنها إلى طوكيو، وسألت نفسي لماذا نسيت في هذا الاستطراد «كلورادو» فقبل لوس أنجلوس أي قبل كاليفورنيا وصلت إلى كلورادو وأعجبتني دانفر كما أعجبتني «بفلو» وقبل أن أرى ما أعجبتني في الهاواي، وأخذني المترجم أصعد إلى الجبل فإذا هي ريح تكاد تطرحني على الأرض لأنحدر إلى هوة تماسكت أنا والمترجم كل منا يثقل الآخر لئلا يسقط، ابتعدنا إلى وسط الجبل فأخذ المترجم آلة التصوير يلتقط لي صوراً، وإذا شاب أمريكي يقول: أنت يأخذ لك صوراً تحلم بأنك ملك، قلت: لست أحلم وإنما لتعلم أنني من شعب أبو الملوك.. أبو الإمبراطوريات فلا حاجة إلى الأحلام، إنما أنتم تتحدثون عن جون كنيدي بأنه يريد أن يكون ملكاً تنافسون بريطانيا لديهم ملك وأنتم بلا ملك، نسيت ذلك الأمريكي الذي يكلم الملك جورج الخامس وهو في سيارته يقول للملك أنت مثلي يا

مستر كنج فلقد تصور أن الملك على صورة أخرى غير صورة الإنسان .  
ونزلنا إلى المدينة وتناولنا العشاء في مطعم صيني ، احتملنا طعام  
الإندونيسييين بلا ملح ومن السهل معالجة ذلك وعز علي أن أحتمل طعام  
الصيني وكله سكر، أكلت استحللت أول الأمر حتى إذا انتهيت . . غاشت  
علي نفسي فأسرعت أقول للمترجم . . هيا إلى السوبر ماركت، فاشترت  
زبدية لبن حامض ورأس بصل ورأس ثوم ورغيف عيش، وضعتهم في لفافة  
أحجز ذلك عن الفندق فأنا في حاجة إلى الخروج من سكر الصين إلى  
اللبن الحامض وزخم البصل والثوم لأطرد الغاشية من ذلك السكر .  
وإلى طوكيو بعد في حلقة قادمة أذيلها بخاتمة الرحلات إلى تركيا .

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان (٤٣)

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحبباً يتقاربون وبالنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن» .

اليابان كسرت قاعدة الذهب . .

### اليابان

وما أدري ماذا أقول هل ارتحلت من الغرب إلى الشرق، أي من هونولولو إلى طوكيو؟ أم أنا راحل من الشرق إلى الغرب . . ليل هونولولو نهار طوكيو، وليل طوكيو نهار هونولولو فهل اليابان هي الشرق أم الخط

١٨٠ طويلاً نهاية الغرب بداية الشرق أو العكس؟ هو الله سبحانه وتعالى «يكور الليل على النهار» فليس هناك شرق لا يكون غرباً، وليس هناك غرب لا يكون شرقاً.

ولا أدري، مرة أخرى، كيف أقبل، بل وكيف يقبل ما نعلمه الآن عن هذه المشارق والمغارب، إن أي خط طول هو على أي رقم هو شرق لخط طول بعده، وهو غرب لخط طول قبله، كيف يقبل من متحدث يقول «وليس هناك نهار على الأرض يخالف النهار الذي أنت فيه» هل هو قال ذلك عن علم جاهل أو عن مجاملة تحترف العلم ليرضى عنه بعض من يظن أنهم يعتقدون قوله.. نحن على خط عرض (٤٠) مثلاً شرق خط الصفر «جرينتش» الذي تعارف عليه الناس الآن، بينما العرب فيما سبق كان خط الصفر لديهم هو ما يحمل رقم «١٠» الآن تقريباً الذي حددوا موقعه على جزائر «الخالدات» أي جزر الكناري غرب المغرب الأقصى، كما أن الفرنسيين وفيما سبق جعلوا الخط المار على باريس هو خط الصفر مبدأ الخطوط الطول، إذا كنا على الخط الأربعين وطوكيو على الخط «١٤٠» فالبعد بيننا وبين طوكيو «١٠٠» درجة أي «٤٠٠» دقيقة أي ست ساعات وأربعون دقيقة، تشرق الشمس على طوكيو وبعد تلك الساعات تشرق علينا، وإذا كنا مرة أخرى على الخط «٤٠» شرق ومدينة نيويورك على الخط ٧٤ غرب فالبعد بيننا وبينها هو ١١٤ درجة أي ٤٥٦ دقيقة، فحين تشرق الشمس علينا تكون نيويورك غارقة في الليل لا تشرق عليها الشمس إلا بعد سبع ساعات وست وثلاثين دقيقة.

فكيف صح لهذا المتحدث أن يجعل النهار في طوكيو وفي جدة وفي نيويورك نهاراً واحداً؟ ألم يعلم وأحسبه الفقيه أن نصاً في فقه الإسلام من

الصدر الأول حدد هذه الحقيقة، فالنص هو «إذا مات اثنان متوارثان في وقت واحد فالغربي يرث الشرقي، فلو أن أباً مات وقت الغروب في الجبيل ومات ابنه في ينبع في وقت المغرب أيضاً، فإن الابن في ينبع يرث الأب في الجبيل، ولهذا نسمع الإذاعة أو التلفاز حين يعلن عن مغرب الرياض مثلاً يرشدنا إلى فروق التوقيت فالنص الفقهي يرث الغربي الشرقي إذا ماتا في وقت واحد برهان أضعه أمام هذا المتحدث ليعرف أن القرآن علمنا عن المشارق والمغارب فلو لم تختلف هذه المشارق والمغارب لما كان النص بهذا الجمع.

وتلفتت من هونولولو إلى سفارتنا في طوكيو أطلب موظفاً عرفت اسمه من سفارتنا في واشنطن، ولقد نسيت الاسم وما زلت أحفظ نسبه إلى بيت البتاوي، كأنه من ولد أحد أعيان مشايخ الجاوة بل وأعيان مكة محمد علي بتاوي يرحمه الله، تلفتت إليه أطلب عونه يستقبلني في المطار، وما أسرع وفي تلك الأيام قربي الاتصال، وركبت الطائرة، وكأني سأطوف حول الأرض لأنني وصلت إلى هونولولو من جدة الشرق إلى هونولولو الشرق أو الغرب، ورحلت من هونولولو الغرب شرقاً أو الشرق غرباً إلى طوكيو الشرق بالنسبة إلينا واستقبلني البتاوي وأحسن إلي أحسن الله إليه، ولم أكد أستريح في الفندق حتى ذهبت للسفارة وقد كان السفير يومها الأستاذ، الصديق أحمد خليل عبد الجبار، فقد تعدت ألا أصل إلى بلد إلا وأزور السفارة أو القنصلية بدافع الاحترام وبوازع ما تدعو إليه الحاجة، لأن السفارة هي البيت السعودي فإنها الموضوع والشكل إذ تمثل المملكة فإنها المعين والسند لكل عربي سعودي.

إن اليابان أو طوكيو بالذات ليس فيها من يتلكأ في الطريق لا يتسكع

إنسان، ليس في إنسانها فضول حتى إني قلت لو أن أحد المارة صدمته سيارة وسقط على الأرض لا يلتفت إليه أحد، لا شأن لهم به ذلك شأن الإسعاف، كأنه لا وقت لديهم للفضول، أعادوا بناء.

اليابان دولة اقتصادية، فاقتصادها من بناء الصناعة يقف أمام اقتصاد الدول الصناعية الكبرى، حتى الولايات المتحدة وعظمتها الاقتصادية لا تنكر، تفاوض اليابان بشأن نظم الصادرات والواردات الفندق نظيف والرعاية شاملة لم أذهب عن طوكيو ولم أقم إلا ثلاثة أيام حرصت أن ألتقي بالشيخ «عمر ميتا» المسلم الياباني والداعية إلى الإسلام في اليابان، تشرفت بزيارته تحدثت إليه أكبر جهوده، فرح بي لأنني من أبناء القبلة من الأرض التي سطع عليها نور الإسلام، وتعلمت منه هذه المعلومة، قال: «إن في منشوريا شمال الصين وعاصمتها «موكدن» يوجد فيها خمسة وثلاثون مليون مسلم، كلهم على مذهب مالك» خبر لم أعرفه وشدني إلى أن أبحث مفكراً كيف أصبح هؤلاء المنشوريون على مذهب مالك؟ فلو أن الإسلام وصلهم عن طريق كاشغر «تركستان الشرقية» أو عن طريق بكين وما إليها لكانوا على مذهب أبي حنيفة، غير أنني وأحسبني على صواب إن لم أجد من يخطئني أعتقد بالراجح من الظن أن المبشر بالإسلام الداعية إليه قد وصلهم إما من إندونيسيا أو من المغرب رأساً، فالإسلام أول ما انتشر في إندونيسيا كان الدعاة مغاربة فإذا المسلمون فيها على مذهب مالك، فالأندونيسيون أول الأمر كانوا مالكيين، غير أن تواتر الكثرة من حضرموت واليمن قد نشروا مذهب الشافعي، ويعني ذلك أن المنشوريين تلقوا مذهب مالك من دعاة إندونيسيين أول الأمر أو مغاربة، وما أدري هل بينهم وبين الرابطة الإسلامية في مكة اتصال أم هو لم يتم بعد؟

ومن الطرافة أن نذكر انتشار المذهبين مالك وأبي حنيفة، فأقول مذهب مالك أقدم انتشاراً في المغرب والأندلس، ومذهب أبي حنيفة أوسع انتشاراً في المشرق سواء عن طريق بغداد أو عن طريق الترك في التركستان شرقية وغربية أو من الأناضول..

ولا بد من كلمة عن اليابان وليس ذلك عن الإمبراطورية الاقتصادية فحسب وإنما ذلك عن الإمبراطورية العسكرية أو هو عن الماضي والحاضر والمستقبل.

إن اليابان سكرت بخمرة النصر على إمبراطورية القيصر في روسيا فإذا الجنرالات أباطرة على الإمبراطورية، وتعاضمت صناعة اليابان فإذا هي التي تضطر بريطانيا تخرج عن قاعدة الذهب، فصادرات اليابان من الصناعة وخصوصاً النسيج، صدرته بالثمن الرخيص، فإذا النسيج في مانشستر يترنح، يصاب المصدر من الأقمشة بنكسة حتى بعض التجار في شرقنا قد تأثروا بهذه النكسة، فإذا عبد الغني الأدلبي في جدة وصادق الخوجه يصفيان أعمالهما، كأنما هو، وتلك خاطرة لا بد أن أذكرها وأعني التصفية لهؤلاء في جدة، كانت ضربة الحظ لحسين العويني ونجيب سالحة وإبراهيم شاكر، فالعويني جلس مكلفاً من الأدلبي لتصفية البيت التجاري ولسبب ما أصبح هو صاحب حظوة، عميلاً للحكومة، أي المملكة العربية السعودية، ويحظى معه إبراهيم شاكر، ويأتي دور نجيب سالحة فإذا هم أصحاب الثروة الواسعة حتى إن العويني بما منحته المملكة أصبح رئيس الوزراء في لبنان، ليكون نجيب سالحة الدرزي، وزيراً في وزارة العويني. أما إبراهيم شاكر فهو ابن البلد يتلبن حيناً ويسكن المدينة يتوفاه الله فيها.

اليابان دعت، الملك جورج الخامس يدعو رئيس وزرائه مستر رامزي

ماكدونالد رئيس حزب العمال رئيساً للوزارة في المرة الثانية لحزب العمال في أواسط الثلاثينيات الميلادية، جرى الحوار بين الإمبراطور ورئيس وزرائه عن أزمة الصادرات، فعرض رئيس الوزراء الاستقالة لكن الملك جورج قال له: لا بد أن تقود السفينة إلى النجاة، فقال ماكدونالد حين خرج يلتمس الحل «خير للطالب ألا يكون الأول في فرقته» وخرجت بريطانيا من الأزمة بالخروج عن قاعدة الذهب لبيع النسيج بقيمة تزامم سعر اليابان.

فهذا التفوق بالنصر على روسيا والانتصار في الصناعة أصاب الجنرالات أن يغزوا الصين، وما أدركوا أن الصين أرض واسعة وبشر كثيرون لا تنال بالسهولة، لقد أخطأ الجنرالات وجاء الخطأ الأكبر يدخلون الولايات المتحدة ميدان الحرب العامة الثانية، إن بريطانيا وفرنسا، لحقتهم الهزيمة من هتلر كما لحقت الهزيمة بلجيكا وهولندا والشعوب الأسكندنافية، يستصرخون كلهم المستر روزفلت لينصرهم كما نصرهم في الحرب العالمية الأولى، ولكن شعب الولايات المتحدة مازال يفكر مازال يحمل الضغينة على بريطانيا «لويد جورج» وعلى فرنسا «كليمنصو» فهما بعد النصر سخرا من رئيس الولايات المتحدة «ويلسون» أسقطوا المبادئ الأربعة عشر لأنهم حين ملكوا النصر لم يستجيبوا للتخلي عن الاستعمار، ومن تلك السخرية كلمة «لويد جورج» حين خرج من قصر فرساي وكان مجتمعاً مع «كليمنصو» فرنسا و «ويلسون» أمريكا، سأله الصحفيون ماذا هناك؟ قال: لقد تركت في القاعة رجلين أحدهما يريد أن يكون نابليون «كليمنصو» والآخر يريد أن يكون المسيح «ويلسون»، لقد تأخر دخول الولايات المتحدة الحرب، ولكن حماقة الجنرالات في اليابان دعت الشعب الأمريكي أن يدخل الحرب وذلك حين هاجمت طائرات اليابان السفن الأمريكية في

الهاواي. «بيرل هاربور» اعتدى اليابانيون على أمريكا، يعني أن الحرب وصلت إليهم، فدخلوها بالقوة العارمة، احتلوا الكثير من الشرق الأقصى يهزمون اليابانيين، وطلبوا الانتصار عاجلاً يحرقون هيروشيما ونجازاكي بالقنبلة الذرية فإذا الشعب الياباني يستفيق يسقط الجنرالات يخضع للسلم، ويومها قلنا إن اليابان جلبت النصر لأوروبا حين دخلت أمريكا الحرب.

إن هزيمة اليابان في هذه الحرب كانت سبب النصر في الحرب الاقتصادية اليوم، فمن مزايا اليابان أنها لا تجتر الماضي تقف أمام هيروشيما ونجازاكي لا تتحرك إلى الحاضر والمستقبل، تناست كل الماضي بينها وبين الولايات المتحدة وسالمت لتصنع الحاضر والمستقبل، فإذا هي تتفوق اليوم، الأحقاد لم تمت ولكنهم أناموها، أمريكا مدت يدها للسلم عزلت الجنرال الأبيض قائدها المنتصر «ماك آرثر» لأنها لا تريد البطل يطغى، وإنما تريد السلم مع اليابان.

وهكذا تناسى الماضي والعمل للحاضر والمستقبل تفوق في السياسة، فمثلاً كم هي العداوة التقليدية بين ألمانيا وفرنسا؟ فقد ذاقت فرنسا أكثر من هزيمة، ولكن الفرنسيين والألمان وضعوا الماضي يصندوقونه حقداً دفيناً وعملوا للمستقبل، بينما قومنا العرب مشكلتهم الكبرى أنهم يعيشون الماضي بأحقاده ولا يعترفون بالواقع، فما زالوا في مواقف الهزيمة من اليهود وأمام الذين مع اليهود.

لو أدرك العرب الحاضر لعملوا للمستقبل وليبق الماضي حقداً دفيناً قد يوجد التاريخ بالانتقام له إذا ما تفوق العرب في حاضرهم لمستقبلهم.

ورجعت أركب الطائرة لمدة تسع عشرة ساعة، لأن الطائرة لم تواصل السير، نزلنا في هونج كونج فكلكتنا فدلهي فطهران فيروت.

## طيبة . . رحلة في الزمان والمكان ( ٤٤ )

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض ، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية ، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية ، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية ، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جارية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن» .

سرقطني بيروت!

الرحلة إلى لبنان . .

وصلت إلى بيروت لأرحل من المطار أعود إلى جدة ، ولكن رائحة الثرى والأرز والصفصاف والوجوه العربية واللغة العربية في الأرض العربية ، دعنتي كلها لأن أنزل إلى بيروت أقيم أياماً . . ، في طوكيو كنت عاجلاً أصل

إلى جدة، ولكن بيروت سرقنتني أن أبقى فيها، كأنما أنا وصلت إلى جدة، لهذا سميت بيروت بهذا الاسم (السروق)، فأبي مدينة تسرق الإنسان يقيم فيها ولا يعجل إلى بلده إلا وهي السروق.. إلا وهي الحبيبة..، ولكن أهلها اليوم سرقوها حين استرقوها، كأنما عاشقها قد عشق هلاكها، فعلى أي شيء يتقاتلون؟!.. لبنان الجنة على الأرض يصبح أهلها مجانين.. ماذا جرى؟ بعض المسلمين يقتلون إخوانهم المسلمين، ألم يكن من العقل أن تضم قوة الفلسطينيين إلى قوة الشيعة إلى قوة السنة إلى قوة الدروز، ليكونوا الأقوياء يفرضون المصالحة مع طائفة أخرى لبنانية مثلهم، وإن كانوا غير مسلمين؟!!

إن السبب هو الحرمان من فهم القرآن، فأحمد الشدياق واليازيجيون والآباء اليسوعيون، ذاقوا البيان.. أشرق في قلوبهم بيان القرآن، فإذا هم العرب للعرب.. وإذا أحمد الشدياق تأخذه بلاغة القرآن وبيان اللغة الشاعرة إلى أن يسلم.. يرفع من قدر العروبة بما ارتفع به من قدر الإسلام..، أي شيطان نبغ في لبنان؟!.. أحال لبانة أخنوخ إلى لبنات شيطانية.. حصرت الفلسطينيين يموتون جوعاً يأكلون الكلاب والقطط والفئران ليباح لهم أكل الموتى من الفلسطينيين.

إنه ظلم القربى:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

إنه ظلم المشاعر.. إنها نزعة شيطان في يده أن يكف القتالين.

إن اليهود يحتلون أرضاً من لبنان، فلا يتوحد اللبنانيون، كأنما بعضهم يتصافى مع اليهود ويتجافى مع العرب.. إنها كارثة ليست على لبنان، وإنما

هي على الذين يكثرثون بها. . بل على الذي يعيش المأساة يحسبها ملهارة.

وطرفة عن الشدياق أحمد فارس، فقد أراد بعض القساوسة أن يهدبوا ترجمة الإنجيل، لا تبقى بأسلوب اليهود، فدعوا أحمد فارس الشدياق إلى لندن يترجم الإنجيل إلى العربية، فترجم بعض مقاطع من الإنجيل فإذا هي بيانية باللغة الفصحى، وإذا هو الله حافظ الذكر جل جلاله يصرف القساوسة عن ترجمة الشدياق قالوا: إنها ترجمة بأسلوب القرآن أي بيانية. . يقرأها مسيحي فيعشق البيان لا يجده إلا في القرآن. وأرجعوا الشدياق إلى لبنان ولم يترجم الإنجيل باللغة الفصحى، أي بأسلوبها البياني، ورجع شدياق ليكون برهاناً على أن المثل لم يكن إلا صدقاً (أبت اللغة العربية إلا أن تنتصر) فما أكثر بعض النصارى يعدون من أصحاب البيان يكتبون باللغة الشاعرة مشاعرهم، إذا ما قرأ غيرهم من العرب لم يجدوا أنفسهم البعيدين عن بشارة الخوري وعن شبلي الملاط والشاعر القروي ورشيد سليمان وأنطوان الجميل وداود بركات ومن إليهم، فأى شيطان نبغ في لبنان يتجسد في صورة بشر اسمه سعيد عقل. . يكتب بالفصحى. . يتحدث بالفصحى. . ولكنه يقتل بيانه بهذا التباين، بين موهبته كاتباً عربياً وبين عقده طفلاً، نشوئه عدواً لبيانه وإنسانه.

وانتهت الرحلة، سجلتُ بعض ما كان وليس في الإمكان أن يكون غير الذي كان، غير أن في الإمكان أن أكتب بعض ما يعرف من هذا التكوين الطائفي في لبنان. . إن الشام كلها منذ أن كانت دمشق عاصمة الإمبراطورية الأموية، أخذت القومية تستأسد، يثبت لها كيان كلهم قوم واحد، ولعلي لا أتجاوز الصواب أن عرب الشام من أسلم ومن لم يسلم كانوا عيبة واحدة، فلم تكثر العياب ولم تتبعثر الحقائق، حتى إن الظن وبعضه إثم، يأخذني

إلى القول بأن العربي في عهد القومية وإن كان نصرانياً لم تطلق عليه كلمة الذمي، ولم تفرض عليه جزية.

ومن هنا أضع التقسيم لنصارى العرب على ثلاث صور، في أول الأمر كان أمر الإسلام ألا تقبل الجزية من عربي، لا تفرض عليه وترفض منه، لأنه إما أن يسلم لتنتظم الوحدة في ظل كلمة التوحيد، ولتكون الأمة واحدة، فاختلف العقائد تتبعثر به الأمة، بل إن اختلاف المذاهب في ظل العقيدة بعثرة الأمة، وباسم العقيدة، وإما أن يخضع للسيف أعني أن العربي إما أن يسلم وإما أن يقتل، وأسلم العرب جميعاً في تهامة والسراة ونجد، بينما عرب الشام وعرب آخرون في مصر وما إليها كان لهم شأن آخر، امتد بالخطوة الأولى حين أخذت الجزية من نصارى العرب وهم قلة من (لخم) في الحيرة ومن تغلب ومن إليها في الطرف الشمالي الشرقي في الجزيرة.

فالصورة الثانية هي في ضرب الجزية على (لخم وتغلب) فإذا هم أصبحوا شاميين حملتهم عقيدتهم إلى أن يكونوا في حرز قبائل الشام غسان.. وكلب وبهراء.

لتأتي المرحلة الثالثة وهي كأنها الامتياز لهم لا تؤخذ منهم جزية، وشغل العباسيون عن الشام كما أشغلوا جزيرة العرب، لا يتعقبون غير المسلمين وقد انصب عقابهم على الكثرة من المسلمين العرب، لأنهم تشيعوا غيرهم، ليكون التمدد هو السيد الذي حكم العرب وحكم به سلطان العباسيين العرب.

ومن هذا كله قويت شوكة التمدد في الشام ضد العباسيين كما قويت شوكة المسيحيين في لبنان، ولكن هؤلاء النصارى في لبنان كانوا عرباً.. عرباً ولا جدال في ذلك، أعني أن عربيتهم احتتم بالإسلام وقليلاً ما

تحاملت على المسلمين . وجاء عصر العثمانيين فإذا هم يبتعدون عن العرب كما يبتعد العرب عنهم . . هوناً مآ . . هوناً مآ إذا ضعف الرجل المريض أصدر أوامره لا يجند إلا المسلمين ، فلا يجند النصارى ابتعاداً عنهم كما أنه يمارس الإذلال لهم ، فإذا رجال مسلمون في لبنان يتنصرون في طليعتهم بشير الشهابي يفر من التجنيد وليحفظ إمارته وقد تنصر غيره . . ، تلك سياسة الضعفاء وهروب المستضعفين ، وأخذ لبنان بهذا الموقف يتعاطف مع فرنسا ومع غيرها ، فإذا نحن اليوم نتجرع الغصص من الذين كانوا قوميين ومن الذين لم يعرفوا حكم الإسلام في رعاية الذميين ، غير أن لبنان مازال في نفوس العرب وفي قلب المسلمين هو الذي نهض فأنهض ، فالجرائد الكبرى في غير لبنان كانت لبنانية والمجلات الكبرى في غير لبنان كانت لبنانية ، فلبنان الشامي كان العربي ولكن العروبة اليوم لسان بلا قلب . . قلب تمذهب ولسان كاد يذهب .

## أيام وليال (٤٥)

والعلاقة بين العربي قبل الإسلام وبعد الإسلام، تأصلت مع مجاوريه في عهد الأكاسرة والقياصرة، وفي عهد التجارة تعبر أرضه تجلب من الشرق تباع في الغرب، أو يمر به الراحلون أو هم الرحالة من الغرب وإلى الشرق.

لهذا لم يكن العربي يجهل ما حوله ومن حوله، ولا هو بالذي تجاهله من حوله، وصال وانفصال.. صداقة.. وعداوة.. حرب.. وسلام، كأنما كل ذلك عدّ العربي ليحمل عقيدة التوحيد.. وتوحيد الكلمة. ومن هنا كانت الهجرة إلى الحبشة، يستقبلهم النجاشي ملك الحبشة.. ومن هنا مرة أخرى قوله ﷺ «اتركوا الترك ما تركوكم.. وذرّوا الحبشة ما وذرّوكم».. ومن هنا مرة ثالثة قوله ﷺ «لو كان العلم معلقاً بالثريا لتناوله رجال من فارس».

### ذكريات الرحلة إلى تركيا

والترك الذين عناهم هم تركستان شمال خراسان وبشرق خراسان، فلم يكن الأناضول أرض ترك، بل كانت أرض الأناضول حيثية في سالف الدهر.. رومانية في ذلك العصر، فالأمر الذي نشأت عليه واتصل بي كل ذلك، أعرفه ولا أنحرف عنه، فلم أذهب إلى الحبشة مع أن الانسياح فيها

يشهدني أرضاً جميلة، ولم أذهب إلى فارس مع أن الذهاب إليها يزيد ثقافتي، ولكن رحلت إلى تركيا، أعني إلى الأناضول إلى أسطنبول، وما كنت المبغض لشعب الترك وإن رزائي المتعصبون بجهالة الفهم أو بفهم الجاهلية، أني أسب الترك، وهل يستطيع مسلم أن يسب محمداً الفاتح الذي أسقط إمبراطورية الروم التي لم تسقط بسيف الأمويين أو بسلطان العباسيين أو بهمة سيف الدولة، لكن هذا الاتهام صبه علي ما ذكرته في محاضرة ألقيتها في «جماعة المحاضرات» التي كنت أحد أعضائها، وقد كانت عن التعليم في المدينة المنورة، وذكرت أن فتح ثماني عشرة تحضيرية والمدرسة الإعدادية، ودار المعلمين استغلها الاتحاديون، يوم أسقطوا السلطان عبد الحميد عن عرشه ونصبوا السلطان محمد رشاد على عرشه فالإتحاديون بحماقة القومية الطورانية، أرادوا بهذه المدارس نشر التتريك، لقد كانوا أذكىء فكيف تسلط عليهم الغباء، فإذا العرب أعداء وإذا الترك أعداء، كلهم لم يحتجوا في ظل الإسلام وإنما هم اعتصبوا قوميين، ألقيت هذه المحاضرة تناولت الفكرة ولم أسب الشعب، فكتب بعضهم يثير السفير التركي في جدة يشكو إلى وزارة الخارجية يسأل وكيل إمارة المدينة عن الموضوع، فيكلف أميرى حينذاك الأمير عبد الله السعد السديري يرحمه الله، يكلف أستاذي السيد أحمد صقر، وقد كان يسمع المحاضرة حين ألقيتها ليسألني بدافع التكليف عن هذه التهمة، ناولته المحاضرة قرأها، كتب تقريراً ينفي التهمة، لا يجاملني ولا يتحامل علي، فلم ينلني عقاب وإنما بعد ذلك نلت الثواب أدعى لزيارة تركيا بعد أن تمتعت بالسكينة في مكة المكرمة.

وأضحوكة، أقبل علي واحد من أواسط الناس في المدينة يقول لي:

«كيف تسب الأتراك؟ أنت ما تعرف أن جدتي أم أمي تركية» قلت: لم أعرف هذا المانع العظيم، لكنني أعرف حق السلطان على من هو في عنقه بيعه، يا ولد الحلال أنا ما سييت وما حييت.

وفي مكة المكرمة.. وفي المسعى أمام بيت في الخاسكية، قابلني صديقنا واسمه شفيق تركي أصبح مكياً يسكن محلة أجياد، التي كانت منازل مخزوم مس ترابها الطفل عمر بن الخطاب يوم ولدته أمه المخزومية كما مس الطفلين خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل والمسيب والد سيدي سعيد بن المسيب، كما كان من أنسالها عمر بن أبي ربيعة، قابلني يسألني: لماذا تسب الأتراك؟ فقد بلغته الإشاعة، وتمهلت لا أجيب استأنيت قليلاً حين شاهدت، تلميذي وابن أستاذه الصديق علي مدرس، أبوه الشيخ سعيد المدرس، فأبوه كان أستاذه وأستاذ معلمي السيد أحمد صقر كما هو كان الأستاذ الأول لعبد الحميد بدوي باشا العلم في مصر، بل والعلم في عالم القوانين أحد الذين صاغوا ميثاق سان فرانسيسكو.

أقبل المدرس، سلم علينا، قلت يا علي مين أحسن؟ مصطفى كمال وإلا السلطان عبد الحميد؟ فتلسن على مصطفى كمال وترحم على عبد الحميد، فقلت لشفيق: أسمعت؟ فهل ما قاله علي وهو تركي تأخذه سباً للأتراك؟ قال لا، قلت وهكذا أنا، قل لمن أخبرك عني كلمة «لا».

ومنذ أصبحت أكتب طاب للسفارة التركية في جدة أن أتلقى دعوتها لزيارة تركيا الحديثة، فإذا الرفيق معي في هذه الرحلة الصديق شكيب الأموي ومعه أم بنيه السيدة المحترمة.

وصلنا إلى أنقرة عاصمة تركيا الجديدة، اتخذها مصطفى كمال حراً تصان به الدولة من عدوان بلقاني بلغاري، فهو حين انتصر على اليونان ما

كان ذلك إلا الانتصار على تشرشل بالذات وعلى بريطانيا حينذاك، فمصطفى كمال حين انتصر لم ينقذ الإمبراطورية العثمانية فقد انتهت، وإنما أنقذ شعبه دولة في الأناضول، ولكن انتصاره على بريطانيا جلب الانتصار لبريطانيا نفسها على نفسها، فمد مصطفى كمال يد الصداقة لها فإذا هي تصادقه، لم ينلها عقوق من تركيا يوم اشتعلت الحرب العامة الثانية، أقصى العلاقة بين تركيا وألمانيا وحدد العلاقة مع روسيا وجدد العلاقة بالحيداء مع الحلفاء، إن لم يكن هو في يومها، فقد كانت سياسته هي في كل أيامها وقد أراد لتركيا أن تكون وحدها، كتب باللاتينية لئلا تكون الحروف العربية، وترجم الأذان لكن إسلام الشعب التركي مازال باقياً وقوياً، حتى هو نفسه لم يستطع تبديل اسمه، فما زال اسمه مصطفى كمال وإن أضاف إليه لقب أتاتورك، وكل أعوانه بقيت أسماؤهم عربية عصمت . . كاظم . . فتحي . . ، لم يستطيعوا تبديل أسمائهم لأن قلوب الأطفال فرضت سلطانها على الرجال، فأنقرة يعرفها العربي، أفليس أمرؤ القيس قد زارها وأصابته القروح كأنما هي عدوة مرض الزهري التي تسميه قبائلنا «الشجر»، فذو القروح أمرؤ القيس، ذهب يستنجد القيصر ليأخذ بثأر أبيه «آكل المرار» حجر الملك على أسد، هو من كندة ما استكثرت عليه أسد أن يكون ملكها، ولكنهم قتلوه.

ولعلّ مصاهرته لتغلب يوم كانت وائل ببكرها وشيائها وتغلبها المستعلية على العدنانية كلها فربيعة الفرس بوائل ومن إليها كانت على غير ما يشتهيها المناذرة وعلى غير ما يفرضه الأكاسرة.

إن معرفة أمرؤ القيس لأنقرة، ومعرفة العرب للأحباش ولمصر ولقبائل الشام وللروم وفارس، برهان على أنهم كانوا يعرفون ما هم عليه وما هم فيه، فالأمية لم يكتبوا الحرف، ولكنها لم تكن أمية الفكر.

وصلت إلى أنقرة واستقبلنا المضيف المترجم حتى إذا أخذتنا سكينة الراحة، كان جدول الزيارة يبدأ بعد أنقرة إلى مدينة «قونية» عاصمة السلاجقة عليها سمت القدم وبصمة العراقة، يحترمها الأتراك لأنها إحدى عواصمهم ولأن فيها ومنها جلال الدين رومي صاحب المثنوي كتاب ينسب إليه.. جزء من ثقافة الأتراك وركيزة من ركائز الطريقين «البكتاشيين»، تجولنا فيها وكانت الزيارة لشيخ مسلم اسمه أحمد صاحب مكتبة كبرى اقتناها واعتنى بها، ليس لديه رياش ولا أثاث.. رياشه وأثاثه وفخره في هذه المكتبة.. فيها مخطوطات وفيها ماسة لم تبلور كأنها قطعة من الكلس، فهي لم تزل خامة.. كبيرة الحجم لو بلورها لأفاضت عليه ثمناً كثيراً.. سقف بيته أشبه ما يكون بسقف بيوتنا من اللبن، مسقفة بأعواد العرعر (العثم)، ترجموه في الموسوعة الميسرة (الأثم) أخذوه من لغة الفرنجة ينطقون العين همزة، كما فعل أمين سعيد في كتابه عن الثورة العربية، تجد فيها (أبار بن حصاني) التي تقابل الأبناء، كتبها (أبار بن حسان) كما كتب (الخنق) المضيق بين وعيرة وحررة قريظة حين ينجد المدنيين، كتبها (الخائق).

واستقبلنا الشيخ أحمد وتركنا نزور المكتبة قالوا إن بعض الفرنجة دفعوا له ملايين الدولارات ليشتروا المكتبة الحافلة، بالمخطوطات والجوهرية فلم يبعها، وكان جالساً على الأرض، وقد شكنا لنا أن عربياً زاره وصور مخطوطة طبعها في بلده العربي فلم يرسل لصاحبها الشيخ أحمد نسخة من المطبوع، حرم الشيخ لذة الإحسان وحرمانا نحن العرب من ثناء الشيخ وكلفنا سوء ظن الشيخ.

ورجعنا نسير من أنقرة إلى العاصمة الثانية المسلمة، عاصمة العثمانيين



وبعدنا زرنا عجيبة الشعب التركي كيف حافظ على الآثار، لقد جاعوا وقاتلوا اليونانيين حفاة، فلم يبيعوا ما ادخروه في دار آتارهم (طوب قوباى) زرنا هذه الدار ذكروا لنا أن هذا المصحف مصحف عثمان بن عفان وأن هذا السيف هو ذو الفقار وأن هذه بردة نسبوها إلى رسول الله ﷺ، أما ذات الثمن الكثير. . الكثير! فهي الجوهرة (الماسة) التي اسمها الكوكب الدرى، كانت معلقة في الحجرة النبوية، أمسك بها فخري باشا وأرسلها مصونة تحفظ في (طوب قوباى) إنها ماسة كبيرة، قيمة الجواهر وقيمة المكان الذي كانت فيه، لو أن مصطفى كمال حينما جاع باعها للأمريكان لأنعل جنوده الحفاة وكسى جنوده العراة.

وزرنا القصور ومشينا على جسر البسفور الذي وصفه شوقي يعلن قدمه وخرابه:

أمير المؤمنين رأيت جسراً      أمرٌ على الصراط ولا عليه

وتناولنا العشاء في مطعم وفي ناد ليلى وسمعنا الأذان وقد كان بجانب نادي مسجد صغير، فقال لنا المترجم وهو ضابط طيار. . سمعتم الأذان؟ لقد تناول العشاء يوماً أتاتورك، يعني مصطفى كمال وحين سمع الأذان أصدر أمره بهدم المنارة والمسجد، ولكن المسجد بقي والمنارة بقيت بقاء الشعب التركي على إسلامه، كأن الآستانة ما زالت عاصمة التاريخ المسلم في الأناضول، وذهبنا نقف أمام قبر الصحابي الجليل خالد بن زيد أبي أيوب الأنصاري، لم ندخله وإنما نطقنا بالترضية عنه وكان معنا الأستاذ (صالح أوزقان) عضو الرابطة الإسلامية يمثل الشعب التركي فقال: أنا هناك.

وانتهت الزيارة يستقبلنا رئيس الوزراء سليمان دمرال ووزير العدل كلاهما قال: لقد حفظنا عهدنا للإسلام فما رضينا أن نمكن اليهود من فلسطين، وحين رحلنا بحرب الغرب علينا تمكن اليهود من فلسطين، قلت: ليس هم العرب وإنما هو وعد بلفور وإنما هو ما تعرف أكثر مني، لماذا عندكم سفير لإسرائيل، قال: تلك ضرورة ولو رجعتم إلينا ورجعنا إليكم لأمكن ألا يكون، هذه قصورنا مفتوحة وهذه صادراتنا لا تمنع عنكم، واصلونا نصلكم، لقد كنا في ضيق فلم نفرط بشبر من أرضنا والآن قد يتسع الضيق إذا اتسعت قلوبكم لنا ولو بالسياحة عندنا، ومضت سنون وجاءت هذه الأيام فإذا نحن العرب نقرب وإذا هم الترك لا يتعدون.

## طيبة رحلة في الزمان والمكان

### الحلقة الأخيرة

وانتهت الذكريات في خمس وأربعين حلقة، وتزيد المقدمة كأنها الواحد على تلك الذكريات، فالمقدمة أخذتني أفكر هل أستجديها من صديق يتصدق بها علي، إذا ما صادق المسيرة، أو قرأ الذكريات. . وسألت نفسي من. . ومن؟! وبينما أبعد هذا أو أبعد عن ذلك، فاستجداء المعاني فيه من كرب الاستعطاء، لأن استجداء المادة الحاجة أما استجداء المعاني، فاستكبار إن كان لبعض ما فيك أو ما هو لك، فإنه قد يكون تزيداً بمنحك بعض ما ليس لك.

وتلقت إليّ ابنتنا الغالية الأستاذة ابنة المدينة المنورة (نورة عبد العزيز الخريجي) تخبرني عن مقال نشر في المجلة (قافلة الزيت) كتبه الدكتور مصطفى إبراهيم حسين: قالت: سأبعث المجلة إليك، وتسلمت من البريد المجلة، وأخبرني الابن الكريم الأستاذ عبد الكريم الخطيب عن كلمة فياضة كتبها الدكتور عايض الراددي، فإذا بي أستقرئ بالأذن لأجدني أسير هذا التكريم من الكاتبين ومن المخبرين، أقول لنفسي ما قاله (أرشميدس) لقد وجدتها، أعني المقدمة وهي مكوّنة من مقال الدكتور مصطفى الذي أحاط بي ببعض ما نسيت وأحاطني بكل التكريم، وعايض الراددي كذلك، فهو

من أعراق طابت حين تأصلت ميموني سالمى حربى، فالردادة لا نعرف عنهم إلا الخير يحملون الحاج يأمن بهم ويحملون المؤونة إلى المدينة من ينبع وهم المؤتمنون عليها. . مثلهم كأبناء عمهم الحجلة والرحلة والمحاميد ومثلهم كأبناء عمهم المراوحة الحوازم. . جمالة، وهم اليوم أنجبوا الدكاترة والأساتذة.

### وجدتها مقدمة للذكريات

ولهذا كله سأنتشر مقدمة الدكتور، ما استجديتها وإنما كأني استهديتها. . ولا أجد إلا الشكر له ولعايض الرادى، فالشكر لن أكتمه وإنما أعلنه:

هو محمد حسين زيدان، الأديب الكاتب، والخطيب والصحفى والمحاضر، ولد بالمدينة المنورة عام ١٣٢٥هـ، وتخرج بالمدرسة الراقية الهاشمية فى عام ١٣٤٣هـ، وانخرط منذ صباه، فى حلقات العلم التى كان يعقدها كبار الشيوخ بالمسجد النبوى الشريف، فدرس علوم: النحو والفقه والتفسير والحديث، وغيرها.

وقد شغل «زيدان» العديد من الوظائف الإدارية والصحفية والعلمية والتربوية، فاشتغل بالتدريس فى المدينة المنورة، فى كل من «المدرسة السعودية» و «دار الأيتام». وذلك فى الفترة من عام ١٣٤٦هـ إلى عام ١٣٥٨هـ. وشغل بعض الوظائف الإدارية المختلفة، مثل: رئيس قسم الأوراق بوزارة المالية، فسكرتير مديرية الحج، إلى أن كان مساعداً للمفتش العام بوزارة المالية.

أما فى حقل الصحافة، فقد كان الأستاذ محمد حسين زيدان مدير

تحرير جريدة «البلاد» بجدة، فرئيس تحريرها، كما رأس تحرير جريدة «الندوة» بمكة المكرمة أيضاً. وهو الآن عضو بمجلس إدارة «دارة الملك عبد العزيز»، التي تعد بمثابة مركز للأبحاث التاريخية، هذا إلى جانب توليه رئاسة تحرير مجلة «الدارة»، وهي مجلة علمية محكمة، توجه عناية خاصة للتراث التاريخي والأدبي، وتصدر بصفة فصلية، ولا يزال «زيدان» يرأس تحرير هذه المجلة حتى الآن.

### زيدان مؤلفاً

وتتعدد مجالات النشاط الأدبي والثقافي لدى «زيدان»، بين التأليف، وتحرير المقال الصحفي، والمقال العلمي، والحديث الإذاعي والتلفزيوني، والمحاضرة، سواء في الأندية الأدبية أم في المحافل الثقافية والمؤتمرات. وقد جمع الكثير من أحاديثه ومحاضراته ومقالاته في كتب حملت كل طريف شائق من العناوين، والمفيد الجاد من الموضوعات. وأهم هذه المؤلفات الجامعة لإنتاجه.

- تمر وجمر، ويضم مجموعة من المقالات.

- حصاد عمر وثمرات قلم، ويضم بعض المحاضرات والمقالات، فضلاً عن طائفة من تراجم الصحابة وسير الأبطال.

- محاضرات وندوات في التاريخ والثقافة العربية.

- ثمرات قلم.

- صور.

- أشياخ ومقالات.

- كلمة ونصف.

- أحاديث وقضايا حول الشرق الأوسط.
- ولا يزال لـ «زيدان» عدد من المؤلفات قيد الطبع، منها:
  - خواطر مجنحة.
  - الذكريات، مشاهدات ورحلات وذكريات.
  - عبد العزيز والكيان الكبير.
- أما محاضراته التي شارك بها في مجالات ثقافية مختلفة فمنها:
  - رعاية الشباب، وهي محاضرة ألقاها بجمعية الإسعاف بمكة المكرمة عام ١٣٥٨هـ.
  - الإسلام والحضارة، ألقاها بجامعة الملك فيصل عام ١٣٩٧هـ.
  - جمال الدين الأفغاني، ألقاها بنادي جدة الأدبي عام ١٣٩٧هـ.
  - بنو هلال بين الأسطورة والحقيقة، وهو موضوع ندوة علمية تاريخية، شارك فيها «زيدان»، وانهقدت في مدينة (الدوحة) بدولة قطر الشقيقة، ونظمتها الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب عام ١٣٩٧هـ.
  - العرب بين الإرهاص والمعجزة، بحث ألقاه بمركز دراسات الشرق الأوسط في كامبريدج عام ١٩٧٦م.
  - رحلات الأوروبيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية، محاضرة ألقاها في قسم التاريخ، بكلية الآداب بجامعة الملك سعود بالرياض عام ١٩٧٧م.
  - ولا يخفى أن الاتجاه إلى البحث التاريخي، هو أبرز الاتجاهات وأغلبها على كتابات «زيدان» ومحاضراته.

## زيدان كاتب السيرة

عالج «زيدان» فن السيرة في مجموعة من المقالات، جمعها في كتاب واحد، جعل عنوانه (سيرة بطل)، ضم تراجم تاريخية لطائفة من الصحابة والصحابيات، رضي الله عنهم، بلغ عددهم ستة وستين صحابياً و صحابية، من بينهم: قدامة بن مظعون، ومصعب بن عمير، وأم المؤمنين خديجة، وسلمان الفارسي، وهند أم سلمة، وأسماء ذات النطاقين، وعبد الله بن جحش، وأبو دجانة، وعمر بن عبسة.

ويهدف الكتاب، كما تشير مقدمته، إلى هدفين أساسيين، هما:

- تلبية حاجة الأجيال الجديدة إلى هذه السير، بما شخصته من قيم روحية، ينبغي أن يستضيء بها الشباب المسلم، لبناء حاضرهم ومستقبلهم.

- أن يتعرف شبابنا رجال تاريخه وأمته، بعد أن جهل سيرهم، يقول في المقدمة: «هذه باقة عطرة من سير صحابة رسول الله ﷺ الذين نضروا وجه التاريخ الإنساني بخلقهم وبطولاتهم ومثلهم، نشرها اليوم، وقد أصبحت أجيالنا الجديدة، في كل شبر من عالمنا الإسلامي، في أمس الحاجة إلى هذا النور المبين، تمشي به عبر الظلمات الكثيفة، التي تكتنفها، وتكتشف على ضوءه، زيف الحياة المادية والشعارات البراقة، التي تلعلع من حولها وتستعين به لتخطيط حاضرهم ومستقبلهم». إلى أن يقول: «وإنه لمما يحزن القلب أن يعرف شبابنا عن مشاهير الأمم، من شرق وغرب، أكثر مما يعرفون عن أبطال أمتهم وصناع تاريخهم، الذين أضاءوا الدنيا، وغيروا وجه التاريخ».

أما عن منهج الكاتب في كتابة «السيرة»، فإنه، في إيجاز، يقوم على: رسم صورة حياة بشكل موجز، مع إبراز أهم ملمح في حياة الشخصية

ومواقفها وخصائصها، وذلك بعد أن يلم في البداية بنسب الشخصية ومكانتها.

وكذلك يتحرى الكاتب، في ترجمته، الوقوف عند مواضع العبرة والتنبيه إليها، مع عناية واضحة بربط سيرة الشخصية بالواقع المعاصر، والحاضر الذي نعايشه.

ولغة الكاتب تتوخى البساطة واليسر، مع الأداء البياني الذي يجعل قراءة السير أمراً محبباً شائعاً. كما يلحظ قارئ هذه المجموعة من السيرة جودة إلمام الكاتب بعلم الأنساب وتاريخ القبائل العربية، والموازنة الحاسمة بين الأنساب المتشابهة، والتي يدخل التشابه بينها، في بعض الأحيان، اللبس على الدارسين، والقارئ على سواء هذا إلى وفرة ما طالعها الكاتب ورجع إليه من المصادر، مع سعة المعرفة بالتاريخ الإسلامي: رجالاً ومواقف وأحداثاً وأنساباً.

### زيدان محاضراً:

سلفت الإشارة إلى أن الأديب «محمد حسين زيدان» يشارك بالمحاضرة في المحافل والندوات، وقد جمع ذلك في كتاب عنوانه: «محاضرات وندوات في التاريخ والثقافة العربية».

وعنصر التاريخ، كما يتضح من العنوان، هو الغالب، وهو مزيج من التاريخ العربي الإسلامي.

ونلتقي في هذه المحاضرات بتلك العناوين:

- رحلات الأوروبين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية.

- بنو هلال بين الأسطورة والحقيقة.

- العرب بين الإرهاب والمعجزة .

- جمال الدين الأفغاني .

- الإسلام والحضارة .

- العرب وجزيرتهم .

ومحاضرته عن «رحلات الأوروبيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية» تكشف عن الدور المريب الذي لعبه الرحالة الأوروبيون لدراسة شبه الجزيرة العربية من النواحي الاجتماعية المتعلقة بحياة البدو بصفة خاصة، والناحية الدينية بالحج ومناسكه، ولما كان هؤلاء الرحالة غير مسلمين، ومن ثم لا يسمح لهم بارتداد مكة والمشاعر، أو زيارة المدينة، فقد اضطروا إلى اعتناق الإسلام كذباً وزوراً، كما أتقنوا اللغة العربية، ودرسوا الإسلام وارتدوا ملابس البدو، كما وثقوا علاقتهم بالبدو، وكسبوا صداقتهم وثقتهم. وقد تناول هؤلاء الرحالة بالدراسة «الحركة السلفية بقيادة الشيخ محمد بن عبد الوهاب» وأثرها في شبه الجزيرة العربية، والدور الذي قام به «محمد علي» في النيل من الحركة السلفية الإصلاحية والتي كان لها تأثير عميق في حياة الشعوب الإسلامية، وإنشاء أول دولة إسلامية في العصر الحديث، تحتكم إلى شريعة الله، وأهمية هذه المحاضرة تتمثل فيما يلي:

- كشفت عن واحدة من الوسائل الخبيثة التي مارسها الأوروبيون ضد المسلمين المعاصرين، ووقائع حياتهم الاجتماعية والدينية.

- استشعار الأوروبيين الخطر الذي يتهددهم ويفسد عليهم مخططاتهم، من جراء حركات الإصلاح واليقظة الإسلامية وتقديرهم لحجم الخطر الكامن في الدعوة السلفية.

- علاقة الرحالة الأوروبيين بقيادة الحركة الاستعمارية، وبخاصة نابليون والحملة الفرنسية على الشرق العربي، وخضوع هذه الرحلات للتخطيط والتوجيه والتمويل.

- إن معلومات الرحالة الأوروبيين عن العالم العربي بعامة، وشبه الجزيرة العربية بصفة خاصة، كانت مفيدة للغاية في توجيه الحملة الفرنسية، وتحقيق الكثير من أهدافها.

أما محاضرة «زيدان» عن بني هلال والهلاليين، فعنوانها «بنو هلال بين الأسطورة والحقيقة». إن أهم ما يقدمه «زيدان» للمثقف العربي، يتمثل في الدور الذي اضطلع به الهالليون في تعميق حركة التعريب العرقي واللغوي، سواء في مصر أم في دول الشمال الأفريقي، خلال القرن الخامس الهجري وما بعده.

لقد استقرت قبائل «الهلالية» بمصر، بعد أن قدمت إليها موجة أثر موجة، وتحركت بعد هذا إلى بلدان المغرب العربي منذ عهد «المعز الفاطمي» حين أغرى قبائل الهلالية بغزو «القيروان» للقضاء على دولة «الصنهاجيين» الذين أعلنوا المذهب السني بدلاً للمذهب الفاطمي الشيعي، وخلعوا طاعة الخليفة الفاطمي في القاهرة.

وتتلخص أهمية هذه المحاضرة فيما يلي:

- أن موجة بني هلال تمثل، بالنسبة لمصر، الموجة العربية الرابعة، منذ موجة الفتح الإسلامي.

- أن الهالليين عرب من بني قيس قدمت موجاتهم إلى مصر من «نجد» التي أدت مع سائر مناطق شبه الجزيرة العربية دوراً تاريخياً بارزاً في سبيل تعميق الوجود العربي.. عرقياً، ولغوياً. وبالتالي عمقت الوجود الإسلامي،

المرتبط بالوجود العربي دائماً.

- أن «الهلالية» ليست أسطورة، بل هي حقيقة، ودورها في المنطقة العربية دور أصيل.

ومن الواضح أن بحث «زيدان» عن «الهلالية» قد أفاد كثيراً من النتائج التي توصل إليها مؤرخ تونس الكبير الراحل «حسن حسني عبد الوهاب» في كتابه «ورقات عن الحضارة العربية في أفريقيا». إذ كان من أوائل المؤرخين المعاصرين الذين نبهوا إلى دور «بني هلال» في حركة التعريب، بعد أن اقترن خراب القيروان بالهلاليين.

ولو شئنا أن نخلص إلى رؤية شاملة لكتابات «زيدان» التاريخية ومحاضراته، لقلنا: إن هذه الكتابات والمحاضرات، تحرص، دائماً، على الارتباط بهدف معين، هو تأصيل الانتماء العربي الإسلامي، ووصل الماضي التالد بالحاضر الواعد، وحث الشباب، بخاصة على قراءة تاريخه واستطلاع تراثه لأن الأمة التي تجهل تاريخها، تجهل طريقها.

### زيدان والمقال السياسي:

عالج «زيدان»: المقال السياسي، كما عالج ألواناً شتى من المقال، على نحو ما سوف نبين بعد، فأصدر كتاباً كاملاً، جمع فيه ما نشره مفرقاً من مقالاته السياسية، وأهمها:

- إسرائيل والواقع العربي.

- الصراع بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية.

- أساليب الاستعمار المعاصر في الاتجار بالسلاح.

- الخطر الشيوعي.

- كامب ديفيد ومكامن الخطر فيها.

وأول ما نسجله من الملاحظات على «مقال زيدان السياسي» أنه وثيق الارتباط بالحاضر العربي، وبما يجري على الساحة العربية من الأحداث، ومن هنا يأتي مقاله السياسي تعليقاً على هذه الأحداث، وتحليلاً لها، ونقداً للانحرافات، نقداً مغلفاً في أسلوب ساخر لاذع.

و «زيدان» الذي يهتم بالتاريخ، ويخصه بالأبحاث، لا يفوته أن يمزج «المقال السياسي» بالتاريخ. ويرد ذلك عنده على صور شتى: منها، على سبيل المثال: بدؤه مقاله بذكر حادثة سياسية، ثم الانطلاق من هذه الحادثة القديمة إلى موقف حديث يناظرها، فيحلل ذلك الموقف، ويعقد الأواصر بين الماضي والحاضر.

وقد لا تكون الإشارة التاريخية، لديه، نقطة البداية، بل ترد في ثنايا المقال، مع الموازنة والمقارنة.

وهكذا يتحول «التاريخ» في «المقال السياسي» عند «زيدان» إلى درس آخر، يؤصل لديه الرؤية السياسية ويعمقها ويجعل «المقال السياسي» لديه أكثر من مجرد محاولة للتعليق على الأحداث والأخبار، عربياً وعالمياً، بل هي درس يبقى بعد زوال الحدث، ليصبح امتداداً حياً في واقع الأمة.

ثمة ملحظ آخر عن «المقال السياسي» لدى «زيدان»، وهو عنايته بالحدث العالمي، وعنايته بالحدث العربي وتناوله الحدث العالمي، من وجهة نظر المثقف العربي، مع الربط بين الحدث العلمي والواقع العربي في حلقة واحدة.

ومن خصائص مقال «زيدان» بساطة الأداء اللغوي، مع مزج التحليل

والتعليق بروح الدعابة، التي لا تخلو، في الكثير من الأحيان، من السخرية اللاذعة.

كذلك يحرص «زيدان» في مقاله السياسي على العنوان الطريف المثير،  
مثل :

- استرخاء موسكو وتوتر واشنطن.

- لمسات، ورفعنا لك ذكرك.

- تجارة السلاح بلطجة.

- من المؤامرة إلى المغامرة.

- منحة التوقيت.. . نعمة التوفيق.

### زيدان والمقال الاجتماعي :

عالج «زيدان»، من خلال «المقال الاجتماعي»، العديد من الموضوعات الاجتماعية، التي تصور وتنقد بعض التقاليد والعادات، والظواهر الاجتماعية العارضة، مع الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، ومن بين القضايا الاجتماعية التي تناولها: المغالاة في المهور، الإقبال على الاقتران بالرجل الثري، دون النظر إلى الاعتبارات الأسرية، بعض مظاهر أنانية الآباء في معاملة الأبناء.. الخ.

ويميل الكاتب، في مقاله الاجتماعي، إلى التركيز والإيجاز وتحري الواقع وصدق الوقائع. كما يغرم كثيراً بأسلوب الحوار، يلجأ إليه ويمزج به الصورة الحية النابضة، مما يضيف على المقال ملامح قصصية، ويشد إليه قارئ الصحيفة، ويكشف، في الوقت ذاته، عن حس فني لدى الكاتب، يعينه على تجسيد الفكرة الاجتماعية.

كما يلجأ الكاتب، في بعض الأحيان، إلى استخدام «الكلمة العامية والتركيب العامي»، حتى يضاعف من الطاقة الجاذبة للقارئ، ويقترب بقلمه من الواقع، هذا إلى نزوعه نحو الفكاهة، التي يستعين بها أحياناً في النقد الساخر المغلف.

في مقال له عن نقد بعض العادات المتبعة في حفلات العرس، يقول: «ونسأل الله أن يتم على العرائس والعrsان نعمة الفرحة في ليلة العمر، وفي أيام العسل، وفي الأيام التالية، من عمر مديد وحياة سعيدة. يغلبها بالمال، وتغلبه بالعيال، ويتغلبان على حياة، زاخرة بالمتغيرات والمتناقضات، بالعلم والمعرفة والصبر والشكر. مقدمة لا بد منها، ندخل بها على الأمهات والآباء، فهم يأبون إلا الزبيطة والزمبليطة» تكثر فيها المصاريف ذاهبة هباء، لو صانوها لسانوا الكثير من المريح والمفرح والمعين...».

### زيدان كاتب الصورة:

مارس الكاتب تحرير لون من ألوان «الكتابة الصحفية» يمكن أن نطلق عليه الصورة أو «اللوحة» وذلك إلى جانب المقال، الذي أوجزنا الحديث عنه فيما سبق. وهو عادة يعنون لهذا الشكل: أي الصورة، بعنوان «صور...».

وقد خص بهذا الشكل النثري كتاباً كاملاً، جعل عنوانه «صور».. كما لم تخل منه سائر ما جمعه من الكتب الأخرى مثل: ثمرات قلم، وكلمة ونصف، وأحاديث وقضايا حول الشرق الأوسط.. وفي كتابه «صور» الذي اختصه بهذا الشكل النثري، يحاول أن يحدد لنا المقصود من لفظ «صور»، فيقول: «إن هذه الصور قالة من مقالة، كليمه من كلمة، قد يكون فيها الكلم لمن تجرح، وقد تكون قالة من مقالة، كليمه من كلمة، وقد تكون لما هو أكثر، أو لما هو أقل. هي بضاعة مزجاة، فعسى أن تلقى القبول».

وإذا كانت تلك السطور لا تعطينا مفهوماً محدداً لفن «الصورة» لدى الكاتب، فبوسعنا أن نتعرف على هذا المفهوم من خلال قراءة مستقصية، تستخلص الخصائص، وتحدد هذا المفهوم. فالصور على هذا لمحات قصار تتابع في موضوعات شتى، من الدين إلى المجتمع إلى الأدب إلى السياسة، وغير ذلك.

وقد تكون هذه الصورة تسجيلاً لذكرى من ذكريات الكاتب، أو لخاطرة عابرة، أو لفكرة مقروءة، ألم الكاتب بها فيما يلم به من مطالعته، وقد تكون خبراً من الأخبار السيارة، أو حقيقة تاريخية أو علمية.

أما من حيث الشكل فهى، إلى جانب التنوع والاستطراد الموضوعي، تتسم بأنها أقصر، وأكثر تركيزاً من الشكل المقالى، الذي اعتاد الكاتب ممارسته.

كذلك قد تكون الصورة حواراً خالصاً، أو حكاية خالصة. كما قد تكون سرداً مباشراً مجرداً من الحوار أو القص. هذا إلى جانب عناية الكاتب، في الأعم الأغلب من «صوره» بعنصر التصوير، حيث يكون حظ صورته منه أوفر من حظ المقال.

وإذا كان البحث العلمي عند «زيدان» قد اتسم بالرصانة وعكس لنا تنوع المعرفة، مع عناية خاصة بالتاريخ، فإن «المقال الصحفي» لدى الكاتب، قد اتسم بالخفة والظرف أيضاً، وعكس لنا «الحس الفني»، لديه، مع ارتباط واضح بالواقع المعيش، إقليمياً، وعربياً، وعالمياً. اجتماعياً وسياسياً ودينياً. ومن هنا تنوعت منازع القول والتعبير لدى «زيدان» سواء من جانب المعرفة العقلية، والوجدانية الفنية، كما تنوعت وتباينت، في الوقت نفسه، ثقافته ومعارفه، في مصادرها ومواردها.

## ذكريات الزيدان

أخذ الكثير من أدبائنا المعاصرين في هذه الأيام يدبجون مذكراتهم وتجاربهم في مسالك هذه الحياة الواسعة إن طالت أو قصرت ولكن كما قال أستاذنا محمد حسين زيدان في ذكرياته التي ينشرها تباعاً في جريدة عكاظ: «الذكريات ليست إلا جغرفة للأرض.. إلى أن قال: أكتب هذه الذكريات ليس فيها الأنا وإنما كلها نحن» وذكريات أستاذنا الزيدان هي عن أطهر بقعة في هذه الأرض وأكرمها عن مدينة النور والضياء، طيبة الطيبة بلد سيد المرسلين ﷺ في عهد الدولة العثمانية والعهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عن الأشراف ثم أطل على عهدنا هذا عهد الكيان الكبير المملكة العربية السعودية. وأجمل ما في هذه الذكريات أمانة تاريخية صادقة أوردتها أستاذنا وأثبتتها لهذه الأجيال والأجيال القادمة إذ يقول: «من ذلك اليوم السبت التاسع من جمادى الأولى سنة ١٣٤٤هـ أصبحت المدينة تعيش الأمن والاستقرار، آلاف الحجاج يصلون في المسجد بلا إتاوة ولا خفارة ولم تستقر أحوالها ولم يتسع مجالها ولم يأمن رجالها إلا حين رد لها الاعتبار عبد العزيز بن عبد الرحمن».

لعلنا نلمس في هذا التاريخ شيئاً جديداً لم يتطرق إليه أحد من قبل من كتابنا ونلمس الجمال والصدق في الأمانة التاريخية التي أوردتها وسجلها وأثبتها صاحب اليراع الجاد والكلمة المجنحة أستاذنا الزيدان الذي ستظل

ذكرياته سفرأ ومرجعأ هامأ من المراجع الهامة في المكتبة السعودية عبر تاريخنا الطويل، وجاءت الذكريات الأمانة أثراً مستقلاً متكاملأ لحقبة تاريخية من تاريخ المدينة دبجها يراعه بثقافته الغزيرة والواسعة ومطامح شيخوختنا الناضجة، فبارك الله فيه وأطال في عمره وكلمة حق نوردها هنا أمانة للتاريخ أن شيخنا الزيدان خير من يستحق الجائزة التقديرية وهو أهل لذلك لما تركه لنا من الأثر في دنيا الأدب السعودي وهو سمة بارزة وقمة من قمم أدبنا المعاصر في التاريخ، فهو الذي واكب النهضة الصحفية السعودية من السفح إلى القمة وتمرس في مجالاتها العديدة وعمل فيها رئيساً لتحرير جريدة البلاد. ويعمل في وقتنا الحاضر رئيساً لتحرير مجلتنا الغراء «الدارة» ولا يزال شيخنا الزيدان عنده العطاء والعطاء وإذا جلست معه يحدثك عذب الحديث في شؤون الحياة وأخبار الأولين والحاضرين فهو بحق موسوعة علم ومعرفة ونتيجة قراءته الكثيرة من بداية حياته وهو شاب لمختلف أمهات الكتب ولا سيما التاريخ القديم والجديد، وأعظم نعمة على الشيخ الزيدان أنه يتمتع بقوة الذاكرة وحضور البديهة، أدعو أن يطيل الله في عمره ليعطينا الكثير والكثير.

عبد الكريم محمود الخطيب

## محمد حسين زيدان

هو من مواليد المدينة المنورة في سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، وبها نشأ، وفي مدارسها تعلم، فتخرج من المدرسة الراقية الهاشمية فيها في سنة ١٣٤٤هـ. بدأ حياته العملية مدرساً، ثم التحق بسلك الوظائف العامة، وتدرج فيها إلى أن تقاعد في سنة ١٣٧٤هـ، متفرغاً للأدب والكتابة، فاشتغل بالصحافة مديراً لتحرير جريدة (البلاد) بجدة، ثم رئيساً لتحريرها، ثم رئيساً لتحرير جريدة (الندوة) بمكة، ثم اختير ليصبح أول رئيس تحرير لإحدى المجالات المتخصصة في الدراسات والبحوث رفيعة المستوى، وهي مجلة (الدارة) التي تصدر عن (إدارة الملك عبد العزيز) بالرياض، وما زال الأستاذ محمد حسين زيدان محافظاً على مستواها الرفيع مادة، وإخراجاً، وطباعة، وتحريراً.

ومحمد حسين زيدان هو أكثر كتاب الصحف السعودية شعبية عند جمهور القراء على جميع مستوياتهم. وهو كاتب مقالة من طراز فريد، يتفنن في كتاباته، ويستلهم التاريخ القديم والحديث، ويربط أحداث الماضي بالحاضر في تحليل واستنتاج الباحث المتمكن القدير.

ومحمد حسين زيدان في أسلوبه يحسن التصوير في جمل يتفنن في صياغتها في ديباجة سهلة مشرقة، وفي إقناع منطقي واضح. وهذا يجعله محبباً إلى نفوس كل قراء الصحف التي تتسابق في نشر مقالاته، القصيرة،

والطويلة، والتي عادة ما يواكب فيها الأحداث بفكر نير أصيل، ووعي وطني مخلص، وحس مرهف.

ومحمد حسين زيدان يبدو في كتاباته غزير المعرفة واسع الاطلاع موسوعي الجوانب في الأمور التي يتناولها بلا تحديد. وهو على علمه وشعبيته الواسعة عظيم التواضع لغيره من العلماء، وهذا يزيده رفعة، ويجعل القراء، مهما اختلفت مستوياتهم الثقافية، أكثر تعلقاً به، وإقبالاً على كتاباته المتأنقة الرشيقة، الممتعة المفيدة.

ومحمد حسين زيدان محاضر وخطيب لبق يشد الأسماع إليه بأسلوبه الجذاب الذي يتفنن فيه ارتجالاً - في معظم الأحيان - كما يتفنن في مقالاته المكتوبة. وقد جمع محاضراته أكثر من مرة وأصدرها مطبوعة، كما أصدرت له مؤسسة تهامة ثلاثة كتب في سلسلة الكتاب العربي السعودي، الأول منها برقم (٢٨) في السلسلة، وعنوانه «ثمرات قلم» والثاني برقم (٥٨) بعنوان «كلمة ونصف» والثالث منها برقم (١٠٨) وعنوانه «خواطر مجنحة»، كما قدم محمد حسين زيدان عشرات الأحاديث والبرامج الإذاعية والتلفزيونية، وكان يتفنن فيها في تقديم الرأي والمعلومة في صور مشرقة من الكلام الجميل الذي يحسنه، بأصالة خاصة في التفكير والتعبير.

إن محمد حسين زيدان فنان كلمة، يحلق بها في سهولة ويسر لا غموض فيهما، فيأخذ معه القارئ إلى جوه الحالم في رقة قد تفوق رقة الشعر، مثل وصفه لأصيل يوم جميل من أيام جدة، في حوار قال فيه: «الأصيل تعطل اليوم.. . أخرج في لحظاته أرى كما قالوا: ذهب الأصيل على لجين الماء».

لم أجد هذا الأصيل.. . كأنما الشمس قد تبرعت بالحياة.. . من هذه

المزنة.. هتانة على جدة فأصبح لجين الماء.. قد أذاب ذهب الأصيل.  
كان عصراً من أيام الجنان.. لا هو بالمظلم المعتم، ولا هو بالصاحي  
الوضوح!!

كانت مزنة في السماء.. أشرقت بها فرحات في القلوب.. كأنما النعيم قد  
وافانا وما تخطانا، نعيم نحسه على أجسامنا من روح في وجداننا.. واستراحة  
لعضلاتنا.. وأمل في نور الربيع، من نور اللجين على ذهب الأصيل.  
هتانة فتانة.. أنعشت شاباً كان بجانبه.. كاد يطير.. قلت: تطير يا  
عروس الندى، لتترك أرملة؟!

لم يعد لصاحبك أرملة.. فإن العشق زوج لا يموت.. بعيد هذا  
العاشق عن الترمل، والثكل، واليتم.. لأنه كل يوم في حياة<sup>(١)</sup>.

ومحمد حسين زيدان شيخ متجدد الشباب دائماً، يعرف كيف يخاطب  
الشباب، وكيف يوجههم بطريقة غير مباشرة، في جمال أسلوب، وصدق  
إحساس، وقدرة على التحليل بمهارة فائقة، فهو يشعرهم أنه منهم، فهو في  
(حوار) عنهم كتب يقول: «قال: أنت شيخ تصابي.. تتعلق الشباب ليزفوك  
في هودج!! فحينما فقدت عرس الحياة جئت تطلب التعويض.

- قلت هذا غير ملائم للواقع.. فحبي للطفل أبي الرجل.. أملي في  
الرجل صانع التفوق في المستقبل.. هو دافعي من أول يوم وقفت فيه معلم  
صبيان.. في كل مرحلة لم أبخس إنساناً حقه.. في كل رحلة رافقت  
المقدمين على نجاح.

برئت من إلحاد.. وتبرأت من كلمة قالها أحدهم قبل خمسة وثلاثين

(١) كتاب «كلمة ونصف» تأليف محمد حسين زيدان، ص ١٦٣.

عاماً: أنت تشجع فلاناً! ألا تعرف أنه إذا تفوق سينسك ويملك؟

- قلت: إذا ما ذكر نفسه بالتفوق فيه.. فأني أنسى نفسي وأضع لبنة في بناء أعتز بصونه ونمائه.

- وقال آخر: أنت تجبن عن مصارعة هؤلاء الشبان ومقارعتهم..

- قلت: لم اختلف معهم على شيء ينالني منهم.. بل إني أحبذ أن يكون أول حجر يرمون به هو الحجر المسلط على الخطأ، ولو كنت هدف الحجر إذا ما كنت من الخاطئين.

أما إن اختلفوا على أنفسهم.. فلست عليهم بمسيطر!

وإن تخلفوا عن الحق، فشانٌ غيري أن يردعهم عن الباطل.

فقد أسعى جهدي لتحرير رأيه.. ولا أحب أن أكشف اللحم في السوق!!

- هما قالوا ذلك.. فلم أنهزم.. لأنه جرأة على الحقيقة، ولا يهمني إلا دافعي ووازعي. ولكن..

- قال الثالث: لا.. لا.. إنك تسوس عقولهم، وتوسوس لهم، وتفسد رأيهم.

- قلت: هنا يكمن الخطر.. هنا دافع حقدك، وسوء قصدك.. فليت ولدي من صليبي يسير على إيماني ورأيي في ترابي وقومي ووطني.  
قال غير هذه..

إني أدفع الجرأة.. وأتسلط النشاط.. وأحاور الرأي لأنني أحب الجهر.. وأكره الهمس.. وأرفض الكبت..

ثق أنك حينما تقول هذا لواحد، فأنت تريد أن تسلبه كفاءته في تمييز الأصدقاء والرجال.

لا حقد، لا إفساد.. إنما هو الحب لكل التفوق والمتفوقين.. أما سواد القلب والحقد القاهر، فمتاع الذين يحبون أن يعيشوا وحدهم.

إن محمد بن حسين زيدان فنان كلمة يسمو فيها بصدق أحاسيس الإنسان، الذي ينشد الخير وينشر الحب، ويزين الحياة بالبهجة، والأمل المشرق، أمد الله في عمره.

## مقدمة

بقلم سباعي عثمان

من خلال سطور هذا الكتاب في تحفظ. تلّفت حولي - كالمستغيث ، من أي المداخل ، أتلمس طريقي إلى هذا الخضم الواسع من فكر محمد حسين زيدان، ولا أخفي ما شعرت به من حيرة أمام هذه الموسوعة المتنوعة، ولكن عزائي هو أنني لا أتناولها لأقول ما ينقصها، أو ينقص كاتبها من قول. ولا لأشرح ما استغلق من أفكاره - فأسلوب الأستاذ الزيدان معروف بسهولة الممتعة - وإنما أنا أستجيب لدعوة كريمة من المؤلف . ربما أراد بها تشجيعي . أو ترشيحي لاستقبال القارئ على أبواب هذا السجل القيم . . ولعلي ثاني تلميذ يقدم لأستاذه بعد الصديق الأستاذ عبد الله جفري الذي قدم لكتابه: «ثمرات قلم» . . وفي مثل هذا التواضع منه تكمن عظمة العلم . ويشع جلال العلماء . وسماحة المفكرين .

وأستاذي الزيدان - وإن كان في غير حاجة إلى التعريف - إلا أن هذه فرصة نادرة بالنسبة لي . . لا لأعرفه، وإنما لأعلن عن معرفتي به من زوايا - ربما - لا يعرفها غيري من البعيدين عنه، وذلك من خلال صلتي به قارئاً، ومتابعاً لفكره، وأدبه. منذ الثمانينات. ومتلقياً لأماله. خلال عملي بصحف الندوة - وكان رئيساً لتحريرها. . وعكاظ وكان واحداً من أسرتها.

وكتابها. وأباً روحياً لمحريها - والبلاد. والمدينة. وهو أحد كتّابهما البارزين. ولا يزال قلمه يفيض من معين لا ينضب. ولا يجف!

ومن خلال هذه التجربة. عرفت أستاذي الزيدان. كاتباً. حاضر البديهة.. يتمتع بقدرة فائقة على ترتيب أفكاره. خلال ارتجاله المألوف لدى عارفيه. وهو من أقوى من عرفتهم ذاكرة، وحضوراً، ولا يكاد مستمعه يفرق بين أسلوبه كاتباً. عندما يقرأ له. أو محدثاً عندما يصغي إليه.. وقليل من الناس يتمتعون بهذه الخاصية التي تنم - عادة - عن التمكين والأصالة، وسعة الأفق..

ونحن أبناء هذا الجيل نعرف الأستاذ الزيدان معرفته ببعضنا. فهو أقرب أدباء الرعيل الأول إلينا. موجهاً. ومحدثاً. ومناقشاً لمحاولاتنا، وتجاربنا الغضة منذ بداية عهد بعضنا بالأدب. وبعضنا بالتأدب. أو الصحافة. «التصاحف» إن صح هذا التعبير.. وبما يحكم لقاءاتنا المستمرة به.. زائراً. أو كاتباً. أو مراجعاً. أو مملياً لكتاباتة..

بين دفتي هذا الكتاب مجموعة منتقاة من مقالات الأستاذ الزيدان المتنوعة، يسعدني أن كثيراً منها. من أماليه عليّ، في الندوة. أو البلاد. أو عكاظ. أو المدينة.. لا أذكر.. ولكنني أتذكر بعضها الآن كلمة.. كلمة، وأتذكر كثيراً مما استوضحته من عباراتها عبر الهاتف، فكان يعيدها عليّ - كما لو كان جهاز تسجيل - فكنت أعجب لذلك أشد العجب.. ثم - مع مرور الأيام - أصبح أمراً مألوفاً لدي. لا يثير ما كان يثيره من دهشة!

وفيما بين يدي القارئ - مما ضمه هذا الكتاب - يتنقل الأستاذ الكاتب. بين الأدب، والتاريخ، والسياسة، والاجتماع، والتربية، وشؤون أخرى من هموم المجتمع، وقضاياها. فيما نسميه السياحة الفكرية. فيوفي كل هذا حقه من خلال رؤية مستنيرة، وفكر ذي خصائص أصيلة. ومتميزة.. إنها حصيلة

غنية بالتجارب الطويلة في ميادين مختلفة. مع الحياة، والناس.. فيها المعاناة بين الإخفاق والنجاح. والتطلع والإحباط، فكان هذا العطاء الرائع الذي يقدمه للناس.

والأستاذ الزيدان من أكثر كتّابنا انفتاحاً على الفكر المعاصر. بصفته الموسوعية، وصفة المتابعة التي لازمته، ولازمت كثيراً من أدبائنا الكبار، فهو يقرأ في كثير من مجالات المعرفة. ويكتب - أيضاً - في مجالات شتى.. ربما، انطلاقاً من التعريف التراثي للأدب. بأنه «الأخذ من كل فن بطرف»..!

وكما سبق أن قلت - في بدايات هذه المقدمة - إنني لا أحاول أن أقوم (بتشديد الواو وكسره) - هذا العمل، ولا أحاول تفسيره، أو تقدير قيمته. فتلك مهمة، أنا دونها، عندما يكون موضوعها، هو فكر الأستاذ الزيدان.. وإنما أستجيب لاستضافته التي أعجز عن التعبير عن امتناني لها..

أما مبدأ جمع المقالات المنشورة في كتاب يصدر للناس، فمبدأ أتحفظ تجاهه أشد التحفظ. وهي ظاهرة تكاد تنفث بين كتاب الشباب في غياب جهة تُعنى بتقويم و «تقييم» ما يطرح على الساحة الأدبية من منشورات.. على الرغم مما في بعضها من الأفكار الخلاقة، وما في بعضها من بوادر إبداعات موفقة.. إلا أن التسرع في النشر - قبل نضجها ونموها - يجهضها في فترة التكوين!

ولتحفظي تجاه جمع المقالات المنشورة في كتاب أسباب:

١ - أنها تجيء عادة تعليقاً على خبر، أو تحليلاً له، أو هو بين التحليل، والتعليق وقليل منها تكتب كتابة فنية، عميقة التناول. ومعظم هذه الكتابات تكتب في ظروف عاجلة للوفاء بالتزامات صحفية يومية، أو أسبوعية..

٢ - كثير من هذه المقالات تكون وليدة مناسبات تستنفد أغراضها. بصدق هذه الأغراض أو تبدل ظروفها مع الزمن، تجاوباً مع هذا الرأي، أو ذاك، فالصحافة مرآة المجتمع وانعكاس لآماله، وتطلعاته التي يترجمها الكتاب عادة.

٣ - هذه المقالات لا تنشر - أصلاً - لضمها، فيما بعد، في كتاب، ولهذا الاعتبار قيمته وأثره على الفكرة والأسلوب!

بطبيعة الحال.. لا ينسحب هذا القول على إنتاج أدبائنا الكبار الذين لم يعرفوا ظاهرة التسرع لأنهم:

١ - نشأوا على أسس علمية متينة لا ينشأ عليها الشباب اليوم.. لا في مناهج التعليم ولا في حصيلتهم الثقافية الحرة.. لغة.. وأسلوباً. وإدراكاً، وهضماً، وقدرة على توظيف محصلاتهم العلمية والثقافية.

٢ - لأن حصيلة أدبائنا الثقافية والعلمية غزيرة، ومتنوعة، وموصولة.

٣ - لقلة دور النشر في فترة شبابهم بالصورة التي نشهدها اليوم.

٤ - إن أدبائنا الكبار يحرصون - عادة - على مراجعة مقالاتهم المنشورة لتهيئتها للطبع، إلى جانب. أنها - أصلاً - ذات قيمة أدبية وفكرية كبيرة.

وهذا شأن كتاب الأستاذ الزيدان الذي بين يدي القارئ بعنوان «كلمة ونصف» الذي نشرت موضوعاته في العديد من صحفنا المحلية وأذيعت من إذاعة المملكة العربية السعودية.. وكان لها أثر كبير، وستظل ذات أثر ممتد لأجيالنا القادمة، علماً، وفكراً، وتوجيهاً، وإصلاحاً، شأنها شأن كل فكر أصيل ذي روافد أصيلة!

بقلم الأستاذ عبد الله جفري

جون كرواك: أديب أطلقوا عليه في أمريكا صفة: كاتب الغضب، ولكنه كان يكتب عن الأحلام كثيراً، وكان يهتم بالشباب، ويردد: طالما أنني أرى نفسي (أحياناً) في هذا الشباب، أو أحس بهم في تفكيري.. فأنا لن أشيخ أبداً. بل سأظل شاباً مهما بلغ بي العمر!.. ولكن الكاتب الأمريكي الغاضب الحالم الشاب «كرواك» لم يعمر كثيراً. مع ذلك بقيت كلماته تتردد، واعتبره بعض النقاد امتداداً للكاتب «وليم فوكتر»!

ومن كلماته التي تضخمت بعد رحيله.. قوله: الذين يحدقون إلى سقف الغرفة ينامون مبكرين!!

ولا بد أنها عبارة حزينة بترف، أو أن ترف التعبير الملحوظ في كلمات «كرواك» مستمد من زحام الإرهاق النفسي، وهو بذلك يصنع التعويض أو المواءمة بين الحزن في النفس والترف في صياغة الكلمة.. كأنه يرسم ويُسقط قلبه، وأحياناً يرتفع بقلبه إلى استرخاءة الناس، ولكن.. لا المفكرون ولا الفلاسفة ولا الفنانون ولا الشعراء أصبحوا قادرين على التحديق طويلاً في سقف الغرفة، أو في سقف العالم كله!

ولكن ذلك كله لا يوصف بشعور الكآبة.. بل لا بد أن تنبعث من نفس الأديب الكاتب: ومضات من الأمل، ونبضات من الحب، وتأملات للحياة بالأمان!

وأحسب أن هذا المدخل يقربني كثيراً . لأكتب من داخل صدر أستاذ جيلي، «محمد حسين زيدان»، هذه المقدمة لأحدث كتاب يضم بعضاً من نهديات فكره، وبعضاً من غضبه، وبعضاً من أحلامه، وبعضاً من روحه الشابة!

ولكن «الغريب» في هذه المقدمة التي أصر الأستاذ زيدان: أن يكتبها تلميذ من تلامذته، وابن من أبنائه الكثر الذين تعلموا واستفادوا ونهلوا من فكره ولمحاته وأدبه، فوجدت نفسي في موقف صعب وخرج، وحاولت أن أعتذر فلم يمكنني، بل قال لي:

- دعني أسمع وأقرأ مشاعركم، ودع هذا المخاض في جيلكم يمنحني حياة أخرى تمنع عن رأسي التفكير في نسيان الناس!

إذن . . فكيف أمنع عن نفسي هذه القيمة التي منحها لي . . لأكتب مقدمة كتاب من تأليف: مفكر وأديب ومؤرخ ونسابة، وفنان كلمة؟!!

إن صدر هذا الرجل مليء بالشجن، وبالتجارب، وبالحكايات، ويفيض دوماً بالمحبة للناس . . إن الضغينة عنده هي سياسة وليست شعوراً، والكرهية - في رأيه - هي ندادة وليست وجداناً، لكنه حين يسقط واحداً من نفسه فإنه يحتقره، وهو يقول: إن الاحتقار نسيان للإساءة، فأنا أحتقر لثلاً أحقد، ولثلاً أعطي من أحتقره فرصة أن يكون ندأ لي!

أما الحب عنده فهو الحياة، وهو المؤشر الذي يبقي على شباب الإنسان مهما بلغ من العمر.

ودعوته إلى الحب . . دعوة إنسانية شاملة . . يستشرف منها توثق الأبناء بأبائهم وأمهاتهم، وارتباط الوالدين بفلذات أكبادهما. ونماذج المجتمع جماعة متماسكة تقدر على العمل والإبداع والتطور، ونهضة العالم بالتركيز

على صفاته الإنسانية، ونبذ العنف والتدمير.

ودعوته إلى الحب.. دعوة عاشق «واثق الخطوة» يرى في من يحب شباب المستقبل، ورؤية الحاضر، وذكريات الماضي، فلا انفصام بين المراحل الثلاث في الحب، بل هي حزمة واحدة من العمر، ومن الرؤى، ومن الوجدان، ومن قدرة الإنسان على الوفاء لصفاته النبيلة.

ومن دائرة الصدى في صدره تشع أحلى الكلمات التي يكتبها حتى اليوم عن الإنسان في كل مشاعره.

ومن منطلق الفكرة في ذهنه تنبثق فلسفاته، وهو يكتب عن التاريخ، وعن الأبطال في مسيرة الدعوة الإسلامية، وعن الرجال في صناعة الأمم والنهضات. وهو يكتب عن الفكر جامعاً، وكلمة، وكتاباً، وتوعية، وثقافة ترتفع بمكانة الإنسان. وكان رأيي الذي قلته له من سنوات بعيدة أنت مفكر أكثر منك أديباً. ولكنه لم يهضم هذا الرأي مني.. بل قال: لا تفصل بين الفكر والأدب، فهما واحد، وهما معاً نضارة العقل، وارتواء الروح!

ومن نبض صدره يسري النغم دائماً في كلماته التي يرسلها حينما يكتب عن وجدان الإنسان، وهو في مكابدة أحزانه لا ينكمش وإنما يتمدد كالضوء، ولا يسقط وإنما يركض كالزمن.. إنه لا يرتاح إلا حينما يضع رأسه على الوسادة في الليل..

أو كأنه يتذكر معي هذه العبارة التي قرأناها ذات صباح لكاتب ضاع مني اسمه: (إنني أحتمي بطفولة الليل.. تاركاً رأسي على ركبة الصباح، ولا ميعاد ينتظرنني)!!

لحظتها - كما يقول - أطرده كل الشجون والأفكار والأحزان والمشاكل وأمتلك قدرتي على ذلك لأنام قريراً، ويبقى شباب الروح وشباب العقل.

ولكنني لا أرتاح طويلاً، فالراحة حينما تطول تتحول إلى تفاهة، ولا أسلم نفسي للضياع، فالضياع ليس عشقاً إذا كان العشق كما يقولون يولد الضياع. إن كل ما يركض نحوه الإنسان هو الوقود لتجديد الحياة، والوقود يأتي في الألم وكما هي فلسفة «أرسطوس القورنتي» التي عبر عنها جبران في قوله: ابتغوا اللذة في الألم، وابتغوا الألم في الحب!

والوقود يأتي في الفراق، وفي الارتفاع بالوجدان من تحديد التناول إلى شمول الوفاء للحظة، ولكلمة تقال، ولماضٍ، ولذكرى، ولموقف، ولخفقة!

فهل يمكن لنا أن نقول: إن هذا الرجل ما زال يحلم؟!!

لا شك أن الإنسان حينما يفقد أحلامه يشيخ ويموت.. لا تبقى له طموحات ولا أمنيات.

والزيدان عندما يتهيأ لإملاء ما يكتبه في رأسه، وبلسانه، وعلى تعبيرات وجهه.. تشعر أنه يمتلئ حلاً ويفيض بعد ذلك. وقد يبلغ به هذا الفيض حدود الدمع، فتراه - فجأة - وهو يملي عليك كلمته ينخرط في البكاء. ولعلي أسعد الناس بهذه الميزة منه، أو أكثر الذين يملي عليهم فيض نفسه وفلسفة فكره، وقد ألاحيه أحياناً وأوقفه عند عبارة لا تعجبني كقارئ مدمن عليه، فيناقش معي فكرتي.. إنه لا يغضب لذلك، لكن غضبه الشديد يتدفق وهو يكتب عن واقع العالم العربي.. وعن أحلام الإنسان العربي في الحرية الشاملة لكل الأرض العربية، وعن تاريخه الطويل الحافل بالبطولات وبمواقف الرجال، وتشديد الأبطال.

يغضب من أجل الحب، ويغضب من أجل الحرية، ويغضب من أجل الصفة النبيلة في الإنسان.

إن غضبه يتربط بفواصل الموت.. ذلك أن الأحياء لم يعد لديهم  
اكتراث كثير بالمحبة، حتى إنهم قبروها في مشاعر الموتى، ويضيع إنسانها  
في بحثه الدائم عن الحرية، وكرامة الإنسان، والخوف من إهدار الصفة  
النيلة التي تميز الإنسان عن سائر المخلوقات.

حزنه العميم زاخر ببواعث الهوى، وبالحنين إلى الأمل، وبالغبطة  
بالتقسيط في عصر مرابي!

إنه يبتسم ويردد قائلاً: لقد كان سيد المرسلين جلّ ضحكته التبسّم!  
رأسه تتطوح أحياناً حينما تتكاشف معاناة الفكرة، أو تتصاعد بالشجن من  
صدره إلى رأسه، فلا يقدر أن يجسد الفكرة، ولكنه يبحث فيها ومن أجلها  
ويضني صدره، وكل الخفقات الصادرة عنه، وثيقة إنسانية ترتاح بعض  
الحين في الأحلام، وتتجدد أكثر الأحيان في شباب روحه، وهو يواصل  
دراميته هذه. ويوحد بين الحدث والرغبة. وبين الاضطرار والشجب.  
وأجدني أستطرد خلفه بعض الوقت.. أحاول اللحاق بأفكاره، والتزامن مع  
شجونه، ويتلفت نحوي مبتسماً فيقول: إننا ننادي بـ «العودة إلى الإنسان»..  
الإنسان ينسلخ من نفسه من أجل أن يفقد نفسه، والشيء المفقود هي نفس  
الإنسان من هذا الإنسان المعاصر الذي تغربت عنه ذكرياته ونزفت الشقة فيه  
ومنه، وانشرخ الحنين في صدره لتمتلئ الشروخ بالرمل المبتل!

والزيدان يكتب بأسلوب متفرد بحيث تقرأه دون توقيع، فهو يجمع بين  
الأسلوب المباشر، والمخاطبة السريعة أو التلغرافية.. حينما يكتب في  
السياسة يفعل ذلك، وحينما يكتب النقد الاجتماعي أيضاً، ولكنه حينما  
يكتب التاريخ ويكتب الوجدانيات.. يعطيك عبارة مجنحة مموسقة.. عبارة

تصويرية بالألوان، ومن رأيه أن التاريخ - وإن اعتمد على الحقائق - فلا بد أن يكتبه المؤرخ بعبارات وجدانية!!

وهو لا ينكر تأثيره في مطلع تعشقه للأدب وللکلمة بعبارات «الزيات» وطريقة بنائه لها. ولكن هذا التأثير كان مبتدأه الإعجاب بالأسلوب وبالمعالجة للفكرة، وتسمعه يردد أسماء فرسان الكلمة الذين أعطوا وأبدعوا أيام صدور مجلة «الرسالة»، ولم ينطفئ إعجابه وتأثره حتى الآن بهؤلاء: محمد حسين هيكل، الزيات، شكيب أرسلان، الرافعي، العقاد، طه حسين. وقبل هؤلاء جميعاً فقد نهل من التراث وتوقف طويلاً عند أدب ابن المقفع والجاحظ، ونهج البلاغة..

وذاث يوم كنت أجلس إليه نتحاور في أبعاد الكلمة المعاصرة عن الأسلوب الأدبي. وعن الصورة البيانية المتينة، وعن الكتابة الوجدانية..

- إنك ما زلت حتى الآن تشتاق إلى استعادة بعض عبارات الرافعي، فهل تستعيد شبابك بها؟

- قال: ومن قال لك إنني فقدت شبابي يوماً؟.. إنني شباب حتى الموت، ولكن بعض الحنين، وبعض الذكرى يأخذك من ممارستك إلى أحلامك المعلبة! إن الإنسان يتشابه في عواطفه، ويتنافر في ماديته، فهل اسمعك الآن بعض ما تبقى في ذاكرتي من ذلك اللون الأدبي المهدر.. مما كتبه الرافعي ذات يوم؟

وقراً: (أريدها لا تعرفني ولا أعرفها.. لا من شيء إلا لأنها تعرفني وأعرفها.. تتكلم ساكته، وأرد عليها بسكوتي. صمت ضائع كالعبث، ولكن له في القلبين عمل كلام طويل).

الفرح بالجمال لذة تقتل نفسها، ولا يمسك على الجمال روح النعمة خالدة في القلب إلا الحزن به: كيوم الغيم.. ترى في سمائه قطعاً كأنها الهاربة من الليل تختبئ الشمس فيها ثم تسطع من بعد سطوعاً يخيل إليك أنها ما توارت في خيمة الغمام إلا لتضنو غلائلها الشفافة وتتعرى. يريد الجمال المعشوق أن يثبت فينا فيغيب عنا. إذ كان بذله يفني منه على قدر ما يعطي، فإذا هو امتنع وعز مناله.. كان جماله في نفسه بمعانيه، وجمالاً فينا بالمعاني التي هي فينا، وكان له من اجتماع الحالتين حالة جمال ثالث هي في ألم الرغبة المستمرة، أو ألم الغيظ المجنون، ومتى خلق لنا الجمال من قصر الزمن طول الزمن، ومن المتاع بالحسن العذاب بتمنيه.. فقد ارتفع عن إنسانيتنا وجاءنا من ناحية سره الإلهي!!

وأضاف: ذلك في الزمن السابق، وقد كان منعماً بالعاطفة. رغداً بالحس، أما اليوم، فإن الإنسان لا يبحث عن التعبير، ولكنه يمارس ويفعل بحيوانية.

وبهذه المناسبة.. تذكرت محاورة قديمة بين الأستاذ زيدان وبينني.. كان الطرف المتوثب والمشع فيها صديقنا الغائب مشعل السديري، فالتفت نحو الزيدان يقول له:

\_ دعني أفلسفك ولو لم تسمح لي. أنت أروع ما فيك: معرفتك الواضحة لتحديات العصر الذي تحياه. كل الاتجاهات في نظرك تقودك إلى روما، شريطة أن تعشقها، وروما هي الغادة الحسنة، أو هي المثل الأعلى. إنك حينما تعجز من الولوج إلى شيء.. تذهب إلى نقيضه لتفتته، ثم تعود لتصنع منه تمثالاً رائعاً!

وإذا تحدثنا عن الزيدان كصاحب كلمة لها صدى.. فلا بد أن نتعرف

على بعض إيجابياته من خلال مسؤولية الكاتب فيه :

- إنه أول كاتب تحدث عن العلاقات الإفريقية - العربية ، وواكب ذلك فيما بعد مع رحلات المغفور له الملك فيصل إلى الدول الإفريقية في مناداته بدعوة التضامن الإسلامي ، وقال الزيدان حينذاك : إننا نكسب الكثير باستمالة إفريقيا إلينا، ودعمها مادياً، ومعاونتها على تطوير نفسها وواقعها .

- طالب بتأسيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وواصل كتابته حتى تحقق حلمه هذا .

- دعا إلى تغيير اسم إذاعة «صوت الإسلام» ووافقه الملك الراحل فيصل بن عبد العزيز وأمر بذلك .

- ألح بعدم تزيين مكة المكرمة لأي ضيف قادم إليها، وكان يقول: إن مكة المكرمة مزينة بقيمتها، وهي التي تضفي زينتها على كل وافد إليها . . .  
ويكفي أن زينتها تتمثل في هذا النور المشع من روحانيتها .

وبعد . . .

تلك هي قطرة الامتنان التي لا تجف في صدري نحو هذا الرجل الذي أوقف عمره منشداً للكلمة حيناً، وحزيناً معها حيناً آخر . هذا المفكر الذي أثرى أدبنا بثقافته الواسعة حتى وصفته بـ «الموسوعة التي تمشي على قدمين» . وأغنى العبارة العربية بالعديد من الصور واللمحات، فجاءت ملامح مشرقة ووسيمة، وروى أفئدتنا ببوحه عبر الكلمات المجنحة والملونة كريش عصفور .

إن أستاذنا الزيدان لم يفعل مثل «جون كروك» في اتجاهه الفكري . . . ولكنه مثله في تطلعاته الشابة التي لا تترمد: ولم يكتب بأسلوب «وليم

فوكنر» ولكنه مثله في تلك الرؤية الملاصقة لهموم الإنسان . وهو يسمح لنفسه أن يحدّق في سقف الغرفة بعض الوقت لينام مبكراً، ولكنه حينما يصحو مع ميلاد كل نهار.. يجد الفجر في عينيه وصدرة.. لأنه لم يفقد أحلامه، ولم يخذل أمانيه..

ولا أحسب أنني بالغت بما صوّرت به عطاء هذا الكاتب المبدع.. بل أجد تقصيراً نحوه، وأضع محاولة لقراءة فكر ونفسية هذا المفكر.. لكنها قراءة أتهجّي بها فعل الأديب والمفكر من أجل طموحات وأماني أمته!!

عبد الله جفري

## عبقري الكلمة المجنحة وفنانها . .

مزقت أكثر من عشرين ورقة أكتب أسطراً عديدة وأمزق الورقة، لست أدري كيف أبدأ وأكتب عن هذا الأستاذ العملاق؟ كيف انتقي الكلمات لأدخل إلى هذا العالم الممتلئ بكل فكر . . وثقافة . . وأدب وتاريخ وشعر وسياسة ولغة وأنسب . . ومراهقة!!؟

نعم مراهقة، قد تتعجبون أن هذا الرجل الكبير سناً ما زال قلبه يرتع في خمائل الحب والعشق والجمال، ما زالت الغانمية والمحترقة وبت الثلج وماسحة البلاط، كل أولئك وغير أولئك ما زلن يمرحن ويسرحن ويجبن فؤاده ووجدانه يتمتع هو بذكرياتهن وهن يتمتعن بحبه الكبير وقلبه العامر النابض بالحب .

كأنه بشار عندما يقول (يرى الفؤاد ما لا يرى النظر) (والأذن تعشق قبل العين أحياناً) . . بشار أعمى وهذا العملاق المارد أعشى . . ، عجباً وكل العجب أعشى ويعشق الجمال كيف؟ بقلبه وبأذنه .

مازال يحب وأراني أفق أنشد أمامه ما قاله فكري أباطة:

قالولي بتحب      قلت باحب عقبالكم  
الحب مش عيب      وانتويا غجر مالكم؟

قالوا لي كبرت . .  
ده أنا بأرثي لكم . .  
باحب أي واللّه  
الطب بيقول لكم  
القلب يا خلق شيء  
فيه قلب شايب عجوز  
وقلب كله شباب  
باحب أيوه بحب  
أنا خبير القلوب  
فيه قلب تلقاه رُطب  
وقلب زي الملاك  
وقلب زي الذهب  
باحب أيوه بحب  
ياللي ادعيتو الهوى  
وأنواع اجنكم،  
وأنا اللي من الحب  
ماخذتهوش من الكتب  
باحب أيوه بحب

قال اللّه ولا فالكم  
وأبكي على حالكم  
وانتوا غجر مالكم  
باطني وروحاني  
والعمر شيء ثاني  
في جسم صبياني  
ساكن جسد فاني  
وانتوا غجر مالكم  
ولا فيش خبير ثاني  
والثاني حياني  
والثاني شيطاني  
وقلب براني  
وانتوا غجر مالكم  
ليه تنسوا فارسكم  
وخابزكم ودارسكم  
كايدكم وفارسكم  
ولا من مدارسكم  
وانتوا غجر مالكم

نعم مازال هذا المارد الفكري الثقافي التاريخي الأدبي العاطفي، مازال  
هكذا.

ويقول هذا المارد (إذا اضمحلت فحولة الرجل تسعرت فيه أربع عيناه

للنظر ويدها للمس وشفته للتقبيل وأذناه للسمع) وهذا هو يقول أيضاً، وهو يكره البغض والحزن (ليس عندي وقت للكراهية والانفعال، ولا للحب ولا للغضب ولا للحزن، فتلك أثقال تحملتني شاباً فقد كنت حملاً عليها ولا أستطيع أن أتحملها شيخاً فلست مطالباً بالوفاء لها) ويعود إلى الدموع ويقول (إن الدموع رسالة يبعثها الوجدان يستفيق بعدها العاشق، يكسب منها لذة الذكرى من عمق الوصال أو متعة من شقوة الهجر) وما أروع حين يقول (المحب إنسان، ولا متعة لإنسان إلا أن يكون في حلبة المتناقضات، فالسرمدية على حال واحد إملا، وتقلب الأحوال فيها نضوج التجارب وتجارب النضج) ويقول (فالدموع شموع.. في كلا الحالين تضوع ولا تضيع.. لأنها ضوء جديد يشرق من الوجدان).

يقول عبقرى الكلمة المجنحة في فلسفته عن الياسمين (لعلك لم تعرف من قبل أنني أحب الياسمين اللون، بصفرته الناعمة في الزهرة الندية، ولا أحب الياسمين العطر، فالياسمين اللون أعتز به ولا أبتزه، وهو يذكرني بصورتها.. بيضاء قد ابيضت صفرة الياسمين في وجنتيها. أما العطر.. عطر الياسمين.. فما هو إلا عصارة أحالت الزهرة، وأرخصت جمالها، يبيعون عطرها بثمان غالٍ بينما الزهرة هي الأغلى.. قد لا أشمها ولكن لا بد أن أراها.

فاللون عندي هو هي!

إن عطر الياسمين تجارة، والجمال نسترخصه إذا ما كان يستحيل إلى تجارة (!! فكم من الجوّاري في سوق النخاسة كن من الجميلات، بعضهن وردية وغيرهن قمحية والسيدة فيهن هي التي لها لون الياسمين

ولكن بيعهن في سوق النخاسة نجاسة، لا نرى من اشترى إحداهن عن حب، وإنما عن متعة الذكر بالأثني!

أبعد عني عطر الياسمين! إنه يذكرني باستعباد الجميلة وقال.. وقال ذلك العملاق عبقرى الكلمة المجنحة وفنانها ومازال يقول، ترى هذا الرجل الذي يخطر تياهاً في الرابعة والثمانين يقول مثل ذلك القول؟.. إنه الحب جعل من ذلك الكم الكبير من السنين الطويلة قمماً زيدانية شامخة مكسوة بالعواطف والأحاسيس الجميلة مجوفة بوجدان يدفع بهذه الأحاسيس والعواطف تسيل من أعالي القمم إلى سهول وأودية الحياة فتفرشها رونقاً من الجمال.

إنني - وبكل فخر واعتزاز - شرفت بأن أكتب عن أستاذي وأستاذ جيلي والأجيال التي سبقتنني الأستاذ محمد حسين زيدان، كما أن الشرف يزداد شرفاً عندما أقول إنني أنا الذي أملي عليه الأستاذ الزيدان ذكرياته التي بين أيديكم، وأقول بكل فخر وإباء وتيهاً إنني أحد تلامذة المدرسة الزيدانية زميلاً لكبار الكتاب والصحفيين الذين تتلمذوا في هذه المدرسة، تعرفونهم ويعرفون أنفسهم.

.. إنه شرف كبير وصلت إليه ومنحني إياه إكليلاً مضمخاً بالأبوة والأستاذية أضعه وساماً على عنقي، وأعذروني إن وصفته بالعبقرى وأكثر من ذكر الكلمة..

تمضي كأنك فارس  
كل الفوارس يرهبونك  
وأراك بالودّ الجميل  
تعفُ عمن يجرحونك  
ترنو إلى الصفح الكريم  
أضاء مشعله جبينك  
ما أروع الخلق الرفيع  
إذارعيت به شئونك

تبكي الكرامة . . والدموع      الحمر قد غطت جفونك  
تبكي على تلك الأصائل      حين تستهوي شجونك

أخيراً أيها الأستاذ العظيم . . أقول لك شاكراً هذا الشرف الذي طوقتني  
به: أنت كذلك دائماً وكل ذلك، تمد يدك للشباب تساعدهم .

ما أعظم يدك البيضاء تمدها لي تشرفني بها كاتباً عنك . .

كمال علي عبد القادر

## محكمة الذات

بقلم «بنت العدالة»

يعلن بصراحة :

- أنا عاجز عن اتخاذ قرار التوقف عن الكتابة ..!
- أسرفت على نفسي قومياً عربياً ..!
- قلت سابقاً: الخلافات بين الزعماء السياسيين وقت .. وعلاقات الشعوب زمن!!
- ليس عندي سر ولكن عندي من أسرار المجتمع ما لا أستطيع أن أنشره!
- أغلى كلمة كتبها وعاشت في نفسي ما كتبته عن ريم ثلج ..!
- ماسحة البلاط أحالت قهري المادي إلى صهر المعاني في حياتي ..!
- أشعربي اليتم بأن لا أكون عاقاً للأمهات وكل أنثى عندي أم ..!
- الآن فهمت لماذا قال والدي «أنت شجرة مُرّة تطرح بركة»!
- الكاتب حزين .. والقارئ حزين .. وتلك هي الهزيمة!
- ليس الحرمان أن لا تجد، وإنما الحرمان أن تفقد ما وجدت ..!

## الكاتب الكبير محمد حسين زيدان

### في محاكمة . . ذاته!

محاكمة الذات اليوم . . تثير ارتباكي . . لأنها تجعلني أقف أمام أستاذ لعدة أجيال وفيلسوف . . تخضع الكلمات بين يديه فهو لا يركض وراء المعنى . . لأن الحروف تأتي إليه طواعية ليشكلها كما يريد لها أن تكون . . ، في المعنى والقلب الذي يريد!! إنه الكاتب والفيلسوف الكبير الأستاذ محمد حسين زيدان . . إنه كاتب يتميز بقدرات لا نعهدها فيمن يكتبون . . لا يمزق الورق . . لا يشطب . . لا يمحو حتى ما هو مدون على صفحات فكره لا يمويه الكلمة والمعنى . . في زحمة الحروف . . ! لا يخفي نفسه وراء السطور . . فنفسه حقيقة معلنة . . وأفكاره تفلسف رؤيته . . وخبرته بالحياة . . فنشعر معه أننا لا نقرأ فكراً فقط بل نشهد في هذا الفكر . . الحكمة! كما أنه ليس قلقاً . . أو متوتراً . . وإن كان فهو صراع الفكرة مع الحقيقة ولكنه ليس صراع النفس . . وإن كان فقلق النفس على الحقيقة! وعندما نسأله . . لا تنتظر الإجابة . . بل نندهش لأننا نشعر معه بأنه أعطانا . . قبل أن يأخذ منا . . ! وعندما نجلس معه . . لا نرقب أصابعه على القلم والورقة . . بل نجده يتطلع إلى البعيد . . كأنما يفتح كتاب الحياة ليقرأ لنا منه ما يغمض علينا . . فنفهم ما لا نفهمه بعد منها . . ! مما يشعرني بأني لا أجلس مع شخص أو كيان واحد . . بل أشعر بأني أجالس الحياة وحركة

التاريخ تفيض في هذا الشخص! لذا فإنني اليوم عندما أستاذن في الدخول.. وفي الخروج أشعر بأنني دخلت.. وخرجت من بوابة التاريخ!! والآن أستاذنت في الدخول.. وطرقت باب التاريخ.. وبدأت بأول سؤال في المحاكمة..، ولأول مرة أشعر بأنني مع مثل هذه الشخصية.. لا أحتاج أن أقول هل أنت على استعداد لمواجهة الأسئلة.. والتلميح بالاتهامات! بل كنت أسمع نفسي وهي تقول لذاتي.. هل أنت على استعداد؟؟ هل استحضرت نفسك على هذه المواجهة.. مع أستاذ كبير لعدة أجيال؟؟ كنت أنا في حاجة للاستعداد النفسي.. في هذه المحاكمة اليوم!! وحسنت الصراع والقلق.. وطرحت أول سؤال.

الأستاذ زيدان.. لو أمامنا الآن مرآة وطلبت منك أن تحدد فيها فماذا ترى.. هل تطيل التحديق.. أم تشعر في لحظة أنك تريد إطفاء النور..!!؟

## محكمة الذات

وتطلع أستاذنا إلى البعيد.. كأنما يحتاج إلى أن يخرج من نفسه.. حتى يتأملها من بعيد جيداً.. يراقب كل اختلاجة فيها.. ويحدق حتى يصف ما يرى في حياده.. فقال عن لوحة عمره وحياته الآتي:

سؤالك رومانسي.. ويريد الجواب على صورة غير رومانسية، فحينما أنظر للمرأة.. قد أصدق نفسي.. وأصدق المرأة.. لأنها على كل حال صديقة لا تخفي شيئاً من المعاييب.. ولا تبدي شيئاً تكذب به كطري المحاسن..!

المرأة صديقة لأنها جماد لا يتحول عن ذاته.. من هنا تبدو الصداقة عميقة فيها.. ومتغيرة بنظرة من يحدق فيها.. وليست المرأة وحدها هي الواضحة.. أو الفاضحة.. وإنما الرائي هو الذي إذا تستر أوضح.. وافتضح.. فالإنسان مهما تخفى فيما يشعر به.. أو فيما يفعله رغم أنفه.. هو يعلن عن ذلك.. غير أنه يرتاح للإعلان على صفحة المرأة.. ويرتاح إذا ما كان هو المرأة بنظرة إنسان آخر إليه..!

**- الضمير هو المرأة..!**

«وبفلسفته التي عهدناها في أستاذنا الكبير أضاف..» هذا من ناحية الشمول والعموم أما من الناحية الخاصة.. فالنفس الأمانة تبتعد عن

الوضوح .. والنفس اللوامة هي النقد الذاتي .. فأما أن أصغي إلى اللوم ..  
مرآة النفس للنفس .. وأن أستريح إليه لأصل إلى النفس المطمئنة ..  
فالضمير هو النفس اللوامة .. هو المرأة!

### - الإنسان يعيش المتناقضات .. !!

يا ترى ما هي اللحظة التي شعرت فيها بأنك تريد أن تصافح نفسك في  
صدافة عميقة .. ومتى كانت اللحظة التي شعرت فيها بأنك تريد أن تخرج  
من ذاتك بلا عودة .. !!

هنا يشعل أستاذنا سيجارته .. وتتشكل في دوائر الدخان (كما تتراءى  
له) خيوط قصته مع نفسه .. وتتجسد في الدوائر مواقف متعددة يتطلع إليها  
وأحاول أنا أن أقرأها وأشاهدها مثله .. في خياله!! وإذا به يقول: الإنسان  
محوط بهذين الوضعين .. أصافح نفسي صديقاً لها حينما أخضع لوازع  
الخلق .. لدافع الرحمة .. بالشعور، إني مع الناس بالناس .. للناس،  
أصادق نفسي لأنني أرى في عين من أحببت .. من أحسنت إليه .. كأنما أنا  
بالخلق .. بالرحمة .. بالإحسان .. لم أحسن إلا إلى نفسي .. وأبتعد عن  
ذاتي .. من أفعال ذاتي، وذلك حين أرتكب الخطيئة في حق الناس .. في  
حق الوطن .. في حق الأبوة .. وحين لا أحترم الأمومة، فالإنسان يعيش  
المتناقضات .. فقوام الشخص في حياته يتم بالتناقض .. ولكن قيمة هذا  
الشخص ترتفع حين لا يكون التناقض مجحفاً يجر إلى خطيئة .. إلى  
جريمة .. !!

- في أكثر من حالة .. أرفض نفسي .. !! أستاذ الجيل .. هل أنت حقاً  
تشعر بأنك راضٍ عن نفسك .. !!

قال .. بلا تردد .. وبلا حاجة للتفكير .. فخبرة وحكمة السنين تجعله

مهياً للإجابة التي تأخذ الطابع الفلسفي بلا تفكير في صياغة المعنى . .  
والفكرة . . إنها خبرة السنين التي تتحدث فقال: هناك فرق بين الرضا عن  
النفس . . وبين القناعة بالواقع، لو ادعيت أنني راضٍ عن نفسي . . لجانبت  
الحق والخلق . . في أكثر من حالة أرتاح إلى نفسي، وفي أكثر من حالة  
أرفض نفسي . . أما القناعة فهي الرضا بما يقع علي . . وليست هي الرضا  
بما يقع مني على الآخرين . . !!

### - عشرة أصدقاء . .

عشرة أعداء!!

أستاذ زيدان . . أحياناً الإنسان في مشوار حياته قد يأتي موقف يشعر فيه  
بأنه يقف ضد نفسه . . فهل فاجأتك بموقف جعلك ضد نفسك . . وكيف  
كان؟

وجاءتني الإجابة في صيغة سؤال . . وقال: هل يمكن أن يكون  
الموقف الذي جعلني ضد نفسي . . لخصه والدي بكلمة؟!  
قال والدي لي . . «أنت شجرة مُرّة تطرح بركة»!!

لم أكن حين قالها إلا متمادياً . . اقترف الأسباب التي جعلته يقولها . .  
قالها حين أقمت حفلة الغداء لكثير من الأصدقاء . . كلفتني وقتها ٥٠ ريالاً  
وذلك قبل ٥٠ عاماً . . وسألني والدي وقتها كم أنفقت؟ قلت ٥٠ ريالاً قال  
وكم هم . .؟؟ قلت: عشرة أصدقاء. قال: لقد صنعت عشرة أعداء . .  
تساءلت: لماذا . .؟؟ لم أصدق ذلك، ولم يكونوا العشرة أعداء . . وإنما  
كان العدو أكثرهم التصاقاً بي . . وأشدّهم أخذاً مني . . ، اقترف الخيانة . .  
خان الأمانة . . أفزعني . . وأجزعني، كان واحداً لم يرد مني أن أكرر  
ذلك . . ولكن ازددت إسرافاً . . فإذا كلمة الأب تصدق حين أصبح هم

الآكلون على مائدتي .. والذين أمتلأت جيوبهم مني .. كانوا أكثر من  
عشرة .. !!

بعضهم رفعتهم من الحضيض .. وبعضهم ارتفع بي إلى اسم لامع  
ولكن كاد بعضهم أن يجرنني إلى الهلاك .. لم يخش الله في الصداقة ولم  
يخف الله في أن ييتم طفلاً لي ..

يومها .. وبعد أن علت السن .. عرفت معنى الشجرة المُرَّة .

لقد نسيت .. !!

ماذا يا أستاذ زيدان لو امتلكننا الآن ساعة زمنية لديها القدرة على إعادة  
الزمن إلى الوراء .. فيا ترى لو امتلكتها ما أهم القرارات التي كنت تفضل  
أن تتغير . أو لو تأخذها بشكل آخر .. !!

يتطلع أستاذنا إلى ساعة زمنه الداخلية في أعماقه .. كأنما يدير عقرب  
الساعة إلى الوراء .. ليتوقف نبض الزمن عند لحظة ما .. هنا يتحدث  
الأستاذ قائلاً: لقد نسيت .. ؟ فالكثير ينسى .. لا ليس من الذاكرة .. وإنما  
من التذكير به !!

القرار الذي لم أنفذه .. وأطعت قراراً من الوالد والأهل هو ..  
«الزواج»! ولكن أطعته فأسرعت .. فكان قراري لو نفذ خطأ .. !! وكان  
قرارهم حين نفذته جلب على المسعدرات والمشقيات .. !!

فالحياة - كما قلت - تلبس التناقض .. كأنما الإنسان في هذه  
المتناقضات يقوي بها عضل النفس .. وزهوة الرغبة .. وشكوى التنفس  
والرغبات .. أما القرار الذي أنا فيه الآن .. ولا أحيد عنه هو أن لا يكون  
ما كنت أتمناه .. !

وعجيب هذا التزاوج في الموضوع .. أراد أحدهم أن يحسن إلي ..  
يرفع من مقامي .. وعارضه آخر لأبقى كما كنت ! ..  
عاجز عن اتخاذ قرار التوقف ..

ويستوضح الصورة في أعماقه أكثر .. وينفث الدخان في قلق  
ودهشة .. ، ويقول: جزعت أن لا أكون كما أراد المساعد .. ولكني الآن  
أشهد ثناء على الذي عارض .. لأنه يمتعني بأن لا أستخذي .. فالفاقد  
لمقام مؤقت .. تأخذه حسرة الفقد .. يستخذي لأنه قد ضاع منه ما ارتفع  
به .. وعلى ذلك ينطبق قلبي :

«ليس الحرمان أن لا تجد .. وإنما الحرمان أن تفقد ما وجدت» .

ويستطرد قائلاً: أشكر صاحب العطاء .. كما أشكر صاحب النفي  
كلاهما مُحسن .. !!

أما القرار الذي ندمت على تنفيذه .. هو أنني قرأت وكتبت .. فأنا  
عاجز عن أن أتخذ قرار التوقف .. !

**- ليتني لم أكتب .. !!**

ويهز رأسه .. إلى ذات اليمين .. وأخرى إلى اليسار .. كأنما يجتذيه  
من جانب الحب .. ومن الجانب الآخر .. الحسرة .. فيقول :

ليتني لم أقرأ .. ليتني لم أكتب .. !! ليتني عشت بلا هذه الأضواء  
الباهتة .. لأنها تكليف إن جاء بالتشريف .. بدأ الخاطفون يخطفون  
التشريف .. فأنا حبيب للذين يقرأون دون أن يملوا .. وممقوت من الذين  
لا يقرأون .. وإنما هم يجتروا المذمة .. بينما هم في ضحالة العاطفة

غارقون.. وأعني بعاطفة التشويه.. من شوهوا أنفسهم.. لا.. لأن التشويه يلبسهم..!!

### - الكاتب والقارئ حزينان..!!

في رأيك.. ما هو أجمل انتصار.. وأبشع هزيمة في حياة الإنسان..؟! وماذا عن الانتصار والهزيمة في حياتك..؟!؟

وإذا بأصابع يده تتحرك.. كأنما كانت تريد أن تتحسس وسام النصر وشكل الجرح.. في أعماق نفسه!

وقال: الإنسان.. تتعدد انتصاراته.. وتكثر هزائمه.. كل وما يشعر.. كل وما يصنع.. أما الانتصار في حياتي فهو ما أنا فيه حين اسودت وجوه الذين لم أنلهم بسوء.. وأرادوا على ورق أسود من نفوس سوداء أن يصنعوا بي السوء.. بهتاناً.. تشبع به نفوسهم الحاقدة.. فإذا هم الآن في حسرة لأنني أعيش طارداً الحسرة فعليهم وزرهم.. وعليّ أن أقول عفا الله عما سلف..!

وعند قوله لكلمة الهزيمة.. كأنني رأيت في لحظة واحدة.. كيف تحولت أحاسيس الانتصار التي كانت تشكل في عينيه قوس قزح.. إلى غيمة تحجب عنه الأحاسيس بالفرح.. ولكنها لم تحجب عني إحساسه بالحزن.. ولكن قبل أن أستوضح بالسؤال جاءني كلماته قائلة..

أما الهزيمة.. فأنا فيها بهذه العشوة.. لا أستطيع أن أقرأ.. وأستجدي الاستقراء.. لأنني لا أستطيع أن أعيش بدون أن أفقه.. بدون أن أقرأ..!!

فالكاتب حزين.. والقارئ حزين.. وتلك هزيمة!

الكاتب حين تفتحه يشعر بالسعادة.. سعادة العطاء منه لأنه يحيا فيك كقارئ.. ولا يريد أن يعيش مصدقاً يأكله الغبار!!

### - أسرفت على نفسي قومياً عربياً:

يا ترى.. بصراحة ما هو الشيء الذي آمنت به في حياتك، وكشف لك الواقع بأنك لم تكن على حق.. فجاء الاكتشاف متأخراً.. والعكس أيضاً شيء لم تكن تؤمن به.. ولكن الواقع جعلك تؤمن به..؟! قال الأستاذ زيدان: أسرفت على نفسي قومياً وعربياً!!

ولكن الآن.. وقد أصبحنا في شعوبية الأقاليم تفرقت بهم الأمة.. اقتنعت بأن الانحياز إلى القومية أصبح ضرراً.. فلئن كان ضرورة فيما سبق.. فليكن زوال الضرر بأن تكون القومية في نطاق الإسلامية لأن القومية مبدأ يختلف على تحقيقه العرب.. ولكن الإسلام عقيدة لا ترضى بالخلاف.. فالقومية العربية تتراوح مع القومية الإسلامية بلا ازدواجية.. فالعربي مسلم قبل كل شيء.. وقد تفوه بالإسلام فاتحاً عظيماً.. والمسلم إن لم يتكلم العربية.. فهي في وجدانه لأن القرآن في وجدان المسلم!! - أصبحت سيد نفسي!!

كاتبنا الأستاذ زيدان.. ما هو الشيء الذي توقعت أن تفعله وفوجئت أنك خذلت نفسك..!؟

وإذا به يضع أصابعه على عينيه ويفرکها جيداً.. كأنما يريد أن يقلب فيها صور الزمن.. وصور حياته.. وصفحات عمره.. في هذا الزمن.. ولكن ماذا وجد في أوراق العمر..؟

هنا يطالعني صوته قائلاً: لا أظن يا ابنتي أن ذلك وقع.. كرجبة في

التفوق.. ولكن الخذلان قد تأتي حين تبعث سيداً.. وخضعت لهذا السيد.. حينئذ خذلت نفسي.. ولم أنقذها إلا حين أصبحت سيد نفسي..!!

### - اليتيم وتشوه زوجة الأب!!

لكل إنسان نقطة ضعف.. فما هي نقطة الضعف التي تسببت لك في تغير مجرى حياتك..؟!

يتطلع أستاذنا لمرأة نفسه.. يحقق فيها حتى يعرف أين كانت نقطة الضعف فإذا بأصابع عمره تتشبث بنقطة الضعف فتظهرها.. في الكلمات التالية..، وقال:

أشعرني اليتيم بأن لا أكون عاقاً للأمهات.. كل أنثى عندي أم، فلو أن أمي عاشت.. لما عاشت في نفسي نظرة احترامي للأمهات..!! وذلك لأن الاكتفاء بحياة الأم.. قد يكون مبعداً لي..!

ويتوقف أستاذنا في حديثه.. ويتطلع لمرأة نفسه كأنما يشعر بأن هناك من يستوقفه في المرأة.. كأنها تجتذبه لرؤية أوضح لنفسه.. وإذا به يقول: هناك نقطة أخرى.. إنها القسوة من زوجة الأب.. علمتني تلك القسوة الاستقلال بذاتي..!!

إذا كانت هذه هي نقاط الضعف.. فماذا عن أسباب قوتك في الحياة..؟!

قال: يا ابنتي إنني لا أخضع لقوي قد يتغرس فأحتمل.. وأقاوم قدر الجهد ولكنني شديد الخضوع للضعفاء.. فأیما ضعيف هو القوي عليّ.. وأیما قوي الذي يستضعفني أحاول أن لا أرضخ له.. لأنني من الناس

وبالناس وللناس.. والناس لا تعرف قيمها إلا من خلال التعامل مع الضعفاء..!!

عادة مع الإنسان يحدث صراع حاد بين العقل والعاطفة في مواقف الحياة..، فيا ترى هل عقلك أكبر من عاطفتك في مواقف الحياة.. أم العكس..!؟

هنا تطلع إلى نفسه.. فالعقل يجتذبه.. والعاطفة تشبث به.. فكأنما أحس باشتداد الصراع في نفسه.. فقال: في الإيجابيات.. عاطفتي أقوى من عقلي، وفي السلبيات عقلي أقوى من عاطفتي..!!  
فكأنما إجابته جاءت لترضي غرور العقل.. وعنقوان العاطفة في نفسه.. فيهدأ الصراع..!

### - الظروف تقهر من يتقهقر..!!

أستاذ زيدان.. هل تؤمن بأن الظروف تتغلب على الإرادة..، أم الإرادة الإنسانية تتغلب على الظروف إذا أرادت ذلك.. فكيف حياتك على ضوء ذلك..!؟

يتطلع إلى الأمام.. رغم أنه يقلب صفحات الماضي..!!

يقول: الظروف تقهر من يتقهقر أمامها.. فقد يغلب ولكنه بالتحمل يرفضها، وإن فرضت عليه.. فالمطاوعة للظروف قوة.. والطردها لها فعل القوة.. أعني أن الخضوع للظروف وما تصنع.. تحمل، وطردها أيضاً هو صورة من التحمل.. للمقاومة..!!

### - المرأة في نظري مبيجلة:

من خلال تعاملك مع المرأة.. ما هو المثل أو الحكمة التي خرجت

بها من خلال هذا التعامل..؟!!

المرأة.. هي في نظري مبعجلة.. لأنها الأمومة.. فلن أتعامل معها إلا بالاحترام لها.. حتى التي أسرفت على نفسها.. أجد نفسي أمامها غطاء ساتراً لا لساناً فاضحاً.. المرأة هي أساس البناء للأسرة.. فأدم ما استطاع أن يكون أب البشر إلا بحواء.. هي الأنس.. هي السكن.. فلا بد من احترامها..!!

- هذا هو أشجع قرار اتخذته..

في هذه الحياة.. مواقف تستلزم من الإنسان أن يأخذ قراراً شجاعاً فما هو يا ترى أشجع قرار اتخذته في حياتك.. وبالعكس؟!  
ويقلب في ذكرياته.. كأنه لا يراني.. بل يرى صور الماضي تتبعثر.. ويبدو من تحديق عينيه أن هناك صورة ما استوففته.. وقال كأنما يقرأ حياته في عتاب غير مرئي..!!

أشجع قرار اتخذته في حياتي.. هو أن لا أعدد الزوجات.. فقد عرض علي ذلك.. فافتنعت أن أحترم ولدي بأن لا أبعثر ولدي!! أما أضعف قرار.. أم هو أكثر من قرار..!!

أنا وثقت في بعض الناس.. فإذا هم أشرَ ولكن أقول أن لا تتعذب بما نالوا منك.. وإنما عذابك بأنك لم تحسن إلى نفسك.. حين اخترت هذا الصاحب أو الصديق..!

فليس الألم فيما فعل.. وإنما الألم فيما تشعر به من ندم..!!

- الإنسان يعيش على صورتين:

أستاذ زيدان.. في تصورك كيف يحيا الإنسان الحياة.. وهل عشتها

بنفس الفلسفة التي كنت مؤمناً بها..!!

الإنسان لا يعيش حياته إلا على صورتين.. هكذا قال ثم أضاف.. ما يصنع عليه.. وما يصنعه لنفسه..!

قلت: قليل من التفسير لهذه الفلسفة..! قال: المرض والحاجة والأذى.. من الناس مصنوعة عليه! والحب والرحمة والوفاء.. هو يصنعها.. لأنه لا معنى لحياة إنسان إلا بالتناقض.. يعيش مع المتناقضات.. فلولا التنافر في المتناقضات.. لأصبحت الحياة مملة..!!

**- تلك التي لا أبخل عليها..!!**

أستاذنا.. لو تخيلنا في لحظة.. أن حياتك عبارة عن كتاب مغلق أمام الآخرين.. فمن هي اليد الوحيدة التي تسمح لها.. بأن يكون عمرك بين يديها كتاباً مفتوحاً..!!

قال: هي التي تريد أن تعرفني.. فلا أبخل عليها إذا ما أرادت أن تكون لي.. وأن أكون لها حليلاً.. لا خليلاً!!

**- إنها شخصية الملك عبد العزيز:**

يا ترى.. لو تصفحنا معاً أوراق العمر.. فمن هي تلك الشخصية التي قابلتها وأثرت فيك..؟!

ولم يحتج أستاذنا أن يقلب صفحات العمر.. لأن الشخصية بدت واضحة المعالم رغم امتداد الرحلة.. وتكاثر الأشخاص!!

قال: أحسن شخصية قابلتها في حياتي.. من حيث إنها شخصية على صورة بطل.. هي شخصية الملك عبد العزيز. أما الشخصية التي قابلتها وأحسنت إلي.. كنت بها رجل الآن.. هي شخصية الشيخ محمد العلي

التركي .. أنهضني .. أنقذني .. سار بي في خطوة واحدة منه!

- هذا ما أخذته من زوجتي:

عادة الإنسان يأخذ بعض الصفات ويرثها من والديه .. فلو سألتك ما الذي ورثته من والدك .. ووالدتك وأيضاً ماذا أخذت من أبنايك فماذا تقول؟!؟

من والدتي .. لم آخذ شيئاً لأنها ماتت وأنا طفل .. ولكن لعلّي أخذت منها ما ورثت من الرحمة والعطاء والحب .. فقد كانت كريمة إلى درجة الإسراف .. ، وهذا ما أنا واقع فيه .. المال في يدي يميل عنها لئلا يكون فيها ..!!

ومن أبنائي .. أخذت ما أخذوه عني .. تبادل الاحترام والحب .. لا سألهم عما ملكوا .. ويسألون عما ملكت .. ، لم أشعرهم بما أنا فيه .. من قلة وفرت لهم .. ، ويعرفون أن الكثير لهم .. لأنني الكثير بهم ..! وأخذت من والدي .. أن أفكر بعقل ..!!

هل تعتبر تجاوزاً لو قلنا لك .. وماذا أخذت عن زوجتك خلال رحلتكما معاً ..؟!؟

زوجتي .. قد فاتت علي .. لأنها هي التي أنشأت الأطفال رجالاً .. حتى إذا استرجلوا كانوا الأصدقاء لي .. حرصت على تعليمهم ولو بقوا علي .. لما وصلوا لما هم فيه ..!!

- هذه هي الكلمة المطبوعة في قلبي:

في حياة الإنسان كلمة .. أو عبارة طبعت في قلبه .. ممن كانت تلك الكلمات وماذا تحوي من مضامين .. في حياتك؟! لا يحتاج أن يفتح ذاكرة

القلب.. حتى يرى ما هو مطبوع! فجاءتني كلماته يقول فيها: إن الكلمة المطبوعة في هذه الآية القرآنية: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (النساء: ٩). لعلني كنت مطبوعاً على ذلك.. لكن الذي أصل هذا الانطباع هو د. أحمد أمين صاحب «ضحى الإسلام».. زار المدينة رئيساً لبعثة الجامعة ليحجوا.. ودعت البعثة الأيتام الذين كنت أستاذاً لهم والمسؤول عنهم في تلك الليلة.. أعدوا الطعام للأيتام مائة وخمسة وثلاثين يتيمًا.. فرأيت أحمد أمين تدمع عيناه ويتلو هذه الآية..!!

فحفظتها.. واتخذت أمرها أسلوباً..!

وكم من أب أساء إلي.. كنت شديد العطف على أبنائه..

﴿وَلَا نُزِرُ وَأَنْزِرُ وَرَزَّ أُخْرَى﴾ (الأنعام: ١٦٤).

- إنها أغلى كلمة كتبت لي..!!

وما هي أغلى كلمة كتبت لك.. ومن أجلك.. وممن كانت؟

قال: ما كتبه عني غادة السمان.. وما كتبه عني عبد الله جفري. إذن وما هي الكلمة.. التي كتبت لك؟! لا أتذكر الآن.. ولكن راجعي الحوادث والمقالات!!

لكل إنسان أوراق خاصة.. قد نصفها بأنها سرية.. فهل لك أوراق خاصة لا تفكر في نشرها للناس.. وتحفظ بها لنفسك وإذا كانت.. فما هي يا ترى!؟

صمت قليلاً ثم قال.. ليس عندي سر لا أنشره.. ولكن عندي من أسرار المجتمع.. ما لا أستطيع أن أنشره..!!

يقال يا أستاذ زيدان.. وذلك شائع.. إن الكاتب ملك جمهوره والناس  
فيا ترى.. هل الكاتب حقاً ملك للناس.. أم ملك نفسه..؟!  
الكاتب المخلص لنفسه أولاً.. وللناس ثانياً.

فإذا لم يصدق الكاتب مع نفسه.. فبالتأكيد لا يصدق مع الناس وأعني  
بالصدق.. كرامة العاطفة.. لا أنانية التعاطف.. يسقط الكاتب.. حينما  
يقول (الأنا).. ويرتفع الكاتب حينما يقول.. (ال نحن).

أستاذ زيدان.. أيهما أكثر راحة للإنسان. أن يريد ما هو كائن.. أم  
يريد ما يجب أن يكون.. فهل كنت كما يجب أن تكون.. أم كما يريد  
لك الواقع..؟! لك

قال بفلسفته المعهودة فيه.. متعة أن تكون كما تريد..! وذكاء أن  
تكون كما يريد المجتمع..! وكما قالوا «كل ما يعجبك.. والبس ما يعجب  
الناس»!!

### - شعرت أنني متهم..!!

أحياناً.. يقف الإنسان أمام نفسه في بعض المواقف.. كما المتهم أو  
الجاني.. فيا ترى متى كنت الجاني أو المتهم أمام نفسك..؟!  
شعرت أنني متهم.. حين كنت أسهر بالليل خارج البيت.. وعندما  
أقضي معظم النهار في الوظيفة..!!

أستاذ زيدان.. هناك من يستخدم القلم الجاف أو الحبر أو الرصاص..  
ولكن في النهاية قد يمحو كل ما كتبه بالمحاية.. ويُمحي كلامه فهل  
تستخدم المحاية كثيراً حتى تصل إلى ما تريد..!!

كنت لا أمحو ما كتبت.. لأن ما أكتبه.. كنت قد حضرته قبل ما

أكتبه .. لأن ما أمليه الآن قد حضرته أو استحضرتة نفسي لأجيب على  
البدية .. !!

ويا ترى ما هي أقرب كتبك إلى قلبك .. ولماذا؟! يتصفح إحساسه ..  
ويقول: سيرة بطل .. وخواطر مجنحة! وسيرة بطل .. لأنها تعبير عن حبي  
للبطل .. وخواطر مجنحة فيها التعبير عن حبي لها .. عن محبتي للناس!!

- إنها ذكرياتي .. !!

لكل إنسان مشروع أو حلم يراوده ليحققه .. فكأديب ما هو المشروع  
الأدبي الذي فكرت فيه .. ولكنك لم تحققه حتى الآن .. !!  
إنها .. ذكرياتي .. ذكرياتي التي لم أنهما .. لأنني لم أجد من أمني  
عليه!!

- أعطني حنان الأمومة بالحب:

أستاذ زيدان .. بصراحة .. ومن خلال هذه الذكريات .. ما هو الوقت  
أو الموقف الذي شعرت فيه باحتياجك الشديد لامرأة بجانبك .. !!  
يتطلع إلى نافذة الذكريات .. يتأمل الصور .. ويقول: عندما كنت في  
الهند .. أركب ظهر الفيل .. يخوض بي النهر .. كدت أغرق .. ناديت يا  
أمي .. يا أمي ..! قد لا تكون هي أمي فعلاً .. ولكنها قد تكون أعطتني  
حنان الأمومة بالحب .. !!

- أغلى ما كتبه لريم ثلج .. !!

سألناك سابقاً .. ما هي أغلى كلمة كتبت لك .. وممن كتبت؟! والآن  
نسأل .. ما هي أغلى كلمة كتبتها .. ولمن كانت في رحلة حياتك ..؟!  
ورغم أنه كتب ملايين الكلمات وله مؤلفات كثيرة .. وصاغ المعاني

باقتدار في كل ما كتب.. إلا أنه خلص من زحام كل تلك الكلمات والمعاني.. ذلك المعنى الذي يصول ويجول في نفسه.. ولم أنتظر كثيراً.. بل لحظات وقال: أغلى كلمة هي التي عاشت في نفسي.. وذلك ما كتبتة عن (ريم ثلج) «ماسحة البلاط»!!..!!

### - ماسحة البلاط وصهر المعاني..!!

تحدثت في أحدث مقالاتك عن القهر.. وتحدثت عن ماسحة البلاط وقلت إنها مسحت القهر عنك.. أي قهر تتحدث عنه في كتاباتك؟!!

ماسحة البلاط.. هي أحالت قهر المادة إلى صهر المعاني..! فقد أشعلت في نفسي أن أحب.. فلا قهر في الحب.. ولو كان البعد عن الحبيبة..! لأن الحب يجسد الحبيبة أمام المحب.. ولو كانت نائية تتزلج على جبل من الثلج.. بينما هو يغرق في المدينة التي لا تغيب عنها الشمس..! فالشمس في بلدي.. تذكره بأن ريم الثلج كانت شمساً في وجدانه..!

### - لا أمحو حباً بحب..!!

أعود إلى ما كتبت.. وأتذكر أنك تحدثت عن الفاغية.. وريم الثلج.. والمحترقة وأتساءل.. هل يمكن للإنسان أن يقع في الحب أكثر من مرة.. وهل كل حب جديد ينسيه الحب القديم.. فما رأيك!

نويت أن لا أمحو الحب بالحب..! بل إذا ما طرأ حب جديد.. كان حياة لحب قبله.. فريم الثلج لا أنسى بها المحترقة.. لا أنسى بها الفاغية..! لأن التصور يجسد صورة واحدة.. لهن جميعاً!!

ولماذا أسميتها.. بالمحترقة.. وهل يعني هذا أن هناك المحترق!

أسميتها بالمحترقة.. لأنها ماتت محترقة.. ولهذه قصة!  
أستاذ زيدان.. إلى متى يظل الإنسان يقع في الحب.. هل يمكن أن  
يخفق قلبه مهما أخذته السنون إلى أعماقها..!!  
يا ابنتي.. الإنسان الرقيق المشاعر لا يتخلى عنه الحب.. لأن رقة  
المشاعر.. هي دفتر مكتوب فيه أحب..!!  
أستاذ زيدان.. ماذا تفعل بصراحة في كلمتين لو كنت المسؤول عن  
التعليم؟! أكون الأب.. الأستاذ.. والتلميذ!  
الثقافة..!! أقرأ.. وأقرأ.. وأكتب!  
وسائل الإعلام..؟! الصدق.. والتوعية بالتراث والحفاظ على  
الميراث.

حركة النقد..!! لا شيء في الإمكان.. أبداع مما كان! حل الخلافات  
السياسية العربية..! قلتها كلمة.. الخلاف بين الزعماء وقت.. وعلاقات  
الشعوب زمن!  
أستاذنا لو تطلعت الآن للمرأة.. كيف ترى نفسك فيها.. وكيف  
ترسمها المرأة وكيف ترسمها على الورق.. ولو بالكلمة!  
أرى نفسي.. أو أرسما كأنني أجد فقراء الهند..!

### - أيها العالم المجنون تعقل!!

أستاذ زيدان.. هل شعرت في لحظة أنك تريد أن تصرخ في وجه هذا  
العالم متى.. وماذا كانت تعبر عنه صرختك تلك..?!  
بل في كل لحظة أريد أن أصرخ وأقول أيها العالم المجنون.. تعقل  
ولو للحظة!!

في زمن الحرب.. نحن نعيش.. فلو قدر لك أن تحمل بندقية..  
فعلى من تطلق أول رصاصة..!

أول رصاصة أطلقها على أول صهيوني أواجهه..! واستسمحيني  
رصاصة ثانية.. لأنني أريد لحظتها أطلقها على خوّان عربي!!

### - لا أشعر بالندم..

أستاذ زيدان بصراحة.. ماذا تعطي نفسك في محاكمتك لذاتك اليوم!؟  
أعطي نفسي.. أني أخذت الكثير وأعطيت القليل.. لا أشعر بالندم  
وأشعر بتمام الراحة فأنا بين النقيضين أعطي لنفسي ٧٠٪.  
وهكذا انتهت المحكمة..

## الرافعي في الحجاز

### مصطفى الرافعي

للأستاذ محمد حسين زيدان

ليست هذه الكلمة رثاء أرثي به الفقيد ولكنها حادثة وقعت لنا بسببه فأحب إخواني نشرها ليعلم الناس مكان الفقيد من نفس شباب الإسلام والعرب في كل قطر ومصر .

كنا أربعة نسمر حول مائدة فانتحي اثنان منا يتذاكران اللغة الإنكليزية وجلس آخر يقرأ - يقرأ ضحى الإسلام - أما أنا فكنت أكتب موضوعاً لجريدة (المدينة) وجاء صديق يحمل (الرسالة) ولم نكن قرأنا هذا العدد الذي يحمل، إذ تأخر وصوله فقلت: الرسالة الرسالة! هاتها. فتصفحنا الافتتاحية وخطوتها إلى كلمة الأستاذ أحمد أمين. فالأستاذ المازني، ثم إني قرأت للرافعي «أمراء للبيع» فلما وصلت إلى منتصف المقال ألقيت الرسالة وقلت لأصدقائي «هلموا إليّ - هيا بنا نؤمن ساعة - أقرأ لكم الرافعي» فقالوا: اقرأ اقرأ. فأخذت أقرأ وهم سامعون ساهمون. يسمعون البيان، بيان الرافعي. ويعجبون بالبطولة، بطولة الشيخ بن عبد السلام ويهزءون بالقوة الغاشمة والإمارة الكاذبة والجهل الفاضح وما انتهينا من المقال حتى ملأ الإعجاب أفئدتنا. وهذا حالنا كلما قرأنا لأبي السامي. ومن تصارييف القدر وأعاجيبه أنه لم تمض لحظة حتى وافانا البريد فطالع أحدنا (أم القرى) وفيها الخبر الفاجع المحزن خبر وفاة الفقيد. فنزل علينا كالصاعقة ولقد كدنا لا نصدق، قبل لحظة كان الرجل حيًا يسمعون بيانه وإيمانه ويظالعنا بعجيب من البطولة والصراحة والصرامة في الحق وتأييد الحق. والآن هو ميت نسمعه أنين الحزين وبكاء المتألم، وطفق أحدنا يبكي ويقول: لكم العزاء في

الرافعي فقد حررنا نحن الناشئة أديباً كبيراً نتعلم منه البيان والأدب العالي والنبل والفضيلة، حررنا هذا في زمن اتجه أدباؤه إلى إرضاء الساسة والعامّة، والعامّة هم عصا الساسة يسوقون بها هؤلاء الأدباء، وإن كان هؤلاء الساسة لا يتحركون إلا بما يرضي العامّة لأنهم يستمدون سلطتهم على مقدرات الأمة وشؤونها من هذه العصا العوجاء «الرأي العام» وما هو الرأي العام «يرحم الله قاسم أمين» - قلت: حسبك فقد آلمتنا وأبكتنا قال: أكتب حادثنا وحديثنا في جريدة (المدينة) ليعرف هذا وإني أعرفك لا تستطيع أن تكتب راثياً فالرثاء شعر ولست بشاعر، وإنما أنا أبكي الفقيد بدموعي وفؤادي المحترق. قلت: أعرفك بكاء وإني لعاجز. ولكن اسمع وما أردت أن أكون دونه - اسمع لقد انهدمت الدعامة الرابعة من دعائم (الرسالة) بموت الرافعي وإنا لنرجو أن تعود، فهي اليوم تقوم على ثلاث دعائم، قال: لم أفهم فأفصح، قلت: يا هذا ألا ترى أن دعائم الرسالة أربع:

العاطفة والشعر، فالعقل والعلم، فالتجربة والتهذيب، فالإيمان والفضيلة:

رجل العاطفة والشعر الزيات يكتب بعاطفته من قلبه وحنينه وأنيته ليلهب عواطف الأمة ويوقظ شعورها ويوقد حماسها فتتجه نحو المثل الأعلى. يفعل هذا لأن فيه طبيعة الشاعر الملهم المتألم المتأمل.

ورجل العقل والعلم أحمد أمين يكتب بعقله وعلمه ليثير عقل الأمة ويزيد في علمها من علمها وتراثها فتسير في طريق العقل النير والعلم الممحص، يفعل هذا لأن فيه طبيعة القاضي النزيه والعالم المخلص.. ورجل التربية والتجربة المازني يكتب من تجاربه ودراسته للنفس والأمة ليهذب من أخلاق الشباب، فيسير على ضوء التجربة من حوادث الماضي،

يفعل هذا لأن فيه طبيعة الأستاذ المرابي .

ورجل الإيمان والفضيلة الرافي يكتب بإيمانه وعقيدته ليدافع عن إيمان الأمة ويثبت إيمان الأمة وعقيدتها، فتسير بنور الإيمان ثابتة العقيدة طاهرة المبادئ جريئة في الحق صريحة في نبد الباطل، يفعل هذا لأن فيه طبيعة المسجد وشيوخ المسجد، ولأن فيه أثراً من وراثة الأسرة المجيدة والبيت الرفيع من الفاروق رضي الله عنه إلى عبد الغني وعبد القادر وأمين وعبد الرحمن ومصطفى صادق. أسمعت ووعيت؟ قال: سمعت وزد. قلت: وإن هذا الارتباط بين كتاب الرسالة بدون تعمل وتعمد من أعاجيب نهضة الأمة ورغبة الأمة وتوفيق الرسالة، فهي قد لفظت وتركت غير هؤلاء الذين شدوا عن هذه المبادئ وضمت من سار على نهجها وخطتها تركت غير هؤلاء عن غير قصد ولا عمد، وإن زعموا أنهم تركوها حاسبين أنها محتاجة إليهم مع أنها في غنى عنهم، فليسوا هم أصحاب رسالة وإن أيدها بموقفهم السلبي ومناقضتهم، فإن جلاء الحق لا يظهر إلا بمزاحمة الباطل، أسمعت ووعيت؟ قال: هذا صحيح فزدني. قلت: ماذا أزيدك؟ وأخذتني عبرة وطفقت أنشد بيت الرافي الذي يرثي به أحمد تيمور باشا، وما أحقه أن يرثي به .

تأتي المصائب كال تقليد في نسق أما مصيبتنا هذي فتخترع

وبعد فهذه حادثة واقعة وحديث جرى ما زدت في ذلك شيئاً، ويرحم الله أبا السامي فقد ناضل عن الأدب وجدد في البيان. إنه خلاق المعاني وملك الألفاظ يتلاعب بها كيف يشاء. ناضل عن الأدب حتى كاد يستقر، ودافع عن الدين والقرآن والنبى ﷺ دفاعاً يجزيه الله عليه أحسن الجزاء إنه ولي الرحمة والغفران .

بسم الله الرحمن الرحيم

الأحد الموافق: ٢٦/٦/١٤٠٨هـ

في تكريم الأستاذ محمد حسين زيدان

أقام نادينا حفلاً متواضعاً . تكريماً للأستاذ الأديب محمد حسين زيدان في يوم الأحد ٢٦/٦/١٤٠٨هـ، تحدث فيه لفيف من أصدقائه ومعارفه، منهم معالي الأستاذ عبد الله بلخير، والأساتذة عزيز ضياء، وعمر بهاء الأميري والسيد هاشم زاوي، والدكتور عبد الله مناع، والشاعر الأستاذ/ محمد هاشم رشيد، والشاعر الأستاذ/محمود عارف، والأستاذ: عبد المقصود خوجه، والأستاذ الدكتور عبد الله الغدامي، وعبد الفتاح أبو مدين .

كما بدأ هذا التكريم بدراسة موجزة عن أدب المحففى به كتبها الدكتور/ بكري شيخ أمين من جامعة الملك عبد العزيز - كلية الآداب - قسم اللغة العربية . وقد كانت ليلة جميلة، طفحت بمشاعر الود ووفاء الحب، واختتمت بكلمة المحففى به . وكانت الكلمات التي ألقى ارتجالاً ما عدا ما كتبه الدكتور بكري شيخ أمين، وبعض كلمة الأستاذ عزيز ضياء كانت مكتوبة، لأنه لم يتوقع حضوره، فكتب الكلمة، أو أملاها على الأصح من الرياض لتلقى نيابة عنه . ولما حضر ارتجل كلمات . ثم ألقى الكلمة المكتوبة .

وفي الصفحة التالية «أو المقابلة» . . كلمة الدكتور بكري شيخ أمين، وفيها تعبير عن الاحتفاء . . والمحففى به .

الأحد ٢٦/٦/١٤٠٨هـ

## في تكريم الأستاذ/محمد حسين زيدان

للدكتور: بكري شيخ أمين

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم. والصلاة والسلام على خير من نطق بالضاد، وهدى العالم إلى سبل الرشاد.

أمّا بعد: إخوتي وأخواتي.. أيها السادة والسيدات الأكارم.

لعلّ الواجب يقتضيني أولاً إزجاء الشكر كبيراً إلى الأستاذ الكبير عبد الفتاح أبو مدين.. رئيس هذا النادي الأدبي، إذ تفضل فكلفني أن أكون في طليعة كوكبة متحدثي هذه الأمسية المتألّثة، وتلك ثقة غالية، ويد كريمة، لا أنساها له أبداً، وذلك أمر.. عليّ طاعته.. فالمحب لمن يحب مطيع.

أيها الحفل الكريم:

إن اجتماعنا اليوم، في هذا المكان البهيج، ونحن نسعى إلى تكريم أستاذ ومعلم، وأب وأديب، ومدماك من مداميك نهضة الأدب والفكر، في هذه الأرض المباركة، المضمخة بالأريج سمة حضارة، ورمز كرامة ومبعث اعتزاز. فالأمة الكريمة هي التي تقدر أبناءها الذين بذلوا من أجلها وسهروا، وحرسوها. والأمة الهلوك هي التي تكفر حق الكرام من أبنائها، وحق كل من أسهم في رفع شأنها وراية مجدها. فهنيئاً لهذا الوطن بهذا الحفل، وبورك في الذين سعوا وجدوا حتى يبلغ التكريم أهله ومستحقه.

وإننا إذ نجتمع هذه الليلة لنقدم كلمة الشكر والحب إلى أحد رجالات هذا البلد.. تمدد على ساحاتها الأدبية والفكرية طويلاً وعرضاً ما يزيد على

نصف قرن.. فإنما نكرم فيه صفة العلم الذي كرمه الله، وأوجب تكريمه، ونطيع الله فيما أوجب وأمر.

أيها السيدات والسادة!

التكريم الحق الذي يخلد الذكر، يكون في جمع آثار المكرم وفي نشرها، النشر العلمي الصحيح، ثم في دراستها الدراسة الموضوعية (الأكاديمية) الرصينة، وتقويمها التقويم العادل.. هذا بالإضافة إلى التكريم المادي الذي يبدو في مهرجان حافل، أو كلمة طيبة، أو جائزة سنوية، أو غير ذلك من أمور.

ولعلي أغتنم هذه المناسبة المباركة فأهيب بالسادة العلماء الأفاضل، المشرفين على الدراسات الإنسانية العليا أن يوجهوا طلابهم إلى هذا المهيع، ويقوموا في ظل إشرافهم وتوجيههم بهذا المطلب الوطني والخلقي، حتى إذا جاء طلاب العلم من الأجيال القادمة وجدوا أمامهم مئات الدراسات العلمية النفيسة، تتحدث عن أعلام أمتهم، وبناء نهضتها، ورواد حضارتها، وحينئذ يستطيعون أن يصلوا الحاضر بالماضي، ويقرّنوا الطارف بالتالد، ويتبينوا موقعهم في السلم العلمي، ويعرفوا ما إذا كانوا يتقدمون، أو يتأخرون، أو يقفون جامدين.

وليس هذا المطلب الأمل بعيداً أو غريباً عن حقل الدراسات الإنسانية العليا، ولعلّ أصدق شاهد عليه لو وقفت على فهرس عناوين بعض جوانب الدراسات العليا.. في كثير من الأقطار العربية العالمية، إذن لو جردتم عشرات العناوين، إن لم نقل مئاتها، تنصب على أدباء ذلك البلد وعلمائه، ثم بعد ذلك، على أدباء غيره من البلاد وعلمائه.

كم من دراسة انصبت على أحمد شوقي أو حافظ إبراهيم أو جماعة

أبولو، أو عباس محمود العقاد، أو إبراهيم المازني، أو مصطفى صادق الرافعي، أو أحمد حسن الزيات، أو زكي مبارك، أو بدر شاكر السياب، أو فدوى طوقان، أو عمر بهاء الأميري أو عمر أبو ريشة، أو بدوي الجبل، أو الأخطل الصغير، أو خليل مطران، أو ميخائيل نعيمة، أو جبران خليل جبران، أو الشاعر القروي، أو معروف الرصافي أو الطيب صالح، أو نجيب محفوظ، أو طه حسين، أو خليل هنداووي؟

إن في هذا البلد علماء وأدباء وشعراء وفحولاً، يستحقون أن ينسابوا في فهارس الدراسات العليا، وأن تدور حولهم دراسات ودراسات.. لا يقلون قيمة وإنتاجاً عن سواهم، وقد لا يزيدون.. لكنهم، على كل حال، جديرون أن يكرموا وتكريمهم هذا ليس لهم فخره، وإنما هو للتراب والأرض والوطن من أقصاه إلى أدناه.

أيها الصحب الكرام سيدات وسادة:

من حققكم في هذه الليلة البهيجة، وأنتم تحتفلون بتكريم الأستاذ محمد حسين زيدان أن تقفوا على الجوانب العامة الكبرى التي أطرت حياته، والعوامل المختلفة التي رفعتة إلى مرتبة التكريم والاحتراف والتقدير.

ومن هذه الجوانب، نبيح لأنفسنا كشف بعض الأسرار، ونشر بعض الأخبار، وقراءة بعض الآثار.

تقول كتب تاريخ الأدب التي تعرضت لترجمة الأستاذ زيدان إنه ولد سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، ويبدو أن معظمها كان متكناً على ما جاء في العدد الخاص بالأدباء لمجلة المنهل، بمناسبة اليوبيل الفضي لهذه المجلة الطيبة. وأكشف لكم الليلة عن سر صغير حول عمره، قد لا يحب كشفه، ولكننا نود مداعبته، فلقد أوردت الموسوعة الإنكليزية التي عنوانها «من هو في

السعودية»؟ في طبعتها الثالثة سنة ١٩٨٣/١٩٨٤ والتي أصدرتها تهامة بأن ولادته كانت سنة ١٣٢٢هـ/١٩٠٥م إذ زادت على ما جاء في المنهل أربع أو خمس سنوات.

ولا بأس على أستاذنا، سواء أكان من مواليد عدد المنهل أم من مواليد موسوعة تهامة. فالجميع هنا، بل في كل مكان، يدعون الله أن يمتعه بالصحة والعافية، ويزيده فضلاً وعطاءً، ويطيل عمره في الصالحات قولاً وعملاً.

أيها السادة:

ولد محمد حسين زيدان في المدينة المنورة، أي في بلد النور والعطر والشذا، والهدى ومآزر الإيمان، وعاصمة الحب والمحبة والمحبين.. . وتلك أول جائزة حباه الله بالتشريف بها.

وإني إذ أهنئه على الولادة في هذه المدينة، أسأل الله ألا يحرمني من الثواء في بقيعها. ويرحم الله عبداً قال آمينا.

تقول المصادر: إنه درس في المدرسة الراقية الهاشمية في المدينة المنورة، ومنها تخرج. لكنها تغفل جميعاً الموطن الآخر الذي فيه درس وتعلم وتأدب، وهو المسجد النبوي الشريف. ولعمري إنه والمسجد الحرام يعدلان يومذاك المستوى الجامعي وما فوق الجامعي، في الحلقات التي كانت تعقد في كل ركن من أركانها.

زيدوا على ذلك أن الله جل جلاله وهبه حب القراءة وصدقة الكتاب، فهو مدمن قراءة. أمضى حياته كلها وهو يقرأ، حتى لقد قال مرة: «كنت في الماضي أقرأ لأتعلم، أما اليوم فأنا أقرأ لئلا أتألم».

ونتساءل: ماذا قرأ زيدان؟

الجواب عسير، ويخيل إليّ أني لا أستطيع أن أحيط علماً بكل ما قرأ، حتى لو سئل زيدان ذاته هذا السؤال لعجز عن الجواب. بيد أنا نستطيع أن نتلمس الجواب من خلال ما تشف عنه كتاباته، وآثاره المنشورة، والمذاعة والمتلفزة، ومن خلال أحاديثه العابرة والمرتجلة.

إن كثيراً من الدارسين يلجأون إلى تلمس العوامل الثقافية المؤثرة في الأديب، ليس من خلال ما يقرأونه عنه في كتب التاريخ أو الأدب فحسب، وإنما من خلال ما يتبدى في ثنايا نتاجه، ويكشف عن نفسه، حتى ليتمكن للدارس أن يعرف من خلال شعر المتنبي أو المعري أكثر ما اطلعوا عليه من علوم ومعارف.

إنكم - أيها السادة - تستطيعون أن تقدرُوا مستوى ثقافة إنسان من خلال حديثه أولاً، فإذا ما قرأتم له، و سمعتم منه، استطعتم أن تكتشفوا جوانب أخرى من ثقافته، ومدى معارفه، وسعة أفقه أو ضيق نظرتة.

هذا الرجل الفاضل الذي اجتمعنا هذه الليلة لنزف إليه كلمة ود وشكر ولنحبيه على ما قدم لهذا البلد. بل للناس تجمعت فيه ثقافات شتى. هذه الثقافات هي كتب تراثنا، وأكاد أقول: إن ثقافته المتينة بنت الكتب الصفراء، منها رضع، وعليها بنى أسس أدبه وفكره ووجدانه، ولولا هذه الكتب العظيمة لما كان زيدان كما هو عليه اليوم، ولما كان كما رأيتموه أو سمعتموه أو قرأتموه.

وما هذه الكتب التي أعنيها إلا الكتب المسلمة التي عرضت علوم الإسلام والمسلمين، وحضارة الإسلام والمسلمين، فيها انطوى كل شيء نعتر به، وفيها استقر كل مجد لهذه الأمة منذ أقدم أيامها.

ثقافة هذا الرجل هي ثقافة الأدب في مفهومه التراثي، وهو الذي يعني:  
الأخذ من كل علم بطرف.

كان الأديب في الماضي يعرف شيئاً من علوم القرآن الكريم والفقه والأصول والحساب، وتاريخ الأمم والمسالك والممالك والفلك، وشيئاً من علم الحيوان والنبات والبحار، وشيئاً من الطب وتاريخه والأطباء والأعشاب والعشابين، كما يعرف أكثر عن الشعر وتاريخه والأدب ورجاله، والشعراء وطبقاتهم، والكتاب ودرجاتهم وأخبارهم والنقاد وأعلامهم، والسير والتراجم والأساطير، والأمثال، والحكايات، ويحفظ من ذلك وعن ذلك الشيء الوفير.

ذلك كان الأدب في عرف الجاحظ وابن قتيبة وابن رشيق وسواهم من العلماء السالفين.

الأستاذ زيدان/ من خلال ما تشف عنه آثاره - أديب في عرف القدماء ولقد أبانت آثاره عن هذه الموسوعة العامة الجامعة.

أما ثقافته المعاصرة، فنظن أنها لا تقل عن ثقافته التليدة، وإن جرؤت على القول بأنها قد تكون أوسع وأرحب، ويخيل إليّ أن عمله في الصحافة في مدى نصف قرن أو يزيد كان بعض أسباب هذه السعة والشمول.

أيها السادة:

كنا نتحدث عن ترجمة حياة الزيدان، ووقفنا عند دراسته في المدرسة الراقية الهاشمية المدنية، واستطردنا إلى موضوع الأدب والثقافة، وأن لنا أن نعود إلى النقطة التي وقفنا عندها لنقول: إنه بعد أن تخرج من هذه المدرسة التحق بسلك التعليم، فدرس مادة التاريخ والعلوم الإسلامية في مدرسة الأيتام، وأمضى في ذلك عامين، ثم هجر التعليم إلى الوظيفة

الحكومية، فتوظف في وزارة المالية بمكة المكرمة، وفي مديرية شؤون الحج، وتقلب في عدد من الوظائف فيهما حتى بلغ أعلاها مرتبة، ثم بدا له أن يستقيل نهائياً، ويحال على التقاعد وتم له ذلك، وهو ما يزال في شرح الخامسة والأربعين.

كتب عن هذه المرحلة كلمة قال فيها: «بقي أن تعرف أنت ومن إليك أن شر أيامي وأردأها الأيام التي كنت فيها موظفاً عبداً، وجهلت بسببها الكثير، وتعلمت منها ما جعلني أشفق على الفكر أن يوظف، يضيع وراء خشب، ويدوب زمانه في تقليب الأوراق «روتينياً» يشرح بما يلزم أو ينفذ ما يلزم مشروحاً من غيره. . . يجري وراء رئيس مشغول، فلا يتلقى جواباً إلا من وراء الأكتاف، في الدهليز الموصل من الصالون إلى باب السيارة. وخير أيامي تلك الأيام التي كنت فيها معلماً، ولا أحسبني إلا فيها هذه الأيام».

لنقف عند هذه المرحلة وقفة متأنية، نتساءل عن أثر هذا العمل الوظيفي في تفكيره وثقافته وسلوكه، ويبدو لنا أن العمل في مديرية شؤون الحج، والتعامل مع الحجاج بشكل مباشر أو غير مباشر، وهم الوافدون من كل صقع ويحملون ألواناً من التفكير والثقافات والسلوك. . . له أثره الكبير في كل أعماله الأدبية.

ولسنا ندري هل كان يزاوّل بعض الكتابات آنذاك أو كان في طور الإعداد النفسي والقراءات الجادة، دون أن يكتب شيئاً، وإذا كنا نجهد الجواب فلأن الأستاذ زيدان لم يؤرخ آثاره التي نشرها في الكتب، ولم يذكر نشرها وصدورها.

بعد مرحلة الوظيفة يبدو أن الأستاذ زيدان نزل بكليته إلى ميدان

الصحافة، وكأنه كان معروفاً بأدبه أو غدا مشهوراً بقلمه، ومقروءاً بين الناس، ومقدراً في الأوساط العلمية والاجتماعية والحكومية، لولا ذلك ما أسندت إليه إدارة تحرير جريدة البلاد أولاً، ثم رئاسة تحريرها ثانياً، ثم تولي رئاسة تحرير جريدة الندوة.. أمداً مديداً.

إن عمل الأستاذ زيدان في الحقل الصحفي المسؤول جعله دائم الاطلاع على ما يجد في قلب المملكة من أمور وقضايا، وما يجري في البلاد العربية والعالمية.

من هنا.. أو من هذا الجانب تدفق فيه رافد ضخيم من الثقافة والمعلومات، رافد قد لا يكون زيدان تقصده عامداً، وإنما جاءه منقاداً يجرر أذياله..

على أن هذا يجب ألا ينسينا رغبته الدائمة في القراءة وبخاصة في حقل التاريخ والأدب اللذين يهواهما.

أيها السيدات والسادة:

إن شغف من نحتفي به الليلة بالتاريخ وتتبع الأحداث وحب الاستقصاء، دفع الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ - تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته - إلى تعيينه عضواً في مجلس إدارة دارة الملك عبد العزيز، وقد كان رحمه الله رئيس مجلسه، ثم أضاف إليه رئاسة تحرير مجلة الدارة، وهي - كما لا يخفى عليكم - مجلة فصلية أكاديمية محكمة، تعنى بتراث المملكة وفكرها، والجزيرة العربية والعالم العربي والإسلامي، مما له صلة بالجزيرة العربية. ولا يزال الأستاذ زيدان رئيس تحريرها إلى يومنا هذا. «والآن قد يقول قائل: أين هي آثار زيدان المطبوعة والمنشورة والمذاعة.. وهل جمعت أو ضاعت أو هي بين بين؟

وجواباً عن هذا التساؤل نقول/ إن كثيراً وكثيراً جداً من آثار هذا الرجل مطوية في بطون الصحف والمجلات وعبر أبحاث الأثير، لم يجمعه صاحبه، ولا جمعه سواه، وإنه لينتظر الشباب الدارسين، والأساتذة المشرفين الموجهين، والأكاديميين العلميين، ليقوموا بهذه المهمة، وينهضوا بهذا الواجب الشريف.

قليل من تلك الآثار ظهر على صورة كتب.. . وها نحن. أولاء نعدد أسماء ما وقفنا عليه.

(١) كتاب «سيرة بطل»، وهو ترجمة لسبعة وسبعين صحابياً وصحابية، تناولها المؤلف تناولاً خفيفاً، إذ كان همه إبراز نواحي العظمة أو العبرة في المترجم له، واستخلاص المثل الأعلى من حياته وسلوكه.

(٢) «تمر وجمر»، هذا كتاب في عدة أجزاء، رأيت ثلاثة منها، أصله بعض المقالات التي كتبها في مناسبات مختلفة، في جريدتي البلاد والندوة، وقبلهما في البلاد السعودية، تحت عناوين: تمر وجمر وقرايش. وفي صدر هذا الكتاب قال الزيدان: «نحب أن نعيد لهما الحياة في تعبير الهامش الذي يكتب» والتمر والجمر والقرايش زاد البدوي وعدته، والبدواة التي أحن إليها في بيت شعر نشأت فيه «أرضعتني فيه أم، وحضنتني به جدة، وأعزني خال، وحماني أب، وبكت عين عم علي في يوم قاس، ولاعبت فيه أترابي في فئائه. ذلك البيت من الشعر أعرف مكانه الآن في «حوش خميس» في المدينة المنورة".

(٣) «ثمرات قلم»، ظهر هذا الكتاب وهو يحمل الرقم «٢٨» من سلسلة الكتاب العربي السعودي، من إصدارات مؤسسة تهامة سنة ١٤٠١/ ١٩٨١م كتب له الأستاذ عبد الله جفري مقدمة، حاول فيها تحليل قلم

زيدان وفكره، وكشف عن جوانب جديدة بالاهتمام.

(٤) «كلمة ونصف»، هذا الكتاب الضخم من إصدارات تهامة، حمل الرقم ٥٨ في سلسلة الكتاب العربي السعودي، نشر سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م وكتب مقدمته المرحوم سباعي عثمان.

(٥) «خواطر مجنحة»، من منشورات تهامة سنة ١٤٠٤/١٩٨٤م، وقد حمل الرقم ١٢٨ في سلسلة الكتاب العربي السعودي. وهو كما يظهر من عنوانه - خواطر وجدانية، اهتزت لها مشاعر الكاتب، وارتعش لها فؤاده ارتعاشة عصفور بلله القطر، فنقلها إلى كتاب مجموع.

(٦) «محاضرات عن التاريخ والثقافة»، وهذا من منشورات «عالم الكتب» بالرياض القسم الأول من الكتاب كان بعض المحاضرات والأبحاث التي ألقاها في عدد من جامعات المملكة، أو في المراكز الثقافية أو في النوادي الأدبية، أو في المؤتمرات العالمية المعقودة في قلب المملكة، أو في دول الخليج العربي، أو في إحدى العواصم العالمية في مؤتمر يحضره كثير من المستشرقين.

أما القسم الثاني: فإنه تكرر لبعض ما نشر في كتاب (سيرة بطل، وكم نود أن لو حذفت هذه التراجم المكرورة من هذا الكتاب).

(٧) «عبد العزيز والكيان الكبير»، إنه كتاب في تاريخ مؤسس هذا الكيان الكبير، فيه أفاض زيدان في سيرة الباني العظيم، ورسم الآفاق الكبرى التي بلغت المملكة في عهده، وعهد من تولى حمل الأمانة بعده.

أيها السادة والسيدات:

أسلوب الأستاذ زيدان أسلوب فريد ومتميز، له نكهة خاصة، وشخصية

متميزة، يكاد يعرفه القارئ، ولو لم يوقع الكاتب باسمه عليه.. إنه أسلوب بسيط، سهل، واضح لا تعقيد فيه ولا غموض ولا التواء.

بعض الناس يجد فيه لوناً من التكلف البديعي، ولا سيما في أسلوب القلب على طريقة «عادات السادات سادات العادات»، أو على أسلوب الجناس المسجع، وبعض آخر من الناس يرى أنه صورة قريبة من أسلوب مصطفى صادق الرافعي، وأحياناً هو قريب من أسلوب عباس محمود العقاد.. ويضيف بأن في أسلوب هذين العملاقين الرافعي والعقاد شيئاً من التعقيد أو الجزالة، التي تستعصى على الفهم السهل السريع.. وكذلك أحياناً يكون أسلوب الأستاذ زيدان.

ونحن في هذه الليلة البهيجة لسنا في صدد دراسة أسلوب هذا الأديب، وتحليله وبيان ماله أو عليه وإنما نحن في عرس المحبة، وزفة آيات الشناء والاعتراف بالجميل.. مع أنا نقر ونعترف بأن الله أبقى أن يكون الكمال إلا له ولكتابه العزيز، أما بقية الخلق فهم بشر، يخطئون ويصيبون.. ولكل مجتهد نصيب.

أيها الإخوة الكرام:

لعلّي أكون منصفاً إن قلت لكم: إن أجمل ما يكتب زيدان، وأحلى ما يكون في موقفين: حين يتحدث في التراث والبطولات والأبطال وبناء هذا الكيان الكبير، وحين يتحدث في الحب.

أما حين يتحدث عن واقع الأمة العربية، أو عن تفاهة بعض الشباب وبعض ما اتخذوه من سلوك وعادات، يستحي منها الخلق العربي الأصيل، فإنه يفيض بالمرارة.. وتشعر أن السعير يتدفق في الحروف.. وأن الدمعة تكاد تظهر فوق السطور..

أيها الأحبة!!

لنقف معاً عند الجانب الأملح لحظة . . لعلها تجلو صدأ قلوبكم من متاعها . . ويحلو سماعها لدى أستاذنا كاتبها . . وإن كانت مرة المذاق في يوم من الأيام . . مؤلمة له في ساعة . . إلا أنها تلذذ في آخر المطاف . . لأنه هو الذي يقول ويردد دائماً كلمة جبران: ابتغوا اللذة في الألم، وابتغوا الألم في الحب .

قال الزيدان:

لا أدري كيف وضعتني الوحدة على الوسادة ساعة أن أرحت رأسي أنطق الكلمة التي لم أنطق بها وأنا طفل (يا أمي) لقد كنت طفلاً، ماتت أمي، ولم أقل لها (يا أماه) لأنني لم أعرف معنى الأم، وإن كنت حظيت بحنان الأمومة . لم أقل (يا أماه) في طفولتي الخضراء، وفي شبابي النضر، وفي كهولتي، فكيف أقولها اليوم في شيخوختي؟

وامتلكني حزن، كأنما الشيخ قد عاد طفلاً جديداً، فالشيخوخة طفولة مستجدة، أتحدث إلى المخدة، وأنا لم أكن قد تحدثت إلى أمي .

كانت طفولتي خرساء، لا عن مرض، وإنما لأن أمي ماتت، ولم تقل لي «تاتي . . تاتي . . خطي العتبة . .» .

لم أقل (يا أمي)، الكلمة التي يفرح بها الطفل، وتفرح بها الأم، وكلمة (يا أبي) قلتها آلاف المرات، لكنني اليوم وإن استعذبت أن أقولها فقد أمضني الكرب أن لم أقل (يا أماه) .

وكلمة (يا حبيبي) لم أجرؤ أن أقولها لواحدة، أو لأي أحد، بل كنت أقول (يا عزيزتي) . . (يا سيدتي) . . (يا غاليتي) . . (يا فاغيتي)، كأنما كلمة

(الحبيبة) قد سلبتني أيها كلمة (يا أماه) التي حرمتها.

ولست جازعاً من هذا السلب، فالأم هي الحب، فكأنما هي، حين ضاعت مني أضاعت اسمها الثاني (الحب).. اسمها الثاني (الحبيبة).

وانتصبت أبتعد عن المخدة.. أطرده الفكرة الحزينة.. أنادي إحدى بناتي (تعالى يا أماه)، فالبنت أم أبيها وفي شمائل رسول الله ﷺ، ذكروا أنه ينادي ابنته فاطمة الزهراء بقوله الكريم وعاطفة الأبوة الراحمة (يا أم أبيها)، كما كان يقول ﷺ لحاضنته سيدتي أم أيمن (يا أماه).

أيها السادة:

لا أريد أن استقصي جميع جوانب الأدب والفضل في الأستاذ محمد حسين زيدان.. وإن كان هناك كثير من القول.. لكنني أوتر أن أترك هذا المنبر لمحبين كثر، يتوقون إلى التعبير عن زخم عواطفهم، وإزجاء آيات الشكر إلى صديق عمرهم.

أيها السيدات والسادة.

هذا الرجل أحب.. وأفاض قلبه مشاعر حب، ودفق إخلاصاً للتراث، والدين، والعروبة، والوطن، ورجال البلد المؤمنين، والشباب، والناس جميعاً.

نثر حبه بسخاء طوال حياته، وعطر به دنيانا، وأفرح كثيراً من عشاق الكلمة الصافية.

أفيضوا عليه التكريم والتقدير، وأدعوا الله أن يكلاه بعين رعايته، ويمده بآلاء الصحة والعافية، ويجزيه عما قدم خير الجزاء.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

## صور

## بسم الله الرحمن الرحيم

### مقدمة

ولا بد أن تكتب مقدمة لأي كتاب ينشر على الناس كأنما هي التعريف به أو بكاتبه، حتى أن هذا التقليد قد يضطر صاحب الكتاب مؤلفاً أو جماعاً لما كتب أن يستجدي بعض أصدقائه أن يكتبوا هذه المقدمة.

وكان من المنتظر أن يكتبها الصديق الابن الأستاذ «عبد الله الماجد»، ولكن انشغاله بالمريخ قد حال دون أن يفعل ذلك، فالمريخ هذا الكوكب كما هو في الأساطير يشعل الحروب، ولكن «الماجد» قد شغل بالحروب، حرباً على الجهل، فما زاده ذلك مني إلا أن أكون له العاذر لتكون هذه المقدمة منه وإن كانت مني، (فالمشتري لا يبيع بضاعته إلا إلى الزهرة «فينوس هاتور عشروت»).

إن هذه الصور قاله من مقالة، كليمه من كلمة، قد يكون فيها الكلم لمن تجرح، وقد تكون فيها الباقية لمن أحاطت به الفاقة، وقد تكون لما هو أكثر أو لما هو أقل، هي بضاعة مزجاة، فعسى أن تلقى القبول.

«محمد حسين زيدان»

## الإسلام والمسلمون

وقرأت خبراً يقول: إن امرأة في ألمانيا ولدت توأماً أحدهما شعره أشقر يشبه أباه، والآخر شعره أسود، وليس فيه شبه من أبيه، فتقدم الأب يشكو أم الطفلين إلى القضاء، ينفي بنوة الطفل ذي الشعر الأسود.

وحكمت المحكمة ببنوة الطفل الأشقر، وبنفي الطفل الآخر، من أبوة الزوج. لأن التحاليل للدم وما إلى ذلك واعتراف الأم بأنها كانت لها علاقة مع رجل آخر. قد قنع بها القاضي فأصدر حكمه.

عجب! لكنه حكم القوانين الوضعية، وهوى القضاة. وكبرت لهذا الإسلام دين الستر والرحمة، فهذه أحكامه: الولد للفراش وللعاهر الحجر.

وصعب الملاعنة بالأيمان المغلظة يتهم بها الزوج وزوجه. وتبرىء الزوجة بها نفسها. فيصدر الحكم مع اللعن، والغضب على من كذب وافترى فلا تحاليل ولا تعاليل.

إن هناك الإرشاد العظيم في قوله عليه الصلاة والسلام: لعله عرق انتزعه. . . جاء صحابي يشكو من لون البشرة في ابنه، كأنه يشك في بنوته، يتهم زوجته.

فسأله الرسول أو كما قال: عن الجمل يولد بلون غير لون الفحل أو أمه الناقة؟ فقال العربي بسليقة العالم بحيوانه، وما يتنوع به الشكل واللون.

لعله عرق انتزعه. فأجابه المشرع رسول الرحمة بكلمة الستر والحق وهذا لعله عرق انتزعه. فاقتنع العربي بحجة هو يعرفها.

ما أحسن الإسلام دين الستر والحب والرحمة. فلعل هذه لم تقع في بلد يحكم بقانون الشريعة السماوية.

وإنما هي واقعة في بلد يحكم بقانون من صنع البشر بأهواء البشر!!.

وعن أوروبا القارة البيضاء.. ما كنت في يوم من الأيام أحسب أن أوروبا منارة الحضارة في هذه الحروب تعامل معاملة العبيد.. حتى أخلف ظننا ما نراه من هذه المواقف التي تعامل أوروبا كأنها العبد المطيع لا يكون بعيد النظر إلا إذا أطاع السادة المستعمرين.. لكن أوروبا نفضت غبار ذلك.. وليس في هذا انتصار للعرب فحسب.. بل هو الانتصار لما ذهب إليه ديجول.. تكلم ديجول.. وأرشد ديجول.. فما سمعوا له أول الأمر.. ولكنهم الآن يسلكون مسلكه ويسيروا على طريقه... ولا أريد أن أزيد.

### الله أكبر.

سمعناها تدوي في حرب السويس السابقة في نشيد... وسمعنا أن بعض المارقين أنكروا أن تكون فاعلة.. لكنها اليوم في وجدان كل جندي ساعة الهجوم.. وفي وجدان كل عربي ساعة الانطلاق.. وفي ضمير كل ملك وكل رئيس في لحظة العون والبذل... وفي كل لحظة من أشعل النار في حرب اقتصادية.

كل جندي. كل عربي. كل ملك. كل رئيس يعتقد أنها هي التي حطمت... وهي التي نصرت وهي التي يستديم بها النصر... ويستقيم بها الأمر.

إن هذه الحرب جهاد مسلم مقدس.. حين ينتصر العرب فيما ينتصر الإسلام... ولعلي أكثر تفاعلاً بجهاد مسلم عوناً من المسلمين الذين تضامنوا... أو الذين ائتمروا... أو الذين ترابطوا.

فكل انتصار للعرب اليوم انتصار لكلمة (الله أكبر) ولن يتأخر مسلم عن نصره (الله أكبر)... العون. العون. يا أهل المآذن والمنابر والمساجد.. فإن ما تبدلونه ما هو إلا عون لكم فما نحن وأنتم إلا كهذه الحكاية في هذا المثل... لقد أكلت يوم أكل الثور الأبيض.

والعظة والعبرة في خبر عن القاضي.. يعطينا المعنى القويم والمشرق عن نظافة الإسلام.. خلقاً أمر به الدين، وديناً لا يتنافى مع مكارم الأخلاق، وأسلم الأوضاع؟.

رجال ثلاثة كان لكل منهم مكان، القاضي والمفتي مع رجال ثلاثة لكل منهم مقام الخليفة ونفوذ السلطان. أبو يوسف كان صمام الأمان لهارون الرشيد، ويحيى ابن أكرم كان المانع للمأمون لا يبيح نكاح المتعة فله دين في أعناقنا نعيش في طهر مترحمين عليه.

وأحمد بن أبي داؤد رغم الذكاء والفقهاء واللسن والمقام وصم عصر المعتصم بما حمله من الفتنة والجور على الأكرمين! وهكذا تفرق بالرجال طريق، وكل ميسر لما خلق له.

يحيى بن أكرم القاضي ألزم المأمون بأن يقف مع خصم موقف المساواة لا يتميز في مجلس ولا يمتاز بمقام. أي هي عدالة القاضي؟ أم هي عظمة المأمون؟.

كلاهما أدى للقيم حقها، فأخذ من المقومين لأقدار الرجال حق الثناء، إن كساهم ثناء في سيرة، فإنما هو كساء إسلامهم النظيف لا يحب القذارة

ولا يبنى بالقذرين. الخصم من عامة الناس لم يستطع جلب الشهداء،  
فحكّم ابن أكثم على المأمون باليمين.

حلف المأمون اليمين يتبرأ من دعوى كاذبة، حينما أنكرها المأمون  
ملكاً، لم يشأ أن يتنكر لسلوكه خصماً. لم يترفع عن اليمين بحلفها أمام  
القاضي.. كبرياء الرجال، ليس هو تنصل المتعاليين!.

في حديث مع أستاذ أمريكي كبير...

سأل: هل ترى أن الإسلام صالح لتطور الحياة؟

قلت: وليس ما هو أصلح منه. فهو دين يقبل كل طيب، ويرفض كل  
خيث!

دين أعطى الإنسان العزة بالتوحيد.

دين أعطى الإنسان السلامة بالتوبة.

دين أعطى الإنسان التقدم بالعمل والعلم وارتفاع النفس عن كل الدنيايا.

قال: ما بال المسلمين اليوم في تأخر؟!.

قلت: لأنهم سخروا بكهنوت، وأذلوا بطغيان، وتركوا إلى الجهل،  
وأظلمت أنفسهم بالخرافة.

دعني أسألك؟ فهل البابوية... وصكوك الغفران وفسوق الأباطرة من  
أوامر المسيح؟ حينما أنقذكم لوثر منها. مشيتم في طريق النور!.

قال: أتؤمن بالبطل المحرك لمسيرة التاريخ؟.

قلت: لا بد منه. كان لوثر ضرورة، وسيكون ضرورة، وواشنطن

ضرورة.

قال: كيف تقول هذا؟ هذا ما يقوله كارل ماركس حينما يفرض الضرورة التي لا تسير إلا بالبطل. إن الحاجة. والبطل طرفان من وجودهما معاً تشع الومضة للانطلاق... تجد الحاجة نفسها صانعة المختار. ليكون هو ساد الحاجة.

إن هيجل يعترف ببطولة محمد «عليه الصلاة والسلام» كما يعترف بنابليون.

أما شارل ماركس فجعل المادة كحاجة. تصنع الإنسان كمطلب. هذا شيء قد قتلته التجربة. فيبقى البطل. ولا زال الإسلام هو البطل.. وسكت لأكتب هذا.

وأرجو أن ينزل ما نكتبه عن التذكير بالخدمات لتدارك النقص على قلوب الرؤساء والمرؤوسين ناعماً ومقبولاً بحسن نية، فهو منا عن إخلاص ومحبة.

كنت قبل أيام في مقبرة «الأسد» فوجدتها كدوة فيها الأحجار وعلب الصفيح الفارغة والأوساخ وشيء لا يرضي كرامة المسلم في مقبره! فالإسلام دين النظافة..

قالت كاتبة ألمانية: إن أوروبا لم تعرف تنظيف الأبدان إلا عن طريق الشرق. حين أشرقت شمس الإسلام بدخول العرب إلى أوروبا. إن إهمال التنظيف سببه عدم وجود المكلفين بذلك، إهمال الخدمات!.

هذه واحدة... أما الثانية فقد تحدث إلينا أحد الذين ذهبوا إلى

المغسلة «الشرشورة» يخبر عن ميت. يطلب الخشبة والمغاسل وحفر القبر، فإذا المسؤول يزعم فيه... الساعة سبعة من الليل تصحّيني من النوم، وكان المتحدث يلوم على الزعاق.

فقلت له: لا تلمه.. لا لوم عليه. لو كان هناك الموظف المناوب في المغسلة لما ذهب إلى بيته؟! لماذا لا يكون في المغسلة مناوب ينجز المطلوب؟ هل الموت له دوام كدوام الموظفين؟

إن الخدمات تعمل أربعاً وعشرين ساعة بالموظفين المناوبين!!.

هما غاسلتان فقط لا غير! هذا لا يكفي بلداً كبيراً مثل جدة!.

وثالثة... فقد ذهبنا بالجنائز، وفي يقيننا أن القبر جاهز، فلم نجده قد هبى.. لا حفار. لا كاشف. لا فاتح. فقام الرجال بفتح القبر وتهيئته. ودفن الميت. فما هو السبب؟ السبب هو عدم توفير الخادمين في الخدمات يعملون في الساعات كلها.

وسمعت أن غيرنا وقع له ذلك، ولعله لم يصنع شيئاً ولو تذكيراً بالتلفون لمن هو مسؤول عن ذلك.

\* \* \*

\* إن غزو غينيا الأفريقية المسلمة فاتحة لفهم جديد، تصحو على طرقات أجراسه وطلقات رصاصه، ومسيرة السفن الباغية، عقول وقلوب ظلت تخدع نفسها يفتح الحوار مع البرتغال.

إن ملاوي ورأسها الدكتور «باندا»، وإن ساحل العاج، ستعرفان ما هو الحوار؟.

إنه انقسام العالم إلى معسكرين..

معسكر البغاة الأقوياء... سواء في الشرق أو الغرب.. ومعسكر الضعاف في الشرق وفي الغرب.

إن التقسيم الجغرافي لم يعد حقيقة، وإن التقسيم المذهبي لم يعد حقيقة.

الحقيقة أن هناك أقوياء يريدون استرقاق الإنسان بالجملة، وأن هناك أرضاً وأناساً يستضعفون فتغزى أرضهم ويقتلون.

إن الخلاف الظاهر بين الشيوعية والرأسمالية الإمبراطورية ما هو إلا عملية توزيع فلا تنظم فيها معاهدة «سايكس بيكو» ولا تقتص الأسلاب فيها على مائدة في قصر «فرساي» فالتوزيع اليوم بصورة أخبث، وأشد مكرًا.. هو بالخلاف والصراع.. فكل قوة كبرى تعين فريقاً حتى يسقط كل قسم جعلوه حصّة في يد صاحبه!.

إن البرتغال آلة لا تستطيع أن تمول عملية حرب سنوات في أفريقيا لو لم تجد عوناً لا ينضب تشارك فيه قوى عديدة.. إنها فرقة أجنبية في حلف الأطلسي كجيش مرتزق، وإلا فهي رأس الحربة في هذا الحلف.

وإن البرتغال والمرترقة لم تجرؤ على هذا الغزو لدولة أفريقية مسلمة لو عرفت أن أفريقيا سوف تهب هبة قوية في لحظة واحدة.

فأين مجلس الأمن، وأين هيئة الأمم؟. إنهما غير موجودين في خطوات روديسيا وجنوب أفريقيا والبرتغال وإسرائيل.. لأن القوى الحامية لهؤلاء تعطل الاثنين، كما هو جار في شرقنا الأدنى، إن حماة الطغيان لا زالوا يمارسون لعبهم بمجلس الأمن.

لو أن المنظمة الأفريقية أعلنت موقفاً ضد الحماية والبغاة لخاف الأقوياء

قبل البرتغال... ولكنهم قد قالوا ألا أنني أكلتُ يوم أكل الثور الأبيض.  
إن غينيا شعب مسلم رأس الدولة فيه اسمه «أحمد» الشيخ أحمد توري، فلا نكران أن أغضب لأرض فيها غانة كما هو في مقامات الحريري يرحمه الله. فغينيا «سيكوتوري» وغانا «نكروما» أرض على خليج واحد.  
والكلمة في هذه اللحظة ليست من البشر، وإنما هي من قرآن كريم نزل على سيد البشر.. سيدنا محمد بن عبد الله نبي الرحمة... الهادي إلى صراط مستقيم..

اقرأوا معي آيتين من سورتين... آية عن الإسراء، وآية عن المعراج ولا شأن لكم بالبحث كيف تم... كيف جرى.. هل هو جائز عقلاً... لقد تم أنبأ عنه قرآن... إنكاره كفر، أو تصدقون الخارق للعادة يأتي من عمل «اليوجي» تمرس بالرياضة فأتى بالخوارق، أو تصدقون ما صنع الإنسان من سفينة البوينج تطير وترتفع وتسرع... توصل إلى مكان بعيد في وقت قريب كأنما هي مصداق البراق.. أتصدقون كل ذلك، ولا تؤمنون بالمعجزة على يد نبي... إسراء ومعراجاً.

واقروا الآية: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١) هذه الآية هي مصداق الإسراء... أعلنت عن مهرجان الأرض يمتد من مكة إلى بيت المقدس.

ثم اقرأوا هذه الآيات من سورة النجم: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ . وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ . أَفَتَمْنُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ . وَلَقَدْ رَآهُ

نَزَلَتْ أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى . لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿ (النجم : ١ - ١٨) .

ما أروع البيان . . . ما أحلى القرآن . . . ما أصدق الإيمان . . كل ذلك إثبات لعظمة الله ثم هو الإثبات كل الإثبات لمقام هذا النبي محمد بن عبد الله ﷺ .

وسأله صديقه: كيف الحال؟

فقال: الحال كله الرضا، فقد أصبحت الدنيا وإنسانها في زحمة مستغولة . . تفري العصب. وتفري بالعذاب. وتطر السوط، وتكره الرحمة كأنها الإنسان أصبح هو عذاب نفسه.

قال: ما السبب؟

قال: ضعف الإيمان . . سقوط المعاني. الاغتيال بالمادة. فلقد أصبحت المادة: شقة، سيارة، رغيفاً، كهرباء، ثلاجة . . كلها رغائب الإنسان.

فإذا ما تحصل عليها، جلس إلى الإذاعة يسمع الأخبار. كأنما الإنسان أصبح ثوراً مربوط العين ينصت بأذنه وأنفه وحواسه كلها . . يسمع المغريات المقلقات .

فلئن كان ال د د ت مبيد الحشرات، فإن هذه المقلقات سم الإبادة لعصب الناس وأفكارهم .

تركوا المسجد إلى الشارع. والحقل إلى المراغة. والسكينة إلى الوحشة .

الانفراد والاعتزال يحكم إنسان اليوم. فشقاء الإنسان بعقله ومطالبه .

فكلما توفرت المادة في هياكلها وموائدها، كلما بعد الإنسان عن الوفرة في معاني النفس والروح.

يوم كنا نركب الجمل والحمار والبغل، ونحلب العنز، ونجني الرطب تخيلنا أنا نمسك بالكون كله. فالكون كله هو القرية والكوخ والشجرة والشاة والبعير.

واليوم اتسع المدى حتى ضاق!.

يضيق المدى بالقلق من فقدان الإيمان من طغيان الهوان. من المتاجرة بالرحمة، والمشاجرة على قتل المثل العليا.

لقد ضاع إنسان اليوم بضياع الإيمان والرحمة والعدل. . فلا سلام ولا سلامة ما دامت الشهوات والنزوات تحكم الدنيا بقلوب فارغة من المعاني غارقة في قاع المادة، وحمأة المطالب!!.

والشيء بالشيء يذكر. . وخير هذه الأشياء ما لامس العاطفة، وما لامس الاستعطاف! . . .

سألته فتاة غالية: هل أحضر ورقاً وقلماً تملي علي بعضاً مما قاله محمد رسول الله ﷺ ثناءً على «علي» بن أبي طالب. . يُعد في مناقبه، وبعضاً مما قاله عمر ثناءً على «علي» رضي الله عنهما؟  
هات الورق. .

وجلست. . أملي عليها نبذة قصيرة من مناقب «علي» مما علق في الذهن وكان والحمد لله أغلبه في الجامع الصحيح للإمام البخاري رحمه الله، ولكي أزيدها إقناعاً جعلتها تراجع الجزء السابع من الفتح لترى صحة ما أملي عليها، ولأطمئن أنا على ذلك، ولقد جاءت الطمأنينة بعد التثبيت

والمراجعة، وجدت فيها الصحيح في الجامع الصحيح!

وأخذت تكتب مرة ثانية بعض ما قاله عمر: لولا علي لهلك عمر، اللهم لا تجعلني في قوم ليس فيهم أبا الحسن. معضلة وأبو الحسن لها. ما أحرى أن يتولاها رجل يحملهم على الطريق.. ذلك الأرجح..

لولا خشية بني هاشم.. وتوقف القلم في يدها.. وعيناها مغرورقتان بالدموع، وقالت: عجيب أمر عمر.. عجيب أمر عمر.. إنه لواقعي حتى في ثنائه على «علي» لم ينس نفسه. أدخل ذاته، وهو يثني على صاحبه؟.

ولم أستدرك نفسي من دهشة لفهم جديد تعلمته من أستاذتي هذه الفتاة. جلست تتعلم مني! إني مدمن في العمریات، وقرأت عمر كثيراً، وكثيراً.. كلما أردت التفريج على نفسي طوال أيام عمري قرأت عمر.. طوال هذه السنين ولم أنتبه إلى هذه السنين ولم أنتبه إلى هذا الفهم؟! أتعلمه من ابنتي اليوم.. فهي بحق أستاذتي فيه؟!!

ونقلت الخبر إلى أكثر من صديق فرحاً به ليفرحوا به. وقالوا، ولم يكونوا جميعاً:

دعنا نرد هذا السند.. نأخذه عنك.. أستاذاً من أستاذة.. وقلت لهم: وهذا ليس بالجديد فرواية الأكابر عن الأصاغر معروفة، ورواية الفاضل عن المفضول مقررة.. كما هي التدبيج بين الأنداد والأطراف وهكذا يتم الحوار والحديث والسؤال والجواب لكل طالب علم.. علم جديد، وفهم يتجدد، فسائلك يتعلم منك.. هو معلمك مما يشير في نفسك من البحث عن المعرفة والجري وراء الغالب عنك لتعلمه وكأنه الجديد!.

في ليلة أمس أدت المؤشر على المسطرة أسمع الإذاعة عربية مسلمة

أحسب أنها بجانب المنارة البيضاء.. ينزل عندها المسيح بن مريم يحف به رجال مؤمنون.

سمعت المذيع يقول: خطاب ألقاه «الرفيق» وسماه إسماعيلياً عربياً. واسترجعت حتى لم أكد أسمع ما حولي. وتذكرت خيراً تحدثوا به عن قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما.

قيس بن سعد رابع المطعمين في بيته، أصبح بذلك الفرد العلم في العرب كلهم.. صاحب الراية يوم الفتح أخذها رسول الله ﷺ من أبيه وأعطها له، لأن النبي أراد المرحمة ولم يرد الملحمة كان صاحب علي، وأميره علي خراسان، وفاخر به معاوية الروم فارساً ومصارعاً وطوالاً.

قال قيس: رأيت يوم صفين فتى من كليب يقاتل في صف الشام قتالاً شديداً بعزم وجلد وإقدام فوقفت له أسأله: علام تقاتل يا أخا كليب.

قال: أقاتل تارك الصلاة ومانع الزكاة!

وسأله قيس؟ من؟

فقال له: ويحك.. ويلك.. ويحك والله لأن ترك الصلاة علي، ومنع الزكاة علي لم يؤدهما أحد، وأثاب الفتى إلى رشده يسير مع ابن عمه قيس يهتدي بهديه.

وهكذا غرروا بشاب فأصبح يقاتل عن عقيدة وهو مبطل. وهكذا يغرون اليوم بشباب. يلعبون بمصير أمة. لماذا لا يقول: الأخ.. الكلمة المسلمة.

ذلك أن الذين ترجموا اللفظ الشيعي جانبوا التسمية المسلمة كراهية لها فاليوم نحمدها لهم لأنهم بذلك وضعوا الفرق بين الحق والباطل

فأصبحت «الرفيق» علامة فارقة، تفرق بينها وبين «الأخ» الكلمة المسلمة!.  
واسترجعت مرة أخرى.. فالله أمرنا حين المصيبة أن نقول: إنا لله وإنا  
إليه راجعون..

وأشد الحارث بن خالد المخزومي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما  
شعراً أعجب السيد الجليل النقي النبيل بن عمر. ووجد فيه ما يستأهل ما  
يوجب، أن يقول «إن شاء الله» فقال ابن عمر: إن شاء الله يا خالد! فقال  
خالد: إنها تفسد الشعر!!

فأجابه ابن عمر: إنه لن يصلح شيء تفسده كلمة «إن شاء الله» يردون  
أموالهم.. كأنما هم قد صدقوا تهم المنكرين بأنها باعثة الكسل لقد  
كذبوا.. فإن الكسل من ضرائب الجهل والمرض والإهمال والفقير.

إنها وربى باعثة النشاط بالطمأنينة إلى الله. خالق كل شيء مُيسر  
العسر..

والشيء بالشيء يذكر.. فقد قالوا إن عبد الملك بن مروان أمر  
الحارث بن خالد على مكة. وعللوا ذلك. بأن كلَّ مخزومي كان علوياً إلا  
الحارث بن خالد فقد كان مروانياً.

وكان الحارث بن خالد يحب عائشة بنت طلحة. يريد أن يرضيها لعلها  
ترضى بزواجه منها. ولكنها كانت تأبى وترفض.

وحجت عائشة، وبينما هي تطوف كاد يدركها الأذان.. فطلبت من  
الحارث تأخيرها حتى تكمل طوافها.. فأمر بتأخير الأذان والإقامة فتأخرت  
الصلاة.. وقد كان طلبها على رسول منها إليه!!

وعلم عبد الملك فعزله عن الإمارة.

فقال خالد: لقد كان رضاها واستجابة طلبها أحب إلي من هذه الإمامة.

أما عائشة فذهبت لليل لثلا يدركها حقب منه. فقد كانت الصون والعفة رحمها الله. في ذلك العصر الطري القريب من النبوة. والذي أدرك بعض الصحابة قد وقع هذا... فكيف بعصور بعده.. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وهما صورتان لإمام، ولقاض، نرى فيهما قوة الحق من تعصب الإمام له، وحكم القاضي به لا يسأل واحد منهما عن السجن والعذاب، ولا يسأل ثانيهما عن العزل، عشت لحظة مع الإمام البويطي تلميذ الإمام الشافعي رحمهما الله.

البويطي هو أبو يعقوب يوسف بن يحيى تتلمذ على محمد بن إدريس الشافعي الغزي، المكي المدني، المصري، القرشي، المطلبي رحمه الله.

وحينما شعر الشافعي بدنو أجله استخلف البويطي مكانه، فتعقبه القائلون بقولة ابن أبي داؤد في القرآن، فلم يوافقهم تمسك برأي أحمد بن حنبل رحمه الله، وسار على نهجه في الصمود وتحمل العذاب، لم يتمكنوا منه ليأخذوا حجة يخالف به إمام السنة أحمد بن حنبل، وإن تمكنوا من جسده ترك مكان الشافعي في الفسطاط ونزح إلى قريته في ريف مصر. فلاحقوه يودعون السجن وبقي في السجن حتى مات!

أي عذاب لإمام أكبر من ذلك، ولكنه العذوبة في الحق لها حلاوة الألم في المحبين المضححين يحبون الحق ولا شيء غير الحق، وكان البويطي إذا سمع النداء والأذان، يوم الجمعة، يغسل ثيابه، ويتطيب ويخرج إلى باب السجن يلبي النداء فيرده السجنان. فيقف على الباب ويقول قبل أن يرجع إلى مكانه من السجن.

يقول: اللهم إني أجبت داعيك فمنعوني.

أي عظمة في هذه الطاعة، أي فقه في هذا الإمام، أي تحد للطفأة أكثر من ذلك؟! .

من الذين لجأوا من المدينة المنورة إلى مصر «ابن القاسم» صاحب مالك ابن أنس إمام دار الهجرة، توفي في مصر كما توفي الشافعي والليث بن سعد وابن عبد الحكيم وأمثالهم، وقد رأى أحد الصالحين ابن القاسم رؤيا منام، فقال له:

- ماذا صنع الله بك يا ابن القاسم؟! .

- فقال: لقد ذهب العلم والفقه، ولم ننتفع إلا بركيعات ركعناها في الإسكندرية! .

يعني أنه كان مرابطاً. لا يقود جيشاً، وإنما هو الإمام القدوة... حين يراه عامة الناس يصبحون جيشاً وراءه!!

- الصورة الأخرى: ذكرت الأستاذ الإمام صاحب الجواهر (طنطاوي جوهرى) كأنك تبكيه... تبصق على ضحكات بعض الساخرين منه. أتعرف أول من سخر منه؟ كثير من الأزهريين والجامعيين، وأولهم أستاذك الدكتور طه حسين. لعله قد تعرض لطنطاوي جوهرى - إن لم أكن نسيت - في كتابه «أديب» حين قال ساخراً: إن بعض الناس يكلف القرآن مما لا يحتمل، ولا أدري عن موقف العقاد من الجوهرى فلعله يوم خرج هذا التفسير كان العقاد مشغولاً بشوقي وسعد زغلول.

\* \* \*

\* إن الاتحاد السوفياتي بدأ رجعيًا يسير على نهج الاستعمار الأول،

فقد أذاعوا أنه سينسحب من الأفغان، إذا ضمن عدم تدخل دول أخرى!  
أسلوب قديم، كأسلوب اللجان: لجنة ميللر في مصر. لجنة بيل في  
فلسطين. الموائد المستديرة. المبعوثون لاستيفاء المعلومات... هذا  
الأسلوب لا تريد منه موسكو إلا تعطيل الجهاد في الأفغان وسحب السلاح  
من المجاهدين، وإلا فلا انسحاب!

اللهم إنها القوة... ملكها بعض عبادك، وأنت مالك القوة كلها،  
فانصر المجاهدين عن دينك وأرض مسجدك وعبدك الإنسان المسلم.

\* \* \*

\* قبل سنوات كنت أمشي معه في شارع فخم ضخم يكاد يرقص من  
الزينة والزخارف والغادين والرائحات...

وجاء ذكر الكون والخالق، فأخذ يهرطق، كأنه حيوان لا يعرف الإيمان  
إلى قلبه سبيلاً.

وتركته يتحدث. أثيره. أغيظه ليستغرق في شططه لأتمكن من لي  
خواتره إلى موقف يذهله.

وقلت بلوعة: أنظر وراءك... سيارة دهست طفلاً. فضت رأسه  
فالتفت وهو لا يرى طفلاً ولا حادثاً، وإنما هو قد هزّه الخبر، فانتزعته  
صورة الطفل يلتفت ليقول: يا الله... يا أرحم الراحمين.

وهذا قليلاً. ولم أتكلم معه برهة. ليستريح ثم قلت له:

أكمل الحديث!

قال: أي حديث؟! ماذا فعلوا بالطفل؟ هل حملوه إلى المستشفى؟ أين

أمه؟ ماذا صنعت؟

قلت: الطفل هو أنت.. ألم ترجع إلى الله حين كربت؟!  
قال: فاكرو... ذكرتني بشيء.. إني إنسان ضيعتني قراءة غير ركيزة،  
قلت: ويضع أكثر ما تلمسه من إيمان بقول غير مقرون بعمل؟  
إنهم لو أعطوك من سلوكهم ما يدل على إيمانهم لما انتزعك فكر دخيل.  
قال: إن الطفل المدهوس المدعوس قد أرجعني إلى قلبي. الإيمان  
مكانه القلب. آمنت بالله فلن أعود لحديث فاجر!.

\* \* \*

\* والشيء بالشيء يذكر:  
ولا أدري ما هو الشيء؟ ولكنني أسطر السواد على البياض لعله يأتي  
بشيء أبيض.  
الإنسان لا يشبع من شيء حتى يجوع إلى أشياء أخرى تلك قيمة  
البشرية فيه. واقع الآدمية. لأن ذلك هو الأساس يرتفع بالطموح، وبه تبنى  
الحياة!  
فلولا التناحر، والجري، والتشهي، والإدراك والتناقض، والرفض  
والقبول كعوامل البقاء، وانتزاع الانتصار، لما عمر الوجود بالأحياء بالحياة.  
فالعراك هو الدعامة لإقامة الحياة للمتعاركين، أول العراك الجوع لما  
تشتهي ونهاية المعركة الشبع بما نلت.

قلت: أريد أن أفهم هذا الذي يقوله الفارابي عن واجب الوجود؟

قلت لها: ولماذا؟

أريد أن أكتب عن شخصية عالمية!

ولماذا تكتبين عنه؟ ألا يحسن أن تكتبي عن شخصية أخف حملاً من الفارابي؟

قلت: لقد سكت الشعر والأدب والفن أريد أن أكتب عن الحقائق الصلبة. والفارابي حقيقة صلبة في وجوده وحياته. إنه بحث عن الحقيقة لواجب الوجود «الله» جل جلاله، هو خالق الوجود. وقلت لها: لكن المعلم الثاني قد يشط أحياناً!.

قالت: وهل الشط يخيف الباحثين... إن الشط أن لا تجرأ على البحث، وإلا نخاف المعرفة حقاً وباطلاً.. إن حقاً قبلناه، وإن باطلاً رفضناه، بعد أن عرفناه.

وأطعتها فمكثت ساعة تقرأ وأسمع لأشرح وأناقض وأقبل على قدر محصول وارتاحت في إدراكها لما فهمت. ثم قالت التسليم أشد راحة وله طعم الميسر السهل.

ولكن البحث ارتواء بعد الظماً وقلت لها: أليس من المفيد أن تقرئي الخفيف - الخفيف.. ثم الدسم - الدسم.

قالت: إن الدكتور قال لي: كُلي. كُلي. لأنه لا يخشى علي الورم ولا فقر الدم وإنما يخشى على الشيء في صدري. قلت: القلب؟.

قالت: والعقل. يذوب أو يتجمد إذا لم يجد طعام فكر يعيش عليه. العقل حياته بالحركة والقلب صمام الأمان لجموح العقل. فاللهم إيماناً كإيمان العجائز. ورجعنا إلى التسليم.

\* والسؤال القائم الآن يطرح في شكله التقريري عن رابطة العالم الإسلامي يتحرك به لسان فأكثر إذا ما انعقد المجلس التأسيسي في دورة مقررة يجتمع فيها أعضاؤه في مقر الرابطة في مكة المكرمة!

ماذا تعني هذه الرابطة؟ أو على صورة أخرى بماذا تعني هذه الرابطة؟ هل هي مؤسسة لها نهج معين ومحدود. تصدر عنها القرارات بتوجيهات واقتراحات؟.

أم أنها واسعة الجنبات في المحيط الأوسع، والمعاني الأكبر، والقيم الفاضلة كل القيم التي يتجه بها الإسلام، ويوجه الناس إليها؟ والإجابة هي كل الاثنين واحدة، فلا فرق بين أن تكون فرعاً لأصل، أو أن تكون لها كل الاتجاهات من كل الأصل.

الفرق، كل الفرق في فهمنا. في تعاملنا معها. في عملنا لها وهو أيضاً في فهمها لنا، في تعاملها معنا، في عملها لنا فهي بما تكون، ونحن بما تريد لنا وبما تعطينا نكون معها ولها هي مؤسسة لها كيائها وقوامها وقيمتها وأهدافها. وهي كل البلد في المعنى الكبير والقيمة الأكبر لهذا البلد.

فلو أنها قامت في بلد آخر ليس هو مكة. لكان الحد لها محدود بقيمة البلد نفسه الذي قامت به رغماً عن اتساع الإسلام وارتفاعه، فسياسة أي بلد وطبيعته وأوضاعه تحد من أي مؤسسة تقوم ولو كانت الحزب المناصر له، أو المؤسسة المدعمة لنظامه.

## سياسة

## شخصيات سياسية

لقد أحسن الكتاب الذين كتبوا كلمات رائعات عن صاحب المآثر . .  
مؤسس الوحدة العربية في ثوب مسلم . . في كيان كبير «المملكة العربية  
السعودية» البطل عبد العزيز بن عبد الرحمن رحمه الله .

وأحسن هؤلاء صنعاً على صورتين . . صورة التسجيل تخص به البطل .  
وصورة الإشارة والإثارة للآخرين ليكتبوا تاريخ هذا البطل .

قبل سنوات مضت ما كان أحد يعرف ما صنع عبد العزيز للأمة العربية  
من ناحية تكوين هذه الوحدة . . . سبق بها وأرسى دعائمها . . . جعلها مثلاً  
يضم المتألفين . . لغة وأعرافاً ومبادئ ومصالح وتراباً ومالاً .

لم يسر بها على مركزية جافة . . . ولم يسر فيها على لا مركزية مائعة .  
وإنما سير كل جزء بما يلائم من التنظيم . . . ما كان نافعاً في نجد  
ويصلح للحجاز أعطاه . . وما كان صالحاً في الحجاز وينفع في نجد وما  
إليها . . وهبه ودعم العمل به .

أما من الناحية الإسلامية . فحديث طويل، عقيدة صافية، وأمن وعناية  
بالحج والحجيج، واستقرار يسّر سبل الحج لكل من يريده .

من هذا كله . . يصبح في وجداننا عبد العزيز في طليعة الزعماء في

الأمة العربية والإسلامية كلها.. . فلولا فضل الله عليه . ثم حُسن سَعْيي منه لما استطاع من ينشد الوحدة العربية أن يتكلم عنها الآن . . وليس هذا تمجيداً . وإنما هو الحق نقوله توجيهاً وتوعية وشكراناً .

\* \* \*

\* والثناء إذا ما كان على الشخص يدخل في باب المذموم، ولكنه عندما يكون توجيهاً وتوعية لا يدخل في هذا الباب .

في مساء أمس وصل جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز فتقبل التحية من الشعب - كل الشعب - ثناءً على بطل، وتقديراً على عمل فرحة بأمل .  
إن الشعب أو الكاتب فيه حينما يقرر الحقائق عن زعيم لا أحسبه مسرفاً في ثناء لأنه يريد بهذا الثناء توعية الشعب وحفزه إلى الأهداف التي يسعى لها الملك القائد .

هي دعوة كريمة لمسنا النتيجة منها في تقدير المكانة لنا كأنما هو قد رد لنا الضائع منا، هذا الضائع فقدناه من زمن بعيد.. . هو شعورنا بأننا على تراب هو وأبنائه صانع التاريخ بهذه الأمة عربية ومسلمة .

كل الثناء على البطل إنما هو حفز للعمل.. . تحقيق للأمل .

ولا شيء غير ذلك، كل الشيء هو أن نثق في أنفسنا.. . ثقتنا في قائدنا من ثقة القائد بنا.. . من توثقنا بصدق ما نحن عليه، ولا نسأل بعد عن الآخرين .

\* \* \*

\* لا أدري.. . هل أنا الآن مع الحارث بن عوف المري؟ أم مع زهير

بن أبي سلمى . . قتل أولهما الفتنة حينما تحمل أثقال المروءة فأكسب قومه السلام . وكارهاص لهذه النبوة بعدها فوراً أكسبنا السلام بين الأخوين في قبيلتين .

وصفق الثاني للمروءة . دفع القيمة لها الحارث بن عوف وهرم بن سنان .

فقال زهير :

تداركتما عبسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

لست أريد أن أكون مع هؤلاء رغم المجد سجله سطر على الدهر في تاريخ هذه الأمة . كان ذلك خلفتنا في جاهلية عمياء .

أريد أن أكون مع الزعيم المسلم عربياً في نخوة قتلة النزوات ، هذا اليوم لبس فيه عاهلنا فيصل بن عبد العزيز لباس المروءة ورثها عن أعراق في هرم بن سنان والحارث بن عوف . وفي أعصابه صبر ابن عمه الحارث بن عباد .

كنت أتحدث قبل أيام مع الصديق الكريم الشيخ عبد الرحمن السديري قائم مقام جدة . . . وكان يسمع .

قلت له : إن هذه الرحلات لجلالة الملك أعرف بشائرها من قبل ، فهو صاحب النهدة والنجدة يتحمل أثقال الإنقاذ .

كنت أعرف ذلك عن حاسة في النفس والروح . . . عن علم من خيرين .

تلك آمالنا أن يحقن دم . وأن يتم وفاق في الأردن . فالיום هذا في صبحه . . دخلت على عجوز أم . . قالت : أترى هذا الماء البارد شربت

قطرة منه . لقد ألقيته . . فكيف أشربه . وفي عمان والأردن طفل عطش،  
وأمه ظمئة .

إن الفيصل رأس الإغاثة سيروي ويشبع ويهدينا السلام في الأردن  
الحميم .

إيزنهاور يزور الجبهة في فيتنام، خبر يمر فلا تجد عليه تعليقاً، أما عن  
سأمه من أخبار حرب، أو عن ملامة الخائضين غمار الحرب! سيارة .

لقد مر الخبر، فهل أجد فيه ما يدفع إلى التعليق، إن الجنرال الكبير،  
ورئيس الولايات المتحدة السابق، أحد صناع النصر والمجد لأمته لا يزور  
فيتنام وهو في هذه السن والمقام وقد خرج من المرض بالإعجوبة أو  
بالصعوبة إنه لا يزور في رحلة طويلة جبهة حرب إلا لسببين:

١ - إنه يريد أن يحدد معنى الإيجاب في سلوكه لسياسة دولته، أمته،  
ولو كان على خلاف مع الحاكمين، سواء كان الخلاف عن رأيه كفرد، أو  
رأي حزبه الجمهوري كخطة لجماعة تعارض في شكل حزب حزباً يتولى  
الحكم اليوم. الإيجاب منه ضرورة في إبراز الدولة على صورة متحدة.

٢ - والسبب الثاني لعله خطة من الحزب يثبت وجوده في هذه الزيارة  
يقوم بها عضو بارز فيه، تجاوباً مع مسيرة الأمة وإعلاناً لموقف الحزب. . .  
أو مناورة في محاولات إبراز المسلك ضد الحرب النقيض. . . خصوصاً  
والشعب الأمريكي على باب الانتخابات. كل حزب يقوم بالدعاية.

## عن العرب

قالت الثكلى . . . الأم الولود الودود: ما بال أبنائي يتهاكون بالفرقة،  
وينهزمون بالشقاق، حين كنت المقلاة النزور. . لم يكن أبنائي إلا ألوف. . .  
فتحوا الفتوح، ونشروا الهداية ودمروا الطغيان، وعمروا الأرض بالحضارة.  
تسلموا مفتاح الأسرار لحضارة الشرق، فسلموا للغرب هذا المفتاح حين  
كنت الأم المقلاة النزور، كنت شامخة، وحين أصبح أبنائي البغاث يعدون  
بالملايين أصبحت خافضة الرأس. ما بالهم هكذا، وقد كان الألف  
سلاحهم حديدة، ومطاياهم جمال، وعيشهم تمر.

أما اليوم فما أكثر القوة في أيديهم، لهذه بكيث. . أجد القوة في اليد،  
ولا أجد القوة في القلب!.

وقالت الثكلى المقلاة النزور بالأمس، وأم البغاث اليوم: ألا تعرف يا  
بني أن قومك العرب أبنائي يحاربون إمبراطورية الكرمليين بإمبراطورية البيت  
الأبيض، ويحاربون إمبراطورية البيت الأبيض بإمبراطورية الكرمليين،  
ويحاربون أنفسهم بسلاح الإمبراطوريتين، وتحاربهم إسرائيل بخمسة مواقف  
من القوة: قوتها الذاتية، وقوة الولايات المتحدة، وقوة الاتحاد السوفياتي،  
والقوة الأشد هي من فرقة العرب وأختلافهم. أما القوة الخامسة فهي من  
قوة الضعف في دول السوق المشتركة.

\* ونعود إليه . . نكتبها كلمة مقروءة توضع في «برشامة» كأنما هي الزُبد أو الخلاصة أو «الاصنص» لانتظر أسبوعاً تنتشر فيه اليوميات في مقال مطول . . فهي وعلى هذه الصورة تواكب أختها الكلمة المسموعة «كلمة ونص» لعل وعسى أن يكون فيها ما يفيد من يفهم!!

بعد أيام وعلى التحديد في ليلة بدر ١٥/٤/٨٦هـ. يستقبل الملك فيصل والشعب العربي السعودي زعيماً مسلماً وعربياً اسمه آدم عبد الله عثمان رئيس جمهورية الصومال . . نرحب به ضيفاً يسعى إلى مواطن الحنين في وجدانه . . إلى الأرض القدس في إيمانه .

فهل تكريمنا له لأنه صديق الملك؟! ضيف الملك؟!

هذا سبب يدعو إلى التكريم!! .

أم لأن يشاركنا الزحف في الدعوة المسلمة إلى تضامن إسلامي . . هذا سبب يدعو إلى تكريمه . كل هذه الأسباب يكفي واحد منها داعياً إلى تكريمه ودافعاً إلى استقباله .

غير أن السبب الأقوى في نظري هو موقفه هناك في بلده يدافع عن الإسلام . . ينشر العربية يصد الغزاة . . يوطد دعائم الاستقلال .

فالصومال المسلمة العربية كلها في موقف جهاد وجهد وعرق تبني وتقاوم الهدم . وليس هذا في محيط الصومال إنما يحدون من الشعوب المجاورة لأرض آدم عبد الله عثمان . . فمن أرضه يتحدد المنطلق لحماية المسلم في «إرتيريا» وفي غير «إرتيريا» .

إن الذين يهاجمون الصومال إنما يحدون من سلطان الصومال كركيزة يلتفت حولها المعذبون في الأرض عندهم من إخوة الصومال المسلمين . .

إخوة جوار.. إخوة دين.. تلاحم مصير.

فهل من صالح الصومال وهي الركيزة لحماية الإسلام في شرق أفريقيا ولاندفاعه منها أن تدخل الجامعة العربية؟! .

لقد كانت الإجابة مني فيما سبق دعوة مع الصومال لأن تدخل الجامعة العربية ولكنني الآن أعدل عن هذا الرأي لأنني أرى من الخير للصومال أن تكون بعيدة عن الجامعة العربية.. قريبة من التضامن الإسلامي لا لنستكثر بها أو لنتنصر فموقعها معروف لا نكران فيه وإنما لأن الجامعة العربية تحدد من سلطان الإندفاع المسلم في الصومال ومن دفاعها عن المسلمين في «إرتيريا» وما إليها بحكم ارتباط بعض الدول العربية أو مجاملة بعضها الآخر للمنظمة الأفريقية.. أو بحكم السلبية المصطنعة.

\* \* \*

\* وانتخب بالقرعة.. فاز برئاسة هيئة الأمم الوزير العراقي السيد «عصمت كتاني» فإذا إسرائيل وإيران يغضبان، فأيران غاضبة لأن في ذلك انتصاراً للعراق، وإسرائيل أشد غضباً لأن في ذلك قيمة للعرب جميعاً.. حتى أنهم قالوا - أعني الإسرائيليين - أن انتخاب هذا العراقي قد أحال الميثاق إلى مهزلة، كأن الميثاق قد بقيت منه بقية لم تهزل به إسرائيل، فكل ما أصاب الميثاق من تعطيل كان في كل المهزلة والهزل، ولم يصنع ذلك أحد غير إسرائيل، لكن اليهود قوم بهت لا يعبأون بالكذب، لأنه لا خلاق لهم.

## اليهود

\* تولى «إيرل شارون» وزارة الدفاع في وزارة مناحيم بيغن، فطرح الصحفيون هذا السؤال عن الشعور نحو تولي شارون وزارة الدفاع، فكانت الإجابة عمل داخلي لإسرائيل لا شأن لمصر به!.

إن السؤال لم يكن طلباً للمشاعر، وإنما لإبراز الصورة، فشارون هو صاحب الثغرة، وهي إن لم تكن نصراً عسكرياً، كما هي المعذرة ولم يستطع احتلال السويس، فقد كانت نصراً سياسياً لكيسنجر. . هدد بقوة أمريكا أن لا تكون حرب من مصر ضد شارون حول السويس، وإلى الكيلو ١٠١، وضغط بذلك، فنال كل المكاسب الأمريكية تعويضاً عن خسارة الولايات المتحدة في هزيمة السلاح وتعويضاً لإسرائيل عن هزيمتنا في العبور.

من هنا. . كان عبور شارون نصراً سياسياً للولايات المتحدة، وكسبا يُعد لإسرائيل، وإن زعمنا إنه لم تكن فيه خسارة لمصر!!.

\* مناحيم بيغن كان في واشنطن، فلماذا ذهب موشي دايان في الوقت نفسه؟!

المبادرة من الأخبار تجرنا خبراً بأن موشي دايان ذهب إلى هناك مخاصماً لبيغن، يبث الدعاية ضده، حيث قال: إن بيغن لم ينل شيئاً من واشنطن!.

ولكن المعرفة لليهود، ولموشي دايان تجعلنا لا نبتلع هذه الجرعة، فقد ذهب سناً له، حيث قال بعد ذلك:

- «إن إسرائيل ستسقط طائرة من طائرات الأواكس إذا ما سلمت للسعودية ولو كان قائدها أمريكياً».

فهل في هذا القول خصومة لبيجن، أم هو تأييد له.

وغريب من هذه الحرية التي كثيراً ما سميتها: حرية الفوضى وفوضى الحرية أن يصرح موشي دايان، وهو أجنبي عن الولايات المتحدة، بأنه سيقتل أمريكياً - تقتله إسرائيل - إذا ما كان يقود طائرة الأواكس. يهدد الشعب الأمريكي بقتل أمريكي؟!.

لو كان قال هذا التصريح بين شعب غير شعب الولايات المتحدة المخدر بالصهيونية، لكان له حساب، فعلى أقل تقدير يقول له الشعب المهان في أرضه: أرحل من بلدنا، ولكن حرية الفوضى، وفوضى الحرية، وسلطان اليهود... أعطوا لموشي دايان أن يهين الشعب الأمريكي على أرضه!.

أفليس في ذلك إسقاط لهيبة الولايات المتحدة؟!.

سمعنا خيراً. أعلنت فيه الولايات المتحدة رفضها لمقترحات حكومة كابل الماركسية، وذيلوا الرفض بكلمة، فقد قالوا: إن الإدارة الأمريكية تأسف لأن حكومة كابل تتجاهل قرارات الأمم المتحدة!.

قالوا ذلك، ولم يقولوا: إنها عميلة أو ماركسية، وأعلنوا «أسفهم» احتراماً لقرارات هيئة الأمم!.

ولكن... ألا يمكن طرح هذا السؤال: تأسفون لأن «كابل» تتجاهل

هذه القرارات، بينما لا يتحرك أسفكم على ما تصنعه إسرائيل نحو هذه القرارات.. رفضاً وسخرية وإهانة لا تجاهلاً.. أليس أن الأسف ينبغي أن يكون عن تصرفات إسرائيل نحو قرارات مجلس الأمن وهيئة الأمم.. أكثر من أسفكم عن تصرفات «كابل»؟؟.

لكنه منطق الأقوياء، وطغيان القوة!!

## إسرائيل والولايات المتحدة

قال أحد الأشياخ: هل أرجفت بك الأخبار؟ وأي أخبار هذه؟.

لم نعد بعد ما لقينا نبالي بسهام رمى العدا أم نبال  
جاء شقيق عارضاً رمحه إن بني عمك فيهم رماح

قال: اسمع: إنها حرب البترول.

قلت: إن كل كلمة قالوها ارجافا يكمن فيها منطق التحرك نحو السلام!

قال: أي سلام؟.

قلت: اقرأ هذه المعادلة.

تصلب إسرائيل يعني الحرب - فيهب العرب بحرب شاملة يخوضها كل  
العرب. حرب السلاح وحرب البترول. فيأتي من هذا الباب دخول  
الولايات المتحدة الأمريكية لا محالة تحاب مع إسرائيل بأسلوب أو بآخر.  
حتى يتناول منابع البترول، ويستلزم ذلك ما يصنعه العرب في حماية  
ثرواتهم وأرضهم فينتج من ذلك تدمير الصناعة وجوع الغرب كله -  
والحصيلة أن الولايات المتحدة تتحمل المسؤولية لا إسرائيل.

كل هذه السلسلة من المحصلات - حلقة تبعها حلقة تضعها سياسة  
الولايات المتحدة أمام إسرائيل ضاغطين بها عليها حتى يمكن للولايات  
المتحدة أن تفي بالضمان.

أليس كذلك؟.

قال الشيخ: هذا منطوق معقول لكنه مغرق في الخيال والتفاؤل.

قلت: هي فكرة عرضت لها لعلي لم أشطح في الخيال والتفاؤل.  
فلست من أصحاب الشطحات. وإن بعض ما يقوله الساسة أقرب ما يكون  
إلى لغة المجانين أو لغة الشياطين.

فالشيطنة جنون بعقل مجرم.

\* \* \*

\* منعت الولايات المتحدة تصدير الطائرات من طراز «اف ١٥ / اف ١٦»  
تعاقب بذلك إسرائيل على عدوانها وطغيانها!.

وقلنا حينذاك: إنها فترة مؤقتة، يمتص العرب غضبهم على إسرائيل  
وباحتجاجهم على الولايات المتحدة. حتى إذا انقضت فترة الامتصاص  
صدروا الطائرات!.

أحسبني لا أقول إلا صدقاً: إن اليهودية العالمية في الولايات المتحدة  
هي التي أعطت الفرصة للإدارة الأمريكية أن تمارس المنع حتى تنقضي فترة  
الامتصاص، فلا الإدارة الأمريكية منعت، ولا إسرائيل غضبت، ولكن  
اليهودية العالمية تعرف أن غضب العرب قصير المدى، كما يعبرون عنه  
الآن: أصحاب نفس قصير.

هل يصدق هذا الظن.. ذكرته من قبل بأنه قد كتب على العرب  
بطغيان اليهود، أن يكونوا العامل الأول في تبصير العالم بخدع اليهود  
وصلفهم وعدوانهم؟!.

نعم... بدأ يصدق هذا الظن، حين أخذت أوروبا تتحرك، لا تعلن

أنها ضد إسرائيل، وإنما أعلنت الضيق بها ومنها. ذلك لم يكن أيام وعد بلفور. ذلك لم يكن أمام الحملة على النازية. ذلك لم يكن أيام الصرخة في الدفاع عن السامية، وحتى الولايات المتحدة المخدرة أو المسخرة باليهود وللإهود قد ارتفعت السنة تعلن الضيق حين بدأت أسلحة الاتحاد السوفياتي تلعب دورها غرب الهملايا، وفي المحيط الهندي، وشرق أفريقيا، وغرب أفريقيا.

من هنا.. ارتفع صوت يهودي زعيم.. لعله الثالث المقدس في كهنوت اليهود، بعد هرتزل ووايزمن.. ذلكم «ناحوم غولدمان» أعلن سخطه على اليهود في أمريكا.. يضغطون على الولايات المتحدة، ولم يكن ذلك منه عقوقاً لليهودية وإنما خوفاً عليها، فحين يفقد اليهود عطف غرب أوروبا، وعاطفة الولايات المتحدة فإن ذلك لن ينفعهم بعده تعاطف الاتحاد السوفياتي.

\* لا أدري أيشعر المستر ترومان بهول ما صنع أم أن ضميره قد تبدل من كثرة ما استخذى! قد يكون ذلك إذا كان من الناس!! ولعله لم يتبدل له ضمير.. لأنه ليس فيه من يقظة الإحساس فهو كالنازيين الذين حاربهم.. لقد حارب النازية لأنها تقتل الناس.. وحاكم النازيين لأنهم عذبوا الناس وتولى كبر الكارثة في هيروشيما لينقذ من اليابان أرض الناس. ولن نسأله عن كل هذا الآن... ولكن سؤالا نستوحيه من «بيت صفاة» في فلسطين.

نوجه إليه هذا السؤال: هل العرب كانوا نازيين؟! هل كانوا أعداء أمريكا.. هل هم حلفاء اليابان؟.

سيجيب مرغماً.. لا.. لأنهم في الحقيقة - ولا ينكر هذا أحد - لم

يكونوا لأي سبب يستاهلون ما صنعه ترومان معهم. ولكنه سيجيب: لقد فعلت مع النازيين واليابان لينتصر بلدي. وفعلت ما فعلت معكم معاصر العرب لينتصر أصدقاؤكم التقليديين التاريخيين. اليهود، لأنهم أطعموني اللقمة.. أفلست «كتاجر منافاتورة» قماش فحملوني بالدعاية والعون إلى عرش البيت الأبيض. فكيف لا أجزيهم بما قدموا، والإجابة منا تقول.. لا.. هذه لغة الذين تشتريهم العصابات.. وجدوك مضطراً فألقوا عليك معونتهم حباله صيد.. ثم خدروك لتسمع لهم ما يملون عليك. لتجعل الولايات المتحدة في لحظة الطيعة المهينة تخضع بلسانك وباعترافك لهذه العصابة.

تعال وقف معنا على الحد في «بيت صفاة» لترى الأسلاك الشائكة.. تفصل بين الابن وأبيه.. بين الزوج والزوجة فلعل صدمة المأساة توقظك من خدر.. نوموك عليه لتصحو فيستيقظ لك ضمير.. تعيش أيامك الأخيرة في عذابه ليكون اعترافك بالجريمة أمام الله.. ثم أمام التاريخ لا على كرسي قبالة قسيس!!

لو كنا نعرف الحقد لحملنا هذا الحقد وبأي وسيلة أن نحرق قلوب صانعي الجريمة التي صنعت بكل ما يدمر هذه القلوب من تفريق الأبناء.. وتشيت الآباء وحرمان الأمهات.. إن الذين يرون ما صنع «ترومان» لتصنع إسرائيل ما هو أفظع يسألون لماذا لم تكن كالطيار الذي ألقى القنبلة على هيروشيما؟! ذلك إنسان جُنّ من يقظة ضمير.. أما أنت فلم تعد بعد من الناس!! ولقد بل ريتي مثل ضربه أمريكي من الجنوب في «أكلوهاما» قال: نحن الأمريكان لا ننسى ثلاثة أحداث:

٢ - حريق شيكاغو .

٣ - خسارة ترومان في المانيقاتو، يعني لولا خسارته لما التقطه اليهود مساعداً للرئيس ليكون بعد الرئيس .

\* \* \*

\* إن التاريخ العربي لم يعط الجنرال «ايزنهاور» حقه . . لا كنصير للعرب، وإنما كنصير للشعب الأمريكي حين أنقذ هيبة الولايات المتحدة، فرسخ لها قيمة في العالم العربي يوم كان الوحيد وحده . . لا يسأل عن رأي «دالاس» فيستعرض عضلات القوة للولايات المتحدة ضد الإمبراطوريتين - بريطانيا وفرنسا - وضد اليهود . . يأمرهم أن ينسحبوا من بورسعيد ومن سيناء، فأسقط الإمبراطوريتين كأنما انتزع العرق الألماني عواطفه ليكمل الإجهاز على الإمبراطوريتين الذي بدأه هتلر! .

إن هذا العمل من «ايزنهاور» كان أمريكياً بحثاً لمجد أمريكا وعظمتها، ولم يكن خوفاً من تهديد «بولكانين» لأنه قد صنع ذلك حين أسقط أصوات اليهود من اعتباره فلم يلجأ إليهم حينما رشح نفسه، وفي عزمه أنه لن يلجأ إليهم لو أعيد ترشيحه، فمدة الرئاستين له لم تكن من صنع اليهود .

من هنا، وقد عرف اليهود مدى الخسارة التي تلحق بهم إذا ما تكرر وجود شخص كأيزنهاور، فشمروا عن رؤوس أموالهم وتلفازهم وصحفهم يطبخون الرجل الجديد . . يصنعونه ليكون الرئيس . . لا من طراز ايزنهاور وروزفلت، وإنما من طراز ترومان وأمثاله! .

إن العرب ينبغي أن يعرفوا أن أمريكيا واحداً كأيزنهاور هو الذي يستطيع أن يطفىء الحريق شرق السويس، وينقذ الغريق غرب السويس . .

أما الذين من صنع اليهود فقد أحرقوا وأغرقوا!!.

\* \* \*

\* ناحوم جولدمان: من دهاقنة اليهود.. يلبس ثوب «هرتزل» و«إيزمان» وحتى «بن جوريون» و«مناحيم بيجن».. يدعو في هذه الأيام إلى اعطاء الفلسطينيين حقهم. ويتبرع بأنه مستعد لمقابلة ياسر عرفات!.

ذلك شأنه، ولكن... ما هو رد الفعل أمام هذا الخبر من العرب؟!.

إن بعض العرب أذاعه بأسلوب الترحيب، وبعضهم لم يحفل به.. شأنهم في كل أمر، لكنني سيء الظن بكل تصريح يهودي، فأزعم صادقاً أن «ناحوم جولدمان» أراد أن يخفف الضغط عن مناخيم بيجن لا أن يصبه عليه، لأنه كما يريد، يحاول صرف أصحاب القضية إلى أمل، مع أنه لا أمل يأتي عن طريق أي يهودي!.

إنها عملية استرضاء يسترخي بها أعصاب المناوئين لمناخيم بيجن. أسلوب يهودي، ولا غير ذلك!.

ومن ناحية أخرى... أصر على أن لا أقول: الصهيونية، أو الصهاينة، وإنما أقول اليهود. إن المادة الأولى في السياسة العربية، ومن قانونها غير المكتوب أنها لا تذكر كلمة اليهود تجنباً للاتهام بأن ذلك تعصب ديني.. مع أنهم قد جندوا أكثرية من غير اليهود، فكل يهودي صهيوني، وليس كل صهيوني يهودياً، فجندوا هذه الأكثرية ضدهم، ولو قالوا: اليهود، لحصروا حربهم ضد من هم أقل من الصهيونية.

إن اليهود في الولايات المتحدة وفي دول أوروبا.. لا يبلغون الكثرة التي تبلغها الصهيونية، فعند بعض من يعتقدونها يزعمون أنها أيديولوجية، مع

أنها عند أكثرهم عملية مستأجرة، فأكثر الصهيونيين مستأجرون لليهود...  
بتخدير العواطف، أو بدفع المال! قولوا: اليهود. فهم العدو التاريخي...  
من فجر التاريخ، إلى دهر التاريخ.

\* \* \*

\* شاب تعلم في الولايات المتحدة يحب شعبه. له أصدقاء كثيرون.  
كان إذا انتقد أحدهم أمامه الولايات المتحدة أخذ يدافع عنها بحماسة  
شديدة!.

ولكنه بالأمس، وحين قرأ تبرير الرئيس ريجان لضرب المفاعل الذري  
في بغداد، وحين سمع تصريح السيناتور ادوارد كيندي.. صرخ يقول:  
ليذهب العرب إلى الاتحاد السوفياتي، ما دام الأمر قد وصل إلى هذا  
الحد! وخسرت الموقف في أن أحاوره... أرده إلى شيء من الصبر. فما  
استطعت! فكيف أرده، وقد غضب لأمتة؟!.

كيف أرده، وهذا الطغيان مسلط على أهله وأرضه ومسجده؟!  
سكت، وما سكت هو فلا زال يعيش حماسته الغاضبة إلى الآن.

\* \* \*

\* أنكر بعض العرب التعاون الاستراتيجي بين الولايات المتحدة  
وإسرائيل، وكانت حجتهم: أن الولايات المتحدة أصبحت هي التي تمارس  
الاعتداء مباشرة على العرب!.

ولست بصدد مناقشة هذا الرأي، لكن هذا «الوضوح» في سياسة  
الولايات المتحدة.. لربما يعطينا «الوضوح» في سياسة الاتحاد السوفياتي،

فقد سئنا الانتظار، فإما أن تكون المواجهة من الاتحاد السوفياتي عملاً.. لا بتصنيع الأصدقاء.. تكون به الحرب الساخنة ينجلي بها الموقف، وإما أن لا تكون فيعرف العرب أنهم الضحايا بين الصداقتين!.

هذا الوضوح أحالته إسرائيل إلى وضوح أكثر، فلم تنكر هذا التعاون الاستراتيجي، فقد جاءت الألفاظ الإسرائيلية تؤيده، ولكنها تنكرت له فزيفته، ما دامت تصر على هذا الاعتراض لبيع أمريكا السلاح إلى المملكة العربية السعودية.

فإذا كان التعاون الاستراتيجي قد بدأ تنفيذه فلماذا تعترض على خطة استراتيجية للولايات المتحدة؟!.

كأنما هي تملي على الولايات المتحدة الخط الاستراتيجي الذي لن يكون غير ما تريده إسرائيل: مستودعات للذخيرة، بل وتمتن إسرائيل بأنها ستعطي الولايات المتحدة الحماية الجوية بغطاء جوي للأسطول السادس... كأنما الأسطول السادس، في سياحة للبحر الأبيض. لا غطاء أمريكي له!!

إن اعتراض إسرائيل على صفقة طائرات الأوكس... فيه كل التنكر لهذا التعاون الاستراتيجي.. حتى أن وزير الخارجية الأمريكي «الكسندر هيج» يهرول من واشنطن إلى نيويورك يترضى مناحيم بيجن.

إن سفور الولايات المتحدة بهذا العدوان المباشر.. ينبغي أن يحمل أصدقاء الاتحاد السوفياتي على أن يرفع البراقع ليتضح سفوره. وإلا فالرواية لن ولن تتم فصولها.

\* وصورة ثانية توضح المخطط اليهودي، فقد نشر مصدر إيراني كان مسؤولاً كبيراً في إيران أن إسرائيل أمدت إيران بالسلاح وبقطع الغيار في

الوقت الذي كانت فيه أزمة الرهائن الأمريكيين في أوج تصاعدها وسمعت اليهودية هذا التصريح، فبدأت تخطط لابتلاعه، فإذا تلفاز أمريكي يصدق هذا الخبر: إسرائيل باعت السلاح وقطع الغيار لإيران. وظن الذين يخاصمون الإدارة الأمريكية إنها ستفعل شيئاً ضد هذه المجافة من إسرائيل، فإذا ابتلاع الخبر يتم، وسوء الظن من الإدارة الأمريكية لا يتم حين انتهى الأمر بتكذيب الخبر رسمياً لا يؤثر على إرسال الطائرات، بل إنه يرسخ علاقة إسرائيل. لأن هناك.. من زعم للإدارة الأمريكية إن إمداد إيران بالسلاح وقطع الغيار إبقاء على قوة السلاح الأمريكي في إيران، وإقصاء للسلاح الروسي أن يكون في إيران، وهذا عطاء من إسرائيل للولايات المتحدة، فالعبرة في سياسة الإمبراطوريات هي إسقاط التأثير بالوقت لاستمرار التأثير بالزمن!!

\* أهو التوقيت المحدد تحدث فيه أحداث وأحداث؟ أم هو التهديد المسترسل لا يبالي باتفاق ثنائي بين مصر وسوريا؟.

بعض ذلك قد كان، وليس عجباً أن يكون كله!. التوقيت في حماقة إسرائيل في هجوم على الأردن صادف اليوم الأول الذي وصل فيه أيوب خان إلى الأردن. بل لعله في الساعة التي يستقبله فيها عاهل الأردن.

لماذا؟

أهو الإحراج؟ كأنما هو وضع أيوب خان أمام الأمر الواقع من إسرائيل. لئن كان ذلك فأهلاً به. نقولها باسم أيوب خان.

إن إسرائيل - وقد أقدمت على ذلك - أعطت لأيوب خان اليقين كل اليقين ليحارب هو معنا إسرائيل ليكون وجدان الباكستان معنا وسلاحها معنا.

إن الباكستان لم تعترف بإسرائيل لا عن دعوة في بيان مشترك ولا عن إرضاء للعرب، ولكنها عن حرب الروح المسلمة في الباكستان تحارب عن الإسلام. لم يكن ذلك جديداً عليهم، بل هو العريق فيهم كل العراقة.

إن فعلة إسرائيل حملت التحية الأردنية لأيوب خان. تحية الراححة الزكية لدم الشهيد.. قد زاره أيوب خان.

والأسطول السادس لماذا تحرك؟ لماذا توقف؟ علم ذلك عند غيري!.  
والاتفاق الثنائي ما صنع؟.

\* \* \*

\* والكلمة التي قالها «تشرشل» وهو يصبر نفسه قبل غيره.. ويصابر شعبه، حتى يخرس في أعصابه... وفي أماني قومه معنى جديداً وخطأً واضحاً ألزمت به الحرب ويكسب النصر.

هذه الكلمة كانت مرعبة لأفئدة الذين تشبعوا بالعداوة للشيوعية ومأواها «روسيا» فالشعب البريطاني كان أدنى ما يكون إلى التغافل عن النازية لو تمهلت النازية قليلاً في مطامعها، وكان أبعد ما يكون عن التقارب إلى الشيوعية، لأنه يخشاها أن تنسل إلى شعوب يستعمرها.. أو أن تحتل عقولاً في بريطانيا وما إليها!.

لكن الحرب مع النازية قد جاءت عملاً مفاجئاً للعدة الحربية في بريطانيا. والأعداد النفسي لها، ثم جاءت المحالفة مع الشيوعية مفاجئة ألزمت بها ضرورة.. أقلها إشغال ألمانيا في ميدانين وأجلها استغلال الزمن حتى تأتي السحابة من وراء الأطلسي.. طلبها «بول رينو» في كلمة شعرية.. ولكن منها تشرشل حينما سخرها بهذا التحالف مع الشيوعية.

فالذين وراء المحيط قد لبوا الاستجابة لخطة تشرشل لأمرين اثنين:  
إنقاذ أوروبا مع النازية. وحجز الشيوعية بقوة أمريكية.

هذه الكلمة قالها تشرشل هي في سبيل بريطانيا محالف الشيطان..  
ينزع من قلب شعبه الكراهية المستمرة إلى وفاق مؤقت.. ويسقي الجرعة  
للولايات المتحدة لتطاول الاتفاق الدائم مع بريطانيا.. ولتعزز التوقيت  
المنحصر في زمن معين يبقى فيه هذا الاتفاق مع روسيا إلى اللحظة التي  
تهزم فيها ألمانيا.

فلم يكن تشرشل متحامقاً ولا هو الأحمق.. وإنما أراد أن يقضي على  
كل تحامق يزعزع النصر من الداخل أو يؤخر النصر تأتي من وراء  
الأطلسي.

وحال الحرب اليوم أشبه ما يكون بحال بريطانيا.

\* \* \*

\* في أيام مقبلة يعقد مؤتمران في الشرق الأقصى، وفي الهند..  
وليس الغريب أن يعقد المؤتمران، وتختلف الغاية، وإنما الغرابة أن يتم  
انعقادهما في وقت واحد تقريباً، ولغاية تكاد تكون الواحدة.. كل الفرق  
في المظهر، وإعلان السلوك!.

الأول مؤتمر يحضره الرئيس جونسون.. يعني الولايات المتحدة.  
وأصدقاءها.. الظاهر منه، والحافز له حرب فيتنام وما إليها، والباطن فيه،  
والوازع منه هو مواجهة الصين الشعبية بخطط أعدت، ونفذ أكثرها..  
ينقصها التلاؤم والتنسيق، والإقرار الجماعي.. يعني شكلية المظهر.. ل يتم  
بالصورة المعلنة باسم المؤتمرين!.

والثاني مؤتمر ينعقد في دلهي . . في الهند . . يضم الثلاثة :  
يوغوسلافيا، ومصر، والهند . . ظاهره التخطيط لدول الحياد وعدم الانحياز  
في شكلية الدعوة إلى السلام، وباطنه مواكبة مؤتمر مانيلا بالمشاركة في  
وضع حل لمشكلة فيتنام . . أي أنه أمريكي الغاية . . روسي الموافقة، و ضد  
الصين الشعبية! . . هكذا أغلب الظن . . كأنما الولايات المتحدة والاتحاد  
السوفيياتي يعملان في خطين متوازيين ضد الصين الشعبية، ولحل مشكلة  
فيتنام . . هكذا نظن، والظن أن أخطأ في تلمس الحقيقة كلها فإن الصواب  
فيه، أو منه هو الالتفاف حولها نبشاً واطهاراً فلعل في ذلك ما يصيب كبد  
الحقيقة . . . والأيام بيننا! .

الأيام بيننا . . فإن حرب فيتنام قد استنفدت أغراضها .

\* \* \*

\* أخبار روديسيا غطت وأخفت أخبار فيتنام في العالم كله، وهي تكاد  
تلهي عن أخبار الشرق الأوسط وما فيه . بل إنها أنست الانقلابات الأفريقية  
وأسبابها والنتائج المترتبة عليها! .

أهي صناعة الدعاية . . تعطي الأذن طعماً تصيدها به لتصددها عن  
الأخبار الحساسة والملامسة يتلهى كل شعب عن خبره الخاص به بالخبر  
عن روديسيا؟ .

قد يكون وقد لا يكون . . غير أن الخبر عن روديسيا أصبح مشكلة  
ذهنية للسامعين . . لأن بعض الساسة يقول إذا لم تحل مشكلة روديسيا في  
هيئة الأمم فإن مستقبل هذه الهيئة معرض للخطر! . لنصدق ذلك، ولكن ألا

نسأل: هل مشكلة روديسيا أكثر تعقيداً من مشكلة فلسطين وفيتنام، وكوريا والمجر، وما إلى ذلك؟ .

كل هذه لم تعرض هيئة الأمم إلى الخطر. أحسب هذا السياسي أراد أن يفزع الناس بما لا يفزع.. هي صناعة الدعاية أيضاً! .

مشكلة روديسيا.. أنا من أشد السامعين فرحاً باشتداد الأزمة فيها.. كل ما زادت الأزمة تعقيداً.. كل ما أملت انفتاح النفس الأفريقية على رؤية الخطر يحسون به.. ليحسوا بما لم يصدقوه عنا من مشكلة إسرائيل.

## أدب ولغة

\* تفتحت نفسي اليوم على أربع... كل واحدة منها شغلت حيزاً من وجداني.. كأنما هي تحقيق بعض آمالي، وليس هذا خدعة، ولا هو التخادع، وإنما هي النفس المغلقة بالمشأمة والكراهية.

**الأول:** سمعت خطاب السيد إسماعيل الأزهري في حفلة التكريم غداء أقامه له مضيفه في السراة وتهماته سمو الأمير مشعل... كان خطاب الأزهري قلباً مفتوحاً، وفكراً غير مغلق.. يجيش العاطفة ويتحرر من القيود.. الشكران من سجايا الكرام، والسودان موطن الأكرمين، والصراحة من مزايا الرجال وإسماعيل الأزهري كان رجلاً حينما حيا الفيصل رائداً لدعوة التضامن الإسلامي، والتحية لدعوة هي أكثر من التأييد!

**الثانية:** .. وسمعت قصيدة «أحمد إبراهيم الغزاوي» شاعرنا الفحل أثبت وجودنا في نصاعة البيان، وجزالة السبك... طبق المحز على المفصل، ونزع إلى أعراق هي الأصيلة في مكة، وهي النبيلة من مكة!... وفي الحقيقة - وكثيراً ما قلتها له - إنني أعد الغزاوي رابع الأحمدين في جزالة اللفظ، وبراعة الصناعة.. هو رابع الأحمدين: أحمد المتنبى، أحمد المعري، أحمد شوقي، أحمد غزاوي.. أعده كذلك فاحراً

به .. شاكرًا له .. إنها طبيعة القلب المنفتح يُحب الثناء! .

**والثالثة:** قفشة الأستاذ قنديل .. نشرتها عكاظ أمس يتندر عليّ،  
والصواب معي .. ينفي الأستاذية والتلمذة، وهو غرق فيها إلى أذنيه ..  
فرغم أنفه - بهذه بس! - لا أرغم الله معطسه .. هو أستاذي وأنا  
تلميذه .. تواضع الكبرياء .. لا اتضاع المتكبرين .. لم تكن هذه القفشة  
خلف أذني، ولا وراء ظهري .. كانت أمامي، وفي بيتي، وهو ..

\* \* \*

\* الأستاذ الصديق «عبد الله عبد الرحمن جفري» أثار موضوعاً قيماً في  
الزاوية «مع الفجر» .. يفتش عن اسم الأديب من بلادنا، أو كاتب أو عالم  
في الموسوعات المطبوعة حديثاً فلم يجد واحداً قد ترجم له منسوباً إلى  
هذا البلد.

أنا معه في هذا الأشكال، ولست معه في وجود الألوفا من أبناء هذا  
البلد ..

الخليل بن أحمد واحد من الأزدد .. من السراة، وجابر بن حيان  
مثله .. ذكرت اسم هذين لأساير العصر يمجد المخترعين، أو الذين قدموا  
لهذا الإنسان ما كشف له الطريق نحو العلوم والأئمة من الصحابة والتابعين  
ومن بعدهم قد ملأنا الدنيا بأسمائهم .. بعلوم، ولكنهم قد ضاعوا منا في  
هذه الأومية التي صنعوها .. كل واحد منهم لا ينسب إلى بلده الخاص،  
ولا إلى التربة التي نشأ فيها، وإنما إلى عالمه المسلم، وقومه العرب!

لقد صنعنا هذه الأومية، ونحن الفاخرون بها، ولكنها في عصر  
العنعنات والنعرات سلبتنا الغوالي .. ضريبة دفعناها، ولا نسأل عن

الثلث... كل ما هنالك أن أكثر هذه الموسوعات مليئة بأسماء العلماء والأدباء من أبناء هذه الجزيرة العربية... فهل يقوم واحد بالتجريد... مجرد هذه الموسوعات ولو بالنقل عنها... ينشر فيها أسماء الأبناء لهذا التراب...؟

أطمع أن يكون... ولا تحسبوه دعوة لأقليمية، أو انتصاراً لنصرة، وإنما هو الإكبار لوطن!

فشكراً للسيد الكاتب... أتاح لي هذه الفرصة.

\* \* \*

\* إن أعشى همدان كان مع خالد بن عتاب بن ورقاء الرياحي بالري ودسبي، وكان الأعشى شاعر أهل اليمن بالكوفة وفارسهم، فلما قدم خالد من مغزاه خرج جواريه يتلقينه وفيهن أم ولد له كانت رفيعة القدر عنده، فجعل الناس يمرون عليها إلى أن جار بها الأعشى وهو على فرسه يميل يمينا ويسارا من النعاس، فقالت أم ولد خالد بن عتاب لجواريتها: إن امرأة خالد لتفاخرني بأبيها وعمها وأخيها وهل يزيدون على أن يكونوا مثل هذا الشيخ المرتعش، وسمعتها الأعشى فقال: من هذه؟ فقال له بعض الناس: هذه جارية خالد، فضحك وقال لها: إليك عني يالكعاء، ثم أنشأ يقول:

وما يدريك ما فرس جرور      وما يدريك ما حمل السلاح  
وما يدريك ما شيخ كبير      عداء الدهر عن سنن المراح  
فأقسم لو ركب الورد يوماً      وليلته إلى وضح الصباح  
إذا نظرت منك إلى مكان      كسحق البرد أو أثر الجراح

قال: فأصبحت الجارية فدخلت إلى خالد فشكت إليه الأعشى،

فقلت: والله ما تكرم ولقد اجترأ عليك! فقال لها: وما ذاك؟ فأخبرته أنها مرت برجل في وجه الصبح، ووصفته له وأنه سيِّها، فقال: ذلك أعشى همدان، فأني شيء قال لك؟ فأنشدت الأبيات، فبعث إلى الأعشى، فلما دخل عليه قال له: ما تقول؟ هذه زعمت أنك هجرتها، فقال: أساءت سمعاً إنما قلت:

مررت بنسوة متعطرات كضوء الصبح أو بيض الأداحي  
على شقر البغال قصدن قلبي بحسن الدل والحدق الملاح  
فقلت من الأطباء فقلن سرب بدوا لك من ظباء بني رياح

فقلت: لا والله، ما هكذا قال، وأعدت الأبيات، فقال له خالد: أما أنها لولا قد ولدت مني لوهبتها لك، ولكنني أفتدي جنيتها بمثل ثمنها. فدفعه إليه وقال له: أقسمت عليك يا أبا المصبح ألا تعيد في هذا المعنى شيئاً بعد ما فرط منك.

\* \* \*

\* سألني أحدهم: ما رأيك فيما قاله الأستاذ طاهر زمخشري من أن قصيدة «موقف وداع» للأستاذ حمزة شحاته أروع وأبدع من قصيدة «الأطلال» لإبراهيم ناجي؟! .

قلت لأحدهم هذا ردّ على سؤاله: الأطلال لوحة فنية تستغرق إمعان النظر لتسرق متعة النفس بعد أن أعطتها. . أما قصيدة حمزة شحاته فعدة لوحات تعطي تملأ حتى إذا طاف سارق للوحة منها جاءت الصور الأخرى تملأ فراغاً. . وليس هو الفراغ في مكان الصورة. . ولكنه الفراغ في الوجدان. .

. . الأطلال فن التحفة . . أما هذه - أعني موقف وداع - فتحفة فن . .  
الأطلال صورت واقعاً . . أما هذه فتصوير لوقائع يجد الآملون فيها  
افراح النفس . ويجد المتشائمون فيها أتراح التعقل .  
الأطلال حياتها في صوت «أم كلثوم» أما هذه فصوت حياتها في الأمانا  
نحن . . من آمالنا نحن .  
هل أنا مع الزمخشري أو ضده؟! .  
حال ينقصه الذي ينغصه . . كما يتعشقه الزمخشري . قالها صاحبه  
نثراً . . ويرويها الزمخشري شعراً .  
هل يستقيم الغزل في كلمة ناعمة مهففة . . يرسلها صديق قد نيف  
على الستين . . . إلى صديق سيدخل عامه الستين بعد شهرين؟؟ .  
الغزل لا يستقيم بين شيخ وشيخ . . ولكن التعبير كان غزلاً لو أغمض  
أحدهما عينيه ولم يقرأ . ولم يسمع العبارة . . إنها هدهدة لعواطفه . . دغدغة  
لأعصابه .  
لم يتقبلها غزلاً في جمال . ولا ثناء على كمال . . وإنما هو ارتاح لها .  
نام على فراش وثير . قال له : لقد أوحشتنا!! . والله مشتاقون .  
الألفاظ ليست إلا غزلاً . لو كانت من عمر الزهور ولكنها منه . وإليه .  
لم تكن إلا وثيقة يقرأ فيها شيئاً جديداً . أهو أشوق . والوحشة؟! أم لا هذه  
ولا تلك لأنها علامة خضراء كجواز مرور في طريق جديد لعلاقة جديدة .  
يرفعان بها أنقاضاً تراكمت على حب رجولي . وصدافة كان ينبغي أن تفرض  
لها الغدادة لئلا تضيع في السيادة ، ولتبقى الآن عبرة! .  
العلامة الخضراء يشقان بها السلوك في سبيل أن تمايز أحدهما على

الآخر بقيمة فينبغي أن يأخذ الآخر قيمة ما أعطى من حب .

\* \* \*

\* والله أبوه جبران حينما قال :

ما أظلم من يعطيك من يدك ليأخذك من قلبك .

وأصبح الآن عطاء باللسان، ليكون تكافؤاً في الأخذ. وفي العطاء .

\* محاضرة أعلن في الصحف أنها تلقى في نادي الوحدة الرياضي

بمكة فاتحة الموسم الثقافي فيه، وبعنوان «الغزل في الحجاز» .

وأحسب أن أستاذنا الدكتور فوزي البشبيشي قد أحكم صنعها في

وجدانه العامر، وأحسن أداءها بلسانه الهادر من فم أشدق . . كأنه أحد

الأشدقين فينا .

على صهواتنا فصحاء لسن، وقوة جياها خطباء شذق، لم يكتب لي

أن أحضرها سامعاً لأتعلم . . حبسني عنها حابس الفيل لأسباب طرأت،

فقهرت، ثم منعت، فحرمت .

الغزل في الحجاز؟ .

هذا الغزل أن أعطى الحجاز مكاناً علياً في الفن والموسيقى والأدب

فإنه يكاد يضيع المكان العلي في المجد لبلد صنع التاريخ للأمة العربية

كلها . . فالأمة الإسلامية بأسرها . هم عمدوا إلى تاريخ الغزل ليرضي

الراقصون والمترفون . . وأهملوا تاريخ التاريخ المجيد لهذا البلد المليء

بالأمثال والأمثلة في الجهاد والفتح والهداية والإمامة .

تعمدوا ذلك ليموت الطموح في وجدان الوارثين . أترفوهم فأفسدوهم

فجاء العرجي بدلاً عن جده عثمان، وجاءنا ابن أبي ربيعة بدلاً عن ابن عمه خالد بن الوليد.

الغزل هنا؟.

عمرت به كتب أمهات، من أجلها كتاب أم اسمه الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. فكلما طالعت صفحات منه. شعرت بالنخوة والعزة والطرب والنشوة لما صنع بلدي من هذا الفن الرفيع.

\* \* \*

\* كثيراً ما خدعت نفسي حين أنظر إلى كاتب فأرجح أنه لا يغضب من النقد.. ولكنني فجعت بأكثر من واحد يكربه النقد حتى يصل إلى نسيان أنه ناقد.. وأنه له جولات في هذا النقد قد حمل بها على كثيرين..

ينسى ذلك ليغضب من أبناء المهنة كأنما هو يخرج نفسه منها ليكون سلطاناً في مركزه يسخر بالناقدين فمن حق القلم عليه ألا يكتب ليكون الواجب عليه أن يردع الأفلام لا تنال منه بنقد. أولاً ولا تنوشه بتحليل.

خسارة أن يفقد الحرف قيمه عند كاتب الحرف؟!.

والاشتقاق من الجامد.. أحسبه المعين الذي لا ينضب.. يمد اللغة بمفردات كثيرة.. ولا أعرف سبباً يدعو لأن نقول قد أجازته مجمع اللغة.. فلقد كان واقعاً جائزاً من قبل المجمع.. قبل المجمع في مبرد البصرة.. وقبل المجمع في مبرد الكوفة.. فلقد ورثنا الاشتقاق من الذهب والسيف والفضة والحجر الحديد.. وغيرها. هذا الاشتقاق منها. فذهبت. وحجرت. وخشبت. وكلست. وجصصت وحددت.. والسياف ورثناها من قديم ليس بقرار من مجمع.. وإنما هو ترف اللسان العربي يأتي حضارياً

مرتفعاً من الناطق بالضاد من أهل البوادي الأميين فأعجب من بدوي في بيت شعر كأن هو مصدر لقاموس اللغة يدونها عمرو بن العلاء والأصمعي وابن السكيت.

إن هذا الاشتقاق من الجامد يفتح لنا باباً واسعاً يثري هذه اللغة حينما نضعه أساساً للتعريب.. فهذا الأمير: شكيب أرسلان يشتق من الجامد الأعجمي (تلفون) فيكتب وهو أمير البيان (لقد تلفنت لفلان).. وفي المغرب العربي تونسياً جزائرياً مغربياً قد اشتقوا من الجامد الأعجمي (تلفزيون) فهم يقولون التلفاز فقلدتهم فيما كتبت من قبل فأقول (تلفازنا).. تلفنت له) فبهذين الاشتقاقين عربنا بالاشتقاق الكلمة الأعجمية.. ولقد استظرف بعض الكتابين هذا الاشتقاق من الأرض حين كتبت الذين استأرضوا فقد اشتقت استأرض من الأرض.. ولست أرى عيباً في ذلك.

والعربي في باديتنا تستلمح منه كثيراً من هذا الاشتقاق.. سألت سائق سيارتي ولما يخلع من لسانه اللهجة البدوية وهو من عتبية.. فقد وقف بي أمام سيارة فقلت له.. لمن هذه السيارة؟ قال: هي سيارتي.. قبل يومين (تكستها) اشتق هذه اللفظة من التاكسي.. فلقد عربنا مرغمين كلمة تاكسي أنها اليوم أفصح وأرق من كلمة (سيارة أجرة).. فسيارة أجرة ترجمة لا تعريب.

وسائق دوسري أيام مؤتمر عكاظ كان يمسك شريط أغنية فسألته: ما هذا الشريط؟ قال: (الآن كسته) فاشتقه من الكاسيت لقد عربنا كاسيت بأنه شريط.. فلم يقل هذا البدوي العامي تعريفاً طويلاً: إنه شريط اشتريته وإنما قال كسته.. إن هذا الاشتقاق تعريب لا غبار عليه اختصر التعريف وحدد المعرفة. ولقد قرأت في المجلة العربية المغربية التي تصدر في المغرب

(اللسان العربي) قول الأستاذ: عبد الخالق حامد.. تفضيله تعبير العامة على تعبير الخاصة فهو يستحسن هذا الاسم (طيارة). يراه أفصح.. يحدد الواقع. أحسن من لفظة (طائرة).. فالعامة تقول (طيارة) والخاصة يقولون طائرة.. وطيارة فيها التحديد والمطابق لواقعها.. ولقد حاول المتفصحون أن يعربوا اللفظة (بنك) بالمصرف فلم ينتشر تعريبيهم وانتشرت كلمة (بنك) فأبي عيب أن نأخذها كاملة وفيها حرفان ذلقيان من الحروف الذلقية (فرمن لب) يطوعان عروبتها وهما الباء والنون ثم كلمة بنك أعجمي ساكن الوسط يجعله ذلك غير ممنوع من الصرف ثلاثية ساكنة الوسط. ولعلي في هذا الرأي أرحب برأي العميد الأستاذ طه حسين يرحمه الله.. فقد كان يقول: إن اللغة العربية نملكها ولا تملكنا، ولو عرفنا أن اللغة الفصيحة الآن لم تكن هي اللغة القديمة.. لقد تصفحت بإشراقه اللسان وترف الحنان. والأساس الأول فصاحة القرآن.. ثم فصاحة العرب فيما ورثناه عنهم حين تقارب لهجاتهم يوم قريهم الحج. وقربتهم الأسواق.

## تاريخ وحضارة وآثار

وأقبل عليّ من بعيد كأنما هو يسرع لئلا اختفي عنه في زحام الطريق  
الخاص بالشارين والباعة والمتسكعين .

ومد يده هاشا باشا، يسلم تسليم العارفين! .

- قلت: من الأخ؟ .

- قال: ألا تعرفني . . أنا فلان . كم لقيتك في مكان تشرب فيه القهوة .

- قلت: والله زمان: إنها السنون بدلت منك المعالم والشواهد .

- قال: ليست السنون هي التي تفعل، وإنما هو كرب النفوس ترتخي

أمامه أعصاب فتترهل . وتشتد أعصاب فتقوى وتصلب حتى يستقيم بها  
إنسان يمضغ الكارثة لتهرول هاربة .

- قلت: لا بأس عليك . . كيف هي؟ أصبح أنها احترقت؟ .

- قال: أو لم تعلم بذلك؟ .

- قلت: علمته متأخراً . كأنما هي كانت الحية التي ماتت في حياتها من

نفسى، لتصبح الميتة التي تعيش كل حياتها في نفسى . . ما أرق خطواتها،  
لا تثقل على النفس كأرق خواطرها متعة للفؤاد .

- قال: ما عجبك فيها؟ .

- قلت: قل ما أعجبني منها ولها! .

إنها لم تكن من علب الليل ، لأنها ليست نئوم الضحى .

كل حياتها صحوة ناعسة، وكل نومها يقظة صاحية صيغت من ترف الوجدان في فهمها وقلبها. فأسقطت شظف الحرمان من حياتها. . لأنها فن قائم، لا عضلات تقوم! فهي لم تكن الفاقدة الواجدة. ولكنها كانت الواحدة في شاعرها كل ما يفنيها عن عبث في الظلال. فالضحى هو الوضوح في حُلُقها وحَلَقها.

إني لا زلت أعشق ذكراها.

\* \* \*

\* وهذه صور في سريرتها جهر، وليس في جهرها همس، تقرأ الرسم ناطقاً يضحك بفخار، ويبكي الأحرار من هول الدمار. لحق الأرض من خلفاء الدفين الأستاذ.. يلقن التاريخ، ومن بروز المهين لا يعلن من عراقه، ولا يشق على صداقة!!.

وقرأت هذه القصاصة في عدد من أعداد المجلة «الأسبوع العربي» أحب أن تنظر إليها نظرة المحقق في الدفين الشجن.  
والنظرة الأولى عن وحدة الأثر في هذه الأمة فكل ما وجد هو برهان على ذلك...!!.

اكتشاف تماثيل ومومياء طيور في الكويت.

اكتشفت في منطقة سقارة في الكويت أثناء القيام ببعض الحفريات سرايب جديدة للطائر ايبيس والصقر المحنط، وهي تمتد نحو ١٢٥ متراً وترتفع عنها ٣٦ سرداباً، تتفرع بدورها إلى سرايب وتتكدس فيها الآلاف من مومياء الطيور. كما عثر على مجموعات كبيرة من التماثيل معظمها من

البرونز تمثل أشكالاً مختلفة من الصقور، وأخرى للنمس والطفل حورس والقرد وصناديق صغيرة من الحجر الجيري الأبيض تحوي لفائف بداخلها بعض الديدان المعدة لتكون غذاء للطائر المحنط في العالم الآخر.

ومن الموجودات التي عثر عليها أيضاً، مجموعة من اللوحات الفنية المختلفة تحمل نصوصاً باللغة الكارية ويعود عهدها إلى نحو ٥٠٠ عام قبل الميلاد. وقبل ذلك كشف سراديب ضخمة للبقرة المقدسة وهي تعتبر من أهم الكشوف الأثرية في القرن الحالي بعد توت عنخ آمون ومراكب الشمس في مصر.

\* \* \*

\* ولا أدري لماذا يغضب الرئيس من أي مقاس كبيراً أو صغيراً، إذا ما انتقدت عملاً قام به موظف تابع له؟.

فالمفروض أن هذا النقد، ما هو إلا تقرير قدم إلى الرئيس ليحاسب على النقض، ويردع عن السبب، ويحث على الكمال، ويقوم الخطأ والخاطئين، ويحمد لهم صوابهم لإعطائهم الثواب أو لإنزال العقاب!!  
لكنها عقدة «لطم الدابة لصاحبها».

فعند بعض الأخوان من هؤلاء أن نقدك لموظفه ما هو إلا حملة على الجهاز ورأسه فمعاليه.

إن الأمر غير ذلك «فالعقدة» داحس والغبراء أي لطمة الفرس التي أشعلت حرب غطفان بين عبس وذبيان «قد مضى عليها دهر» وأمات قراءها الإسلام.

فأرجو ألا يغضب الرؤساء والوزراء من نقد موظف أو مرفق فنحن

إخوانهم كل خير فيهم ومنهم هو لنا .

ورفقاً بالقوارير فقد أصبح القلم وصاحبه في رهانة القارورة! .

\* \* \*

\* العرب يؤرخون بالأحداث والأيام، فقد أرخوا بعام الفيل، وعام الرمادة، ويوم بعث، ويوم أغوات، وبأيام البسوس وداحس والغبراء .  
ومصر - العربية - في هذا العصر الحديث تظرفت فأرخت مرتين بعام (الكف) أي الصفة:

- عام .. أيام «علي يوسف». وعام .. أيام «أحمد ماهر وتوفيق دياب». ولعلمهم يؤرخون هذا العام بعام: (القبلة)!! .

ثم .. إنني أسأله: أين حضارة اليهود أو العبرانيين ... في أي مكان أقيمت .. في أي زمن نشأت؟ أتحداه أن يحدد الزمن أو المكان، فالحضارة إنسان وثقافة ووجدان ومكان، واليهود لم يمتد بهم زمان كزمن الفراعنة، أو عاد، أو ثمود، أو الكلدان أو غيرهم من أمتك العربية يا حسين فوزي . إن اليهود ليس لهم حضارة .. هم كالبوهيمين رحالة، سواء برغبتهم في الرحيل أو بطردهم .. لو قرأ «حسين فوزي» التاريخ جيداً لعرف أن هيكل سليمان لم يشارك في بنائه يهودي واحد، وإنما هم «فعلة» مستأجرون أو مرده مسخرون! .

لا حضارة لليهود، ولكن ... بعض هؤلاء: توفيق الحكيم أو حسين فوزي .. ردوا إلى أرذل العمر، أما جائزة نوبل فأبشر الأستاذ «رجاء» أنها ستعطي لأنيس منصور قبل حسين فوزي!!

الأستاذ «رجاء النقاش» أعطانا صورة جسّد فيها المأساة ... زعم أنه

يحذر الأدباء، مع إنني أتهمه أنه أراد أن يغري هؤلاء الأدباء ليفضحهم، فرجاء النقاش ينتهج أحياناً في أسلوبه الإغراء بالخلفيات، فالنتيجة التي يريدها ليس في ظاهر الأسلوب، وإنما في ما يخفي!.

أعجبني هذا المقال لأنه أعلن أن «رجاء» يستطيع أن يكون كاتباً حراً، فحين ما وجد الحرية التقطها، فأريد أن أحاوره على صورتين:

- الصورة الأولى: عن حسين فوزي - السنديباد - الذي لا يعرف أن ثمانين في المائة من المصريين لا يعرفونه، ولكن ٩٠٪ من العالم العربي يعرفونه. إن «حسين فوزي» حين ذكر الحضارة العبرية كان خائفاً من المجازفة يسير بها الباطل، فلم يقل اليهودية مع أن العبرانيين بعد أن كانوا بدواً أصحاب العير والبعير لم يعرف لهم شأن إلا لأنهم اليهود، فإطلاق العبرانية عليهم أو العبرية نظرية يختفي في ظلها «حسين فوزي»!.

في قصة الآستانة، والجيش الروسي حولها، كان الصدر الأعظم - هو: «دلي فؤاد»، أي المجنون فؤاد، لقبوه بذلك لفرط ذكائه، وهو جد «فؤاد كوبرولو» صاحب الأزمة بين العلاقات التركية وجمال عبد الناصر!.

جلس «دلي فؤاد» أو الصدر الأعظم يفكر.. يتلقى الأخبار عن مؤتمر برلين، فإذا كبير الأغوات مر على «السلمك» ليدخل على «الحرملك» فرأى الصدر الأعظم ساهماً يفكر، فقال:

- (ايش يا باشا.. . له زعلان يا باشا)؟!.

- فقال الصدر: (دعني وشأني)!.!

ولما كاد يذهب، خاف الباشا من أن يذهب الأغا إلى «الحرملك» يغري به (الجوزيتا) أي الوردة الحمراء.. السيدة الأولى في «الحرملك» عند

السلطان عبد الحميد، فناداه... يقول للأغا...

- أنت ما تشوف الجيش الروسي على أبواب اسطنبول؟! .

- فضحك الأغا يقهقه: (يو يا باشا... وحين سلطان يأمر. يخرج

الصنجدك. يجي البكطاشي شيخ الطريق. يقرأ مثنوي مولانا جلال الدين

رومي. كله روس. كله جيش هف هف) يعني أن الجيش سيتطاير! .

وذهب الأغا إلى الحرملك. فتتنفس الصدر الأعظم الصعداء.. يرفع

يديه إلى السماء يدعو: (يا رب تعطيني عقله استريح، أو يأخذ هو عقلي

فيجن)! .

ما أحلى جرسها حين سمعناها بالتركية، أوليست في هذه الصورة صور

تشبهها؟! .

## ثقافة

\* وتختلف المقاييس كأنما هي وجهة نظر.. قد يغتفر ذلك لو كان ذوقاً أما أن يكون قانوناً أو عملاً فإن هذا يحتاج إلى دليل قد لا تصل فيه إلى التعادلة.. وإنما ينبغي ألا تصل فيه إلى إهدار القيم!.

تسمع هذا يصدر حكمه.. فلان لا يصلح.. تسأله ما الدليل؟. إن تواضع : «فيه أسباب!!» وإذا أخذته العزة قال: «هكذا خلقت أو نحن نرى ذلك».

والآخر يسألك: لماذا تختار هذه «التكويعة»؟! فلا يقنعه منك أن تقول «لأستريح» كل ما يريد املاءه عليك أن تجلس كما يشتهي!!.

ليس الدفاع عن الرأي أن تكون مندفعاً إلى ذلك دون اقتناع.. إنك إن عملت تصبح بوقاً لا نافخاً. التقييم لكل شيء لا يصدر عن الهوى.. إنما يصدر عن العدل والمقارنة.. بالموازنة. بالحاجة الداعية.. بالضرر الناجم.. بالمنفعة.

لم يصبح التقييم للأشياء فكراً أو مادة بلا فكر.. بلا كيان.. حينما يصبح اتعاضاً تصبح القيم في سوق كسوق الرقيق.

سألته مرة: ألم تقرأ نهج البلاغة؟ قال: لم أقرأه.. لأن شارحه «ابن أبي الحديد» يخيف.. أخشى أن يدخل على شيء مما يذهب إليه.

قلت له: النظرة العاجلة تعطيني أنك أهدرت قيمة المنهج بتقييم أنت تفرضه لتكون الصورة معبرة تقول «أنت في كفة.. ونهج البلاغة في كفة» مع أن القيمة لأي كتاب أكبر من قيمة أي قارئ بصرف النظر عما يذهب إليه ليأتي التقييم لهذه الآراء رفضاً أو متقبلاً من قيمة الفكر يرفض الباطل ويقتنع بالحق.

أي القارئين يحترمهما الكاتب؟ هل يفرح بالقارئ. المناكف الذكي إلى بعيد.. والغبي إلى أبعد الذي «يفلي» ما تكتب تفلية. ليتسقط الهفوة، أو هو بعكس ما تريد إلى ما يريده هو من فهم ينحرف عن القصد منك للقصد منه.

يسقط على الهفوات ولو بطريقة «تقصيع» القملات. أم هو الفرح بالقارئ الأمعة الذي يستطيع ما يقرأ لك حياً أو نصرة أو تعصباً. فلا يشعرك بشيء من العناد منه يثيره فيك كرد فعل؟.

أنا شخصياً أفضل القارئ المناكف. يفلي الكلمة. ينبش عن ما فيها ليذيع الهفوة. يمسك بالهاتفون. يشكو. يسخر. يشتم. أنه بهذا معك. لك على صورة هو فيها ضدك، لأنه أصبح يريد مشاء يمشي على أسلاك الهاتفون. ينشر ما كتبت. يغري قارئاً آخر ليقراً. لعله إن جاء معه أصبحا الداعيتين. وإن جاء ضده احتدم عراك بينهما لحسابك.

هو بالمناكفة والرفض قد هضم ومثل ثم يفرّع عنك الفروع كمشروع بناء جديد ذلك. الإيجاب من قارئ فيه الاعتزاز. والسلب من قارئ فيه الحوافز، تلك رصيد تصرف منه. وهذا رصيد تزيد به الوديعة من حسابك في بنك رأس ماله القارئون لك على الحاليين سواء. بس هي واحدة تأخذها

على الغبي إلا بعد هي أن يترك الكل الطيب . ويأخذ لفضة يحسبها عليك  
ويحاسبك بها .

\* \* \*

\* بين يديّ كتب أربعة! . . . أيها أقرأ؟ لا محالة من البداية بقراءة  
كاتب تعرفه، قرأت له من قبل فألفته، أو أنك لقيته فعرفته، فصنع حباً له  
في وجدانك .

وبدأت أقرأ لكاتب عرفته وأحببته، حتى إذا استرحت إلى شيء من  
الفهم لما يريد . . أخذني الشره للمعرفة أن أفتح كتاباً ثانياً لكاتب لم  
أحرص على قراءة ما كتب ورأيته منشوراً .

ولكن الرفض لكاتب من أجل مقال واحد، عمل المراهقين فكرياً .  
ذلك أن حينما بدأت أقرأ لهذا الذي رفضت، وجدتهني أرتاح . أستفيد . أترك  
كتاب صاحبي . وأجلس إلى كتاب مرفوض .

فأحكامنا العاجلة تقتل المعرفة بباطل الاستعجال . فمقادير الرجال ليست  
بهذه السهولة توزن تقبل أو ترفض . أن الصداقة عبء ثقيل، إذا ما كلفك  
الرضا عن كل ما يأتيه صديق .

وإن مقادير الرجال لها صبر وخبرة وفحص وإدراك فلا تهدر برفض  
عاجل عن نزوة طافحة طار بها هو «الغتبرة» النفسية . فإن الغبار النفسي غثار  
لا يمضي بك إلى غيرك فأقصره بنفسك . . . فإنه إن مضى بك إلى أن  
تسدله على الآخرين كنت في الجائرين لتصبح من الحائرين .

وألقيت هذا الكتاب، وأخذت الرابع، فإذا هو كله على نسق منسق،  
من أنثى بأسلوب فحل . كأنها تعرض أنوثتها كعاطفة بفكر ذكر! .

وقد كنت من السابقين الذين قالوا: لا أدب نسوة. لا أدب رجال. كل الأدب!. إن هذه الكاتبة بأسلوبها الفحل أفرحتني. لأنني وجدت الحرف الذكر على ريشته فواحة بعطر. بواحة عن فكر ريشتها وهي ترفرف بالحروف تسريحة. قد طلعت في نفسي وفرة على رأس فارس فوق صهوة الحصان الأشقر!!.

قال لي: ما هذا الذي أراه كل ما أدخل عنك. وجدتك تقراً؟.

وقلت له: إنها صناعتي الآن.. أقرأ لأتعلم، ولأعلم.. ثم القراءة لذيدة، وحلوة ومفيدة.. وألذ منها أنها علاج الفراغ.. تطرد أحلام اليقظة.. لئلا يكون الجنون، فهي صمام الأمان للعقل قبل أن تكون نوراً للعقل.. واستقامة العاطفة.. أنها توضح الطريق كما أنها - والحق يقال - قد تلغي معالم طريق!.

- وقال لي: طيب... أي شهادة تحمل؟.

- وقلت له: قول ابتدائية.. أرفعها شوية إلى كفاءة.. بس لا تزيد، ما كان عندنا مدارس مثل المدارس عندكم، ولا جامعات ولا ابتعاث.. قسمة ونصيب!.

- وقال: بس ابتدائية.. يعني أنا بعد سنة أصير زيك؟.

- قلت: ليس المهم أن تكون بعد سنة مثلي، ولكن الأهم أن تكون بعد سنوات أحسن مني.. بكالوريوس.. ماجستير، دكتوراه!.

- وقال: ما كان أحسن لو ما أتعلمت؟.

- قلت له: كان أحسن، ويا ليت.. بس أنت غلطان.. أنا ما زلت غير متعلم.. أنا قارئ فقط لا غير. أحترف الكتابة «شغلانة»!.

- وقال: لكن القراءة ما تعلم؟ .
- قلت: إنها سلاح ذو حدين.. فأحياناً تكون هي المجهولة للذين يقرأون الكتاب من الصفحة الأخيرة! .
- ولقيته مصادفة يسافر في الطائرة التي أصلها كراكب إلى الرياض.. .  
وتحدثنا في أشياء تهمني، وأشياء عامة. تقتل الوقت حتى يؤذن لنا بالركوب.  
وفي اليوم الثاني، وبعد مغربه خرجت من القصر العامر لأركب  
«التاكسي» كان في انتظاري فعزم على أن أركب معه... . وذهب سائق  
التاكسي مسرعاً وراضياً.. . وركبت معه في سيارته «المرسيدس».. .
- فقال لي: أنت تكتب في عكاظ؟ إني أقرأ لكم جميعاً.. .
- قلت: شكراً، وهل تجدنا على طريق يرضيك؟ .
- قال: إني أشعر بأن «عكاظ» تتقدم في نسبة مضطردة، ففيها ما يطيب  
لي أن أقرأه.
- قلت: وما السبب؟ .
- قال: إني أحس وألمس أن الكاتيبين والقائمين عليها يقرأون، فهم  
يريدون المعرفة لديهم.
- قلت: وهل تحترم القراءة إلى هذا الحد؟ .
- قال: ألم تسمع ما قالوا: أن كاتباً لا يقرأ يصبح بعد حين قارئاً لا  
يفهم؟ .
- قلت: وأن قارئاً لا يكتب أصبح هو الواقف على قارعة الطريق يسأل  
أين الاتجاه! .

وتركته مودعاً، أو هو تركني مودعاً يسير إلى مكان يريح عند أهل وأخوة..

- وسألت نفسي: أهى حملتنا في الدعوة إلى القراءة قد وجدت رجالاً هم أشد حماسة منا؟.

لقد وجدت الجواب عند محدثي الصديق الودود الفاهم الأخ عبد العزيز بابطين.. متعه الله بالكتاب يقرأه، وتمع أصدقاءه بالأخاء والوفاء.

\* \* \*

\* الصديق «بدر كريم» قد لا يعرف أحد أنه هو الدافع «لكلمة ونص».. ولا أكتم سرّاً ذا ما قلت أن كثيراً من الحلقات الجادة كان يفضل عليها بعض الحلقات الشعبية.

مسلك إذاعي تطور إلى مسلك شخصي انتهجه ساعة جد. وساعة حكاية.. الكل لا يخلو من مغزى، وليس المعنى في بطن الشاعر، وإنما هو في فهم الشعارين كلهم أعرف الكثرة الكاثرة شاكرة معجبة!. ولقيته اليوم بعد خروجي من تسجيل الحلقات، فقال ضاحكاً:

بعض الناس يقولون أن صاحب «كلمة ونص» قد أصفى. يعني انتهى.. لأنه يأتي ببعض الحكايات.. يتكلم عن الشارع.. عن الخيام، وقلت له: أليس من حظ الإذاعة أن يكون للكلمة مغزاها وهدفها?... وهذا في الحكاية أعمق.. ومن ناحية أخرى ماذا يريد عجوز الأفراح المتبطل بقوله «أصفى».

.. أنا لا أدعي الامتلاء فهذا ورم، ولا أملك من الثروة الصالحة

لكلمة ونص الكمية التي لا تنفذ غير أني في كل لحظة أملك أن أكون  
المليونير في الكلمة .

ثراء . . ليس هو في ، ولكنه مني . . من الكتاب . . من المكتبة . . لقد  
جهل هذا الأحمق أن المكتبة العربية غنية ممتعة . . مغنية . . فيها من الروافد  
ما يجعل المطالع لها يستحوذ على العدة ، والاستعداد! . .

هو لم ينتقدي ، ولكنه انتقص المكتبة . . ذلك لأنه - في يقيني - عجوز  
أفراح لم يفتح كتاباً ليقراً ، ومالي لا أقول لعله أحد الذين ذاق لسعة من  
سياطي «أكرجه» لأنه يستاهل هذه الكريجة .

هل يرفع رأسه ويقول: نحن هنا؟!!

## تعليم وأخلاقيات

والشيء بالشيء يذكر . .

دخلت السنة الأولى الابتدائية ألقى الحصة المقررة، كانت في المحفوظات، كما كنا نسميها أيام زمان.

وسألني أحد التلامذة وعيناه تلمعان بالإشارة إلى زملائه كأنه يقول لهم: لقد كفيتم: أو يقول لي: إنه السؤال الجماعي قررنا أن نسألك عنه.

وفتح صفحة من كتاب التجويد المقرر، يشير بإصبعه إلى هامشه . . فيه شرح لما فوق في العدد المتن.

هكذا كان ما أشار إليه:

آه . . عيني. على البخاري؟ فما معنى هذا يا أستاذ؟

وحسبته السؤال المجرد لا شيء قبله، ولا شيء بعده . . وأجبتهم. يعني انتهى نقلاً عن شرح الإمام العيني على الجامع الصحيح للبخاري.

ورأيت العجب والفرحة على الوجوه.

أي عجب في ذلك؟.

قالوا سألنا أستاذ المادة صاحب الحصة فقال:

آه يا عيني على البخاري. لم يعرف الإجابة مثلك . . وأبنت لهم مكان

الأستاذ من اختصاصه. تعلمنا منه القرآن والتجويد وكأحسن ما يكون المعلم.. ولا يعيبه إن لم يعرف الرمز!.

وقنعوا، وأنا منهم، وخرجت أفق مع أستاذي أقبل يديه.. وقبلوا يده معي كعادة لم نتركها حتى الأمس القريب.

لم ينقصهم شيء: ولم يزدني شيئاً إلا أنني لا زلت أعرف القدر لمن علمني حرفاً. الحكاية صحيحة. أحد التلامذة حينذاك السيد ياسين طه وهو يشهد بها.. والتلميذ السائل كان محمد مدني عاكف ولا أدري أين هو الآن. لعله في المنطقة الشرقية كما كان من زمن.

\* \* \*

\* يا عظمة.. يا عظمة.. يا فتح.. نحن على الطريق!! كلمة صرخت بها وحدي حتى تلفت سائق السيارة.. يسأل: ماذا أصاب راكبها حتى يهتف بصوت جهير.. يا عظمة.. يا فتح؟!

كان المنظر الهاتف في نفسي، وهو المهتف لها بصوت عال هو منظر العديد من البنات بجلابيب سمراء «رصاصية» على وجوه سمر فوق أرض سمراء. هن صغيرات.. بنات البدو الذين تحضروا حول أكناف الشجر «جدة» رأيتهن أقبلن أسراباً، في شارع الجامعة - وكنت عائداً منها بعد ظهر الأحد الماضي - ما كدت أراهن حتى لفني شيء في وجداني هتف بي لأهتف به، فالفرحة قالت، والأمل تكلم.. يا عظمة.. يا عظمة.. يا فتح. نحن إذن على الطريق.

قال السائق: ليش؟ ليش؟.

قلت: ألا ترى بنات عمك؟! ألا تراهن تلميذات؟ إنني حين أرى ابن

هذا التراب، أو بنت هذه الأرض «حضریات» بعد التبدی، ویدرسان ویکدحان، یدهبان إلى الطیب أشعر براحة وفرحة وتفاؤل..

أنا من جیل ذاق الحرمان والشطف، جاع إلى المعرفة، وتعب حتى استثار له ذهن.. سمیتنا من قبل.. جیل التجربة. وسمیتنا بعد جیل الحمد. فعلى أجيال تجد الشبع أن تبني لتشبع وتعمّر وتشکر هي حتى تشکر من الذين بعدها.

فلقد جمعنا فلما وجدنا الخبز حمدنا، ويشبع غيرنا من آكال ترف منعم فعليهم أن يصنعوا لنا الفرحة بهم إشراقاً لأمل هم صانعوه.

قال طلعت باشا حرب لعبد الله السليمان الحمدان رحمهما الله...  
تعليقاً على كلام مني.. قلت لهما حين زارا دار الأيتام في المدينة المنورة:  
شوف يا معالي الوزير.. البدوي اللي تحببه من الجبل وتعلمه تبني به بناء أمتك.

بناتنا في بيوت الشعر والأكواخ يتعلمن!!

يا عظمة.. يا فتح.. فنحن إذا على الطريق!!

\* \* \*

\* ونزلت أستقبل زائري من الإخوان.. أجلس في بهاء الدين. وأقبل الصديق عارف برادة وبعد التحية والسلام. والحديث والكلام كعادة المسلمين والقادمين. قال عارف: عظم الله أجرك في عبد العزيز بري. لقد مات قبل أيام!.

وضاع الحزن في غمرة الغرابة والعجب.. تنقضي أيام يموت فيها أبو أحمد. صديق قديم ولا أسمع عنه خبراً في بريد.. أو صحيفة!. أين

أصدقائه المنتشرون في الصحف والمجالس والأسواق وترحمت عليه .  
أرجع إلى نفسي أسألها؟ ماذا يحزنك عليه؟ لقد مضت مدة من السنين لم  
يتم فيها لقاء!. ولكن هل تمحو الأيام ما رسخته الأيام؟ لا . ولا .  
فالذاكرون بالإحساس والمشاعر تثور في نفوسهم ذكريات حبيب إليها كل  
شيء فيها .

عبد العزيز بري من بيت عريق في المدينة المنورة . حتى إذا ما أرخ  
لها في دائرة معارف ذكر هذا البيت بيت البري بيت علم وقضاء وخير ،  
أذكر أنني قرأت في دائرة معارف فريد وجدي ، أنهم أسرة مضى عليها في  
المدينة أكثر من ستمائة عام ولعل السخاوي قد ذكر أحاداً منهم . هو بعيد  
عني الآن لأرجع إليه .

العراقة في العلم والأصل جعلت من عبد العزيز بري يحب العلم  
والعماء ، فلقد رأيت له موقفاً كان الحديث منه موجهاً إلي في بيته في  
الربيع!. قال اسمع: إن الشيخ محمود شوبل ذهب الآن وهو في كربة .  
فاذهب إلى أهله وقل لهم أن عبد العزيز بري يكفل لكم كل شيء تحتاجونه  
في غياب أبيكم . كلمة قالها أبو أحمد . . عرفنتي مقدار الرجولة فيه . قالها  
شجاعاً لا يخشاها ، ولربما لا يبخل بها .

قالها ولم يكن صديقاً لمحمود شوبل . قالها بعض السامعين لها ممن  
للشيخ عليهم معروف وهم القادرون .

يومها عرفت لعبد العزيز بري قدره . يرحمه الله أبا أحمد . فقد كان  
رجلاً فيه صلابة البدوي . ودمائة الحضري ، وكرامة المزيغ من اثنين .

\* والحديث ذو شجون!

والشجون هنا في كلمة.. . نقطعها في كلمات، لتصل في واحدة، ولنفرق آحاداً! .

\* الأخلاقيون غالباً ما يقعون - ومن أنفسهم - لعبة أو لقمة سائغة، أو مضغة في يد وحك ولسان اللاأخلاقي، ثقة الأخلاق... . وضعة الفسق! .

\* الأخلاقيون لا يصنعون صناعة.. . أي لا يكونون جماعة، فالواحد لذاته بذاته اعتماداً واعتماداً.. . ليس لهم الشكل المتآمر أو المقامر والمغامر.. . لا يتكتلون. ليسوا «كالبيض الخسران يتدحرج على بعضه» .

\* الأخلاقي بعيد أن يدمر حبيبك، والنقيض يسعى بعد الحبيب لتدمير الغيبة نهشاً لعرض، وانتهاز لغرض.. . وابتزازاً لعرض.

فالأخلاقي ليس حذراً بل هو «مدب» ولا هو المعد للدفاع والمقاومة فالحذر والتربص والتلصص والدفاع والمقاومة كلها أسلحة اللاأخلاقي... . ذلك لا يدري، وهذا يدري! يدري ما فيه من نقائص، وانتهاز وابتزاز يسلمح نفسه بـ «الاكليشة الصفراء» والانسداح الناعم. حتى الدمعة اللامعة، تفضح نفسها! .

\* الأخلاقي لا يخضع «لشلة» تلقنه. تحقنه بالآراء والأفكار! أما النقيض من المزمرة «إياها» يعني «الشلة» «إياهم» فعنده «غسيل مخ» مصنوع فكر مسير بالكرهية. تعطي لها جرعات! .

والكلمة تأخذ بمجامع القلب في التوقيت التي تعده لها التلقائية في ظاهر الأمر... . أو التلبانية في مطلب الروح.. .

لا أدري كيف تحدث بالكلمة أستاذنا الشيخ صالح بن عثيمين؟! لم

يكن هناك باعث عليها. وليس في نفس أحدنا طلب لها!! .  
ولكنها حينما أثرت بنفوسنا جاءت الإجابة على السؤال المستكن  
استخفي ولم يخف.. .  
قفز الشيخ صالح بن عثيمين يتحدث عن الحسن البصري كأنما هو  
يرسم لي طريق هداية.  
قال: نقلوا عن الحسن البصري ربيب أم سلمة خريج بيت النبوة...  
المنشأ في وادي القرى.  
قال: لو لم يعظ الناس إلا معصوم... لما وعظهم إلا نبي... العنب  
يحملة الحمار وأنت تأكل العنب ولا تأكل الحمار.  
لقد فتح لي طريق هداية بهذه الكلمة لأفتح طريق العظة للسليبين...  
يمنعهم العجز يقولون: وأنا مالي!! ولأهمس في أذن الطهريين يترفعون  
بالتعجيز.. يخدعون أنفسهم بأن الواحد منهم هو المبرأ الموفور.  
كل ما يعنيه الحسن البصري قد جاء في الأثر... الحكمة ضالة  
المؤمن... أينما وجدها التقطها.  
هي كالعنب على ظهر الحمار.. تأكل العنب ولا تأكل الحمار!! .  
والحمار يحمل أسفاراً.  
هو المعيب يحمل ما لا يفهم، وأنت لا تعاب حينما تقرأ السفر يحملة  
الحمار.

## النفس البشرية

\* عجيب أمر الوجدان في إنسان محس!

كلما ارتفع إحساسه زاد ألمه.. هو يعيش مشكلته... أحزانه... تبعاته... يفهم الأسباب. وينكر الوسائل... كل ما يتمناه أن يكون واقعه غير هذا... لأنه لا يريد أن يعيش المشكلة، والأحزان ليتفرغ للتبعات!.

لم يشك لأحد، ولم يتبرم لأن كبريائه يمنعه... هو يخشى الإشفاق أكثر من خشيته للشماته... فالشماته صراحة واضحة قد يستطيع رفضها أو تجنبها، أو حتى هضمها... أما الإشفاق فشماته مقنعة فيها إذلال من مواجهة لا يستطيع لها رداً... لأنها باسم الصداقة!.

لديه القدرة على الصمت الوقور. ولديه السعة في الكلمة المترفة وفي المناعة في الضحكة المسيطرة على مظهره أمام الأصدقاء، أو من قارب ادعاء الصداقة.. ليست المشكلة أن يكون لك أعداء فقد يكون مع هذا قوة عضل عقلي، ونفسي، أو حتى سلوكي... لكن المشكلة أن يكون لك أصدقاء.. لا تعرف كيف ترضي بهجة اللقاء في وجوههم حينما يقابلون الحسرة على وجه صديق... بالإنكسار المتوقع اللئيم!.

هو كل هذا فيه... ولكنني رأيت ساعة أن أخبرته بما ألمه من حال صديق عزيز عنده غال عليه... سمع الخبر.. فأن، واكفهر، وحزن، ثم

صرخ: لا أطيق كل هذا... ما كان لحسابي تحملته، أما ما هو لحسابه فلا أستطيع!.

وحملته بالحديث.. أنقله إلى أمتع ما يكون من القصة «إياها».. اقرأ، ويقراً... أو أسمع له ما يكتب.. فإذا القصة نفسها الممتعة أمس.. هي القصة نفسها المكدره اليوم..

عجيب أمر هذا الوجدان.. يآلم لغيره أكثر مما يآلم لنفسه.. إنه إنسان يعيش حياته في قصة، أو هو قصة من حياة... الإمتاع فيها حيناً يصبح موضوع القصة خبر مضي وكان!!.

وحدثني صديق كان يعالجه الدكتور البار أنور المفتي رحمه الله... قال: وكشف عَلِيَّ الدكتور أنور، فقال لي: أنت تحتاج إلى انفعالات... لا بد أن تجزع، وتفرح، وتغتاظ، وتغضب... إن الركود إبقاء لدم الإنسان وأعصابه في حالة جمود فذهول فتبلد...

إن مرضك لا بد له من الإنفعال. وسمع صديق آخر فقال: كنت أعالج بنتاً لي في «فيينا» وكشف عليها الطبيب فإذا هو يضربها بشدة على فخذاها فأبكاها... وسكنها يرضيها بشيء من «الدحلسة» فهي طفلة، فلما سكنت ضربها مرة أخرى... ضربة حارة، ثم سكنها... وقال: إلبسي ثيابك... خذوا ببتكم فقد شفيت..

وعجبنا منه.. ولكنها كما تقول: الانفعالات... الانفعالات... واستمعت إليهما ثم قلت لهما: ها أنتم ترون الطب الحديث قد فعل ذلك وصنع الانفعال!.. ولعلكم لم تسمعوا ما طوته كتبكم «الصفراء» كما تسمونها...

فقد تحدثوا أن الطبيب العربي المسلم في بغداد واسمه المشهور به

«القطيعي» قد صنع مثل هذا الطيب في فيينا... .

جاءوا به إلى شاب أبوه ثري عجز عن مداواته من همدة يسكن فيها  
عن الحركة والنطق. فقال الطبيب هاتوا رجلاً جلدًا قوياً ومعه عصا... .  
فسألوه: ماذا تصنع بها؟.

قال: أضربه بها... . أترك الرجل يجلده!.. . فرضي أبوه بهذه  
الوصفة... . وضربه الرجل عشر ضربات فتحرك المريض... . ثم قرعه بعشر  
آخر، فجس نبضه، فبان السرور على وجه الطبيب، ثم قال: اضربه عشراً  
أخرى وضربه، فصحا الشاب يطلب الطعام، ولا يكاد يذكر أنه ضرب هذا  
الضرب الشديد... .

لقد شفي بالانفعالات... .

إياكم أن تناموا دون انفعالات بالنهار!... .

\* \* \*

\* حوار في غفوة من نعاس، ليس في السبات، وإنما هو الامنة!  
«حلم في يقظة، أو هو يقظة من حلم».

ولم يكد يغمض عينيه حتى رآها، وقد أخذت تدير أرقام التلفزيون. تريد  
أن تتلفن له. تناديه تسمع صوته!.

وسألت نفسها:

أي شيء هو لي؟.

وقالت النفس: ليست المشكلة في أنه لك، فهو على أي صورة لا  
يكون المشكلة إذا كان لك. عند ذلك يكون الامتلاك!.

إن المشكلة في السؤال ينعكس من سؤالك، وهو... هو أي شيء فيه أنت تكونين... فعندها إن لم يكن الامتلاك فيكون إشغال لمكان ولو على طريقة الحكر في الوقف. لا على طريق الاحتكار بالتوقيف!

وارتاحت إلى غير المنظور، وإلى غير المنتظر. إلى المقدور ثم تنفست «كتنفس الطيبي الغرير» وقالت: لا هو لي، ولا أنا له بالمعنى الذي تعارف عليه أصحاب «الأنا».

كل منا للواحد المثنى فيه إذا ما طرحنا المقدرة على الامتلاك، والكفاءة في التملك من عدم التكافؤ في الإرادة.

عدم التكافؤ في الإرادة شيء لا إرادي تنعدم به الرغبة في تحقيق الرغبة. وإن كان المطلب هو عز الطلب!

الإرادة قيمة في شيء تعتممه. لشيء تخطط له. لكن هذا الذي هو فيه، أهو لي، أو هو منا نحن الاثنين لم يكن.

\* \* \*

\* سؤال أفلا تعرفه؟! صفه لي!! وعدد الأسماء..

وأجبت: أنت تعرفه، فقد قرأت له، أو سمعت عنه فلا أحسبك تريد زيادة في ذلك أنت خبير.

تريد أن تعرف من هم؟ من خلال التجربة والممارسة. خذ جوابك.

١ - هذا كبيرهم الذي علمهم السحر (فنفذوا من السير على تعاليمه كما يخرج السهم من الرمية) لأنه إذا ما رأى الفتى الغريق يرمي على رأسه حجراً ليطمئن على غرقه وليمشي بعدها صامتاً يضحك.

٢ - إذا رأى الفتى الغريق لا يلقي عليه الحجر وإنما يسرع بعيداً يقول:  
أنا مالي إن كان له عمر يعيش .

٣ - يرى الفتى الغريق فيقول: مسكين يا ناس لا يغرق... يرتفع  
صراخه فإن نجا قال: أنا أنقذته جمعت الناس وإن غرق قال: أهى «كتبه»  
ونصيب .

أما الرابع والخامس فيخلع كل منهما ثوبه لينقذ الفتى من الغرق...  
منع بالإجابة وعرف من هم فهم تعرفهم؟! .

## الحب

وجاء يحمل نفسه إلى بيتي... هو شاب لا أعرفه، ولم أره من قبل!!.

عرفني بنفسه إسماً وعائلة ثم شرح حاله!! قال: أنا شاب وموظف خطبت ابنة عمي فرضي أبوها فكانت فرحة متعت بها. وتم عقد النكاح وتحدد بعد أجل شهر الزفاف...

كانت أمها بعيدة عن أبيها هي وأبناؤها معه... لأنه تزوج غيرها. واحتفظ بعروس عنده.. وسمعت الأم بما تم من عقد زواجي عليها فأخذت تعارض. لأنها تريد تزويجها من قريب لأمها.

وبينما العروس في ذات صباح تعد نفسها لأمل الفتاة جاء أخوها يدعوها لتزور أمها فذهبت فرحة... فكل بنت وكل ابن يحب أن يرى أمه أكثر مما يرى أباه...

وذهبت وأبقتها الأم أياماً لا يسأل الأب عنها، لأنه لا يريد النكد، ولا يحب أن يحرم أمماً من بنتها.

وهناك أخذوا يغرونها بتركي. وطلب الطلاق فرفضت. وأحبت أن تتصل بي فلم تجد فرصة. ولم تجد هذه الفرصة لتعلم أباها. وأرادت الخروج فمنعوها.

وشددوا عليها بكل وسائل الإغراء والذم والضغط حتى ضاقت . تبكي فلم يرحموها .

وأخيراً غافلتهم فأشعلت النار في نفسها بالغاز واحترقت . . . فنقلوها إلى المستشفى تمرض . . . وأرسلوا إليّ لأراها . . . وذهبت فلم أجد إلا جسماً محترقاً يئن ويصرخ . . . فبكيت وبكيت . . . ثم بعد يوم ماتت ، وتركتني أعيش كميت أياماً . ولعلي أنساها . لأنها كانت حبي وسعادتي . وسكت بعين دامعة .

وقلت له : هكذا الجهل . هكذا الشهوات . . . الأم قتلت بنتها . بكراهيتها للأب وأقاربه . ولم تحسب حساب العاطفة والرحمة لبنتها . . . غفرانك يا ربي لهما جميعاً فأنت أرحم الراحمين . .

\* \* \*

\* قال : ما أنت عليه اليوم؟ .

قلت : في ضيم المحبين ، وراحة الكارهين!! فالحب يضيّم رغم أنه المسعد ، فإذا أنت لم تحمله بما يحمله ويكمله أضمته فأضامك .

والكراهية راحة لأنك مهما استرذلت في تصرف وجدت المبرر والحافز . الكراهية تميت لأنها تنحرف به عن إيصال الخير . لأحداث الشر .

قال : ما الفرق بين الحيوان والإنسان في الحب والكراهية؟ .

قلت : الحيوان يحب ولا يكره . . حتى عدوانه على فريسته حب لا كراهية فيه . . غريزة تريد الحياة من حب الحياة!! . فالذئب إذا ما هرب من الكلب فإنه هروب من الخوف . . لا هرب الكارهين . وإذا ما أكل الشاة فأكلة المحب!! .

قال: ذئب وشاة لا أريد ذكرهما. . . إني أكره الذئب. وأحب الشاة.  
قلت: إنك لا تكره الذئب فأنت تخافه. . . ولكنك تحب الشاة لأنها  
أرضعتك أولاً وتأكلها ثانياً. . . فأيكما أشد حبا لها؟ أنت؟ أم الذئب.  
أنت تحب الشاة مرضعة تأكلها، وهو يحب الشاة يأكلها. فكل الفرق  
أنك خاسر الوفاء. أما هو فحافظ البقاء.  
قال: والحصان؟.

قلت: هذا هو الحب والفوز والخير والعز والخيلاء كلها صفات  
الحب. . . ليس فيها من خلال الكراهية شيء!.  
غير أن الفتى يلاقي المنيا كالحات ولا يلاقي الهوانا  
هذه من عزائم أحمد بن الحسين المتنبى. . . قالها شعراً، وقتلته  
فعلاً. . . هي صورة لفارس شهيم!! لكنها لا تصلح مرآة لحياة اليوم!.  
فالهوان قد ألهه إنسان اليوم، حتى انقلب من قهر عليه إلى هواية  
له!!.

وحتى الذين يسلطون الهوان بقوة يملكونها ما هم إلا محترفون لصناعة  
الهوان. . . يتلقونه. . . بقوة ملقنة تفرض عليهم باسم العون والنصح  
والسلامة والمهادتات وتبادل المنفعة، فالولوغ في المضار. .  
إن المتنبى لم يمدح المذلة حينما تخفي سم الأرقام تحت أنيابها. أو  
أثوابها!!.

فهو يقول:

والذل يظهر في الذليل مودة وأود منه لمن يود الأرقم

إنه ينصح المذلين ألا يسترسلوا في إذلال غيرهم، فلا تغرهم مودة ظاهرة، فإن تحتها سمّاً نافعاً كسم الأرقم.

كان هذا في الزمن الأول... أما هذا الزمان فالمذلة هي فارضة الحب في أعصاب الرجال، كأنها تخدير منوم... أي أن غسل ذلك للأعصاب والدم يفسر الذليل بذلك على الحب فالطاعة والالتصاق... فهي عملية أقدم من غسل الأمخاخ... بل أعتى لأنها جرعة... جرعة.. جرعة لا قسر فيها... أما غسل المخ ففسر مرعب.

إن الاذلال صناعة تصنع طبعاً في الأذلاء... تجعلهم كما قالوا: جوع كلبك يتبعك!.

أما حكاية: سمّن كلبك يأكلك، فقد جربها كافور فهرب منها، فأرهب المتنبّي حتى هرب منه!. المهم أن كافوراً ساد، والمتنبّي يعيش إلى اليوم.

\* \* \*

\* وسرنا إلى الطائف مصعدين إلى كرى فالهدى. نهتدي بنور القمر... حتى لقد كتمنا أنفاس ضوء القمر في مصباح سيارتنا. لا يشغلنا عن البهاء ينسرب في نفس إشعاعاً نتبرد به.

وتنفس الصبح أمشى في غلسه إلى الردف عبر وج. يسوقني حين لم يستجد منه شيء في الهدى، ويتجدد كل الشيء في الردف من الذكريات على الصخيرات البيض. كأنما هي تلك الصخرة التي شوهتها الفلل في «عجلان».

وتكلمت المنفردة بانزوائها أحس كأنما هي تداعب أحمد بن الحسين حيث يقول: أصخرة أنا مالي لا تحركني هذه المدام ولا تلك الأغاريد

وسمعتها تكلمني ساخرة من هذا الإنسان يخدعه الحس من نفسه يحسبه المستحيل على من يسميه جماداً. وما يدري الإنسان أن للجماد حيناً إليهم. إلى لمساتهم وأحاديثهم غاضبة. مدلة. هاربة. راجعة تعود...

راميات بأسهم ريشها الهدف تشق القلوب قبل الجلود بل إن احساس الصخرة «إياها» قد يكون الأعمق من تعبير المتنبى لأنه فيها منقوش لا يتغير. بهذه الاستمرارية والثبات والتحمل والتجديد والصمت. فالصمت في الصخرة هو التعبير في الإنسان اللاصخري فهي بالصمت تروي لنا الخبر بالمشاعر أستعيرها منها لأنها باعثة التذكر للذكرى. وأعرف من ذلك بالاستكناه والشم والمناغة والمناجاة. كأنما هي تمثال لم ينحت صورة، وإنما نقشت عليه المشاعر لا تلمح الممثل، وإنما يحدثك المثل أي الأمثلة... وأنشدتها..

ولما نزلنا منزل طله الندى وروضا أنيقاً من النور حالياً أجد لنا طيب الحديث وحسنه منه فتمنينا فكنت الأمانيا وتتجدد الأمنيات في الفؤاد فؤاد الإنسان المتحرك بالفكر والحب، وتجمد في إنسان يعيش حياة معدة. حياة معدة أصلب من الصخرة خرساء لا تتكلم إلا عن الرغيف والقرش... هات. هات حياة معدة يرهقها علاج من العلاج.

ونزلت الفتاة من سلم المستشفى تذهب إلى بيتها فرأت العجوز يكاد يسقط. قالت لسائق السيارة، خادم البيت الذي رباها على كتفيه حتى رآها عروساً تأمره.

قالت: عكز الشيخ. عاونه. فلعلنا نوصله إلى مكانه ولم يقف رياض، بل أسرع يحرك السيارة... وركبت، تقول له: لماذا لم تساعد الشيخ؟

قال: أساعده، أساعده! فهل ساعدني أحد...

لقد جئت إلى هنا ولا أملك نقيراً ولا قطميراً! وقفت ظمآن أشرب..  
بائع الماء «المغراف» فلم أكد أضعه حتى قال: هات قرشين. هات  
قرشين!.

لم تكن معي.. فما أطلقني حتى كنت له وملاأت الأزيار... ومكثت  
يوميين طاوياً دون ما لقمة، الماء بقرشين فالخبز بكم؟.  
لو سقيت شربة ماء لم أدفع فيها جهد نهار، بقيمة قرشين لوجدتني  
أعين العجوز.

لو كنت مكانه لما عكزني أحد إلا بريال.

قالت: سامح. سامح. أسامح. أسامح! هـ. هـ. أهل السماح ماتوا  
«ملاح» كان زمان وجبر.

مغراف ماء بقرشين وتعكيز عجوز بريالين. هذا قانوني تعلمته هنا  
وأرسلت زفرة وهي تقول: عقدة.. عقدة.. لا تحل إلا بصدقة من رجل  
يصنع معروفاً مع هذا المتحجر، مصادفة دمرت نفساً. فهل من مصادفة  
تعمر هذه النفس وعرفتها.. فقالت: ونحن ألم نحسن إليك؟.

قال: ما كان بلاش.. خدمة وعمل.. وأجر وأكل لولا حاجتكم  
وحاجتي لما تم بيننا تعاقد ولا تفاهم ولا طال لي عندكم أمد... شربة  
بقرشين.

\* \* \*

\* قالوا له: أنت مفرط في حب أهلك وقومك!

قلت: وهل يعاب ذلك على إنسان أحب قومه وأبناء وطنه، وقبيله،  
وأمة دينه؟.

إن العيب أن تجسد الكراهية في نفسك للأقربين، وتمحض الأبعدين عمق الصلة، ويسر اليد وطلاقة الوجه.

صحيح أن بعض الأقربين لا يُحتمل منهم ما يصنعون!.. لكن أين الصبر والتقويم والاستقامة على الحب؟.

إنك حين تعطي الأقرب حقه من الود، فستجد العزة والجماعة الحتمية، يهابك الأبعدون.

قال: لكن الإفراط مضر!.

قلت: لئن أفرط في الحب فأزيد وأزيد، خير من التفريط بحق الأهل والأقربين من قومك... من أبناء دينك، وأهل وطنك.

فأنت يا صديقي تزن الأمور على هواك، تريد أن تأخذ ولا تعطي، أن تحب أنت ولا تحب، أن تُكره «بضم التاء».

كل شيء هو لك، وليس لغيرك شيء؟.

هذا ما يبعدي عنك، لأنه يقربك من هؤلاء الذين يصنعون النهش لنا جواز مرور لدى وجدانك العامر بشيء لا أدريه!.

ثم قلت له: أسمع هذا الخبر عن ابن هشام في السيرة:

قال: ولما بلغ الرسول ﷺ أن عثمان بن عبد الله بن ربيعة بن حبيب حامل راية ثقيف بعد ذي الخمار. قد قتل.. قال عليه الصلاة والسلام:

أبعده الله، فإنه كان يبغض قريشاً.

لقد كان مبعداً لقتله على الكفر، لكن دعاء رسول الله فيه الأبعاد إلى عمق سحيق في النار... كأنه مضاعفة للعذاب له... عذاب على الكفر

وعذاب على البغضاء لقومه الذين آمنوا به ونصروه أو هم الذين ولدوه ممن  
مآلهم إلى جنة.

ومن حق عليه العذاب لا شأن لنا بالبغضاء له.

\* \* \*

\* وزيران مثلاً... أو كبيران مثلاً... تتقدم إلى واحد منهما في شأن  
هو المكلف به، فنجد الإقبال والقبول والعناية بالموضوع، فلا تخرج إلا  
أونت تقول: صاحب خلق، ما أكثر ما يلبي، وحتى لو امتنع عليه فممنع  
جاءك بالمعذرة، الكريمة، تشعر معها بأنك مكرم منه.

وفي الموضوع نفسه تذهب إلى الآخر لأنه صاحب العلاقة به بأكثر من  
الأول فلا يكاد يستمع لك، حتى تشعر «بالأف» والضيق قد اكتسى  
بهما... فالأف من داخل... والضيق على السرائر.

وتتركه ماضياً في طريقك لتقول: مسكين، إنه ينسى نفسه... نسي أن  
كان في حاجة إلى معين، فلو لم يجد من يأخذ باليد لما ارتفع فالطموح  
والمعرفة واللياقة، كلها لا تقدم نفسها إلا بمن يقدمها لك.

أنسيت يا صديقي ما فعلته الكلمة الطيبة عنك من السنة رطبة دافعت  
ونصحت وأعانت.. وجاءني كتاب منه... يعتذر عن ضيق لحظته عليه في  
حال كان فيها حينما كلمته عن إنسان في حاجة إلى عون.

وأجبتة: لقد رجعت إلى أصالة، فما أفرطت في عتب عليك إلا  
لأحميك شر الغضب فيك، وشر الغضب عليك.

إن الإشفاق كاتعاط وجداني لا يقدم ولا يؤخر. فكثيراً ما انقلب هذا  
الإشفاق منك إلى شماتة، أو إلى سخرية، أو هو التبرؤ من الذنب.

إن عقدة الذنب كثيراً ما تأتي بالإشفاق الكاذب. وإن الاعتقاد بأن صنع الجميل والإحسان والرحمة للناس هو الدافع للطموح إلى فوق يجعلك تصنع الجميل، وتكسب الكل، وتعين العاجز...!!.

فرق أن تكون مريضاً بعقدة..

وأن تكون معافاً صحيحاً باعتقاد...

تكسب الكل وتصل الرحم وتعين العاجز.. هذه أخلاق النبوة.. جعلتها أم المؤمنين خديجة حجتها بأن الله لن يخزي محمداً صاحبها ﷺ، رضي الله عن أم المؤمنين حاضنة الإسلام.

\* \* \*

\* وأمسك الشيطان بأنوثة الإنسان، يسير بها، في كل اتجاه عله يجد الغواية في نفوس لا يردعها رادع.

وأمسك الشيخ بالصلاة يذرع بها الخطوات وراء الشيطان يرهبه بعصا التكبير والتحميد والسلام.

وأخذ إبليس يجري بالأنوثة والزينة والمادة والبهرج. يتبعه جمع كبير ينهشون من يده الشيء الذي فيها، وما دروا أنهم ينهشون أنفسهم، ويسقط في الطريق الذين نهشوا أكثر، ويعطش في الطريق الذين لهثوا أكثر.

ويأتي الشيخ يمسح الخطايا عن الواهنيين، والحيارى، وتكون المعركة. المعركة بين الظلام والنور. المعركة بين الضلالة والهداية والمعركة بين الشهوة والفكر.. بين الجهالة والعلم.

حتى إذا انتصرت الصلاة... جاء الشيطان إلى المحراب على صورة

يخدع الناس بها... أنه أمامهم!!.

ويفتح أناس أبصارهم، وتعمى بصائرهم فيسيرون وراء الزيف في صورة الإمام وحتى إذا استمرأوا الطاعة له. عصى بهم الحق والهدى فأخذهم وراءه مرة أخرى.

لكن الصلاة تحطم المزيفين بها. أنها حقيقة الزيغ بها أو عنها. فلا يمشون وراء الشيطان حتى يلحق بهم ركب من الصفوة عرفوا أين الشيخ. فأخذوه يقودهم لحرب الشيطان وإنقاذ الإنسان.

وكان سلاحه صلاة صادقة حقيقية مستمرة فيها دعاء إلى الله أن يصرف عنهم كيد الأبالسة. وبهزة من ومضة يحترق الشيطان. ويسوخ في القاع إلى درك من أسفل السافلين.

فالإنسان بالإنخداع والشهوة. هو شيطان نفسه.

\* \* \*

\* وتمزق الأب حسرة على ابن له، سار في طريق الغواية!. وسأل نفسه: من فعل به ذلك؟ أهو إهمال في التربية؟ أم هو قسوة فيها؟.

وأجابه استقراء الحال الذي سار به معه... كان يرافقه ليل نهار، كل لحظة يعظه. كفه عن التفكير والحركة والانطلاق.. لا تفعل هذا... أنظر إليّ كيف وصلت إلى النجاح!.

أراد أن يجعل منه صورة له. يتحرك فيه، ولا يحترك بشيء لنفسه. لما عجزه عن مقاومة الإغراء. صنع منه الذيل، فما استطاع أن يكون غير ذلك.

فالقسوة في العظة والتربية صنعت الطفل الخائف الرجل الضعيف

يخضع لكل المغريات . وأراد الأب أن يغضب من قوة الحسرة والندامة فأمسك به صديق . . . قال له : أغمض أذنك وعينيك . واحبس لسانك فلعل ما هو فيه تجربة تصنع شيئاً من الإحساس بالذات . . ولعل صدمة من المغريات ، أو من المغرين ، ترجه رجا ، تهديه إلى الصواب .

وصبر الأب ، وأرهقه الانتظار . . وبينما هو جالس يترقب أخبار ابنه ، إذا هو يأتيه ! أيها الولد : أذقتني بالتدليل حلاوة التمرد . وأذقتني بالقسوة مرارة التردد ، ولكنني سرت بالتمرد وبلا تردد إلى طريق ضال . تعرفت منه وفيه كيف أذوق التدليل رحمة لا إباحة . وكيف أصنع من التردد طاعة ورفضاً للشر . . إنني أعود إليك تربية الزمان . من رداء الخلان !

أمسك بالشیطان من قرنيه . . يجره إلى فوق لا يسفل به إلى تحت فطبيعة الإنسانية أن يكون صاحبها فوق ، أما الشيطانية لو رفرت بجناحين فعلمها تحت . . . !

الشیطان في أسفل السافلین يدير الناس كيدا ، ويوزع عليهم النزعات ليضحك أحيانا . . . ليتنقم لقد كان القابض على قرنيه - أعني قرني الشيطان - رجلاً في الصالحين . . . أمسك بالشیطان وسأله وقد كان في قبضته الفوقية من تلك العلوية في الإنسان . . . تخرج الشيطان من التحتية . . سأله :

ممن تخاف . . . مم تخاف ؟

قال : أخاف منك إنساناً علوياً ارتفعت بالطفولة فيك . . . فأنا أخاف الطفل سواء كان طفلاً قد صهرته في رجل مثلك أو كان الطفل تنصهر به الرحمة في نفوس رجال يجعلهم بها أطفالاً مثله ولو في لحظة . . . أنا أخاف لأنه العصبي علي . . . بماذا أغريه . . باللعب واللعب ؟ . هذه ليست

جرائم... أنا أريد الفساد لأدمر الناس... والطفولة تستعصي على ذلك... حينما كنت طفلاً ملائكياً.. أنعم في بحبوحة النعيم... أخرجتني من الرحمة ففازت نفس كأنما هو من طبيعة الشيطانية في... جعلتني أشعر بالتفوق... واركب التعالي.

\* \* \*

\* صور... بدون تعليق، وبلا تليفيق. فيها من البلاغ تشويق، بعضه رقيق دقيق، وبعضه يخربش ولا يخدش.

قال: لقد أصبحت متسامحاً أكثر من اللازم! لعل شعورك بالشيخوخة فعل ذلك بك؟!.

قلت: إني لا أعرف إن التسامح في كثير من الحالات اسمه في تجربتي «الصبر البليد».

عجز في المقاومة، واسترخاء للمساومة وتفويت للنكد العلى بالخصومة، إلى النكد المبطن بالندامة.

هذا من ناحية ما يظهر لك!!.

أما ما هو في سري فشيء آخر. هو أن الخصام والفصام حرمان للإنسان من الصداقات والود... حتى يحرم المخاصم من صداقته لنفسه.

في الكندرة قنفذ. صاده صبي، أخذه يلعب به، ولكن القنفذ يلعب بالصبي.

حبسه في المخزن، فلما أصبح وجده قد ذهب وأخذ يفتش عنه فوجده يمشي القنقذية في الطريق كأنه استراح إلى الرمل في بقايا الوادي ينحدر في الحرم.

فرده مرة ثانية. وفر له ثانية. فقال له أبوه:

هل ترضى أن تُحبس في مخزن؟.

قال الطفل: لا، لا، لا.

وسار الطفل إلى بعيد إذا رأى القنفذ يمشي التقنفذ تركه. لأنه تذكر

كلمة أبيه.

حتى القنفذ حريص على الانطلاق من القيد أو ذكر الأب عصفور

الزمخشري، ورجله المكسورة ورجل الزمخشري.. فجرى إلى ابنه يشكره

إن لم يحبس القنفذ!!.

أحب لابنه النجاة..!

# وسائل إعلام

## صحافة وشخصيات صحافية

ظاهرة قد لا تكون غريبة ولا عجيبة، وقعت في أوروبا الغربية، فبعد حرب العاشر من رمضان السادس من أكتوبر رأينا رؤوسنا كبيرة ذات سلطان في أكثر من دولة تتوالى سقوطها واحدة بصورة أو بأخرى، ليس أولهم - برانت وليس آخرهم هيث.

إن المستر هيث خسر معركة الانتخابات لرئاسة الوزارة بخسران المحافظين وفوز العمال، ويظهر أن اليد الخفية بدأت تهمس تقول: إن - هيث - أسقط حزب المحافظين فلو كان غيره الرئيس لما سقطوا وتحولت الهمسات إلى جهر، فإذا هو لا يحوز الأصوات التي تبقيه في زعامة الحزب رئيساً لحكومة الظل، فقد فازت عليه فسبقتة - مارغريت تاتشر، يعني أن بنت بائع الخضار فازت على ابن الجزائر، كلاهما هيث ومارغريت، وكما قلت من زمن غير بعيد جدير بأن يكونا من العمال بحكم النشأة. لكن المعرفة والذكاء والكفاءة وعطاء المحيط والبيئة عوامل ترفع الأقدار، فلا يسألون هناك عن النجار والجزار وبائع الخضار، كما أنني قلت في لحظة المقارنة كان ينبغي لمستر ويلسون أن يكون من المحافظين فنشأته لا تحرمه من ذلك، غير أن الفكر والرأي والمنهج عوامل صيرته من العمال.

إن مستر هيث سقط بعد أكتوبر، فهل هناك من أسباب الإيجاب منه

نحو العرب كان العامل في إسقاطه؟.

سؤال على الإعلام العربي أن يكشف الجواب.

وسؤال ثانٍ نظرحه على الإعلام العربي، نرجو أن يعطينا تحليلاً وترجمة لهذين الشخصين المحافظين يوظف نفسه حتى تعرف عنهما ما هم له، ما هم له في سياسة الدولة حين يتزعم أحدهما الحرب رئيساً لحكومة الظل، أو فيما بعد رئيساً للحكومة البريطانية.

من هي مارغريت؟.

من هو ويلي هوايت لو؟.

فالمعرفة عوامل مؤثرة في قبول الرأي فيهما صواباً نأخذ - خطأ نرفضه.

فلا زالت بريطانيا ذات وزن ليس في غرب أوروبا وإنما هي كذلك في سياسة الولايات المتحدة وذات وزن من ناحية مواقفها في اتجاه القضية العربية في ماضيها وما كان منه، وفي حاضرها المتأرجح أحياناً إذا مالت الريح حيث تميل.

\* \* \*

\* لم أغضب من جاهل نشر إعلاناً في مجلة (آخر ساعة) عن تأثر صحافتنا بالخبرة المصرية. إنه جاهل أضحكنا بهذا الأسلوب الذي عرضه. ولكنني غضبت من عالم احتفل بهذا الموضوع فأخذ يعتذر كأنما هو يري أن يضحك علينا أن الصحفي المعلن قد أسرف في الأسلوب ولكن الواقع أن تأثرنا بالسوريين أولاً بدر الدين النعسان. محب الدين الخطيب.. فؤاد الخطيب.. يوسف ياسين.. رشدي ملحس.. ثم تأثرنا بالصحافة المصرية

والكاتب المصري.. ولا عيب في ذلك... أفلسنا أصحاب التأثير فيهم من قديم الزمان؟.. لم ينكروا ذلك.. فالغضب لا معنى له والترضية ضحك على الذقون!! ولا يعني هذا أن أبخس الأستاذ: أنيس منصور حقه وفضله فلعل عاطفة نبيلة حملته على ذلك!!.

\* \* \*

\* اليوم لقيته... فما ترك إنساناً قابله... يسأل عن حاجة إلا وخرج من عنده راضياً بنعم طرية صادقة، بلا رفيقة واثقة.

وقلت له: أسأل الله أن يقيك شر الثناء عليك! ما دعوت الله بها إلا وأنا أريد الوقاية له من غيظ الحاسدين له، والكائدين، من الذين لا ترضيهم راحة الناس ولا يعجبهم قضاء الحوائج لإنسان محتاج.

فأيما إنسان اليوم قد أنيط به عمل أو أمر. وأسرع في انجازهما إلا واستحق الثناء.. لكن هذا الثناء قد يكلفه غالباً من غيظ المغتاضين. ونكادة المعطلين، يرهقه بغائلة من كيد الكارهين ورجعت إلى نفسي أسألها: أليس من ذكائه أن يفهم أنها تحذير له من نفسه لا من غيرها؟.

فقد تحمل العبارة معنى الوقاية من شر الثناء.. يعني الوقاية من الغرور والتيه وإرهاق الناس باستعراض المن عليهم.

أشهد أن هذا المعنى وارد، وقد يكون هو المتبادر السريع إلى فهم السامع، لكنني وربي فالق الاصباح ما أردته، ولا قصدت إليه.

إن البداءة تأتي العميقة في المفهوم على صورتين وأكبر، أما اللوامع فتأتي سريعة خاطفة تحمل معناها الوحيد كومضة وتنظفياً.

آه من البداءة فإنها المرهقة لفكرك كمخاض بها والمرهقة لحدبك

كإرسال وتنقية، والمرهقة لجولتك كإيضاح وتفهم واعتذار وصرخ  
وحجاج... آه من البداءة «جمع البادهة.. من البديهة».

ما قصدت تحذيره من غرور. وإنما قصدت الدعاء له بالوقاية من غيظ  
حاسد، وشر مكائد.

لكن الوجه الآخر من صورة الكلمة «البادهة» هي التي أرهقتني جعلتني  
أفسر له ما أردت على القرطاس تسجيلاً وتذليلاً وتذليلاً...  
فهلا أعطيتني من سوانحك سوامحك؟!.

\* \* \*

\* هل يكون كلامي خفيفاً على الصحافة اليوم أعني جرائدنا؟!.

هو ثقيل على المراسلين في الطائف... قد يسمعون الكلمة فيعتذرون  
وهذا طبيعي... لكن الصعوبة أتوقعها من غير المراسلين... من الأكبرين  
والمتوسطين... هؤلاء هم الذين يغضبون. وعجيب ذلك!!.

العجب أن الصغار حينما يخطئون ويتعرضون لهم الكبار أكثر من  
غضبهم لأنفسهم.

أهي حماية أم تغطية؟!.

سيان.. فالواقع لدينا أنك لا تستطيع نقد صغير تخشى غضب الكبراء  
سواء كان رئيس تحرير أو مدير عمل على طريقة «لطم الدابة لصاحبها».  
اليوم مثلاً حاولت أن أعتذر وأشكر فلم أستطع!.

حاولت أن أعتذر عن تأخيري في الطلوع إلى الطائف... اسمع  
المحاضرة التي تقرر أن يلقيها الأستاذ يوسف أبيش عن الإسلام في القرن

العشرين كحلقة من سلسلة المحاضرات التربوية الثقافية لدورة تدريب مديري المدارس لما بعد الابتدائية .

حاولت أن أجد خبراً في جريدة عن إلقاء هذه المحاضرة في موعدها فلم أجد. تعطلت أن أذكر ذلك في اليوميات تذاع غداً حتى بعض المسؤولين في أكثر من جهاز إعلامي أو تعليمي أجد عنده الإجابة .

الإجابة كانت لا أدري ..

هل هذا صحيح؟! .

أين المراسلون؟! .

وقرأت المقال الممتع بأسلوبه وفكرته ومنحاه .. كتبه الصديق الأستاذ عبد الله بن عبد الرحمن الجفري ... نشر في عكاظ يوم أمس! .

قرأته حتى إذا فرغت منه تلوت «ولا تبخسوا الناس أشياءهم» وعن الصحافة والزمان والمواخبة والمرادعة كتبه . وبالواعز الفني والغني سطره بالمشاعر الشابة الطموح مصدق شاديه ومشيدة تنصف الفكرة النيرة تأتي من عمل السباقين على ما بينه وبينهم من خلاف سبق . وعلى تباعد في الصلة والوصال والرغبات ... فلم يكن يستجدي واحداً . وإنما هو يستنخي الكثيرين يثير النخوة بالمقارنة . يضرب لهم المثل لتضرب بهم الأمثال! . اتخذ من الصديق حسن قزاز مثلاً . ليجعل من الصديق عبد الله خياط ضارب مثل بالافتداء واللحاق . كل وأسلوبه .. ولكل شيخ طريقة .

أشار بالمنافسة وأبعد التحدي .. نوه بالمواخبة والمرادفة والتآخي وأعرض عن التلاحي والمزايدة والتجني ليبعد كل ذلك عن المسابقة في عكاظ والمدينة .

وحيثما أشاد بحسن قزاز لم يجحف بأحد.. وإنما أعطى لسابق حقه كأنما هو يضرب على وتر حساس.. ليقول لغيره ممن يدعيها ادعاء: هكذا التاريخ ينصف السابقين ولو بعمل واحد.

السابقون يضعون اللبنات في البناء يرتفع بهم وباليد العاملة معهم. يتعاملون مع الأساتذة لأنهم الواصلون بأنفسهم. ولا يتعاملون مع المسخرين يهبط بالإنصياح مستوى ما يعملون.

لقد أدخلني محمد عمر توفيق إلى حومة الصحافة فتح لي بابها على مصراعيه واحتضنتني حسن قزاز فأعطاني مفتاح الباب إليه ليدخل غيري معي لا يغلقه ولا أغلقه على أحد. عرفان الجميل لا يصنعه إلا القادرون على صنعه. وأحمد الله فإني لا أجد لذة أكثر من صنع معروف.. والله يجزي الشاكرين.

لقد اختلفت مع حسن قزاز كثيراً كما اختلف معه السيد عبد الله جفري. واتفقنا معه كثيراً فلم أفتقده صديقاً. ولم يفقدني الصديق ذلك أن الخلاف لم يكن على التوفاه. وقد يكون من صنع ظروف. أو من صنع وراء التوفاه. التفاهة في التصرف والسلوك والهدف هي التي تغشى النفس حتى لتصاب بالهيف في الفكر والجودان بدلاً من أن تصيب المعدة.

حسن قزاز لم يكن رخيصاً في الصحافة أعطاه الكثير وأخذ منها الكثير شيء عرفناه بالممارسة والمعاشرة والانفصال والاتصال والخصومة والمصالحة. يعني بوسائل المعرفة سلباً وإيجاباً.

وعكاظ الجريدة والمدينة لم يكونا في هذه المسابقة في تعارض ولا يخوضان الملاحاة والتحدي.

\* هل تمضي الأيام المباركة في شهر الخير والحب والصفح والتسامح ليكتب العريف. وأرد عليه؟! .

أحسب أن هذا شين لا زين فيه!

ولكن العريف يريد ذلك، ولقد كنت أتمناه، وأني أعده بقبول التحدي لأكتب عن العريف كما عرفته. لعله سيطبعه يوماً على نفقته! .

سأشبع العريف بما يشتهي، وبما لا يشتهي، ولكن ليس في «تمر وجمر».. ولعل المجال أوسع في «اليوميات» يأتي لي، وأتى رديفاً له.

إن المجال واسع لديه ليقول ما يشاء مما يعرف، وما يستقرىء، وما يستنتج، لأقول عنه ما هو أكثر مما أعرف ومما لامست، فكلانا قد تعرى أمام صاحبه في كثير من النقائص والنقائص.. وهكذا يصبح الصديق أعلم بالمضرة.. غير أن هناك فرقاً بين ما يقول الصادق يجد له ألف شهيد، وشهيد، وبين آخر قد لا يجد من يشهد له! .

غير أنني لست في حلٍّ من القول.. لكي ينطلق القلم جامحاً يعربد.. لست في حلٍّ لأمرين... هما من قيمة العريف ومن قوامه. فأنا لا أستطيع أن أصل إلى قيمته كأمين لعاصمة الدنيا حرز الإسلام «مكة المكرمة» فما أنا إلا صاحب «تمر وجمر» و «كلمة ونص» ذلك «أريل» معدودات أكرم ما فيها أبيها من عرق الجبين! .

فرحت بالشيخ والأستاذ عبد الله عريف يعود كاتباً لهمساته يستمر فيها. فلقد كان ذلك همساً في نفسه. ولغيره في أشياء يخطط بها آماله وأعماله وأصبح اليوم همساً بنفسه لنفسه يشرحها للناس المحبين على الطبيعة دون رتوش. ولا زخارف.. ينفي بها الزعل ويطرد الزعل. ويحفظ العمل. يقيم للكلمة امتلاء النفس القارئة بهذا القديم فيه الجديد منه المتجدد لنا. كأنما

هو قد أفاق بفرحة الألم. وللآلام فرحة، إذا ما صهرت بها النفس المحبة بطرد الترحة من زخم الآمال والآمال إذا ما تحققت متراكمة تترك الفراغ في النفس، تناجي به الوخزة المؤلمة لتعود النفس إلى روحها، تخرج من معدتها.

أقرأ العريف. اليوم رجلاً لا موظفاً وكاتباً يفكر لك. كأنما يعطيك الوفاء بما فكرت له من قبل. والقارئ يفكر لكاتبه. للحماسة تحفز الكاتب أن يفكر جديداً. أليس في هذا الحس فكرة يعطيها القارئ لكاتبه إن لم يناولها له فإنه يتلقاها منه ولو بالمشاعر؟!.

يحسب الناس أني خصيم له ويحسبه الناس أنه خصيم لي، وهذا صواب في ظاهر ما يعلمون. أما باطنها البريء من الحقد والكراهية المليء بالارتفاع بالذكريات عن الانحدار إلى الترهات. فشيء تعطيه هذه الكلمة ثناء عليه، مع التهئة له بالاحتراف يشاركنا في مسيرة قد نتفق فيها محترفين وقد تختلف من أجلها هواة لناألف بعد على هدف لا نستطيع الخروج منه لأنه الراسخ مترسباً في تربية جيل قديم.

## تلفزيون

خرجت بعد عصر أمس - كالعادة - في طريق المدينة فلم أجد منفذاً أصل به إلى بعيد.. كانت السيارات قادمة من أبحر... تسير على خط الأسفلت بخطين يصدان الخارج من جدة... الطالع إلى آخر، أو ما قبلها.. لم يكن هذا اعتراضاً مني فطبيعة السائق أن يسبق ليصل.

وكل سائق أيضاً لا يحب أن يترك الفرصة لغيره... لم تكمل الفسحة، ورجعنا، وبشق الأنفس عدنا، وليس هذا أول خبر. الخبر كان أمنية تمنيت لو أن التلفزيون قد وقف على هذا الطريق يصور السيارات العائدة بركابها بعد فرحة ونزهة في أبحر وفي الخَبْت... يستنشقون رائحة الماء والتراب... تمنيت لو أن التلفريون يعرض لنا شريطاً.. لم تكن أول سيارة أمام وزارة الخارجية، وآخر سيارة على الأسفلت عند الكراع... ألوف من السيارات تسطع الأنوار.. الخطوط تتعدد والمرح يزغرد لو أخذت صورة لرأى الناس كم هي أفراحهم في أثقال البيت، والعمل والسماع لكلمة تمام.. لتعليق مغتاب.. لم أكمل رحلتي، ولكن الكمال في نفسي كان في سروري بأهلي وأبناء بلدي وجدوا لحظات من فرح.. أدعو التلفريون أن يعرض لنا هذه الشرائط مصورة... ناطقة بالأمل والبهجة!

\* فكر واريح، أو عشرون سؤالاً من البرامج الناجحة في التلفاز يبذل فيهما عمر الخطيب وماجد الشبلي جهداً مشكوراً، يزيدان ثقافة فيهما ولهما ولنا نحن السامعين والمتسابقين! .

شيء لا ينكر. غير أن النكر أن يأتي من الارتفاع بالأسئلة عن المتسابقين أحياناً والانخفاض بسؤال يصادف طرحه على متسابق جيد ومثقف. فيغبط الناظر، ويربك المتسابق.

بعض المتسابقين يبعث الفرحة في الذين يعرفون القيمة للثقافة والمثقف مما لمسهم ماجد الشبل لمسا خفيفاً في أحد الحلقات.. .

هذا المتسابق كسعيد باوزير في برنامج فكر واريح أشاع الفرحة في وجداني كمثقف فالتحية له تحمل الإشارة إلى الأستاذ عمر الخطيب بأن يرتفع به عن سؤال «الهعخع» جعله ينطق به مكرراً في صور فأعجزه.

إن هذا المثقف لا يطلب منه لوك اللسان يلفظ وحشي ينفر وبعض المتسابقين خير لهم ألا يستعرضوا صورهم في التلفاز قبل التزود بالمعرفة. وهي يسيرة بالمطالعة. إن استعراض الصورة لا يقضي على الكسوف من الجهل المطبق.

حرام أن يضيع وقت في معالجة متسابق لا يعرف «ما طحاها».

وحبذا لو أعدت حلقات لنادي الكرة. كل الأسئلة فيها عن الكرة. وحلقات للصحفيين. كل الأسئلة عن الصحافة، وأخرى لغيرهم توضع الأسئلة.

\* \* \*

\* صور.. كاسية عارية.. ملائنة من القاع فارغة لا ترزح تحت أثقال

من ذروة تهبط عليها. إذا ما ارتج في رأس الجبل. فأسقط فهراً على قد  
الرأس... يتخضب الدم... كأنه ينضح من الورم المنفلج بكسب من  
الأقدار....

وشاهدت الفيلم ليلة أمس. كان من حلقات المسلسل.  
الفرجينى، ولم يأخذني تكالب الناس على الضعيف، وأضحكني عهر  
المحامي... محامي الادعاء... جلبوه بأجر كبير. كان يمثل مسرحية  
التهريج المروج للباطل.. لقد أبدع المخرج في الصورة التي أعطاهها  
لمحامي الادعاء... يظهر أنه مجبور من المحامين أمثال هذا المختال  
الفخور.

أخذني منظر صديقها. محامياً. كان مدفوعاً بقوة الحب، وخذلان  
الرشوة. وطغيان الجمهور لكنه صب نفسه في قالب جديد فارتفع بالاعتراف  
على كل ذلك.

كل هذا لا شيء...

لقد كان الشيء في هذه الكلمة... من الصعب أن يصفح الإنسان عن  
نفسه!!.

نعم. ونعم.. صعب أن تعفو عن نفسك.. فتغفر لها أخطاءها.. قد  
تغالط. أو تنسى. أو تتناسى أو تكابر. وهذا غير الصفح.

فإن كانت نفسك أخطأت عليك فلست عاذرها إلا تسلية أما أن تصفح  
فلا. ولا. إن الندامة عقاب... إن الطرد كرب لا عفو.

وإن هي نفسك أخطأت على غيرك.. فعذاب أكبر فلست شاكرها. وما  
أنت عاذرها. بل أنت المكروب. هذا هو وخز الضمير. لا تقل لي: مات

الضمير عند الناس... الضمير باق... يمتر بالمكابرة.. والتناسي والأعدار.

إن الحكم بموت الضمير معناه القضاء على إنسانية الإنسان. فكروا فيها.. صعب أن يصفح الإنسان عن نفسه!!.

هذه هي كل الحلقة، ولا شيء غيرها وكلمة واحدة هي الظلم!.

\* هل هذه الأفلام التي تعرض على الشاشة في السينما أو التلفاز لا مغزى لها، لا فائدة منها؟!.

أحسب أن الإهدار للمال، والزمن، والجهد، والحياة. لم يبلغ بعد بالإنسان - كل الإنسان - في دنياه هذا المبلغ من التفاهة، والسرف.

هي ذات مغزى، وهدف إن لم يصلح لفئة من الناس... فإنه يصلح لفئات... فليس كلها مردود، مرفوض، وليس جهلها مقبول يهضم.

فالكلام - هنا - عن واقع المقبول عندنا... أو المعروض - بالفعل - في تلفازنا.. مما شهدناه.

فبالأمس القريب عرض فيلم من حلقات «بن كيسى».. أخذتني وشدتني إليهما قوة التعبير في صورة صامته جامدة لا تتحرك.. حتى لو لم ترمش عيناها لحسبتها صورة من هذه الصور الرائعة لفنان كبير مثل «ليوناردو دافينشي»... علقوها حلية في الفيلم... رمشت عيناها، وتحركت يدها تحت الركاب من الهموم، والأزمة والكرب... ترى التعبير عنها في صمت عن الألم بأكثر مما يعبر به الصراخ!.. وتحرك كل ذلك العين، والنفس، واليد والتعبير بشيء رقيق.. رقيق كان تعبيراً بالكلمة الحلوة.. بالحنان.. بالمشاركة في الألم من رجل عجوز جلس بجانبها... نسي أثقال السنين،

وتحرك بهذا الألم في جارتة.. . . جلس بجانبها ينتظر دوره.. . . فإذا الحنان يتقدم به خطوة إليها، وإذا الحنان يخطو بها.

\* \* \*

\* الأستاذة (أمينة الصاوي) كنا نسمع عنها كاتبة تكتب القصة. والتمثيلية، سمعنا عنها الكثير حتى بعض المسلسلات التي أذيعت لها، جاءت تحمل إلينا فكرتين:

**الأولى:** أن تعمل على إبراز ما حملته من قصص وتمثيلات ألفها رجال منا، نعرفهم ولا يعرفونهم، تريد أن تبرز ذلك متلفزاً، أو مذاعاً.

**الثانية:** أن تتأقلم في محيطنا المسلم، وبيئتنا لأنها تريد حياة.. .

## الاقتصاد

\* لست من رجال الاقتصاد ولعلي من أكثر الناس خيبة في تعاطي التجارة.. ولكن السوق المشتركة في نتائجها الظاهرة لم تعد سوقاً تجارية أو اقتصادية فحسب. بل إنها أصبحت تحركاً اجتماعياً وتاريخياً... ووحيداً لكل الذين يشتركون فيها.

حينما كنت أقرأ عنها فيما سبق، أسرعت إلى المخافة منها تكتلاً تجارياً اقتصادياً يرفع قيمة الصادرات من إنتاج أرضها وصناعتها... ويتحكم بخفض مريع لما يستورده من المواد الخام من آسيا وأفريقيا وما إليها.

كنت أحسب ذلك ولكن الأيام أخلفت ظني فهي اليوم تسعى جاهدة لوحدة دولها واستقلالها كتلة واحدة كأنها عالم ثالث جديد بين القوتين الكبيرين. فأغلب الظن أنها ستعدل في سياستها مع أفريقيا قبل آسيا لأن أفريقيا ستكون المستودع المورد الأكثر لأوروبا للسوق المشتركة. فإذا ما سعت دول السوق المشتركة إلى اعتدال السياسة وترك مناطق النفوذ لدولة دون أخرى فإن أفريقيا حين تستريح من عنت الاستعمار الجديد - كل دولة تتركب رأسها - ومن عنت التفرقة العنصرية، فإنها - أعني أفريقيا - ستحقق لأوروبا ما تخنمه من موارد بعد ذلك من قيمة الصادرات.

ثم يأتي دور آسيا لأن السوق المشتركة سوف تعادل لئلا تضيع آسيا

حين تصبح منطقة نفوذ الصين أو الاتحاد السوفياتي . إن أوروبا الآن باعتدال السياسة وعدالة السلوك مع أفريقيا وآسيا، سوف تريح كثيراً لتريح الإنسانية السلام .

إن أوروبا قد ضاقت بعنت إسرائيل من حصار قناة السويس . لهذا قلت لشاب إنجليزي يدرس اللغة العربية في لبنان زارنا في هذا البلد .

قلت له : أحسب أن الخطوات الحاسمة والسريعة في مثل هذه المشكلة في الشرق الأوسط هو في يد الدول الأوروبية لأن دول السوق المشتركة . . .

\* \* \*

\* وأنعم الله بالغيث سحاً غدقاً متواصلاً على جدة وضواحيها . . . ابتداءً في الساعة الثامنة بعد الظهر من يوم أمس الأول، ولم يتقشع غمامه الحافل غير الجهام، ولم يقف «هتانه» إلا بعد الساعة الثامنة ليلاً . . .

لم يكن مزعجاً ولا مخيفاً يحجر الناس في الحجرات بل إنهم تنسموا الشذى من رائحة الثرى، يخرجون إلى منابع القطر، ومنابت العشب . . . كانت السماء قد أرسلت النوار والأزهار والأطياف في التو واللحظة .

وأشرقت الشمس، ترسل شعاعاً له لون مصفى كأنه قد غسل وعلق في شرائط ذهبية . يضيء ولا يقهر!

ومشى الإنسان إلى دكان بقال، فلم ير في الأسواق ذلك «الرجع» امتص الماء الهواء، هبت رياح تبخر فيها الماء لعله يعود ثانية هاطلاً أقوى، فالغيم عميم وكأنما الرياح جاءت بما تشتهي السفن .

السفن هنا . بلدية جدة، شركة الكهرباء، التلفزيونات . فشركة الكهرباء أثبتت قوة الإصلاح والتعمير، فلم نر «في كندرنا» خراب نور، ولا احتراق

«جامعة» ولا ظلام شارع على العكس مما تعودناه من قبل . فثناء وشكراً .  
هذا الثناء هو لحساب الإحسان في الأعمال والصدق في الأقوال . وهو  
القاطع لدابر الشكوى وعقابيلها لا تبخل به حفزاً ، فلا تبخس الناس  
أعمالهم .

والتلفونات أحسن من زي قبل ، يعني كنا القادرين على الإحسان بس  
ينبغي لنا شوية إدارة وحزم فلا يعامل المعمر معاملة الموظف المكتبي ،  
دوام ثماني ساعات وبس والفرحة بالغيث أترعت النفوس ، تغسل كل شيء  
نسأل الله أن يمرع هذا في النفوس والأخلاق والتراب والماشية ، وللحاضر  
والبادي . . . ومع الأليف والآبد والحجر والشجر والعين والبئر والشعب  
والوادي .

فألهم سحا غدقاً غير ضار شاملاً مباركاً فيه ترحم به أمة ، ويهنأ به  
قافلاً يؤوب بحاجات لعياله يتلقونها من يده هاشين باشين . وأطفالاً ، وبهما  
ورعاء شاة ، وتعين سلام وحياة . .

\* \* \*

\* أمسكوا الخشب . . . كلام يقوله عامي تعودا من عين حاسد ، وغير  
العامي يعيد من يقيه بالرحمن . . . بالمعوذتين ، والتعوذ هنا لخير الأمس  
حدث العام . . . أمل المستقبل في ميزانية عام ٨٦ - ٨٧ . . نعيدها أن  
يتعطل منها شيء ونكبرها أن تعمل لنا كل الشيء المقرر فيها .

ونأتي على مقارنة فتحت بابها جريدتان هما : المدينة ، والندوة ، وضعتا  
جدولاً مقارنة لأعوام عشرة تضطرد فيها الزيادة إلى فوق . . إلى فوق .

والتفوق هنا جاء في الكم . . . ليأتي منه التفوق في الكيف ، ولكننا لا

نسير مع المقارنة في عشرة أعوام جدولت لها الجريدتان، وإنما نرجع قليلاً «نطوي السنين القهقري» إلى ما قبل خمسة وعشرين عاماً.

في عام ١٣٦٢هـ، وفي شهر رمضان منه كنا في الخرج، وبعد الإفطار جرى ذكر الموازنة.. قد بلغت أكثر من الستين مليوناً... فصرخت أوجه الكلام إلى الشيخ محمد سرور الصبان أسأل: ما هذا... لماذا. أفي عامين تطفح الموازنة إلى ستة أضعاف؟.. لقد كانت أحد عشر مليوناً أو أكثر قليلاً، وتصبح في هذا العام أكثر من الستين... على أي أساس تم ذلك.. ألا تخشون رد الفعل إذا ما انتهت الحرب وقلت الموارد المؤقتة؟.

وضحك الشيخ!.

\* \* \*

وكنت أعجب من الشاعر العربي كيف استطاع بأسلوبه البديع أن يصف المروج والرياض، والأزاهير، والورود والماء... وهو في هذه الصحراء لا شيء فيها أراه يعلمه الوصف لما يراه... كيف يصف ما لم يعيش معه... أين الأقحوان، والعناب، والخزامي؟.

ولكن العجب زال في رحلة رحلناها إلى الرياض... في «الوسمي» قد تواصل «وليه» يغمر الأرض بالحيا... لتعمر بالعشب والأزاهير!..

قمنا فجر اليوم من الدوادمي على سيارة.. فما شارفنا نفوذ «السر» وجدنا رمال الساقية المتحركة... لا نمر فيها إلا فجراً، أو ليلاً لثلاً «تغرز» السيارة، وجدت نفوذ «السر» روضة فيحاء فيها الأزاهير أشكال وألوان «سبع شكل».. كأنما هي قوس قزح.. لا ينكسر على الماء نور، وإنما يتفتح

بالماء نوار... رائحة عطر يفوح الشذى ليغرقنا ونحن المسرعين في خدر  
منعش... ننام فيه ونحن المصحون!.

ووقفت أنزل، وأتأمل... عرفت قيمة الغيث.. لقد كانوا يغاثون...  
فتمرع الأرض... يصفون أزاهيرها.. هكذا وجد الشاعر العربي في بيئته  
ما وصف... حتى إذا قرأناه اليوم، وجدناه قد «جغرف» الجزيرة العربية  
كلها في شعره!.

اقرأوا المعلقات تجدون جغرافية الجزيرة العربية كما وجد ياقوت دليته  
فيها... وكما وجد الهمداني ذلك... وكما نجده في صحيح الآثار لابن  
بلهيد!.

\* \* \*

\* قال لي: ماذا ترى في تخطيطي الجديد لأنهض بعلمي القديم.  
- وقلت له: أنت في كل ما صنعت تبحث عن الكم، ولا تسأل عن  
الكيف؟.

تريد الاسم اللامع لتبرز به متعاملاً معه لا عاملاً له، ولا مفيداً غيرك  
بعمله. وقد يكون هذا حسن في حالة من حالات..

وفي الوقت نفسه تترك المتحرك بالجدة والشباب والأمل... تردم عليه  
ركاماً... فلا يطيق أن يصنع شيئاً لك كما تريد... وهذا سيء ومسيء  
لأن فيه السوأيتين..

تسيء إليه بالردم فلا يظهر جيل منه، معه لنا. وتسيء في ما تعمل..  
ليسأم الناس لا يعيشون على طعام واحد... لا يصبرون على المن والسلوى.  
تتصورهما في واحد من القريتين عظيم...!

وعظيمك اليوم هو في الثوب الذي يلبس لا لقيمته .. ذاته .. وقد يتغير نظرك إليه إذا ما خلع الثوب الذي يلبس .. قد عظم به عندك ... وهذا أقيح!

هكذا فاتك أن تعمل للكيف لأنك مغرم بالكم من واحد فيك .. هو «الأنا» يعجبك لنفسك الجيد .. ولا تطيق أن ترى الجيد معلنا لغيرك عن غيرك .

ذلك تحكم «الأنا» .. وضعف الـ «هم» أو الـ «نحن». فتش عن الكيف ... عن الطريق لغيرك وإلا فسيغلق طريق بك لك عنك . إن الصنمية في تقدير الكم، قضاء على الصميمية في قوة الكيف . ولا يعني هذا إهمال الكم ولكن الكيف هو الأول والكم بعد ...!

\* \* \*

\* والشيء بالشيء يذكر ... عنوان كان يتيه به سركيس، يوم كانت الصحافة جهد فرد، ينحت المقالة والخبر، والقصة، كاتبها. ناقلها. فنانها. نحتا من عصب فوار بالطموح بالمشبطات غير مانع أي شيء عنده، كأنه مشاء يجرجر طلاب المعرفة ليقراوه ليفهموه. ليتفوقا بعد حتى عليه.

كان هذا أمس يوم كان الحلم يداعب العاطفة في نفس الرائد والمعلم حتى إذا تحققت الآمال. وتمايزت القيم، وبرزت الكفاءات، أصبح السعر في سوق سوداء. يرتفع الثمن أو يرخص كمادة في أهواء ورغبات الراضين والغاضبين والمخذلين والحافزين.

سوق سوداء في قيم الرجال ينخفض بها سعر الغوالي. ويرتفع سعر الامعات كالجواهر المزيفة تقليداً لقلادة نفيسة.

فالسوق للرجل اليوم كسوق العملة، يتحكم فيها قانون هو العملة الرديئة. تطرد العملة الجيدة.

هذا الشيء يذكر... فما هو الشيء الذي أتذكره حين أكتب هذه الزفرة؟ لا. لا. لم أتذكر الشيء.. وإنما أذكر به من يقرأ ما تقدم ليفهم ما تأخر.

## طب

\* في العالم العربي معركة .. تناقض .. لقاءات في ناحية وفرقة من ناحية، ويعني ذلك أن أسلحة تستعمل .. لم ينطلق فيها المدفع بعد على هذه الصورة المفزعة، وإن انطلق في مواضع أخرى على صور محزنة! .

السلاح الآن كلمة، وعمل .. وسائل الإعلام ترسل الكلمة مذاعة، مكتوبة، منظورة .. راديو جريدة، تليفزيون! ونحن هنا أصبح للكلمة الإعلامية مجالها في التوعية، والدفاع والهجوم، والجوار والتأييد... بقي مجال العمل... مجال العمل ينحصر ليس في النتيجة منه .. إصلاحاً وإفادة، وارضاء وانتصاراً.. بل أصبحت مجالات هذا العمل يتطور فيها مفهوم الماء، والكلاء، والنار... هذه الثلاثة فيها الضرورة لا تمنع، ومنها الفائدة تعمم، وعليها قام بناء مجتمعات سبقت. غير أنه جدت أشياء أخذت قيمته الماء، والنار، والكلاء... هي المدرسة.. المستشفى.. مجال العمل.. يعني سبيل العيش.

المدرسة فاتحة الأبواب على مصراعيها كضرورة لم تمنع عن أحد.. كعمل لوزارة المعارف أرفع رأسي، ولا أطأطؤها تحية لها! .

ووسيلة الرزق قد كفلت في أكثر من مجال.. في الوظيفة والشركة، والبنوك، وشئون العمل والعمال، والمصنع، ومرافق البناء..

بقى هنا المستشفى . . أريد من وزير الصحة، أن يخوض المعركة، بالإصلاح الملح، ولا أريد أن أضع أصبعي على الجرح، فلست الطبيب . . هو طبيب ينبغي عليه - لنتصر في المعركة أن يعرف أن المستشفى هو خامس المرافق الضرورية من وسائل الحياة الضرورية الماء، النار، الكأ، المدرسة، المستشفى! .

في الأخبار أن طبيباً وضع عين عجل بدلاً من عين إنسان . . . رفع «القرنية» بقرنية الثور فأبصر الإنسان بعين عجل .

فهل تبدلت الرؤية لديه . . . في عين يرى الإنسان كإنسان وفي الأخرى يرى كثور . . . ليت هذا التبدل يقع ليصبح الإنسان برؤيتين فتجدد مشاعره مرتقية إلى الحقل والخضرة والحرث والحمل والصبر . عين الآدمي تدفعه إلى تعقيد الأمور . وعين الثور تدفعه إلى تبسيط الأمور . لكن هذا لم يقع . ولم يعلنوا عنه . . هو لا يقع لأن الآلة لا تصنع الأسباب والنتائج معاً . . . الآلة سبب . . أما النتيجة ففي هذا «المخ» .

إن تغيير القلوب لم يصنع التبدل . . لأن المخ هو صمام الأمان فلا يقع أي تبديل . فهل يأتي يوم يوفق الطلب إلى زرع الأمخاخ . بدل الجريمة بغسل الأمخاخ؟ .

حين يوفق طبيب إلى زرع المخ من حيوان لإنسان فعندها تضحك الإنسانية على آخر تقاليع البشر . لأنه سيفكر بمخ قرد، أو ثور، أو حمار، أو أرنب . .

ولعل آخر ما يفعله مفلس أن يغير مخه بمخ قرد أو غيره، ويفتح سركا يدخله الناس بتذاكر ذات قيمة . حينئذ يصبح هذا الإنسان الحيوان - أي حيوان - صاحب الملايين . . . وزينة المتاحف، وركيزة علمية كبرى . .

عين العجل أغنت عن بنوك العيون.. فلعلهم شحوا بعيونهم كما شحوا  
بالدم عندنا فأصبحت فارغة حتى إذا طلبنا إغاثة مريض... بدأت عمليات  
التسول، ولربما هلك المريض!!.

## صور اجتماعية

## الندادة

وسألت نفسي؟ هل المتعة في لقاء الفكر بالفكر، ليكون الوفاق على كثير... وليكون التناقض في كثير...؟.

أم المتعة تكون أكثر في لقاء الفكر باللافكر. لقاء الوجود بالعدم، أو هو يعني تفوق واحد على آخر.. وهذه سيادة وتسلط، ولا تعني إلا إلغاء الندادة. إلغاء الصداقة بتثيت العبودية ثباتاً يرسخ في التابع المستضعف من هنا تفرح «الأنا» في الطرف الآخر لا يجد حلاوة المتعة بإثبات الذات ضاعت منه في قوله... نعم، نعم.. معك.. معك.. يصبح إمعة يعيش متحركاً بالحياة الميته، حيث لا يكون متاع بحياة حية!.

وانسرب سؤال، هل تصلح الندادة بين ذكر وأنثى؟ أترك الإجابة لهما أينما كانا... لأجدها في غرس تمرّة في توهج جمرة يغرّسها النديد مع نديده. «ومن ذكر وأنثى خلقهم» حتى أثمرت حتى الشرارة!.

التزاوج كفاءة من ندادة في الحيوان والنبات والإنسان هكذا الحياة «من كل زوجين اثنين».

هبني لا أملك ما يجعلني نديداً لعشير فهل أجد في معاشرّة المتفوق؟. قد أجد هذه اللذة في غمرة الوصال... ولكنني في الوقت نفسه أفقد لذة اللذة لأعيش لذة الألم... فالندادة في المعاشرّة هي التي تدوم معها

اللذة... ولا تلحقها حسرة من النظرة إلى تحت... جربوا نوعاً من معاشره الفوق لتألموا أنكم تحت.

كانت الأم جالسة في الصلاة فرأت ولدها ينزل على السلم درجة درجة. وفي يده سيجارة.. وحين رأى أمه ألقى السيجارة.. فقالت أمه: أنا شفتك قال: أعرف لهذا رميتها ولكني لو ظننت أنك تقولين ما قلت لما رميتها.. إن بعض أساليبنا في التأديب قد تجري مجرى التأييب وهو لا يفيد.

إذا خرجت من بيتك الساعة الثامنة (التاسعة فإنك لن تجد رئيساً على راس عمله.. لأنه يسهر الليل ويستغرق في النوم أول النهار... كان هذا الحال محتملاً في جدة لأن هذا طعمها... ولكن لا يحتمل في الرياض التي كانت تقوم مبكرة فلا تقدح الشمس إلا ويذهب ناسها إلى بيوتهم فما هو السبب.

\* \* \*

\* وسألني أحدهم بعد بساط طويل من التعاريج: هل ما ينشر في الصفحة السابعة الأحذية بقلم عبد الله باجبير أهو كاتبه؟ أم أنه.. هل يوجد له ويعدل؟

قلت له: لماذا تسأل هذا السؤال؟ فأنت من جيله وتعرفه؟!.

قال: ولأجل هذا أسأل.. أنا شايف هذا كثير عليه... ما كنت أصدق: أن هذا هو ما يكتبه بقلمه!! لا يكون أنت أو المدهش أو الجفري (تساعدوه)؟.

قلت: سؤالك هذا مصداق للمثل السائر... من عرفك صغيراً حقرك

كبيراً. عرفته زميلاً ونديداً فأنكرت عليه أن يكتب ما يعجبك؟ ثم هو شخص فيه شيء من الجفاء الظاهر يجعلك لا تقبل عليه.. ثم هناك بعده عن الآخرين وأردفت أقول له: أترك اقتنعت بأنه صاحب هذه الحروف؟  
قال: شهادتك تكفيني..

قلت: تمهل فأنت بإرجافك أرجفت بي. جعلتني لا أجزم بهذه الشهادة.. فأحتاج إلى أن أرى بعيني رأسي عبد الله باجبير يكتب أمامي.  
هكذا الإرجاف بالناس يزعزع اليقين. يشيع الشبهات. إن عبد الله باجبير هو كاتب حرفة المشرق. فلا تستكثر عليه هذا؟  
قال: أرجوك ما تقول: إني سائلك... ترى عبد الله صاحبي...  
أخاف لا يزعل!

قلت: سأكتب الحديث... وأكتم السائل... وسأجعل باجبير يجبر كسرهما ولا يسأل عنك... فهو في غنى عن معرفة ما تخاف منه.

\* \* \*

\* صور هائمة غير غانمة.. رافعة حرفها.. خافقة رمزها. غير ثاوية في رسمها. تعطي حياتها قيمة الميت فيها. ونأخذ من مهامها حياة الضلال يموت الضلال.

الضلال فيء يريح لصورة حلوة، والضلال قد يكون نفس الحيرة المحبة إلى الهائمين في عشق العشق وحب الحب.

فالحيرة عند المتقيء ضلال عذاب عذب. وألم لذيد، وخطأ الصواب حتى ترد إلى صواب الخطأ.

قلت له: تخير العاملين ليصبحوا أنداداً، وإياك أن تتخذ من العامل لك  
خادماً.

إن الأنداد ينهضون بالعمل لأن القيم لهم، والتقييم منهم تصنع النظافة  
في الأداء.. أما الخدام الأمعات فيقومون بعمل أنت مخططه. ينفذون ما  
تريد، ويتركون ما يريد العمل نفسه. شغلهم أن ترضى، والحرمان منهم  
ألا يرضى العمل.

قال: الأنداد تنجم عنهم مشاكل الحوار والنقاش، ولربما الاستقلال!  
قلت: إن الحوار نور لك، والنقاش كشف، والاستقلال قد تحدده  
الصداقة والندادة على صورة نظيفة.

أما الخدم، فيعملون عشرة أعمال طبق هواكم وبالخطوة المتصورة لهم  
يستبدون بالبقية وهم التسعون.  
الندادة لا تصنع الختل...

ولكن الخدمة تحترف التغليف والختل، والعذر بشيء من المسكنة...  
أتوب، أتوب... إن بعض الذين يسلكون أسلوب الأتباع هؤلاء في ذكاء  
خطر ينسدحون ليفوزوا بالخطوة... و«ليعملوا البحر طحينة».

قال: أنت صائم... فكيف أجريت هذا الحوار؟.

قلت: جرى في الليل قبل السحور.. يظهر أنك غاضب لأجلهم!...  
أتعرف الآن، إنك سمسار تورد الأتباع حتى تشبع من هواية الرجل  
المطلق مقبول الرجاء.

قال: خليها في شرك... كل شيء وله قيمة!.

## مُرْوَةٌ

\* والنجدة خلق، مروءة، شيمة قبل أن تكون وظيفة.. هكذا كان قبل أن تأكل الحضارة همم الرجال، وحينما أكلت التشريف جاءت تطعم بالتكليف.

كنا إذا شب حريق، أو عجز رفيق، وأجحف بأخ ضيق، جادت همم الرجال بـ «الفرعة» والنخوة، والعون، أما اليوم فعند التكليف في بوليس النجدة والإطفاء، والشؤون الاجتماعية الحل والسير والمسيرة ولكن لا زال في الناس الخير..

هي الجارة أم نبيل رأت طفلة لجارتها يحملونها، سقطت من دكة بالمزاح واللعب مع أختها ارتج دماغها، الأم نفساء وهي أيضاً لا تعرف، فأخذت أم نبيل الطفلة رغماً عن أمها، ونظرت إلى الأم! قالت أم نبيل رأيت ابتسامة على فم الأم لم أشهد طعماً للسعادة مثل ما ذقتها حينما رأيت الأم تنظر إلى ابنتها باسمه. أشرق على الوجه نور، وقلت لها: أنت صناعة السعادة لها، وصنعتها لنفسي، أعيش أتلمظ لذتها.

قلت: شيمة النجدة في وراثه أعراق، في طبيعة شعب لم يستعجم أتلمظ في النطق بالخلق الكريم يعمل في أعصاب ربّنا، قومنا.

وتكلمت الجارة النفساء، أم الطفلة، تذكرت لحظة في فلسطين لم أجد

من يحمل جريحي الذي مات، كانت هناك حال لا تعطي للشيم مجالها،  
إنه كرب، يلهي المرء عن أبيه وأمه وأخيه.

والمروءة في الرجال.. ليس لها مقياس يُفصّل على لابس تكبر في  
كبير لتصغر في صغير... كثير من أصحاب المروءات لم يكونوا يمتلكون  
ثمن المروءة وإنما هم تمتلكهم قيمة المروءة في أخلاق الرجال!.

حدثني أحد الأصدقاء أنه كان يزور يوماً شاعر القطرين «خليل مطران».  
يومها كان خليل موظفاً لا يتكسب بشعره ولا يأخذ أجراً من صحيفة.. كل  
رأس ماله راتب شهر مقرر لموظف، وبينما هم جلوس دخل عليهم رجل  
يمسح عينيه بمنديل... يشكو فاقة... ليس عنده أجر القابلة لزوج تضع  
وليدهما الأول.. وانتفضت المروءة في مطران فأفرغ جيبه كله في يد  
الباكي.. لقد كان المبلغ خمسة جنيهاً وبضعة قروش وانتهى سامرهم،  
وذهب هو وصديقه - أعني مطران - ، وبينما هما في شارع أشار صديق  
مطران إلى الرجل الذي كان يبكي من الفاقة قبل ساعات... كان خارجاً  
من حانة. يتمايل من السكر، فقال الصديق لمطران:

أليس هذا صاحبنا؟.

كأنما يريد أن يفضحه.. فارتبك مطران، وقال:

أدخل الزقاق... أدخل الزقاق لثلاثاً يراناً... لا نريد أن نمتحن  
حياءه... لا أريد أن أفضحه!.

## الأجيال

سؤال توجه به الابن لأبيه: رأيتك لا تلازم عملك هذه الأيام!! لا تبكر كما كنت!! هل تغير شيء في العمل؟! .

وأجابه أبوه: لم يتغير شيء.. لقد سرنا من نجاح إلى نجاح... لكنني أريد الراحة.. أريد التغيير بك، لك أريد أن تباشر عملك... تديره... فلئن ترثني حياً أتمتع بالمتعة أراها عليك خير من أن ترث متاعاً فيه من الحسرة عليّ أكثر من المتعة به.

أريدك أن تجدد بأسلوبك الجامعي... تواكب عصرك فقال الابن: وهذا ما أرجوه... غير أنني سمعت أنك تركت العمل في يد فلان صديقك... وقد ساء أن يغطي ما أسرت فيه بالخضوع إليك و«الدحلبة» معك. يرضيك بالطواعية حتى لو قلت له: البغل في الإبريق.. لقال لك: لقد رأيت أذنيه... خدرك خدعك.. فلا أريد أن أتسلم العمل إلا بعد فحص أعرف مدى ما أدير.. ومدى ما أنا مسؤول عنه، أتحرك به.

فقال أبوه: أتعيب عملي؟! إن هذا الفلان مخلص.

فقال الابن: سترى إخلاصه.. سترى الثمن الذي اقتنص مقابل التذلل الذي افترشت أعصابه فيها... وافترست عزته بها..

ورأى الأب كل شيء.. فعرف مقدار الفساد... ولم ينفعه جزعه،

غير أن الابن ذهب إلى بعيد ليكتب في أول مذكراته كأنما يخاطب أباه .  
(رقم «١») إن هذا المستدل لك لم يصلح لنفسه فكيف يصلح لك؟! .  
إن الرجل لنفسه أولاً ثم لك ثانياً ولا ينفك ما يبدو منه ولن ينفعه ما  
يناله منك!! .

(رقم «٢») هكذا بعض الناس يحبون كلمة (أنا) يضعونها فوق  
المصلحة. يهدرون بها المسؤولية، لأن فيها الدغدغة والترقيص لعواطف  
«الأنا» .

كبرياء مكبوت... أو آثار عقد تنفس بادعاء التفوق... ولو على  
الامعات!..

\* وكتب إليه ابنه يخبره عن حاله ثم يزيد بما أسره حتى جعل الفرحة  
تطغى على الخبر، وعلى أشياء كثيرة... أخبره أن زملاءه قد سمعوا لأبيه  
كما سمعوا عنه فسرهم ذلك..

إن الفرحة ليست بثناء الابن، وليست بتقدير الزملاء، ولكنها بالتقارب  
الفكري بين ابن وأبيه... بين جيلين... جيل الآباء، وجيل الأبناء...  
التقارب يقضي على الفصام... الفصام موجود، فلا ينبغي أن نتجاهله،  
فالضرر منه يعود على جيل الآباء لأنهم قد ينتهون قبل أن يحسوا به .

وجيل الأبناء يكبر إحساسهم به، ولا ينتهون منه إلا ليرتطموا بالحائط  
الفاصل بين الجيلين، وهو الفصام... لعلكم قرأتم الكلمة... قالها  
الفرجيني في أحد الأفلام المعروضة عليكم في التلفاز:

- إن أبناءنا يكبرون بآمالهم، ونحن رغم كبرنا في السن نصغر عن هذه  
الآمال! .

من هنا - ولهذه الكلمة بالذات - ينبغي أن ينزل الآباء إلى تحت قليلاً ليطلع الأبناء إلى فوق... فنحن لا نريد إلا فوق، ولكن هذا فوق لا يتحقق بالرفع باليد، وإنما بالارتفاع عن الشرر، والضغط و«الشخط، والمخط».

هم يعيشون المدرسة التي لم نعشها، والجامعة التي لم ندرس فيها، وشاهدوا حياة لم نشهدوها ويعني هذا شعورهم بمشاعر لم نعطيها لهم.. فهل نرفضها... أم نأخذ بعضها، أم نعطيهم بعض ما عندنا؟ .  
لكل شيخ طريقة.. فليتخذ الأشياء من الآباء طريقاً وسطاً لئلا يكون الفصام! .

## مرور

في كل يوم نمسح دموع أم على شاب.. كل يتجرع الأحزان على  
فقيده!.

ما هذا هل السيارة والطريق هم السبب؟ أم أن الطيش والسرعة والعيافة  
والتسابق. «والهرج» مع الركاب والإهمال من السائق نفسه بسبب هذه  
الإصابات. موت. كسر. عجز حزن.

كم من أسرة تعيش الأحزان على فتى ترقب منه الخير؟ كم من أب  
فقد ابنه!.

ارحمونا أيها السواقون الهواة. الهواة هم الأكثر هلاكاً وأسباباً... ولا  
أنسى سائق التاكسي فما هي «الدبرة»؟.

هل نمنع الهواة... هل نمنع التاكسيات؟ لن يحدث الحل!.

الحل من التعقل واليقظة! ما كنت أخاف ركوب السيارة، ايه رأيكم إنني  
أخاف السيارة اليوم أكثر من الطائرة. في العالم حوادث الطيران كثيرة.  
ولكن حوادث السيارات عندنا أكثر من حوادث الطائرة.

أنا من أنصار الطريق الصعب، والطريق الضيق، والخط الواحد.  
فالصعوبة والضيق والخط الواحد توطن عصب السائق قبل الحركة بالانتباه  
وعلى اليقظة.

طريق الطائف القديم. شرائع، زيما، سيل، لم تكذ تذكر الحوادث فيه لأنه صعب أما الطرق الأخرى فالسعة والسهولة أغرت السائق بالسرحان والسرعة والإهمال.

وحل آخر تعدل نظام الجزاء، بحيث يكون فيه الجلد، الفرش، لا ينفع السجن لئلا يقع الحادث... ولا يغضب على السائق فخير له أن يجلد من أن يقود.

قال لي: ليتك لم تنصح ركاب الموتسيكلات فقد أصبحوا يعاندون... بدلاً من أن يركب اثنان على موتيسكل رأيت ثلاثة... يعني إسراف منهم في العناد، وسرف منهم في إهدار الحياة.

قلت له: ليست النصيحة لصاحب الموتيسكل، وإنما النصيحة للذين يملكون منع هؤلاء من الركوب على الموتيسكل ثلاثة أو اثنين.

قال: لا يستطيع المانعون أن يتحكموا في كل شبر من الطريق.

قلت: هذا صحيح.. إذا ما حسبت أن التكليف هو على جندي المرور فقط... إن التكليف ينبغي على كل أحد... فكل واحد منا لو رأى مخالفة من هذه، وجند نفسه للتبليغ عنها برقم الموتيسكل لأمكن لقلم المرور أن يحول دون ما يهلك الناس، إذا رأى واحد منا طفلاً يبكي في الشارع يذهب إليه يُعينه.. حناناً ورحمة، وراكب الموتيسكل، ومعه اثنان قد تصرف بأخطاء طفل... فياخذنا الحنان عليه لنضع الرادع له!.

أعتقد أن هذا أسلوب ناجح في إنقاذ كثير من هؤلاء الذين يتصرفون تصرف الأطفال!

يظهر أننا نتخذ طريقاً غير مستقيم حينما نحمل على سائق السيارة لأن

الأصوات قد بحت في النصح، والتأنيب والتوجيه، والحال كما هو.. وفي نظري أن الاستقامة تأتي إذا ما عدلنا «الدركسون».. طريق الحملة على الركاب...

لماذا الراكب... أو الركاب - ملاكي أو زبائن تاكسي يسمحون للسائق أن يمشي على هواه؟.

ألا يخافون؟

من المؤسف أن كثيراً من الركاب هم الذين يحرضون السائق على السرعة، ويغرونه بالمخالفة، «برافوا عليك والله كبست له... اسبقوا لا يتعداك» وإذا ما قام عاقل ينهي، قال أحدهم:

- سيك.. خلي يسرع لا تعطلنا!

مع أنه هذا المحرض على الجري لم يقم من القهوة إلا «بالدز والزز» حتى يكمل البراد وما إليه... هو يهدر الزمن في القهوة، ويحرص عليه في السيارة!.

أنصح أن يوضع جزاء على راكبي السيارة... أو ركابها لأنهم شركاء مع السائق في كل ما ارتكبه من خطأ!.

\* \* \*

\* هل هناك متسع من الوقت لكي نفهم كل هذا الداخل إلى الأذن، أو المنقول إلى العين أو المندفع إلى الفكر فالوجدان؟.

كثير وفير متختم ذلك.. سماعاً رؤيوية، وانشغال بال، جالب بلبال! المؤشر بين عينيك والمسطرة المرقمة أمامك والمفتاح بين أصبعيك... تفتح تديره على محطة بعد أخرى... والجريدة والكتاب والقصة. تقرأ

كذلك ذلك فتصبح في زحمة من الأخبار والتعليقات المنسقة والمتناقضة فالبرامج الهادفة والمغرضة. ترفض بعضها وتقبل بعضها. . تستريح بالرفض، وتستروح بالقبول!

زحمة مربكة لا تدع للفهم والهضم والتمثيل والإفادة طريقاً، ولو كان ما تسمعه مقبولاً لما أراح، ولو كان مرفوضاً لما أرحت!.

من هذا التناقض يأتي القلق والإرهاق والبعثرة. فالراحة من ذلك أن تغلق الراديو، وألا تقرأ الجريدة، وأن تشد أذنيك عن السماع، وعينيك من المطالعة والنظرة وفؤادك عن الأوجاع.

تفعل ذلك يوماً واحداً في الأسبوع. غطاء دسم وسميك وفسحة في إغفاءة واسترخاء.

الغطاء الدسم تجعله فوق أعصابك، لا هو بالذي تعرق فيه أو منه ولا هو بالمثلج لتتشعر.

تنام أربعاً وعشرين ساعة سواء أغمضت عيناً أو لم يغمض لك جفن فالنوم للأعصاب... تخرج به من الواقع إلى أحلام.

الأحلام.. في الذكريات. في الأمل.. بالألم... بالحب... هذا في أعصابك معركة تعارك به حياة في نفسك، لتعيش الحياة النائمة في صحوة من الذكريات.

\* \* \*

\* صور عجزها من قوة الإرادة وإرادتها من ضعف هزيل مرهق في الإبانة عن مرادها.. ومرادها ألا ترى الفوق. حتى التحت القاعدة من فوق. فلولا متانة التحت لما ارتفع الفوق.

قالوا إن مدينة حديثة تعج بحضارة جديدة كل شيء فيها. . كل شيء لها. فلا يذهبان إلا عائدين بقوة التمكين لها.

وصحا الناس ضحى على طفل معلق في الفضاء طار هكذا. لكنه وقف لا يرتفع. لا يهبط. كان يضحك أول ما طار. ثم يبكي حينما شعر بالفراغ الهائل حوله.

وأرسل الناس حبلاً من العمارة فيها خطاطيف لينزلوه. وصعدوا بطائرة فلم يقدرُوا. غير أن مصلحة الجو والأعالي والفضاء. . أعدت طائرتي هليوكبتر ربط بينهما بساط وفوقهم مظلة. يضغطان بالمظلة. ويهبط الولد على البساط.

وصعد الطائران تنشر المظلة فوق الطفل وتحت البساط فنزل سالمًا.

ليست هذه هي المشكلة. . أنه يقدر أن يطير، وليس لديه القدرة أن ينزل. وذهبوا به إلى القاعدة العالية. . فأما أن تضيف قوة النزول. . . وأما أن تبطل قوة الصعود وال الطيران.

ولا أدري ماذا تم؟ فالخبر بقي معلقاً هكذا. . ليس فيه قوة الصعود لأن يصدق، وليس فيه ضعف النزول ليكون خرافة. . يمكن أن تقع في عصر الأعاجيب!!.

\* \* \*

\* وخفت عليهما المزاح!.

فما رأيت صاحبين كثر بينهما المزاح بالشتم أو المغايرة، أو حتى المقابل إلا وتكدر ما بينهما من ود يصل إلى حد القطيعة.

وخفت عليهما رجحان أحدهما على الآخر... هذا بما كبر به، وذلك بما كثر منه.

فما رأيت صاحبين زاد أحدهما على الآخر بما يكبر به من فضل، أو حمل الأثقال أو غير ذلك من التزويد إلا وأفسد ذلك بعض الود. ودخل الواغش بينهما.

فالنفوس تكره بما يشعرها بالخفض من صديق، لأن ملازمة الصديق تذكير في كل لحظة بهذا التزيد... يقابله ذلك الخفض.

وما رأيت صاحبين قد زاد أحدهما على الآخر بما هو الأكثر مما هو في أخلاق الرجال أو كفاءة الرجال إلا واعتري صحبتهما شيء من الامتعاض. يذهب بالأقل إلى تنقص صاحبه لتكون الفرقة والقطيعة.

وما رأيت، وما رأيت، وكثيراً من هذه وقد رأيت. كلها المفسدات للصحة. فكروا فيما رمزت. تصلوا إلى الكثير من هذه الفئات لصحة الأصحاب وصدقة الأصدقاء.

كل هذا جربت وعرفت وذقت. فهل تعلمت أن أعمل بما هو فيها. أحسبني لم أعمل الكثير. وإنما كل العمل الآن هو في تقصير الخطوط هكذا.

فقد كانوا يقولون: «صاحب ألف وامسك واحد» أما اليوم فيقول اعرف الألف وآلاف، وصادق الواحد ولكن لا تصاحب أحداً. المعرفة لا ضرر منها والصدقة نافعة، أما الصحة فشيء لا طعم له اليوم ولا لون، وإنما له ريح..

\* وسمعنا خبراً فلم يصدقه واحد منا، فكل ما ندرکه... ما نعقله  
يعد هذا الخبر عن التصديق لكن السرائر والعيون تفضح المكنون!.

كلنا نتمنى لو يصدق الخبر، ليستريح من الحوار حوله، فإن صدقه  
يعطي أعصابنا نوماً صحيحاً... تنام الأعصاب عن نور تعيشه... عن قلق  
يعيش فيها. ويصحو الوجدان، لعله يجد متعة في نية الاغتصاب لراحة  
الأعصاب.

وقلت لصاحبي: أنت لا تصدقه. ترفض توقعه لكنك تطلب أن يكون  
لا لأنه يخصك، ولكن لأنه يختص منك الطلب له تبعد به السرمدية في  
بقاء نقيضه.

إن هذا الخبر نقيض تفرح به عاطفياً، وإن رفضته عقلاً لأن النقيض  
تغيير لنقيضه، يحل مكانه، ولو لم يكن أحسن منه.

فالأمر ليس في المسيرة إلى ما هو حسن... إنه المسيرة نحو ما نبغي  
من نقيض حل مكان نقيض.

شقاء أن ترفض بعقل، وبلاء أن تصدق بعاطفة وسخرية أن ترقص  
جوانحك بشيء لا يصدقه عقل!.

مجنون يعد نفسه شاعراً من بين الشعراء في بلده... يضحك منه  
الناس، ويبكي منه أبناء «الكار» خشية المسبة والعار، لا يكره ضحك  
السامعين، وتسعده ضحكات الآخرين، فيضحك من ضحك غيره... لا  
يحسب ذلك سخرية، ولا رفضاً!.

فكل ما عنده... ما يبغيه أنه أضحك فضحك! وفي حفل كبير دخل  
في غمار الداخلين، يقف بين يدي عظيم، يسمع للشعراء، ورحم الشعراء

فلم يلبث حتى كان أمام المنصة، يلقي شعره!.

وسمع العظيم، فأخذ يضحك ويضحك، فأرادوا إخراجه، فمنعهم العظيم، كأنه يقول لهم: دعوه يكمل.. إن الشعراء غيره قد أجهدوني بالكلمة الحادة، وهذا قد أراحني بما أضحكني. إني اشتري الضحكة بالكثير، وهذا وفرها لي!! فلكم.

قال: ماذا تصنع في رجل نكد، مشاكس.. يعارض كل شيء. لا للشيء نفسه، وإنما لأنه صادر عنك، أو عن فلان من الذين يحب أن ينغص عليهم آراءهم، ونفوسهم، ومعدتهم وأرجلهم، وأيديهم... بينما هو يزيد النكد أكثر، وأكثر حينما يفق لهذا الذي أمكر إذا صدر عن غيرك!.

وقلت: لقد أخضعت نفسي لتجارب عدة معه.. رفضاً لما يعارض.. نقداً لما يقول: اباء على مزاح.. تركا الحديث عنه أو معه، بعدا عنه.. فلم أجد هذا يفيد لأنه يتحين الفرص فيسعى بزحمته الكبرى المستفيضة فيجلب النكد والغیظة، و«الزهق».. حتى إذا تعبت من جلده على ممارسة التنكيد لجأت إلى طريقة وجدت فيها الشفاء... فهو إذا تكلم أسمع، وأصفق له، وإذا اعترض أسير في اتجاه واحد، وإذا «لخبط» أو تخبط في رأي وفكرة أكون أنا معه في كل «اللخبطة» والتخبط!.

شيء من عملية الهضم السريع.. بطريقة البلع، أو «الصقرقة»، أتناول ما يصنع ثم اذهب إلى مكان خفي... أعمل غسيل معدة... لا بالتقيؤ وإنما بالتهقئة، والطرْد، وهكذا استريح من النكد!!.

\* \* \*

\* الشيخ العجوز قد حمل السبعين على كاهله، وأخذ يمشي من شارع

إلى زقاق «إياه» دله عليها أهل الخير. وأخذ يرق الدرجات الثماني... لأن الموظف الكبير يحب «العلالي»!. لم يكد يصل حتى وقف يستند على جدار... يكاد صدره يتمزق من قطع النفس... كأنما نهيجه له شخير!. الساعة الرابعة... قالوا له الموظف لم يحضر، فتنهده! «لوحق».. الكهرباء أحالت الليل نهاراً... سهر في الليل ليصبح حضرته نؤوم الضحى!.

وجاءه رجل.. ايش بك يا عم فلان... عازه خدمة؟ الموظف ما جا، ما يحضر إلا الساعة أربعة ونص.. قول خمسة.. أنا حاضر للخدمة!.

وناوله رقم المعاملة.. ليرجع تتساقط أنفاسه على الدرجات الثمانين لا تكاد تحمله ركبته.. فقال له المتطوع بأخذ النمرة: طيب هات... هات عشرة ريال!.

فقال له: عشرة ريال حقت ايش؟.

وأجابه: يوه يا عمي... عهدك عهد قمري.. زمن المروءة راح.. ولي.. المسألة بالفلوس... أنا هنا جالس علشان كده!.

وأخرج الشيخ العجوز كيسه... نكت الموجود فيه.. سبعة ريالات ونصف خذ يا ولدي والله ما عندي غيرها!.

- طيب هات... بكرة الساعة ستة تعال خذ المعاملة بس لا تنس الريالين والنصف أنت عارف والحال ما يخفاك!  
وهكذا يحصل في أحسن الحالات!.

\* قرأت وسمعت.. فتذكرت فصفقت فرحاً، ثم رجوت أن يقرأ ذلك المتمرون والمجمرون!!.

تذكرت كلمة الملك فيصل قدم بها الموازنة، فكيف رق كراحم، وأشفق كشارح، كان العمل مراده والإقناع مطلبه.. كأنما يقول لرعاياه: ما أرهقنا، فأرفقوا بأنفسكم تعطون ما فرض، لنعطي الدولة الأمانة والأمن والنماء بخطة تجيء بها الأرض وإنسانها، والخير لجانيه، ونبعد الشر حتى عن جانيه.. تذكرت ذلك.. فذكرت عهداً وعهوداً.

كان التاجر لا يعترف بما يملك فراراً من الإتاوة والدين الذي لا يرد يملك الألف.. فيدفن نصفها في التراب، ويشهر نصفها، خوفاً من ناهب بليل أو سالب بنهار.

ويذكر ما فرضه محمد علي باشا من إتاوات على الشعب فأرهقه.. لعلكم لا تعرفون أن كل مسمار يدق في خشبة عليه جنيهان في العام؟.

لقد فرض محمد علي باشا خديوي مصر على كل مسمار في طاقة أو باب أو رف، في أي خشبة إتاوة جنيهان... لا يجهز الجيش وإنما ليفقر رجالاً خالفوه. عرف عن قصورهم وما فيها من نوافذ وأبواب، ففرض على المسمار الضريبة.

ولعلكم نسيتم أن الضريبة هذه انقلبت على رؤوس الشباب بأخذهم عنوة باسم الجادية.. فيردمون هلكي في قناة السويس.

تذكرت هذا فحمدت الله.

ثم تذكرت طغياناً ما زال باقياً، هو استغلال المستغلين في وضع الأسعار اتكالاً على سند، أو اعتماداً على حظوة.

أعتقد إن هذا سيزول بالحزم رحمة بالآكلين..

\* \* \*

\* الشيخ مبروك.. الشيخ مبروك رجل مسكين عشه لا يدخل عليه أحد إلا بإذن، ومع المعلقة من الشواكل والكبد والكلاوي والكرش. تطبخ في برمة. وتقدم حتى إذا شبع وارتوى أذن لصاحب المعلقة أن يدخل فماذا يجد؟!

يجد المنقل يتوقد يتوهجل فيه بخور جاوي. لبان شحري. يتوه في ظلام البخور ويرتجف من أصوات من هنا وهناك.

أهي ترانيم الشيخ؟ أم هي أصداء الترانيم؟! شيء مربك. يسلب زائره اتزانه. فيحكى عن كل ما يريد ليأخذ من الشيخ العلم بما تخيل أنه قد كتبه. لم يكتم شيئاً في نفسه من رجفة الأعصاب. وذوبان النفس ويكتب الشيخ بركته ورقة ملفوفة في مشمع. يعطيها لزائره مقابل خروف مكحل وخمسائة ريال.

ويذهب الزائر ليسترد عافيته بعد خروجه من الدخان والتعاويد.. وسمع شاب مثقف ماذا يصنع الشيخ. فذهب إليه. سأله ما بك؟ قال بالإشارة أبكم. أخرس فقال الشيخ متى. قال: قبل يومين.

لم يستطع أن يعرف شيئاً فما أعلمه بشيء. وقال له: أنت... أخرس، جاي تمتحني فكاد الشاب يخور. ولكنه تماسك فلما عجز الشيخ عن الأرجاف.

في حكايات الأطفال التي تذاق في برامجهم هذه العبرة.. يقرأها عابر،

أو يحفظها معايير. وينساها من لا يجفل بشيء يسمعه، لأنه غير حفييل  
بشيء يقوله:

قالوا: أن رجلاً يعيش في ستر. . هو يعرف حاله. . . والأقربون إليه  
من أمره ما لا يخفيه، فلا يجرون وراء الخفي المستور.

غير أن جاراً حل بجانبه قد شغل نفسه بالتسمع والتلصص على أحوال  
جاره المستور. . . فنقب الجدار لسمع، ولعله قد وسع الغار ليرى. . .

فصبر عليه لعله يقنع بما تحصل مما كشف له، أو بان واضحاً بالسمع  
أو النظرة السارقة!! .

فلم يره قد كف عن التلصص. . . فأحضر دمية يحسبها الناظر  
إنساناً، وأخذ الجار المستور يكلمها. . . إن عندي مالاً من ذهب أخفيه. .  
كنز وجدته. . فلا أستطيع حمله أريد أن أبيعه بعشرة آلاف من الجنيهات،  
لا أذهب مع الشاري حتى أقبض، ثم أسلمه مفتاح الكنز وفيه آلاف  
وآلاف.

فطمع السماع، وجاء يعطي العشرة آلاف. . وسار ليسلمه الكنز، فأخذ  
حمار السماع لأنه تعب، ولمس ثياب السماع لأنه أعتز، واستعار مركوبه  
لأنه حاف. . . أي أن السماع سلم المال والحمار والثياب والنعال لجاره  
ليعطيه الكنز.

ورآهما الناس فعرفوا القصة وضحكوا وسخروا وما زال يمشي عرياناً  
حافياً وراء جاره الذي أدبه بهذه الطمعة.

وأخيراً زاغ منه. . ورجع إلى بيته في زحام الناس. فجاءه يبكي رد  
علي مالي وحماري وثوبي. . . فقال: أوتسد الضار، وتصك أذنك؟

قال: نعم.. نعم.. أتوب..

\* \* \*

\* فوضى الألقاب، والنعوت أصبحت وسيلة في سلوك المنادين والواصفين يتخذونها تعبيراً عن المقامات وتخلصاً من العتب.

صاحب المعالي. تطلق على غير الوزراء. وصاحب الفضيلة على أناس لو كان تقرير مقنن أو حياء مانع لما وصف به من ليس هو بالكبير، وإن ادعاها فهو كما يقول أهل المدينة: فلان مثل كبار الصلب كبير عند غيره.

ولقب الأستاذ تفشى حتى لقب بالاستعمال العامي له. فهو لقب يطلق على كثيرين، كالاسطى، والأستاذ «بالدال» الأسطى المعلم في الصنعة. من السمكري إلى الحلاق كلهم أسطى. عامية أستاذ.

والأستاذ - بالدال - يستعمل في نجد للبناء، معلم البناء.

ففرق بين استعماله الأصيل المأخوذ من الفارسية، وبين استعماله الآن. فقد كان هذا لقب الأستاذ الرئيس ابن سينا والأستاذ الإمام ابن اسحق الاسفرائيني، والأستاذ الملك كافور الأخشيدي.

والأعيان والوجهاء. ما الفرق بين العين والوجيه. لا فرق. ولا تفريق. ولكنه سرف استعمال النعوت.

وحتى لقب صاحب السعادة والمعالي وما إليها... مأخوذاً من غيرنا... ما كنا نعرفه... أصله: سعادتلو... دولتلو... فضلو... سماحتلو... أخذتها مصر فعربت هكذا صاحب المعالي الخ.

ثم أخذناها، يعني قلدنا المقلدين، مع أن المقلدين ألفوها!!

أرجو أن تحترم النعوت والألقاب بتقدير في السلوك تتعارف عليه. فقد

أهدرنا كلمة الشيخ كما أهدرنا غيرها فأصبحت نعتاً لكل من هب ودب...  
ولا أريد أن أزيد...

حبذا لو تقرر شيء في الإذاعة والصحف ليكون علامة للناس ودليلاً  
للاستعمال.

\* \* \*

\* وركب حماره الفاره... يسير به إلى مكان بعيد يسرح... يستنشق  
الهواء، ورأى بيتاً من الشعر في شعيب قرب مهراس فيه ماء، ودنا يسلم  
عل أهل البيت، فرحبت به عجزواً ما عرفها لأنها ملثمة، ومعها طفلان،  
وبالفناء شويهاة، وفرس وناقة، وقدمت له الضيفة... لبنا، وتمراً... فشبع  
وارتوى كأنما لم يذق طعاماً من أيام...

نقاء الهواء، ورقة الجوى، وصحوة الوجدان، والأحلام ينظر بها إلى  
بعيد!

وسألها: بيت من؟

قالت: ها هو «رجاء» قد وصل.

وسلم صاحب البيت، فلم يعرفه صاحب الحمار، ولكن رجاء سأله:

أحمد... أحمد... من جاء بك؟

قال: رجلاي... يقودهما الهوى... لم أكن أعلم، ولكن بعض ما  
في النفس يكتم العلم، ويظهر العمل، ولو سعياً على رجل.. ولو على  
حمار ما كنت أدري أنك هنا... لماذا تركت الحضر إلى البادية؟

قال: لقد سئمت!.. ثم هو قسم ألزمت نفسي به... نفذته حينما كبر  
«سلمان» فتركته له المال والدور وجئت هنا أعيش مع الجبل والماء والعشب

والصمت، والرغاء والثغاء، والوقار في سكون الليل... لا يفضح مشاعر الوجدان.

ولكن «سليم» و«سالمة» ماذا يصنعان هنا؟.

قال: لقد حل الأجل... خذهما وليدخلهما سلمان المدرسة... فالعصر.

\* \* \*

\* والشيء بالشيء أحياناً ذكره في الكانون... يعني لا ينبغي ذكره خشية تعكير المزاج... فالمزاج في الصيام مرهف، أو «مدلع»! أقل حاجة «تعكّنه»!

قلت لها: ليه ما تأكلي من هذا؟ لم تجب قولاً ولا عملاً مما يتعلق بأكل أو لا أكل... إنها قامت من المائدة مسرعة لتعود بعد لحظات، وقد غسلت وجهها، ويديها، وفي عينيها يقظة من كلل... من إرهاق مارس الحلق، والفم، والأعصاب.

«ذكره في الكانون» لئلا يعكر قارىء!.

طيب ما هو على السفرة، وهي عرفته ورأته!.

لم يعكر المزاج بالمعاملة غرماً ورؤية وربما طبخا... فكيف تعكر كلمة «كلي»؟.. قد يبدو هذا من الغرابة بمكان - ولكنه ليس بغريب... إنه طبيعي، ففي كل العمليات الأولى من غلاف، وطبخ ورؤية قد مارسته وهي محصنة أن لا تأكله... أن لا تسأل عنه... كأنه والآنية التي طبخ بها سواء... هي كعملية الانصراف المخطط له... أما في لحظة الأمر: كلي... فإنها ليست على حالة فيها الاستعداد للرفض... لقد فوجئت

بـ«كلي» فلبست الأمر على أنه متوقع حال، أول هزة في المقاومة، ولبست مرة ثانية أن هذا بين أسنانها، واندمجت في حالة الأمر والشروع كأنها في حالة الأكل بحالة التذواق للطعم والنكهة... فتحرك «الاشعور» بالعقدة شعوراً ظاهراً فكان ما كان في الحلق، والفم والأعصاب!.

لا تعكروا الأمزجة في رمضان... فبعضها أصبح في رقة الرقائق اللاعشر... نأكلها في صينية «بريك» ميد إن حسن قزاز!.

قمر الدين... قمر الدين... يا ميش؟

\* \* \*

\* كل يسأل عن قمر دين. أين هو؟ قالوا: إن الموجود هو أنقاض المخزون من العام الماضي... مخزون قديم... بعضه أسود. زنج. اشتراه الناس لأنهم ألفوا القمر دين في رمضان... الربطة سعر ثمانية عشر قرشاً أو بسعر ريال في العام الماضي ومن الجديد الطازج يبعث هذه الأيام بريال ونصف. وبعضهم قال لي: لقد وصلت قيمة الربطة بخمسة ريالات. لم أصدق.

ولكن الجنون فنون. والتعلق بالعادات فيه كثير من الجنون... وذهبت مع المخبر عن السعر بخمسة ريالات نسأل عن القمر دين. لا أريد أن أشتري.. فقد اشتريت من قبل ما يكفي على أساس كل يوم ربطة. ولم أكن أدري عن المخزون والشحيح والغالي والرخيص.

وسألنا: أين القمر دين... لا تستعجل وصلت السيارة إلى المدينة. بعد يوم أو يومين يصل...

وبكم السُّعر إن شاء الله؟.

قال: ريال.. ريال إلا ربع. حسب المجلوب، أو حسب المطلوب..  
وفرح صاحبي. لكنني سألت نفسي.. أصبحت حكاية القمر دين كمالي.  
ماذا يجري لو أضربنا عنه. وتركناه. بدون هذا الجري والشعور  
بالحرمان..؟.

نترك التمر خير أرضنا، وعصير الليمون، وشراب التوت، واللوز  
والحمر، لأن الفتنة بالقمردين. أصبحت عادة عارمة.

الحياة ليست ياميش، ولا نقل، أنها ادخار وغناء عن كثير من  
العادات. كلوا التمر والعنب فقد بقي العنب الطائفي اللذيذ في هذا الشهر،  
كلوه أو اعصروه، واشربوه بدل الياميش.

إن البادية تستغنى بالروب والمضير، ألا تستغنون عن الياميش بعصير  
الليمون..؟.

يا هادي وأنت الدليل.

## الجمال

ومشيت من سريري أتحامل على عصاي... أصل إلى عيادة الطبيب،  
ورأيتها تمسح البلاط، كأنها تعطره بشذاها. فالأناقة ليست في إغراء  
الجمال، وإنما في نداء الفتنة يصنعها الجمال في العاشق!.

وحسبني أمد يدي بتلقائية الطبع.. أرفع ثوبي عن البلاط، فارتدت  
اليد لا تجدني ألبس ثوباً، فقد كنت في بلد لا يلبس الثياب.

ورأيتها كلها.. بالنظرة الخاطفة، حتى إذا انتهيت لم أتصنع الاشفاق،  
وليس هناك معنى للشماتة. فالاشفاق لذة النذالة والشماتة نذالة اللذة!  
وابتعدت كأني لم أرها. وبعد يوم أرسلوها تذهب بي... أمشي وراءها في  
النفق. أصل إلى طبيب، ومشت (دليلة) فإذا بي أراها كلها حتى إذا أمالت  
جيدها على كتفها الأيسر، كأنها تصك أذنها اليسرى أن تسمع الصمت في  
النفق... لتسمع بأذنها اليمنى النطق الصامت... تجرني إليه، كأنما هي  
تمشي باثنين: جسدي ومشاعري، فالإغراء كثيراً ما ينقص به الجمال...  
أما عرض الفتنة من بعضها فرسالة الجمال إلى الذين يعشقون الجمال.

حين أمالت جيدها كنت أراها الظبية العنود فإذا بي أراها: بعضها  
بعضها!.

تلهمني أكون التابع في المشي، والمستبعد للجمال. كان كل بعضها

على نسق ليس فيه إلا تنافر البعض للبعض، فلولا تنافر الجمال في الطبيعة... لما أصبح كل ما في الطبيعة قد طبع على الجمال.

ماسحة البلاط... تخيلتها تلك العظامية التي تغجرت.. سرقوها طفلة، ففجروها تلعب بالعنز... وتخيلت إني «أحدب نوتردام»!

كانت صاحبة العنز تعيش في طهر العفة لأن العنز اللعوب تعطيها بعض ما يقيتها. أما هذه - ماسحة البلاط - فلم تعط قوتاً إلا أن تمسح البلاط، ولعلها بذلك تفوقت على «غادة الكاميليا»، فلئن قهروا جسدها بالشغل الشاق، فإنهم لم يصلوا بعد إلى أن يقهروا عفتها، أو أن يذلوا طهرها. أما غادة الكاميليا، فأجاعوها... حتى إذا قهرت العفة وأذلت الطهر ترمى الرجال حول قدميها.. منعوا عنها الرغيف، فإذا هم لا يمتنعون أن تكون السيدة عليهم... يبذلون الجواهر تحت قدميها.

كل ذلك تخيلته، وكأنما الصمت المطبق بيننا - لا أعرف لغتها ولا تعرف لغتي - قد استحال إلى كلام جديد بابتسامة حلوة عذبة وجهتها إلى وجداني، فإذا بي أراها كلها، وأشبع من رؤيتي لها حين رأى الفؤاد بعضها بعضها، كما قال بشار: (إن الفؤاد يرى ما لا يرى النظر)!!.

رأيتها كلها بالبصرة العشواء، وذقتها بعضها بعضها بالبصرة الملهمة العاشقة.

لقد تركتني أحب الغربة... حتى استحال الوطن إلى علاقة!.

كم هي - في رقتها - قد أصبحت قاسية، والحي يصبح سيئاً بالقسوة منه وعليه، وعبداً إذا ما تراخت حبال القسوة إلى لين، أو ملاينة!.

إن الحب لا يعرف إلا أن يكون السلطة. يتوزعها سلطانان: الحبيب،

والمحبيب، فالحب بلا سلطان فوضى شيوعية .

لم تكن ظبية من طباء الحمى، وإنما كانت ريماً غسلها الثلج، عاشت في أحضان (الألب) ولعلي بما يعجزني عن الإباحة أن أبوح بقطعة من ورق ورد كتبها الرافي: .

- (أريدها لا تعرفني ولا أعرفها... لا من شيء إلا لأنها تعرفني وأعرفها.. تتكلم ساكنة، وأرد عليها بسكوتي. صمت ضائع كالعبث، ولكن له في القلبين عمل طويل .

الفرح بالجمال لذة تقتل نفسها، ولا يمك على الجمال روح النعمة خالدة في القلب إلا الحزن به: كيوم الغيم... ترى في سمائه قطعاً كأنها الهاربة من الليل، تختبئ الشمس فيها ثم تسطع من بعد سطوعاً يخيل إليك إنها ما توارت في خيمة الغنائم إلا لتنضو غلائلها الشفافة وتتعى. يريد الجمال المعشوق أن يثبت فينا فيغيب عنا. إذ كان بذله يفنى منه على قدر ما يعطي، فسواء امتنع وعز مناله... كان جماله في نفسه بمعانيه، وجمالاً فينا بالمعاني التي هي فينا، وكان له من اجتماع الحاليتين حالة جمال ثالث هي في ألم الرغبة المستمرة، أو ألم الغيظ المجنون، ومتى خلق لنا الجمال من قصر الزمن أو طول الزمن، ومن المتاع بالحسن العذاب بتمنيه... فقد ارتفع عن انسانيتنا وجاءنا من ناحية سره الإلهي)!! .

وما أجدني بعد الرافي إلا أن أتغنى بقصيدة الشريف الرضي أنشرها  
أذكر بها الذين لا يتذكرون ما عندهم من تراث:

يا ظبية البان ترعى في خمائله      ليهنك اليوم أن القلب مرعاك  
الماء عندك مبذول لشاربه      وليس يرويك إلا مدمعي الباكي  
هبّت لنا من رياح الغور رائحة      بعد الرقاد عرفناها برياك

ثم انثنينا إذا ما هزنا طرب  
سهم أصاب وراميه بذى سلم  
وعد لعينيك عندي ما وفيت به  
حكمت لحاظك ما في الريم من ملح  
كأن طرفك يوم الجزع يخبرنا  
أنت النعيم لقلبي والعذاب له  
عندي رسائل شوق لست أذكره  
سقى (منى) وليالي (الخيف) ما شربت  
إذ يلتقي كل ذي دين وما طله  
لما غدا السرب يعطو بين أرحلنا  
هامت بك العين لم تتبع سواك هوى  
حتى دنا السرب ما أحييت من كمد  
يا حبذا نفحة مرت بفيك لنا  
وحبذا وقفة، والركب مغتفل  
لو كانت اللمة السوداء من عددي  
على الرجال تعللنا بذكراك  
من بالعراق، لقد أبعدت مرمك  
يا قرب ما كذبت عيني عيناك  
يوم اللقاء فكان الفضل للحاكي  
بما طوى عنك من أسماء قتلاك  
فما أمرك في قلبي وأحلاك  
لولا الرقيب لقد بلغتها فاك  
من الغمام وحيهاها وحياك  
منا ويجتمع المشكو والشاكي  
ما كان فيه غريم القلب الاك  
من أعلم العين إن القلب يهواك  
قتلى هواك، ولا فاديت أسراك  
ونطفة غمست فيها ثناياك  
على ثرى وخذت فيه مطاياك  
يوم الغميم، لما أفلت اشراكي

\* رأيتها تمشي... كأنما الأرض هي التي تمشي بها... لا تحس  
بوطأتها... ذلك أن جمالها قد صانه جلالها... كنت بجانبها مرات  
ثلاث، وهي نازلة على السلم... الدرجات تصعد إلى فوق... كما هي  
قد أعطتني الصعود وأنا تحت إلى فوق فوق!!

فلئن كانت سرعة الضوء طول الزمن، فقد كان الومض من نورها أسرع  
بها إلى بها وبني إلى غموض النظرة إلى ما حولنا... لأنها مشغولة بأن  
تكون الوقار والجلال، وأنا مشغول بأن أكون المستعبد لهذا الوقار

والجلال... فعبودية الحب سيادة وسلطان، أما سلطان الحبيبة فإمبراطور  
يشعرك بأنه لك وحدك بينما هو ييسط سلطانه على كل الذين نظروا إليه!  
رأيتها.. كاسية غير مبتذلة، امتلأت عيني منها... لا لأنني أبصرتها،  
وإنما لأن فؤادي كان هو العين التي نظرت إليها!.

فهل تصدق أن من يمشي على عكاز يتحسس الطريق... لا يمتلك إلا  
باصرة عشواء.. يشرق النور في عينيه، فيرى بعضها كلها!.

بينما هي - وقد جلست للمرة الثانية وجلست جانبها مصادفة - ما  
تعمدتها بخطواتي الجارحة، وإنما كان العمد من نداء خفي أرسلته،  
فاستجاب له المنادي الخفي في جوانحي، وامتلأت نظراتي من جمالها،  
فإذا بنا كل منا جالس بجانب الآخرة. للمرة الثالثة.. كأني لم أجد كرسيًا  
إلا بجانبها لأن كل المقاعد قد امتلأت، واحتفظ كرسي بأن أكون فيه...  
كأنما الجماد شاركني حبها!.

لم يكن الحب عن ترصد، أو عن عمد في أي وضع من الأوضاع،  
وإنما كان ولم يزل رهن المصادفة تصنع التوقيت والمكان والمواجهة.

وهكذا... امتلأ فؤاد الشيخ بجلال الحب النظيف... لهذه التهامية  
التي هبطت من السراة... تنشئتها تهامة بأسلوب الإعارة، فكل ما فيها:  
جمال السراة، وكل ما لها أن تكون تهامية السكن والبيئة والمعيشة.

هذه التهامية ذكرتني بالبيتين من اليتيمة (لدوقلة المنبجي):

أن تتهمي، فتهمه وطني أو تنجدي... يكن الهوى نجد  
ضدان لما استجمعا حسنا والضد يظهر حسن الضد

فقد وصفها بهذين الضدين :

فالوجه مثل الصبح مبيض والشعر مثل الليل مسود

ولعل الحجازي التهامي «عروة بن أذينة» قد رآها مرة ثانية بعيني حين

قال :

إن التي زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها

بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة... فأدقها، وأجلها!!

حتى إذا قال بحسرة الواجد: (ما كان أكثرها لنا... وأقلها)!!

وبحسرة.. قلت هذه الصورة.. أصور بها حالاً... قلت:

- عفة الشاب قهر السلوك، وتعفف الشيخ سلوك القهر!.

ذلك أن الشاب يزهد في الاستجابة حين توافيه. أما الشيخ فتزهد به

الاستجابة لأنها تجافيه!.

ولكن هو الزمن هكذا... فانتحاره يأتي بصورة من اندحار الصور

الجميلة، وحياة الزمن في لحظة واحدة تعطى صورة المفاجأة لكل

الجمال... حتى لترى أنها أجمل من رأيت. تقهرك أن لا تقلب صفحات

الماضي لتقارن بينها وبين من سبق.. ذلك أنها قد ألغت كل من سبق!!.

كل جنائيتها.. هي في هذا الجني (الثمرة) المعطر الذي أنساني الأنين

على المحترقة. وأعطاني الحنين إلى من سبق، فإن كل من سبق قد تجسد

فيها.. حتى المحترقة!!

## حكايات وأحاديث

والشيء بالشيء يذكر... هو عن الأصيل والبديل، تحكي حكاية سمعتها في الأردن:

قال لنا أحد العلية من أهل «فيلا دلفيا» عمان: لقد تحدث إلينا السيد سعيد المفتي الرئيس الكبير قائلاً: أسمعتم حكاية الأصيل والبديل؟

كان في قبيلة من قبائل «الطاغسطان» شيخ جليل يرأسها ويدير أمورها.

تدين له القبيلة بالطاعة والولاء وهو يعطيها الرعاية والحدب والعون... مات فأخذوا يفتشون عن رأس يدير القبيلة.

فسمعوا أن شاباً في القبيلة فارساً وكراماً وذكياً فذهبوا إليه، يطلبون منه تولي الزعامة فيهم:

فقال لهم: أمهلوني شهرين أرد لكم الجواب، وأمهلوه.

وأخذ يفكر، ثم اشترى حصاناً كديشاً ليس هو من الخيل التي يركبها، وقرنه بمهر أصيل من خيله العلف الواحد، ويعسفها على طريقة واحدة... ويعتني بهما العناية الواحدة.

وانتهى الأجل، فاجتمعوا لديه، فقال لهم: عندي تجربة، أجربها أمامكم يكون فيها الجواب لكم، أقبل الزعامة أو لا أقبلها:

هذان الحصانان، جعلت لهما أمد سباق في نهايته خندق سأجري بهما إلى الأمد، تجدون الجواب.

وركب فارسان الأصيل والكديش وساط كل حصانه في الهواء يفرقع السوط له صوت.

وجرى الكديش فلم يصل إلى الخندق حتى هوى فيه ونجا راكبه بقفزة تعلمها. وجرى الأصيل فلم يكد يصل إلى الخندق حتى لوى عنقه يتفادى السقوط فلا يجمع في الهوة فنجا وأنجا؟.

فقال في هذا الجواب. فأنا لست الحصان الأصيل ولو اكتسبت خلق الأصلاء، فإن معدني النحاس ينضح فيفضح.. أخاف عليكم السقوط في هوة لا أريدكم فيها.

فقال واحد: هذه أصالة.

فقال الشاب: هي التفكير أو التدبير اكتساباً... ولكنها ليست في الدم والأعراق انتساباً... ويرحم الله أحمد بن داود في حديث له مثل هذا مع المعتصم عن الأصول والفروع.

## صور

تشاجر قرد وغزال... فالقرد أراد أن يأكل فصاً من لوز، رماه إليه الطفل أحمد، وسبق إليها الغزال الأليف فأكلها. فهمهم القرد وأخذ «ينذر» يقفز، يدور. يريد أن يلطم الغزال لكنه يخاف الطفل أن يحرمه لوزة أخرى.

ودنا القرد من الغزال يقول له... نحن الآن عشراء... فلماذا لا يكون بيننا تعايش سلمي... تأكل البرسيم بدلاً عن الحنظل وأكل اللوز والحمص بدلاً من الموز... آه. أنت وجدت البرسيم وهو خير من الحنظل. أما أنا فضاع الموز عليّ. وأي شيء أحسن من الموز؟!.

وجزع الغزال ونظر إلى الطاقة... يفتش عن «الفاغية» أخت أحمد... فقد كانت تحب الغزال وتكره القرد على العكس من أخيها أحمد يلعب مع القرد... يريدونها أن تناصره. فإنه يخشى عريضة القرد ويخشى جور الطفل.

ونزلت الفاغية تسأل؟ وحتت على الغزال.. فضحك القرد وضاحك الطفل، ثم قال: شايف الفاغية تحب الغزال... «إن الطيور على أشكالها تقع».

فأمسك أحمد عصا وضرب القرد. يقول له: هل أنا قرد وقعت على شبيهه؟. أتشتمني... وتتغزل في أختي.. أما قرد. فصرخ القرد يبكي

فقالت الفاغية: افصلوا بينهما هذا في حظيرة وذاك في حظيرة.

ورضي الغزال بالانفصال... أما القرد فقال: أنا لست وحشاً  
انفرادياً... أنا حيوان اجتماعي أعيش قطعاناً، لا أنفصل. فأحسن من  
الفصل أن تجنّبني الفاغية كما تحب الغزال.. وليأكل الغزال كل اللوز...  
فما دمت قد فقدت الموز فلا يهم أن أفقد اللوز... بس أريد الفاغية أن  
ترعاني كما ترعى الغزال.

فقالت الفاغية: يا دمك!.. هو اللي فاضل... أحب القروء!!.

\* \* \*

\* وفي شيء من الحزن على أطفال دفنوا تحت أنقاض جبل من  
الفحم، وكانسانيين تشارك الشعب البريطاني في أحزانه على المفقودين تحت  
أنقاض دفنوا على مقاعد الدرس، وأمهاتهم سكّبن الدمع، وآباء تعتصر  
الحيرة والحسرة.

الحزن عميق في قلوب الآباء والأمهات ولكن السخرية تأتي من هؤلاء  
الذين يقولون: كيف انهار الجبل؟ الأرض رخوة؟ تحته ينبوع ماء تحرك به،  
فساء ليهلك!. كل هذا افتراض الخبراء يولعون بتعيين الأسباب تعليلاً  
وتخرصاً!. فهل هذا يرد غله، يشفي من حسرة وألم.

الحقيقة أن العلم قد خان الذين بنوا المدرسة قرب كوم من الفحم  
يفرض انهياره، فهم لا يخطئون أنفسهم على ما سلف، وبيحثون عن  
الحقيقة فيما غاب عنهم.

سخرية الخبراء من الناس، تجعلهم في كثير من الأحيان موضع  
السخرية من الآخرين بهذه التعليقات والافتراضات.

العلم قناة أنبتها الزمن، وضعت منها التجربة درع وقاية، ولكن الكوارث الطبيعية بأسبابها وأفعالها ودمارها لا تخضع للعلم، فهي الستارة لم يركبه انسان في قناة علم، ولكنه ركب الخالق في سنن الطبيعة خلق جبالها وأنهارها وسكونها وزلاها.

ومهما تحوط العلم، أو تكهنت الخبرة، فالعمل يفعل هذه السنن يأتي رغم كل تحوط لو أن كارثة حدثت كهذه في بلد جهل، ولكن ماذا يقولون في بلد لا مجال فيه للعلم، فقالوا اهمال، كله يسير على نهج الخبرة، ويزعم أنه أمد الدنيا بالخبراء.

ما أضعف الإنسان:

ميتة راعي الضأن في ضأنه كميته جالونيس في طبه  
عزاء لشعب لم تجدنه كلمة رثاء... حتى في الذي صنعته

أيد من أيدي أبناءه بناء الإمبراطورية ودهاقنة الاستعمار.

عزاء للإنسان في فقيده

\* \* \*

\* ودخل إلى مكتبه يريد أن يخلو... إما إلى القلم والقرطاس، وإما إلى الكتاب...

وفتح الباب... فوجد على المكتب مشهداً من تمثيلية رائعة كان المؤلف، والمخرج، والممثل، والمشاهد، طفل لم يبلغ العاشرة بعد... لبس ثوب أبيه الفضفاض والعباءة، والغترة، والعقال، ولم ينس الحذاء والشراب... أراد أن يكون بلباس الرجل كاملاً... وجلس على المكتب

يمثل لنفسه، ويشاهد نفسه... ليست هي عملية جنون منه، ولكنها عملية توزيع المشاعر...

ورأى أبوه هذا المنظر... فصفق له لتتم الرواية فصولاً، فمن طبيعة المسرح والتمثيل أن يكون هناك تصفيق، وكما هو مطلب الممثل أيضاً... يقابله بانحناءة فيها الاعتلاء - ولو بإرسال الشكر - !. سواء كان بهزة الرأس، أو اللثم بأطراف الأصابع!... مشهد مضحك لأنه من عمل الأطفال...

كان الإضحاك عميقاً ليس هو من عمل الطفل، ولكنه من تقبل الأب لهذا الإضحاك... مشهد تتجسد فيه أعمال الأطفال من تجسد الآمال في الخيال... أسطراً على ورق، أو على صورة كهذا المشهد!

ولكن ما يبكي الرجال... هو أن ألبس - وأنا الرجل - الثوب الفضفاض لا أقدر على السير به لأداء ما يراد عمله.

تمثيلية الطفل مضحكة، وعمل الرجل على صورة من عمل هذا الطفل فيه ما يبكي!

إن الذين يلبسون أثواب غيرهم لا يستطيعون أن يسيروا بها الحياة، ومن أعجبهم المشي في أسواق الحياة!

فالذي يلبس ثوب الشتاء في الصيف، أو ثوب الصيف في الشتاء... يسمونه الصفيق.. أما الذي يلبس الأثواب الفضفاضة.. لم تفصل عليه فأحسبني أسميه الرقيع...



\* وما أكثر الأحاديث تجري بين صديقين... يتقابلان في صدق

الأحاسيس، وقد يفترقان في سلوك... ما أكثر هذه الأحاديث... فمنها ما هو التافه يمر دون أن يترك أثراً في نفسيهما، ومنا الواخز في سخرية... الجارح في نكتة، فلا يمر إلا وهو الشيء... الشيء قد فقده كل منهما ليجده أحداً مجال فكرة... عرض تفكير... موضوع تعليق... لا يقدر أن يكتبه عن قارئه... عن ناسه، لأن احساسه بهؤلاء الناس يعمق الوخزة في وجدانه... تشرق به النكتة الجارحة لتجعل منه ناشراً لذلك، منتشراً به... ومنها الصادق في إيمان، أو المكذب لباطل فيأخذه الواحد منا فكرة في كلمات... كل العيب فيها، ومنها أنها لا تلقى عند الآخرين ما تلقاه في نفسين.. شغلها المراد والمال، والتوقع!.

شيء مطمئن إلى حد بعيد، وهو في الوقت نفسه المحير إلى حد أبعد.. المطمئن أخذ ما يشتهي، ما يليق.. والحائر لا يقدر أن يطرح مالا يريد... لأنه عما يليق!.

وقلت له: لقد اطمأنت إلى النهاية... لقد انتهيت.. فأنا قانع بما أنا فيه.. لما أنا له.. لما هو لي! وقال: هذا صعب.. صعب.. كيف تطيق؟ النهاية موت لحياة نعيشها، ولو كنت تمشي على الأرض! وقلت له: إن الدمار في هذا كما تتصور أن أستنيم إلى النهاية في كل ما أعيش له.. إن النهاية لي على صورتين.. فهي في الأول بداية للثانية.. نهاية في ما أطلب، أو أشتهي، وهي البداية لما أعطى... لما ينفع! وقال: هذه نهاية الأشياء.. يعيشون للناس اباء... لأن البداية لهم أبناء تقتضي رد الجميل.

\* \* \*

\* لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اغتصاري ولم يكن

حلقي شرقاً بكل ما كتبه الأستاذ «عبد الله عريف»، فقد ابتلعتة أمس حينما اجتمعنا سوياً... صبه في برشامة، وأسمعني إياه في حوار شهده الأساتذة: أحمد قنديل، عبد الله خياط، حسين شبكشي، محمد حسن أصفهاني.

كل ما شرقت به كان نوعاً من التخمة بهذا الثناء والاطراء، والاعراء يكيله لي كيلاً الصديق القديم... كأنما هو - وقد نبش دفتره القديم - وجدني رصيلاً صالحاً... يصلح غطاء لعملة يريد أن يتسوق بها أمس! لقد تحيرت... لا بما ذكره عن النظام والديمقراطية، والشعبية، والمشائية، واستقرائية الرؤساء... كل هذا قد يقال وله مجال أي مجال، وليس فيه من الحيرة شيء، هي وجهة نظر أبداها؟! هل هو تخطيط أجر فيه إلى مشكلة؟ فعهدي كصديق مخطط كبير! أم هي دوافع أخرى قد لمستها... أثارت الحماسة فيه ليدفعني عنها بهذه العواطف التي ساقها نحوي، أو نحو هذه الفضائل الإنسانية؟! .

أغلب الظن أنني قد لمست جوانب غائبة أحب أن يدافع عنها، ولو اندفع في كيل هذا الثناء... يلبسني إياه في ظاهر ما أراد... فهدي «بالصديق» أنه كبريطانيا.

## خواتر مجنحة

## المقدمة

. . فهل أكتب مقدمة لما أسميه كلمة أو كُليمة، والتي اخترت أن

يكون الاسم «خواطر مجنحة»؟

أم أترك المقدمة لأجعل من الإهداء مقدمة؟

فلمن أهديه؟!

أهديه لاسم أستاذي السيد أحمد مصطفى صقر، رحمه الله، الذي إذا ما ألقى الكلمة يعلمنا الإنشاء - يبدو تيّهاً - فالكلمة اليوم أصبحت مصدر التيه والزهو، فإن عصر الفرس . . عصر الخيل الذي اشتق اسمها من الخيلاء، كما هو ما تعلمناه عن الإمام عمرو بن العلاء، هذا العصر قد انتهى، لأن الفرسان قد اتخذوا الخيل زينة، فالعصر لم يعد صالحاً لأن تكون مصدر الإرهاب للعدو.

إن أستاذي السيد أحمد صقر أول كلمة سمعتها منه - وكان لا يلقي الإنشاء إلا ماشياً يتحرك - هي قوله:

- «لئن تناءت البلاد وشطّ المزار فذكرارك في حصن حصين في فؤادي . . ذكرى حب أصلها ثابت وفرعها في الأعالي».

طربت لهذه الكلمة حتى إذا قرأت الرافي، مصطفى صادق عشقت الكلمة، أطرب لجرسها، فإذا الرافي رافد سخي كأنما كل الروافد التي

ارتويت منها جمعها لي، فإذا أنا معه في «نهج البلاغة»، و «البيان والتبيين» و «كليلة ودمنة»، وأصحاب الترسّل وفحول الشعراء، أمتّع نفسي حين يطربني جرس الكلام.

إن الرفاعي وأمثاله، وأنا تابع لهم، يُقرأون بالأذن، فالجرس هو عطاء التفهيم لفهم الكلام.

الإهداء لاسم أستاذي السيد أحمد صقر يرحمه الله.

والكتاب هذا من شقين.. الخواطر المجنحة جعلتها تخطر كأنها من ذوات الحجال، تزف للقارئ ما بعدها ألا وهي.. كلمات وجدان.. كل كلمة اهتزت بها مشاعري كأنما فؤادي قد اهتز كالعصفور بلله القَطْرُ!  
فالقَطْرُ هنا ابتسامة «ماسحة البلاط».. والقَطْرُ هنا مرة ثانية دمعة العين العشواء.. عيني أنا!

المؤلف

## خَواطِر مَجْنَحَة

- الزهد حلية الأتقياء والمال قيمة الكرماء، ونبيل النبلاء، وبطر السفهاء، وذل البخلاء!

- إذا كان الجفاء طبعاً فهو خليقة، فليعذر. وإذا كانت الجفوة تبطر فهي خلق، فلتحذر.

- بيروت السروق.. فقد ركبت الطائرة من طوكيو أعود إلى جدة عن طريق بيروت، ولكن وقد فاح الشذى فإذا بي لا أسرع إلى بلدي، بل أقيم في بيروت أياماً، لقد سرقت، أو ليس الحب سرقة عاطفة لعاطفة؟!

- وهذا رسول الله ﷺ ذو الخلق العظيم، كان جالساً فمرت جنازة فقام واقفاً، فقالوا له:

إنها جنازة يهودي، فقال ﷺ: «أوليست نفساً؟» فأبي رحابة اتسعت تعلن حرمة نفس الإنسان من هذه الرحابة؟ إنها قدوة، فإذا ما احترمنا أنفسنا كان ذلك خيراً لنا، واحترام النفس لن يتأتى إلا إذا اتسعت النفس لأية نفس نعيش معها في موطن واحد، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، أما من تعدى الحد فسيجري عليه الحد.

- والإنسان حيوان لا يجتر طعامه، ولكنه بأحلام اليقظة يجتر أحلامه. فلا أدري كيف سقطت عليّ هذه الصورة في لمحة خاطفة وجدتني أراها

تضحك كلها، وما كنت في أيامي الأولى إلا واجداً الضحك وابتسامة تنفرج بها الشفتان، ولكنني في هذا الحلم جسده واقع، رأيتها كلها تضحك، فإذا بي أرى العينين تبسمان. فهل العيون تبسم؟!!

نعم.. إن بريق الشعور بالجمال والشعور بالحب والأمل بالفرحة كل ذلك يعطي بريق العين قوة الابتسام.

لم أر عيناً قبل عينيها يشع عليها نور البسمة، كأنما كل ذلك أصبح الجديد في عاطفتي، أشعل الحريق في وجداني، أيقظ الغفلة يوم كنت لا أعرف البسمة في العينين.

- وأمسكت وأنا أجتري أحلامي أسأل بائع الرطب: ما هذا؟!..!

أليس عندك رطب مناصف؟ فإذا جرس يضحك.. يقول: (إنه تمران) فقلت: (لا.. أقول تمر) فقالت: (أنا لست من الفصحاء). قلت: (كل ما فيك فصاحة.. تتكلمين بالصمت ليكون أنطق خاتمة أحلام اليقظة التي أجتريها، تجرني إلى بعيد، فقد بعد عليّ أن أكون القريب).

فما أحلى أحلام اليقظة حين يستطيع المحترق أن يعبر بها عن الواقع.

- قالوا للإمام علي رضي الله عنه: هل تقاتل الخوارج على الكفر؟ ذلك يوم النهروان.

فقال الإمام بكل السماحة والصدق: (هم من الكفر فروا).

- وحين أعد نفسه لقتال أهل النهروان وقف لا يجرد سيفه (ذو الفقار)، فقال: (فتشوا عنه).

فرجعوا إليه يقولون: ما وجدناه، وهم يعنون بذلك ذراع فتنة الخوارج.

فقال الإمام: (فتشوا عنه، والله ما كذب ولا كذبت) يعني رسول الله ﷺ.

فرجعوا إليه لا يجدونه فقال: (فتشوا عنه، والله ما كذب ولا كذبت).

وفي المرة الثالثة وجدوه فإذا هو (حرقوص بن زهير) الذي قال لرسول الله الكلمة الفاسقة النابية (اعدل يا محمد).

فقال النبي: (ويلك من يعدل إذا لم أعدل؟).

ثم أعلم الرسول أصحابه بعلامات زعيم الخوارج وهو (حرقوص بن زهير).

فالإمام أراد التثبيت ليعرف الحق فلا يخوض الباطل. وهكذا ينبغي لكل إمام، ألا يبرزأ الناس بشهواته ونزواته.

- وليست المرة الأولى التي أنشر فيها هذه الصورة ولكن الشيء بالشيء يذكر، فحين احتل الفرنسيون البلد المسلم العربي (الجزائر) وهزم الأمير عبد القادر الجزائري، يخرجونه من أرضه أخذ الإنجليز كنوع من الحرب على فرنسا التي كانت مشتتة بين الإنجليز والفرنسيين حينذاك، فعرضوا على الأمير المجاهد أن يتوجه ملكاً على سيناء، فلم يجدوا في الأمير المجاهد إلا كلمة الإيمان ونظافة العقل.

لقد قال لهم: هل أنتم تملكون سيناء؟ أهى أرض بريطانية تمنحونها لي؟ إني أرفض هذا العرض!.. وهكذا ما زال استعمار الأباطرة الأوروبيين يفعل بنا الأفاعيل إن زال اسم الاستعمار فقد بقي الاستغلال والاستقطاب.. استعمار الأباطرة الأوروبيين.

- ترجم العرب كلمة قالها هتلر بكلمة قالها عبد الملك بن الزيات: (الرحمة خور في الطبيعة).

ولم يكن ابن الزيات فيلسوفاً وإنما كان أديباً. ولكن هتلر قال هذا المعنى عن فلسفة روزينبرج ونيته.

وهكذا نسبت الكلمة إلى هتلر بعد ابن الزيات: (الرحمة خور في الطبيعة).

فقلبناها على هتلر، حيث نقول: (إن القسوة طبيعة الخور)!

- وأمنيات الشباب متعة ولو كانت من أحلام اليقظة، فقد تقسو المادة حتى تقهر الحب، لا يصل إليه حين يظل في برج غير عاجي يبهرج حياته بالأمني، وتمضي هذه المتعة حتى إذا اكتهل أو شاخ تجمعت لديه كل الفرص، يستحوذ على هذه الأمني حقيقة بين يديه، فإذا هو لا يطيقها، يرفضها، لأنها فقدت المتعة ولو أصبحت حقيقة.

فلقد قلت في (صورة) نشرت: كنت أرجو أن تحقق أمني، يلعب بها عليّ الطموح، فإذا أنا الآن أرفض كل هذه الأمني، ولو استطعت نيلها، فلم أعد قادراً على التمتع، وهناك مثل قاله (دزرائيلي) اليهودي أحد صناع الإمبراطورية البريطانية، فحين شاخ منحوه اللقب الكبير (لورد) فقال وهو يصعد الدرجات حين تعب:

- والآن؟ ماذا يفيد هذا اللقب؟ لما لم يكن وأنا في شرح الشباب؟

- متعة أن ترى الجمال، وشقوة ألا يراك الجميل، ولكن المزيج من المتعة والشقوة يصنع لك متعة جديدة، فالشقوة ألم، والألم متعة حين تمتد به الذكرى إلى بعيد.. ومن رؤية هذا القريب الذي تكلم أمامك فإذا وجناته تضحك، وإذا عيناه تبتسم، وإذا أنت تسير على عكازك قوياً عضل نفسك، يشدد به عضل جسمك.

ما سألتها ولا سألتني، وما عرفتها ولكنها عرفتني، فالمعرفة منها زادت المتعة متعة، وملاأتني شقوة حين ضاعت فلا أراها مرة أخرى، وإن كانت ماثلة في الرؤية الحالمة.

- في القاهرة تذكروا إبراهيم عبد القادر المازني، صديق العقاد، ومن ميزاته أنه لم يكن مسخراً لحزب، وإنما هو سخر مجلة (السياسة) الأسبوعية ميداناً لقلمه.

قلت مرة لحمزة شحاته: سننسى المازني، لأنه كاتب مصري بحث ليس كالعقاد، عربي مصري أو مصري عربي. قال: وسننسى الكثيرين ولكني وإن نسيت المازني كاتباً فلم أنس له مجيئه مع خير الدين الزركلي وأحمد باشا زكي شيخ العروبة لا يسأل عن موقف القصر مع المملكة العربية السعودية، فقد جاء وهو المصري يحضر الاحتفال بذكرى جلوس الملك عبد العزيز تغمده الله برحمته في اليوم السابع عشر من شهر الجدي عام ١٣٤٦هـ.

لم أسأل إلا عن الوفاء يصحبه خير الدين الزركلي يرحمهما الله. فمن الوفاء له أن نذكره بخير ولو على طريقة (أذكروا محاسن موتاكم).

- الذين يملكون قوتهم الذاتية بالزعامة الصادقة والقاعدة الملتفة حولها.. لا يتوقعون.

أما الذين يستمدون قوتهم من ساداتهم، فهم الذين يتبجحون بالوقاحة ويتوقعون حتى على شعوبهم!

- حيث لا تكون حرية القول تنتشر حرية الفعل، فإذا الوعي ينتهي إلى لا شيء، لأن وعاء الفكر استحال إلى معدة.. إلى شهوات!

- ليس الحرمان ألاً تجد، وإنما الحرمان أن تفقد ما وجدت!
- الحزن: سكينه النفس المطمئنة.
- والألم: تحركه.. يطارد الأمل، إن تحقق أو لم يتحقق.
- والقلق: هزيمة النفس الأمانة.. يشبطها أن تتحرك، تتعثر بين يديها الآمال، لتجد أنها في فراغ.
- كان الأباطرة يحتكرون الموبقات، فأصبح السماسرة أباطرتها!
- قالت أرنب لديك: أئنا أشهى طعاماً؟!
- قال الديك: أنت لمن صادك، وأنا لمن اشترايني.
- وكان الغراب على الشجرة، فقال:
- وأين أنا؟
- قالت الأرنب: أنت لا تباع ولا تصاد.
- فقال الديك: لا.. ولا، إنه قد يكون أشهى طعاماً حينما يكون جيفة لجائع!
- لكي تكون نظيفاً في أعين الذين أمسكوا بالترف بطريق السعار..
- ينبغي أن تتسخ من قمة الرأس إلى أخمص القدم، لتكون واحداً منهم..
- أما إن كنت غير ذلك فسيقتلك سعارهم!
- الزنجي: لا ينظر إليه في الشارع، ويطرد من الصالون، ويستقبل في المخدع! هذا هناك.. في شعوب باعت نفسها لحرية الفوضى، وفوضى الحرية.
- تكلنز الإنسان بالذهب فاستعبد، وتأمرك بالدولار فجبن، وتبلشف

- بالرغيف فجاج.. فهل الإنسان اليوم إلا ولادة غير طبيعية لهذه الأحوال؟!!
- عجز الإنسان أن يجعل الحجر ذهباً، واستطاع أن يجعل الذهب حجراً.. يبني العمارات.. يقرط الذهب في قرارات يشتريها من بيوت اليتامى، تعمر بها نفسه الخربة، وتخرب بها نفوس الذين يفتشون عن السكنى فلا يجدونها.
- شعور الجميلة بالجمال، يكسوها الجلال، يعطيها من الغطرسة سلطاناً تفرضه على الحبيب، فسلطان الغطرسة منها ليس تكبراً وإنما كبرياء.. في باطنه عطاء التواضع مغلفاً بالجلال!
- إذا خطب رجل لرجل امرأة فقد افترض عداوته..
- وإن قاد رجل لرجل امرأة فقد فرض صداقته!
- كرة القدم: لعبة استحالت إلى تعصب، فأحالت العصبية الأسمى إلى لعبة!
- البخل: شحك بما تملك..
- والحسد: شحك بما لا تملك.
- تمنع ما ملكت يكسبك الحسرة، وتمنع أن يملك غيرك نعمة من الله فيصلى وجدانك بالحريق، فقد قالوا: الحسد نار تحرق الجسد!
- أسعد أيام الضعف، ما كان يصدر عن قوة الحب.
- وأتعس أيام القوة، ما كان يصدر عن ضعف الكراهية!
- قال له أستاذه: احذر يا بني القاتلين - البطر والفرح - لأن بهما يتبعثر العزم ويهلك الحزم.

- كان (حمزة شحاتة) يضيق بالعيش أحياناً، وتضيق به الحياة أحياناً، فكتبت إليه :

- تريد أن تكون عدماً في الحياة، وأنت حياة في العدم؟!!

- الأنثى الأمومة تحترم الذكر الفحل.. لأنه الأبوة!

وترحم الذكر الطفل.. لأنها الأمومة.

- في عصر يوم من أيام الربيع، وفي المدينة المنورة كنا ثلاثة نجلس على قنطرة يسيل فيها الماء صافياً، كان له لون أبيض: محمد عمر توفيق، طاهر زمخشري، محمد حسين زيدان، وسكت كل منا.. تتكلم العيون كأنها تناغي بعيداً، كل غنى على ليلاه، فقلت:

- ما أجمل هذا المكان.. فاحت فيه رائحة «الفاغية» كأنما هي قد كستنا الحب المضاعف لمن تمنينا أن يكون معنا. هذا رائع.. ينقصه الذي ينغصه، فقد ضاع جمال المكان في صمت التمني، فلو جاء الحبيب لذهب التنغيص فتضاعف الحب مرة ثانية.. الحبيب والمكان.

- الشيطان أنكر نفسه منذ عرف الإنسان، والإنسان عرف نفسه منذ أنكره الشيطان. قصة الخليقة بين الشر والخير.

- وقال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره، وإن أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه.

- وكتب سعد زغلول للأستاذ الإمام محمد عبده كتاباً أطنب فيه، فقال: اعذرني عن الإطناب فليس لدي وقت للإيجاز!

- قال طه حسين يجب من سألته: ما رأيك في أدباء اليوم؟

- فأجاب: إنهم يكتبون أكثر مما يقرأون!

- وقف طه حسين حين زار المسجد النبوي يقرئ السلام بعد النبي وأبي بكر على عمر، فقال:

- أما أنت يا عمر فسلامي عليك.. أذكر موقفك في «الحرّة» تسل سيفك، فتقول: لن يبقى في هذه الجزيرة يهودي أو نصراني.

- كان «أحمد عبد الغفور عطار» ذا علاقة بالدكتور طه حسين.. يزوره في مصر كما هي علاقته مع العقاد، وحين أقام محمد سرور الصبان حفلة تكريم لطه حسين ورفاقه في بيته بجدة، ألقى «العطار» كلاماً ما حمل فيه على مصر.. قال: ضاع أدبها وحل في لبنان، فاغتاظ طه حسين وقام يقول:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم إني أخاف عليكمو أن أغضبها

قال هذا البيت وجلس، البيت لجرير، فما أسرع بديهته طه حسين، وما أشد الملايسة!

- وفي الحملة - أثارها مصطفى صادق الرافعي على طه حسين - وضع عنواناً لفصل من كتابه «تحت راية القرآن» يصف طه حسين:

- خنفساء ذات لون أبيض!

ما كنت أريدها من الرافعي، وما عيب بها طه حسين، ولكنها كلمة براءة!

- وفي خصومة الرافعي للعقاد عرض به في «كلمة وكليمة».. يلوم الوفد أن احتضن العقاد ويشير إلى انقلابه على الوفد:

- إذا اتخذت سفيهاً ليسافه عنك فاحذره في اليوم الذي لا يكون فيه سفيهاً إلا عليك!

- وقرأنا لظه حسين كلمته المؤمنة:

- دع عنك العلم عندما تفكر في الله، الله موجود في منطقة عذراء من نفسك، فلا يخدعك العلم، وإن شئت فقل ترهات العلم.

- وقال أحد أصحاب التوقيعات من العباسيين حين سأله عن مصير أحد الأمراء، فأجاب:

- لقد زرعته الطاعة.. وحصدته المعصية!

- الثقة عطاء من الواثق ومن الموثوق به، فإن انقلبت إلى حظوة، فإن العطاء من الواثق يضيع ليكون الأخذ دون عطاء من الموثوق به، فالحظوة تدمير للثقة!

- في زحمة القلق يطغى سلطان العاطفة على من يعيش القلق، فيصبح إنساناً بين أمرين: الشماتة بالفاشلين، والحط من قيمة الناجحين!

فالشماتة متعة لديهم، وإسقاط النجاح ردة العزيمة وسفاهة الشتيمة!

- قال لي: هل أحببت؟!

- قلت: سؤال فضفاض.. فهل تخلو الحياة المركبة من زوجين من كل ما هو ممتع بالحياة - إنساناً أو نباتاً - من الحب؟!.. لكنك تسترت.. تسأل عن الحب، بينما أردت أن تقول: هل عشقت.. فهناك فرق بين الحب والعشق؟!

الحب هو الإطار كحياة للحياة، أما العشق فهو انتماء الإنسان.. أحب نفسه أولاً، فعشق الجمال من أجلها.. فالعشق ليس بتضحية من العاشق وإنما هو ذروة الأنانية فيه، فالتضحية لها في التزاوج بين عشق الذات - الأنا - يتجه به عطاء لأخذ من المعشوق. فالعشق - قبل أن يكون ذوقاً

وقبل أن يكون مفاجأة - هو نداء المعشوق للعاشق وإن كان الإعلان عنه طلب العاشق من المعشوق .

نعم لقد عشقت .. لكن بُعد منالها حين اضمحلت العزيمة مني .. لا آهابها وإنما أرهبتني ظروف أحاطت بي، حتى إذا احترقت لم أزل أعيش الحريق الحي في فؤادي .. كأن النار حين اشتعلت تحرقها تزوجت في فؤادي ناراً تحرقه ونوراً يهديه!

- قال لي: إذا ابتعدت عن طريق ما تكره أو من تكره، استراح بالك، ولكن .. حذار أن يكون هذا الابتعاد خدعة، فالكسب - كل الكسب - أن تصر على الابتعاد عن ما تكره ومن تكره، وتفرض عليه ألا يكسب منك ثغرة .. ثغرة يدخل عليك بها!

وإن ابتعد عنك من تحب، أو ما تحب .. فتلك خسارة ينبغي لك أن تحاول الاقتراب من الإنسان والأرض والتراث لتعطيك القوة لأن تنتصر على من ابتعد كارهاً لك أو من بعد وأنت كاره له!

- ألم أن تكون اليد العليا عطاء وعوناً ومجالاً لفسوق الكلمة!

فلم تعد الأوضاع العربية تطبيق الجحود .. حتى أن بعضهم يتبرأ من فضيلة أن يكون أخي .. أن أكون أخاه، إن رذيلة فسوق القلم، تحطم وشائج القربى .

إن كثيراً من حرب السلاح بين عربي وآخر قد اندملت جراحها، ولكن قسوة الكلمة هي الحرب التي لا تلتئم جراحها!

- إسرائيل - وعلى لسان وزير خارجيتها - قال: إنه لا خلاف بيننا وبين الولايات المتحدة من أجل بيع السلاح للعرب .

إنه بهذه الكلمة قد أوضح أن كل الضجة التي تثيرها إسرائيل حين تعلن الولايات المتحدة عن بيع صفقة من الأسلحة لدولة عربية وتأخذ إسرائيل بالصرخ والاحتجاج فإن ذلك يعني أن كل ما تثيره إسرائيل ما هو إلا إعلان وإغراء ليطمسك من يشتري السلاح بإتمام الصفقة، كأنما تدعو العرب بهذا اللجاج إلى أن يشتروا الأسلحة.

بلطجة في الإعلان!!

### - نزار قباني :

- واستقرأت قصيدتك مرتين، فبكيت أنت وأبكيت، وحزنت أنت وأحزنت، وأسقطت القناع عن الظلم فما استنار الطريق.. ثم غضبت فأغضبت، حملت العرب كلهم أن يكونوا هم قتلة «بلقيس».. فدعني أدير حواراً معك عن الغضب والإغضب.. فلعلني أحد الأوائل الذين بكوا معك على بلقيس، كأني أمثل أرضي - أرضك أنت - أرض الشيخ والقيصوم والخزامى والفاغية والنخلة وعطر الورد الطائفي.. أرض المشرق للشعر يوم كان في «عكاظ»!

أحاورك.. أسألك.. لو أن «بلقيس» كانت في أرض سبأ، أكانت تقتل؟!

ولو أنها كانت تكشف ساقها في القصر غير الممرد على شاطئ الخليج، أكانت تقتل؟!

ولو أنها كانت جنوب كاظمة في أرض الأنباط وطسم وجديس واليمامة المشمخرة، أكانت تقتل؟!

ولو كانت شرق السويس - من الخليج إلى الدار البيضاء - أكانت

تقتل؟!

إذن . . فقد كانت «عراقية» شامية . . فما قتل بنت بابل، إلا ابن بعلبك . .  
عراقية قتلها شامي . . لبس نحلة الخميني، كأنما بردى قد عق الفرات!  
ألم تعلم عن شامية أخرى قتلها مواجهة شاميون دخلوا عليها بيتها في  
ألمانيا؟! تلك أختك الدمشقية - طنطاوية عطارية!  
إنك قد استطعت الكلام فلم تفصح، وأخوك «علي الطنطاوي» ما  
استطاع الكلام فأفصح! . .  
لا تظلم العرب، واسأل عن الدمعة البيضاء في عيون الأمهات والبنات  
العرب الأتراب . . بكوا معك على بلقيس!  
أعطني إحصاء لعدد القتلى من العرب . . تجدهم شاميين قتلهم  
شاميون!!  
- هل ننتظر من توفيق الحكيم كتاباً رديفاً لـ «عودة الروح» . . أم  
سيكتب كتاباً عن «فقدان الوعي»؟!  
اللهم لا شماتة!!  
- قالت دجاجة لمرقدها: ما أسعدك إذ أبيض فيك!  
- فقال لها: وأي سعادة في ذلك . . تبيضينها فيأخذونها؟!  
- فقالت الدجاجة: أوليس من السعادة أن تكون مكاناً مقصوداً . .  
تقصدك الدجاجة، ويقصدك آكل البيض؟!  
- المنّ من القوي استعلاء، ومن الضعيف استجداء، ومن القرين بلاء!  
- يسخر الإنسان من نفسه إذا تبجح بما ليس فيه، قبل أن يسخر  
منه سامعوه . . كأنما ينطبق عليه معنى هذه الآية: ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا  
لَمْ يَفْعَلُوا﴾ (آل عمران: ١٨٨).

- ذهب إلى الصيد، فتاه في البيداء.. فأغاثه إنسان يأوي به إلى بيت من الشعر. كاد يموت عطشاً، وفتش في جيوبه يريد أن يكافئ المغيث ببعض من المال، ولم يكن معه، فتذكر دفتر الشيكات.. أخذه من الحقيبة، كتب شيكاً بعشرة آلاف ريال، ودل المغيث على متجره في المدينة.

ووصل المغيث إلى المدينة، فطرده حراس المليونير، وسمع الضجة فشارك خدمه في طرده، كأنه لم يعرفه، وأخرج المغيث الشيك يبصق عليه، يمزقه.. فإذا المليونير يقهقه، ثم يسقط على الأرض في أزمة قلبية!

- قال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: الناس ثلاثة.. عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعا ع أتباع كل ناعق!

- وصفق المأمون ينادي خادمه، فجاء الخادم يقول للمأمون: يا غلام.. يا غلام، أما يستريح الغلام؟!

فأنكر السامعون سوء الأدب من الخادم. فقال المأمون:

- هكذا.. إذا حسنت أخلاق السيد، ساءت أخلاق الخادم!

- وقال المعتصم يسأل أحمد بن أبي دؤاد: ما بال أخي المأمون أحاط به رجال أربعة أثمروا، ودعموا ملكه. أما أنا فصنعت رجالاً أربعة لم يثمروا؟!

فقال أحمد بن أبي دؤاد: إن أخاك المأمون اصطنع الأصول فأفرعت وأثمرت، وأما أنت فاصطنعت الفروع، ولن تثمر الفروع إذا لم تكن نامية على الغصون.

كأنما «أحمد بن أبي دؤاد» قد أخذ ذلك من الحديث الشريف: «الناس

معادن.. خياركم في الجاهلية، خياركم في الإسلام إذا فقهوا».

- قال هتلر: الرحمة خور في الطبيعة.

فقلبناها عليه حين قلنا: والقسوة طبيعة في الخور، فكل الطغاة جبنا، وكل الفرسان الشجعان لم يكونوا من سافكي الدماء.

- هبت عاصفة والحجيج في عرفات.. تساقط البرد، واكتسحت العاصفة الخيام، فإذا الناس قد ضاع منهم رشدهم، فتعذبوا مرتين.. من العاصفة، ومن ضياع الرشد. وسألني الأستاذ أحمد قنديل: ما هذا؟!!

قلت له: عاصفة جعلت القادرين في عجز من قدرتهم، والعاجزين في قدرة من عجزهم.. ذلك أن أصحاب الصواوين والخدم والفراش والرياش قد أصيبوا. فكسرت ساق محمد سرور الصبان وكاد يهلك غيره!

ونقل قنديل هذه الكلمة في تخابث إلى محمد سرور الصبان، فسألني: ماذا قلت؟!!

فأعدتها عليه، فقال:

- لقد فاتك شيء واحد: إن الله كتب على نفسه الرحمة في ذلك اليوم، فتجلى سبحانه وتعالى، فلم يجدهم يستأهلونها، لما اقترفوا في ذلك اليوم، فتجلى عليهم بالعذاب يستغفرونه، فرحمهم!

- قلت: كأنك حفظت قصة قوم «يونس» عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

- قال لي: ما بالها قد انقلبت، فلم تفقد الحب، بل إنها فقدت الرحمة وحتى الاحترام لمن يستأهلونه؟!!

- قلت: دعني مما هي فيه، ولأكون معك بما أنت فيه.. فأنت

أعطيتهما ما حرمت منه، وحين شبعت بك جاعت لتكون شرسة، كأنما هي تطوعك لتعطيها مذلة الذكر أمام عطاء الأنثى فهي في وضع: أن تأخذ فلا تعطي، وأنت في وضع: أن تعطي وإن لم تأخذ!!

- قبل أن تستحوذ على رضا الناس عنك، بأسلوب أو بآخر، ينبغي أن تحرص على رضاك عن نفسك.

إذا ما فقدت رضاك عن نفسك لا تنتفع برضا الناس عنك.. فحين يبدأ وخز الضمير يكون إضرار السخط عليك منك، هو إظهار السخط من الذين خدعوا بك!

- مأساة..

أن تكون بكل ما تملك من عقل وعاطفة وثقافة المنتمي لترابك ولتراثك.. ثم لا تجد نفسك إلا المبعد عن الانتماء، يقصيك: اللامنتمي.. لأنه قد ملك الوسائل التي ترضي الشهوات وتطغى بها النزعات!

- وللمنتبي صورتان رسمهما بالحرف، كلمات فيهما عمق السخرية، كأنه قد سبق عصر «الكاريكاتير».. فالصورة الأولى في هذا البيت:

وأسود مشفره نصفه يقال له أنت بدر الدجى!

والصورة الثانية في هذا البيت:

يستخشن الخز حين يلمسه وكان يبرى بظفره القلم

فالصورتان رسمهما لـ «كافور» - أبي المسك - !

- قلت لـ «محمد مصطفى حمام» يرحمه الله وهو المسلم مائة في

المائة، والمصري والعربي والظريف والشاعر مائة في المائة، ولكنه الفقير ألف في المائة. قلت له:

ما بالك وأنت الفقير لا تملك شروى نكير تلعن الشيوعية وتكفر بالاشتراكية، وأنت غير خاضع للتأميم والمصادرة؟!!

فقال: لقد سلبوني أعز ما أملك: الأمانى، والآمال.. سلبوني حتى أحلام اليقظة!

- وكم كان شوقي عظيماً في هذا البيت.. صاغ من كلمات ثلاث هذا البناء الضخم في بيت واحد:

الأماني حلم في يقظة      والمنايا يقظة من حلم

- الفضيلة قد تنقلب إلى رذيلة حينما تكون فحاً يتصيد بها صاحبها الذين يثقون به، فكثيراً ما دمعت عيون من قسوة ازدواج في السلوك، كأنه القط الذي تنسك يأكل العصافير عندما جاءت لتهنتته، أو لتترك به!!

والمسؤولية قبل أن تكون عقاباً بقانون، أو ثواباً بقرارات هي قبل ذلك وبعد ذلك تقوى ضمير!!

- الوطنية حين ترفض العقيدة، وتطرد التراث وتعلن «القرف» من الماضي وترضخ لزخارف مجلوبة تسلب نفسها كل قوام لها لأنها حين تفعل ذلك تكون قد باعت كل قيمة لها، إن الوطنية ليست سلعة تباع إلى سلطان جاء بمذهب بهر بالقوة، أو خدع بميثاق الوطنية.. بل هي إيمان بكل ما للأرض من قيم، من حبة التراب إلى ذلك الموقف الباهر في غار حراء!!

- حين يصبح التعامل بقيم الرجال كالتعامل بأي سلعة يخضعونها للعرض والطلب.. فحين ذاك تتساقط المروءات في شهوات المعدة فيعلو

سماسرة يجيدون الزخرفة لما هو مطلوب منهم.. . مغلفة في علبة ليل،  
وحيثذ تذوب كفاءة الرجال في أحوال التعليب!!

- حين تصل دولة ما إلى قوة قاهرة تستطيع أن تقهر بها غيرها، فإنها  
بالتالي لن تقهر إلا نفسها.. . كأنما القوة الجبل.. . تقف عاجزة أمام ما  
تصنعه الرياح.. . تأكل التضاريس، أو تصنع التضريس!!

- كل أنثى لا بد وأن يكون لها ذكر، من ذكر وأنثى خلقكم. ولكن  
الاختيار في ظاهر الأمر هو الاضطرار في عمق العواطف.. . تزعم أنها  
تختار زوجها بينما ذلك هو الإغراء. هي لن تكون إلا لرجل واحد.. . ذلك  
هو اضطرارها. هي لن تكون إلا لرجل واحد.. . ذلك من تعطيه شفيتها!!

- طردوا الزوج اليهود من إسرائيل لماذا؟ إن إسرائيل تريد أن ترضي  
العنصريين في الولايات المتحدة!!

- المؤتمرات الثلاثة التي عقدت قبل هذا المؤتمر الرابع لدول عدم  
الانحياز كانت متهممة بشبه الانحياز للاتحاد السوفياتي. من هنا قال الروس:  
من ليس علينا فهو معنا. وقال دالاس: من ليس معنا فهو علينا!

أما هذا المؤتمر الرابع، فلا أحسبه بعد إلا أن يكون انحيازاً ضد  
الانحياز، فإن سياسة الوفاق قد حتمت ذلك، لكن هنا سؤال: فهل بعض  
الدول التي حضرت المؤتمر، أو حتى بعض مؤسسيه يعتبرون غير منحازين  
بحق مع أن بينهم وبين الاتحاد السوفياتي معاهدات وهل موقف كاسترو إلا  
انحيازاً ضد اللانحياز!؟

الإجابة تظهرها الأيام!!

- قالوا: إن خروشوف حين ألقى خطابه المشهور يسلخ جلد ستالين

قال أحدهم: ألم تكن أنت من أعوانه؟.. فسأل خروشوف: من تكلم؟.. من سأل هذا السؤال؟!.. فلم يجبه أحد، قال: لقد كنت مع ستالين مثل هذا السائل معي الآن.. منعني الخوف ويمنعه الخوف!!

- العقاب على الجريمة قد يكون فيه بتر يشوه الجمال، ولكن فيه جمال آخر من جلال الحفاظ على المجتمع. لئن فقد الجمال الشكل فهناك إعطاء الجمال للمعاني.. في الاطمئنان على حياة الجمال في المجتمع، حين ينتشر الرعب تفقد النفس مشاعرها لأنها شغلت بذاتها، وحين يستقر الأمن تجد النفس مشاعرها.. تبصر بذلك الجمال، والجلال والكمال!!

- إن ما صنعه رئيس النمسا «كرايسكي» لم يصنعه مجاملة للعرب، ولا طلباً للأذى من إسرائيل ومن وراءها، وإنما هي مشاعر إمبراطورية «ماري تريزا» ومأساة «أنطوانيت»!!

دمر الإمبراطورية فساق كاليهود، وقتل الإمبراطورة خطرون كاليهود، وما يديرنا أن اليهود كانوا وراء ذلك، فامرأة يهودية هي التي حملت الإمبراطور «سليمان القانوني» أن تصل حوافر خيله إلى فيينا. إن «كرايسكي» لا ينكر على «ستيفان زيفايج» يهوديته، وما كان ليترد «اميل لدفيج» ليهوديته.. إنهما لم يمثلتا حضارة اليهود، وإنما مثلاً حضارة الغرب كلها وحضارة النمسا على الأخص. إن عمل «كرايسكي» ليس فيه خذلان اليهود فحسب.. بل هو جرس الخطر قرعه لأوروبا كلها، بل هو لطمة من يد على وجه «ترومان»!!

- قال أحدهم: لأن أكون الرجل المحسد خير من أن أكون المشفق عليه، الإشفاق كلمة من لسان باسم الصداقة، وهي في الوقت نفسه مؤلمة لأنها تحدد الوضع بين صديقين، النافر من الإشفاق يبتعد عن المذلة،

والمتبرع بالإشفاق يقترب من الاستعلاء، فأى شيء أخطر من شيء يحدد العلاقة بين صديقين؟!!

- صحابي أنصاري اسمه «محيصة بن مسعود» واسم أخيه «حيصة». الأخ الكبير «حيصة» لم يسلم حين قتل «محيصة» التاجر اليهودي ابن سنية، فما هي القصة؟!!

هي.. بعد أن قتل محمد بن مسلمة رأس اليهودية كعب بن الأشرف قال رسول الله محمد ﷺ: (من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه).. يأمر النبي بتطهير الأرض المسلمة.. دار الهجرة.. بل الجزيرة كلها من دنس اليهود، فوثب محيصة بن مسعود المؤمن المطيع على ابن سنية فقتله، فغضب أخوه «حيصة» وأخذ يضربه ويقول له بلسان المشرك: (أي عدو الله قتلته؟!.. أما والله لرب شحم في بطنك من ماله)..

فقال محيصة المؤمن: (أما والله.. لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربت عنقك؟! وعجب حيصة، ثم قال: (والله إن ديناً بلغ هذا المبلغ لعجب) ثم أطرق فأسلم. هكذا أمرنا بقتل اليهود.. لا تقتلهم ذميين، وإنما نقتلهم (إذا حاربونا وقتلونا وأخرجونا من ديارنا!).

- نشرت «الحياة» كلمة لكريم، كاتبها المبرز.. جاء هذا النص في مقدمتها: «سخر كاتب بريطاني في مجلة الأيكونوميست من حملة شاركت فيها الصحف الأمريكية حول اختيار العرب يوم عيد الغفران لشن هجومهم على القوات الإسرائيلية فقال: «إن الأمريكيين يعرفون أن جورج واشنطن بطل استقلال أمريكا اختار في هجومه عبر نهر يوتوماك على القوات البريطانية في واشنطن في حرب التحرير - يوم عيد الميلاد عندما كان البريطانيون يتناولون ظهراً طعام الغداء.. وحرب التحرير الأمريكية لا

تختلف في ظروفها ولا في موضوعها عن الحرب التي يشنها العرب لتحرير الأرض المحتلة» أنشره، وليس في حاجة إلى تعليق!!

- نكتة رواها أحدهم.. قال: إن جولداماثير حين ذهبت إلى فيينا قالت لكرايسكي: لا تحسب أنني جئتك لأطلب منك العدول عن منعك لهجرة اليهود.. يمرون بالنمسا، وإنما جئت لأطلب منك أن تهاجر أنت إلى إسرائيل!

فقال كرايسكي ضاحكاً: أنا يهودي ومواطن نمساوي.. لست من الصهيونية ولا من إسرائيل. أعيش في بلد لم يقتل اليهود، أعيش في بلد يقتل يهودي نمساوياً. إني زعيم هنا، ولا أريد أن أكون صعلوكاً هناك!

وخرجت مائير، ولو لم تعاجلها الحرب المسلمة لطلبت من الحاخام طرد كرايسكي من ملة يهود!!

- مستر ويلسون طلب بالحاح أكثر من مرة أن تعدل بريطانيا عن حظر الأسلحة لإسرائيل ولم يضع في اعتباره أن دولاً عربية تتأثر بهذا المنع كالأردن مثلاً التي احتجت على بريطانيا، ولم يضع في اعتباره حماية الاقتصاد البريطاني. أهدر صداقة العرب ويهدر الاقتصاد البريطاني، فأى رئيس لحكومة ظل يفعل ذلك؟.. لا نطالبه بالحفاظ على صداقة العرب، ولا نلومه على صداقة إسرائيل وإنما اللوم سيقع عليه لأنه أهدر الولاء لمصلحة بريطانيا، وأهدر الرواج لاقتصاد بريطانيا!!

- صنفان من القراء: أحدهما يقرأ ليسرّ بالصواب، وليعدل الخطأ.. ويقوم الانحراف.. فكأنه قد أخذ موقف القيم لا يستعرض عضلات القوة وإنما يعرض إشراقة النفس تحب الحق وتحارب الباطل!

وصنف لا يقرأ لك إلا إذا افترض الخطأ حتى إذا لم يجده فرضه

فرضاً في كل ما تكتب فأخذ يرسل المكيدة، تاولاً، كأنه قد كشف الخطأ من مكنون صدرك لا من مكتوب سطرِكَ!.. يقول: ما أراد كذا، اللفظة حلوة لكنه وضع المر في داخلها، وهناك سماعون للكذب!

- قال لي: لماذا تركته يذهب منك؟! -

قلت: لقد تركته لأذهب عنه، لأنني لم أعد أطيق تطاوله علينا دون أن يطولنا بطول نحن أعطيناه له، ولم أعد أثق به إنساناً ينظر إليك، على أنك «تحت» بينما هو لم يكن «فوق» إلا على أكتافك.. فلقد أعطيته الكثير حين تحملت أوضاره، وغفرت أوزاره وعذرت أعداره، وأغفلت تجنيه يظهره ولا يخفيه، وسترت توافهه فإذا أنا ثقيل اللفظة.. أعجز عن الالتفات حين أفتش عن مثال. فالتفت ذات يوم فإذا بي حين تركته أشعر بأنني قد طرحت الغم وإن بقي الهم!!

- قال: أي الفصول أحبها إليك؟! -

قلت: ذلك الفصل.. يشغل الناس عن الناس بزحمة الحياة فيه عن الفضول في التقصي عن أحوال الناس، هو فصل الصيف.. شهر الحاصلات والرحلات.. يجني الناس ثمار الحاصلات ويرتاح الناس من السنة الناس. أما الشتاء ففصل نشط ومكسال في آن واحد.. يكون الفراغ فيه مشغلة تستهلك ثمرات اللسان.. ترى لها لوناً أبيض ومساءً أسود كليل الشتاء!!

- أتشكو من فشل الحب لأن الصداقة معه لم تدم لك على هواك؟! -

إن شكواك عجز عن تحمل أثقال الفؤاد كأن مطالب الجسد قد تغلبت على مثالية العاطفة. أو كأن الفكر - لا التفكير - قد تلهى بشيء تملكه اليد حينما فرطت به العاطفة. القوة للحب بالحب هي في صدق الحب.. أما الصداقة فإضافة قد يحلو بها الحب؛ ولكنها إن زالت لا يزول.

- إن الذين يذهبون عن صدق الحب لفشل الصداقة ينكرون على أنفسهم صدقهم.. ينكرون أنهم أحبوا، ولا ينكرون أنهم أذنبوا في جانب الصدق تجافياً عن الصدق، وتلاحياً مع الصداقة. الحب صدق، والصداقة ظاهرة. الحب الفاشل لم يصبح خالداً لأنه فاشل كما يقول أنيس منصور، وإنما كتب له الخلود لأنه كان صادقاً. ولم يكن فاشلاً إلا بالحرمان من الصداقة.. أما الحرمان من الصدق فيعني أنه لم يكن حياً!!

- الاحتواء.. قد لا أكسبه تملكاً، وقد يحتويني امتلاكاً.. فسيان عندي أن يكون الاحتواء انتصاراً لي، أو انتصاراً علي..

بهذا أكون قد وصلت إلى هدف، هو اليقين بأنك تفعل ما تريد بالصبر.. لا بالقدرة!!

- قال لي: وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟!

قلت: لا، لا يستوي هؤلاء مع أولئك في عرف المثل.. أما ما نراه واقعاً فإنه يقول لنا قد يتفوق الذين لا يعلمون بعلم جديد اسمه: علم الحظوة!!

- قالوا: إن مكتبة أنيس منصور تضم ٧٠ ألف كتاب!

قلت: من المؤكد أنه قد استحال إلى حرف.. يكتبه سبعون ألف عالم!!

- قال جمال الدين القاسمي، وهو يفرق بين السنّة والبدعة: وكم من فكرة مبتدعة سقيمة دكت سنّة قويمه!!

- من هو الزنجي اليوم؟! هو في عرف البيض حيوان ناطق.. يرفض في الشارع، ويطرده من الصالون، ولا يعفى من التجنيد.. تفرض عليه

الواجبات، وتسلب منه الحقوق. وعلى وجه آخر.. تصفق له الشقراوات، وترفع لتحيته القبعات في «لاس فيجاس» ويستقبل بالترحيب وراء السجف وفي المخادع!!

- قلت له: لماذا تلقي بثقلك على فلان.. أتراه قادراً على تحمله..  
ألا تظن أن من الضعف - كل الضعف - أن يرتكز قوي على ضعيف، ومن القوة - كل القوة - أن يعف الأفياء عن الضعفاء!؟

- صائغ الكلمة البيانية يمسك بسنان القلم كأنه ريشة من جناح نسر يحلق بالمجنحات.. يضرب بها على الوتر في «عود» الموصلي أو زرياب، أو أمين المهدي، أو نشأت. وإذا أرسلها من فممه يرسلها رنانة الجرس كأنه الأشدق لا يمرض الكلام في فمه.

وناطق الكلمة الصببانية كأنه ذلك البدائي من حوض «الزمبيزي» أو دلنا الكونغو.. يعزف رقصة على الطنبرة.. يهتز من جلاجلها المصنوعة من أظلاف الغنم أصحاب الأعصاب المرهقة أو الذين افتقروا إلى أذن سماعة، أو ثقافة لماحة!!

- المبدأ حق، فلا توسط للحلول فيه.. إما هو وإلا فالباطل. أما المصالح فمنافع يمكن التصالح عليها بقبول الحل الوسط، فإما الحل الوسط وإلا فطرف غانم وطرف غارم!

- صاحب من ينسى معرفه عندك ويذكر معروفك عنده، إنه حين ينسى معرفه لا يثقلك بالإشفاق ولا يرهقك بالمن، وحين يذكر معروفك فإنه يعطيك المتعة ليأخذ متعة أخرى. يعطيك قيمتك عنده ليأخذ قيمته عندك. الشكران في وجدان الرجال علامة تعلن أنهم يطبقون صنع الجميل كما يحملون الشكر لمن يصنعه معهم!

- ليست القوة في القوي، أو القوية.. هي التي تسوقني إلى العبودية وإنما هو الضعف يستعبدني بقوة قاهرة.. يشعرني بإنسانية الإنسان لا بوحشية الظفر والناب!

إن الضعف - أعني السقام - في وجه عليه لون الياسمين قوة في الجمال. ما أحلى الصفرة الخفيفة على بياض ناصع!.. أحسب أن كلمة «ناصع» لم تأخذ صفتها للبياض إلا بهذه الصفرة.. تعلن السقام لتفعل بالقوة!!

- لم تكن إنسانة تلك التي قتلت عواطفها من أجل غصبة أغضبها بها زوجها، ولم يكن إنساناً ذلك الزوج الذي يحرق عواطف زوجته بما يغضبها وليس هناك ما يغضب الحليلة إلا الخليلة!!

- إذا كنا نقرأ، وكنا نفهم ما نقرأ فإن الولايات المتحدة - كما اتضح لدى الإنسان اليوم - هي الخاسرة في صفقة الوفاق. هكذا هم في كل الغرب يخافون حتى إن بعضهم لم يخف تحركه ضده. أما في الشرق الأقصى فهم لا يباليون لأنهم سيحاربون بنجاح كما يقولون!!

- قال ابن زياد لجاريتته رابعة العدوية حين عصته أن تشرب وأن تغني: سأريك كيف تخدمين السادة يا هلوك. هات السوط يا مبروك، وما درى أنها تعيش العذابين، فلقد فرغت من عذاب العصيان مسلطاً على الأبدان، وشغلت بعذاب الطاعة تتسلط الرحمة بها نعمة على الوجدان. ما درى أن هذه الهلوك أصبحت لا تعرف إلا الله ملك الملوك.

العارفون يشغلهم عذاب الرحمة في الوجدان، والجاهلون تلهيهم المعصية عن الشعور بالعذاب على الأبدان!!

- قال: أتكره أحداً؟!

قلت: لا.. لأن الكراهية، وإن كان لها مظهر السلب في المعاملة، والمعاشية، فإنه في الحقيقة عطاء، فانشغال النفس بها عطاء، وإني لأربأ بذي كرامة أن يعطي الخبث من نفسه.

قال: والحق؟!

قلت: إنه تجسيد لعمل الكراهية، فهو ليس عطاء بالاختيار، وإنما هو أخذ منك بالقسر.. كأن تحقد عليهم وقد سلبوا منك الغوالي: الحب، التسامح، الرضا، وحتى التفوق لا تذوق له طعماً مع الحق!!

- قال: والسرف؟!

قلت: خذ هذا المثل، أو هي الحكمة تجد جوابك فيها:

لا خير في السرف، ولا سرف في الخير!!

- «الفيتو» في هذه الأيام.. ليس حماية لإسرائيل. إني أحسبه دفاع المحترفين عن مواقفهم.. من هنا تجد الأمر فيه على صورتين: صورة الاعتراف بالانحراف عن العدل لأنه دفاع عن موقف، وصورة الانحراف وراء اعتراف الغطرسة واكتساح الفضائل.. كأن كل فضيلة قد أحالها «البنس» مغلفة معلبة في حانوت اليهودي شيلوخ!!

- الشيطان اليوم يفتح شذقيه يلتهم الرحمة من أفئدة الناس لأنه قد وصل إلى فهم عميق في «الشيطنة» عرف به أن سلب الرحمة من قلب إنسان يعني استسلاماً لكل مفاسد الشيطان!!

- كلمات مسلمة.. أصبحت اليوم سلاحاً للسلاح، شعار المقاتل في الجبهة، ونداء المتحدث.. لأن المعركة معركة الإسلام هي: بعون الله.. بإذن الله.. إن شاء الله.. باسم الله.. الله أكبر.. هذه الكلمات المسلمة

تهز الأرض المسلمة لتقاتل، وتهز المجاهد ليستشهد، وتبعث الرعب في أفئدة الأعداء. إن الأعداء يعرفونها، ويعرفون القوة التي تنفعل نفوسنا بها ومنها ولها.. فسלטوا على غرار منا أن يتركوها وألهم الله الأخيار منا ألا يستحوا منها فكانت سلاحاً في يد السلاح وما زالت جالبة النصر!!

- شهداء المعركة المسلمة في عبور القناة قد بلغوا المائتين ولا أكثر. ذلك عون الله أخلف تقدير البشر. كان البشر قدروا أن يقتل في هذا العبور الصعب خمسة عشر ألفاً، فإذا عناية الله أخطأت حساب الحاسبين وقالت: هأنذا أصنع لمن آمن بي النجاة والنصر.

- قالت مائير: إن خط بارليف ما هو إلا جبهة هشّة لا قيمة له!!

نصدق اعترافها.. نقبله عليها لنقول: إن كل إسرائيل أصبحت جبهة هشّة، فما دامت قد اعترفت بأن هذا الخط القوي الذي كلفها أكثر من مائتين وخمسين مليون دولار قد أصبح جبهة هشّة، فإن ما هو أقل منه من كل ما تملك ما هو إلا جبهة هشّة. إننا أمة نتفاءل. من قولها هذا نتفاءل كما يتفاءل سيد من ساداتنا من قبل، هو «عاصم بن عمرو» أراد أن يهينه كسرى فحمله كيساً من تراب، فأخذ يزف نفسه.. يقول لأصحاب القادسية: أبشروا إن الله أعطانا تراب أرضهم!!

- هل جن مستر «ويلسون»؟!!

لا.. لكن العمالة ليس فيها صراحة الجنون، ولا عقل المجنون. عمالة ويلسون جعلته يلومنا إن قاتلنا «اليهود» في يوم عيد. إنه يعرف أن اليهود ما احترموا أعياد أحد.

هل نسي ما صنعوا للمسيح.. أي عيد يعادل قيمة المسيح؟!!

هل نسي ما صنعوا بالحواريين؟!

أحسب أن روح القديس بولس قد لعنت ويلسون من أجل هذه الكلمة .  
أي عيد يحترم لهؤلاء الذين جعلوا من المساجد مواخير، ومن الكنائس  
زرائب؟!

لكنها العمالة تفعل البلادة ولا تفعل الجنون!!

- سيدي . . بقية الناس «سعيد بن المسيب» رضي الله عنه تجهز للجهاد  
فقالوا له: إنك عجوز لا تقدر على الحرب. عينك عوراء تعجزك، فقال:  
دعوني أذهب أكثر سواد المسلمين . . دعوني أذهب أخدم مجاهداً لا خادم  
له . . أعلف خيل المسلمين . . أحرس محارمهم!!

ذلك سعيد بن المسيب، ومن مثل سعيد؟!

رضي الله عن سعيد!!

- البعض يرسخون مكانتهم بما تفيض به القلوب . .

والآخرون يزرعون مكانتهم بما تمتلئ به الجيوب!

- الأمانة حب . . فالأمين يحب نفسه، فهو في هذا مفراط الأمانة التي  
ترتفع إلى فوق، فلو لم يحب نفسه لما صانها عن الخيانة، ولو لم يحب  
من حوله لما صان حقوقهم. والحب أمانة فنفس الألفاظ التي عرفنا بها  
الأمانة تصلح لتعريف الحب كأنما الحب والأمانة شيء واحد!

- المروءة . . أعني خلق الجنتلمان . . أعني رفعة القيمة . . أعني  
العظامية . . تزداد بالتربية . . فإن فقدت التربية تنقلب إلى ضراوة . . فإن لم  
تكبح بالعقاب تعش في العذاب . . عذاب الضمير . . عذاب النظرة المحتقرة  
من المجتمع . . تستحيل هذه النظرة إلى عقاب!

والسراوة.. ما أجملها حين تكون اكتساباً.. التربية صنعتها:

نفس عصام سوّدت عصاماً وعلمته الكرو الإقداماً  
وصيرته رجلاً هماماً حتى علا وجاوز الأعلاماً  
فالعصامي عظامي بما اكتسب!

- امتلاك الحب - أي الاستحواذ على الحبيب - يقتل الشوق ويبعد  
الزهوة ولربما أرقق التذوق، من هنا.. عاش الذين ملكهم الحب ولم  
يملكوه. عاشوا الألم، وامتلكوا الحياة بألم اللذة.

امتلاك الحب قد لا يكون امتهاناً له، ولكن قد يكون مجلبة الهوان  
للذين لا يملكون من أنفسهم العبودية لسيادة الحب!

- موسيقى الزوج قد أتعبوها حين رحلوا إلى مواطن كل الحياة فيها  
صخب. حين كانت في موطنها كانت ترفيهاً لأهلها الذين يقتلهم الفراغ،  
وتكسلهم الأمراض.. فالصخب في آذانهم حياة لهم وطرب. أما الذين  
سرقوها منهم فإنها تسرق منهم راحتهم بصخبها.. فهم في واقع حياتهم  
يعيشون توتر الأعصاب فلا تزيدهم إلا إرهاقاً.. هي على منابع النيل وعلى  
نهر الهدسون همجية الحضارة!

وهي في حوض الكونغو حضارة البداوة..

- الجغرافيا عطاء..

والتاريخ أخذ..

- في دنيا الإنسان خوف من المجاعة.. فمن أين جاء هذا الخوف؟

أهي الأرض شحت، أم السماء بخلت، أم الإنسان تكاسل عن الإنتاج؟

لا.. كل ذلك لم يكن.. فالذي هو كائن الآن أنهم في ألمانيا يهرقون آلاف الأطنان من الحليب في النهر وفي بلد آخر يحرقون آلاف الأطنان من الحنطة بالنار، وفي مكان آخر يقولون لزراع الحنطة: لا تزرعوا الحنطة هذا العام، ويسلمون إليهم قيمة ما ينتجون، حصار ضربته الدول الغنية لتكسب من ارتفاع الأسعار، وليكن من بعد ذلك الطوفان!!

- قلت: أنت تصنع النجاح لذاتك بهذا الأسلوب.. أسلوب الندادة.. تتعامل به مع الرجال الذين يعملون معك.. أنت تعطيمهم سيادة أن يملكوا التصرف فيما تكلفهم به، وهم يعطونك السيادة طواعية.. عطاء لعطاء!.. أما الآخر الذي يتخذ من العاملين معه أتباعاً فإنه يسرقهم في ظاهر الأمر. ليس هناك عطاء منه ولن يكون هناك عطاء منهم. الإيجاب في أسلوبك يصنع النجاح وتبادل السلب مع أسلوبه يصنع الفشل!

الندادة لمعطيها.. قيمة لمعطاها، أما العبودية فتسخير.. لن تأتي إلا بالسخرية، هو يسخرهم، وهم يسخرون!

- فرحت حين قرأت أن الدكتور (وحيد رأفت) يكتب في مجلة مصرية وفرحت أكثر حينما قرأت أن الأستاذ (مصطفى مرعي) أصبح عضواً في المجمع. فرحت لرد الاعتبار، ولصيانة الأخيار. فرحت أن مصر لم تعد هرة تأكل بنيتها!

- قلت له: مالك تمدح البغل، وتعلفه أكثر مما تعلف البقرة؟ أليست البقرة أفضل وأنفع من البغل؟

- قال: أنت ما تعرف.. رسول الله ركب بغلة ولم يركب البقرة!

- قلت: ولكن رسول الله عليه الصلاة والسلام قد أحل لنا لحم البقر، وحليب البقر، اسمع.. البقرة والجمل هما أعانا الإنسان على بناء الحضارة

أما البغل فيكفي أنه بغل . لا حليب ولا لحم ولا شيء!

- إفريقيا تجوع؟! ذلك عجيبة العصر .

إن حيوان الغاب في إفريقيا يموت من التخمة، خصوصاً الحيوان النباتي، يشبع من الغابات.. بينما الإنسان الإفريقي يشكو من المجاعة مع أن بلاد إفريقيا بلاد الأنهار، بلاد الأرضين الخصبة، لكن العجز هو من فعل الإنسان.. فما أقوى الإنسان الإفريقي على احترام العجز.

إن نهر الكونغو، والنيجر، والزمبيزي، والنيل يعطون إفريقيا كلها انتصاب القامة بالتحدي لأوروبا، حين تزرع إفريقيا القمح والذرة والموز والكركيدي. لئن كانت إفريقيا في حاجة إلى ما تصنع أوروبا وأمريكا، فإن هؤلاء أشد حاجة إلى ما تنتج إفريقيا.

إن البيت في أوروبا وأمريكا يتلمظ على الكاكاو، فلو زرعت إفريقيا لأخضعت معدة الغربيين الذين ما استعمروا إفريقيا إلا من حاجتهم إلى الزبد والرغيف، وما أكثر الزبد والرغيف لو كان الإفريقي كالياباني، كالأسترالي، إن اليابان ليست أرضاً مدرّة لأي إنتاج ولكن إنسانها قد أخضع إنتاج الدنيا كلها لقيمة ما يصنع، وكل ما يصنعه من إنتاج الآخرين لا من إنتاج اليابان.

إن ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، ورث شعبها الخراب والدمار لكل شيء فيها، ولكن الإنسان الألماني قد استطاع أن يرتفع إلى فوق بما يصنع، وحين تلقى العون من الولايات المتحدة لم يشتر الألماني خاتماً من الماس، ولم يلبس بدلة من الصوف المستورد من لندن، ولم يتحل بربطة عنق واردة من باريس، لأنه كان في ثورة على الدمار، والثائرون لا يعبأون بالزينة، وإنما كل احتفائهم بأن يتزين تاريخهم بالتضحية في سبيل أن ينقذوا شعوبهم.

## صُور!

وتلفنت إليّ تسأل عن نفسها: أهى باقية في نفسي؟! ولم أجد إجابة  
ترضيّني، أو ترضيها.. فقد فزع الفؤاد من احتراف الترضية، فحين أبتعد  
عن الحب بقسوة الأخذ منها.. لم أجد نفسي تطيعني أن أمنحها العطاء!

تخيلتها حين سألت أنها نهضت يتثاب النعاس من عينيها، فكدت  
أرضخ للذكرى ولكن قسوتها أضاعت تلك الرقة في عينيها الناعستين!

وامتد الخيال حين ابتهجت لأعطيها لتأخذ، فإذا بي أراها ماثلة  
أمامي.. فقد تجسدت الرؤية - ليست في مرآة التلفون - فلم يصلنا ذلك  
بعد، وإنما كانت مرآة النفس الواجدة حين صهرها الألم من ضيعة  
الحب.. فقد يضيع الحب في غفلة الحبيب، أو من بعض نزواته، وتلك  
مأساة وقت، ولكن.. ضياع الحب فيها ومنها مأساة.. هي أول من يشقى  
بها، وإن كابت، فالأنثى كثيراً ما تكون سعيدة بشقاء الحب، ولا بد أن  
تشقى حين يكون الحب فيها أخذاً دون عطاء.

كانت حلوة.. أحلى ما فيها: الحزن العميق.. لا تخفيه المسرة،  
فالحزن العميق يصبغ وجنتيها بصفرة الياسمين، وما أجمل أن تكون  
الوجتان ورديتين تحمر وتصفر بوميض لحظة ومضت فمضت.

كنت أعشق جمالها حين تشكو.. لا بالفاظها وإنما بالحاظها،

فالشكوى المرة لا تخفى عن مشاعر المحب، لكنها قد خسرت نفسها.. إذ لم تكن باقية في نفسي، ولم أخسر نفسي لأن بقاءها ما زال عميقاً.. أستتر به عنها، لئلا تصبح رخيصة بالأخذ، ليكون ما أعطت من قبل ذخيرة الإبقاء عليها.. فلاأكن أنا المحب، وإن لم تكن هي إلا الشيء الثمين الذي أصبح طاهراً بما كسب، خاسراً ذلك الثمين.. ألا وهو بقاء الحب!

فلعلها، وقد أسمعتها السؤال العابر عن الغيبة وعن الأوبة.. كأنها قد كانت عابرة سبيل، فصرخت تقول:

- ما أقساك!

- قلت: القسوة على نفسي وليست عليك، فإنك كنت القاسية بالرفض، وما أقسى أن أجد الرفض منك، ولكنني أحيله إلى سلوة.. ماتت في نفسي الغالية، وبقيت في وجداني العالية، لأن الوفاء للحب إذا ما أضع الغالية.. لا بد أن يحتفظ بالعالية!

الغالية أنت: كنت المعنى للعشق.

والعالية أنت: أصبحت المادة في علاقة التعارف.

وقد أصبحنا أنا وأنت في نطاق المعرفة.. ذلك ما يؤلم وإن كنت تعيشين كما يقول الشاعر:

أتراها من كثرة العشاق تحسب الدمع خلقة في المآقي

- صوتان عشقهما صاحب الأذن السماع، صوت محمد رفعت وصوت فيروز، ولا أريد أن أتكلم عن قيمة الطرب والغناء والموسيقى وإنما هي ملاحظة عرضت فأحببت أن أستعرض السبب القوي الذي أحال الأذن، وهي تسمع الكثير والكثير القوي والمعجب أن تدخر نفسها محصورة على

ألا يكون الصوت الرصين تسمعه إلا صوت محمد رفعت، إلا صوت فيروز. . مع أن أم كلثوم قد بلغت الذروة، كأنما كل أذن عربية قد فتنت بسماعها (تتغنى كأنها لا تغنى) كما هو وصف ابن الرومي وَحِيداً، أو هو قول ابن الرومي أيضاً في وحيد.

مد في شأو صوتها نفس كاف كأنفاس صوت عاشقيها مديد

كل هذا يدعو إلى أن أسأل عن السر المستكن والظاهر في قوة الضعف، صوتان ضعيفان، إذا ما تكلمنا كانا يهمسان، وإذا ما قرأ رفعت أو غنت فيروز استمال الضعف إلى قوة أخاذة من الانفعال بالإنصات، صوت أم كلثوم قوة تبرز به القوة، أما صوت هذين، رفعت وفيروز فضعف تبرز منه قوة الاستقبال بالسماع، لا قوة النداء منهما (تعال اسمعني لأنك مرغم بقوة ما أغني أن تسمعني) لم يقولا ذلك نداء وإنما فعلاه استجابة دونما نداء.

- في صبيحة ذات يوم قبل أكثر من عشرين عاماً كان بيت عندي وفي بيتي في مكة حمزة شحاتة وفي ليالي الصيف وليس في البيت إلا أنا وهو ننام تحت السماء على الدكة، والخادم اعتاد أن يفتح الراديو يتحين قراءة رفعت، فلما قرأ الشيخ قال حمزة شحاتة: ماذا تريد من هذا الصوت الضعيف؟ قلت: سيخدعك بقوة الضعف حين تنصت، وأنصت بتظاهر كأنه مرغم، كأنما أمليت عليه ذلك، ولكنني عرفت بعد حينما استمر سماعه أنه قد أخذ، فهو صاحب أذن موسيقية يجيد الضرب على العود، ويعرف السلم بكل الأنغام، رأيته قد أطرق، قال: لقد سخرتني وسخرت مني هل هناك صوت يسمع أجمل وأعظم من صوت رفعت؟ دعوتني إلى أن أطرب بالخشوع والخضوع، ولو كان العود في يدي لاستجلبت ما استنكحت، حسبي الله عليك.

قلت: أليس في هذا الوصف أطلقه على رفعت إن قوة السحر في  
صوته هي في أنه لا يصرخ وإنما يهدد الوجدان بصوته الناعم الرحيم؟  
وعرفنا بعد ذلك فيروز، فإذا هي على نسق واحد مع محمد رفعت، لا  
تصرخ لا تدعو أحداً يسمعها، وإنما كل من رنّ صوتها في أذنه قد  
استجاب لأن يسمعها.

إن رفعت قد مات يرحمه الله، وينبغي أن أترحم على الذين اختلسوا  
منه أن يسجلوا صوته في هذه الآيات التي يقرؤها.

أما فيروز فهي تعيش رغم أن لبنان قد مات، ليس في وجدانها ولكن  
من فعل العشاق، فهل تعيش فيروز لتعود لها الحياة جديدة في لبنان  
الجديدة؟ أليس من الجور أن تخاف فيروز في لبنان وهي العندليب الذي  
أعطى لبنان الصورة الجمالية كأنما هي أعطته جمال الجمال الذي هو فيه!  
فهل أقول قول ابن الرومي في وحيد:

يا خليلي تيمتني وحيد ففؤادي بها معتنى عميد

- قال لي: أعرف عنك أنك إذا ما خلوت مع نفسك واخترت بك ما  
تأتي به ظروف تكربك أو مفرحات تطربك، أخذت تنشد شعراً تتعزى به،  
تطرد كل السلبيات في نفسك، أو تهتز تعلن ما أطربك.. فما شأنك اليوم  
مع بعض ما تنشد به من الشعر؟.. قلت: حفظنا أن كبيراً عظيماً كثيراً ما  
كان ينشد هذين البيتين:

إذا عكك الأدنى الذي أنت حزبه فواعجباً إن سالمك الأبعاد  
وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

فمعظم المسؤولية التي يحملها قد أعطاها من عقله أن يتحلى بصبر  
الكبرياء وكبرياء الصبر. وقد يحلو له إذا ما اهتزت إرادته أن يخاطب  
الإخوان والأعوان والبنين بهذين البيتين أيضاً:

البيت لا يبنى إلا على عمد      ولا عماد إذا لم ترس أوتاد  
لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم      ولا سراة إذا جهالهم سادوا

ودعني أنصرف إلى نفسي لأنشد قول ابن زيدون، أحمد:

أضحى التناهي بديلاً عن تدانينا      وناب عن طيب لقيانا تجافينا  
بنثم وبنثاً فما ابتلت جوانحنا      شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا

ثم أنطلق من هذين البيتين إلى بيت أحمد شوقي:

أحرام على بلابله الدوح      حلال للطير من كل جنس

وأعود إلى نفسي مرة أخرى لأنشد قول ابن زيدون:

ما على دهري بأس  
يجرح الدهر ويأسو  
والمحاذير سهام  
والمقادير قياس  
ربما أشرف بالمرء  
على الآمال يأس

تلك كانت سلوتي.. الإعراب عن المرارة بالحلاوة.. وأرفض أن أجتر  
الحلاوة مرة ولكن جاءت المرارة في هذه الحلاوة في قول الشاعر:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبرٍ      وحُسنٍ فعِلٍ كما يجرى سنّمار

فأعاد صاحبي يقول: حين يمرضك الكرب تعزف لي نغمات الطرب،  
وحينما تطرب لا أجذك إلا إنسان نفسك.. قلت: هو هكذا (إن الله لا  
يحب الفرحين)..

- حينما كنا شباباً، وكانت نشأتنا في طيبة الطيبة، وتربتها غزلة، وإذا  
ما مسنا وهج الجمال، في الإنسان، وفيما حوالي الإنسان، و(العقيق)  
الوادي الجميل، مرتع الغزل والمتغزلين أيام كان (الترف) عذرياً، و(العشق)  
تصوفاً.

حين كنا كذلك، لم نتعمق في قراءة الشعر، الذي يستجيده الباحثون،  
يتعالى به الناقدون على الشعر الذي يجري على الألسنة، ألسنتنا نحن  
الشباب، الذين كنا ما نعيش الغربة عن التربة، ولم يملكنا سعار الاغتراب،  
كما يجري على ألسنتنا هذا الشعر، الذي كان يسترخصه، من يتهمون  
عصره بعصر التخلف.. فإليكم هذه الأمثلة.

صاح في العاشقين يا لكنانة رشافي الجفون منه كنانه  
بدوي بدت طلائع لحظيه فكانت فتّاقة فتّانه  
خطرات النسيم تجرح خديه ولمس الحرير يدمي بنابه

نراه شعراً جميلاً، يصف واقعاً عما أفعم الأفتدة بحب الجمال.. وما  
كنا نعرف عن المتنبّي هذا البيت، فقد أصبح لدينا هو واقعنا الآن:

وفتانة العينين قتّالة الهوى إذا نفحت شيخاً روائحها شبا

وأحياناً ينشدنا السيد عثمان حافظ، هذه الأمثلة حفظناها عنه:

وشادان قللت له دعني أقبل شفتك  
فقال لي كم مرة قبلتها ما شفتك

وبيت آخر من هذا القبيل:

قبلته في ثغره فقال لي بث اثحي بث اثحي بث اثحي

وما أحلى البيتين للشاعر المكي (سحراً):

ظبي جاوا قد سباني لفظه الدر الأنيس  
ثغره كنز اللآليء ريقه النقر منيس

أليس هذا شعراً، عبر عن الشعور؟ فمن التعسف والرفض لهذه الحلية  
البيانية أن ترفضها.

قد تكون المقارنة، في مجال الدرس.. أما إن كانت في غير هذا  
المجال، فهي من الدرس لهذا التراث، أي تعريضه للاندثار.

- والأنثى تعطىها الأمومة، مكانة عالية، ليس عند أبنائها وبناتها وأهلها  
جميعاً فحسب، بل في المجتمع كله.. وحين جرى حديث، عن أحد  
(الفلاحين) قال شاب: إنه قد تزوج فلانة التي كانت.. فلا أدري كيف  
غضبت؟ لكنني أدري لماذا غضبت؟ أليست الأنثى أمي وابنتي وأختي، فأخذت  
أزجره: لا تعد إلى مثل ذلك، تخلِّقْ بخلق الإسلام، إنك تغتابها الآن، لكنك  
ذكر، تغتفر لنفسك كل ما يعيب، وتحسب على الأنثى، أقل ما يعيب، إن في  
هذا السلوك ما يظهر منه أن الذكر يتعالى، ولو كان معيباً مسرفاً على نفسه،  
وينزل إلى أسفل حين يغتاب الأمهات، مع أن الخفية لا تعطيه التعالي، وإنما  
أنت حينما تصف أي أم بما وصفت تستكبر أن تكون هي كذلك، لا تعطيك  
التعالي، فالإكبار للأنثى هو الذي يجعل الرجل يتلسن، كما تلسنت.. وخذ  
مثلاً، أن أي امرأة، وقع بينها وبين أخرى خصام بعيد، يكاد أن يكون مستحيلاً  
أن تسب امرأة أخرى بما يجرح عرضها، ولو كانت تعرف عنها ذلك، فالمرأة

عفيفة اللسان، لا تذكر عنم تخصصها ما يشين عرضها، فإن هي سبت فإنها تسبها: هي عدوتي، طويلة اللسان، غجرية، تكره الجيران، إلى آخر هذا السباب الذي لا يتنافى والعرض..

فأشرف ما في الأمهات أعراضهن، أما الرجل فيسب الرجل الآخر، بكل أنواع السباب التي تتناول العرض، فالأم، أعني الأنثى أين كانت، وعلى أي مكانة، فإنها من احترامها لنفسها ستارة، لا تعيب الأعراض..

- قال: لم أكن أقصد، أرجو أن تسامحني..

- قلت: أرجو أن يعفو الله عنك، وأن يأجرني حيث أدبتك..

- والإنسان يعيش المتعة حين يرى الجمال في كل شيء، في الجبل وتضاريسه ومساقط الماء كأنه قد انشق جداول، وفي الشجر وفي كل شيء..

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد جل جلاله خلق الإنسان وتمعنه، خلقه في أحسن تقويم، ويتم حسن التقويم في الخلق إذا أتم الله النعمة على الإنسان بحسن الخلق، ولا تحسبوا أن عشق الجمال في كل شيء ينافي حسن الخلق، بل إن الخلق الكريم ينمو بحسن الذوق، فالذين لا ذوق عندهم يتعثر سلوكهم..

إن الجمال ليس في اتساق النسق وإنما في تنافر الشكل، أنت لا يعجبك جبل أملس كأنه حصاة واحدة وإنك لتعجب من جبل ذي تضاريس، نتوء يبرز به شكل وكهوف وجداول فإن هذا الاختلاف يكسو الجميل جمالاً..

كل هذه المتع يتذوقها الإنسان.. يعشقها.. يسرح ويمرح بين السفح

والقمة.. تحت جذع النخلة أو حين يرقاها يجني رطبها، الجمال في النخلة هو في النسق غير المتسق بين جريدها التي أصبحت كل جريدة ليفاً وكرناً، وحتى العراجين تتلون شماريخها متعة للنظر وإمتاعاً للذوق..

كل هذا تشبع منه النفس والعين وحتى القلب، لكن شيئاً واحداً قد يتفوق في تذوقك له ومتعتك به.. هو الكلمة البيانية شعراً أو نثراً، حديثاً مرسلأً أو مذاعاً أو متلفزاً، ذلك لأنه يجمع بين متعة النفس والعين والقلب ويزيد عليهم بمتعة العقل و متعة الاحتفاظ.. كل جميل غير الكلمة البيانية قد ينتهي إلى الذكرى، أما الكلمة البيانية فإنها لا تنتهي بالذكرى لأن متعة العقل بها يجعلها حاضرة ناضرة بالتذكير كأنها وقد امتلأ العقل بها أصبحت تذكرك بنفسها دائماً.. فأصحاب البيان لا تكاد تنساهم، فالبين لهم عنك بعيد أن يكون، لأن الإبانة منهم قرب عقل ونزهة روح!

ويكفي البيان ثناء قول رسول الله ﷺ كما هو في الحديث الصحيح: (إن من البيان لسحرا) ودعني أضرب لك مثلاً بكلمة أو كلمات، قالها الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه (إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره، وإن أدبرت عنه سلبتة محاسن نفسه).. وكلمة خليل مطران شاعر القطرين يصف جنازة مسيحية يذهبون بها إلى القبر بين الطبل والزمير فقال:

عظمة جننت فغننت في الطريق

وكلمة الرافي مصطفى صادق: (إذا اتخذت سفيها ليسافه عنك فاحذره في اليوم الذي لا يكون فيه سفيهاً إلا عليك!) وكلمتي: (الأباطرة كانوا يحتكرون الموبقات فأصبح السماسرة أباطرتها!).

إن الكلمة البيانية متعة النفس والقلب والعقل والروح.

ودعونا نعتزل الجد لثلا ننعزل عن الغزل!

فكاتب هذه السطور ابن المدينة المنورة والمدينة تربة غزلة، فأتحدى كل ناسها أن يقول واحد منهم إنه ما أحب، فالحب إذا امتلأ به قلب ترق به العواطف ولا تسترق عقول العاطفيين.

كنت جالساً في مكتبة السيد (عثمان حافظ) بباب الرحمة، وبجانبي أستاذنا وشيخنا (محمد عبد القادر الكيلاني التونسي المصري) (تلميذ جمال الدين الأفغاني)، والتركي اليوناني والمدني، فمرّ إنسان تياه قد شبع شبابه من جلال الجمال وجمال الجلال!

فقال الشيخ:

ربّ إن الملاح جاروا علينا وتعدوا حدودهم فأجرنا

فذكرني بما نسيت، ولم أذكر في حينها إلا أبياتاً للمنخل الإشكري.

قال هذا الجاهلي كأنه ابن هذا العصر:

ولقد دخلت على الفتاة	الخدري في اليوم المطير
الكاعب الحسناء ترفل	في الدمقس وفي الحرير
فدفعتها فتدافعت مشي	القطاة إلى الغدير
ولثمتها فتتنفست	كتنفس الظبي الغرير
وأحبها وتحبني	ويحب ناقثها بعيري

فأنشدتها للشيخ، فقال:

- أتلومني بإنشادك ذلك البيت، أم تذكرني بأيام خلت؟

قلت له:

- أنت تونسي، وتونس ورثت حضارة الأندلس، فأثر (زرياب) و(ابن

زيدون وولادة)، كلها نبض أعراقك وقلبك..

فقال:

- اغتربنا عن تونس، ولا زالت هي المؤنسة، فهي تؤنس كل حبيب!

قلت:

- فهل أنشدك أبياتاً أخرى؟

قال:

- فرج كرببي أو زدني كرباً!

فأنشدت من مختارات الحماسة لأبي تمام:

متى يدعُه داعي الغرام يلبُّه

يتوق ومن يعلّق به الحب يُضبه

وشوق على بعد المزار وقربه

وفي الركب مَحْنِي الضلوع على جوى

تذكر والذكرى تشوق وذو الهوى

غرام على يأس الهوى ورجائه

## خَلَجَات حين (تهوِير)

وتهوِير العجوز: لقب أطلقته عليّ محدثي، فقد كان عجوزاً عرفته شاباً، فلم يكن في شبابه يتطرف تطرف المراهق، كان بريء الطفولة وغاب عني طويلاً حتى إذا رأيته وأخذت أحدثه بذكريات عن العفة التي كانت تلبسه، وعن الحب الذي كان يلبسه، فما رأيته إلا حبيباً لا يفارقه العشق.. لكنه لم يكن لديه سعار القبلات، كل عشقه كان في عمق النظرة حتى إنه ليتذكر صورة الجميلة أقبلت عليه وهو بين أحلام اليقظة ويقظة الأحلام، لم يكن نائماً وإنما كان غائماً.. أقبلت عليه فانبهر بجمالها، لم يكن يعرفها، وذهبت في لحظتها العابرة، فما زال يعشقها إلى الآن.. كأنما خيال العشق مسه مسة (الهوِير)، فأراني أطلق عليه الآن: لقد تهوِير العجوز!

فلئن كان في شبابه غير متهوِير، فهو في شيخوخة العجز أصبح (يتهوِير) وقال لي:

- ماذا تعني حين أطلقت عليّ هذا التهوِير؟

- فقلت له: أنسيت قصة ذلك العجوز.. عشق الفتاة النمساوية (مسز هوِير)، فكل عجوز يسحره الحب أطلق عليه هذا (التهوِير). إن (توفيق نسيم باشا) الرجل العجوز رأى هذه الفتاة النمساوية فملكته عليه طفولة الشيخوخة

فيه، فالعجوز طفل في عاطفته.. ما أرادها زوجة.. متعة مخدع، وإنما أرادها أمماً لطفولته.. يطرد الأئين بالحنين، ويتمتع بالحنان، فالعجوز طفل يستجدي الرحمة فلم يجدها إلا في هذه الجميلة، فما أصدق حب الشيخ.. لأن ما يريده منه أسمى بكثير من الذي يريده الشاب، فالعجوز حين اضمحلت الفحولة في الجسد تسعرت فحولة جديدة فيه: عمق الحب ونعيم العشق، فالعجوز.. الفحولة الجديدة فيه تظهر بارعة فارعة بهذا السعار.. سعار النظرة: يحدق ويحدق في الجمال، كأنما هو يشرب الجمال، وكأنما الجميلة تأكله، وتتسعر اللمسات باليد، فالشاب حين يلمس الجمال تأخذه نشوة، أما العجوز فحين يلمس الجمال يأخذ العمق من الرحمة.. كأنما كل اللمس لديه رحمة يعطيها لنفسه، أما السعار الذي يأخذ منه ويعطيه، فهو سعار الشفتين! فالعين واليد والشفتان هي عطاء المتعة له.

- وقال لي: هل عرفت من شأني ما أنا واقع فيه!

- قلت: رأيتك ثقيل الوطأة (واثق الخطوة).. أمد لك يدي أصفحك، فلا أجد يدك في يدي.. لقد ذهبت تلمس زهرة النرجس حتى إذا غاصت يدك في وريقاتها وتبللت اليد بالطل أخذت دموع النرجس تمسح بها دمعة من عينيك.. حتى النرجس الطاغية التياه قد ذلله العشق، كان ذلك في مشاعرك حين أخذت دموعه تمتزج بدمعك، فما الذي أصابك؟!

- واغتربت.. أربعين يوماً..

ولم يكن ذلك هروباً.. إنما هو الخضوع (للعلاج).. وطالت (الغربة) حيث لم أجد تلك التي أحالت (الغربة) إلى وطن.. والوطن إلى (علاقة) كأنما (التعلق) أحاله السكن إلى (نظرة) تستشف الجمال.. تشرب من رؤيته.. تسمع اللفظة الأعجمية ترتاح لها الأذن.. كأن لها رنيناً جرسه

عربي.. فالفهم للفؤاد هو معنى (اللغة) فقد يستسيغ الفؤاد لفظة أعجمية يرسلها الجمال.. وقد ينصرف (الفؤاد) عن كلمة عربية لا يحس الفؤاد بتأثيرها.

فالعين آلة موصلة.. والأذن آلة كذلك.. أما الفؤاد فهو الذي يتلقى ما يصل إليه.. يزنه فيخترنه..

كنت حريصاً أن أراها ولكنهم منعوها.. لأنها الأنثى يحسبون أنها مطلب الرجل وقد نيف على السبعين مطلب لا يحبونه لها بينما لم أكن كذلك، حين كانت (العذراء) كنت (العاشق) العذري.. وحين أصبحت الأم كنت الأب (الفطري).. ما لمستها بيد.. وما لامستها بأيدي..

فالقوة تضحل أمام الجمال.. يستحيل إلى قوة جديدة.. في طهارة (العفة) وعفة (الطهارة)..

كانت مليحة.. وكانت جميلة.. وكانت (فقيرة) فالفقر كما يقول (علقة المري) حارس الجمال..

ففي إحدى الزيارات التي رحل بها (علقة) المري الغطفاني إلى عبد الملك ابن مروان.. فقال له عبد الملك وكان يعرف أن (علقة) كثير الحفاظ على بناته.. لم يزوج منه إلا إلى (العلية) من الرجال.. لعل منه بعض بني أمية..

قال عبد الملك لعلقة: ماذا تركت لبنتيك في الصحراء من حارس يحرسهما؟

قال: لقد تركت لهما الحارسين (العري والجوع) فالعارية الجائعة (لا تتبطر) ولا (تشتهي).. وليس فيها مطمع..

لقد كانت هذه الجميلة التي لم أرها إحدى بنات علقة.. ولو لم  
تصهرها الصحراء.. وإنما هي من بنات الثلج.. لا تغطيها البرودة.. وإنما  
الإنسان فيها والجسد منها.. والدم الفوار يحميها من (الثلج).. وحين  
أصبحت (الغربة) غربة فيها الكثير من الكربة أخذت أنشد:

وارحمتا للغريب في البلد النازح ماذا بنفسه صنعا  
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعا

لقد كان المرض بالغيبة عنها وليس بالجفوة منها.. مرضاً جديداً  
أعفاني من الانشغال بالمرض القديم..

كان مكان ذلك شفاء بينما هو داء على حد قول أبي نواس.. وداوني  
بالتي كانت هي الداء..

وحين رحلت من تلك القرية.. من تلك الضاحية أنشدت:

لعمرك ما فارقت بغداد عن قلى لَوَانًا وجدنا من فراقٍ لها بدا  
كفى حزنًا إن رحمت لم أستطع لها وداعاً ولم أحدث بساكنها عهدا

نفثة مصدور.. لا وثبة مغرور.. إنما هي غناء ينزع إلى الألم..  
ويتنزع المسرة بالذكرى.. والذكرى حلوة.. فقد عرضت وهي تمرضني أن  
تعطيني صورتها فرفضت.. وعجبت من (الرفض) فأتيت بالمترجم أقول  
لها: حين آخذ الصورة منك تنحصرين فيها.. فلا أراك إلا على وضع  
واحد.. وأريد أن تكوني الصورة التي تشغلني دائماً.. فأراك في كل  
الأوضاع التي لم تَبْدُ منك.. وإنما خيالي يبيدها لي..

إن الصورة حصر أرفضه.. وتصوره تنويع أعيش فيه.. أراك في كل

لحظة في أوضاع متعددة فهل أجد في الصورة تلك (العنود) التي أمالت عنقها في النفق؟!!

ولكن التصور يريني الكثير والكثير مما أراه لك .. وفيك .. ومنك .. وبك ..

أعيش نعمة هذا الخيال، ولا أريد أن أعيش نعمة الحصر في صورة على ورق.

- قال: ليس هو الحب، وإنما هو حب الحب. بكيته من أجل الغالية، ولم تكن غاليتي وإنما هي الغالية عند الغالية .. بكيته من أجل أن غاليتي باتت حزينه تبكي غاليتها، ولا يحزن العاشق إلا أن يرى حبه يبكي من أجل حب .. هو حب الأخت لأختها، لأخيها، لكل غالٍ لديها. لم أشعر بغيرة: أرى الحبيبة تبكي لغيري، فالغيرة من بكاء الحبيبة لأحبائها لا أستسيغها. فاحتكار الدمعة في عيني الحبيبة فيه التنكر لقوة الحب، وأنا أرى في الحبيبة أن تكون قوية حين تضعف، وضعيفة حين تقوى، لأن الحب في أوج قوته ضعف وفي ضعفه قوة .. كأنما هو اعتدال المزاج، هو يقبل الألم، بل الألم غداؤه، ولا يستريح للغضب، ففي الغضب فناؤه!

- ثم قال: كيف تعرف عني ذلك .. حتى لا أحسبني إلا أنت؟!!

- قلت: أفلست أنت أنا؟ أنسيت كلمتي لك: (إن تكن أنت أنا، وجعلنا الزمنا قطرة في كأسنا)، ثم أنسيت كيف قلبت المثل: ويل للشجي من الخلي، وجعلته: (ويل للخلي من الشجي)؟! .. فالخلي - البعيد عن حبك لمن تحب - هو الشجي بحبه لم أحب!

- قال كلام فيه لغز .. تريد أن تستر على ما أنت فيه!

- قلت: أتعني.. تلك (التهامية من نبت السراة)، أم تعني: (ماسحة البلاط؟)!

- قال: وأعني أكثر من ذلك.. تلك التي احترقت، وتلك التي ضاع وجهها في حريق البارود!

- قلت: نعم.. (التهامية) لا أدري عنها، (والمحترقتان) ذهبتا، فما بقيت إلا (ماسحة البلاط).. رحلت إليها حتى أراها، فكان قصد الرحلة للعلاج، وكان معنى الرحلة أن أراها، ورأيتهما.. فلم تكن (ماسحة البلاط)، ولا كانت تلك التي مسحت الغربية من فؤادي، كأنما نسيت حين رأيتهما أن لي وطناً غير ذلك الكرسي الذي جلست عليه!.. رأيتهما أمماً لطفل، وكنت أحسبها لم تصبح أمماً.. حينذاك انقلب العشق إلى إشفاق، كأنما العشق قد مر في تلك اللحظة، لقد عشقتها أمماً ترجع طفولة العجز في.. كأني أنا و (توفيق نسيم) على طريق واحد، وحين رأيتهما طفلها شاركني أمومتها، أشفقت، ولا تحسب أن العشق إذا ما انقلب إلى إشفاق يموت.. بل الحياة فيه أن يكون الإشفاق حباً جديداً، فذلك أن طلبت الرحمة من أمومتها، فإذا بي أعطيها الرحمة من أبوتي!

ودعتها قائلاً: أنت ابنتي وقالت: أنت أبي!

وتذكرت هذا البيت:

لعمرك ما فارقت بغداد عن قلبي لو نأ وجدنا من فراق لها بدا  
كفى حزنًا إن رحمت لم أستطع لها وداعاً، ولم أحدث لساكنها عهدا  
وتذكرت قول شوقي:

الحياة الحب، والحب الحياة هو من سرحتها سر النوى  
وعلى صحرائها مرت يدها فجرت ماء وظلاً وجنى!!

وأخيراً.. ما أحلى وأبهى طغيان الجمال، وما أسوأ طغيان الجميلة!!  
- ومشيت من سريري أتحامل على عصاي.. أصل إلى عيادة الطبيب،  
ورأيته تمسح البلاط، كأنها تعطره بشذاها. فالأناقة ليست في إغراء  
الجمال، وإنما هي في نداء الفتنة يصنعها الجمال في العاشق!

وحسبني أمد يدي بتلقائية الطبع.. أرفع ثوبي عن البلاط، فارتدت  
اليد لا تجدني ألبس ثوباً، فقد كنت في بلد لا يلبس الثياب.

ورأيته كلها.. بالنظرة الخاطفة، حتى إذا انتهيت لم أتصنع الإشفاق،  
وليس هناك معنى للشماتة. فالإشفاق لذة النذالة والشماتة نذالة اللذة!  
وابتعدت كأني لم أرها. وبعد يوم أرسلوها تذهب بي.. أمشي وراءها في  
النفق، أصل إلى طبيب ومشت (دليلة) فإذا بي أراها كلها حتى إذا أمالت  
جيدها على كتفها الأيسر، كأنها تصيخ أذنها اليسرى أن تسمع الصمت في  
النفق.. لتسمع بأذنها اليمنى النطق الصامت.. تجرني إليه، كأنما هي  
تمشي باثنين: جسدي ومشاعري، فالإغراء كثيراً ما ينقص به الجمال.. أما  
عرض الفتنة من بعضها فرسالة الجمال إلى الذين يعشقون الجمال.

حين أمالت جيدها كنت أراها الطيبة العنود، فإذا بي أراها: بعضها  
بعضها!

تلهمني أن أكون التابع في المشي، والمستعبد للجمال، كان كل بعضها  
على نسق ليس فيه إلا تنافس البعض للبعض، فإنَّ تنافر الجمال في الطبيعة  
قد طبع على الجمال.

ماسحة البلاط.. تخيلتها تلك العظامية التي تغجرت. سرقوها طفلة،  
فغجروها تلعب بالعنز.. وتخيلت أنني (أحدب نوتردام)!

كانت صاحبة العنز تعيش في طهر العفة لأن العنزة اللعوب تعطيها بعض ما يقيها، أما هذه - ماسحة البلاط - فلم تعط قوتاً إلا أن تمسح البلاط، ولعلها بذلك تفوقت على (غادة الكاميليا)، فلئن قهروا جسدها بالشغل الشاق، فإنهم لم يصلوا بعد إلى أن يقهروا عفتها، أو أن يذلوا طهرها. أما غادة الكاميليا، فأجاعوها. . حتى إذا قهرت العفة وأذلت الطهر ترامى الرجال حول قدميها. منعوا عنها الرغيف، فإذا هم لا يمتنعون أن تكون السيدة عليهم. . يبذلون الجواهر تحت قدميها.

كل ذلك تخيلته، وكأنما الصمت المطبق بيننا - لا أعرف لغتها ولا تعرف لغتي - قد استحال إلى كلام جديد بابتسامة حلوة وجهتها إلى وجداني، فإذا بي أراها كلها، وأشبع من رؤيتي لها حين رأى الفؤاد بعضها بعضها، كما قال بشار: (إن الفؤاد يرى ما لا يرى النظر)!!

رأيتها كلها بالباصرة العشواء وقتها بعضها بعضها بالبصيرة الملهمة العاشقة.

لقد تركتني أحب الغربة. . حتى استحال الطن إلى علاقة!

كم هي - في رقتها كلها - قد أصبحت قاسية والحب يصبح سيئاً بالقسوة منه وعليه، وعبداً إذا ما تراخت جبال القسوة إلى لين، أو ملاينة!  
إن الحب لا يعرف إلا أن يكون السلطة. . يتوزعها سلطانان: الحبيب، والمحبوب، فالحب بلا سلطان فوضى شيوعية.

- لم تكن ظبية من ظباء الحمى، وإنما كانت ربما غسلها الثلج، عاشت في أحضان (الألب) ولعلي بما يعجزني عن الإباحة أن أبوح بقطعة من ورقة ورد كتبها الرافي:

- (أريدها لا تعرفني ولا أعرفها.. لا من شيء إلا لأنها تعرفني وأعرفها.. تتكلم ساكته، وأرد عليها بسكوتي، صمت ضائع كالعبث، ولكن له في القلبين عمل كلام طويل.

الفرح بالجمال لذة تقتل نفسها، ولا يمسك على الجمال روح النعمة خالدة في القلب إلا الحزن به: كيوم الغيم.. ترى في سمائه قطعاً كأنها الهاربة من الليل، تختبئ الشمس فيها ثم تسطع من بعد سطوعاً يخيل إليك أنها ما توارت في خيمة الغمام إلا لتنضو غلائلها الشفافة وتتعري. يريد الجمال المعشوق أن يثبت فينا فيغيب عنا. إذ كان بذله يفنى منه على قدر ما يعطي، فامتنع وعز مناله.. كان جماله في نفسه بمعانيه، وما لافينا بالمعاني التي هي فينا. وكان له من اجتماع الحالتين حالة جمال قالت هي في ألم الرغبة المستمرة، أو ألم الغيظ المجنون: ومتى خلق لنا الجمال في قصر الزمن ولى الزمن، ومن المتاع بالحسن المذاب بتمنيه.. فقد ارتفع عن إنسانيتنا وجاءنا من ناحية سره الإلهي!!

وما أجدني بعد الرافي إلا أن أنغني بقصيدة الشريف الرضي أشهرها أذكر بها الذين لا يتذكرون ما عندهم من تراث:

يا ظبية البان ترعى في خمائله  
الماء عندك مبذول لشاربه  
هبت لنا من رياح الغور رائحة  
ثم انثنينا إذا ما هزنا طرب  
سهم أصاب وراميه بذى سَلَمٍ  
وعد لعينيك عندي ما وفيت به  
حكى لحاظك ما في الريم من مَلَحٍ  
ليهنك اليوم أن القلب مرعاك  
وليس يرويك إلا مدمعي الباكي  
بعد الرقاد عرفناها برياك  
على الرحال تعللنا بذكراك  
من بالعراق، لقد أبعدت مرمك  
يا قرب ما كذبت عيني عيناك  
يوم اللقاء فكان الفضل للحاكي

كأن طرفك يوم الجزع يخبرنا  
أنت النعيم لقلبي والعذاب له  
عندي رسائل شوق لست أذكرها  
سقى (منى) وليالي (الخيف) ما شربت  
إذ يلتقي كل ذي دين وما طله  
لما غدا السرب يعطو بين أرحلنا  
هامت بك العين لم تتبع سواك هوى  
حتى دنا السرب ما أحييت من كمد  
يا حبذا نفحة مرت بفيك لنا  
وحبذا وقفة، والركب مغتفل  
لو كانت اللمة السوداء من عددي  
بما طوى عنه من أسماء قتلاك  
فما أمرك في قلبي وأحلاك  
لولا الرقيب لقد بلغتها فاك  
من الغمام وحيّاها وحيّاك  
منا ويجتمع المشكؤ والشاكي  
ما كان فيه غريم القلب إلاك  
من أعلم العين أن القلب يهواك  
قتلى هواك، ولا فاديت أسراك  
ونطفة غمست فيها ثناياك  
على ثرى وخذت فيه مطاياك  
يوم الغميم، لما أفلتت إشراكي

- ونشأ طفلاً يلعب معها، ونشأت عروساً لا تنسى أنها لعبت معه،  
تبني بيتاً بالطين والحجر، وكأنه صبي المعلم البناء يناولها الطين والحجر.  
هي لا تعجن الطين ولا تجمع الحجر وإنما هو يشاركها، يصنع كل ذلك،  
أما هي فتبني البيت الصغير، ولو تعلمت لكنت مهندساً معمارياً، وحين  
تعلم هو كان مهندساً بيانياً.

وحين يتعايش الطفل مع الطفلة على أساس نوع من القرابة أو الجيرة  
ينمو بينهما حب يعيش طويلاً، لأنه سار على نهج الطبيعة التي نظم الله بها  
الحياة والأحياء، فكل نبات ينمو ببطء تطول حياته، كأنما نمو الحب بينهما  
بذرة شجرة أو نواة ثمرة احتضنتها الأرض فإذا هي تنمو شامخة تعيش  
طويلاً إذا ما تركها الإنسان لحياتها لا يعثب بها إذا ما احتطبها.

وأصبح الطفل فتى وأصبحت الطفلة عروساً تزف إلى عريسها، وكانت ليلة زفافها قد انسرفت نفسه من نفسه، كان ليلتها جماداً لا يتحرك، كل ما في وجدانه قد هرب، أو أنه اغترب، يسافر في نومه فقد غشيه النعاس حتى أن زفة العروس لم توقظه. أهي غيبوبة الغم أم غياب المشاعر حين يتأزم الطرف بها؟

وغابت عنه طويلاً لا يراها، نسيها وما نسيها، يتناساها ليذكرها، لكنه تعود أن يذهب إلى بيتها صباح العيد، يطرق الباب بحنان، تفتح الباب قليلاً، تمد أصابعها يصفحها، كأنها لا تريد إذا ما احترقت الأصابع أن يحترق وجدانها، ومضت سنون لا يراها إلا في يوم عيد خلف الباب. وترملت. . مات زوجها، وفي حضانتها طفلان منه.

وزارها يعزيها فتقبلت العزاء، تارة ترخي وجهها وتارة تلتفت إلى بعيد، يتحجر الدمع في عينيها، فيسأل نفسه: أمن أجله تبكي أم من أجل ترملمها، أم ثقل المسؤولية على الطفلين؟!!

وبعد انقضاء العدة زارها، فإذا هي تنتصب، كل عضلة من عضلاتها تريك أنها صلبة، وترى في عينيها الصبر والسلوان والشعور بالمسؤولية. وأعدت فنجان شاي، فقالت وهو يشرب من رؤية حلاوتها ومن حلاوة شايها: هذه آخر زورة لك، أرجو ألا تأتي.

قال: هكذا كرهت؟!!

قالت: هكذا أحببت. ما كرهتك قط، بل كل يوم يزداد حبي لك، كأنما أنا أنت في تصاعد الحب منك لي ومني لك، ولكن. . أخشى أن تفكر في الزواج مني وهذا ما أرفضه، لأنني لا أريد أن أحطم أمماً لابنتك،

كما لا أريد أن يظاً زوجي عواطف أبنائي، فزوج الأم على الأبناء وطأة ثقيلة، وأريدك ألا تحضر لأقطع السنة الناس. يقولون ما شأن هذا الرجل يتردد على هذه الأنثى، أخشى كلامهم وأخشى أكثر نظرة ابني إليك، لا يعرفانك إلا غريباً، وحتى لو عرفا أنك الحبيب فإنهما يعيشان في كرب أن تكون أمهما لغيرهما.

وأرسل تنهيدة ودمعة من قسوة كلامها وصدق كلامها وصدقة الحب.. فلو لم تكن صادقة في حبها لاسترخصت نفسها ألا تبوح بهذا الحب عن طريق القسوة، وامتنع عن زيارتها، ولكن بلغه أن وجهها قد احترق فأسرع يعودها، يسأل عن صحتها.

قالت: أنا شاكرة لهذا الحريق! قد أخذ مني جمال وجهي لأعيش في راحة من التفكير بالزواج، ولأطرد الكثير من الخطاب، إن وجهي الآن جميل في عيني الابن والبنت، لأنهما عرفا أنني لهما لا لغيرهما.

تعالى زرني بين الحين والآخر فقد عرف ابناي أنك أحد أقربائي كما عرفا أنني لهما وحدهما بهذا الجمال المشوه.

قال: إن جمالك لم يشوه في وجداني، ولكن السنين أخذت مني وأخذت منك. وما أقل عطاءها حين احترق الوجدان بالحرمان، فأنت وأنا قد أصبحنا في عداد الزهاد، نحب الحب ولا نقرب من الحبيب.

وبعد أن اغترب عن مسقط رأسه سمع أنها ماتت، ولكن حبها لا يزال حياً، فالوضع كما يقول أنيس منصور (الحب الخالد هو الحب الفاشل!).

فيا حبها زدني جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعداك الحشر

- سؤال قد يكون محرراً لأنني لا أستطيع أن أطرح تعريفاً له بينما هو

لا يخرج عن كونه صفة عادية يرغبها كل الناس، وهي في الوقت نفسه مطلب غير عادي يعز على كثير من الناس.

قال لي من أملي عليه: إنك كتبت عن الحب والجمال والجوى ولم أرك قد كتبت عن السعادة، فلماذا لم تكتب عنها؟ لأنك تتمتع بها وتخفي أسرار وصالك إليها أم أنك ذقت بعضها وأذقتك بعدها؟!

قلت: إن السعادة ثوب فضفاض، ما يسعدك قد يشقى به غيرك، وبعض ما تشقى به قد يسعد به غيرك، فالسعادة حرفتها المفارقة، والمتعة بها المعانقة، والمفارق قد يعود إليك وتعود إليه، والمعانق قد يعانقك في طراوة إذا أحسست أن عناقه بدأ يتسرمد ترفض العبودية لأي سمرمة حتى لو كانت السعادة!

فالسعادة التي ينبغي أن يعيشها الإنسان ليست قوامها الترف، وليست شقوتها الشظف، هي شيء لا يأتي من خارج نفسك. إن بعض الذين يعيشون الشظف لا ترى في وجوههم إلا السعادة، لأن ما في داخل النفس طرد الاهتمام بما يكون خارج النفس. وبعض المترفين قد يتذوقون السعادة فيما ملكوا إذا أحسنوا فيما سلكوا. إن الترف حين يستوجب إلى بطر يتوهم صاحبه أنه سعيد، بينما نظرة الناس إليه تأتيه بما هو خارج النفس بتلك النظرات التي تحققر البطر ليشعر صاحبه أنه موضع الاحتقار، وشر ما في الشقوة أن يحققر إنسان، وخير ما في السعادة أن يحترم الإنسان غيره ليحترمه غيره، فتبادل الاحترام إثبات للقيمة وارتفاع بالقيم، وتلك السعادة التي تتزوج مع متعة النفس بما هو داخلها، بهذا التزاوج يفتقد السعيد المفارقة حتى لا يكون الافتراق بينه وبين من سعد بهم وسعدوا به.

فالسعادة منحة تطمئن لها النفس، لكن المتعة بها تكبر حينما يطمئن الإنسان إلى خلقه يحدده سلوكه مع الناس.

أنا سعيد بكثير مما أشقى به لأنني تعلمت احتراف الطرد.. سعيد بأني مع الناس للناس، لا أبخل بعون وإن لم يشكر، ولا أرفض الشكر لمن أسدى معروفاً إليّ، فشاكر المعروف هو القادر على صنعه وناكر المعروف هو العاجز عن صنعه، الباخل به، والقدرة على شكر المعروف وصنعه سعادة.

إذا أردت أن تكون سعيداً فإياك أن تكره أحداً، ولو شعرت بمن كرهك، لأن الكراهية عطاء كالحب! لأنها إشغال للوجدان، وجدانك يشغل بمن تحب وأنت تشغله بمن تكره، فالكراهية صفة يشقى بها السعيد.

- الغريب عن وطنه يتمسك بالشيء القليل باعث المسرة يتلهى به عن كربة الغربة، ولكنه حين يفاجأ بشيء لم يحسب له حساباً تتصعد المسرة به إلى وضع يراه قد أصبح نوعاً من الهستيريا.. (الجنون)!

ولا أريد أن أفجع العقلاء، فما من عاقل إلا وتمر به هذه الحالة من فرحة غامرة أو ترحة محزنة، كلاهما يحدث مساً من هذه الجنة، في غمرة تلك اللحظة.

تذكر نجداً والحديث شجون وحن اشتياقاً والجنون فنون

سافرت إلى الهند في عام ١٣٥٢هـ رفاقاً للشيخ محمود شويل يرحمه الله، وبعد شهر ونحن في (ملتان) نعد الشاي ظهراً ونحن قبالة الدرج وإذا بعقالين يصعدان الدرج.. السيد عبد الله طه والسيد كامل عبد الجواد، لم أشعر إلا وأنا أقوم واقفاً أضحك بصراخ، غمرتني الفرحة بجنة، ما أحسبني إذا وصلت إلى المدينة كأمر متوقع وحين أرى زوجي وابنتي أن أكون على حال من هذه الهستيريا. ودار العناق، لحظات مرت وأنا في غمرة هذه الحالة، أضحك وأضحك، كل ما في جسمي يرقص.

وحين جلسنا هدأت وكأنه لم يكن شيء، وانصرفا، وما شعرت بوحشة حين غابا، المفجأة في الغربة ورؤية المواطن قد سببت ذلك.

ومضت أشهر ونحن نأكل (الشباتي) و (الدال) فأوحشني (الخمير) وأنواع الأجبان والأسماك، وحين وصلنا إلى (كلكتا) رأيت الشيخ أبا بكر أبا النور المدني وأبا الكلام آ زاد الزعيم الهندي والمدني المكّي، فلم أفاجأ ولم أتستّر، ولكن هذه الجنة من الفرح رأيتها في السوق التجارية حين أخذني عبد الأحد شويل ابن الشيخ محمود إلى السوق الكبير (سوبر ماركت)، فما شعرت إلا وأني أهتز فرحاً.. أضحك وأضحك.. رأيت أنواعاً من الخبز الخمير والليمون وعلب السردين وأنواع الجبن، شيء حرمت منه ستة أشهر، حين وجدته صرخت في رفاقي: (اشتر لنا من كل شيء) فقد كانت اللقمة من أي شيء هي كل الشيء ما ألد طعمها!

ووصلنا (رانجون) واستوحشنا قليلاً وإذا بمضيفنا السيد داود آتياً يرحمه الله يأخذنا في السيارة إلى المطار، كان الناس حديثي عهد بالطائرات، أباح لهم المطار أن يزوروه وأعدوا طائرة يركبها من يشاء بروبيات عشر تحلق فوق المدينة، يعرف أن الطائرة مركب لطيف، وقفنا في المطار ننتظر هؤلاء الذين يطيرون ويعودون، الهواء جميل والناس عليهم لمعة الترف، فرؤية الترف في صاحب الشظف قد تكون ممتعة إذا كان من الذين لا يحسدون الناس على ما آتاهم الله، وفي إحدى اللفتات رأينا فتى في يده كاميرا يلبس قميصاً أخضر مغللاً بزهرة بيضاء من الفل والياسمين ولا يلبس بنظوناً وإنما قد أطلق على نفسه أن يلبس الشورت، نظرنا إليه يعد الكاميرا يستقبل الطائرة وكان جميلاً جمال نصر بن حجاج، فتنة تمشي على الأرض.

وهبطت الطائرة، فأول من نزل منها فتاة تلبس ثوباً أخضر كقميصه على

جبهتها صبغة حمراء هندوكية، نظرنا إليه وإليها فإذا هما توأمان من شدة الشبه بينهما، التقط لها صورة، أمسك بيدها، نحن لم نر الصورة في الكاميرا ولكن انطبعت لهما صورة في الوجدان، فقد كان الجمال رائعاً لم أر لوناً كلون الذهب يسطع بياض مصفر صفرة الياسمين كلونها. . كلونه!

سكتُ وسكت الشيخ محمود سكتة إجلال لا نزوة فيها ولا هيستريا، وكأن مضيفنا شعر بما بنا، فقال: (هيا). . وكان ذلك ضرورياً ليخفي ما بنا ولأن الجميلين قد ذهباً كأنما أخوها قال لها أو هي قالت له: (هيا)، ورجعنا إلى المنزل وصلينا المغرب وأكلنا العشاء وتمطى كل منا على سريره، ولا أدري كيف ذكرنا المنظر، فإذا بنا نضحك بصوت عالٍ، غمرتنا جنة من الفرحه حيث تمتع الوجدان بمنظر جميل، ومكثنا نضحك طويلاً ونحن نتكلم بكلام لو دوّن لكان عجباً، وهدأت قليلاً فقد ذهبت الجنة، أقول للشيخ: (لقد أنستنا هذه صلاة العشاء، ولعلك نسيت راتبك كل ليلة) فاستغفر وقام يتوضأ كما توضأت، فالوضوء غسل للنفس، أنسانا ما كنا فيه، وبعد صلاة العشاء قام الشيخ إلى تهجده، وصار كل منا يطرد أن يذكر ذلك بعد.

فالغربة فاعلة ذلك والرؤية والمفاجأة لما يسر انفعال يحدث ما وصفناه، فهل جرب قارئ ذلك؟!!

## الهروب

كنا ثلاثة.. نجلس في (الكافيتريا).. فجاءت إحداهن، فإذا صاحبي يقول لي: دعني أخرج.. لا أطيق أن أجلس.

- قلت: ألم تعجبك القهوة؟!!

- قال: لا.. إن من جاءت بها هي التي لم تعجبني، لقد أحالتني إلى حيوان، لأنها إذ ضحكت، رأيت جسدها كله يضحك. كل عضلة من عضلاتها ضاحكة.. فيها نداء الأنتى للذكر لا أطيق أن أراها.

- قلت له: اجلس، وتبتل.

- فقال: ذلك شأنك من العجز.. فما أرخص المتع التي تعيشها، أما أنا فإنسان آخر.. لا زال في داخلي الحيوان الشرس.

وقام... ولكنه حين التفت، رأيت دمعة في عينيه.

- قلت: إن الدموع قوة تقهر الحب.. بينما هي من قهر الحب!!

## رأي!

ليس عندي وقت للكرامية والانفعال، ولا للحب ولا للغضب ولا للحزن.. فتلك أثقال تحملتني شاباً فقد كنت حملاً عليها ولا أستطيع أن أتحملها شيخاً فلست مطالباً بالوفاء لها.

وحتى الذين أحببتهم كل الحب إلى درجة أنني فكرت يوماً في الموت فعز عليّ أن أموت لئلا أكون فقيد هذه الحبيبة.. ارتفعت بحزنها عليّ فوق أن أكون الحزين على نفسي. فقلت لها مرة: أيتها الحبيبة.. أنت تحسنين إليّ بهذه الجفوة لأن ذلك يرفع عني أثقال الحب، لقد كنت الخلاص حين أصبحت الجفوة، فلك الشكر مرتين!

## الياسمين!

وأخونا الشجي كنت الخلي قبل أن أكون الشجي بشجواه، زارني عصر  
يوم يبتسم فيه الغيم بالبرق قبل أن تبكي دموع الغيم يحيا بها الحياة.  
وجلس يكر به النوح المكتوم فأعجزه عن البوح، فإذا هو الشيء قد تقلص  
كل الشيء فيه، كأنما البوح قد رضه رضا، فوجدتني أثيره لأطعمه البوح،  
فالبوح علاج لمرضى الحب!

- قلت له: دعني آتيك بعطري الجديد.

- قال: هات.. عطرنني.

فأنشقتة عطر الياسمين، فأسرعت الدمعة في عينيه، كأنما مسه بارق  
الذكرى.

- قلت: ما بك؟! -

- قال: لعلك لم تعرف من قبل أنني أحب الياسمين اللون، بصفرته  
الناعمة في الزهرة الندية، ولا أحب الياسمين العطر. فالياسمين اللون أعتز  
به ولا أبتزه، وهو يذكرني بصورتها.. بيضاء قد ابيضت صفرة الياسمين في  
وجنتيها. أما العطر.. عطر الياسمين.. فما هو إلا عصارة أحالت الزهرة،  
أرخصت جمالها، يبيعون عطرها بثمان غالٍ بينما هي الزهرة الأعلى.. قد  
لا أشمها ولكن لا بد أن أراها..

فاللون عندي هو هي!

إن عطر الياسمين تجارة، والجمال نسترخصه إذا ما كان يستحيل إلى تجارة. فكم من الجوارى في سوق النخاسة كن من الجميلات، بعضهن وردية وغيرهن قمحية والسيدة فيهن هي التي لها لون الياسمين! ولكن بيعهن في سوق النخاسة بخاسة، لا ترى من اشترى إحداهن عن حب، وإنما عن متعة الذكر بالأنثى!

أبعد عني عطر الياسمين! إنه يذكرني باستعباد الجميلة. أنا لا أحب الوردية، ولكني أحب الياسمين! كما أحب الملاحه في القمحية. ألم تسمع إجابة عمر بن أبي ربيعة حين سأله عن البيضاء الوردية (عائشة بنت طلحة) وعن الذهبية القمحية (سكينة).. قال:

- (عائشة أجمل وسكينة أملح)!!

إن عمر بن أبي ربيعة شاعر يتفنن، وفنان شاعر. لقد كان كما قال: طاهر الذيل، شاعر قال ما لم يفعل!

## دُمُوع الحُب!

- وسألني.. ما رأيك في الدموع، هل يرسلها الحزين والمبتلى أم أن هناك دموعاً تذرّفها عين إذا ما نعمت بمتعة؟

وفاجأني هذا السؤال، ولم تكن الفجاءة قد تأتت من تحجر الدموع في عيني وإنما كانت تحمل بعض الفجیعة من هذا السائل الطري الذي عرف الحب وصلاً ولم يعرفه بعد هجراً. فطعم الوصال لذة تسعده وطعم الهجر متعة رغم الشقاء، بالشقوة قد تكون فيها متعة البحث عن الأسباب التي جعلت الحبيبة تهجره. أهي فيه منه؟ أم هو منها بعوامل أخرى؟!

إن الدموع رسالة يبعثها الوجدان، يستفيق بعدها العاشق، يكسب منها لذة الذكرى من عمق الوصال أو متعة الحسرة من شقوة الهجر.

المحب إنسان، ولا متعة لإنسان إلا أن يكون في حلبة المتناقضات، فالسرمدية على حال واحدة إملال، وتقلب الأحوال فيها نضوج التجارب وتجارب النضج. فالمودة بين حبيبين يرسخها الزواج، وبين المودة والحب خيط رفيع. فالحب المستهلك لن تأتي منه المودة، والمودة المتهالكة في النظرة والعشرة والأمومة والأبوة ترسيخ للحب، فلا حب بلا مودة، ولكن قد تكون المودة دون حب يسبقها. فالحب صانعها والمودة تصنع جديد

له . . تزخرفه . . تجعل منه جديداً حينما يتراشقان، فالشفة على الشفة تطبع  
قبلة . . قال عنها الرافي بما معناه:

والشفتان حين تلتقيان لا يعرف منهما ما قاله الحب، فالشفة على الشفة  
قول بالإشارة أو إشارة بالقول: أنا الحب!

- من هنا تتساقط دموع الوله من عمق المتعة أو هي من خوف ألا  
تكون بعد، فالدموع منها النقيضان تتزواج أحياناً وتزدوج حيناً، لأنها قد  
تكون شكران الوصال يطغى على الوجدان كأن الفؤاد يعربد في نفسه فيرسل  
الحب دمعة شاكرة.

وقد تكون الدموع من حسرة الشقوة أو شقوة الحسرة حين تجفو المودة  
الحب، ولو كان ذلك بعض الوقت. فالشقوة الحسرة تدفع الوجدان حين لا  
يعربد الفؤاد لأن يرسل من سكونه دمعة على العين. فإذا ما بكى أو بكت  
الحبيبة يجري التنفس في وجدان كل منهما تعبيراً جديداً عن الحب بعين  
تدمع، حتى إذا استفاق الفؤاد كان العتب وكان الاعتذار ليكون الوصال،  
وحذار من الإنذار! فالتهديد من الحبيب والحبيبة تبديد للحب والمودة.

- فالدموع شموع . . في كلا الحالين توضع ولا تضيع . . لأنها ضوء  
جديد يشرق من الوجدان!

## الواو في اللغة الشاعرة

وتوالت الأسئلة من كثيرين ذواقين لجرس البيان، مؤيدين، يذوقون طعم البيان حين يكون الجرس رنيناً منغمّاً، وبعضهم لا ينكر ذلك إنما يتهمني بأني أتظرف حينما أبدأ في كثير مما أكتب بالواو.

فهؤلاء كانوا لي ولم يكونوا عليّ، لأنهم أبعدونني عن التظرف. لقد استسخت هذه الواو، سبقني إليها الدكتور طه حسين فلعلّي أستعيرها منه، فنحن كتاب الإملاء لأحرفنا جرس، كأن ما نمليه ليس حرفاً على قرطاس وإنما هو كلم على المنبر.

إن هذه الواو ما أكثر معانيها، واو العطف، والقسم، والاستئناف والمعية والحال والجماعة، فإذا بدأت بها أدير سمع القارئ إلى أن يقرأ بالأذن، كأني ألتفت به إلى أن ما يقرؤه الآن ما هو إلا عطف على كلام سبق.

ولأضرب أمثلة تقييماً لهذه الواو فرضت قيمتها بياناً من البيان، فإذا ما قلت: جاء زيد وعمرو، أثبت المجيء لهما سوياً. وإذا قلت: جاء زيد وعمرو لم يأت، فإنك تفهم من هذه الواو ومن أتى معنى لم يكمل إلا بـ (أتى) فإنه يدعوك بأن تفهم أن عمراً مطلوب إتيانه.

من هنا يأتي أن المترادفات ليست ذات معنى واحد، وتعالوا معي إلى هذه الواو في قوله تعالى عن استقبال جهنم للكافرين والجنة للمتقين:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرًّا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا . . ﴾  
(الزمر: ٧١).

فإنك تجد لذة البيان وعظمة الإبانة بهذا الجرس من هذه الواو في كل الآيات التي قبل هاتين الآيتين في سورة (الزمر) حتى جاءت واو (وسيق) تتسق مع النسق قبلها، أما هذه الواو في آية استقبال الجنة للمتقين (وفتحت أبوابها) لم تأت في الآية التي جاء الخبر واضحاً مشرقاً عن استقبال جهنم للكافرين، ففي استقبال جهنم (فتحت أبوابها) لهم إعلان عن المفاجأة وعن تلقف النار للكافرين، لأنها أعدت تنتظر هؤلاء تلقفهم، ذلك بيان عن المفاجأة والتلقف في بيان الغضب على الكافرين.

أما الواو في قوله تعالى عند استقبال الجنة للمتقين فقد جاءت الواو تشعر بالرفقة والجزاء الحسن كأنما رضوان قد أعلن الرضوان يستقبل المتقين، تفتح أبواب الجنة لهم كأنما هي قد كانت مغلقة أعدت للفتح احتفالاً بهذا الرضوان، فهل أجد من يلومني حين أحب هذه الواو كجرس بياني، وإن أحبها شاعر من شعراء اللغة، الشاعر يتغزل في السالف على خدود الملاح حين يتثنى السالف فيسمى ذلك السالف الذي التوى كأنه الواو، فيقول: (واوات الأصداع)!

أما فرحتي فقد جاءت على لسان الشاعر المبين الأخ غازي القصيبي فهو يسميها (الواو الزيدانية).

إن كلمتي عن واو (وفتحت) أشرق لي فهمها فإذا أنا أسأل شيخنا أبا تراب عن بعض المفسرين هل تطرق إلى ذلك؟ فقال لي: - ولم أكن قد عرفت ذلك من قبل - إن الزمخشري محمود جار الله قد تطرق إلى ذلك على نحو ما جئت به، ففرحت فرحتي الثانية أن أنعم عليّ الله بهذه اللمحة ذقت بها طعم الواو.

## من ذكريات الصبا

وأخذ الطفل الجديد في نومة الشيخ العتيد حتى إذا استيقظ نام، ترهقه الأحلام اليقظة، فإذا هو يجتر خيالا أبعد عنه أحلام اليقظة، فالخيال تجسيد لواقع، وأحلام اليقظة تبديد للواقع بالأكاذيب.. أكاذيب الأمنيات..

وتجسد الخيال أمامه، كأنما الرؤية جسدت حالا كان فيها أيام شبابه، فأخذ يجتر، وإذا هو يفتر عن بسمة صافية مريحة، كأنما الخيال قد أخذه إلى تلك الروضة انشعبت عنها الحرة شعبتين، وقد كانت هذه الروضة يركب حماره إليها كل أسبوع، يجلس في ظل نخلة، كأنما الروضة قد ازدهت على العقيق، فسلبت العقيق أن يكون كما كان.

أصبحت الروضة عقيقاً جديداً لا يجد هذا الشيخ، طفله الجديد، نفسه وحدها، وإنما يجد صحابه قد أخذوا برؤية يترصدون وجودها على البئر في ظل النخيل، في الروضة كانت البئر (ماسكة) وهذا اسمها، ترد إليها حاملات القرب، يرتوين من مائها العذب، فالبئر في الصخر صافية، عذبة، فإذا ما وصلن إلى البئر أشرقت عيون الشباب، ينظرون ولا يتكلمون، فالصمت في وجدانهم كلام! حتى إذا جاءت ليلى قيس أو بثينة جميل أرخوا عيونهم، يغمضونها ليروا الجمال كله، فالبصيرة يتجسد أمامها الجمال، والبصر يتوزع أمامه الجمال.

على حد قول (الجرداق) . . (ثم أغمض عينك حتى تراني)!  
وعندها، وفي إغماضة العين ورؤية البصيرة قد شبع الشيخ بهذا الخيال  
من رؤية كانت قديمة في شبابه .

وفوق الحمار أخذ ينشد، وكان حفيلاً بالمتنبي أنشد هذه الأبيات :

بأبي الشموس الجانحات غواربا	اللابسات من الحرير جلايبا
المنهبات عقولنا وقلوبنا	وجناتهن الناهبات الناهبا
الناعمات القاتلات المحييا	ت المبيديات من الدلال غرائبا
حاولن تفديتي وخفن مراقبا	فوضعن أيديهن فوق ترائبا
وبسمن عن برد خشيت أذيبه	من حر أنفاسي فكنت الذائبا
يا حبذا المتجملون وحبذا	واد لثمت به الغزالة كاعبا
كيف الرجاء من الخطوب تخلصا	من بعد ما أنشبن فيّ مخالبا
أوجدني ووجدن حزنأ واحداً	متناهيأ فجعلته لي صاحبا
ونصبني غرض الرماة تصيبني	محن أحد من السيوف مضاربا
أظمتني الدنيا، فلما جئتها	مستسقيأ مطرت عليّ مصائبا

## واضمحل الحُب!

واضمحل الحب.. ولم يكن ذلك عن الهجر ولا عن الجفوة بل كان ذلك صفوة.. ذلك أن الخريف (الشيخوخة) أصبح لا يعرف الهجر ولا الجفوة، لأن صفاء النفس هو متعة الشيخوخة، الآن لم تعد تفرق بين الشقوة إذا ما كانت هجراً، ولا تعرف الشقوة إذا ما تراءت لها دمعة في عين من أحب، لأن الخريف (الشيخوخة) قد عاد بأنسائها طفلاً جديداً لا يعرف إلا أن يحب نفسه.. فالأب والأم وكل الذين حول الطفل وحتى اللعب يتراءى لنا أنه يحبها، يبكي إذا ما غاب واحد منهما أعني الأب والأم، أو إذا ما غابت عن عينه لعبة، أنه لا يبكي من أجل ذلك كله وإنما بكاؤه أنانية منه، يريد الشيء، فإذا لم يتحقق يحتال بالبكاء ويحتال حيلة بالابتسامة وهكذا الخريف..

إن الشيخ أنسته السنون أن يكون كما كان لأنه أصبح هو الكائن بذاته ولذاته طفلاً من نوع جديد..

إن الخريف لم يكن عجز الطبيعة ولا هو شيخوختها، وإنما هو الفتوة العارمة فيها، فلولا عطاء الخريف لما كان الربيع.. فمن الجفوة لهذا الفصل تصوم فيه الأشجار وتستعد الينابيع للفيض أن تجعله شيخوخة يوصف بها إنسان شاخ، لولا تدفق الخريف وعودة الشباب إلى الشجر لما

كان الربيع، فلا تظلموا الخريف، ولا تعطوا للربيع طفولة الفصول أو شباب الفصول لتحرموا الخريف من قوة العطاء.

ولكن هو الإنسان إذا ما كتب يستمد الفكر وإن كان عقلاً من عاطفة هو فيها حتى ليجعل من عطاء العقل عطاء مستقلاً عن أثر العاطفة فيه، العقل وحده هو كالربيع، والعاطفة هي كالخريف فما من فكر ولا عمل عقلي يكون بلا عاطفة..

ومن هنا لم يعد للشيخ عقل إلا وقد تسربل بالعاطفة التي لا يعرف بها ذاته، فأثر العقل في الشيخ له أثر أو تأثير لأنه قد نسي أو تناسى كل المؤثرات..

وحين تهوّر الشيخ لم يكن إلا مودعاً للربيع ومستقبلاً للشتاء.. لا للخريف.

وحين يصحو من غفوة النسيان يخشى على ذاته هاجرة الصيف كما كان يخشى يوم كان ربيعاً هاجرة المصطاف.

إنه لا يعرف اليوم معنى العقيق، ولا مكانة للردف عنده، كل المعرفة قد انحصرت في (أنا)، لكن أنانية الشيخ ليس فيها سعار، وإنما هي سكون واستكانة لما هو فيه، فلن يتهور الشيخ بعد الآن، لقد نسي السمراء والبيضاء وأصبحت كل الألوان عنده سواء..

والشيخ بعد، لا يحسب أن هذه إلا استجابة أو هي إجابة لما كتبه ابنته الغالية، فكل بنات المدينة بناته، تلك نزعة البداوة فيه، إنها هي «أمجاد محمود رضا» كتبت في (عكاظ) عن الخريف يوم تهوّر.

## الأم

والطفل أمه كل شيء عنده، كل شيء فيه وكل شيء له، حب الطفل  
لأمه قسر وطبيعة، لا يمكن أن يكره طفل أمه، حملته وهناً على وهن،  
حضنته طفلاً يرضع منها، فالحنان فيها هو استدرار الحليب من ثديها.  
وأطفال اليوم يخسرون عواطفهم نحو أمهاتهم إذ لم يرضعهم.

قد تعذر نساء الغرب ينصرفن عن الأطفال، يذهبن إلى العمل ويتركن  
أطفالهن لـ (البزازة) فأصبح الطفل له أمان الأم التي ولدته والبزازة التي  
أرضعته، انقلاب في طبيعة الأم، إن حرمان الطفل من بعض عواطفها  
يحرمها الكثير من عواطفه.

لقد حرروا المرأة فاستبعدوا الأم حين أبعدها عن حضانة الطفل. تلك  
ضرورة العيش في الغرب، وإنها لضرر التقليد حين أصبح داء أصاب  
أمهاتنا.

وكان الطفل مريضاً بذات الجنب، التهاب الرئة، ما عرف أمه حق  
المعرفة، لم يبلغ الثالثة من عمره ولكنه صحا أخيراً بقبلة وضعها عمه على  
خده، فلا يزال يحب هذا العم لأنه قبّله وهو مريض وأحب أباه لأنه رآه  
يبكي بجانبه، والآن قد شاخ أصبح يحب أمه كثيراً لأنه لم يعرفها. يريد  
أن يعرفها الآن! لقد تناساها طفلاً وشاباً وكهلاً، لأنها كانت حين قبله عمه

وحين بكى أبوه جالسة لم تنظر إليه.. ما لمستته بيد حنون، لم ير إلا صفحة خدها، فقامت إلى بيتها ولم يكن الطفل معها، كان في بيت الشعر عند جدته لأمه، ولم تعد فقد أصابتها الدفتيريا، وماتت.. حرموه أن يرى أمه ميتة.

لماذا فعلت الأم ذلك؟ أحسب أنها ما فقدت الحنان والحب لطفلها ولكن لعلها أجبرت أن تتزوج أباه أو لعل المرض شاغلها، هكذا أصبح يعتذر لها.

لقد انصرف عن كل الحب لأي حبيب، ولم تبق الحبيبة لديه إلا أمه حتى حرم منها يرحمها الله رحمة الأمهات اللائي حملن الأطفال وأنجبن الرجال.

## يَا أُمِّي!

ولا أدري كيف وضعتني الوحدة على الوسادة ساعة أن أرحت رأسي  
أنطق الكلمة التي لم أنطق بها وأنا طفل.. (يا أمي)..

لقد كنت طفلاً، ماتت أمي ولم أقل لها (يا أماه)، لأنني لم أعرف  
معنى الأم وإن كنت حظيت بحنان الأمومة، لم أقل (يا أماه) في طفولتي  
الخضراء وفي شبابي النضر وفي كهولتي، فكيف أقولها اليوم في  
شيخوختي؟!

وامتلكني حزن كأنما الشيخ قد عاد طفلاً جديداً، فالشيخوخة كما قلنا  
من قبل طفولة مستجدة، أتحدث إلى المخدة وأنا لم أكن قد تحدثت إلى  
أمي؟

كانت طفولتي خرساء لا عن مرض وإنما لأن أمي ماتت ولم تقل لي  
(تاتي تاتي خطي العتبة)، أعجزني أن أمشي مبكراً المرض.. المَلاريا..  
ذات الجنب، حتى إذا مشيت كانت هذه الأمراض التي تواكبت وسيلة لأن  
أطلب الصحة. قاومت البعوض تجنبت لفحات البرد، أرتاح إلى الكي وإلى  
كل وصفات العطارين، فإذا الأمراض أعراض، وإذا الأعراض تكوّنت بها  
مقاومة.

لم أقل (يا أمي)، الكلمة التي يفرح بها الطفل وتفرح بها الأم. ونحن

من جيل لا نعرف كلمة (ماما) إنما نعرف (يا أماه) .. (يا أمي) .. (يا أم).  
أما هذه الأيام فأطفالنا قد استعجموا، لا يقولون إلا (ماما).

وكلمة الأب (يا أبي) قد قلتها آلاف المرات، لكنني اليوم وإن استعذبت  
أن أقولها فقد أمضني الكرب إن لم أقل (يا أماه).

وكلمة (يا حبيبتي) لم أجرؤ أن أقولها لواحدة أو لأي أحد بل كنت  
أقول (يا عزيزتي) .. (يا سيدتي) .. (يا غاليتي) .. (يا فاغيتي) كأنما كلمة  
الحببة قد سلبتني إياها كلمة (يا أماه) التي حرمتها.

ولست جازعاً من هذا السلب، فالأم هي الحب، فكأنما هي حين  
ضاعت مني أضاعت اسمها الثاني (الحب) .. اسمها الثاني (الحببة).

وانتصبت أبتعد عن المخدة .. أطرد الفكرة الحزينة .. أنادي إحدى  
بناتي (تعالى يا أماه) فالبنت أم أبيها، وفي شمائل رسول الله ﷺ ذكروا أنه  
كان ينادي ابنته فاطمة الزهراء بقوله الكريم وعاطفة الأبوة الراحمة (يا أم  
أبيها) كما كان يقول ﷺ لحاضنته سيدتي أم أيمن (يا أماه).

وأخيراً .. لا تنكروا عليّ استعمال المخدة بدل الوسادة فهي مستند  
الخد. وفي أسبانيا ورث الأسبان هذا الاسم (مهدة) أي مخدة.

## بكاء الشاعر

قال المعري:

لا تطلبن بآلة لك رتبة      قلم البليغ بغير حظ مغزل  
سكن السما كان السماء كلاهما      هذاله رمح وهذا أعزل

وقال شاعر آخر لعله (ابن نباتة) أو (الساعاتي) إن لم أكن قد نسيت:

رقت لرقعة حالتي الأهواء      وحننت عليّ البانة الهيفاء  
وبكى الغمام عليّ من أسف وقد      كادت تمزق طوقها الورقاء  
أنا ذلك النصل الذي عن نابيه      تلوى المنون وتلتوي الرقطاء  
وفمي هو القوس الأرئ ومقولي      الوتر الشديد وأسهمي الإنشاء

وكنت في الهند فأبكتني شادية، فقد صحوت مع الفجر فسمعت  
قمرية نقلت وجداني وعواطفي وبعضي وكلي إلى (قباء) العقيق، لم أك  
شاعراً نظاماً ولكني شاعر إنشاد، فأنشدت:

رب ورقاء هتوف في الضحى      ذات شجوه تفتت في فنن  
فبكائي ربما أرّقها      وبكها ريماً أرّقني  
غير أنني بالجوى أعرفها      وهي أيضاً بالجوى تعرفني

إنها القمرية، لم تكن مغامرة ولا مقامرة بكت ألفها، فالحمام واليمام  
والقمارى تعلم العشق، أما أنا الإنسان فما كنت مقامراً وإنما كنت مغامراً  
فغمرني الشوق لأسرع بالعودة، ولا كرامة لغريب إن لم يكن ملئ  
الجيب .

## من الترفيه

وما تكاد تجمعني المصادفة، بالأستاذ الكبير (أحمد المبارك) إلا  
وجدتني أتعلم منه الكثير، لا يأنف أن يسمعي، وأفرح أن أسمعته.

وجلست بجانبه في حفلة العشاء التي دعتنا إليها الجمعية العربية  
السعودية للثقافة والفنون بجدة، لنشاركها التكريم لشاعرنا (طاهر  
زمخشري).

وجاء ذكر الشعر، وجفوة المتزمت أن يقرأ الشعر، أو أن يقوله، فأخذ  
الأستاذ أحمد يمنح من عد زاخر، فما أكثر محفوظه، وما أرق ملفوظه،  
قال:

من شعر الأستاذ (عبد الله بن علي آل عبد القادر الأنصاري): أحد  
علماء وشعراء (الإحساء) المتوفي سنة ١٣٤٤هـ يصف فيها (وردة):

خليلي ما أبهى وأبهج هذه      وأبهج منها وردة الوجنات  
يقطف هذا بالبنان وإنما      يقطف ذاك الورد بالشفهات  
رعى الله جانيه وإن كان قد جنى      عليّ بما يجنيه من حسرات

ومن شعر الأستاذ (عبد العزيز بن حمد آل مبارك) من شعراء (الإحساء)  
وعلمائها، يصف (شجرة أترج) فيها ثمرة:

وأترجة خضراء ماست غصونها  
تذكرت لما أن رأته نواظري  
عروساً تهادى بيننا في حليها  
بهامر قيد النواظر أصفر  
وقد يقتل الصب الكئيب التذكر  
عليها رداء مُذهَّب الفرش أخضر  
وله قصيدة مدح فيها والده:

وكائن له في وعظه من نصائح  
وكائن له بين الندم من خلائق  
تذيب قلوباً أودعت قسوة الصخر  
رقاق حواشيتها تحاكي الهوى العذري

هذا شعر يدل على أن الأستاذ الواعظ، والمعلم، لهما وقارهما، كما  
أن لهما أوقاتاً، ينفرج بها الكرب بالمسامرة، والمعاشية الحلوة، بين الأنداد  
والأصدقاء.

فالوقار ليس تزمناً، والمزاح ليس فيه تفريط، فما أحسن الوسط.  
فمن المسامرات التي حضرناها في جلسة مع شيخ، أصدر هذه  
(الفتوى) عن الشاي، يقول:

«وفرض صباحاً وسنته ثلاث، كره الزيادة على خمس، إلا في (قبيلة)  
(جمع أحبة)» وكنا في قبيلة في بستان (المصرع) على حافة وادي (قناة)  
في المدينة المنورة، الأساتذة والتلاميذ، فنزل البركة فتيان صغار، وقفز على  
البركة فتيان كبيران، أخافا الصغار بضربة (الهوبة) فما كان من أستاذنا،  
السيد (محمد صقر) وأستاذنا (محمد الكتامي) إلا ونزلا إلى البركة..  
فانحاز الصغار في جانب، وإذا هما بـ (الهوبة) يضعان أحد الفتيين  
الكبيرين في ركن، والآخر في ركن ثان، لا يقدران على مصارعة الشيخين  
بـ (الهوبة).

فأخذ الصغار يصفقون ويضحكون، وابتأس الكبيران لأنهما غلبا من الشيخين .

الأساتذة كانوا آباء، والتلامذة كانوا أبناء .

## قسمة ونصيب

وكان أبوه من العلية، وكان أبوها من العلية تجاورا، فهما كتعبير أهل المدينة يسمون العلية (الأهالي) فنشأ طفلاً ونشأت طفلة معه، ودخل المدرسة وأدخلوها (المعلمة) تتعلم شغل الإبرة على المنسج، تصنع بيديها (اللف) و (التلي) فتأخذ أمه كل ما تصنع حلية لابنها، وتصنع أمها لها زينة (الحجل).

وتآلف الطفل والطفلة وكان الخطأ الذي وقع فيه قول الأم له (نادي عروستك) وقولها لابنتها (هيا نادي عريسك خليه يتغدى معانا).

فشب الحب بينهما، وكانت الأخت الكبرى لل بنت تعرف قوة الحب في وجدان أختها ووجدان من أصلوا الحب فيه حين كانت الأسترتان تدللها (أهلاً يا عروسة).. (أهلاً يا عريس).

وكان هذا الدلال تعبيراً عن سعادة الأم وسعادة الفتى والفتاة. وما كان يحسبها إلا أن تكون الزوجة له. وحين بلغا أشدهما ما تسترت منه ولا احتجبت عنه، فالثقة فيهما من الأسترتين أوقعتهما في أسر الحب لا ينفك إيساره إلا حينما تزف العروس للعريس، وحينذاك يصبح أسراً جديداً هو الانطلاق من رقابة العيون وعطف العيون.

وكان هناك بعد وفاة والد الطفل زوج لأخته هو أقرب قرابة للفتاة

فأصبح هذا الزوج للأخت الوصي عليه، والرقيب عليهما، يحاذر أن يكون زوجاً لقريبته لئلا يكون أبوها وهو خاله منتزعاً للوصاية منه حين يثبت رشد الفتى فحاول ألا يتم القران بينهما. وقد انتصر حين أغرى ابن عمها أن يكون هو الزوج لها. وما كان ابن العم هذا شديد الرغبة في الزواج، ولكن الإلحاح وحذب عمه عليه ورغبة أبيه وكيد الوصي وبحكم العرف الذي كان.. ابن العلم أولى بابنة عمه فهو يجبرها على كل خاطب لا يباح زواجها من أجنبي ما دام ابن عمها قد أجارها يريد الزواج منها.

وبكت.. وبكى.. وكانت ليلة الزفاف فجاء دور أختها الكبرى تقسم أن أول من يكشف (الطرحة) عن وجه العروس قبل عريسها هو هذا الفتى الذي كان يدعى عريسها من قبل. فاحتالت الأخت تحجز العروس بعد أن تمت (الشرعة) وكمل التزين، فأبعدت كل من حولها وحجزتها في غرفة بحجة أن تستريح بعدما تعبت من التزين وما إلى ذلك. وأبعدت كل عين تنظر، رقيقة أو حبيبة.

ونادت الفتى الرجل (!! ) يدخل لا يراه أحد يكشف الطرحة فسالت دموع العروس وسالت دموع الفتى، وما مستها يده وما طبع قبلة على جبينها بل تجسد أمامها كأنه عابد في صومعة وكأنها المتبتلة في محراب.

رآها.. وباركها.. وقالت الأخت (هيا.. أخرج.. الزواج قسمة ونصيب).

ومضت سنون، فأحب أن يراها.. قد أصبحت أمماً، والأمومة تحتم الطهر والعفاف، فحرمت على نفسها أن تراه، أو أن يراها. فقالت له من وراء (الشيش):

- لا تنكأ الجراح.. ولا تجرح العفاف.. فنظرتك إليّ أو نظرتي إليك

تخدش الأمومة . أنا لا أقول لك انسني بل سعادتي أن تذكرني ، ولن  
أنساك . لكن كلنا إلى قدره قد مضى .

فتنفس يحكي لي حكايتها ، فقلت له :

- هكذا الأمومة قداسة ولا أدري ما أقول للأبوة . فكن طاهراً كما كنت  
يوم لا رقيب عليكم . إنك تعيش سعادة الزاهدين عن العبث ، فعمق الحب  
لها فيك قد رسخته حين امتنعت أن تراك .

ومات بعد أن شاخ ، فإذا هي تلبس السواد تحتال على ذلك بمصادفة  
غريبة . . وفاة قريب لها في اليوم الذي مات فيه حبيبها .

## العائقة أم حجل

ونشأ طفلاً في حجر أبيه، وفي ليلة من الليالي رأى الدموع في عيني والده تنهمل صامتة لا تتكلم، فأزاح الطفل وقال: (الحمد لله) وسجد شاكراً لله، فعجب الطفل من صنع أبيه، وانعقد في نفسه أن يسأله يوماً ما عن الدموع والحمد والسجدة، حتى إذا كبر قليلاً سمع أباه يغني أغنية صعيدية:

يامه يا الفجل غبغب غطى الرجل  
والعائقة أم حجل.. عما تتمخطر فيه

فاغتنم الفتى الفرصة يسأل والده عن الدموع والحمد والسجدة والعائقة أم حجل، فقال أبوه:

إنها هي.. ولم يسمها!

كنت في البلد - يقول الأب - ولما أبلغ السابعة عشرة من عمري، فأحببتها وأحببني، وكانت حلوة، فاجترأت وأطاعت، وأمكنتني من نفسها حتى كدت أقطف الثمرة، فذكرت الله وابتعدت عنها.. رفضت الحرام، فقالت وهي لا زالت في نشوة الغريزة: (مالك؟ جبان.. اخص عليك).

قلت: بل أنا شجاع، قتلت الشهوة واحترمت التقوى. وخرجت ولم

أعد إليها، لكنها لا زالت حبي. وقبل أن أهاجر إلى المدينة زفت إلى عريسها فزغردت أمها وخالتها، وكل الذين رأوا بياض الوجه عرفوا أنها لا زالت بكرًا يحمد لها عريسها عفتها، فعرفت من أنا حينذاك! وجاءت إلى البيت تسأل عني فقالت:

- شكراً شكراً.. عرفت لك الشجاعة يوم أقصيتني عن الحرام، وتمتعت ليلة العرس بسعادة الشرف، وشرف السعادة. كان ذلك عطاءك.

فدمعت عيناى، فقالت: أتبكي؟!

قلت: أرسل دمة الشكر تحية لك أسجل فيها بقاء حبي العفيف الطاهر، ورحلت فلا زلت أذكرها كلما نسيت هموم الغربة، وكلما استأنست بوطني الجديد، فالأرض التي أملك، والولد وأنت وأخواتك رابطة ربطتني أن أنسى كل شيء هناك، ولكن تلح عليّ الذكرى فأراها تمشي أمامي في الغيطان، كأنها هي التي علمتني درساً ألقنه لك لتكون في وضع لا يشين.

فالندامة يا بني حسرة تأكل القلب، وإن كان فيها بعض التطهير من

الذنب!

أستغفر الله وأتوب إليه.

من هنا لم تكن للفتى إلا النظرة الأولى، ويقول بعدها: (ما شاء الله

تبارك الله أحسن الخالقين)..

## الْحَنِين

وأحبها وأحبته، وكنت الخلي وكان هو الشجي، أسمع حنينه أنيناً،  
وأسمع حبها غضباً، ومن أجله لا من أجل ذاتها، تغضب إن حرمت منه،  
وأمسح دموعه إن حرم منها، فإذا أنا الخلي أصبحت شجياً.

- قلت له مرة: ما أحسن أن أتصرف في هذا المثل (ويل للشجي من  
الخلي) لأنني أصبحت تحت ضغط الحب.. حبها له وحبه لها.. لست  
خلياً بل كنت الشجي، أشقى بشقوتها وأنعم إذا أراها يلتقيان، لا بدافع  
الحب يعلنه كل منهما وإنما بدوافع أخرى يتخذان منها الوسيلة للقاء.  
فأصبح المثل هكذا: (ويل للخلي من الشجي).

فشقوتي مثالية، وشقوتها أصبحت أمثلة، سجلت نفسها في نفسيهما.  
وكان الاقتراب لا يحسب بعدد الاغتراب، فإذا وسيلة العيش تغترب به  
وبها، غربة زاد المسافر فيها الحنين والذكريات والغضب!

وابتعدت عنه وما ابتعدت عنها، فلا زالت فيه (أنا هي) فهي حياة له  
دونها. واقتربت فكان الاقتراب بلسماً هدأ فيه الحنين وبقي الغضب فيها  
لأن الاقتراب كان معاشة بالتراسل، والأثنى تريد المعاشة بالالتصاق.

ومرت سنون تكفيهما الثقة بالحب، ولكن وسيلة العيش كثيراً ما تكدر  
قيم الحياة وتؤثر على تقييم الحب، فالإنسان مهما استعصى على المؤثرات

فإنه في لحظة وبمؤثر تافه يستتفه أن يعيش في الماضي ليركبه حاضر يزول، وقد ركب الحاضر حبهما، أعني الوسيلة التافهة، فإذا الحنين يذوب فيه، وإذا الغضب فيها يغضب على الغضب الذي كان، فاستحالت الابتسامة إلى قهقهة، كأن القطيعة جنون لم يشعر به كل منهما.

عادت، وكما كنت أظن أن الحنين سيعود، وإن الغضب سيصبح طريق الرضى، فوجدته قد استجاب لحنينه، وما أحسبها إلا وقد استجابت لأنينها. فهل عودة الحنين شعلة من الحب؟ وهل عودة الأنين برهان على حب جديد؟!

كل ذلك خيالات الخلي، أصبح شجياً يحس بهما وإن لم يعرفا أنه معهما في القطيعة والوصال ولا يغضب، لأنه يثق بالحب. فالحب لا يموت بأي مؤثر، وقد ينقلب انصرافاً من الذكر، ولكنه لا ينقلب في الأنثى أبداً حتى لو أصبح حقداً وحتى لو حاول الانتقام، فحقد الحبيبة أو انتقامها جديد لذاتها من الحب القديم له الذي لا يزال جديداً فيها.

فالعاشق هو (أنا) والعاشقة هي (أنت وأنا). لأن الأمومة سلطان قاهر سلاحه الحب وطرفاه الحبيب والحبيبة. أما العاشق فليس لديه سلاح إلا استعراض حبهما له يجتر بإعلان حبه لها، فالأبوة ليست سلطاناً قاهراً كالأمومة.

ورأيته يفتش عن الوسائل وما أكثرها في يدها لا في يده، ليس عن عجز فيها يرغب، ولكن عن القوة فيها تستحوذ على ما ترغب.

## تمر وَجَمَر

- قلت له: حينما يصبح الحب معاملة على صورة من المقايضة، فإن هذا أشبه ما يكون بالبغاء حين تستحيل علاقة الصدق بالتعامل إلى أذوبة!!
- فقال: هل إذا أعطيتك لا آخذ؟!!
- قلت: إن عطاءك لي أخذي منك.. وعطائي لك أخذك مني، تعطيني وأعطيك بلا شرط، بتلقائية التلاقي ولكنك أنت قد زيفت الحب حين اشترطت أن يكون المقابل زيارة بزيارة، وقبلة بقبلة، هدية بهدية، فكل ما اشترطته تعامل مادي، حب مزيف.
- وقلت له: حين يستحيل الوفاء إلى مجاملة ابتغاء لتفريغ الوقت فإن ذلك البغي على الأخلاق.
- فقال: ألم أسمعك مرة تقول «إن واقع الحياة أفسد فينا أخلاق الكتب»؟!!
- قلت: ذلك لأنك نفس سقطت في الشهوات، فلم تكن كالذي أسقط الشهوات فارتفع بمستوى الأخلاق إلى وفاء لا تحيط به المجاملة..
- وقلت له: إنك تكثر من الأصحاب.. بينما أنا أستكثر من الأحباب.. فالصحة عندك وقت، والحب لا تريد أن تتقيد به، أنت شديد الرغبة أن تكون صاحباً، أما أنا فلا رغبة لي إلا أن أحب دون أن يكون الحب معاملة، فالعطاء مني وإن لم يكن أخذاً..

من هنا.. فالكراهية لا أملاً بها وجداني لأنها عطاء، ولكنني قد أحتقر وأزدري.

إن مكارم الأخلاق أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك.. فلا يكمل إيمان المرء إلا بذلك.

إن الحب لكل أهلك هو خير ما تصنع، ويرحم الله حافظ إبراهيم إذ يقول:

أمة قد فتت في ساعدها بغضها الأهل وحب الغربا

## عذريّة الحب

ونشأ معها ولها، فما من يوم إلا وهو يراها، وما من لقاء إلا وهو يرى فيها شيئاً جديداً من الحب له، كأنما هو حبها، لا تخفيه، ولكنها تخافه .

أما هو فأحبها حباً على طريقة أخرى، يريد لها لا تخفي مشاعرها، يريد لها أن تكون له حين يبلغ الرشد الزوجة الحبيبة ليعيش بها ولتعيش فيه .  
ومضت سنون، فإذا هي ناهد وإذا هو فتى!

فقال لها: أنت القريبة القريبة، قرابة من صلة الرحم، وقرابة من اللقاء المستمر، فلماذا لا نجعل هذه القربى تتسرمد، أكون زوجاً لك وتكونين زوجاً لي؟

- قالت: كم أود ذلك.. لكن يمنعني أن أقتل الحب بالزواج، فحين أصبح زوجاً لك تصبح شغلي الشاغل، خادماً في البيت، مربية للأطفال، تغضب حيناً فأسترضيك، وأغضب حيناً ففترضاني .

حينذاك ينقل الحب إلى صناعة أو تصنع، وأنا لا أريد إلا أن يبقى حبي لك دون تصنيع له ودون مصانعة به، لهذا ابتعد عن هذه الرغبة في الزواج، فلتبق الحبيب، ولأبق المحبة .

أتزوج غيرك أعيش معه، وتتخذ لك زوجاً غيري تعيش معها، عملاً

بسنة العيش، أما أنا فأمتلك الحياة حين أكون لك بالحب كله، ولا أفرض عليك أن يبقى حبك لي، فالرجال كثيراً ما يرهقهم الحب فينصرفون عنه، أما نحن النساء فالإرهاق بالحب هو نعيم نحيا به، فالألم هو اللذة!  
ألم تقرأ لي مرة كلمة لجبران خليل جبران «ابتغوا اللذة بالألم، وابتغوا الألم بالحب»؟

لا أريد أن أفجعك، فقد أخبرني والدي أنني قد خُطبت لعريس لم أره، فوافقت، ومن الإنصاف لوالدي أنه استشارني، ما أراد أن يستبدّ عليّ، حتى أنه ذكرني بك، فقلت له:

- استجب للخطيب.. واترك القريب.. فلم أجرؤ أن أقول الحبيب..  
فالآباء لا يعرفون، وإن عرفوا لا يجهرون.

وتم الزفاف، فإذا هي أم الأولاد، فلم أدر أنها لا زالت على حبها لي، ولكنني أردت التثبيت.

زرتها يوم عيد، ومن خوخة الباب مدت يدها، ثم نظرتُ إلى عينيها فإذا هما تبسمان بدمعة، كأنما شقاء الحرمان يسعدها حين يكون الحب قد ملأ الوجدان.

وما زال حبها معي، أبقتة الأيام حين احترقت تموت، ولم يمت

الحب!

## عَافِيَةُ الدَّمُوعِ

خبر مشيراً!

كان الأثير لدي حين فكرت فيه، أسرع بي لأن أحب أكثر، فالبغضاء تأكل وجدان المبغضين. وحين قالوا عن الحسد إنه يأكل صاحبه لم يعرفوا أن البغضاء حسد الإنسان لنفسه، يريد أن يشبع بكراهيته للناس بينما هو قد أجاج وجدانه حتى أبغض، فالبغضاء مرة أخرى تدمر العصب لأنها تأتي بالغضب أو يأتي بها الغضب.

أما الحب فحياة الوجدان، لا يرهق العصب، ويلبس الدم حرارة متجددة، حتى الغضب إذا ما طرأ على المحب كان فيه معادلة الترفيه واستفاقة مؤقتة ترتاح بها الأعصاب ليعود الدم ساخناً، حتى ليشفى المريض مرضاً جسدياً حينما يبرز الحب بفورة الدم يتحدى المرض. . يتعداه إلى صحة جديدة.

- قال لي: ما رأيك في الزواج والحب؟

قلت:

- الزواج امتلاك، لكنه يضعف الحب بين القرينين حين تستديم الحياة الزوجية إلا إذا تطورت بحب جديد. . حب الأبوة والأمومة.

فالحب إن كان سبباً للزواج أصبح مطلب هذه الأيام، بينما الزواج قبل

هذه الأيام وإن كان امتلاكاً فإنه قد يتأصل به الحب.. . بالمودة والرحمة والبنوة والعشرة.. .

إن الزواج الامتلاك قد يطغى به مادة الامتلاك، ولكن الحب هو الامتلاك الأقوى.. . قوة المعاني.. . قوة الروحانية في العاطفة والوجدان والعقل والتصرفات.

وبعد هذه المقدمة أضوغ الخبر المثير!

إنه خبر أبان قدرة الله التي أودعها في الحب، كما أودعها في الدموع. فالبكاء قد لا يكون حسرة، وقد لا يكون سخرية، إنه كثيراً ما يكون مطلباً جديداً استجابة لنداء الحب.

وسمعت هذا الخبر من (صوت العرب) في برنامج أو سهرة (أصائيس) (يعني أقاصيص) فقد نشر وأذيع أن فتاة إنجليزية نسيت اسمها نشأت عمياء حتى بلغت ثمانية عشر عاماً من عمرها، وعاشت تحب صديقها وصدقت أنه يحبها، ولكنه حين بلغت هذه السن ولم تبصر وظلت عمياء تركها.. . انصرف عنها.. . ولعلّه أعلن أن السبب في عقوقه كان عماها. فبكت.. . وبكت.. . وانهالت الدموع.. . فإذا هي تفاجأ بالنور يلمع خلال الدموع!

باكرها الضوء شاعاً من حرارة الدم والدموع وعمق الحب.

أخذوها إلى الطبيب فأبصرت.. . رأت الدنيا، فإذا الدنيا على سعتها تضيق، وبضيقتها تتسع.

فالحب حين أطبق عليه اليأس ثار.. . أعلن قوته وفرض سلطانه.. . وكانت الدموع سلاحه. أي معجزة هذه يصنعها الحب الذي أودعه الله في القلوب!

ويعجبني قول الرافعي يكتب عن تنازل الملك الإمبراطور (إدوارد الثامن) يوم تنازل عن العرش من أجل الحب.. حبه لمسز (سامسون):  
(وجاءت الدنيا بالإمبراطورية والأسطول والعرش، وجاء الحب بامرأة مطلقة من زوجها، فقال الحب هأنذا).  
فانتصر الحب!

## الفاغية والحادر

من الفولكلور الشعبي أغنية مطلعها ولا أحفظ تاليها (يا بنات الهنود..  
يا فاغية في العمائم) فتأثرت عواطفنا باسم (الفاغية) حتى أحببنا هذا الاسم  
ولا أريد أن أترك القارئ وقد استعجم أن يسأل عن (الفاغية) عجوزاً مثلي.

إن (الفاغية) هي زهرة الحناء.. بيضاء قمراء.. يوضع شذاها في  
الفجر، كأنما هي تفرح بالصبح ليفرح قاطفها بها، والتياهون من الشباب  
يغرسونها في عمائمهم كما يغرسون الفل والورد على صدورهم، وأعني  
التياه ما تسميه العامة بـ (العايق) يقولون (فلان عايق) إذا استعرض شبابه  
أمام أنداده باللباس يشتره بثمان غالٍ، يتيه بأنه يملك أن يشتري (اللاس) و  
(الكشميري) و(السليمي) و(البرسمي) و(السقاطة) و(فخر الموجود)  
و(الرشوان). تلك أحزمة وشيلان واثواب يتزين بها المترفون.

وتأتي (الفاغية) زينة على الزينة!

وهناك أغنية أخرى من هذا الفلكلور هي (يا لعشرة.. خللي الحادر  
يمشي.. يمشي على رمشي)، ويخطئ بعض من يغيها فلا يقول (الحادر)  
وإنما يقول (الحجر) فيحصل الالتباس.. هل هم العشرة ومن العشرة؟ وما  
شأن الحجر يمشي على الرمش؟! فضياع الفلكلور والاستعجام قد وضعوا  
الأشكال فيحسن أن نزيل الإشكال بالتوضيح.

فالعشرة ليست جماعة من الناس عددهم عشرة، وإنما هو اسم لأحد المطاليق، فعندنا في المدينة المنورة شخص اسمه (العشرة) وفي مكة المكرمة كذلك، ينادونه وهو المطلق من (مشاكلة) الحارة أن يفتح الطريق للحادر، أي النازل من (النقا) إلى (سوق الليل) أو النازل من (النقا) (العنبرية) إلى المناخة، فنحن نقول بلغة البادية: (أنا حدرت من مكة إلى جدة، أو حدرت من الفريش إلى المدينة، وأصعدت من جدة إلى مكة أو من المدينة إلى الفريش).. كما نقول: (حنا محدرين من الطائف إلى مكة، أو مصعدين من مكة إلى الطائف، أو انحدرنا من رحقان؛ إلى المسيجيد، أو صعدا من المسيجيد إلى ورقان). فرحقان وورقان جبلان ينحصر بينهما وادي الصفراء.

فالأغنية فيها لفظة (الحادر) لا الحجر، وهكذا ضاع الفلكلور كما ضاعت الصناعات المحلية اليدوية وكثير من أدوات التراث، فكم هو جميل أن تعنى المتاحف بحياسة أدوات التراث كما يحرص الجماعون على التراث من الفلكلور.

ولا يفوتني أن الذين أخطأوا بين الحادر والحجر لهم عذرهم، فنحن نعرف من الشباب من كان يلقب بالحجر، يناديه أصحابه (تعال يا حجر). ولا أدري كيف نسيت أمانة مدينة جدة أن تملأ الحدائق بالحناء لتفوح الفاغية!

## وَمَا زَالَ بِهَا . .

وسألته: كيف أنت بها الآن؟

فوجدته بين حالين.. صحوة استيقظ بها، وغشية كادت تذهب بصحوته، فحين أطرق جاءت الإجابة دمعة من عينيه، وارتحت أن أبكيته، حتى إذا أفاق قال:

- أنت حين يأخذك الألم وتركب الحزن وتصوغ العبارة البيانية مجنحة لا تنحصر في المعنى الواحد، وإنما هي تتسع وتتسع لكثير من المعاني، كيف خطر لك أن تسألني فلا تقول: كيف أنت معها؟ أو كيف أنت فيها؟ بل أسقطت ذلك تحصرني لتعرف حالي حين قلت: كيف أنت بها؟! قلت:

- قد أردت ذلك، فأنت لم تكن معها، فهي أقصت المعية، ولم تعد فيها، فهي قد رفضت ذلك، وبقي أن تكون بها لتكون لها، أو لا تكون كذلك.

قال:

- حين ينتهي التعلق معها أو العلاقة فيها، فذلك مظهر قد يكون فيه المخبر المعبر عنها، ولكنه المظهر الذي لن يكون تعبيراً عني، فأنا لا زلت بها وإن رفضت أن أكون لها.

قلت :

- ذلك كسب كبير تعيش في نعمائه، ويعني ذلك أنك لا زلت العطاء دون أخذ تصون حبك حين تعطي ولا تأخذ، أما هي فقد أعطت وأخذت، حتى إذا بخلت بالعطاء لم تبخل على نفسها بالأخذ.

ذلك فرق كبير، ما كنت أحسبه يكون إلا منك، لا منها، فإذا بي أصاب بنخبة حسن الظن، واليقين بسوء الظن.

لقد أسأت الظن بك حين طرحت عليك هذا السؤال، لأحسن الظن بها، ولكنك قلبت موازيني، فإذا أنت العاشق تذوق الألم وبه قد هذبت أخلاقك، فطالما أنا وأنت تعجب بقول جبران خليل جبران:  
(ابتغوا التهذيب بالألم، وابتغوا الألم بالحب).

وكنا نرتاح. كأنما أنا وأنت وجبران قد رجعنا إلى الوراء، فاللذة بالألم فلسفة (القورانتينيين) يتزعمها (أرسطبس)، ولقد كانت امتداداً لفكرة اللذة بالتعذيب.. فلسفة (الهنادك)، فإذا فرغنا من ذلك أرسلت تنشيد هذا البيت:

منى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً

وتركته يضحك حين تنفس، وودعني وأنا أبتسم إذ لم أتنفس بعد، فوجود الحبيبة في الحياة مجال للتنفس، أما غيابها حين احترقت فلا مجال للتنفس.

## الوفاء للحُب

وطرح عليّ سؤالاً: هل هناك حب بلا وفاء؟ أو بمعنى أدق: هل ينجح الحب دون وفاء؟ وقبل أن يطرح هذا السؤال ليكتبه قال:

- ألا تخشى أو تغضب من قارئ يضعك في موضع النقد إذ يقول: لقد أمسيت عجوزاً، شاب قرناك، وما زلت تكتب عن الحب، هل أنت تخذع قارئك أم أنك صادق مع الحب؟!

إن هذين السؤالين كل منهما أجاب عن الآخر بطريقة يستحلب بها إثارتي لأعطيه الجواب لا كما يريد لأنني أجهل ما يريد، ولكن الإجابة أطرحها بعد.

إن الوفاء بالحب لا أراه سؤالاً يتضح به الجواب، فالوفاء بالحب معناه الأخذ مقابل العطاء، أو هو الأخذ دونما عطاء، وكان يحسن أن يقول الوفاء للحب، فالوفاء بالحب مطلب مادي، أما الوفاء للحب فهو العطاء دون مقابل، ويعني ذلك أن الحب يفرض إرادته.

فالحب كله وفاء، سواء كان وصلاً أو هجراً، فلا يقبل المحاسبة، وإنما هو ينمو بالمعاقبة، لكن.. لعلّ السائل عبّر بالوفاء عن العطاء مقابل ما أخذ منه، توارى وراء الوفاء عبر به عن الوصال، ولكونه في غمرة

العشق لا يقبل إلا الوصال. فإذا كان الوصال هو الوفاء فلا يكون الحب إلا وقد تسربل بالهجران.

فالهجر وصال للحب وإن لم يكن وصلاً للحبيب.

أما السؤال الثاني فإني والله الحمد أعيش الحب للحب، فقد قلت في ضحى اليوم لصديقين عرفت أنهما في متعة فقلت لهما: (تأكداً أنني أتمتع بمتعة الآخرين، سأقوم من عندكما أجتر الفرحة بما تمتعتما).  
ذلك الصدق مع الحب وتلك الصداقة معه.

وأنا أعرف هذا المثل الفارسي (شيطان أبرد من يخ (ثلج) شيخ تصابى وصبي تمشيخ)، فالخ يعني الثلج، ولست كذلك.

كما أنني لا أبلغ مبلغ الفراشة، ولا يصرعني الحب صرعة البلبل، فالشاعر الفارسي (الفردوسي) يقول حين خاطب البلبل عاشق الورد، قال:

(أيها المرغي في السحر.. أنت عاشق مسكين، لا تتحمل صرعة الغرام فالفراشة هي التي تموت غراماً حين تحوم حول حبيبها، النور في المصباح، النار في الموقد، تحوم الفراشة حول النور والنار لتحترق في جوف ما تحب، أما أنت أيها البلبل «المرغي» فلا تتحمل عضة الوصال، تحوم حول الورد في ضوء الصباح فإذا تنشقت أريجها أصابك الدوار.. يغمى عليك.

إن الورد لم تقتلك ولكنك لا تطيق الوصال، أما الفراشة فيحرقها الوصال).

إنها رمز العشق في تعريف (الفردوسي)، أما البلبل فعاشق يخاف الوصال.

إنني العجوز لا أمنح الكراهية لأحد، لأن الكراهية عطاء تشغل بها وجدانك، ولا مكان عندي إلا للحب.. حب الحب.. فليسترح ذلك الناقد، فمتعتي أن يقرأ لي، وأنا أكتب أناغية، لا بالغضب منه وإنما بالحب له.

## بَاطِن الكف

وهلّ يوم الخميس، الخامس من شهر رمضان، وذهب معلم الصبيان مبكراً إلى المدرسة، وبعد الظهر، نام على فراشه، وإذا به ينتفض، كأنما هي حمى الغب (الملاريا).. هكذا ظن، فأحياناً كانت تعتريه.

وعلى مائدة الإفطار، سأل أبوه عنه: أين محمد؟ قالوا: هو فوق (عليه حمى نفاضة)، فأخذ الأب الدرج طياً، يسرع ليرى ابنه.. فقال له: افتح فمك، ونظر إلى تحت اللسان، فإذا هو يرى خيطاً أسود، فضرب الأب كفاً على كف، وقال: هي الملعونة.. قال الابن: من هي؟ وكان ساعتها يتذكر حبيبته، فظن أن أباه يعنيها، يكلفه الحرمان منها، لأنها السبب في مرضه.

فقال الأب: الملعونة هي (الجمبة) يعني ذات الجنب، أو التهاب الرئة.

وذهب الأب يفطر على تمرتين، ويشرب ما يروي غلته، ولم يرغب ساعة، حتى جاء ومعه الطبيب البدوي (سلامة الريفى) الجهني، فقد كان خلفاً في طب البادية، حين كان أبرع من (جزى الظاهري) فقد كان (جزى الظاهري) الطبيب الأول لمعلم الصبيان، حين أصيب بذات الجنب وهو طفل، فكواه ست (كويات).. سأله: بس؟ قال: (كوية) في مظانها، وخرج الطفل معافى.

أما (سلامة الريفي) فقد كواه في المظان، ولكن لم يكن التهاب الرئة الواحدة بل كان التهاب الرئتين، وأعطانا روشتة غير مكتوبة، فالطبيب البدوي، لا يعرف الأوراق، فكل ما أعطانا: لا يأكل الدسم، ولا اللحم، يأكل فطيرة جمر، وعسلًا، ولا غير ذلك، أما الماء ف (اغلوه) ثم بردوه وضعوا فيه مسحوقاً من (الشبة السوداء).

وذهب الطبيب، وثبت معلم الصبيان على الحمية، ولكن قبل أن يذهب سلامة سألته لماذا الشبة السوداء؟ فقال: (تقشع البلغم والدم) لتصفية الرئة. . ولا يدري كيف شرب مرقة دسمة، سقتها أخته له.

وقبل العشاء - بكسر العين - اشتد عليه المرض، فأغمي عليه، وإذا به يصحو على صوتها، من لمسة يدها على جبهته، ومن دمعة سالت من عينيها على خده، فإذا اللمسة والدمعة تصحوان به، ينظر إليها، يقول: فلانة؟ ويشتد ولا يسمعه أحد إلا هي، فقد أغلقوا الغرفة عليهما، كان الأب وامرأة الأب، والأخت، يعرفون كل شيء، فتركوا الشيء للشيء، تركوا الحب يفعل فعله، فأنشد يقول:

اذكرونا مثل ذكرانا لكم رب ذكرى قربت من نزحا  
واذكروا صبًا إذا غنى لكم شرب الدمع وعاف القدحا

ولم يشعر إلا والدموع ترسل حبها، والفرحة في وجدانه، تعلن حبها، كأنما هي غسلت الرئة، فإذا هو شديد، ووضعت كفها على فمه، فقال لها: أتريدين أن أسكت؟ قالت: لا، أريدك أن تقبل باطن الكف، لا ظاهرها، فالقبلة على ظاهر اليد احترام، أما قبلة باطن اليد، فأعلان الحب،

كأنك حين تقبّل كفي، تقبلني كلي، أما ظاهر اليد، فقبلة بعض، المعنى  
جديد، جدد فيه النشاط، فإذا به يصحو، وقد كان في الثامن والعشرين،  
أما الآن فقد نيف على السبعين.

## الأرض

وتلفنت أسأل عن الابن (بدر كريم) أجده في مكتبه في «عكاظ»، فاستجاب وكأنه لا يجيب، فإذا بي أضيف إلى ما شعرت به حين شافهته إذ أملي عليه أنه يتحرك بـ «القرف» كأنما الدنيا أطبقت بكل رزاياها تحرمه مزاياها.

شعرت بهذا القرف قد انغمس فيه «بدر كريم» كأنه وظيفة جديدة يعمل بها بينما هي تعمل فيه. قلت له: ما لك قد التحفت بالقرف، فأغثيت نفسك بشعور أسود، بينما أنت قد أسقطت كل المعوقات فأصبحت في مكان فيه الجزاء لمن سعى يطلب المعرفة بكد الجائعين ليشبعوا؟ دع عنك هذا القرف وابصقه على الأرض. وما كدت أسمع كلمة «الأرض» فإذا جرسها يقول لي: أما تستحي من أمك الأرض؟! واستحييت وخفت وشعرت بالعقوق. لماذا نبصق على الأرض؟!

الأرض الأم «منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى»، «جعلت لي الأرض مسجداً وتربتها طهوراً».

الأرض حياة الإنسان ومعيشته، فيها كل الجمال، فلو نظر إليها الإنسان نظرة الحب لوجد نفسه عاشقها أكثر من أن يعشق القمر!

أكثر من أن ينظر إلى الزهرة، وأكثر من أن يكون فلكياً يحسب البروج

ويحدد المطالع . فالأرض هي الجبل والنهر والبحر والشجر والعشب والنخل والإنسان والحيوان، أفأكون فيها وبها فلا أكون الوفي لها؟ أسأت الأدب حين قلت له ابصق على الأرض . كل شيء في حياتنا ومن هذه الغوالي بالذات يستخرج من الأرض . . الذهب والفضة والحديد والنفط والنار والكهرباء، وكل مصنع وكل صناعة هي من الأرض، عطاء الله للإنسان، خلقه منها وخلق له كل شيء يتمتع به في باطنها أو ظاهرها .

ولقد عرف المعري قيمة الأرض حينما قال :

سر إن اسطعت في الهواء رويدا      لا اختيالا على رفات العباد  
صاح هذي قبورنا تملأ الرحب      من قديم الزمان والآباد  
خفف الوطأ ما أظن أديم      الأرض إلا من هذه الأجساد

وجزعت من نفسي ولكن الأرض التي أعطت من نعم الله هي التي تأخذ .

فقد حملت الإنسان على ظهرها، وتحملت منه ما أوقر له ظهرها، فهي ليست عابسة وإن كانت يابسة، ستظل باسمه تفتت عن الخير . ومن عجيب أمرها أن الخير عطاؤها والشر عطاء الإنسان لها، ولكنها لا تجزع من ذلك فإن عمارها ما كان ولن يكون إلا بهذه المتناقضات .